المذكّرات الكاملة للّواء خالد نزار

خالد نزار

المذكّرات الكاملة للّواء خالد نزار

1 - مساري العسكري

بمساهمة: محمد معارفية

منشورات الشهاب

© **منشورات الشهاب**، 2018.

ردمك : 978-9947-39-261-4

الإيداع القانوني : السداسي الأول، 2018.

تقديم

كان لقائي الأول بخالد نزّار خلال المسيرة الدموية باتجاه الجزائر العاصمة غداة الاستقلال، لمّا واجه المجاهدون إخوانهم المجاهدين من الجهة الأخرى ليقتتلوا فيما بينهم. ولم أكن أعرف وقتها هذا « المخادع للموت » الّذي كان يتقدّم من دون سلاح على الطريق المعبَّد الّذي يربط عين الحجلة بسيدي عيسى ؛ وكان الرصاصُ يتضارب كثيفًا مدوّيًا تاركًا آثارَه على الأرض اللّزجة، وكان خالد نزّار يومها محاطا بالبركة. وكانت الشمس في كبد السماء ساطعة والطقس حارًا. كان يوما مشهودا نعود إلى ذكرياته بعد سنين طويلة في لقاءاتنا نغوص في تفاصيله، نصوّرها لحظة لحظة ؛ وكأني لا زلت أسمع صوتَ ذلك الضابط الّذي أُرسل لنقل جثة النقيب محمد صلاح بن عبّاس وهو يقول يومها ؛ « يجب توفير شاحنة تشتغل بالبنزين لأن عربة المازوت ستتزحلق على أرض الميالي »، وغضبِ جنود الولاية الأولى بعد موت المحارب القديم، ودويَّ الطلقات الكثيفة الّتي كانت تستهدفنا من المتبنة على القمة قبالتنا، وأتذكّر بن بلّة ومروحيته، حسان خطيب ويده المضمّدة، وكثيرا من التفاصيل الأخرى الّتي نُقشت بمادة الأدرينالين الّتي لا تمحى.

***

حينما أقضي الساعات – ولو كانت قصيرة مع الجنرال خالد نزّار – أشعر بالغوص بعيدا في تاريخ الجزائر الثوري. والحديث معه شيق يحيلك على أحداث كبرى كان فاعلا فيها وشاهدا عليها، كتابًا مفتوحًا مزدحمة صفحاتُه بالأسماء والأماكن، سردًا خاصًّا تميّزه التّكراراتُ والاستطراداتُ والومضاتُ والفراغاتُ والفواصلُ والتّوقّفاتُ المفاجئةُ في خضم ذكر يأتي فيه اسمُ رفيق غادر الحياةَ حديثا ؛ العياشي فلاّقـو، عبد النور، أحمد الأصنامي، ومجاهدين آخرين كثر..

وفي الوقت الّذي لا تتوقّع منه استطرادا طويلا، تراه يعود بك إلى ما ذكره بالأمس أو قبل أيام، لتتمة فقرة أو ملء بياض أو وضع كلّ شيء في مكانه مثلما يفعله ذلك الكومبيوتر الحريص على الإتقان الفني للأشكال والصور والألوان والأبعاد والأحجام. فالقراءة المتجددة بعد فترات معينة تزيد من اتساع النظرة حول الفكرة.

ذكرياتٌ وُجدت هكذا مبعثرة مشتتة، لا مراعاة لتنظيمها. ولا مبالاة لا بالتّركيب ولا بالتنسيق المحكم للكلمات، ولكن هذا الاختلال الظاهر ليس اختلالاً مفارقًا للتّناسب والتّناغم ؛ إذْ ينتهي المطاف بالأحداث وثقلها وديناميّاتها بالانطباع صورةً على اللوحة الّتي يرسمها بمنطق صارم.

باحثٌ يسير بعيدا عن النُّهُج المبتذلة واضعًا فانوسًا شديد الإنارة مُعمِ على الحُجب الكثيفة للزمن الّذي يمضي، ويتكلّم عن ذاكرة الماء ؛ والنهر مكوّن من ماء في حركة دائمة، ولكن يبقى نفسَه في آنيته وبما هو عليه ماكثٌ في الأعماق.. والأمواج والزّوابع والأعاصير، مما يوجد شبيه له في الوجود، تنحلُّ متلاشية في المياه المتلاطمة من دون أن تختفي كلّية، ولا شيء يتغيّر إلى الأبد لأن كلّ طارئ أو حادث عابر يترك بصمته ؛ والإنسان موجودٌ حيٌّ بذاكرته أولا. ومهما كان مكان الحافة الّتي نرى منها، فإنّ كلّ قطرة ماء تعدُّ مشكلاً لا متناه حيث تهتزّ وتتصادم فيه حصى رملِ الأيام المحبوسة بين مضايق قِمع الساعة الرّملية ؛ صورة تولّد صورا أخرى متضاعفة متكاثرة يتداخل بعضها في بعض إلى ما لا نهاية بين جنَبات المرايا المتوازية والصلبة الّتي تهتزّ وترجُّ في نفس الوقت.

يقف نزّار على الحافة الأخيرة مبصرا نهره الّذي مضى.. متأمّلاً النهر الّذي يمضي أمامه، ثم يتساءل ؛ « كيف يمكن تحديد أو تفسير هذا الشعور لما نكتشف أن الوجود هو كيانٌ خارجٌ عن الزّمن، وكلّ شيء إنّما هو ثابتٌ مستقرٌّ في جوهره ولا يتغيّر أبدا ؟ ».

أظهر الرجل منذ صغره حبّه للحياة العسكريّة حتّى أصبح جنديا. وحاول خلال عشريات أربع مثل العديد من ضبّاط الجيش الجزائري، الجمع بين صفتي الجندي المطلوبتين ؛ الخضوع والخدمة ؛ فبالنسبة للجنود الآخرين الّذين مرّوا عبر قالب الثورة، اتّخذتْ كلمة « خدمة » لديهم معنى ومضمونا آخرين مثلما برهنوا عليه لما زادت مخاطر انهيار الجمهوريّة. وكان البعض يراه رجلا مستفِزّا عنيدا، وطيبا لينا عند الكثير ممن عرفه، ومعروفا عنه بخرجاته الإعلامية المميزة.. وبين مختلف الآراء والأحكام كان للرجل سيرة مهنية عسكرية مثالية، إذْ اعتلى الرّتب والمراتبَ درجة درجة من دون « المساعدات » الّتي تدفع المخلص لتصدّر الفرقة. وكانت مآثره الكبرى تتمثل في إعادة هيكلة القوّات المسلّحة الجزائرية والمحافظة على الجمهوريّة الّتي كانت تهدّدها المخاطر من كلّ جانب. وهؤلاء الرّجال، وعلى وجه الخصوص خالد نزّار، لم تكن مهمّتهم سهلة.

وعلى قول البعض، فإنّ هذه الثّلة من الضبّاط الآتين من المدارس أو الثكنات الفرنسية، هم سببُ كلّ المصائب الّتي لحقت بالجزائر. ويخلط هؤلاء أحيانا لحاجة غير بريئة في أنفسهم، بين الأجير المرتشي الخائن لوطنه وبين الجندي المجنّدِ إلى الصفوف حكما بالأوامر أو المرشح لرتبة ضابط في مدرسة عسكرية كبيرة.

وقد أبعدت المحشَّة أو الحاصدة الكبرى العديدَ منهم خارج معارك حرب التّحرير الوطني. وتعْلمُنا الجرائد كلّ يوم عن وفاة هذا أو ذلك من بين الأسماء الكبيرة المعروفة بنضالها ؛ ولم يعد الباقون على قيد الحياة سوى مجموعة قليلة، وقد اشتعلت رؤوسهم شيبا، متألمين وناظرين بحرقة الحزن إلى الاضطراب العقيم من حولهم، مستسلمين لجحود التاريخ الّذي فرضه عليهم البلد الّذي خدموه طويلا.

وبعيدا عن كونها مجرد جمع وإعادة نقل لما سبق لنزّار أن كتبه، تحمل هذه المذكرات إضاءات وإيضاحات حول الرّجال والأحداث، وتكشف اللثام عن كثير من الحقائق.

حرصت في هذه المقدمة الّتي أتشرّف بتحريرها على الوقوف عند العديد من اللحظات المميزة لسنوات القرية، لأن البيئة والمحيط هما الحاضنتان الأوليان اللتان تصنعان ملامح الفرد النهائية، فلما يعرف المرءُ وهو صغير الحرمان ويذوق الآلام ويواجه المحن، فإنّ ذلك من شأنه أن يزيده جلدا وصلابة فيخرج من ذلك قويا ليواجه الحياة الّتي تنتظره. ولم يكن خالد نزّار لينأى عن الضربات والطعنات ؛ وحياءً منه، لا يذكر أبدا المأساة الرهيبة الشخصية الّتي بقيت راسخة في ذهنه وتركت أثرها على حياته وحياة أبنائه، وربما يأتي يوم ويُقْبَلُ فيه أنْ يفتح أحدُ كتّاب السيّر هذا الباب المغلق باحتشام. وعلى الرغم من المخدر الّذي تفرزه ثَقَلات الزمن لا زال الجرح لم يندمل بعد، جرحٌ يحركه من حين إلى آخر خنجرُ النميمة والفرية المسموم ؛ وليست هي المأساة الوحيدة الّتي عاشها هذا الرجل، كما أن هذه الأحداث الأليمة ليست هي موضوع هذا الكتاب.

***

ولأثري تصوّراتي وأجعلها أكثر واقعية عن الفيض الأول وعن « المشاهد والطّبائع » كما يقال في مقرّرات وكتب الأنتروبولوجيا الّتي تعرض الوجوهَ الأكثر تجعيدا لـ « قبيلة » أو « عشيرة » من أجل الاستعمال العلمي في المدرجات الجامعية، ذهبت رفقة خالد قبل عامين لزيارة الأماكن الّتي وُلد فيها وترعرع فيها : جبال بلزمة ومدينة سريانة. وسنوات الطفولة الّتي يبدأ بها نزّار سرده، لها نقاء وصفاء ونداوة المنبع، المنبعِ الأولِ الّذي اغترف منه كلُّ كائن حيّ ولن ينساه أبدا. ولنا شخصية نجدها بارزة على مستوى هذه السنوات الدافئة : إنّه رحّال، الأب المتواضع بمكانته الاجتماعية في الجزائر المستعمرة والكبير بشجاعته وأفعاله. كان يوما جميلا من بين تلك الأيام الّتي بقينا نتذكّرها طويلا. وبعد تجاوز المنخفض المتدرج صخورًا ضخمة ثم وصولا إلى القمم، تجد نفسك واقفا على خط يشرف على الأعماق السّديمية لجبال بلزمة[1] مهدِ نزّار.

بلغنا ارتفاع 1500 م والمظهر يرتسم قبالتنا رائعا خلابا تهيمن عليه صورة الصخور الضخمة المتراصّة نضدًا ؛ ويعطيك النبعُ الّذي يتفجّر ماء نضحًا من باطن الأرض، وظلالُ الجرف الممتدّة، والأدبِلةُ أو التربةُ النّدية ذات النباتات الخضر المختلفة، وخريرُ مياه الجداول المتدفّقة غدقًا.. يعطيك كلُّ هذا رغبة في الجلوس للاستسلام لهدهدة النسيم اللطيف والسماع إلى ذاكرة المكان.

وعلى خاصرة الرّبوة لا زالت البيوتُ ثمّة بجدرانها المهدّمة وبأسقفها المنهارة تشهد على آثار حرب التّحرير، هنا حيث كان يسكن أفراد عائلة نزّار. فقد زال كلّ شيء. وانتهى المطاف بالأب رحّال بمغادرة المكان واللجوء بعائلته إلى القرية الصغيرة بالأسفل.

1. يحدّ سلسلة بلزمة الجبلية من الشمال جبالُ الحضنة وبوطالب. وتضمّ جبالَ اوْلاد سلطان (شمال جبل ماك ماهون سابقا) وجبالَ اوْلاد شليح والشلعلع ومستاوة والرفاعة (سابقا مركز مراقبة للمنطقة 3 للولاية الأولى التاريخية). كلّ الدوّار والمداشر الّتي كانت محيطة بسريانة كانت مراكز ونقاط التقاء لأفراد جيش التّحرير الوطني »: الجراسعيدي، بوياخفاون، لحلايمية، عين عليّ، ڤـرڤـور، العين الحمراء، كتامي، بتيت، لمتَارس، لقلالات، جرما، تاڤـا، صْحاري...

عرفت رحّال من دون أن ألتقي به أبدا، وحياته المروية على لسان ابنه تشبه حياة والدي وحياةَ عشرات الآلاف من الجزائريين الّذين عاشوا فترة ما بين الحربين ؛ وكان يتقاسم نفس المصير مع والدي الّذي كان حمّالَ جرحى خلال الحرب العالمية الأولى، وكذا نفس النظرة للأشياء والحكم عليها : ظروف الحياة الصعبة في بداية القرن العشرين، التجنيد الإجباري، الرعب الّذي يصيب الأنفس لما تهشّم المدافع أجساد الرّجال، الرفاق الّذين ذهبت أجسامهم أشلاء بالقذائف الّتي لا ترحم، الجثث المعلّقة بين الأسلاك الشائكة، العودة إلى الدشرة أو القرية، السنوات العجاف، الأيام الطّويلة من أجل البحث عن وسائل الرزق، الأجرة العسكريّة الزهيدة والمعركة من أجل توفير أفضل الفرص لابن واحد على الأقل لمواجهة الحياة.. هذا الّذي كان في الحقيقة قدر الجزائريين الّذين ارتدَوْا مكرهين مجبرين زيَّ المستعمِر.

وفي هذا يروي لنا نزّار : « كانت ظروف الحياة صعبة في سنوات الأربعينيات، فالقيود الّتي خلقها النزاع الّذي أغرق العالم في الدّماء كان لها انعكاساتٌ خطيرة على الجزائر. وتعوّد الجزائريون الّذين اغتُصبت منهم أراضيهم وسُلبت منهم ممتلكاتهم عن طريق القوانين المجحفة الظالمة، على العيش بالتقتير راضين بالقليل، يحرثون الأرض ويزرعونها خضرا ويربّون قطعانا من الماعز أو الكباش، وأوفرهم حظا كان يملك بقرة أو بقرتين ؛ وكان عالم الفلاح الصّغيرُ مصنوعا من السّنابل والحَبّ المنثور والدّيون وأحيانا من الكوارث الطبيعية. وكانت محاولات أرباب العائلات لامتهان شكْلٍ من أشكال التجارة سرعان ما تبوء بالخسران، فبأي ثمن يلزم الراغب في أن يكون تاجرا شراءُ بضاعته ولمن يمكنه بيعها ؟ فكان من الصعب الحصول على المال، والبيع بالدين أو بالآجال كان يأتي على البضائع المعروضة فيستهلكها على قلتها تلك. ووالدي الّذي امتهن مهنة الجزارة أدرك سريعا أنه قد وضع ماله الّذي ادّخره فيما لا يمكن الربح فيه، فأغلق محلّه وعاد إلى نشاطه الأول الّذي كان يمارسه قبل أن يلتحق بالجيش : تربية الأغنام ؛ وبين رعي الكباش والاعتناء ببستان الخُضار وفناءيْ الدواجن والأرانب، كانت الأيام تمضي سريعا، ولم يكن مع ذلك ليشتكي حاله أبدا، بل وحتّى لما أتى مرض السُّواد على مزرعته فأفسدها وأهلكها في بضعة أسابيع لم يسخط ولم يشتكِ. وتحسّنت الأوضاع قليلا سنة 1943 بالمدن الكبرى، عند نزول الأمريكيين ببلادنا، فأصبح الناس يُعطَوْن قسيمات للتزوّد بالمواد الغذائية الضرورية. أما في القرى والأرياف فالوضع كان مزريا، وزادت الفاقة تعاظما لما غزت جحافلُ الجراد المحاصيلَ تعيث فيها فسادا، وقامت وقتها السلطات تحارب هذه الآفة باستعمال مبيد للحشرات ممزوج بالخُراشة، مما قضى على الجراد ولكن كانت مواشي الفلاحين تموت معها أيضا.

لا زلنا دائما بلمْتارس حيث يشرف خطُّ القمم بعد تجاوز المنخفض المتدرج صخورًا ضخمة، على الأعماق السّديمية لجبال بلزمة، وكان لكلّ واحد منا حكاية يحكيها. وراح الرجل الّذي كان يتكلم يتبع بسبّابته مستوى الأفق قائلا : « دمّ السماء » ؛ هل اللون الأرجواني الّذي كان يزيّن

القمم عند الغسق هو ما أوحى له بهذه الصورة ؟ أو « جذور السماء » لأن السماء عندما تُرى من الأسفل تبدو وكأنها مرتكزة على صُلب الجبل ؟ أطلسٌ من الفخار والصلصال يحمل السماوات بمنطقة لمتَارس !

وتعطينا الحكايات عن سكان جبال بلزمة وعن كفاحهم ضد الغزو الفرنسي فكرة عن المعاناة الّتي عاشها الّذين سبقونا. فمن هنا بدأت ثورة 1916 ضد التجنيد الإجباري في صفوف الجيش الفرنسي. « كان الجزائريون في القديم يحدّدون ويسجّلون الوقت الّذي كان يمرّ بمعالم مرتبطة بأحداث تراجيدية عاشها الناس : عام الشرّ أو عام المجاعة.. عام التيفوس.. عام الجراد.. عام السنغاليين.. مأساة لا يمكن أبدا محوها من الذاكرة الجماعية ؛ وكان العام الّذي ذهب فيه والدي إلى الجبهة كان عام السّنغاليين.. ».

يخصص خالد نزّار العديد من الأسطر لمقاومة سكان جبال بلزْمة الّذين أفشلوا بشجاعتهم وبسالتهم كلَّ محاولات فرسان الصّبايحية أو السّبايسيّة والجنود المأجورين الآخرين الّذين كانوا يريدون إخضاعهم لسيطرة الغازين. « أراد سكان الجبال صناعة مدفع لمواجهة القمع، فقاموا بإفراغ جذع لشجر البلوط من محتواه وحشوه بالبارود. لكن مدفع الكرّوش هذا تبيّن ضعيفا وباءت المحاولة بالفشل أمام الأسلحة المتطوّرة الّتي كان يمتلكها العدو ». خمسون سنة كانت تفرق بين مدفع الكرّوش والمدافع الأخرى من نوع 75 الّتي لا ترجع إلى الوراء عند القذف أو نوع 122 مم المعروفة بـ CLZ1 الّتي كان يقودها سليل المدفعيين الشجعان لبلزمة.

« كانت والدتي مثل كلّ أمّهات الجزائر في هذه الفترة تسيّر بالتقتير الموارد الغذائية الهزيلة للعائلة الّتي كانت تضمّ أربعة عشر فردا يجب إطعامهم. لكن الجهد والحرمان تمكّنا من التغلب على صحتها وتوفّيت سنة 1944 تاركة وراءها العائلة في اضطراب. فخلفها أقاربي من والدي في تسيير شؤون البيت، وكان عمري وقتها سبع سنوات. وكان الجبليّون يتألمون ويحزنون على حياء، إذْ كانوا يعزّون أنفسهم غير ساخطين على مصائب الدنيا الّتي يعزونها للقدر و'المكتوب' ». وكان للشعور بالظلم في الجزائر المستعمرة والذكريات للمجازر الرهيبة المروية من قبل القدامى، أنها تركت آثارا بليغة في مئات الآلاف من الجزائريين في تلك السنوات الحالكات.

***

تغيّرت المنطقة القديمة الّتي لجأت إليها عائلة نزّار بعد الرحيل عن الأرض الحجرية، حتّى ولو بقيت تحافظ على بعض المنازل ذات البناية الكولونيالية القابلة للإسكان مجددا من قبل أبناء المنطقة. كما بقيت « المدرسة الصغيرة على الربوة » الّتي يتكلّم عنها نزّار دائما محافظة على كيانها هنا بهذا المكان بواجهتها الصغيرة الحزينة. ويذكر لنا نزّار المعاملة العنصرية الّتي كان يلقاها الفرد الأنديجان في الوسط الكولونيالي.

« كان في عمري ثماني سنوات لما دخلت المدرسة الفرنسية، وكانت مدرسة أطفال الأهالي تقع بأعالي القرية ويطلق عليها بالمدرسة 'الفوقانيّة'. وكنا نحن أطفال الأهالي نتميّز برؤوسنا المحلقة صلعاءَ تجنبا لعدوى القمل. وحتّى يعبّروا عن تقديرهم التافه لنا، أدرج الفرنسيون في البرنامج المدرسي كتابا للقراءة يلخصُ في عديد من الدروس سعادة وشقاء الشاب عبد الله. أما الاسم فلم يتم اختياره هكذا على الصدفة، فكلمة 'عَبْدٌ' مأخوذة من العبودية والانقياد والذلّ ؛ و'الله' هو الربّ والإله المعبود. وعَبْدُ اللهِ هو إذًا مخلوقُ الله الصابرُ الخاضعُ المنقادُ المستسلمُ للمشيئة الإلهية راضيا بقضاء الله وقدره فيما يجري في هذا العالم وبالوضع الّذي هو عليه، عالمٍ يخضع فيه الضعيفُ لقانون القوي لأنها مشيئة الله.. ». كما يتكلم نزّار أيضا عن هؤلاء روّادٍ مدرسة الجمهوريّة الرائعين المتفانين في مهمّتهم بوجوه مؤثرة لما يتلقّونه من ظلم قانون الأهالي، والفقر والبؤس وكلّ أنواع الإهانة.. ولا أي فعل مهما كان كريما أمكنه من تغيير من طبيعة الأمور شيئا. والمعلم « بيروشو » الّذي كان ينبش ويقتلع الجذور من أصولها في أيام الجليد، إنّما كان يتهجم على الطبيعة الجبلية.

ولا يقدر رجلُ الحرب ممرّرُ عابريّ الخطوط المكهربة والمنحدرات الملغمة على كبح مشاعره الفياضة لما يتكلم عن والده الّذي قبل بأن يلتحق ابنُه بدوره بالحياة العسكريّة، في صفوف الجيش الفرنسي لسوء الحظ ! خالدٌ بنُ الفقير الّذي لا يملك حتّى حقيبة صغيرة يضع فيها أغراضه سيلتحق بالمدرسة الجُندية للأطفال بالقليعة.

سيصبح مربع الأحجار أين بدأ خالدٌ الطفلُ تعلّم المشي بالخطوات المحسوبة بحذائه العسكري الغليظ وبقلب يتفطر حنينا إلى القرية واشتياقا إلى أهله، مبعثا للوعي والحزم. « كان أول خروج لي في مخيم صيفي سنة 1951 إلى فرنسا، وكانت هذه الزيارة بالنسبة لي مناسبة لأدرك أنه لم يكن للقليعة غاية أخرى سوى إعطاء تكوين محدود يناسب الجنود المأمورين الثانويين المستقبليين. وكلّ شيء تم تدبيره بالقليعة حتّى لا نتجاوز أبدا رتبة صف ضابط، وكانت إدارة المدرسة تعتمد كلّ الحيل والخدع لتعطيل مسارنا التكويني، بحيث تلزمنا على إعادة السّنة لسبب أو لآخر. لكن المدارس الجُندية بفرنسا كانت تضمن تكوينا يحضّر طلابها للدخول إلى المدارس العسكريّة الكبرى ».

« ومع الوقت وازدياد نضجنا وتقدّمنا في سن الشباب، زاد وعينا بحالتنا كمستعمَرين. وقد صادف عامي الأول بالمدرسة اندلاع ثورة التّحرير الوطني، وكنا أغلبيتنا نتكلم عن هذا الحدث العظيم : « أخيرا ! لقد حان الوقت لينهض الجزائريون ويثوروا من أجل حرّيتهم ! فلم يكن وضعنا المهين إذًا غير قابل للتغيير، فقد بتنا اليوم معنيين بالقضية. ومثلما حدث في ثانويات وإكماليات الجزائر الأخرى، لبّى العديد من الطلبة والتلاميذ نداء الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين (UGEMA) تاركين مقاعد الدّراسة والتحقوا بصفوف جيش التّحرير الوطني. والتقيت لاحقا بالجبال معاقل الثورة ببعض الرفقاء القدامى ».

يشرح نزّار بوضوح لماذا فتح روبير لاكوست Robert Lacoste باب الرّتب ولو نصفَه للشباب الجزائريين : « لبست الزيّ العسكري بمدرسة ستراسبورغ وأنا في عمري سبع عشرة سنة ونصف – في حين أن القانون الّذي كان ساريا وقتها لم يكن يسمح إلا ببلوغ الشاب سنّ الثّامنة عشر كاملة – ؛ فقد استفدت إذًا مثل رفاقي من « ترقية لاكوست ». فبهذا « السّخاء » كان هذا الأخير يعترف أن الجزائريين بكلّ طبقاتهم وفئاتهم الاجتماعية والمهنية سواء أكانوا في الجيش الفرنسي أو في الإدارة، كانوا ضحية للتمييز والتفرقة وأن ترقياتهم الّتي كانوا يستحقّونها تم تعطيلها رغم حسن أدائهم للخدمة. وكان روبير لاكوست يظنّ أن « كرمه » هذا بإمكانه أن ينزف المشاعرَ ويعزّي النفوسَ ويداوي الجراحَ ؛ وكان يبدو أنه لم يفهم شيئا، فالجزائريون لم يعودوا ليكافحوا من أجل المساواة في الفرص وإنّما من أجل حرّيتهم. فقد كانت جرائم ماي 1945 في الشمال القسنطيني الّتي ارتكبتها الميليشيات المجرمة بتدعيم من الإدارة المحلية المتمرّدة على القوانين بحجّة استباق ودحض الخطر الوطني، بمثابة الهزيمة لشعارات ثورة 1789 الّتي كلّفت أصحابها الكثير من التضحيات من أجل إعلائها. وأدت عمليات القتل الجماعية هذه المعترف بها من قبل فاعلها إلى قطع الرباط الّذي نسجته بصبر طويل بين الشّعبين المدرسةُ الفرنسية الجمهوريّة ذات النزعة الإنسانيّة الّتي أنست أصحاب الأرض الأصليين « الّذين تم تطويرُهم » بفعل اجترار المبادئ النبيلة الكبرى مرارا، جرائمَ الغزو وما تلاه من تخريب وتدمير وإهانة. وكشفت المقابر الجماعية بـقـالمة وسطيف – رمسُ أوهام هذه المدرسة – لجيل بأكمله من الجزائريين عن المعنى الّذي كان يعطيه منظّرو الاستعمار وأتباعُهم لـ« الحرية » و« المساواة ». فمن اليوم فصاعدا لن يطلب الجزائريون المضطهدون ثانية الاندماج ولكن يريدون الاستقلال، فقد بدأ أول نوفمبر 1954 يوم 08 ماي 1945. إنّ روبير لاكوسْت لم يفهم شيئا ».

والتحق العديد من أقارب نزّار من بني عمّ أو خال بصفوف جيش التّحرير الوطني. وكانت رغبة خالد الوحيدة اتّباع درب هؤلاء، ولما جاءت الفرصة خطى خطوته نحو الأمام وتم إرساله إلى تونس. ثم عُيّن مكوّنا ومدرّبا بمنطقة الكَاف غير البعيدة عن الحدود الجزائرية. وقد كان كريم بلقاسم قد أنشأ « المكتب التقني » أين جمع فيه نخبة الكفاءات العسكريّة الجزائرية : الضبّاط الفارين من الجيش الفرنسي أو المتخرّجين حديثا من مدارس الحرب بالمشرق الأوسط ؛ وضاعف من تأسيس مراكز التكوين العسكري. وكان لخالد نزّار أن وجد مكانته مباشرة في هذا التنظيم، حيث سيقدم كلّ ما كان يملكه من كفاءة ومثابرة وانضباط في انتظار تعيينه في إحدى الوحدات العملياتيّة.

قبل وصول هؤلاء الشباب، سبق لجيش التّحرير الوطني وأن تدعّمت صفوفُه بعساكر احترافيين مضرّسين تدرّبوا في جبهات القتال بفرنسا أو بالشرق الأقصى، مثل عبد الرحمن بن سالم الّذي أصبح قائد الفيلق الثّاني بالقاعدة الشرقية ثم مسؤولا عن المنطقة الشمالية بالحدود الشرقية

للجزائر بين سنتيْ 1961 و1962، ثم في الأخير عضوا في مجلس الثورة من 19 جوان 1965 إلى 14 ديسمبر 1967 ؛ ومحمد عواشرية الّذي عوّض العقيد « بوڤلاز » لما غادر هذا الأخير نهاية سنة 1957 منصبه كقيادة عمليات التدريب والتكوين لدى قيادة العمليات العسكريّة (COM) ؛ وعبد الله بلهوشات برتبة رقيب أول ذي التكوين العسكري المحترف، الّذي فرّ من إحدى فرق القمع التابعة للجيش الفرنسي ثم التحق بصفوف المجاهدين حيث أظهر شجاعة كبيرة في القتال خاصة أثناء كمين بمنطقة ڤونود Gounod غير البعيدة عن ڤالمة تحت قيادة طيب عرفَة المفوّض من قبل عباس لغْرور لبعث الثورة من جديد في جهة الشمال الشرقي بعد استشهاد باجي مختار في 11 جانفي 1955. هذا، وتقلّد بلهوشات مناصب أخرى عليا في جيش التّحرير الوطني ؛ كما يمكننا ذكر محفوظ شريف الّذي فرضته لجنة التنسيق والتنفيذ (CCE) مسؤولا على رأس الولاية الأولى كواسطة للانتقال إلى منصب وزير للتسليح بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

وإذا عدنا بالتاريخ بعيدا، نجد من بين الّذين لبسوا الزيَّ العسكري للجيش الفرنسي في فترة أو في أخرى : كريم بلقاسم، مصطفى بن بو العيد، محمد بوضياف، عمر أوعمران ؛ وكان هؤلاء الرّجال ينتمون إلى جماعة المناضلين الاستقلاليين مفجّري ثورة أول نوفمبر 1954 !

***

وهذا ما كتبه الأستاذ سليمان الشيخ في مقدّمته الّتي حرّرها لكتاب خالد نزّار الّذي خصّه لمشاركته في حرب التّحرير ؛ وإنّي ذكرت هنا أهمّ ما جاء في نصه الّذي لخصّ جيدا ما قام به المجاهدون الّذين التحق خالد نزّار بصفوفهم بعد مغامرات عديدة. ويعدّ هذا المؤلَّف الّذي جاء في شكلّ شهادات ومرافعة في نفس الوقت، الكتابَ الثّاني لخالد نزّار[2]، ويكتسي أهمية كبيرة بالنظر إلى العدد الكبير من الكتابات الّتي تناولت الكفاح المسلح من أجل الاستقلال حيث نجد الجزء المخصص للمعارك محدودا نسبيا على الأقل من الجانب الجزائري.

ويعدّ التوضيح الّذي يقدمه هذا الكتاب حول العمل العسكري لجيش التّحرير الوطني بالحدود الشرقية للبلد، مساهمة جد مفيدة لإعادة تركيب جانب هامّ من هذه الحرب الّتي لم تعترف بها فرنسا رسميا إلا في سنة 1999[3]. فمثل هذا الاعتراف الّذي يأتي بعد أكثر من أربعين سنة من اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954، لا يقوم إلا بالتأكيد متأخرا على حقيقة فرضت نفسها على الميدان عبر نزاع أجبر فرنسا على تجنيد قوّاتها العسكريّة بأسلحتها الفتاكة ومواردها البشرية

2. جاء كتابه الأول « *Mémoires du général Khaled Nezzar* » [مذكرات خالد نزّار] الّذي صدر في 1999 ثم 2000 بدار الشهاب بالجزائر، في نفس الوقت في شكل تاريخ حياة وتأريخ لاضطرابات شهدتها الجزائر سنوات التسعينيات.

3. صادق مجلس الشيوخ الفرنسي أثناء جلسته المنعقدة بتاريخ 10 جوان 1999 على استبدال عبارة « العمليات العسكريّة المنظمة بشمال إفريقيا » بعبارة « حرب الجزائر » وبـ « المعارك بتونس والمغرب »، للتمييز والتفريق بين حالة الجزائر وحالة البلدين الآخرين للمغرب الكبير. وقد خصّت التعديلات المادتين 1 و5 من قانون المعاشات العسكريّة الخاص بمعطوبي وضحايا الحرب.

والمادية الضخمة. لنذكّر بإيجاز أن هذه الحرب الّتي تندرج ضمن الكفاح من أجل التحرر الوطني، كانت نتيجة لمسار طويل من النضج بداية من المقاومة الوطنية المسلّحة ضد الغزو الكولونيالي خلال القرن التّاسع عشر، ثم تلاها بعد الحرب العالمية الثّانية العملُ السياسي للأحزاب الممثلة للحركة الوطنية الجزائرية. هكذا جاء الكفاح من أجل الاستقلال الوطني بصفته ثمرة لهذا « التراكم التاريخي »، خلاصةً للمراحل السابقة بالجمع بين العمل المسلح والعمل السياسي المنظم، مما أدّى إلى تحقيق النجاح في تجنيد كلّ الشّعب الجزائري لمعركة تحرّرية تتّسع إلى كامل التراب الوطني وخارج حدوده.

وأخذا بالاعتبار لهذه المقاربة الشاملة، يدعو المؤلِّف إلى تجاوز الانشقاقات الّتي تسبب فيها الانقسام الّذي كان قائما بين جيش التّحرير بالداخل وجيش التّحرير بالحدود ؛ ويبيّن عبر سردِ مختلفِ العمليات المنظمة بالحدود الشرقية للبلد ضد الجيش الفرنسي، مشاركةَ كلّ هؤلاء المقاتلين في العديد من المعارك الضارية، الّذين كانوا يتقاسمون كإخوة ورفاق سلاح نفسَ العزيمة في معركة غير متساوية ونفسَ مخاطر الموت.

وأدّت مثل هذه التجربة بكلّ تأكيد إلى نسج روابط متينة زالت وانمحت بفضلها كلُّ الفوارق والاختلافات مثلما تؤكّده صورُ : خبز الكسْرة الّذي يتقاسمه المجاهدون فيما بينهم بالعدل، العلبة المعدنية المحاطة بسلك من حديد والمستخدمة إبريقا للقهوة، السيجارات المصنوعة ارتجالا بأوراق النباتات المجفّفة والملفوفة في ورق مأخوذ من الجرائد، الأقدام المدمية بسبب السير المتواصل لعدة أيام، السير ليلا في أرض سبخة غزاها البعوض، حمل رفيق جريح، الخوف الّذي نتغلب عليه، الصمت الّذي نستبره.. كلّ هذه العناصر كانت تشكل القدر الّذي كان يتقاسمه المجاهدون طرفَـيِ الحدود.

وتحمل أيضا شهادة الجنرال نزّار بإعادة رسم مساره الشخصي منذ فراره من الجيش الفرنسي في أفريل 1958 إلى تعييناته المتتالية في وحدات جيش التّحرير الوطني بالحدود الشرقية، جوانبَ أخرى مختلفة لمغامرة جماعية معاشة توحي ببعض الملاحظات.

وتخصُّ الملاحظة الأولى الدور الاستراتيجي الّذي لعبه جيش الحدود في الكفاح من أجل التّحرير الوطني ؛ ذلك أن الصورة المنقّصة من قيمة جيش قليل الانخراط أو الاندفاع في هذا الكفاح، لم تجد ثباتا لها إزاء امتحان الوقائع المروية في مسرد المعارك هذا. وبلا شك أن ظروف الكفاح كانت صعبة في الجبال والمدن بالداخل، ولكن العمليات الّتي كانت تُنظَّم على الحدود ضد الجيش الفرنسي، عرّضت المجاهدين هي الأخرى لنفس المخاطر، هؤلاء المجاهدين الّذين أبدوا نفس العزيمة وأبلوا البلاءَ الحسنَ نفسه في المعارك ونفسَ معنى التضحية. هذا وإلى غاية غلق الحدود مع إنشاء خطّيْ شال وموريس، تم استخدامُ المناطق الحدودية من جهتَـيِ الشرق والغرب كفضاءات تراجع وانسحاب للولايات المجاورة، حيث أنشأت كلُّ واحدة قاعدتها اللّوجيستية، ووحداتُ جيش التّحرير الوطني

الّتي كانت تتواجد هناك كانت تنشط تحت أوامر هذه الولايات نفسها ؛ ولم يتجسد التنسيق بين هذه الوحدات إلا بعد إنشاء القيادتين الاثنتين للعمليات العسكريّة (COM) بالحدود الشرقية[4] والحدود الغربيّة[5] عقبَ الدورة الثّانية للمجلس الوطني للثورة الجزائرية المنعقد بالقاهرة (20-28 أوت 1957). غير أن المهمّة كانت أكثر صعوبة بالنسبة لقيادة العمليات العسكريّة بالشرق الّتي كان عليه مواجهة العديد من الحالات غير الانْضباطية، ففي هذا الظرف من الأزمة[6] تحديدا قرّرت الدورة الثّالثة لمجلس الثورة للجمهورية الجزائرية المنعقدة بطرابلس (16 ديسمبر 1959–18 جانفي 1960) من بين قرارات[7] أخرى هامة اتّخذتها، استبدال قيادتَيِ العمليات العسكريّة بقيادة أركان عامة تضمن وحدة قيادة كلّ وحدات جيش التّحرير الوطني.

ومع إنشاء قيادة الأركان العامة برئاسة العقيد هواري بومدين[8]، تشهد عملية إعادة هيكلة جيش الحدود مرحلة جديدة وعلى وجه الخصوص بالحدود الشرقية الّتي كانت مقسّمة إلى منطقتين : المنطقة الشمالية بقيادة عبد الرحمن بن سالم، والمنطقة الجنوبية بقيادة صالح سوفي. وحينها شرع العمل المنهجي لتنظيم جيش منضبط ومدرّب تؤطّره إطارات كفأة ومزوّد بوسائل معتبرة : ليتجاوز تعداده المتصاعد خمسة عشر ألف جندي في 1960 ثم يتضاعف بعد سنتين على مستوى جهتيْ الحدود (10.000 بالغرب وأكثر من 20.000 بالشرق). وكانت إحدى خاصيات هذا الجيش الأساسيّة جمع الجزائريين الآتين من كلّ مناطق البلاد ومن مختلف أنحاء العالم وعلى وجه الخصوص من البلدان المجاورة ومن أوروبا. فكانت هكذا المناطق الحدودية أقطابا قوية لجذب المناضلين الّذين يريدون الانخراط في صفوف جيش التّحرير الوطني وفضاءً واسعا لالتقاء وتجمّع مختلف مكوّنات المجتمع الجزائري.

وبتحقيق تصاعده القوي، وصل جيش الحدود إلى مستوى عال ونوعيّ من التنظيم بقيادة العقيد هواري بومدين الّذي سخّر لخدمته كلّ الكفاءات العسكريّة المتوفرة، سواء من بين الضبّاط المكوّنين في بعض البلدان العربية (مصر، العراق، الأردن، سوريا)، أو من بين الضبّاط الفارّين من الجيش الفرنسي. أما هؤلاء الآخرون فقد نقلوا معارفهم العسكريّة لفائدة جيش التّحرير الوطني، كلّ ما تعلّموه من طرق التنظيم وتقنيات الحرب عند العدو. وهكذا أدّت « الجدلية الكولونيالية » المتواصلة فواعلُها إلى إحداث قلبِ الوضعية والدّعوة إلى استعمال اللغة الفرنسية كـ « غنيمة حرب » لكسب الطرق الكفيلة لمواجهة الاستعمار والتعبير عن المشروع الوطني.

---

4. تحت قيادة العقيد ناصر (محمدي السعيد).

5. تحت قيادة هواري بومدين.

6. الّتي ظهرت استقالة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية الممثلة في رئيسها فرحات عباس يوم 10 جويلية 1959.

7. منها على وجه الخصوص المصادقة على النّصين المؤسسيين المتعلقين بـ « المؤسّسات المؤقتة » و« القوانين الأساسيّة لجبهة التّحرير الوطني »، وكذا إنشاء « لجنة الحرب ما بين الوزارات » تتكوّن من الوزراء الثلاثة في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية : كريم بلقاسم وعبد الحفيظ بوصوف ولخضر بن طوبال.

8. بمساعدة الرّواد سليمان (قايد أحمد) وعلي منْجلي وعز الدين (رابح زراري).

وكان التنظيم والتكوين المحركيْن الأساسيين اللذين سمحا لوحدات جيش الحدود بتحقيق الانسجام ورفع من مستوى القدرات القتالية. وكان مركز ملاّق بالحدود التونسية بقيادة عبد الحميد بن عبد المومن، من بين أهم مراكز التكوين العسكري والتدريب على استعمال مختلف الأسلحة وبخاصة الأسلحة الثقيلة الّتي ستزوَّد بها الفيالقُ والكتائبُ ذات التعداد الكبير ؛ وقد وصل عدد هذه الأخيرة في ظرف عامين وعشيةَ وقف إطلاق النار إلى سبعة، مما يعني أنه تم بذل مجهود كبير من أجل الوصول إلى هذه النتيجة وفي وقت قصير. كما استقبل مركز ملاّق مناضلين أنغوليين استفادوا من تكوين عسكري وتدريب في تقنيات حرب العصابات. وغير بعيد من هنا، بـقـرْن حلْفايَة على وجه التحديد، ساعدت مدرسة تكوين المحافظين السياسيين على الرفع من الوعي السياسي لجيش التّحرير الوطني بوضع معركة التحرّر في مسار التاريخ الوطني منه والعالمي، وإعطاء الكفاح المسلح بعدا سياسيا يتّخذ العنف وسيلة لتحقيق أهداف المشروع الوطني وتمسكا بالمبادئ الإنسانيّة.

وسمحت كلّ هذه التطورات المحققة على مستوى التنظيم والتكوين والتجهيز لوحدات جيش الحدود بالقيام بالعديد من التدخلات على الميدان، بدءاً من الدعم وتخطّي الحواجز المكهربة إلى شنّ هجومات واسعة ضد العدو على مستوى الجبهات وأخرى على مستوى مراكزه الحدودية.

وقد ساهمت هذه العمليات في إبقاء جزء كبير من قوّات الجيش الفرنسي ثابتة على طول الحدود، وهي القوّات الّتي كانت تتكوّن من وحدات النخبة المتمرّسة والمتدربة على القتال في حروب العصابات ؛ وذلك ما جعل « حرب الحدود » تشكل تدريجيا ميدانا للمواجهة الكبرى، بعد عمليات مخطط شال على كامل التراب الوطني.

وكان تخطّي الحاجز المكهرب من بين أهم الأهداف الاستراتيجية لجيش الحدود الّذي كانت مهمته تتمثّل في إيصال الأسلحة والذخيرة إلى الولايات المتضررة من ضربات العدو. وقد دعت الدورة الثّالثة لمجلس الثورة للجمهورية الجزائرية إلى هذه المهمّة بإلحاح بتسجيل دخول جنود وضبّاط جيش التّحرير الوطني إلى داخل البلد للالتحاق بولاياتهم الأصلية في أولوياتها. وفي هذا يؤكّد خالد نزّار على صعوبة المهمّة الكبيرة وعلى التضحيات الجسام المقدمة من أجل تحقيق ذلك، وكانت الخسائرُ في الأرواح تُقدّر في المعدل بثلثيْ تعداد الجنود المعنيين بعملية العبور. ويعطينا الوصفُ المفصّل لتجاوز الحدود عبر خط موريس الّذي قام به الكومندو حيدوش بتاريخ 24 جوان 1959 والنتيجةُ المأساوية الّتي شهدها هذا الأخير، حجمَ صعوبة المهمّة الّتي كانت شبيهة بالمستحيلة. ولم يمنح هذا إلا مزيدا من الاستحقاق لبعض المحاولات الناجحة، على غرار تلك الّتي قام بها (تطبيقا لقرار مجلس الثورة) العقيد طاهر الزّبيري والرّائد أحمد بن شري ؛ كما نجح العقيد لطفي هو بدوره في عبور الحدود، لكنه استشهد ثمة بعد اشتباك مع الجيش الفرنسي ببشّار.

كما نجحت بعد ذلك محاولاتٌ أخرى في عبور الحاجز بفضل معرفة دقيقة وشاملة للميدان وتحكّم كبير في تقنيات عزل الخطوط المكهربة ورصد مواقع الألغام والتنسيق الجيد بين أفراد

الوحدات القتالية في عمليات تظليل العدو. وكانت مناوشة المراكز العسكريّة الفرنسية من طرف المجاهدين على طول خطّ الحدود تشكل النوع الثّاني من العمليات الّتي كان يقوم بها جيش التّحرير الوطني للضغط أكثر على الجيش الفرنسي بمضاعفة الهجومات ضد الحصون والآلات المصفّحة. وقد سمح استعمالُ الأسلحة ذات المدى البعيد مثل سلاح الهاون من نوع 106 مم و82 مم وأسلحة بأستون 75 مم و57 مم، والتحكمُ في سلاح المدفعيّة الّذي يسمح بالرّمي غير المباشر أو بتجاوز الحواجز، وحتّى استعمال أسلحة من نوع 85 مم و122 مم وقاذفات لهبٍ عند نهاية الحرب تقريبا، سمح كلّ ذلك بزيادة قوة جيش التّحرير الوطني وقدرته الهجومية ؛ لكن ذلك جعل ردة فعل العدو قوية وعنيفة جدا بتكثيفه الضربات بالمدفعيّة ضد مواقع جيش التّحرير مجبرا أفراده الجاهدين على تغيير نقاط تمركزهم باستمرار وحفر ملاذّ عميقة تحت الأرض للنجاة من وابل القذائف المرماة عليهم. إنّ « حرب الحدود » قد استحقت تسميتها هذه بجدارة وبالنظر إلى مختلف جوانبها وأهمية الخسائر المسجّلة في المعسكرين.

يعطي السّردُ المفصلُ لعديد الهجومات المسلّحة ضد المراكز العسكريّة الفرنسية نظرةً عن الوتيرة الّتي كان يسير عليها تنظيم العمليات على طول خط الحدود الشرقية، مع تصعيد في الدرجة عشيةَ وقف إطلاق النار ؛ وقد تم إطلاق عملية هجومية واسعة بالمنطقة الحدودية من 6 إلى 13 مارس 1962 بهدف احتلال المواقع الحساسة على الميدان بالنظر إلى قروب الاستقلال، وتسجيل جيش التّحرير الوطني حضوره العسكري والسياسي في سياق آخر مرحلة من مراحل المفاوضات بين الحكومة الفرنسية وجبهة التّحرير الوطني الّتي كانت وقتها جارية بإيفيان. وانتهى هذا الهجوم الدّالُ على صلابة موقف القيادة العامة لأركان الجيش إزاء هذه المفاوضات، إلى نتيجة مواجهة موقف المفاوضين الجزائريين.

أما النزاع بين قيادة الأركان العامة والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية الّذي كان يرتسم حينها في الأفق، فلم يتطرق إليه المؤلف هنا إلا بإيجاز، فقط للإشارة إلى حقيقة مرّة وهي أن : حرب التّحرير الوطني أحاطها نزاعان اثنان داخليان ؛ أما النزاع الأول الّذي ظهر داخل حركة انتصار الحريات الديمقراطية في 1953-1954، فقد تمّ تجاوزُه بشكل إيجابي مع اندلاع الثورة المسلّحة لأول نوفمبر 54 ؛ والثّاني الّذي برز عند الاستقلال، فقد ترك آثاره السلبية لتدوم طويلا. لكن المؤلّف لا يريد التمسّك هنا إلا بما هو أهم في كلامه عن الجانب العسكري للعمليات الّتي قام بها جيش التّحرير الوطني والّتي شارك في معظمها ؛ تلك العمليات الّتي، وبحكم اتساعها والوسائل البشرية والمادية الّتي تم توظيفها، تجاوزت أحيانا إطارَ حروب العصابات لتنتهج طرقَ الحروب التقليدية الّتي تقوم على المواجهة والصدام.

ومعركة سوق أهْراس الّتي لم يشارك فيها المؤلّف، جاء ذكرها في كتاب هذا الأخير كمثال انطلاقا من شهادات[9] ضبّاط المعسكريْن اللذين خاضا هذه المعركة غير المتساوية أين كانت

9. جاء ذكر هذه المعركة في أحد فصول كتاب إبراهيم العسكري بعنوان : « لمحة من مسيرة الثورة التّحريرية الجزائرية ودور القيادة الشرقية »، دار البعث، قسنطينة، 1922، ص. 184 - 186.

موازين القوى تعادل 1 ضد 12 أي في صالح الجيش الفرنسي بطبيعة الحال. وانتهت المعارك الّتي دارت بمحيط سوق أهراس بتاريخ 28 أفريل إلى 3 ماي 1958 إلى تسجيل خسائر ثقيلة في الأرواح من الجانبين، إلى درجة أن أحد الضبّاط الفرنسيين الّذي شارك فيها قارنها بمعركة فيردون الّتي وقعت سنة 1916 إبان الحرب العالمية الأولى ضد الألمان.

وكان هذا النوع من العمليات المكلّف للأرواح البشرية يندرج ضمن الهدف الّذي سطّره مؤتمر الصومام والمتمثل في « الثورة الشاملة »، وتكوين الفيالق ذات القدرة على مواجهة القوّات العسكريّة الفرنسية ندّا للندّ ؛ وما الهجوم الكبير الّذي شنّته وحداتُ جيش التّحرير الوطني الّتي بلغ تعدادها ما يعادل ثلاثة فيالق ضد المركز العسكري لعين زانة بتاريخ 14 جويلية 1959، إلا دليل على ذلك. وهو الهجوم الّذي نوّهت به جريدة « المجاهد » في افتتاحيتها ووصفته بالانتصار التاريخي[10]. لكن الفارق الكبير الّذي كان موجودا في موازين القوى العسكريّة وجب الرجوعَ إلى استراتيجية « حرب العصابات » تكون أكثر ملاءمة وتعتمد على تنقلات الوحدات الّتي تنظّم عملياتها الهجومية بتحركاتها السريعة واستغلال عامل المفاجأة. ولم تكن هذه الاستثناءات ممكنة إلا بفضل الوسائل البشرية والمادية الّتي كانت تتمتّع بها وحداتُ جيش التّحرير الوطني الّتي كانت تنشط بالحدود الجزائرية-التونسية.

ويقدم لنا المؤلف مثالا على ذلك معركة جبل الحمرة الّتي شارك فيها والّتي جُنّدت إليها ثلاثة فيالق. والحالة الأخرى الّتي ذكرها أيضا ذلك الهجوم الآخر الواسع الّذي نُظم يوم 28 نوفمبر 1960 بقيادة عبد الرحمن بن سالم قائد المنطقة الشمالية، ضد مراكز بورنان والـڤـوارد والحمري ؛ وهذه العملية الواسعة والمنسّقة بإحكام الّتي جنّدت إليها ما يعادل ثمانية فيالق لجيش التّحرير الوطني مع وسائله المدعّمة، سجّلت نجاحا يستحقّ الذكر شبيها بذاك الّذي حققه هجوم الفيلق الـ 19 على مركز خميسات بقيادة سليم سعدي[11].

ومن الطبيعي أن العمليات الهجومية الّتي ذكرها الجنرال خالد نزّار تقتصر فيما هو أهم على تلك الّتي شارك فيها والّتي يذكرها بدون اعتداديّة أو فخر مبالغ فيه، كما وجدناه يتطرق أيضا إلى الانتصارات المحققة وإلى الهزائم المتكبّدة.. وإلى التخمينات السارة والأخطاء القاتلة سواء بسواء. وفي الجملة فإنّ هذه الحالات المختلفة لا تعطي سوى نظرة عن الحقيقة وعن حجم العمليات العسكريّة الّتي قام بها جيش الحدود سواء في الشرق أو الغرب.

وكثيرة هي العمليات الّتي ساعدت على التخفيف من العُزلة الّتي كانت تعاني منها الولايات وعلى التشكيك في مناعة الحدود الّتي كان من المفترض على خطّيْ شال وموريس ضمانها ؛

10. أرجع إلى جريدة « المجاهد » في عددها 46 بتاريخ 20 جويلية 1959 الّتي نشرت بهذه المناسبة البيان بتاريخ 16 جويلية 1959 بعرض حصيلة هذا الهجوم الكبير وكذا تصريح الرّائد إزير للصحافة. ويجب التذكير هنا أنه بمناسبة هذه المعركة استعمل جيش التّحرير الوطني لأول مرّة أسلحة البازوكا وعيارات من نوع 57 مم لا تنسحب إلى الوراء.

11. الّذي نشر شهادته بجريدة *Le Matin* بتاريخ 29 و30 نوفمبر 2000 تحت عنوان :

« *Il y a quarante ans، la bataille d'El-Hamri. Récit de combat* » [الذكرى الأربعون لمعركة الحمري].

خطّان مكهربان أنشئا لفرض حرب مغلقة الجوانب قد تجنّب العدو السقوط مرّة أخرى في حماقته بل جريمته تلك الّتي ارتكبها بساقية سيدي يوسف. وكان لهذه الجريمة البشعة الّتي ارتُكبت ضد قرية تونسية يوم 8 فيفري 1958 أنها ساهمت في التعجيل بتدويل القضية الجزائرية على مستوى المؤسّسات والهيئات الدولية وتسببت في سقوط الجمهوريّة الرّابعة بفرنسا. وغلقُ الحدود بالحواجز المكهربة لم يُنهِ مع ذلك الغارات العسكريّة الفرنسية على الترابيْن التونسي والمغربي بحجة « حقّ المتابعة » وبما يتلقّاه الجيش الفرنسي من ضربات موجعة من قبل أفراد جيش الحدود. ولم تفتأ الحرب تتجاوز الحدود الإقليمية للبلدان واستثارة الرأي العام الدولي، أو لنقُلْ اتساع ارتدادات وانعكاسات نزاع ذي أبعاد متعددة الأشكال.

حتّى وإنّ كانت شهادة خالد نزّار محصورة في تجربة شخصية، فهي لا تكتسي أهمية تاريخية فحسب، ولكن تمنح أيضا لسرديات المعارك المرواة بالتفصيل حجمَ الأحداث المعاشة وبعدًا إنسانيا لا يمكن تجاهله. وطبيعيٌّ أن الوقائع المرويّة يمكنها أن يتقبّلها الكثير أو القليل من الآراء أو لتجادلها أو لتنكرها ؛ لكن المؤلف لا يدّعي القيام بمهمّة المؤرخ ولا بإعطاء إجابات نهائية لبعض التساؤلات، وإنّما قام عبر شهادته هذه بواجب الذاكرة الّتي تهمّ كلّ الّذين شاركوا في المعركة التّحررية. ويمكن للمؤلف من هذا الجانب أن يرى نفسه قد أدّى المهمّة ما دام يقدّم مادة تاريخية هامة تساعد المؤرّخين على البحث أكثر في مسائل مختلف فيها مرتبطة بثورة التّحرير.

***

وقد ذهب الأستاذ سليمان الشيخ المعروف بروح المنهجية والدّقة إلى ما هو أهم، وأودّ من جانبي أنا أن أضيف أن : رواية الحياة المعاشة في الجبال مع المجاهدين بالوصف الدقيق الّذي يقدمه لنا خالد نزّار في هذا الكتاب مليئة بالحقائق المؤثرة، وتصوّر لنا ما عاشه هؤلاء الرّجال.

« كان سيرنا المتواصل ومعسكراتنا القصيرة والفواجع الكبيرة والآلام الصغيرة الّتي كانت تلازمنا يوميا، لا تترك لنا الوقت حتّى نجول بخيالاتنا فيما هو أبعد، وإنّما كان أفقنا مباشرا آنيا والخشونة أو القسوة المرسومة على أبصارنا كانت تراقب مناظرنا المحيطة بالحصون المزنجرة وشبكات الأسلاك الشائكة والآلات المحفوفة بحراشف غليظة وتلفظ نارا ؛ وكانت غِبطاتنا ركيكة مبتذلة : ملء إبريق من اللبن، قطعة من خبز الكسرة مع قليل من الدّهن، وساعة من النوم نخطفها على عجل. وقلاقلنا وكروبنا كانت خفية مكنونة، يعاد بعثها في النفس بدويٍّ الانفجارات والقذائف وصرير الرصاص. وكانت راحتنا عبارة عن هدوء ولحظات يقلّ فيها الدّوي ؛ وكان المكان الشاغر في الصفّ لصاحبه المغيّب عنا وأنين الرفيق الجريح المخضّب دما والوجوه الغائبة الّتي تعودنا ملاقاتها في المساء، كلّ ذلك كان يجعلنا ندرك مدى « هشاشة مآلنا ».

« فكم من رفيق رأيته يموت ثم يُدفن في مكانه الّذي استشهد فيه ؟ كنا نحمل موتانا إلى مثواهم الأخير في صمت، ثم نسندهم إلى قبورهم بثيابهم وأحذيتهم، ثم نقرأ عليهم الفاتحة

وندعو الله أن يتقبّلهم عنده شهداءَ، ثم نعود إلى مواقعنا بقلوب حزينة والليل من ورائنا قد سبقنا في محو نفخة التراب.. »

كان المجاهدون متحمّسين لرؤية يوم الحرية المنتظر طويلا، أو ربما كانوا يعيشون اللحظة إلى اللحظة واضعين كلّ ثقتهم في النّظام : « كانت فكرة الاستقلال لا زالت وهمية. هل سنعيش إلى غاية ذلك اليوم الّذي تستقل فيه الجزائر ؟ هل سنذوق طعم فرحة الحرية المستردّة أخيرا ؟ لا يهم ! فالحرب هي ها هنا معا ومن حولنا ونحن وقودها، ولكن أيضا لهيبها المشتعل.. وإنّا لسنا من اليائسين القانطين ممن ضاعت سبُلهم في الجبال ».

وأحيانا تستعيد الحياة مجراها الطبيعي ليمزح الرّجال ويضحكون : « ليس صحيحا أن الحياة في جبال الثوّار كانت كلّها استعدادا للقتال وإنذارات متواصلة وحذرا ومحنا ونصبا، وإنّما كانت الحرب تكفّ عن بطشها وتخبُّ نيرانها لما كنا نحن نريد ذلك. وبرضا من أحد المسؤولين وحسب « الأجواء السائدة »[12]، نقيم لمدة يوم أو يومين على أرض مضاءة وآمنة للقيام بهذه الأعمال الروتينية المتمثلة في غسل الثياب وحلق اللّحى، أو قضاء ساعة من الكآبة المبهمة أو ساعة لاستعادة الذكريات أو ساعة من الحنين. وأحيانا نمزح ونضحك، فيقول هذا لصاحبه مثلا : « هذا المساء ستتلقاها على حقيبة ظهرك »، إشارة لقذيفة المدفعيّة المقدّرة. لا يهم ما الّذي يحدث بعيدا عنا.. ولا يهم الموت ! ».

وكانت معاقل المجاهدين الجبلية تتلوّن أحيانا بألوان الجنة خاصة المنطقة الّتي كان خالدٌ ورفاقه يقيمون بها ويقاتلون فيها العدو : « كانت الحرب الضارية في المنطقة الأولى بالقاعدة الشرقية تمنعنا من الاستمتاع بالمنظر الخلاب للأنهار والوديان المتدفقة وغابات البلوط الوارفة ذات السكينة والأشجار العالية الكثيفة الّتي تحمينا أغصانُها ذات الأوراق الخضراء الزاهية من أنظار العدو. وكانت الغيضاتُ ذاتُ النباتات المتشابكة تأوي إليها حيوانَ الأيل (الّذي كنا لا نصطاده إلا نادرا) والخنازيرَ البرية والكثيرَ من الحيوانات الأخرى المتوحشة ؛ والعسل الّذي يسيل سائغا وافرا من خلايا النحل الّتي يصنعها الفلاحون باستعمال قشرتين اثنتين من الفلين متصلتين بغطاءين أسطوانيي الشكل. ويحدث لنا أحيانا ونحن نسير أن نلتقي بسرب من الحجل يلتقط الحبَّ على الأرض مطمئنا فنكفّ عن مطاردته لينطلق محلقا في السماء في حركة مائلة. ولم يعد المجاهدون منذ منتصف سنة 1957 يملكون بندقية صيد ؛ مثلما لم نعد بحاجة إلى القُورْدات للتزوّد بالماء، فقد كانت الينابيعُ ذات المياه الغنية بالحديد تُبقبق وتتألق لمعانا في جوف الأرض ».

لكنَّ جهنّمَ كانت غير بعيد عنا، ولا شيء دائم على حاله مليئا بالحياة جميلا إذْ كلّ شيء بإمكانه أن ينقلب دمارا ورعبا بمجرد تشكك العدو من هذه الحركة أو تلك الآتية من هذا المكان أو ذاك : « كان الجيش الفرنسي يستعمل كلّ الوسائل لتحويل الأقاليم الحدودية

12. كان « الجو السيئ » بالنسبة للمجاهد يتمثل في تخطيط العدو لعملية عسكرية يستعمل فيها وسائل تفوق إمكاناته الخاصة.

إلى مناطق خطيرة يصعب عبورها، وقد تم ملء هذا الفضاء الشاسع الّذي يبلغ عرضه حوالي 60 إلى 70 كم المراقب بشدة، بحواجز اصطناعية هجومية ودفاعية : مراكز مراقبة ثابتة (تسمى مراكز القطاع)، حقول الألغام، شبكات الأسلاك الشائكة، حواجز مكهربة، أضواء كاشفة، رادارات، فخاخ بإنذار صوتي، أنظمة التّنصُّت، أسلاك إنذار دقيقة جدا توضع على علو يصل إلى الركبتين وتنصّب دون الخط الشائك ناحية الشرق على بعد يتراوح بين 20 و50 مترا، رادارات كهرومغناطيسية، كازْمات، دبابات في حركة دائمة أو مموّهة، مدافع ذات عيارات مختلفة (20، 40، 75، 105، 155 مم) موزّعة ومتموقعة حسب مدى رميها وبعضها الآخر مزوّد برادارات الرمي، حصون يطل بعضها على بعض يحتمي بها 5 إلى 6 رجال مزوّدون برشاشات من نوع 7/12، دوريات بعربات مدرّعة، كومندو « رؤوس راصدة للحركات »، عناصر للتدخل الّتي تتنقل عن طريق العربات أو المروحيات ».

وقد عاش جيش التّحرير الوطني على هذه الوتيرة إلى غاية الساعة الأخيرة من النزاع. « جعلت الخسائر الّتي تكبّدناها إلى آخر ساعة من الحرب على الرغم من الضربات الّتي تلقيناها عند العودة، من 19 مارس 1962 بالنسبة لنا يومَ حداد بقدر ما كان يومَ نصر ». « وضعت الحرب أوزارها وسكت الرصاصُ.. ولم يزل المقاتلون لم يصدّقوا بعد أنه قد انتهت الآن المسيرات الطّويلة المضنية بين الدروب الوعرة والشعاب ومنحدرات الجبال، قد انتهت المواجهات والاشتباكات مع العدو، قد انتهى دويّ الرصاص والقذائف والانفجارات.. وكان النّاجون يحملون على وجوههم علامات وآثار التراجيديا الطّويلة الّتي شتتت صفوفهم.. ».

والأسطر الّتي ستتبع ستكون ربما الأجمل من كلّ ما كتب خالد نزّار، مثلما ستكون الأكثر تأثيرا بكلّ تأكيد. « تُسدي الشمسُ بأشعتها وهي تغرب على صُهارة وثُقل الجبال الضخمة لونًا أغمر محمرّا، فالغسقُ الّذي انطرح على الجزائر في اليوم الّذي تلا 19 مارس 1962 كان بمثابة الكفن الّذي غطى أكثر من قرن ساده الظلمُ والعنفُ والإهانةُ.. الجزائر فرنسية ! جزائرُ الجرائم الفرنسة، جزائرُ قانون الأهالي، جزائرُ ضريبة الدم، جزائرُ المقصلة ومراكز كيان لم تعد موجودة.. الجزائر فرنسية قد ماتت ».

« أشعر عبر إحساسي الخاص بتلك العواطف الجيّاشة الّتي اجتاحت قلوب بعض من رجالي الّذين كانوا مختبئين هناك وراء جذوع شجر البلوط بيكون، لا شك أنّهم كانوا يفكرون في رفاقهم الّذين غابوا إلى الأبد.. وجوه لا تُنسى تطلُّ من علياء قممهم، قمم الجبال الشامخات.. ».

رجالٌ سياسيّون يسرعون ويتسارعون باتجاه العاصمة في سباق محتدم من أجل الحكم ؛ وتتشكّل الجماعات السّياسيّة : جماعة تيزي وزو وجماعة تلمسان. هل كنا نتّجه نحو قتال بعضنا البعض ؟ كانت موازين القوى وقد حسمت الأمر : دخل هواري بومدين وأحمد بن بلَّة الجزائر العاصمة عنوةً بإطلاق النار. ويصف خالد نزّار الحزن الكبير لمقاتليّ المعسكريْن أمام هذه المعارك الّتي يقتل فيها الأخ أخاه، ويتطرق إلى خيبة الشّعب الجزائري الّذي حضر عاجزا هذه الأحداث المأساوية.

« وقال الشّعب الّذي كان أكثر حكمة من أولئك الّذين كانوا يطمحون إلى قيادته، قال يومها بصوت عال ما كنا نراه نحن العسكريّين شيئا تافها : « سبع سنين بركات ». كنا على الرغم منا فاعلين وصناعا لمأساة تجاوزتنا، والشعور بالضيق والأسى الّذي يغمرني في اللحظة الّتي أكتب فيها هذه الأسطر، هو نفسُه تقريبا الّذي انتابني أثناء هذه الأحداث الأليمة ؛ فالعديد من المجاهدين الشرفاء قُتلوا وآخرون انتحروا وبقي آخرون متأثرين بما وقع وقتها مدى الحياة ».

أصبح الآن خالد نزّار يعيش التحوّل الّذي جعل من هذا الجندي المحترف المنضبط المطيع للأوامر، كاسرَ التابوهات المستقبلي و« قاطعَ » العقدة الغورديّة ؛ « فمنذ هذه الأيام المأساوية أصبحت لا أثق بالغريزة في « السياسة » الّتي تدار لاعتبارات أنانية. فقد عهدت نفسي أثناء هذه المسيرة الدموية نحو الجزائر العاصمة بتغليب مصالح بلدي دائما بعيدا عن التجاذبات والاختلافات الحزبية والحسابات السياسويّة، وتذكّرت هذا بعد ثلاثين سنة لما أصبحت في مواجهة خيارات كبرى ».

استرُدّت السيادة الوطنية وخرج بومدين منتصرا من فوضى 1962 ؛ والرّجال الّذين ساعدوه على تخطّي هذه الخطوة الصعبة كانوا على رأس وحدات قتالية متمرّسة وكان هو يثق في نزاهتهم وإخلاصهم له. ولم يكن يحقُّ لهؤلاء الشكُّ فيما كان ظاهرا على نوايا قائدهم : تأسيس جيش عصري يخدم الجزائر. ففي هذه الفترة بالذات بدأ اغتيال ضبّاط الجيش الوطني الشّعبي القادمين من الجيش الفرنسي. وسبق لخالد نزّار أن تكلم عن هذه المسألة بصوت عال وكان له ما قال حول الكيفية الّتي تم بها تلفيق تلك الادعاءات الكاذبة والاستفزازات ضد هؤلاء يوم كانت القذائف تسقط وابلا والرصاص يدوّي صريرا.

لما بدأت اللّعانُ والإداناتُ المغرضة تستهدف جيش الحدود، خرج خالد نزّار حينها إلى العلن متحملا المسؤولية ومواجها الأمر، ويكتب اليوم ما دافع عنه بالأمس قائلا : « كيف وبأي وسائل يمكن للجزائر إعادة بناء ما تمّ تهديمُه، وأين ستجد هؤلاء القادرين على تسيير دواليب دولة قابلة للاستمرار[13]. وهل أخطأتُ لما آمنتُ أن الجيش الجزائري العصري الّذي رأيته يولد ويكبر، هو القوة الوحيدة المنظّمة القادرة على وضع حدّ لحالة اللاّأمن الّتي تستتبع الخروج من الحرب، وعلى توفير المؤسسات والإدارات المورد البشري الّذي يسمح لها بالوجود والاستمرار؟ ».

« منذ أن بدأت الثورة تتوسّع، كان التفاعل بين السياسي والعسكري منسجما دائما ؛ فمن كان سياسيا ومن كان عسكريا خلال الوقت الّذي استغرقه النزاع الجزائري-الفرنسي ؟ فكلّ أعضاء جبهة التّحرير – جيش التّحرير – كانوا يتحرّكون ضمن فكرة سياسية للغاية وبالمعنى التام والتفضيلي للكلمة، ولم يكن معظمهم عسكريا إلا على ضرورة، وبهذا الشكل كانت مكانة الجيش

13. لم تكن الجزائر سنة 1962 تحصي سوى بعض العشرات من الطلبة الجامعيين، ولم يكن يوجد سوى جامعة وحيدة على مستوى كلّ التراب الوطني.

في الأمة الّتي كانت تعيش حربا تؤسس للصرح السياسي-الإداري للثورة (النّظام). فمن هذا الّذي كان على الجزائر المستقلة أن تنتظره ليخلصها من محنتها من غير الجيش الوطني، بإفراغ الشعار المتكرر على الدوام « أولوية السياسي على العسكري » من معناه ؟ ».

لا يهم، فالأولوية كانت لبناء جيش عصري سيساهم فيه خالد نزّار بقوة وبداية تحت قيادة هواري بومدين. وفي الفصل الثّالث من الكتاب الأول، يروي المؤلف كيف وقفت الجزائر وجيشها قبل خمسين سنة إلى جنب الإخوة المصريين في الأوقات الصعبة من تاريخ مصر لما وضعت جسامةُ الخسائر – بعد حرب الستة أيام – وألمُ الإهانة الشعوبَ العربيةَ في حداد.

تفاصيلُ لم تُنشر وإيضاحاتٌ جديدة يطلعنا عليها المؤلّف. وقف الجيش الوطني الشّعبي بجبهة القتال بقناة السويس ندّا للندّ أمام القوّات الإسرائيلية وبرهن على شجاعة وبسالة أفراده الجنود والضبّاطوالطيّارين الآخرين الّذين كانوا يحلّقون بطائراتهم الحربية في سماء جبهات القتال مثل النّسور ؛ وقد اعترف الإسرائيليّون على لسان أحد جنرالاتهم بقوة وحنكة الفرق الجزائرية العسكريّة. وفي سياق الحديث عن هذه الحرب يتطرق المؤلف إلى الاختلاف في وجهات النظر الّتي كانت بين جمال عبد الناصر وهوراي بومدين.

وبصفته عُيّن مسؤولا أولا في هيئات الجيش لإفادة القوّات المسلّحة الجزائرية بخبرته من حيث التنظيم والتدريب اللذين كانت هذه الأخيرة بحاجة إليها بعد عشرية كاملة من « الركود »، أبدى خالد نزّار صرامة والتزاما كبيرين في تنفيذه هذه المهمّة ؛ وأهّله عملُه على رأس القطاع العماليّاتي بتندوف ثم قائدا على النّاحية العسكريّة الثّالثة الّتي كانت الأكثر تزوّدا بالوسائل وقطبا تخرج منه معظم إطارات ووحدات الجيش الوطني الشّعبي، لأن يكون الرجل المناسب لإنجاح عملية إعادة المفْصَلة المستقبلية للجيش الجزائري.

توفي هواري بومدين ثم خلفه الشّاذلي بن جديد رئيسا على الجمهوريّة الجزائرية، وأعطى هذا الأخير الأولوية للجيش. وبمجرد ما تم تعيينه مسؤولا على تنفيذ الإصلاحات والتغييرات المقرّرة، أصبح خالد نزّار هدفا للجماعات ذات التّركيبة الفئوية والعشائرية. ومع ذلك نجح في إبعاد – باحترام وصراحة ووجاهة – عدد من الإطارات بالرغم من كونهم كانوا قريبين من النّظام، وقد فعل ذلك تبعا لما كان معمولا به في البلدان المتقدّمة.

وكانت إعادة الهيكلة تقوم أساسا على مركزيّة القيادات على مستوى القيادة العامة لأركان الجيش، وعلى إنشاء مجموعات كبيرة موحّدة الأطر قادرة على القيام بعمليات ميدانية مشتركة ومنسّقة بفضل قدرات المناورات المتزايدة ومحطات القيادة المتسلسلة وأنظمة تواصل مكيّفة.

وكان لتوحيد القيادة نتائج إيجابية مباشرة، ومن ذلك توحيد مختلف قيادات الأركان وانسجام طرق مقاربة المشاكل والصعوبات حسب مخطّطات عصرية وفعّالة ؛ كما ساعد على إنشاء مجموعات تعدادية كبيرة وساهم في كسر « الإقطاعات » الجهوية الّتي تأسست خلال

عشريتين كاملتين نهائيا. وقد سمحت وحدة القيادة هذه للجيش الشّعبي الوطني بفضل إعادة إحياء القيم الّتي آمن بها جيش التّحرير الوطني، بأن أدرك بأنه لا يمثّل فقط الحارس والحامي اليقظ لوحدة التراب الوطني، وإنّما أيضا الضامن لاستمرار الدولة الجمهوريّة المرتبطة بالعصرنة والحداثة. والصور الّتي يرسمها عن صنّاع الثورة الكبار أو عن الجيش الوطني الشّعبي تتميّز بالدقة والرفعة والسّمو، ومن ذلك يذكر أصحاب « الباءات الثلاث » الّذين قال فيهم مقتبسا المقولة المشهورة لونستون تشرشل : « *Never in the field of human conflict was so much owed by so many to so few* »(لم يشهد أبدا تاريخ الصراعات البشرية من قبل أناسا كثيرين مدينين كثيرا لأناس قليلين).

ويرى هواري بومدين، طاهر زبيري، محمد شعباني أو الشّاذلي بن جديد كما هم بالصّفة الّتي يعرفهم عليها، في الوقت الّذي نرى فيه التّأجحات المحيطة تخدِّد الوجوه وتضمِّرها. بينما جاء وصفُ شخصيات أخرى بقليل من الاهتمام، لكن ولا أية كلمة اعتدائية خطّها للمساس بكرامة هؤلاء الرفاق : محمد سعيد ناصر، عبد الحميد لطرش أو الضابط بوعنّان.

وتطرّق خالد نزّار بالتحليل إلى إرهاصات أكتوبر 1988 والأحداث الدامية الّتي شهدها خريف هذه السّنة، والّتي يعزي أسبابها لحكومة الشّاذلي.

***

مرّ الوقت سريعا. فكان من شأن معترضات الأحداث السابقة المترتّبُ بعضها إلى بعض بنوع من السُّعر الفوضوي، أن قلّصت وأخلت بالروابط مع عديد عائلات الضبّاط ؛ هذا الربط المفقود الّذي وجد خالد نزّار صعوبة كبيرة لإصلاحه، ولكن هذا ليس من أجله هو شخصيا للأسف. ونجده في الجزء الأول من هذه المذكرات الّذي يلخّص فيه جانبا كبيرا من حياته لا يتكلّم عن « النادي الثّاني »، النادي العائلي الّذي ذكره في سياق حديثه عن سنوات بسكرة ؛ فلم يرَ رجلُ الواجب المرتبطُ والمنشغلُ دائما بمهمَّة عاجلة أو أوّلية أبناءَه يكبرون أمامه، ولم يُمكنه أن يكون حاضرا بجنبهم إلا في الوقت الّذي تُجبره فيه أحدى فواجع الحياة على الذهاب لرؤيتهم لفترة قصيرة.

لقد ترك رحّال إرثا لهذا الابن الّذي علّق عليه كلّ آماله، إرثا قائما وماثلا على النزاهة والتضحية ؛ وورّثه على وجه الخصوص حنانا مؤثرا ولكن مفعم بالحياء والتحفظ، وذلك الحنان نفسه سيحيط به خالد أبناءه هو بدوره ؛ ولكن كان عليه أن ينتظر خروجه على التقاعد ليعيش هذا الشعور مليئا.

رمضان 2017. يستقبل خالد صديقا من سوريا كان في زيارة إلى الجزائر العاصمة، فدعاني لحضور اللقاء بفندق الأوراسي. وعلى الشرفة الواسعة للفندق المطلّة على خليج مدينة الجزائر

الجميل، يتطرق بالذكر للملاقاة مع أصدقائه وأحبائه الّذين عرفهم بلمْتارس العميقة بمناسبة زواج ابنه الثّاني.

فأثناء زواج الابن يعيد الوالد العطوف ربط أواصر أصوله الّتي يجدها الآن دافئة ويتركها تعبّر عن نفسها في جوّ بهيج من الرقص والغناء. وها هي عائلة خالد والعائلة الأخرى القريبة ملتحمتان في خضم الأصالة الّتي تجمعهما، ناسيتان كلّ تلك الخلافات والاختلافات القديمة الّتي تسببت على مدى عشريات في التفرقة بين الآباء وزرع بذور الفتنة وروح الانتقام. فلم يعد الابنُ الضّال الّذي نجح بقوة العزيمة والانضباط والمثابرة ينتمي إلى الدائرة المقاسِ محيطُها بطول عمامة واحدة، والكلّ حول القمة الأصلية وجد عنده فضائله الخاصة ؛ هكذا تولّدت الهالة الّتي حوّلت الوجه إلى صورة والاسم إلى لقب للعائلة.

والسردُ الخاصُّ بسنوات القرية الّتي روى حكاياتها في هذا الكتاب هي في الغالب مُفرغةٌ من الأُحدوثات، فبعد إعادة القراءة والمراجعة حذف منها عددًا، لكن يبقى البعضُ منها جديرًا بالحكيّ. أحدوثاتٌ وحكايات تصوّر حجم الأب رحّال، الرجلِ التقيِّ الخيّرِ ذي العقل الرّصين حتّى في أدقّ التفاصيل. وقد حكى لي خالد هذه الحكاية في الوقت الّذي كانت تريد فيه ضجّة إعلامية غريبة قبل أشهر قليلة أن تنال منه ومن أقربائه بنشر وقول ما ليس هو بحقّ ؛ وتستحق هذه الحكاية أن أختم بها هذه المقدمة الّتي أمست طويلة كما ترون : « كنت أصاحب والدي إلى السوق في مواعيدها الكبيرة وهو ماسك بيدي بشدة. أتوقف معه لما يوقفه الجبليّون للحديث عن طقس اليوم والغد أو عن موت قريب هناك في أعلى الجبل. وفي صباح أحد الأيام لما كنت معه، رأيت فجأة عبر فُرجات سيقان الفلاحين وقـناديرهم ورقة نقدية بقيمة 100 فرنك على مجرى الساقية الجافة ولا أحد رآها، فحرّرت يدي من القبضة وأسرعت لألتقطها ثم عدت إلى والدي الّذي ظهر لي متحيّرا مرتبكا وهو يراني أخفي المال في جيبي ؛ حينها انتابني شكٌّ : هل سيذهب إلى الـقـايد المكلّف بالأشياء المفقودة، برَّاح القرية؟ « يا ناس ! يا سكان القرية ! الله ايسَمَّعْكُمْ بالخير.. ابن رحّال وجد ورقة نقدية بقيمة 100 فرنك، جديدة وكبيرة ومُبرقشة مثل زربيّة النّمامشة (وكان ذلك يعدّ مبلغا كبيرا في ذلك الوقت) ». ولا شك أن خشية والدي من أن ذلك سيخلق فتنة بين المدّعين منعته من المضيّ في الفكرة الّتي قرأتها على عينيه ؛ فجرّني معه باتجاه متسوّل كان يبدو أعمى وفي حالة مزرية جالس على الأرض، ثم أمرني بالذهاب إلى الدكان المقابل لصرف الورقة النقدية إلى قيمتين متساويتين، ثم قبض المبلغ بيده وراح يقسّمه 50 فرنكا للمتسوّل والـ 50 الأخرى لي، جزاء مشروعا بحكم الصّدقة. وفهمت لاحقا سلوك والدي هذا : « يا بُني، لا يجب أن يتغلّب نصيبُك من هذه الدنيا على ضميرك ». ونزّار لم يأخذ أبدا حقّ أحد ولا حقّ بلده وهو يعتلي أعلى المناصب في الدولة.

معارفية محمد

ترجمة التقديم عبد السلام عزيزي

توطئة

كانت الحرب التّحريرية طويلة وتسببت في مآسٍ كبيرة. لكن قوة الإيمان بالقضية سمحت لأعضاء جيش التّحرير الوطني الشباب بتحمّل كلّ المحن والرزايا وبتحقيق النصر في النهاية.

إنّ تضحيات شعبنا عبر آلاف السنين وإلى غاية السنوات الأخيرة تدعونا للتأمل. وما هذه المذكرات سوى تذكير بمحطة هامة من تاريخنا في أهم فصل من فصوله، ألا وهو الثورة التّحريرية العظمى.

إنّ كتابة هذه الصفحات بالنسبة إليّ واجب مفروض عليّ. كان نفس الإحساس الّذي انتابني وأنا استحضر وجوه ترخوش والفاضل وعبد النور وبابا ديدي والعياشي، أحسست به عندما انحنيت على أجسادهم الّتي قطعها حديد العدو أشلاء. إنّ هذا الإحساس الّذي يشعر به الجندي حينما يستعيد في ذاكرته ميادين الشرف الّتي ودّع فيها إخوانه لهو أكبر دافع له لكي يستعيد الذكريات ويدلي بشهادته.

لقد أردت من هذه الذكريات لأيام الثورة أن تكون رحلة معبّرة في حياة الوحدات القتالية لجيش التّحرير الوطني. رحلة في تفاصيل وخصوصيات يوميّاتهم. لأن هذا التواصل مع المجاهدين، ومعرفة أفراحهم وآلامهم وغضبهم في بعض الأحيان وآمالهم أيضا، تسمح للقارئ الشاب بأن يعرف كم كان كفاحهم شاقا وأي تفانٍ وثقة بالمستقبل كان يقودانهم.

تسرد مذكرات الحرب المرويّة في هذا الكتاب بالتفصيل العمليات الّتي اخترتها من بين كثير غيرها. ومن غير الضروري أن أوضح بأن الوقائع الّتي أسردها هنا ليست هي الوقائع الوحيدة الّتي دارت في المناطق الملحقة بالنّاحية الأولى التابعة للقاعدة الشرقية. داخل المربع الّذي تحده مدينة القالة شرقا، ونهر بوناموسة غربا، وقرية بوحجر من الجنوب الغربي، والطريق الرّئيسية بين بوحجر ومدينة القالة الّتي تمر عبر قرى (مونيي) عين الكرمة، (توستان) زيتونة، الطارف، (يوزيف) عين العسل، رمل السّوق، العيون، وقرية أم الطبول المتراجعة قليلاً عن الطريق، نحو الشرق. تلكم هي حدود المنطقة الأولى للقاعدة الشرقية.

1- مدينة القالة.

2- الحدود مع تونس.

3- الساحل في الشمال، باستثناء عنّابة.

4- شرقا، باستثناء قرية بوحجر، مع ضم قرية مرداس (كومب سابقا) و جزء من خط موريس، باستثناء مستوى جسر بن مهيدي (موريس سابقاً).

جرت العمليات في منطقة تضمّ إقليمين ذوَيْ تضاريس متباينة. الإقليم الأول تقريبا أجرد، يعبره سهل « ريغية » تنتشر فيه بقع من الأحراش المتباعدة والشائكة والشجيرات المتشابكة يسميها السكان المحليّون « النشعة ». هذه « النّشع » محاطة ببرك تعج بالبعوض وتحجب بعض الأراضي الممتازة لزراعة البقول والتبغ والفول السوداني. هذا الإقليم محصور بين الساحل الّذي يربط عنّابة بالقالة، والطريق الّتي تربط بين هاتين المدينتين جنوبا، وتنتشر على امتداده مراكز عسكرية للمراقبة والتدخل.

أما القسم الثّاني فهو مشجّر، ومواتٍ لحرب العصابات، ويمتد حتّى الحدود التونسية، باستثناء مدينة القالة المحمية بالبحيرات والمستنقعات وبمنشآت من كلّ نوع، نشطة وأخرى غير نشطة.

لقد فضّلت ألا أكون كثير الشمولية لكيلا أضجر القارئ. كانت المعركة الّتي سميت « معركة الحدود » طويلة ودامية، وكانت حافلة بالعمليات البطولية الّتي قام بها رجال يؤمنون بأن الشجاعة والإيثار وحب التضحية، هي الشروط الأولى للنصر. لقد دفع العدو بخيرة قوّاته إلى المعركة، وأنشأ نظاماً دفاعيّاً متكاملاً ومشكّلاً من شبكة كاملة من مختلف الأسلحة والتقنيات الحديثة لعزل الجزائر، حتّى يتنسى له شن عملياته العسكريّة في ظروف مريحة.

لقد واجه جيش التّحرير الوطني بنجاح إمكانات ضخمة جوبه بها ؛ لأنه استطاع أن يُكيِّف استراتيجيته. لقد استعمل تكتيكات حرب العصابات الفعّالة في مواجهة الآلة الحربية المعدّة لحرب كلاسيكية. فحرب العصابات أسلوب ذكي يعتمده الضعيف ضد القوي، وقد استعملت منذ الأزمنة القديمة، وهي رأس الحربة للمقاومة الشّعبية. وهي تدعم المطالب السّياسيّة وتضفي مصداقية على الدبلوماسية، كما تعطي صدى لا مثيل له للاتصالات، وهدفها إنّهاك قوى العدو لتقوده إلى الإحباط والهزيمة. وهذا ما حصل في الجزائر.

الأمثلة الّتي أعطتها التجارب الّتي مرت بها الشعوب الأخرى تبين أن حرباً شعبية مدارة بذكاء تنتهي دائماً بالنصر، إنّ حرب العصابات الإسبانية عام 1808 شكَّلت بداية انهيار الإمبراطورية النابوليونية. وفي العام 1812 دقَّت الحرب الوطنية للشعب الروسي والّتي قادها المارشال كوتوزف أجراس جنازة الجيش العظيم. وفي بداية أربعينات القرن العشرين، ذاقت الفرق المصفحة الهتلرية طعم الهزيمة أمام مقاومة الشعوب اليوغوسلافية. وفي عام 1954 لم ينهزم الجيش الفرنسي في الهند الصينية أمام القوى النّظامية المشكَّلة من فرق وألوية وكتائب ولكن أمام البودُويْ[1] الصغار المنتعلين أحذية مطاطية.

1. (bodoïs) لفظة تحقير كانت تطلق على الجنود الفيتناميين خلال الحرب في أقاليم ما وراء البحار.

بعد ثلاث سنوات من اندلاع الثورة، كان جيش التّحرير الوطني قد عزز قدراته بشكل كبير وأصبح أكثر تنظيما وتجهيزا، مما سمح له بمواجهة صفوة ألوية مظليِّي العدو في معركة سوق أهراس الّتي استمرت في الفترة من 27 أفريل إلى 3 ماي 1958. أفردت عدة صفحات لهذه المحطة من الحرب التّحريرية الكبرى، ونقلت شهادات تثبت – إذا كانت هناك حاجة إلى ذلك – شجاعة وإقدام وتفاني المجاهدين. إنّني أعرب هنا عن اعتزازي بمعرفة هؤلاء الرّجال والجهاد معهم.

قبل أن أسرد سنوات كفاحي في جيش التّحرير الوطني، تحدثت عن أهلي وعن المنطقة الّتي ولدت فيها وعن الأوضاع السائدة في الجزائر العميقة في سنوات الأربعينات والخمسينات. ارتأيت أن أقف عند حالة الإحباط والخيبة وآلام وآمال الشباب الجزائري في ذلك الوقت. ولشرح سر العزيمة الّتي كانت تحذو أولئك الّذين حملوا السلاح في نوفمبر، ألقيت نظرة على « جروح الذاكرة » ليس للعب دور الضحية وإنّما للرد بالدليل القاطع على فاقدي الذاكرة.

إنّ العولمة الجارية، وهي لا ترحم الضعفاء، تفرض علينا أن نستعد للتحديات الجديدة، وذلك بتمكين شبابنا من معرفة عظمة التضحيات الّتي توجَّب على أسلافهم أن يتحملوها لانتزاع الحرية. فالّذين يدلون بشهاداتهم للتاريخ يناشدون هذه الشبيبة نفسها كي تصون بلدنا الّذي دفعنا من أجل استرجاعه ثمنا غاليا، وأن لا يرهنوا مستقبله بمداراة الأمل أو الانسياق في معارك بين الإخوة لا فائدة منها.

خالد نزار

الباب الأول

الفصل الأول
جروح الذاكرة

سريانة (تسريانت بالأمازيغية) بلدة صغيرة تطل من أحد سفوح جبل مختار في جبال بلزمة على بعد بضعة كيلومترات شمال غربي مدينة باتنة. تضم سلسلة بلومة الجبلية الّتي يصل ارتفاعها 2100 متر، كلّا من جبال أولاد سلطان، (شمال ماك ماهون سابقا)، وجبال أولاد شليح وشلعلع ومستاوة ورفاع (مركز قيادة النّاحية الثّالثة للولاية الأولى التاريخية). يحد سلسلة بلزمة من الشمال جبال الحضنة وبوطالب. في قلب هذه المنطقة وتحديدا في دوار تلات، ولدت ذات يوم من شهر ديسمبر عام 1937.

تصدى سكان بلزمة وتلات لكلّ الغزاة الّذين حاولوا إخضاعهم والسيطرة عليهم. فشيّد البيزنطيون قلعة كبيرة في المنطقة، استخدمها من بعدهم الأغالبة في أواخر القرن التّاسع. وفي وقت لاحق، أقام الأتراك حامية لهم في هذه القلعة القديمة لرصد تحركات الأهالي. في 1867، وعند وصول رتل عسكري فرنسي إلى هذه المنطقة لمعاقبة سكان بلزمة، لقي مقاومة شرسة ومستميتة من قبل الشاوية المصممين على الدّفاع عن أرضهم. كان جبل مستاوة وهو هضبة صخرية تحيط بها المنحدرات الشاهقة، مسرحا لكثير من المعارك الّتي هزم فيها الغزاة في أغلب المرات. وعندما اندعلت ثورة المقراني[1] لتعم وسط الشرق الجزائري، دخل دوار التلات في المقاومة من جديد. ففي عام 1871، منيت الحملة العكرية الفرنسية بقيادة الكولونيل آديلير الّذي كان قائدا على الفرقة العسكريّة و ماريي التابعة لحامية قسنطينة، بالفشل أمام أهالي تلات الّذين تحصنوا مجددا في قمة عش نسورهم. كما دفع فرقة زواف الثّالثة بقيادة الكومندان هيرفي[1] الثمن غاليا في سفوح الجبل المنيع.

1. الشيخ محمد المقراني أو محمد بن الحاج أحمد المقراني، وبالقبائلية : الحاج محند ناث مقران، هو أحد قادة الثورات الشّعبية الّتي شهدتها الجزائر في القرن التّاسع عشر بعد الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830. ولد عام 1815 وتوفي عام 1871. المصدر : وكيبيديا.

1. رقي فيما بعد إلى رتبة جنرال، وتولى منصب حاكم باريس، وقاد جيش إفريقيا.

في الستينيات، وبينما كنت في زيارة عائلية لبضعة أيام إلى سريانة، أخبرنا شقيقي الأكبر أثناء الحديث أن الفرنسيين عند رحيلهم غداة الاستقلال، عثروا خلال نبشهم لرفات موتاهم في مقابر المنطقة على هياكل عظمية لا تزال قطع من اللباس العسكري ملتصقة بها لعناصر الزواف يعرف عليها بلونيها الأزرق والأحمر. تندرج هذه الانتفاضة الشّعبية في هذه الجهة من الأوراس ضمن سلسلة الانتفاضات الّتي هزت الجزائر منذ عام 1830. ولقد استغرق الغزاة أربعين سنة لبسط سيطرتهم على الجزائر، لكن بأي ثمن ؟

ولكي نفهم سر انتشار ثورة أول نوفمبر 1954 في خلال أشهر كالنار في الحطب اليابس، ولمعرفة مدى إصرار رجال جيش التّحرير وضراوة معارك حرب التّحرير، يجب ألا يغيب عن أذهاننا بأن الجزائريين لم ينسوا أبدا بأن هناك قوما غريبا عنهم أخذ أرضهم بعدما أخضع آباءهم بالحديد والنار. ولعله من المفيد في الوقت الّذي لم يحتفظ بعض المحنّين للجزائر الفرنسية في ذاكرتهم الخائبة سوى المدرسة والمستشفى والطريق « الحضارة » أن نذكّرهم بإنجازات أولائك الّذين كرّموهم بإطلاق أسمائهم على مدن وقرى وشوارع بلدنا.

وقد استخلص مصطفى خياطي، مؤلف كتاب « الجزائر، الطفولة المجروحة »، وهو يبحث عن جذور العنف الحالي في الجزائر، أن السبب العميق يرجع إلى الآلام الّتي تحمّلها الجزائريون خلال الليل الاستعماري الطويل. وأضيف من جهتي أن هذه الجروح القديمة الّتي لم تندمل رغم مرور عشرات السنين تفسر لماذا كان شعار رجال جيش التّحرير : « النصر أو الموت ».

عرف الجزائريون بعد صدور قانون الأهالي عقودا من الهدنة. فلم يعودوا يقتلوا لأدنى حركة غضب، لكن قساوة الظّروف المعيشية وألوان الظلم الّتي ذاقوها كانت تحيي دائما في ذاكرتهم الفظائع الّتي عاشوها. وكانت ذكريات السنوات الرهيبة تحييها أيضا حكايات القدماء.

يقول مصطفى خياطي، مستشهدا بهابارد، وهو يتحدّث عن هذا الماضي الأليم : « لم تعرف أجيال جزائرية متتالية، سوى العنف أسلوباً للحياة. وقد ارتدى هذا العنف أشكالاً متنوعة... العنف الجسدي، مصادرة الممتلكات والأراضي، الأمية، الأمراض، الفقر، الإذلال... ».

خلال الثلث الأول من الحقبة الاستعمارية، اتخذ القمع صفة حرب الإبادة الحقيقية، وهذه بعض الأمثلة.

كانت المجزرة الأولى من ارتكاب الماريشال كلوزيل[2]. وقد جرت في البليدة. يقول المذكور : « لقد أمرت الفيالق بتدمير وحرق كلّ ما يصادفونه في طريقهم ». في مكان آخر، وبناء على أوامر الدوق دو روڤيغو، تم ذبح كلّ أفراد قبيلة عوافية في مضاربهم بالحرّاش. وقد وصف پيلسييه

---

2. برتراند كلوزيل (12 سبتمبر 1772 - 21 أفريل 1842) رقي إلى رتبة مارشال فرنسا على يد لويس فيليب، أقام في الجزائر مرتين، المرّة الثّانية كحاكم عام (المصدر : وكيبيديا).

ـ آن جان ماري سفاري (1774 - 1833)، رقي إل منصب دوق روفيغو على يد نابليون الأول في عام 1808. (المصدر : وكيبيديا).

دو رينو ذلك قائلاً : « تم قتل كلّ ما كانت تدب فيه الحياة، ونقل كلّ ما كان صالحا ». كان ب. كريستيان سكرتير بوجو قد كتب عن هذا الموضوع : « بناء على أوامر الجنرال روفيڤو، انطلقت من الجزائر العاصمة، ليل 6 أفريل 1832، وحدة مقاتلة، واستغل وجود أفراد قبيلة عوافية نياماً، فأقدم أفراده على ذبحهم عن بكرة أبيهم. ولدى عودتهم من تلك العملية المخزية، حمل الفرسان رؤوس ضحاياهم على أسنّة رماحهم. ثم عرضت الغنائم الدامية في سوق باب عزّون. كانت ترى الأساور معلقة على المعاصم المقطوعة، والأقراط على الآذان المجدوعة. وبيعت كلّ الماشية لممثل القنصلية الدانمركية ». (م. هابارد 1960).

أبيدت قبائل حجوط – وهو تجمع سكاني متكوّن من ثلاث وعشرين قبيلة تستطيع تجنيد إثني عشر ألف مقاتل – خلال خمس سنوات متواصلة. وقد كتب توكفيل سنة 1840 : « على امتداد سهل يوازي مساحة الألزاس، لم يبق هناك منزل أو إنسان أو شجرة ».

في تقرير كتب سنة 1839، كتب بيجو[3] هذه الكلمات : « صمّمت على تدمير قبيلة فليسة، دحرت القبائل وتكبدت خسائر فادحة. شوهدت صفوف طويلة من القرويين وهم يحملون جثث أمواتهم على أكتافهم ». (تاريخ المغرب المعاصر).

في كتابه « الجزائر الخارجة عن القانون »، (ص 32) ختم مير دو بانسونيير، رئيس اللجنة البرلمانية المختصة بإفريقيا، تقريره المرير بمايلي : « لقد أصدرنا أحكامنا على رجال يعتبرون قدّيسين في بلادهم، ومبجّلين لأنّهم يتميّزون بقدر من الشجاعة دفعتهم للتصدي لهياجنا، وللدّفاع عن مواطنيهم البؤساء. لقد وجد قضاة للحكم عليهم، ورجال متحضرون لإعدامهم. لقد فاقت وحشيتنا وحشية من أدعينا أننا ذهبنا لتمدينهم ».

دائما حسب ما قاله م.هابارد (1960) : « لقد دوّن بوجو الصفحات الأكثر دموية من تاريخ الاستعمار. أقام حكم السيف. أرتاله الجهنمية الستة الّتي كانت سنة 1846 تتألّف من 108 آلاف رجل كانت مكلّفة بمنع العرب من الزرع والحصاد والرعي... باختصار، كانت تنفذ سياسة الأرض المحروقة ». وقال هو نفسه في معرض شروحه لعمله : « إنّها الحرب المتواصلة حتّى الإبادة ».

ويتابع هابار نفسه : « لقد تكررت مشاهد الرعب طوال تلك الحقبة. تولى الجنرال جوزيف[4]، غرس الرؤوس المقطوعة على امتداد أسوار عنّابة، فوق خوازيق مزينة بالأعلام الثلاثية الألوان. وكانت تكررت مثل هذه المشاهد في كلّ مكان تقريباً ». وكتبت جريدة لومونيتور « Le Moniteur » : « شاهدنا ثمانية وأربعين رأساً على رؤوس الحراب، لدى دخولنا إلى معسكر

3. في بلاد القبائل لا تزال الأمهات إلى اليوم، عندما تردن إلزام أي طفل مشاغب الهدوء يخوّفنه بإحضار « بوجو » هذا الاسم (Bugeaud) المرادف للرعب عبر عقودا وقرونا من الزمن. كان المارشال الكبير، الّذي يحتفى به كبطل في السيرة الفرنسية للاستعمار بصورته الّتي تمثل « قبعة الأب بوجو » وصورة « الجندي المزارع » مجرما أحمق.

4. شهير باسم يوسف، ولقد اشتهر هذا الهجين الصربي التركي بوحشيته.

الجزائر العاصمة. كانت خزينة الدولة تدفع للعسكريين لقاء كلّ زوج من الآذان المقطوعة. وقد وجدت أكياس مليئة منها داخل خيم الجنرالات ».

الخنق بالدخان، كان أحد أشكال القتل الّذي اعتمده الجيش الفرنسي ضد الشّعب الجزائري. وكان يغطي على تلك العمليات الجنرال بيجو. أشهرها هي المحرقة الّتي جرت في مغارة الظهرة. بتاريخ 19 جوان 1845، قام العقيد بيليسي بحرق قبيلة فراشيش وهي فرع من أولاد رياح، لجأت إلى إحدى مغاور نكمارية، هرباً من القوّات الاستعمارية. فمات 1500 شخص – منهم رجال ونساء وأطفال وشيوخ – اختناقاً بالدخان داخل تلك المغارة.

بتاريخ 12 أوت 1845، أي بعد أقل من شهرين على تلك الإبادة، ورغم ردود الأفعال الّتي أثارتها في فرنسا، أقدم العقيد سانت آرنو على جريمة مماثلة بحق قبيلة سبيحة، في مغارة تبعد حوالي المئة كيلومتر عن الأولى، قرب شعبة البير. وكان الضابط المذكور قد وصل إلى الجزائر سنة 1847، وغادرها بعد ذلك بعشر سنوات، برتبة لواء.

هناك محرقة أخرى، أقل شهرة ولكن ليست أقل وحشية من الحالتين السابقتين، تمت على يد الجنرال كافانياك. ولقد جرت في منطقة الظهرة ذاتها.

وقد علق توكفيل على تلك الأحداث، سنة 1846، بالقول : « لقد جعلنا المجتمع الإسلامي أكثر فقراً وتفككاً وجهلًا وتخلفاً مما كان قبل دخولنا إليه ».

أمّا بودريكور، الّذي شارك في احتلال الزعاطشة بتاريخ 26 نوفمبر 1848، فقد بقي متأثراً بوحشية أبناء بلده : « اندفع جنودنا (الزواف) منتشين بنصرهم، بهياج مجنون نحو الضحايا البؤساء الّذين لم يقووا على الفرار. هنا، كان أحدهم يقطع ثدي إحداهن لمجرد العبث، وكانت المسكينة ترجوه الاجهاز عليها للخلاص من الألم، قبل أن تفارق الحياة بعد قليل غارقة في آلامها. وهناك، كان جندي آخر، يمسك أحد الأولاد من رجليه ويلوح به، ثم يحطم رأسه على الجدار. وفي أمكنة متعددة حصلت أعمال مشابهة لن تستطيع فهمها سوى النفوس المنحطة ويخجل من ذكرها أي آدمي ».

يروي جون دريش[5] و شارل أندري جوليان[6]، ما شاهداه، سنة 1958 : « كان هناك عشرات الأشلاء، منها أشلاء بوزيان البالغ من العمر 75 عاماً، وابنه في السادسة عشر، أمر بذلك الجنرال هيربيون، قائد فرقة قسنطينة. تم إرسال رأسي الضحيتين، مع رؤوس أخرى، إلى الجزائر العاصمة ثم إلى المتحف البشري في باريس حيث عرضا حتّى العام 1967، بعد تحنيطهما بمادة الفرمول. في ذات الحادثة قطعت عشرة آلاف شجرة نخيل من جذورها ».

---

5. جون دريش عالم جغرافي فرنسي ولد في باريس في 30 نوفمبر 1905 وتوفي في باريس يوم 4 مارس 1994. ناضل هذا الجامعي بقوة ضد الاستعمار كمثقف مناهض للاستعمار في الخمسينات والستينات. (المصدر : وكيبيديا).

6. شارل أندري جوليان من مواليد 2 سبتمبر 1891 في كاين، وتوفي في 19 جويلية 1991 بباريس، هو مؤرخ وصحفي فرنسي مختص بشمال إفريقيا ومناضل مناهض للاستعمار. (المصدر : وكيبيديا).

يقول ألفريد ناتمنت في كتابه : « لقد أثارت استماتة الزعاطشة في المقاومة حفيظة الزواف[7]. بقي انتصارنا مشوبا بالتجاوزات والجرائم [...] لم يحترم أي شيء، لا الجنس ولا السن. فالدم والبارود وجنون القتال ولّد هذه النشوة الرهيبة في القتل الّتي لم تعد أمامها حقوق الإنسان المقدّسة والرحمة والقيم الأخلاقية موجودة. كان هناك أطفال سحقت رؤوسهم على الجدار أمام أمهاتهم. نساء تعرضن لكلّ أنواع الإذلال والتعذيب قبل أن ينلن الموت الّذي طالبن به بأعلى أصواتهن ليخلّصهن ممّا هن فيه. ولقد ركزت النشرات العسكريّة على الأثر الّذي تركه في كلّ واحات الصّحراء نبأ تدمير الزعاطشة، الّذي انتشر بسرعة البرق بكلّ تفاصيله المفزعة. [...] ». تاريخ غزو الجزائر، ص. 298 - 299.

من بين سنوات البؤس والعذاب، كانت أعوام الفترة الممتدة من 1866 إلى 1870 هي الأكثر سواداً بتاريخ الجزائر. لم تؤد حرب القرم (Crimée) إلى تفريغ مخازن الجزائريين فحسب، بل أدت إلى هلاك عشرات آلاف الجنود الجزائريين. وقدر عدد الّذين اسرهم الألمان بأكثر من عشرة آلاف. إضافة إلى كلّ تلك النكبات الّتي زادت من هشاشة الأوضاع الجزائرية، شهدت الجزائر مأساة بقيت محفورة في الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري. إنّه عام المجاعة الكبرى، « عام الشر »، الّذي قضى خلاله مئات الآلاف جوعاً.

عيَّن تيير الأميرال ڤيدون[8] حاكماً جديداً على الجزائر، وطلب منه : « معاملة الجزائر كما عومل رجال الكومونة (Communards)[9] ». أعطت انتفاضة المقراني في منطقة القبائل وبومزراق وبن شوشة في الإقليم الوهراني، الفرصة للجيش الّذي لقي الهزيمة في سيدان على يد البروسيين، ليشفي غليله بذبح السكان الّذين نهشت المجاعة أجسادهم. وكتب ج. ڤارنياج بهذا الصدد : « أطلق الجنود الخمسة والثمانون ألفا المنقولون على عجل من فرنسا، إضافة إلى الجنود الموجودين هنا والمعمّرين، عنانهم على الفلاحين العزل ونكلّوا بهم بصورة لا توصف، وأعدموا من دون محاكمة : كما حصل خاصة في عين ياقوت. وكان ذلك حدثاً قلّ ما شهدنا مثيله ».

دشنت الجمهوريّة الثّالثة عهدها في الجزائر بالحديد والنار. حتّى يستفيدوا من « المبادئ الديمقراطية الجديدة » أخضع الجزائريون لأحكام ثلاثة : « بصفتهم طرفاً في الحرب، كان عليهم المساهمة بدفع ضريبتها، وبلغت حوالي خمس مليارات سنة 1955، وبصفتهم مواطنين أصليين،

7. ألفريد فرانسوا ناتمنت صحفي ومؤرخ، ولد بباريس في 21 أوت 1805 وتوفي في نفي المدينة بتاريخ 14 نوفمبر 1869. « الخراب الأخلاقي والفكري، تأملات في الفلسفة والتاريخ، 1836، المكتبة العالمية للشبيبة. (المصدر : وكيبيديا).

8. لويس هنري كونت دو ڤيدون، منة مواليد 22 نوفمبر 1809 في غرانفيل وتوفي في 1 ديسمبر 1886 في لاندرنو، وهو نائب أميرال فرنسي. كان أول حاكم عام للجزائر في عهد الجمهوريّة الثّالثة. (المصدر : وكيبيديا).

9. نشأت حركه « الكومونة » في أعقاب انتفاضة الباريسيين يوم 18 مارس 1871. زج بأغلب أعضائها في السجون أونفي الآخرون. التقى المنفيون إلى كاليدونيا الجديدة بـ « قبائل المحيط الهادي » الّذين نفيوا هم أيضا على إثر انتفاضات الأوراس وتونس وغيرها... (المصدر : وكيبيديا).

صودر حوالي 500 ألف هكتار، من أخصب الأراضي... وأخيرا، بصفتهم مواطنين فرنسيين، أرسل منهم الآلاف، بعد إدانتهم كمجرمين، إلى كاليدونيا الجديدة[10].

وأدّت حملات القمع الّتي أعقبت المظاهرات السلمية في 8 ماي 1945، إلى مقتل 45 ألف جزائري !

وتحوّلت تسريانت إلى باستور...

في عام 1864، قام رتل عسكري فرنسي بوضع الحجر الأساس لقرية كولونيالة على موقع لميجيقا Lamiggiga القديمة، بعدما اجتاح المنطقة (يسمي الجنرالات الفرنسيون ذلك « فرض السلم »). يروي ستيفان قزال. Gsell[11] اكتشاف نقش حجري مكتوب بالحروف اللّيبيّة، ما يدل على ماضي تاريخي عظيم. وكان المهاجرون الّذين يقصدون الجزائر لمزاياها وخيراتها، يبنون منازلهم بالأحجار المأخوذة من آثار تلك المدينة العريقة. وكانت المستثمرة الّتي استفادوا منها، والمأخوذة من أراضي الوقف التابعة لدوار تلات[12]، تتكوّن من قطعة أرض حضرية صالحة للبناء تتربع على مساحة قدرها ألف متر مربع، ومن بستان مساحته 20 م^2، وهكتار من أراض تغرس فيها الكروم ومزرعتين تشكلان في المجموع ما بين 35 و40 هكتار.

بموجب القرار الّذي أصدره حاكم الجزائر العام، جول كامبون[13]، عام 1893، أصبحت تسمى « باستور »، ملغيا بذلك ثلاثة آلاف سنة من التاريخ.

واضطر « أهالي » سريانة، الّذين لم يطلب أحد رأيهم، لتبني اسم هذا « المحسن للبشرية ». وفي الأماكن الأخرى، قام القادمون الجدد، ربما ليجعلوا صفير السيوف ولعلعة الرصاص يرنان إلى الأبد في آذان المهزومين، بنقش أسماء « أبطال » آخرين على واجهات قرانا وشوارعنا، أبطال السيرة الاستعمارية الّذين رأينا بعض إنجازاتهم في الصفحات السالفة : بوجو، كلوزيل، سانت آرنو، بوبراتر، مارغريت، يوسوف، كافينياك وبليسيي، وغيرهم. وكان يوم الاستقلال يوما لإعادة الأمور إلى نصابها. فحل اسم « سريانة » محل « باستور » على اللوحات العمومية. وأسقط التمثال النصفي ورمي فوق الأرض وانهمر عليه وابل من الطلقات النارية بجنون، لكن عقلاء المدينة أعادوه إلى مكانه الطبيعي، وهو العلم والمعرفة، ليس إلا. وهو لا يزال يتربع إلى اليوم فوق منصة ترعاها البلدية داخل حديقة عمومية وسط أحجار أثرية عليها نقوش قديمة تشهد على ضحالة وهشاشة انتصار السيف عندما يدّعي بسط سلطانه الجائر إلى الأبد. كانت رسالة باستور الّتي وجّهها إلى أبناء سريانة، تقرأ في كلّ ذكرى وفاته ويتولى ذلك معلّم المدرسة. وكانت

10. يعكس الاستسلام دون شروط والمثول أمام محكمة جنايات تتألّف من معمرين الّذي عرض على المقراني، مدى الاحتقار الّذي كان يعامل به الجزائريون وإنّ كانوا من كبار الثوار. لكن المقراني فضّل أن يموت في ساحة القتال.

11. ستيفان غزال من مواليد باريس في 7 فيفري 1864 وتوفي في باريس يوم 1 جانفي 1932، وهو عالم آثار ومؤرخ فرنسي مختص بالجزائر « الرومانية ». (المصدر : وكيبيديا).

12. يعتبر أهل التلات الأكثر الإقداما من بين الثوار.

13. عيّن جول كومبون حاكما عاما للجزائر عام 1887. المصدر : وكيبيديا).

هناك جملة منها بقيت مَحفورة في ذاكرتي : « إنّ مجرد التفكير بأن اسمي يستطيع أن يغرس في روح طفل بذور الوطنية يهز قلبي... » اسم أجنبي، وإن كان عالما كبيرا، يمحو اسم تسريانت، هل من طريقة أفضل لبث روح الوطنية في نفس فتى جزائري سلب منه تراثه ؟ السريانيون وبعدما أنقذوا تمثال باستور وأعادوه فوق منصته، انطلقوا مثل رجل واحد لتفكيك النصب التذكاري.

ضريبة الدم

لم تكن الحروب الّتي يخلّدها الرخام حروبنا يوما. كان هذا النصب رمز المشاركة القسرية للجزائريين في الحروب الفرنسية. وكانت عائلتي بلا شك معنية أكثر من أي عائلة أخرى في المنطقة. يمثل هذا المعلم التذكاري ضريبة الدم الّتي دفعها شبابنا لمدة أكثر من قرن من الزمان للمحتل. وكان والدي رحّال ممّن تعرضوا لهذا الإكراه. وسأشرح فيما بعد كيف حدث ذلك. كان يرعى الغنم، وذات يوم « رميت العصا وذهبت »، مثلما كان يقول. جنّد غصبا عنه في عام 1916 وكان في الثّامنة عشر من عمره، ونجا من مجازر الخنادق. وعندما تم تسريحه بعد قضاء خمس عشرة سنة في الخدمة، نال منصب عمل في البلدية بأجرة زهيدة. وظيفة بسيطة أداها بتفانٍ. ولم تكن مكانته تختلف كثيرا عن مكانة عمّال المزارع الّتي يسيرها المعمّرون في المنطقة. وهذا يعني أن الخدمات الكبيرة الّتي قدّمها الجزائريون لم تفدهم في شيء. قلّد والدي الوسام العسكري وصليب الحرب. شارك في معركتي فيردان ودوماون، أكبر وأعتى المعارك الّتي شهدتها الحرب العالمية الأولى. وتنقل إلى سوريا وإلى المغرب الأقصى. وعادة ما كانت عودة المحاربين تصحبها خيبة أمل. وكان حذر الإدارة الاستعمارية، الخاضعة لنزوات المعمّرين، من الّذين عرفوا بلداناً أخرى واحتكوا بمجتمعات أخرى، بمعنى أنّهم قادرون على المقارنة بين الوضع الّذي كان يعيش فيه الجزائريون والوضع الّذي يعيش فيه غيرهم من الشعوب، جعل من الامتيازات الصغيرة الّتي كانوا يستفيدون منها يُنظر إليها على أنها إكرامية وليس حقا. لم يكن الفرنسيون يدركون بأن الإهانات واللامبالاة وكلّ أشكال الظلم والتعسف والإساءة بلغته اليومية والوعود الّتي لم توف إزاء الّذين دفعوا ثمنا باهضا في حروبهم، كانت تمهّد الطريق شيئا فيشئا لتشكل الوعي السياسي الّذي كان في انتظار الرجل الموحد والأحداث المفجرة. ما كان تحطيم النصب التذكاري يوم الاستقلال في مدينة سريانة الصغيرة عملا تخريبيا، وإنّما فعل يقصد رمز التجنيد الإجباري للجزائريين من أجل حروب لا تعنيهم ولم تجلب أي تحسن لأوضاعهم[14]. في الجبال الّتي رأيت فيها النور لأول مرّة، لا يزال القدامى يتذكرون الانتفاضات ضد التجنيد الجماعي خلال الحرب العالمية الأولى. فمن هنا انطلقت انتفاضة 1916 ضد التجنيد. وفي تلك الفترة برز اسم مسعود أوزلماظ وعمور أوموسى اللذين ثأرا بقتل كثير من العملاء[15] من الظلم الّذي لحق بذويهما. وظل الشعراء المتجوّلون يتغنون بسيرة المشاهير من « الخارجين عن القانون » إلى غاية السنوات الماضية أيام السوق.

14. لم تتعرض المقبرة المسيحية بسريانة لأي تدنيس، على غرار باقي المناطق في الجزائر بأسرها.

15. في المناطق الريفية، يعتبر « كبير الدوار » والقايد همزة الوصل الّتي تعتمد عليها الإدارة الفرنسية.

« الفرنسي نذير الشؤم »

في قريتنا الصغيرة البعيدة عن ضجيج المدن الكبرى، كان والدي ينأى بنفسه عن أي نشاط سياسي، إلا أنه كان يحس بنفس مشاعر الحرمان الّتي يعيشها بقية الجزائريين الّذين كان لهم نفس المشوار. هي ملحمة رجل تنطفئ شيئا فشيئا في تنظيف طريق بلدي أو في تصليح سقف مدرسة.

كان الوجود الاستعماري أكثر بروزا في المدن الصغيرة منها في المدن الكبرى. وكان هناك خط بارز يفصل بين المجتمعين. الأوروبيون أخذوا أجود الأراضي والبنوك تمنحهم القروض وتجارتهم مزدهرة وورشات نجارتهم تستخدم حطب غاباتنا[16]. وتعود إلى ذهني قصة، تعكس جيدا هذا الوضع. كان مقهى ومطعم القرية الّذي يجتمع فيه الأوروبيون كلّ مساء، يستعمل أيضا كمخبزة. وهو ملك لمعمّر يدعى فرانسوا دوبويسون. أتذكر، كان ذلك وقت « العزيب »[17]، فعادت أسرتنا الصغيرة إلى القرية. كنت ألعب مع بعض أترابي ليس بعيدا عن ميدان الكرة الحديدية،عندما نادى عليّ أحد أعمامي الّذي كان يقف أمام محل فرانسوا دوبويسون : « ادخل هنا، واشتر لي خبزا.. » لم أفهم لماذا أجبرني على قطع مائة متر، في حين أن سلل الخبز كانت في متناول يده. لم أتحرج من أن أقولها له، فردّ عليّ ببسمة مفزعة : « يا وليده. هل تريد أن يبدأ عمك نهاره بالتقاء عينه بعين أحد المعمرين ؟.. »

كانت فكرته الّتي لم أفهم مغزاها إلا لاحقا تترجم شعورا هو أن المعمّر نذير شؤم. ألم يكن في الذاكرة الجماعية رديفا للسلب والظلم والبطش ؟

من خلال ما عاشه والدي من ويلات الحرب، اكتسب تجربة عملية في كيفية معالجة الجروح، ووضع الجبائر لجبر الكسور، وضرب الحقن في الوريد وفي تنظيف الجرح المتعفن. وكان قد اكتسب سمعة كبيرة كمعالج « يده زهرية » كما يقال. كان الناس يأتون لاستشارته في عدد لا يحصى من الأمراض. وكان يبذل قصارى جهده للتخفيف من آلامهم عندما يكون « علمه » في مستوى العلة الّتي يشكون منها. كان هناك دائما حشد من الناس أمام منزلنا. وأحيانا عندما تشكو إحدى الأضراس، يتحوّل إلى قلّاع أسنان. ولا يطلب أجرا على ما يفعله. وكان جزاؤه الوحيد : دعاء « الله يجازيك ».

عام 1939. كان تسلسل الأحداث في أوروبا يمهّد الطريق لحدوث الكارثة الكبرى. الحرب من جديد ستأتي على الأخضر واليابس في القارة العجوز. فرنسا، وأمام القوة الديموغرافية الّتي تتفوق فيها ألمانيا، التفتت إلى مستعمراتها لتجنيد عساكر جدد. وفي تلك الفترة استدعي والدي ولم يدم تجنيده أكثر من شهر. وكان آنذاك قد ولد عنده ابنه الرّابع. وكان القانون يسمح بتسريحه فورا. فعاد إلى الدوار.

---

16. أول معمل نجارة أقيمت ليس بعيدا عن سريانة سنة 1858 على يد المدعو برودوم. قام الثلاث بتخريبها ثم حرقها في عام 1864.

17. « العزيب » هو من التقاليد السائدة في الأرياف، تدل على تنقل الناس تبعا للفصول للحرث أو للحصاد.

كانت الظّروف المعيشية صعبة في الأربعينات. إذ كانت للقيود المترتبة عن النزاع العالمي انعكاسات خطيرة في الجزائر. لذلك تعلم الجزائريون الّذين سلبت منهم ممتلكاتهم بحكم قوانين جائرة ونُفُوا إلى أراض مقفرة، كيف يعيشون في نوع من الاكتفاء الذاتي، مكتفين بالقليل. يزرعون بعض الخضر ويربون قليلا من الغنم أو الماعز. وكان أكثرهم يسرا يملك بقرة أو بقرتين. وكان عالم الفلاح الصغير كلّه يتكوّن من سنابل متناثرة وديون وأحيانا أيضا من كوارث طبيعية. وكانت التجارة الّتي يحاول بعض أرباب العائلات الشجعان القيام بها سرعان ما تضمحل وتزول. فبأي مال يمكن شراء السلع ولمن يمكن بيبعها ؟ النقود كانت قليلة. البيع بالقرض كان يهلك رفوف المتاجر النحيفة. حاول والدي تجارة القصابة، لكنه سرعان ما أدرك بأنه خاطر بمقتصداته الزهيدة بلا فائدة. أغلق دكانه، وعاد إلى حرفته الّتي كان يمارسها قبل دخوله الجندية، ألا وهي تربية المواشي. وبين رعي الغنم والاعتناء بالبستان وخمّ الدجاج والأرانب، تمر الأيام بسرعة. ولم يكن يشتكي قط. حتّى عندما أهلك مرض الجمرة الخبيثة ماشيته في غضون أسابيع قليلة. في عام 1943، بدأ الوضع في المدن الكبيرة يتحسن قليلا. كان الأمريكان قد أتموا إنزالهم في تلك الأيام. وكان الناس يحصلون على حصص (قسيمات) تموينية توفر لهم أغلبية المواد الاستهلاكية الّتي يحتاجون إليها. في الأرياف، كان الوضع قد ازداد سوءا. وتفاقمت المجاعة لما قامت أسراب الجراد باجتياح المحاصيل وتخريبها. فتاولت السلطات محاربة الآفة بمادة مضادة للحشرات ممزوجة بالنخالة. يختفي الجراد جَرًّاهَا ومعه أيضا حيوانات الفلاحين. كانت المنطقة غنية بالفرائس، وعادة ما كانت بندقية صيد والدي توفر لنا بضعة أرانب برية والحجل ذات اللحم اللذيذ. كنت كثيرا ما أرافقه خلال تلك الرحلات الطّويلة. لم أكن أحب حمل الفرائس طيلة ساعات وأفرح عندما يأتي موعد الاستراحة. كان أبي قليل الحنو علّي، لكنه يعرف حدودي البدنية. وكان وقت الاستراحة في البستان العائلي لحظة سعادة حقيقية. نأكل على عجالة، ونحن جالسون تحت ظل أشجار البلوط العملاقة الّتي يهز رأسها هدير الساقية الناعم. أحيانا تكرّمنا العائلة بوجبة ساخنة. كانت أمي، مثل جميع الأمهات الجزائريات في تلك الأيام، تسيّر مواردنا العائلية الشحيحة بالتنقيط، لكن إطعام أربعة عشر فما لم يكن مع ذلك مهمّة سهلة. الجهد والحرمان أثرا في نهاية المطاف في حالتها الصحية، فتوفيت في عام 1944، تاركة بيتها في حالة من الفوضى. تولت أمورنا جدتي من أبي. كنت في السابعة من عمري. يمتاز القرويون بالاحتشام حتّى فيِ آلامهم. يواسون بعضهم بعضا على مصائب الدهر لأنه « القضاء والقدر ». اعتدت سماع الناس المتراس ولقلالات، التلال الجرداء الّتي شهدت ميلاد ونشأة أجيال من عائلة نزار، وهم يرددون : « لا شيء يحدث من غير مشيئة الله »، أواسي نفسي على وفاة والدتي بالقول إنّها في جنات خضراء تخلد.

عام السنغاليين

كانت لي جدة قل مثيلها، تحكي لي مآثر الأوراس ومآسيها. ولطالما سبحت بخيالي وسط قصص الماضي السحيق في جو تتخلله النشوة في بعض الأحيان، ولكن في كثير من الأحيان يطبعه الرعب

والخوف. وكان خيال « الشرع الأحمر » الّذي يمسك برقاب كلّ من تمرد على النّظام الاستعماري، ليلقي به في دهاليز كيان الدهماء والخانقة أو يقيّد رجليه بالحديد ويضعه على منصة الموت، ورأسه داخل الغلالة ذات الفتحة المخضبة بدماء من أعدموا هنا، يعود كثيرا في حكايات جدتي. تتذكّر ما عاشته بنفسها وما رواه قدماء الدوار.

قديما، كان الناس في أعماق البلاد يسمّون الأعوام حسب المصائب الّتي ابتلوا بها. فكان هناك عام الشر (المجاعة)، عام التيفوس، عام الجراد۔ وعام السنغاليين... وهي من أشد المآسي الّتي أدمت الأفئدة وطبعت الذاكرة. وشاء القدر أن يكون العام الّذي شهد ذهاب والدي إلى جبهة الحرب عام السنغاليين. ما هو يا ترى عام السنغاليين ؟ منذ أن بدأت رشاشات ومدافع الجيش الألماني بإبادة الجنود الأهالي (أنديجان) الّذين أفرط في استغلالهم في ميادين القتال، ومنذ أن عرفت هذه المجازر، بدأ يتصاعد التمرد ضد التجنيد الّذي لا ينجو ومنه سوى القليل من الشباب. وكان يوم الرحيل يوما للنحيب والدموع والحزن ؛ لأن أغلب من يذهبون لا يعودون أبدا. في دوّار بني شقران غربا، وجبال بني صالح شمال سوق أهراس، وفي كلّ ربوع الأوراس، تكاثرت حالات التمرد. الإدارة الاستعمارية، وسعيا منها لإخماد النيران في جزائر لم يتم غزوها وإخضاعها بسهولة، لاسيما وأن الأوراس كانت دائما تبدي مقاومتها للمحتلين، استعانت بفيالق من المشاة السنغاليين، استدعوا خصيصا من الجبهة لقمع العصاة الّذين بدؤوا بتنظيم أنفسهم هنا وهناك في الجبال. باسم المسؤولية الجماعية، عادت المحنة الّتي عاشها أهالي تلات قبل بضعة عقود، على نطاق أوسع. مئات العائلات نهبت محاصيلها وصودرت مؤنها ومواشيها وأحرقت منازلها. « المتمردون » والفارون من الخدمة العسكريّة، لمّا يلقى القبض عليهم يعدمون بالرصاص أو يشنقون أو يصلبون على جذوع الأشجار بحراب بنادق « لوبيل » الطّويلة. ولقد أبدى السنغاليون وحشية وقسوة نادرة في الحملات العقابية الّتي يشنونها. كان قمع السكان الأصليون بسكان أصليين آخرين، الإستراتيجية التقليدية الّتي دأب عليها الفرنسيون. عاشت جدتي أيام المحنة الكبرى هذه. عرفت بعض الناجين من « الكهف الّذي قضى عليه صيحة الديك » (تقليعت يخلا أويازيظ). روت هذه الحادثة وقالت : « هروبا من السنغاليين، لجأ بعض السكان إلى مغارة بمواشيهم ودواجنهم. وكان هناك ديك هو الّذي لفت انتباه العساكر الّذين كانوا يمشطون المنطقة بصياحه ذات صباح. كلّ الّذين تحصنوا في تلك المغارة تقريبا أبيدوا تقريبا عن آخرهم[18]. القرويون وأمام اشتداد البطش حولهم حاولوا صنع مدفع. وهو عبارة عن جذع شجرة بلوط (أو كروش) مفروغ يحشى بالبارود[19] ». كانت جدتي تبكي وتضحك في آن واحد عندما تحكي صرخات وتأوهات وتوسلات المتحصننين داخل المغارات وانفجار المدفع. هل كان « الأنديجان » السنيغاليون يكنّون بغضا ما للأنديجان الجزائريين ؟ بلى، كانوا ضحايا المنطق الاستعماري. عندما اندلعت في إفريقيا الغربيّة

18. القصة حقيقية.

19. يدل « مدفع كروش » في التعبير الشّعبي على شيء ضخم وتافه ومأساوي في آن واحد. كان عبارة عن محاولة يائسة للوقوف في وجه العدو دون علم مسبق بسر أسلحته.

الفرنسية مظاهرات واحتجاجات ضد التجنيد الإجباري، تم قمعها من قبل نفس الجنود الّذين ارتكبوا قبل ذلك مجزرة في حق الجزائريين. في غمرة تلك الأحداث الدامية، أُلقِي القبض على الكثير من الآباء في الجبال وزجوا في سجن باتنة، حيث وضعوا أمام خيار مشين : أن يدفعوا بأحد الأبناء إلى وحدات المشاة لِقَاءَ حرّيتهم. بهذه الطريقة أجبر أبي على ارتداء اللباس العسكري الفرنسي.

صور محفورة في الذاكرة

في موسم « العزيب »، حيث كنّا ننزل إلى السهل لجمع محاصيل الصيف، وكانت أراضي سريانة تتحوّل إلى مجموعة أهراء يخزّن فيها القمح الصلب، كنت أرافق أبي إلى سوق الثلاثاء الّذي يعقد في الشارع المركزي بوسط المدينة، بدل الذهاب للعب الكريات أو البقاء في البيت لسماع ثرثرة النساء. سوق سريانة الكبير. صور محفورة في الذاكرة... تعرض فيه خضر وفواكه المرتفعات ودِيَكَة مربوطة مع دجاج ينقنق في معاشرة مخجلة، ويزنها الزبون بيده مثل أرانب حقيرة. ياع فيه رغيف القمح الصلب الّذي تفوح منه رائحة الجبن البلدي الّذي يحتفظ بطراوته لمدة طويلة ويساعد على « تمرير » الكسرة الغليظة المصنوعة من الشعير، وهو رغيفي اليومي. وتعرض على الأرض جبال من الأملاح السميكة والتمور المجففة الّتي يكيلها البائع بواسطة أوعية أسطوانية الشكل تستعمل مكيال السيفر. وكانت أيام الثلاثاء أيضا أياما للعرافين والمكفوفين المزيفين الّذين يخفون أبصارهم الحادة خلف نظارات سميكة، ومشعوذين ماهرين يسوّقون لأدوية سحرية تشفي من كلّ سقم وبهلوانيين بارعين وشعراء يلقون قصائد تروي السيرة الهلالية أو ملاحم ثورية تتغنى ببطولات مسعود أوزلماظ وعمر أوموسى، الثائرين اللذين هزما لوحدهما كلّ من كان يحتسبه الأوراس من رجال درك وقومية، وكذا عازفين موسيقيين يخدشون السمع بـالصوت المزعج الّذي تصدره آلاتهم القديمة. وكان هناك قوالون يقرؤون الطالع بكلامهم الهلامي السابح في أعماق الزمن، وهم من الإخوان المجاذيب أتباع المرابط الصادق الّذي يحدث الأطفال بلغة لا يفهمها أحد غيرهم. ومن الناس من يبقى مسحورا أمام نظرته فيقع عليه ما يبشره به من خير أو ما ينذره به من سوء الطالع.

كانت سنوات الطفولة الأولى سنوات تبدو فيها للمرء صورة الأب المثالية، وهيأته الجبارة. فكلّ ما يقوله له مغزى عميق ويحفظ في الذاكرة. كان والدي يؤدّي الفرائض الدينية ببساطة ومن دون غلو ولا فخفخة. وكان إسلامه مثل إسلام جميع الجزائريين مبنيّاً على الأفعال الصالحة وحسن السيرة واحترام الآخر. وكان في آخر أيامه يعتني بالمسجد وبتنقية محيطه. عندما يحل شهر رمضان لينزل السكينة في القلب والطمأنينة في النفوس، كان يتطوّع لإعلان مواقيت الإفطار بإطلاق طلقة بالمدفع[20]، كانت تسمع في أماكن بعيدة. وكان يتصدق لمدة ثلاثين يوما متتالية قبل أن يقدّم الشربة لأبنائه. وكان الناس يقولون عنه إنّ « رحال يعمل لآخرته ».

20. فوهة نارية بسيطة تستعمل في الأفراح.

عندما حل وباء التيفوس، وبرمنغنات البوتاسيوم اللذين يستعملهما أثر كبير. لقد كان التيفوس من أشد الأوبئة فتكا وإبادة في جزائر كانت فيها الشروط الصحية مزرية. أتذكر جيرانا لنا دفنوا طفلا وفتاة في خلال ساعات قليلة. ولهذا آثر حفارو القبور الاستقرار على الدوام في المقبرة. يحفرون القبور دون كلّل. ومع ذلك كانت القواعد الصحية الّتي لقّنها إيانا أبونا هي الّتي أنقذت عائلتنا الصغيرة من الهلاك.

في سنوات الجمر تلك، قام والدي بمحاولات كثيرة لحمل السلطات الفرنسية على تنظيم مأدبات شعبية لفائدة المعوزين. وقد واجه عقبات كثيرة لإقناع الإدارة أمام المرامي الخبيثة لقايد القرية الّذي كان يخشى أن ينافسه.

وظل أهل القرية إلى غاية السّبعينات يأتون إليه إما لحقنة أو لتغيير ضمادة. وبعدما تقدّم في السن وضعف بصره، أخذ برأينا لما أفهمناه بأنه قد أعطى ما فيه الكفاية، فتقاعد نهائيا كمعالج متطوّع، وأغلق بابه. حاول أعيان القرية إقناعه بالعدول عن قراره مرارا، إلا أنني شرحت لهم، متحدثا باسم كلّ العائلة، بأن يد الشيخ لم تعد بنفس تلك القوة والمهارة اللتين عهدوهما وأن حالته الصحية أصبحت تعيقه على أداء عمله. جاؤوا حتّى إلى بسكرة حيث كنت أتولى قيادة القوّات الخاصة. اضطررت بكلّ حسرة إلى أرجعهم إلى ديارهم، لكن لكلّ شيء أوان.

انتقل والدي إلى رحمة الله في فراشه، وكان في سن الثّانية والثمانين. كنت في تيندوف لمّا وصلني النبأ المفجع. وكان هناك خلل في التنظيم (لنسمه هكذا) أخّر في إبلاغي بالأمر، بسبب هذا النّظام التراتيبي العسكري الّذي لم يحتفظ من النّظام سوى باب « التسخير ». أودع جثمان والدي في المشرحة إلى حد وصولي. في طريقي إلى البيت لحضور جنازته، عادت إلى ذهني ألف ذكرى وذكرى...

بعد مرور عشرات السنين، وخلال استراحة في مرتفعات لمتارس، توقفت لأتأمل بعض الشباب المجتمعين هناك للاحتفال بإحدى المناسبات السعيدة وهم منبسطون ومنشرحون. وجدتهم في مكان أعرفه جيدا. في طفولتي، كنت أتسلق تلك الصخور الشاهقة الّتي رتبتها الطبيعة في شكلّ سيرك. حفرت عين الماء الصخرة وأخضرت سفح التل. كيف يصف المرء هذا الشعور عندما يكتشف أن الوجود كلّه خارج الزمن وأن لا شيء يتغير أبدا وأن لا شيء يتحرك من مكانه ؟ ما أيامنا سوى حبات رمل أسيرة القمع غير المبالي بالساعة الرملية. وتتوارد الذكريات الحزينة. لقد احتفظ سكان لمتارس بفن الجود والكرم. كان موسم التين والعنب قزحي الألوان والصلبة مثل الكريات الّتي كنت ألعب بها في طفولتي والّتي تتلألأ بالألوان عندما تتدحرج على الأرض. كان الخريف في أبهى حلته وبلد أجدادي في قمة كرمه وسخائه. نكهات عتيقة تخط بمحراثها في أعماق النفس بواكير النشوة والفرح. إنّها فرحة العودة إلى مسقط الرأس. ملامح وجوه تتقاطع في المشهد، ويحد من اختلافاتها رابط عائلي لا أجد له وصفا. في كلّ اختلاف في الألقاب وفي كلّ

تقاطع اللكنات، أجد بعض جذوري. جذور متقاطعة، جذور متشابكة تشكل الجذع المشترك للعشيرة الأصلية. آل بلة، وآل السنوسي وآل نزار... « هل هذا ابن رحال ؟ » سأل شخص وبحركة باليد أشار إلى ورشة بناء صغيرة – وهي مدرسة في طور الإنجاز، مضيفا : « ستحمل اسمه » يضيف. ابن رحال ؟ أحسست في خلال ثوان بنوع من الفخر ألا يتذكر أهل بلدي من أعمال آل نزار سوى منجزات والدي. في الغد ذهب ابني الأصغر، الرهيف الإحساس في هيأته القوية، للمشاركة في الحفل التكريمي الّذي أقامه أبناء قريته لجده.

الفصل الثّاني

المدرسة الصغيرة فوق الرابية

أشرت آنفا إلى أن في طريق عودتي لحضور جنازة والدي، عادت إلى ذهني ذكريات كثيرة... فلفترة معينة، أغلقت المدارس أبوابها بسبب تجنيد المعلمين ولأن البرد السيبيري كان لمعظم فترات السّنة، يحوّل حجرات الأقسام إلى ثلاجات. علّمني أبي الأبجدية اللاتينية ومبادئ اللغة الفرنسية. وهو كلّ ما تعلّمه هو نفسه عندما كان جنديا. كان في عمري ثماني سنوات لما دخلت المدرسة الفرنسية. لازلت أتذكر الدرس الأول. أمرنا المدرّس بأن ننقل على الكراس التاريخ المكتوب على السبورة السوداء : ديسمبر 1945. المعلم أوغيست تيانو الّذي قال عبارته المشهورة : « إنّ الكتابة هي فن الحمير »...

كانت مدرسة الأهالي موجودة في أعالي القرية ومطلة عليها. ولهذا كانت تسمى « المدرسة الفوقانية »، وكنت أمشي قرابة الكيلومترين لأصل إليها. وكنا كلّنا كتلاميذ الأهالي حليقي الرؤوس لتفادي عدوى القمل. كانت الدروس مكثفة، وتنهك طاقتي. أذهب إلى المسجد باكرا لتعلم القرآن إلى حدود الساعة الثّامنة، ثم بعد ذلك أتوجه إلى المدرسة الفرنسية قبل العودة إلى المنزل لتناول رغيفٍ من الكسرة، وهكذا إلى غاية حلول الليل. وعندما كنت أشتكي لأبي من هذه الوتيرة الجنونية، كان والدي يقول لي : « الفرنسية هي لغة الخبزة، والقرآن (العربية) هي لغة ديننا ». كان ذلك هو تفكير الآباء في ذلك الزمن.

كانت للجزائريين عاداتهم الخاصة المبنية على مبادئ ثابتة، وتتمثل في تلقين أبنائهم كتابة العربية وقراءتها، حفاظا على هويتهم وإفهام « حملة القبعات » بأن « حملة العمائم » قد يكونون ربما انهزموا لكنهم لم يستسلموا يوما. كانوا مصرّين على أن يتعلم أبناؤهم القرآن.

ولكي يفهمنا الفرنسيون ازدراءهم لنا، أدخلوا ضمن البرنامج التعليمي كتاب قراءة يختصر في بضع عشرات من الدروس أفراح ومآسي الشاب عبد الله. الاسم لم يتم اختياره بالمصادفة. عبد = رق، والله = الإله. عبد الله، مخلوق الله، كان صبوراً، مستسلماً، خاضعاً للإرادة الإلهية ويتقبل باستسلام قدري هذا العالم كما هو. عالم يخضع فيه الضعيف لقانون الأقوى لأن « الله هو الّذي أراد ذلك ».

احتفظت في ذاكرتي بصورة، هي معلّمي الآخر، ريني بيروشو[1]، وهو يحمل فأسا على كتفه لاقتلاع جذور نبات الوزال (أززو بالبربرية) في الجبل. كان عطوفا على تلامذته، وكنا نعامله بالمثل فنحمل إلى المدرسة كلّ الحطب الّذي يجمعه لتدفئتنا ولتدفئته هو أيضا.

كان ينظم لنا الرحلات وجولات في البراري للمتابعة التطبيقية لدروس العلوم الطبيعية الّتي يعطيها في القسم. فكان الإنساني ريني بيروشو ينسينا مصير عبد الله الصغير.

بعد ذلك بسنتين، تمكنت من الانضمام إلى المدرسة المخصصة لأبناء المعمرين. لا أعرف ما إذا كان ذلك بسبب علاماتي الجيدة أو لأن الإدارة أرادت أن تخادع الناس بمظهر من مظاهر الانفتاح على المسلمين.

في هذه المدرسة، يحتوي « كتاب اللغة الفرنسية الموحّد »، الّذي أصدرته منشورات فرناند ناثان، مجموعة من النصوص المستمدة من أبرز الكتّاب الفرنسيين.

كنت أبدو بِوَجْهٍ بائس أمام زملائي الأوروبيين الصغار الّذين كانوا يرتدون ملابس جميلة وأحذية مع جوارب. وكان أغلبهم غير مجتهدين في الدّراسة، ومع ذلك ينتقلون إلى الأقسام العليا. كما أنّهم يجدون أنفسهم بشكل طبيعي في المدارس الثانوية. وبعضهم يسافر لمزاولة دراستهم في فرنسا.

استمرت دروسي في هذه المدرسة سنتين. ولقد ساعدتني معلّمتي آني كلافيير[2] بأقصى ما تستطيع. تعطيني دروسا خاصة لمدة ساعتين يوميا. وكانت عادة ما تقدّم لي القهوة وحتّى الشوكولاته. وفي وقت لاحق، تمكنت من اجتياز امتحان الابتدائية، الّذي كنّا نسميه « امتحان المنحة. »

لم يتمكن من مواصلة تعليمهم خارج القرية سوى تلميذين، هما ابن أحد الفلاحين الأثرياء[3] وأنا. كان والدي من فقره لا يستطيع أن يشتري لي جهاز المستلزمات المطلوبة وأن يضمن لي تكاليف النقل وغيرها من النفقات.

نصحت آني كلافيير والدي بأن ترسلني إلى مدرسة أطفال الجندية الّتي كانت موجودة آنذاك في مليانة، قبل نقلها إلى القليعة[4]، بالقرب من العاصمة. وافق والدي. وكان قراره يعني تجنيدي في الجيش الفرنسي لمدة خمس سنوات. لم يكن لديه خيار آخر. كان عليه إما ذلك أو دخولي الفوري في الحياة العملية كعامل يدوي في مكان ما.

لم أكن في سن يسمح لي بالاهتمام بالحركة الوطنية، ولا لفهم ما يحدث في عالم الكبار. لكنني أتذكر أنه في شهر ماي 1945، كان سكان القرية يتحدّثون، بكلّ فخر وخوف في نفس الوقت،

---

1. بقي ريني بيروشو، المولود في 21 جيولية 1925، في سريانة إلى غاية الاستقلال. شيّد ملعبا وكوّن عدة فرق لكرة القدم. كما فتحت زوجته مدرسة لتعليم الخياطة للبنات مجانا.

2. آني كلافيير من مواليد سريانة، وكانت والدتها تسيّر مطحنة.

3. هو مناصر مسطفى الّذي التحق فيما بعد بالمدرسة الباديسية بقسنطينة.

4. أصبحت بعد الاستقلال مدرسة الإطارات.

عن المظاهرات من أجل الاستقلال الّتي هزت سطيف وقالمة وغيرها من مدن الوطن وعن المجازر الّتي أعقبتها.

« معتدل سر ! »

لم نكن كعسكريين شباب فخورين بوجودنا في القليعة، لكن أوضاعنا الاجتماعية المتواضعة لا تسمح لنا أن نحلم بشيء آخر. كنا بؤساء في بدلاتنا غير الشيقة. يوم الأحد عندما كنا نسير بخطواتنا المنتظمة ونحن نرتدي الجزمات العسكريّة ذات المسامير في وسط المدينة للذهاب إلى السينما أو إلى الملعب الرياضي كانت النظرات المتهكمة تلاحقنا. ومنذ بداية العطلات كنا نرتدي، كي لا يلاحظنا أحد، ما إن نغادر المدرسة، الملابس المدنية الّتي كنا أخفيناها عند بعض السكان أو في خزائننا.

أول إجازة قضيتها كانت عام 1951، وقد قادتني إلى عاصمة الدولة المستعمرة. أتاحت لي هذه الزيارة الفرصة لأدرك بأن دور القليعة الوحيد كان إعدادي إعداداً محدوداً يتناسب مع وظائف مستقبلية برتب ثانوية. فكانت مدارس أولاد العسكريّين الموجودة في فرنسا تشمل دورات تعليمية مختلفة تسمح بالانتقال إلى المدارس الكبرى.

مع تقدمنا في العمر كان يزداد وعينا بوضعيتنا كمحتلين. كثير من المعلمين كانوا يحوِّلون الدروس في بعض الأحيان إلى حلقات توجيه سياسي. ودروس في تاريخ فرنسا لا تصور الجزائر إلا مهزومة ومهانة، ويسعون بخبث ليجعلوا منا فرنسيين. كانت طعنات يومية موجهة إلى هويتنا وكرامتنا. لكن قلة كانوا تغرّهم دعوات الاندماج. وكانت الجنسية الفرنسية غالباً ما تقود إلى الانسلاخ عن الهوية وهذا ما كان الجزائريون يعتبرونه قمة الحقارة والدناءة[5].

كان هناك معلم جزائري واحد فقط هو محمد سعيد أوجهان[6] كانت له علاقة ممتازة معنا. كان وطنيا ويعبّر عن ذلك بطريقة ذكية. وكان يقول لمن تستهويه الجندية : « سوف يجعلون منك عريفا.سوف لن تميز شمالك عن يمينك. وسوف يضعون لك مكنسة في يدك اليسرى وبندقية في يدك اليمنى ويصرخون في أذنك : بندقية ! مكنسة ! بندقية ! مكنسة ! و هكذا ». كان منهجه التربوي فعالا. يملي نص التمرين وأثناء البحث عن الجواب يدندن لحنا بلديا صغيرا نابعا من وادي الصومام. كان محبوبا، وكثيرا ما ينوب عن مدير المدرسة. عندما نسأله عن سبب عدم ترشحه لشهادة التبريز، يجيبنا بنوع من الحسرة أن انتماءه للأهالي (الأنديجان) لا يسمح له بذلك. وهي طريقة واضحة لوصف الوضع الحقيقي الّذي نعيشه.

---

5. يسمى المتجنس « مطورز »، وتعني الخائن لعقيدة أجداده.

6. محند السعيد من مواليد آقبو عام 1914، عمل في سلك التعليم منذ سن مبكرة، وحصل هذا الأخير على شهادة التبريز في الرياضيات، وعمل بأقصى مجهوداته على محاربة الجهل.

تزامنت سنتي الأخيرة في المدرسة مع اندلاع الثورة المسلّحة. وكان معظمنا يقول بحماس : « أخيراً ! لقد حان الوقت أن ينهض الجزائريون من أجل حرّيتهم ! ». الطلقات الأولى في نوفمبر جعلتنا نعي بأن وضعنا كجزائريين أبناء أمة مستعمرة خاضعة للظلم، ليس أبديًّا وأنها لا تعتمد إلا علينا لنكون صنّاَع التغيير.

كان معظم المعلمين من أشد أنصار « الجزائر الفرنسية ». وكان مدرس اللغة الفرنسية بوفارون يشفي غليله علينا. بلكنته الخاصة بمنطقة بورغينيون يسخط ويزمجر : « لو يعطوني سيارة جيب ورشاشا، وأجوب الأوراس ! ». ويسمع التلاميذ في آخر الصف يتمتمون : « نعم، تمتموا ! » فيمطرهم بالعقوبات والتوبيخات.

من هذه المدرسة، حيث كانت الأوضاع قاسية جدّاً بكلّ المقاييس، خرجنا بحد أدنى من المعارف، وقد اشتد عودنا وصرنا قادرين على مواجهة مصاعب الحياة. كانت مدرسة القليعة المصدر الحقيقي لإمداد الثورة بالعناصر والإطارات ولم تقدم أي مؤسسة أخرى ما قدّمته للبلاد.

في القليعة، على غرار باقي الثانويات والإكماليات في الجزائر، استجاب الكثير من الطلبة لنداء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. أوقفوا دراستهم والتحقوا بصفوف جيش التّحرير. ولقد التقيت لاحقا في الجبل بعدد من زملائي في المدرسة[7].

كنّا كعسكريين على دراية بإمكانيات وقوة الجيش الفرنسي، لكن كان لدينا الإيمان.

لم يكن الّذين أطلقوا الثورة في نوفمبر واهمين. كانوا يعلمون أنّهم سيواجهون جيشاً فرنسياً ذا خبرة قتالية، وتجارب في استعمال أقسى أنواع القمع، دون خوف من تحمل مسؤولية ذلك، أو الخضوع لأي نوع من أنواع العقاب. وكانوا يعلمون أن الجزائر لم تكن أرضاً بوراً، كما كانت سنة 1830 – بل صارت دولة ذات حدود معترف بها دولياً اعترافاً قانونياً وفعليا، وأرضاً تشكل جزءاً لا يتجزأ من الجمهوريّة الفرنسية، بحكم وجود مليون أوروبي يعيشون فيها منذ عقود طويلة.

لقد تحولت الجزائر في اللاوعي الفرنسي الجماعي، بعد اكتسابها بثمن كبير من الدماء، بفعل مرور الزمن، وبحكم استيطان الأوروبيين فيها، إلى امتداد طبيعي للأرض الفرنسية. لقد تحولت إلى حجر الزاوية في البناء الامبراطوري، على الأصعدة الجغرافية والاقتصادية والاستراتيجية. صارت العمق الاستراتيجي للبلد، وقد استند إليها لمواجهة « خصمه التاريخي »، في سنوات 1870 و1914 و1939.

كانت فكرة استقلال الجزائر، تثير القشعريرة في بدن الفرنسيين، بمن فيهم أكثرية المنتمين إلى اليسار، الّذين لم يكونوا مناقضين لمبادئهم إلا في هذه المسألة. لكلّ هذه الأسباب الإنسانيّة والعاطفية والجيوسياسية والجيوستراتيجية، كان متوقعاً أن يدافع الفرنسيون عن الجزائر بشتى الوسائل.

---

7. علي « القاهرة » وبناصر عبد الوهاب الّذي أنعهى مشواره العسكري كعقيد في الجيش الوطني الشّعبي. لقب علي « القاهرة » بهذا الاسم لأنه أرسل إلى العاصمة المصرية لفترة تكوينية وجيزة. سرق بناصر عبد الوهاب مسدس والده، الّذي كان يعمل حارس بلدي، ثم التحق بجيش التّحرير وكان في الخامسة عشر من عمره. يوجد عشرات من قدماء مدرسة القليعة ممن أدوا واجبهم=خلال حرب التّحرير، واستشهد كثير منهم.

كان مفجّرو حركة نوفمبر يعرفون ذلك ورفعوا التحدي. كنا ننتظر الفرصة المواتية لنحذو حذوهم. فالقوة العسكريّة الفرنسية لم تُخِفْنَا.

لقد ارتديت اللباس العسكري في مدرسة ستراسبورغ وأنا في السابعة عشرة والنصف من عمري، بينما كانت القوانين تفرض إتمام الثّامنة عشرة. استفدت مثل رفاقي من « دفعة لاكوست ». من خلال هذه « الإكرامية » اعترف لاكوست بأن الجزائريين، من جميع الشرائح الاجتماعية والمهنية سواء كانوا في الجيش أو في الإدارة، تعرضوا للتمييز العنصري وأن الخدمات الّتي قدّموها لم تنفعها للترقية قط. كان روبير لاكوست يعتقد بأن « كرمه » يمكن أن يجفف منابع الغضب ويضمد الجراح القديمة. لم يفهم شيئا. لأن الجزائريين ما عادوا يكافحون من أجل تكافؤ الفرص وإنّما من أجل الحرية. كانت مجازر ماي 1945 في الشرق القسنطيني، الّتي ارتكبتها ميليشيات إجرامية، بدعم من الإدارة المحلية المتمردة على حكّامها المركزيين، بحجة استباق خطر وطني، قبل كلّ شيء هزيمة لمعجم ثورة 1789، الّتي أعطته تضحيات أولئك الّذين تصوّروها بعدا استثنائيا. هذه المجازر الجماعية الّتي أقر بها أصحابها، في جزائر أصبحت تتناقل فيها الأخبار بسرعة، أحدثت تمزقا في الرباط الّذي نسجته بين الشّعبين المدرسة الفرنسية الجمهوريّة والإنسانية الّتي استطاعت أن تنسي للسكان الأصليين « المتطورين »، عن طريق اجترار المبادئ العظيمة والنبيلة، قسوة وعنف الاحتلال[8]. فالمقابر الجماعية في قالمة وسطيف، دفنت كلّ الأوهام، وفتّحت جيلا من الجزائريين على المعنى الّذي أعطاه أنصار النّظام الاستعماري لمفردات « الحرية » و «المساواة ». ومن جراء ذلك، لم يعد الجزائريون المنبوذون والمنكلّ بهم يطالبون بالاندماج وإنّما بالاستقلال. إنّ الفاتح نوفمبر 1954 في الحقيقة بدأ في الثامن ماي 1945. ولم يكن روبير لاكوست يفهم شيئا.

الجيش الفرنسي من خلال أعماله

عند عودتي إلى أهلي بعد عام قضيته في فرنسا، رأيت بأم عيني ما وصلني عن طريق السمع. أن الجيش الفرنسي، وأمام تمدد الانتفاضة واستماتة جيش التّحرير الوطني، اِنقلب على السكان المدنيين. لم تكن أفعاله « تجاوزات » معزولة. بل كان يطبق نظرية المسؤولية الجماعية. فالفرنسيون الّذين كانوا دائما متأخرين من تطور العالم، كانوا ينظرون إلى الجزائر بعيون جنرالات جيش إفريقيا الّذي عاش في القرن الماضي، وكان الجنرال شيريار[9] والجنرال بارلانج[10] يتحدّثان عن

---

8. كان لريني بيروشو وآني كلافيير وآلاف من الفرنسيين صفات إنسانيّة كبيرة، فلم يكونوا يوما شركاء في الفظائع الّتي ارتكبت في الجزائر، ويذكرهم الجزائريون بحب.

9. آخر قائد عام في الجزائر مع بداية الثورة.

10. في 22 جانفي 1955، أرسل الجنرال شيريار، قائد المنطقة العسكريّة العاشرة، إلى وزيره بعدما تذكر بحملاته في المغرب الأقصى، ليطالبه بالتعزيزات الّتي وعد بها ولم تصل إلا بالتقطير وكذلك بإمكانيات إضافية لإقامة « مكاتب عسكرية للعمل والاستعلامات ». بهذه الصيغة استحدث في المغرب عام 1909 المصلحة الّتي أصبحت فيما بعد تسمى « الشؤون الأهلية ». كما اقترح الجنرال في نفس السياق « توأمة على كافة المستويات للسلطات المجنية والعسكريّة ». ولهذا الغرض، طلب بأن يرسل إليه ضبّاط من الشؤون الأهلية بالمغرب المتفرغين بعد تبوء محميتنا للاستقلال. وعيّن هؤلاء الضباط في الأوراس ومنطقة القبائل.

تمرد القبائل في الأوراس. كان بارلانج مثلا يعتبر عباس لغرور وليا من الأولياء الصالحين، فأرسل إلى القائد العسكري في الأوراس ليحذّره من « سيدي عباس ». فلم تكن لديه قراءة صحيحة عن المجتمع الجزائري الجديد. هناك نخب حضرية وريفية أنضجها النضال الحزبي، وكوّنت نفسها في السرية، وعرفت السجون والمنافي واستخلصت الدروس من الإخفاقات السابقة، هي الّتي كانت تقود الثورة. فالوصفات القديمة الّتي كانت تتمثل في إلقاء قبيلة على أخرى أو في تحقيق السلام عن طريق القيام بالعمل القذر لحساب أشخاص مثل بوعزيز بن قانة، لم تعد صالحة. أصبحوا مجبرين على القيام بالعمل بأنفسهم.

فقد العملاء الّذين يوظفونهم كلّ مصداقية في نظر مواطنيهم وأبعدوا عن أوساطهم.، كانوا خونة بأتم معنى الكلمة، فما عاد بإمكانهم أن يلعبوا دور همزة الوصل مع السكان، مثلما كان يفعل بعض كبار الوجهاء بعد غزو الجزائر. فقد الجيش الفرنسي صوابه بسبب المقاومة الّتي يلاقيها، وبفضل تغطية السلطات السّياسيّة، راح يعذب ويغتصب ويحرق ويذبح دون تمييز للسن أو الجنس. ولقد قتل أفراد من عائلتي كانوا يسكنون الجبل. وخلال هذه العطلة القصيرة شهدت عملية تمشيط أسفرت عن عشرات القتلى من المدنيين.

رويت لي قصة استشهاد طفلين صغيرين في « بطيحت ». عشية عيد الأضحى، كان هناك أب عائد في وقت متأخر إلى بيته كان يحمل معه زجاجة من شراب لعائلته. لم يكن هناك ماء في المنزل. بعث ابنيه، وهما في سن العاشرة والحادية عشرة، إلى أقرب منبع. وكان هناك حظر التجول. نصب لهما الجنود الفرنسيون كمينا. وعثر على جثتي الطفلين مزروعتين بالرصاص في الأحراش. في اليوم التّالي، نزل القتلة، وهم فخورون بجريمتهم النكراء، إلى سريانة لاستفزاز السكان، وهم يترصدون أدنى حركة معادية لإطلاق النار على الجموع.

رقم 04 من الشارع الرّئيسي في القرية[11]، منزل ذو نوافذ مغلقة. واجهة كئيبة. كلّ البناية تتقطر رعبا. فلقد أقام الجلادون بداخلها آلتهم الجهنمية. وهناك كان يخضع المعتقلون في التلال المحيطة للاستنطاق قبل أن يغتالوا.

وعند عودتي إلى سريانة بعد عام من الغياب اكتشفت عن قرب معنى « التهدئة » على الطريقة الفرنسية. إنّ روايات الّذين شاهدوا مجازر المواطنين المدنيّين الّتي قام بها جيش

بعد سقوط منديس فرانس، جاء في مكانه إدغار فور. وتولى الحاكم العام جاك سوستال التكفل بمطالب الجنرال شيريار، فوضع تحت تصرفه الجنرال بارلانج وهو من قدماء الشؤون الأهلية « المغاربة »، استدعي إلى الخدمة مجددا بعدما أحيل على التقاعد. عيّن قائدا مدنيا وعسكريا لإقليم يضم الأوراس والنمامشة، مكلّفا بعملية نموذجية جنّد لها فريق من أربعة عشر ضابطا من الشؤون الأهلية وأحد عشر ضابطا من الشؤون الصّحراوية. عيّنوا على رأس أقاليم إدارية استحدثت بعد تقسيم عدد من البلديات المختلطة. شرعوا في ربط الاتصال بالسكان وهم في حالة من الرعب والخوف وتحت تأثير خفي للثوار.

المصدر : « الشؤون الجزائرية والفروع الإدارية المتخصصة » جورج أودينو

11. أصبح بعد الاستقلال يسمى شارع أحمد وزرة. ولقد سمحت أعمال حفر بنبش عشرات من الرفاة.

الاحتلال كانت كثيرة وتفصيلية. بعض أفراد عائلتي الّذين كانوا يسكنون في الجبل كانوا قد قتلوا. والكثير من أعمامي وأولادهم كانوا قد التحقوا بالمقاومة : لم يكن لدي إلا رغبة واحدة وهي الالتحاق بصفوف جيش التّحرير الوطني. أسباب قاهرة أجبرتني على أن أقوم بذلك على بعد أميال من المنزل العائلي. أعتقد أن « حبل السُّرَّة » مع الحضن العائلي يجب أن يقطع بطريقة واضحة ونهائية. المسافة هي أفضل « حريق للمركب » لمن يريد الانطلاق دون أن ينظر وراءه ما دامت المغامرة الّتي دخل غمارها لم تتحقق بعد. كان سوء تفاهم قديم بين أبي ومسؤول محلي صغير في جيش التّحرير الوطني بالنسبة لي سبباً آخر كي لا أقع في فخ الخلافات القديمة حول حدود الملكِيَّة الزراعية، وخوف الظهور بمظهر العاصي لإرادة أهله وبطريقة تراجيدية وكلاسيكية : « إنّ لم تكن أنت، أخوك إذن ».

كان هناك اعتبار آخر أثر في قراري بعدم القتال في بلزمة. وهو أن جهاز الاستعلامات الفرنسية كان فعالا. فهو يعرف عدد واسم ورتبة ووظيفة المجاهدين. فلو يعلن عن اسم خالد نزار في محيط سريانة، فهذا سيجلب حتما متاعب لوالدي ولأهلي. بينما كنت أريد أن أوفر عنهم هذه المصائب.

الفصل الثّالث

لاندو في بلاتينا

بعد تخرجي في سن التّاسع عشرة ونصف من سانت ميكسان Saint-Maixant[1]، عيّنت في مارس 1957 في اللّواء الثّالث عشر للمشاة المتمركزة في لاندو بألمانيا. كان الفرنسيون بإبعادهم الوحدات الجزائرية عن الجزائر، يريدون تفادي حالات الفرار المتكاثرة. في هذه السيرة سأتطرق كثيرا لعبد الرحمن بن سالم وأحيانا لمحمد عواشرية. في شهر مارس 1956، قام هذان الرجلان، وهما من قدماء الهند الصينية، بتخريب ثكنة البطيحة الواقعة بالقرب من سوق أهراس بعدما قضيا على الضبّاط الأوروبيين. التحقا بصفوف جيش التّحرير الوطني ومعهم كلّ أسلحة الكتيبة. في أعقاب تلك الحادثة برز اسم الكولونيل بيجار. لما عجز عن القضاء على « المتمردين »، أمر بإبادة سكان أحد الدواوير كان قريبا من البطيحة، دون تمييز في السن أو الجنس. نذكر أن بيجار دفن في مقبرة « الأنفاليد » بباريس. والّذي تلا الكلمة التأبينية على روح « أكثر الضبّاط الأحياء تقلدا للأوسمة في الجيش الفرنسي » نسي أن يذكر ضمن القائمة الطّويلة لبطولات الجنرال العظيم ومآثره، إنجازه التاريخي في مشتة الظهاورة.

كنت في لاندو بعد أن كتب الملازم رحماني باسم ستة وخمسين ضابطا جزائريا رسالة إلى رئيس الجمهوريّة الفرنسية مطالبا بإعفاء الجزائريين الّذين ينشطون تحت لواء الجيش الفرنسي من إطلاق النار على إخوانهم. ولما تأخر الرد، اجتمع الضبّاط الستة والخمسون للنظر في القرار الواجب اتخاذه.

البعض مثل عبد القادر شابو ومحمد زرقيني وبن عبد المومن ومحمد بوتلة وعثمان السايس وآخرين، قرّروا وضع أنفسهم تحت تصرف جبش التّحرير، فيما اختار آخرون البقاء في الجيش الفرنسي. إنّ اكتشاف الجزائريين مرّة أخرى، بعد انتهاء الحرب أو بالأحرى الحروب الثلاثة – الأولى والثانية وحرب الهند الصينية [2]– الّتي ترك فيها الكثير منهم صحتهم وفي غالب الأحيان حياتهم،

1. تحتضن سانت ميكسان المدرسية العسكريّة للمشاة، ويكوّن فيها ضبّاطا يدخلونها عن طريق المسابقة. ولقد تم قبولي فيها بعد نجاحي في مسابقة الحراش.

2. أثناء حرب الهند الصينية، استعمل الجيش الفرنسي ضد الفيتناميين قوّات استعمارية مختلفة، خاصة منها الجزائرية.

بأن لا شيء تغير ولا شيء سوف يتغير في « جزائر بابا » الّتي لا تهمها سوى امتيازاتها، أدى إلى تشكل الوعي وبعد ذلك إلى قطيعة دموية مع النّظام الاستعماري.

لم يكن التحاق الجنود الجزائريين في صفوف جبهة التّحرير الوطني خلال حرب التّحرير وليد الصدفة. بل كان نتيجة تطور بطيء لكنه أكيد. عندما اندلع الكفاح المسلح، لم يتقبل الجزائريون النعت الّذي أراده الفرنسيون أن يشمتوا به « الخارجين عن القانون » مثلما أصبحوا يتقبلونه بفخر، نعم خارجون عن القانون الفرنسي.

قرار الانتقال إلى الفعل، أي إعلان الكفاح المسلح، صدر من المناضلين الوطنيين مصطفى بن بولعيد وكريم بلقاسم واعمر أوعمران وأحمد بن بلة ومحمد بوضياف وعشرات من الوطنيين الّذين زجوا في حروب لم تعنيهم.

قبلهم، مرّ الأمير خالد، وكان برتبة عقيد احتياطي في الجيش الفرنسي، بنفس التجارب، وحاول المحتل إلهاءه بوعود لم ينفذها يوما، وانتهى به الأمر إلى أن انخرط في « نجم شمال إفريقيا »، الحزب السياسي الّذي أنشئ لتحقيق مطلب الجزائريين في الاستقلال.

لقد بيّن هؤلاء الرواد الطريق للشباب الجزائري المجنّد في الجيش الفرنسي الّذي التحق بصفوف جيش التّحرير فور اندلاع الثورة.

التقيت بالعديد منهم، أذكر سعيد لاندوشين، لخضر لاندوشين، محمد كاسينو وأحمد « 86 »[3].

وكان هناك نقيب نسيت اسمه، وهو أيضا من الموقعين على رسالة الستة والخمسين، حاول أثناء عشاء إقناعنا بألا نسمع سوى صوت « الحكمة »، بمعنى ألا نفكر في الفرار. لاشك أن قادته كلّفوه بترويضنا. ولقد عيّن هذا الضابط فيما بعد في ثكنة مختصة في التجنيد بتبسة. لكنه لم يكن الداعي الوحيد للإخلاص. كان هناك الرّائد دردور وضابطان يدعيان لخضر وسفير، اختاروا هم أيضا الاصطفاف مع فرنسا. أصيب لخضر عشية عيد الأضحى بالقرب من الحي العسكري بطلقة من الرقيب زرزوري. في صباح اليوم التّالي، وصلني أن الأمن الفرنسي كان على علم بأن منفذ العملية تمكن من التسلل داخل الثكنة، بعدما أطلق النار على لخضر. حاولت سلطات لاندو تهريبه من ألمانيا، لكن نظرا لعدم وجود اتصال مع فدرالية جبهة التّحرير في فرنسا، ألقي عليه القبض في الحدود واقتيد إلى سجن لاندو. خفنا أن يتكلم تحت التعذيب، لكنه صرّح لمن كانوا يستنطقونه

3. كانت بندقية « لوبال » نموذج « 86 » السلاح الّذي تجهز به فرق المشاة الفرنسية خلال حرب 14 - 18. في منطقة أولاد بشيح، كان لخضر مخالفية، وهو من الفارين في فيفري 1955 من ثكنة عين سنور، يعلّم لرفاقه المبدأ الأول في حرب العصابات : « انقح وانجح » (اضرب وانجح). خلال معركة جبل بوعمود جنوب الونزة، في أول أسبوع من شهر رمضان عام 1956، أبيد ماتا مجاهد بقيادة الطيب بواستية من طرف سريات آلية فرنسية بعدما تخندقوا في أحد المنحدرات. هي صوّر تذكّر بحرب الخنادق (14 - 18).

استطاع يوسف لطرش الّذي قاد معركة سوق أهراس الّتي استمرت 7 أيام متتالية، أن يقف في وجه قوّات أكبر بكثير وأن يكبّدها خسائر فادحة (طالع في الملحق الصفحات الّتي أفردتها لهذه المعركة) لأنه طبق المبدأ الأساسي في الحرب، ألا وهو الوقوف من أعلى.

بأنه أطلق النار على لخضر لدواعي أخلاقية. فلم يتوقف التهامس بين نزلاء الثكنة. وما زاد على الجو توترا تحركات بعض الرفاق. منهم موسى حمداش، وهو من الحراش يمتاز ببنيته الرياضية، الّذي تمكن من التوغل إلى غاية مكاتب الضبّاط عن طريق الموقد ليترك بداخلها منشورات لجبهة التّحرير الوطني. واستطاع آخرون إضرام النار في محطة بنزين الحي. حظيت بلقاء الرقيب لبوخ[4] الّذي وضعني في ثقته. أبلغني بأن جبهة التّحرير أمرت ضبّاط الصفّ بالنشاط وأنها تطلب في نفس الوقت من الضبّاط عدم التورط في عمليات غير محسوبة لتفادي إثارة الشبهات. وقال لي بنوع من السرية : « نحن نحتاجكم لشيء آخر ». بقيت أنا ورفاقي المصمّمون على الرحيل، نستمع للأقوال والشائعات والهمسات بصبر وأناة.

تحت المجهر

تحت إلحاحي تنازل لبوخ لطلبي، فوعدني بأن يرتب لي لقاء مع مسؤوله المباشر. وبعد فترة زمنية وجيزة، حدد لي موعدا في حديقة عمومية في وسط المدينة. من المقرّر أن يقابلني رجل وأقول له كلمة السر. عندما وصلت إلى المكان، رأيت سيارة من نوع « فورد طونيس » تقترب، فتبتعد ثم تعود. نزل منها الرقيب الأوّل لخضر. كنت أراه يوميا، لكني لم أتصور أنني سوف أقابله هنا. نسيت أن أقول كلمة السر. ومع ذلك طلب مني أن أرافقه إلى غاية السيارة. كان هناك رجل ثان بداخلها، لاشك لمراقبة المحيط. أخذت مكاني داخل السيارة الّتي توجهت بنا صوب الحي العسكري حيث التقيت بالمساعد الأول جبايلي. أخبرني هذا الأخير، وهو ممثل جبهة التّحرير في لواء المشاة الثّالث عشر، بأن الاتصال مع المنظمة في ألمانيا وفدرالية فرنسا انقطع. طلب مني أن أسلّمه صوري الشمسية للرقيب وأن أتريث..

كان الضغط عليّ وعلى رفاقي المصمّمين على الالتحاق بصفوف جيش التّحرير قويا جدا خلال الأشهر الثمانية الطّويلة الّتي استغرقها الانتظار. فرض علينا الضبّاط الفرنسيون تنشيط حصص في العمل البسيكولوجي يتوجب علينا خلالها التركيز على الإخلاص والانضباط. أحسست بذلك كامتحان لنا... كنت اتلعثم وأبحث عن كلماتي. كنت أردد طول الوقت : « هل فهمتم ؟ »، على أمل أن يفهم المستمعون الجزائريون ما أرغمت على قوله. أحيانا كان يأتينا « أخصائيون » من الجزائر لإلقاء محاضرات. فهمت أنّهم أبلغوا عنّي، فراحوا ينظرون إليّ بإلحاح ويسألونني عن رأيي في أحاديثهم. فلم يعد لديّ شك بأني مستهدف وموضوع تحت مجهر المراقبة.

كان سيف داموقليس مسلّطا على رؤوسنا. وكان اعتقالنا يبدو وشيكا. فقرّرنا الرحيل. كان لدى عبد المالك قنايزية نفس الاستعداد، كما أن هناك رفيقين آخرين يريدان الانضمام إلى المغامرة.

4. سجن فيما بعد لمدة أربع سنوات. أنهى مشواره العسكري في صفوف الدرك الوطني بعد الاستقلال.

هما موسى حمداش[5] ومسعودي رابح الّذي اختبأ في الأخير عند متعاطفين ألمان بعدما اكتشف الجيش الفرنسي نشاطه « التخريبي ». طول الانتظار زادنا عصبية. في أول محاولة، عيّنت لعقد اتصال مع ممثل لجبهة التّحرير الّذي لم يحضر قطّ في المكان المتفق عليه. انتظرته عدة مرات إلى غاية ساعة متأخرة من الليل. كان علينا أن نرحل مهما كلّفنا الأمر. أخيرا أخبرنا بحضور عَوْنِ « اتصال » في العاصمة الألمانية مكلّف بإيصالنا إلى بر الأمان.

في اليوم المقرّر، أخبرت مساعدي بأنني سأتأخر في حصة الرماية، مبررا ذلك بأنني قد أسهر في ذلك الأحد وأنني سوف ألتحق به فيما بعد، علما بأن ميدان الرماية يبعد بستة كيلومترات عن الثكنة. في الصباح، تناولنا الفطور في مطعم ضبّاط الصف، الأقرب من المكان المتفق عليه. وحسب تعليمات رجل الاتصال، ذهبنا إلى دورة المياه بالتناوب لحرق أوراقنا لتختفي نهائيا في المجاري. نقطة اللارجوع...

علينا في حالة تعرضنا للتفتيش من قبل الألمان أن نقول بأننا تونسيون أو مصريون. على أن نؤكد لهم أقوالنا في قنصلية هذين البلدين الشقيقين. التعليمة الّتي تلقتها هاتان الممثليتان هي أن تستقبلا الشباب الجزائريين الّذين يتقدمون إليهما وأن توفرَا لهم التغطية اللازمة في انتظار أن تتكفل بهم جبهة التّحرير الوطني.

في المكان المتفق عليه، وعلى بعد أمتار من مطعم ضبّاط الصف، كان هناك رفيق في انتظارنا. هو من عائلة عبد الصمد من باتنة. تعرفت عليه بالرغم من خوذته وسترته الكندية. لم أعتد رؤيته سوى باللباس العسكري أو المدني. لما رآني مستغربا من لباسه، طمأنني ودعاني لاتباعه إلى حدود غابة حيث وجدنا سيارة فولكسفاغن صغيرة مركونة فيها. دخلت في السيارة بعده، وكذلك فعل قنايزية. انطلقت السيارة. سهل الراين جميل لكن لم يكن لي مزاج للاستمتاع به. أخبرنا عبد الصمد بأننا سنقضي الليلة في مكان آمن لإبعاد الشبهات. انتظرنا رجل اتصال « النّظام » في فندق « آستوريا ».

لم يحضر الرجل سوى في الغد في حدود منتصف النهار. هو أيضا من الرفاق القدامى. كان نواري قد فر من ثكنة سانت ميكسان، ولم أكن أتصوّر أبدا أنه ينشط في ألمانيا.

« نحن لوغالي »

ضرب لنا النواري عدة مواعيد، لكنه كان لا يأتي قطّ في الوقت المحدد، مبررا تأخره بكون أن جهاز « الدي أس تي » يتعقبنا. فهمنا أن « النّظام » يأخذ جميع احتياطاته عندما يتعلق الأمر بالجنود، وهذا أمر جد معقول. وريثما يتحدد الموعد، لم تكن الأمور سهلة بالنسبة لنا. كنا

5. استشهد موسى حمداش في ساحة الشرف.

معزولين في فندق، ولم تكن لدينا أية أوراق هوية. ومن حظنا أن السلطات العسكريّة ارتكبت خطأين : أرسلت إلى ألمانيا مجندين تحوّلوا بسرعة إلى أعضاء في المنظمة المدنية لجبهة التّحرير، ولا تصدر أوامر بالبحث عن الفارين إلا بعد أحد عشر يوما. هكذا كان القانون.

دام الانتظار ثلاثة أيام. في اليوم الثّالث، عاد المكلّف بالاتصال. سلّمنا مبلغا ماليا لشراء تذاكر الطّائرة للذهاب إلى تونس. كما سلّمنا وثيقة وعنوان القنصلية. أسرّ لنا بأن هناك أعضاء من فدرالية جبهة التّحرير بفرنسا يريدون مقابلتنا. في المساء، تناولنا القهوة معهم وودّعونا. لازلت أتحفظ في ذاكرتي بصورة سي عبد الحفيظ كيرمان، وبشهامته وطيبته وظرافته وفصاحة لسانه[6].

في اليوم التّالي، توجهنا إلى القنصلية التونسية حيث حظينا باستقبال حار. واسترجعنا بطاقاتنا. أوّل رحلة إلى روما كانت مبرمجة في الأسبوع الموالي. من غير المقبول بالنسبة لنا أن نبقى أسبوعا آخر في بون. لأن أجهزة الاستعلامات الفرنسية تبحث عنا. الحل الوحيد المتاح لنا هو القطار، ولو أنه يمرّ بالقرب من المكان الّذي انطلقنا منه. تمكننا من الإفلات من رقابة العساكر الّذين كانوا يجوبون بكلاب الحراسة أرصفة المحطة القريبة من أحد المواقع التابعة لوحدتنا. عندما صفّر القطار معلنا بذلك عن وصولنا إلى روما، كان أول انعتاق لنا.

في إيطاليا، كانت حركتنا الاستقلالية معترفاً بها، لكن عملا بمبدإ الاحتياط، تفادينا الذهاب إلى الطيب بولحروف[7]. في المطار، علمنا بأن طائرة « دي سي 4 » سوف لن تقلع باتجاه العاصمة التونسية إلا بعد ثلاثة أيام. انتهزنا فرصة هذا التأخر لزيارة روما. الضغط النفسي الّذي تعرضنا له لمدة ستة أيام بلغ درجة أن ذات يوم، وأنا في غرفتي، جاء قنايزية يدق الباب متوترا : « تعال بسرعة، العلم الفرنسي يرفرف تحت نافذتي ». جريت، فما هو إلا العلم الأخضر والأبيض والأحمر الإيطالي. فانفجرنا ضحكا.

علم أبي بفراري من الجيش، لكنه كان يتظاهر باللامبالاة. وكان يرد على العساكر الفرنسيّين الّذي يأتون لاستجوابه بالقول : « وكّلتكم ابني، أما البقية فهذا شأنكم ». اضطر لترك باب المنزل مفتوحا، حتّى يتسنى للجنود الدخول إليه في أي ساعة من النهار أو الليل. التهديد الّذي كان مسلطا على عائلتي استمر سنوات طويلة. ولقد علّق أمر بالبحث في جميع مراكز الدرك في فرنسا وفي الجزائر، وحصلت لاحقا على نسخة منه.

« **نحن، لوغالي**، القاضي العسكري للدفعة الثّامنة، وقاضي التحقيق في المحكمة العسكريّة بالأركان العامة للجنرال القائد العام للقوّات الفرنسية في ألمانيا، والمقيم في ***S.P.69.002***.

---

6. بعد مرور سنوات، وبينما كنت أحضر جنازة أحد ضبّاط مكتبنا العسكري في سفارة الجزائر بفرنسا، التقيت بعبد الحفيظ كيرامان رفقة سيد أحمد غزالي. سألته إنّ كان يتذكر أيام فرار الضبّاط الجزائريين، فرد عليّ قائلا : « اتذكّر حتّى القهوة الّتي تناولناها معا في بون ».

7. الطيب بولحروف، ممثل جبهة التّحرير الوطني في إيطاليا.

« **بناء على إجراءات التحقيق :**

« **إقرار التهمة بالمساس بالأمن الخارجي للدولة تبعا للمذكرة رقم 106/396 المؤرخة في 21-8-1957 الصادرة عن السيد القائد العام للقوّات الفرنسية في ألمانيا**

...

« **ضد التّالية أسماؤهم :**

1- قنايزية عبد المالك (ملازم) ؛

2- نزار خالد (ملازم) ؛

3- شكات حسين (رقيب) كلّهم من لواء المشاة الثّالث عشر ؛

4- زبير لخضر (رقيب) ؛

5- حمداش موسري (عريف أول) ؛

6- بوثليجة محمد (جندي) ؛

« **متهمون بالمشاركة عن دراية في عمل لضرب معنويات الجيش الهدف منه الإضرار بالدّفاع الوطني.**

...

« نعلن بأنه يتعينّ متابعة المدعوين عبد الصمد، محمد ولد عبد الله (من غير لقب عائلي)، قنايزية، نزار، شكات، حمداش، بوثليجة وسماح، بتهمة التمرد على سلطة الدولة والمساس بسلامة التراب الوطني.

...

« **إنّه من** المحقّق أن الوقائع الواردة أعلاه تمثل الجرائم والجنح المنصوص عليها والّتي تعاقب عليها المادتات 84 و88 من القانون الجنائي، بناء على المادتين 163 و177 من قانون القضاء العسكري.

...

« **نقرّر إحالة المدعوين** عبد الصمد، محمد ولد عبد الله (من غير لقب عائلي)، قنايزية، نزار، شكات، حمداش، بوثليجة سماح وزرزوري، أمام المحكمة العسكريّة الكائن مقرها في الأركان العامة للجنرال القائد العام للقوّات المسلحة الفرنسية في ألمانيا، لمحاكمتهم طبقا للقانون.

« **وقعه لوغالي**

البـاب الثّاني

الفصل الرّابع

تونس، 26 شارع الصدّيقية

عندما حطت الطّائرة في مطار العوينة، كنا نظن أننا سنجد في استقبالنا ممثل جبهة التّحرير الوطني. لكن في تونس لم نجد أثرا للنظام أسفل السلالم. لاشك أن مصالحنا « القنصلية » في روما قد نسيت إخطار تونس بقدومنا. قادنا أعضاء من طاقم الطّائرة بمجرد أن علم بأننا جزائريون، إلى غاية شارع الصديقية حيث توجد الممثلية الجزائرية.

استقبلنا الباسم والفعّال أرزقي بوزيدة ووراءه، الجليدي العبوس حمَّاي قاسي. عند تسجيل المعلومات المتعلقة بي، سألني رفيقنا المعوَّق إذا كان لي صلة قرابة بنزَّار الحاج. قلت : « إنّه عمي ». فسجَّل في ملفي : « يسجَّل في الولاية الأولى. تساءلت في نفسي : لعل مكان الولادة هو الّذي يحدد مكان التحاق المجاهدين ؟

قضينا ليلة في تونس في فندق صغير، وفي الصباح أخذونا إلى مدرسة الإطارات قرب مدينة الكاف[1] حيث وجدت عدداً لا بأس به من زملائي القدامى في المدرسة.

تكوين أكبر عدد ممكن

منذ وصولي كُلِّفت بتدريب المجاهدين، لأن تصريح الالتحاق بالمكان المحدد لي (ولاية الأوراس)، تأخر في الوصول، فعينت من قبل العقيد العسكري عمارة الملقب « بوقلاز[2] » كمدرّب في مدرسة خبراء المتفجرات قرب ساقية سيدي يوسف.

عجَّلت مغادرة الضبّاط السوريين من أصل جزائري الّذين شكَّلوا كتيبة معزَّزة غالبيتها من الوحدات المقاتلة ترشيح الإطارات الجزائريين. نذكر منهم : عبد الله تومي، عز الدين زراري،

---

1. الكاف مدينة تونسية تقع في الشمال الغربي، تبعد بحوالي 40 كلم عن الحدود الجزائرية. أقام فيها العقيد عمارة بوقلاز قاعدة لجيش التّحرير مختصة في الدعم اللوجستي للنّاحية الثّالثة بقيادة العقيد الطاهر زبيري. في هذه المدينة، تم الاعتراف بعمارة بوقلاز قائدا لناحية سوق أهراس من طرف المسؤولين المحليين لجيش التّحرير. بعدها تحوّلت ناحية سوق أهراس إلى ما يعرف بالقاعدة الشرقية.

2. العقيد عمارة بوقلاز مكلّف بالتدريب على مستوى لجنة العمليات العسكريّة.

عبد الرحمن زيغود، بوبكر حشّاني، أحمد قايد صالح، محمد بولنوار، وغيرهم. كان المركز تحت إشراف صاحب الوجه البشوش محمود فارس الّذي كلّفني بتعليم مجمل مواد البرنامج. محمد بولنوار رجل متعدِّد المهارات قدّم لي مساعدة قيمة في إعداد وسائل التدريب وإعداد مسار للجنود وميدان للرماية.

تكفلت بكلّ النشاطات البيداغوجية للمركز، وكنت أحاول أن أنقل بأفضل طريقة يمكنني القيام بها مجموعة المعارف الّتي تلقيتها في الحقول التقنية والتكتيكية وبصورة خاصة الهندسة العسكريّة الّتي ستكون المهمّة المقبلة للمتدربين المجتمعين هنا. دفعني استعمال الألغام والأفخاخ من قبل الفرنسيين لتدريس خصوصيات الألغام المختلفة والمتفجرات من كلّ نوع (الكاسرة والمخترقة) والصواعق والمشعلات العادية والألغام المفخخة وحتّى التفجيرات التسلسلية والكهربائية. فلم يتعلم المتدربون ذلك فقط من أجل نزع الألغام ولكن لزراعة حقول الألغام أيضاً. كان الرّجال يتعجلون التعليم ويستوعبونه بسرعة. بيد أنني صادفت صعوبة لم أكن أتوقعها قطّ ولكن عند التأمل وجدتها معقولة.

لم أسع يوما لإنزال أي من قدمائنا من مستواه، شرط أن يكون اعتزازه هو اعتزاز الجندي المخضرم من أعماله الماضية. كنت أرفض أن تكون صفة القديم مجالاً للسخرية أو للاشتباه. جئت متأخِّراً بإرادة، وكان لدي الطموح لمضاعفة الجهود، ليس لكسب رضا المسؤولين ولكن لأدلي بدلوي في مشروع البناء. لم أستسلم قطّ أمام الغرور أو النميمة سواء كان يعبّر عنها بالكلمات المباشرة أو بالتلميحات الغادرة.

بعد فترة من الزمن، عندما التحقت بالوحدات المقاتلة، اكتشفت أن لميادين الشرف القدرة المطلقة لتعرية كلّ الغرور والغطرسة ولإعادة قياس كلّ القامات بمقياس « فم الزجاجة ». الشحوب الّذي قرأته على وجه أحد القدامى، كان من نفس مصدر القلق الّذي يعصر أحشائي عندما تنفجر القذيفة القاتلة. كدت أن أقول – وأقوله رغم ذلك – إنّ الدم الّذي يسيل من جراح كلّ الثوار أحمر، ولونه واحد. فهو ليس أزْرقَ عند القادمين الأوائل وأبيضَ عند الّذين أتوا بعدهم. إنّ تصنيف الثوّار، الّذي أراده أولئك الّذين اخترعوا هذه المنافسات الملتبسة، لم يكن قطّ من صنع المجاهدين الحقيقيين ولكن من أولئك المتوارين في الجبال « مدَّعي البطولة » المتحصّنين بالغرور والتكبر. دعونا من الأحكام المسبقة والمنحازة ! لنعد إلى لب الموضوع.

قبل أن ألزم البعض بقبول « تصويب الرماية »، بالمعنى الحقيقي والمجازي، هناك مهمّة عاجلة وعاديَّة عليَّ أن أنجزها : إقناع طلبتي في المركز، والكثير منهم قد ذهب إلى القتال، بأنه من المفيد أن نتعلم من نقطة الصفر القواعد الأوليَّة للرماية (الحقيقية) في كلّ الأوضاع وفي كلّ الحالات. مهمّة صعبة في البداية، ولكن الوسائل التربوية المستعملة ساعدت على تحسين الأمور. فصنعت لوحة بقياس متر واحد×متر واحد، وأمرت رجالي بالرماية من وضعية الجندي المنبطح الّذي يضع

مرفقيه على الأرض، كما نفعل مع المبتدئين من الشباب. لم يكونوا يعلمون بعد أن مرونة الجسم وصلابة الذِّراع ووضعية كعب البندقية وخيط المقود وفرضة التسديد وعين المؤشر هي عوامل أساسيّة في الرماية الصائبة. في المحاولات الأولى عندما ذهبنا لمعاينة النتائج لم نجد أي ثقب في لوحات الرماية رغم أنها كبيرة وقريبة ! أحس الجنود بالإحباط وأدركوا الموقف. هناك فرق بين إحراق الذخائر في اشتباك لن يصيب فيه سوى « روميا » تعمد أن يتواجد في مسار الرصاصة، وبين استعمال البندقية بطريقة مضمونة واقتصادية. وبما أنّني كنت أعرف عملي، قدمت لهم البراهين العملية. شيئا فشيئا استوعبوا التقنية الجيدة. أصبح أكثرهم رماة ممتازين.

كانت هناك شاحنة صغيرة من نوع « رينو » مترنحة تأخذ كلّ صباح طريقها إلى مدينة الكاف في تونس لتعود محمَّلة ببعض المواد الأساسيّة. ذات صباح رأيناها من بعيد تلتهم الطريق بسرعة كبيرة كأنها لم تقم سوى برحلة الذهاب والإياب. استغربنا الأمر، فتجمعنا أمام المدخل متوقعين أحداثاً غير عادية. « مدينة الكاف مطوَّقة بالجنود التونسيين. وهناك جزائريون موقوفون »، هذا ما أخبرنا به السائق. ماذا حصل يا ترى ؟ في المساء، أحمد دراية، الّذي تولى فيما بعد المديرية العامة للأمن الوطني، وكان مصحوباً بجنود أحدهم جريح، وصل إلى مركز التدريب. لقد تم إجهاض « مؤامرة العقداء[3] » بعدما كشفتها الحكومة المؤقتة !..

عندما كان يسمح لي البرنامج، بين حصتين تدريبتين، نهاراً وأحياناً ليلاً، كنت أتحول إلى رجل بيروقراطي. هناك تعلمت أنه بعد قطع حبل السُّرَّة الّذي يربط بين كائنين، تبدأ روابط الورق. حتّى في أوقات الحرب، الورق يسجل التواريخ والوقائع. فهي ذاكرة الأفعال. كنت أتخطى طقوس الدفاتر والتقارير والرسائل لكيلا يصبح هذا المركز « خارج الزمن » وجد لفترة وجيزة في بُعد آخر.

في بعض الأحيان كنت أستسلم لرغبة بدوية. كنت « أنتجع » لوقت قصير في المنطقة لاستمتع بجمال التلال ورطوبة « القلتات » (عيون الماء) في منطقة المِجِرْدة، الغنية بالأسماك. وكانت وسيلتي في الصيد لا تتعدى بعض أصابع الديناميت. أما لصيد الأرانب البرية في هذه المناطق المليئة بالطرائد كنت قد خبأت في جانب المركز بندقية صيد قديمة وكنت أعبؤها بالخرطوش الّذي تعاد تعبئته من البارود المجموع من ذخائر بنادق « لوبالْ » القديمة المهجورة منذ الحرب العالمية الأولى. وبالنسبة للخردق فقد كنت أضيف بعض قطع الرصاص المفروم بشكل بدائي. كنت أعود مع طريدة أو طريدتين كبيرتين، على أمل تقديمها في وقت العشاء لتحسين وجبة « المحمَّصة » الّتي تقدّم لنا كلّ يوم.

3. بعد إنشاء الحكومة المؤقتة، في سبتمبر 1958، أعلن القائد السابق للولاية الأولى (الأوراس–النمامشة)، العقيد محمد لعموري، مع عدد من ضبّاط القاعدة الشرقية والناحيتين الخامسة والسادسة من ولاية الأوراس، معارضته للقيادة السّياسيّة للثورة. في اجتماع لهم في مدينة الكاف التونسية، تم إلقاء القبض عليهم من قبل الحرس الوطني التونسي بناء على طلب من الحكومة المؤقتة. وبعد إحباط المؤامرة، حكم على لعموري وعلى وأصدقائه أحمد نواورة، خليفة لعموري على رأس الولاية الأولى، ومحمد عواشرية قائد القاعدة الشرقية ومصطفى لكحل العضو السابق في كومندو علي خوجة، بالإعدام من قبل محكمة ترأسها هواري بومدين. وكان لإعدام هؤلاء الضبّاط عواقب خطيرة جدا على مسار الثورة.

لكني لم أكن في إجازة. أصبحت مهمتي منهكة أكثر فأكثر. وبدأت أفقد وزني بشكل محسوس وكانت تنتابني الحمّى بشكل دائم. غير أنني كنت لا أشكو لأحد. فالمجاهدون الّذين كنت أحتك بهم، وبعضهم كان يربّي شواربه على شكل مقود الدرّاجة، لن يستسيغوا بالتأكيد أن يدربهم ويقودهم شخص ضعيف. الطبيب بودربة[4] أثناء مروره على المركز شخّص حالتي بأنها نوبة ملاريا، وهو مرض رافقني حتّى نهاية الحرب. عندما تأتيني النوبات تستولي عليّ مرّة كلّ يومين حمى مصحوبة بزكام حاد. في أيام الطقس الجميل أعرّض نفسي لأشعة الشمس. وكان هذا العلاج يخفف قليلاً من آلامي. اغتنمت الفرصة لزيارة العقيد بوقلاز لأعرب له عن رغبتي في إلحاقي بإحدى الوحدات القتالية.

العقيد عمارة بوقلاز رجل طويل ونحيل وأسمر، ويعد من الرعيل الأول. قاد أولاً قطاع القالة في أقصى الشّمال الشرقي قبل أن توحّد خلال صيف 1956 كلّ وحدات جيش التّحرير الوطني الّتي تنشط في إقليم ناحية سوق أهراس، وهي النّاحية الّتي أصبحت بعد مؤتمر الصومام، وبمبادرة من العقيد اعمر أوعمران ممثل لجنة التنسيق والتنفيذ، تسمى القاعدة الشرقية. مهتمها تموين الولايات الداخلية بالسلاح.

ذكّرت العقيد « بوقلاز » بأن عملي في التدريب لا يمكن أن يطول كثيرا، فأوضح لي بأن : « تدريب أكبر عدد ممكن مسألة حيوية للثورة ». تجرّأت مع ذلك، على الإلحاح محتجًّا بأن الدورة قد أكملت تدريباتها بالإضافة إلى أن المدرسة تضم عدداً كافياً من المدرِّبين. قطع بوقلاز الحوار بسرعة وكان رفضه جازماً، قال بغضب : « يوجد في جيش التّحرير الوطني الكثير من الجنود المستعدين للموت، ولكن عدد قليل من الإطارات العسكريّة المؤهَّلة ! ».

مرض محمود فارس، فغادر نهائيًّا. فبقيت إذاً المسؤول الوحيد عن التدريب. كان الملازم الأول بوعنان، وهو ضابط فارّ من الجيش الفرنسي، يشرف على المركزين : مركز الإطارات في الكاف، ومركز خبراء المتفجرات في وادي مليز غير بعيد عن ساقية سيدي يوسف. للوهلة الأولى أحسست بأن قيافتي لم تعجبه. إنّ السيدة العظيمة الّتي اكتشفت « الذرات المعقوفة » ربما قد صادفت الجد – توأم بوعنان. كنت مخطئاً، عندما واجهت الحكم المسبق، بافتعال المظهر القاسي. وهو من جهته لم يملك حتّى أن يخفي شعوره فاستعمل معي أساليب ملتوية بهدف استبدالي. ذات يوم، وصل الملازمان ماضوي وموسى حمداش في سيارة « لاندروفر ». سلمني ماضوي ورقة تأمرني بتسليم عهدتي لحامل الرسالة والالتحاق بمدرسة الإطارات. نفذت الأمر في اليوم نفسه.

في مدرسة الإطارات تصرفت وكأن شيئاً لم يحصل وانصرفت لتنشيط الدورة الثّانية. عندما أتممت برنامجي، أدركت الحقيقة : كانت مخاوفي صحيحة. كان بوعنان يكنُّ بغضا شديدا لكلّ من لم يعتنق وجهة نظره. وبما أن زيارات المسؤولين كانت متكررة، فقد كان ذلك بالنسبة إليه

4. كان الدكتور بودربة ضمن ما يسمى بـ « المآزر البيضاء » للثورة.

فرصة لإيقاف التدريبات وتقديم الوحدات للاستعراض. هوسه بالمظاهر رأيناه في طلاء الأرصفة بالأحمر والأبيض، وبطريقة السير المنضبطة. كان يبدع في اختراع المبررات لمنع التدريب، مثل زراعة البطيخ أو الطماطم.

لا شك أن ما يقوم به أمر جيد، لكن أذنيه لا تلتقط أصوات المدافع الّتي تدوّي على بعد بضعة عشرات الكيلومترات من هناك. لم يدرك بأن الرّجال المطالبين بخوض الحرب ملزمون بتعلّم مبادئها. كنا نتناقش أنا ورفاقي حول الموضوع ونشكو أمرنا للضبّاط الزائرين. ولكن، كلّ محاولاتنا باءت بالفشل.

في وقت لاحق، وفي السنوات الأولى من الاستقلال، اعتقد بوعنان مُخطِئاً أن بإمكانه تجاوز الخط الأحمر بسهولة كما كان يتخطى سور الثكنة حيث يقود حامية. كلّفه ذلك أربع سنوات من السجن في معتقل سيدي الهواري الرهيب.

قرّرت أن أغادر المدرسة على مسؤوليتي للالتحاق بالوحدات القتالية. كنت أعلم أني ذاهب لمواجهة الموت. كان الحاجز الّذي يعزل الجزائر قد أصبح معروفا، لكن هذا لم يجعلني أتراجع، هل ذلك لأنني لم استطع تقدير الحقيقة المأساوية للحرب بعد ؟ لم يكن قصف مدرسة الإطارات بطائرات « بي 26 » ومحاولات التسلل والهجوم بواسطة قوّات المظليين ليلاً والّتي أوقعت بيننا القتلى والجرحى، إلا نوعاً من المقبلات أمام ما ينتظرنا. رفيقي عبد المالك ڤنايزية (الّذي سيصبح فيما بعد برتبة جنرال)، أصيب في العصب السمعي بشظية قنبلة[5].

علي حمبلي يطبّق سلم الشجعان

كنت لا أزال في مدرسة الإطارات عندما انفجرت « قضية علي حمبلي ». أمرني الملازم الأول بوعنان بالالتحاق بمفرزة أخذ عناصرها من مختلف الأفواج المدربة، بمركز قيادة محمدي سعيد المدعو ناصر، مسؤول القيادة العملياتية العسكريّة[6]. أقام مركز قيادته، وهي في الحقيقة كلمة مبالغ فيها للحديث عن منزل متكون من حجرة واحدة، تكاد لا تسع حتّى لقائد أركاننا، مقابل جبل سيدي أحمد بن عويثق حيث أقام حمبلي معسكره. بعد أن سُلِّمت المفرزة دعيت للبقاء في مركز القيادة. كان الجنود مستلقين على أسرّة مترهلة. كان ناصر يتوضأ وسط القاعة استعدادا للصلاة. تخيلت في ذهني وتساءلت ما إذا كان سي ناصر، الإنسان المتدين والشديد في تديّنه، سيوقف وضوءه لو أعلن عن حالة استنفار، وسيقبل بان يموت غير متطهر أم أنه سيكمله ويضمن بذلك دخول الجنة طبقا للأحكام الشرعية في هذا الباب ؟ كانت الحجرة باردة جدا.

5. أصيب ڤنايزية على رأس كتيبته الثقيلة مرّة أخرى خلال هجوم على مركز الڤوارد.

6. لجنة العمليات العسكريّة الّتي أنشأتها لجنة التنسيق والتنفيذ. وتعتبر خطوة هائلة في عملية تنظيم جيش التّحرير الوطني. ولقد شبّت نزاعات داخل هذه القيادة تسببت في أزمة ما يسمى « مؤامرة العقداء ».

فعطست، وإذا بأفكاري السوداوية تتبخر في عطسة عجيبة. تمددت في زاوية فارغة. وتدثرت بقشابيتي[7] ووضعت بندقيتي « لي أنفيلد » بين ساقي. قلت في نفسي إنّ بضع لحظات من النوم لا مانع منها. إلا أن أصوات الطلقات الكثيفة الّتي كانت تسمع من بعيد أكّدت لي تصميم المنشقين على مواصلة القتال.

عرفت أشياء مذهلة عن حمبلي. يقال أنّه كان يحلق ناحية واحدة من ذقنه، ويمشي بسروال قصّ إحدى ساقيه عند ثنية الفخذ. وفي اليوم التّالي وصلت أخبار جديدة : علي حمبلي الّذي يتجاوز عدد رجاله المائتي شخص، واجه بمقاومة شرسة القوّات الّتي أرسلت ضده.

جبل سيدي أحمد بن عويثق وسط الحدود الجزائرية التونسية، جبل غريب. يشبه من بعيد ديناصوراً ضخماً متحجراً وسط سهل « الفلتة » القاحل الّذي يحده من الجنوب الشرقي جبل الدف، ومن الغرب جبل بوعمود ومن الشمال التلال المزروعة هنا وهناك بشجيرات تعلن عن غابات جبال سوق أهراس الأكثر كثافة. جبل سيدي أحمد كان لزمن طويل الحصن المنيع لجماعات سبتي بومعراف وجيلاني بن دحوة وعلي بن ورجة وهو شيخ قبائلي من عين الحمّام فاز بخصاله العالية بقلوب الشاويَّة القساة في تلال الونزة وبرباقة وبوسسُّو وسوق أهراس. القسم الأعلى من سيدي أحمد تتساند قممه كسلسلة من الروابي. إنّها الأماكن الوحيدة الّتي تؤمن الحماية النسبية لعناصر مسلحة قرّرت أن تتصدى باستماتة لهجمات كانت متوقعة. علي حمبلي مقاتل قديم وله قدرة فطرية على التحكم بالأرض. اختبأ خلف الصخور الغرانيتية للجبل باحترافية كبيرة. وضع على خط القمم رشاشات « MG 43 »، و« لويس » و« FM-Bar ». الأمر الّذي يجعل كلّ هجوم خطراً على عناصر الفيلق الأول غير المعزز، ووحدات النّاحية الثّالثة من القاعدة الشرقية، والخامسة والسادسة من الولاية الأولى والمفارز المختلفة المأخوذة من هنا وهناك مثل المفرزة التابعة لمدرسة الإطارات الّتي قدت عناصرها بنفسي إلى غاية هناك.

لم يتم التطويق بطريقة محكمة نظراً لطبيعة الجبل، ولم يتطور الهجوم إلا من الجهة التونسية تاركاً المنطقة الجزائرية المحتلة من الفرنسيين مكشوفة كلّياً. لإحكام الطوق على المنشقين كان يجب التمركز أيضاً في مواجهة النّاحية الغربيّة من الجبل والظهر مكشوفاً لمدينة الونزة المنجمية. القوّات المدرعة للعدو والموجودة بكثافة على هذه النّاحية من سهل الفلتة تمنع تماما أيَّ تقدّم. والمحاولة الوحيدة والمحتشمة الّتي قامت بها فصيلتان من الكتيبة التّاسعة بقيادة زين نوبل (أصبح فيما بعد من إطارات المديرية العامة للأمن الوطني) اصطدمت بسرية مصفحة من الرشاشات الآلية التابعة لفرقة الخيالة السابعة.

عندما حوصر علي حمبلي، أرسل إنذاراً أخيراً مكتوباً إلى قيادة الأركان يأمرهم فيه بسحب قوّاتهم خلال 24 ساعة وإلا سيسلم نفسه للفرنسيين. لم يكن بإمكان محمدي سعيد تخفيف الضغط عن حمبلي لأن القضية كانت تتجاوزه، فهذا الأمر من صلاحيات القيادة العليا للثورة.

---

7. معطف تقليدي مصنوع من الصوف المنسوج يدويا..

حمبلي وبعدما حوصر وأنهك خلال شهور وقطعت عنه الإمدادات، انقلب على السكان التونسيين لابتزازهم. حتّى أنه أغار على مدينة تاجروين التونسية حيث اعتدى على معتمد المدينة. والحرس الوطني التونسي الّذي يقوده محجوب بن علي، الّذي عادة ما لا يتردد في التدخل ضد أي عنصر جزائري غير منضبط، تلقى درساً لن ينساه عندما حاول أن يعيد حمبلي ورجاله إلى جادة الصواب.

لم تستطع الحكومة المؤقتة أن تتحمل تسميم علاقاتها الودية مع السلطات التونسية بسبب تصرفات غير مسؤولة من شخص مجنون.

كانت الطلقات تتلاحق والحصار لم يرفع والموقع الّذي تحتله عناصر حمبلي لم يُقتحم بعد. وفي الساعة الرّابعة مساء رأينا من مركز القيادة العامة طائرة مروحيَّة خفيفة تنزل وسط مواقع المنشقين. يبدو أن ركابها كانوا مكلّفين بتنظيم عملية الاستسلام.

سمعت قائد الأركان يتعجب بعد أن أنزل منظاره قائلا : « لقد التزم بوعده ! قال إنه سيفعلها، وفعلها ! » عند حلول الليل، قام رتل كبير من الدّبابات قادماً من مدينة الونزة لكي يمنع قوّاتنا من الالتفاف على قوّات حمبلي، بتحركات لترهيبنا. لقد جرت عملية استسلام حمبلي ورجاله في جنح الليل من دون أن يكون بمقدورنا فعل أي شيء. وفي الصباح عندما أدرك عدد كبير من جنوده إلى أين قرّر قائدهم أن يقودهم تخلوا عنه والتحقوا بإخوانهم في الكفاح.

الّذين ذهبوا مع حمبلي كان عددهم 156 رجلاً وقد حملوا معهم ثلاثة رشاشات وعشر بندقيات رشاشة (لويس وبرن و 24 / 29) وقاذفة هاون و125 سلاحا حربيا (طغت عليها بنادق ورشاشات مثل الموزر، والغارنت US/17/ وMAT-49).

بعد عدة أيام حاول حمبلي مع فرق كومندوس فرنسية شنّ غارة على جبل سيدي أحمد، قتل فيها مساعده سابقا علي بن براهيم، وهو من أقاربه. كما نسبت إليه بعد ذلك محاولة مُجْهَضَةٌ للتسلل إلى مركز قيادة بومدين في غارديماو بتونس. توفي قبيل الاستقلال ولا يزال موته إلى اليوم لغزا محيّرا.

على الصعيد السياسي، كان استسلام علي حمبلي ضربة قاسية جداً للثورة. وصادف قرار الرّئيس شارل ديغول بعرض « سلام الشجعان » على جيش التّحرير الوطني. لقد أعطت خيانة 156 جندياً مع أسلحتهم وعتادهم نوعا من المصداقية للعرض الّذي قدّم بتاريخ 23 أكتوبر 1958 وجُدِّد في 30 جانفي 1959، « صنع السلام بشروط مشرِّفة »، وهو عرض رُفض جملة وتفصيلا من قبل القيادة العليا لجبهة التّحرير الوطني منذ 25 أكتوبر 1958.

لم تذكر دعاية العدو كلمة واحدة عن الأسباب الحقيقية لهذا الاستسلام[8] لكي تتمكن من تأويلها إلى دواعي سياسية بإثارة ردود أفعال مماثلة في أماكن أخرى.

8. لم يقبل علي حمبلي أبدا باعتقال أعضاء هيئة أركان الأوراس والقاعدة الشرقية والحكم عليهم بالإعدام.

النقيب « سفاري من فرقة الخيالة السابعة، الّذي استقبل وكان أول من حقَّقَ مع علي حمبلي ورجاله، انضم فيما بعد إلى مجموعة الضبّاط الّذين نسقوا سلسلة الاتصالات مع بعض مسؤولي الولاية الرّابعة، وهي اتصالات ستؤدي إلى لقاء بين الجنرال ديغول وهؤلاء المسؤولين أنفسهم. والبقية معرفها...

كانت قضية حمبلي فرصة ذهبية للفرنسيين. فمنذ أسابيع، لم تنقطع الزيارات الّتي تقوم بها شخصيات وزارية إلى الجزائر. بداية من 10 فيفري، عقد ڤيُوما، وزير الدّفاع الوطني، ندوة صحفية تلو الأخرى مع الجنرال ماسو قائد القطاع العسكري في جزائر الساحل، محاطاً بالجنرالات شال وألار ودودونيون ومارتان، وتفقد مراكز عديدة تابعة للفرقة العسكريّة الجهوية السابعة، الّتي يقودها الجنرال هويه. كما انتقل وزير الأشغال العامة والنقل والسياحة، بورون، إلى سكيكدة وقسنطينة ومن ثم إلى حاسي مسعود، حيث رافقه رئيس إدارة الشركة الوطنية ريبال لتفقد المنشآت النفطية.

من جهته، قام جاك سوستل، وهو معرفة قديمة عند الجزائريين، الوزير المنتدب المكلّف بالشؤون الصّحراوية لدى رئيس الوزراء ميشال دوبري، بزيارات متتالية إلى الجنوب الجزائري متنقلاً من الأغواط حتّى بشّار من 29 جانفي حتّى 19 فيفري 1959، وهي ما يشكل « الجزائر النافعة »، معلناً عن نواياه في غرداية أمام قدامى المحاربين : « فرنسا هنا، وستبقى هنا... إنّه مستقبل سعيد يُقَدَّم اليوم للسكان الصّحراويين إذا أرادوا أن يظلوا ملتفين حول فرنسا ». هذه الصّحراء الّتي طالما كانت تثير شهية الفرنسيين وأغرقت بجحافل من القوّات العسكريّة يقودها الجنرالات تان وميرامبو وجاكين وكودي وسال، أعلنها سوستل في 19 فيفري 1959 ببشّار « بلداً حديثاً ومزدهراً ».

في يوم 21 مارس، عندما جاء علي حمبلي ملفوفا داخل قشّابيته المضلّعة ليرمي ببندقيته « ڤارنت » عند أقدام « الخوذات السود » الّذين كانوا في استقباله، تبادل ضبّاط الأركان التهنئة. أما جاك سوستل وأندري موريس والفاشي تيكسيه فنيانكور فحجزوا طاولة في مطعم باريسي فخم لشرب الأنخاب.

وما إن عرف ميشال دوبري باستسلام حمبلي، عاد إلى الجزائر في 22 مارس. زار سوق أهراس متفائلاً بقدوم الخير منها. استقبله الجنرال ديلاك وزار برفقته قطاع ڤامبيتا حيث استمع إلى عرض مفصل عن أسس العمل الدّفاعي للحاجز من العقيد شانيول أحد مصمّمي المشاريع الكبرى الّتي استهدفت عزل الجزائر. خلال الاجتماع الّذي عقد في سوق أهراس بحضور ميشال دوبري، وقد التف حوله القادة العسكريون لشمال شرق الجزائر « المكلّفون ببعض الجوانب الخاصة بمكافحة الأعمال التخريبية »... ينبغي تسخير كلّ الإمكانيات ليكون حمبلي قدوة للآخرين.

لقد جعل حمبلي للقيادات السّياسيّة والعسكريّة الفرنسية من خلال مبادرته بأن يأملوا أن سياسة « سلم الشجعان » قد بدأت تؤتي ثمارها.

الفصل الخامس

مع المجاهدين

التحاقي بالولاية الأولى استبعد نهائيا. ولست أنا من يشتكي من ذلك. التحقت بجيش التّحرير الوطني لأقاتل تحت راية الجزائر وليس تحت راية قريتي. اتصلت عن طريق سليم سعدي بالرفاق الموجودين في قيادة غارديماو طالباً منهم التوسط من أجلي لكي أترك التكوين وألتحق بالوحدات العملياتية. سليم سعدي الّذي يعرف بوعنان جيداً ذهب لأجلي إلى هناك. مرت بضعة أيام، واستدعاني العقيد ناصر. فجمعت أمتعتي القليلة ومن ضمنها بندقية « لي أنفيلد 303 » وقفزت إلى العربة الّتي وضعت تحت تصرفي. وفي اللحظة الّتي أدار فيها السائق السيارة، همس الملازم الأول بوعنان منزعجاً في أذني : « إنّهم بحاجة إليك لبعض الوقت فقط، وبعدها سترجع إلى هنا ». لم يكن يعلم أني أغادر منبسطاً، سعيداً بما استطعت تحقيقه، رغم الصعوبات الّتي لا تحصى في تدريب الكتيبة. حتّى أني تمكّنت من انتقاء أفضل العناصر لوزارة التسليح والاتصالات العامة (المالغ)، عناصر يمتازون بحس المراقبة والسرّية والفعالية الّذي يمكن أن يلائم جيدا بعض الدوائر الخاصة الّتي بدأ عبد الحفيظ بوصوف بتشكيلها، وبعضهم استمر في خدمة الجزائر لسنوات طويلة، وما زالوا فيها إلى غاية العام 2016.

اليوم، تمر أمامي أحيانا ذكريات مروري بالمدرسة. لست مستاءً من هذه المرحلة من مشواري العسكري. تعرّفت إلى رجال رائعين ودرّبت جنوداً يضرب بهم المثل. الخبرة الّتي تلقيتها في المدارس الفرنسية نقلتها إلى إخوتي في الكفاح، بتواضع وبكلّ حب ودون غرور. فالكثير من الإطارات الّتي تخرّجت من دوراتي سقطوا في ميدان الشرف. وآخرون أنهوا مشوارهم العسكري كضبّاط سامين. والبعض ما زال إلى تاريخ هذا اليوم في الخدمة برتبة عميد أو حتّى فريق.

صادف وصولي إلى غارديماو إعادة تشكيل قيادة النّاحية الأولى. استقبلني العقيد ناصر شخصياً، ودون أن يترك لي الوقت لالتقاط أنفاسي، قال لي : « لقد تم تعيينك مساعداً عسكريّاً لقائد النّاحية الأولى »، ثم أوضح : « مساعدًا سياسيًّا وعسكريًّا ! ».

تركت مكتب قائد الأركان ورأسي تلف قليلا. كيف يمكنني أن أتدبر أمري، أنا الّذي لا أملك أي تجربة قتالية ؟ وكيف سأتصرف وسط مقاتلين متمرسين، أنا الّذي خرجت للتو من سن المراهقة ؟ لكن في الأخير، مر امتحاني الأول بسلام، واندمجت بسرعة وبفعالية وسط الجنود.

كان للشاذلي بن جديد[1] نائبان هما أحمد ترخوش وعبد القادر عبد اللاوي[2] وكلاهما طالب قديم من طلاب جامعة الزيتونة التونسية.

وصلت إلى مقر قيادة المنطقة في يوم ممطر، وقد أرشدني إليه أحد قدماء الجنود المحنَّكين. كان شعيب حامد مهيب الطلعة بقامته المديدة وكتفين عريضتين ووجه كأنما قُدَّ من صخر وشاربين على الطريقة القديمة، وحزامي خراطيش متصالبين فوق سترته. كان يشبه أتمانًا قوزاقيًا. التقيت لاحقاً بالكثير من هؤلاء المجاهدين طوال القامة وبصدور عريضة ويحملون بندقية الـ « 303 » الثقيلة كأنها بندقية كرابين أمريكية عادية. في النّاحية الثّالثة للقاعدة الشرقية كان الشيخ بن علاّلة، « نسخة طبق الأصل » عن شايب حامد وقد صُوِّر في العديد من الأفلام.

كان لشعيب حامد الّذي سألتقي به من وقت لآخر، قاموس مفردات خاص به لوصف الأوضاع والناس. يستعمل كلمة في مكان كلمة أخرى، مانعا بذلك أي مقاربة منطقية لكلامه. في مطلع الثمانينات، كنت قائد النّاحية العسكريّة الخامسة بقسنطينة عندما جاء لزيارتي، وكان قد عاد للحياة المدنية في عقد السّبعينات مثل كثير من المجاهدين في الوقت الّذي كان فيه أحمد شابو أميناً عاماً لوزارة الدّفاع الوطني. سأتذكر لوقت طويل عبارته الّتي يصعب تقليدها : « يا سي خالد، شابو الخبيث خلَّاني ’نفرودي‘ ! ». احتجت لوقت طويل لأفهم ما كان شعيب حامد يريد أن يقول « نفرودي ! » (بمعنى أغش !). لقد أصبح فارس الجبال الوسيم سابقا... سائق سيارة أجرة دون ترخيص !..

أُقيم مركز القيادة في كوخ وسط الأحراش. فلفت انتباهي سكن الفلاحين لهذه النّواحي من أقصى الشمال الشرقي للجزائر. البيوت مصنوعة من حصائر عشبية مدعومة بجذوع مستقيمة ومشذبة من شجيرة تشبه الخيزران ومغطاة بقصب صلب ومشدود.

لقائي الأول في مركز قيادة النّاحية الأولى هو عبارة عن مشهد يلهم الرسامين، ولا أزال احتفظ بذكرى عن انطباعاتي والروائح والألوان القوية. أشجار البلوط الكبيرة والأعشاب الخضراء المتخمة بالماء والشجيرات المتشابكة والأدغال المتكاتفة، تبعث أنفاساً متبخرة وكثيفة، تذوب في أعماقها مظاهر الأشياء والكائنات. والغيوم السوداء الّتي تخفي الشمس تضفي ظلالاً على ظلال الغابة.

وقفت لحظة عند عتبة الباب. لم أستطع أن أحدد في البداية إلا بقعة محمرَّة، ولكنه احمرار من ذلك الّذي يجعله أثر الرماد عليه ممتعا للنظر. إنّه موقد. وحوله دائرة من الأطياف غير محدّدة الأشكال. شيئا فشيئا تعوَّدت عيناي على الظلمة، ثم نفخ أحدهم على حجر المدفأة فأوقدها فجأة. فبانت الوجوه. والتفتت الأنظار نحوي.

1. كان قائد النّاحية الأولى للقاعدة الشرقية قبل أن يشغل منصب نائب قائد النّاحية الشمالية عند وصول بومدين.

2. سقط أحمد ترخوش في ساحة الشرف وهو على رأس فيلقه الحادي عشر. شهد عبد القادر عبد اللاوي الاستقلال وهو الآن عميد متقاعد.

تم التعارف بيننا بسرعة. كان هناك الشّاذلي بن جديد، والطاهر زبيري[3] ومحمد شبيلة وثلة من المجاهدين. الطاهر زبيري، وكما علمت لاحقاً، كان يبحث عن فرصة لاختراق الحاجز للالتحاق بولاية الأوراس حيث عيِّن عضواً في القيادة.

كان شعيب حامد أول مرشد لي من أجل التعرف بسرعة على الرّجال والأماكن. منطقة عملياتنا هي عبارة عن شريط واسع من الأراضي تمتد على طول الحدود من القالة حتّى عين الكرمة (مونيي سابقاً). وكانت تنشط هناك وحدتان تتكونان من 200 إلى 300 رجل. إحداهما في ضواحي عنابة، في بحيرة الطيور وتشمل بلندان. والأخرى في سهل الشافية، وجبل بوعبّاد وفي محيط كومب (مرداس لاحقاً).

قادني الشّاذلي إلى مركز قيادة المنطقة الثّالثة حيث التقيت عبد القادر قارة. ثمة الكثير من الأمور المشتركة بيني وبين قارة، ومنها شظايا قنبلة مدمِّرة. ومازلنا نعاني كلانا من آثار الإصابة.

في يوم من الأيام، أسرّ لي عبد النور قائد المنطقة الأولى التابعة للنّاحية الأولى الّتي تشمل ضواحي بلندان وعنابة، ومن دون أي حقد، قائلا : « عندما رأيتك للمرّة الأولى مرافقا للشاذلي، قلت لمن كان معي مازحا : من هو هذا الشاب ؟ قد يصلح للرمي بالمدفع الرشاش 29/24. والآن أنت مسؤولي المباشر ! ».

قضيت الليلة في مركز القيادة، وفي اليوم التّالي كنت وسط المعركة. ذهبت برفقة قارة إلى القطاع الّذي يقوده شعيب عابدة مع فصيلة من 50 إلى 60 رجلاً مزودين بثلاثة رشاشات MG 45. في اليوم التّالي، وأثناء حصة الرماية، شرحت للجنود من حولي كيف تنفذ الرماية بواسطة الرشاشة. قلت لهم أنه يجب وضع السلاح متكئا على الخاصرة أثناء النظر إلى الهدف، وفوهة الرشاش تبعد بمتر تحته.

في الصباح سمعنا أصوات مدفعية يبدو أنها تصدر من جبل البلُّوط، قرّرنا أن نذهب إليه. رافقتنا الفصيلة الّتي يقودها بوزينة. عندما اقتربنا من منطقة إطلاق النار التقينا بقائد الفصيلة، شابّي، الّذي أخبرنا بأن فرقة كومندوس لاحقت رجاله بعد عملية استنزاف لقرية زيتونة (توستان سابقا)، واستغلت هذه القوة ظلام الليل لتحتل موقعاً متقدماً خلف صخور وأحراش. عند الفجر، أرسل شابّي نائبه على رأس دورية لاستكشاف المنطقة المحيطة، فوقعت الدورية في كمين. أصيب إصابة قاتلة وأخذ العدو بندقيته من نوع « موزر ». دخلت الفصيلة الّتي يقودها سلمون في اشتباك مع العدو وحاولت أن تدفعه إلى التراجع تحت وابل من نار الرشاشات ومدافع المورتر من عيار 45 ملم.

---

3. لقد استطاع الطاهر زبيري أن يجتاز الحواجز المحصنة. وقد أصبح قائد ولاية الأوراس ثم قائد أركان الجيش الوطني الشّعبي. ولقد عاش طويلاً في المنفى بعد معارضته لبومدين، وهو الآن في مجلس الأمة، يمثل الثلث الرئاسي. كان زبيري محبوبا عند المجاهدين لشجاعته البدنية وتواضعه.

لاحظت غياب الطّيران، ونقص الدقة في تصويب المدفعيّة. وهذا لا يمكن أن يعني إلا شيئاً واحداً : أن العدو محروم من وسائل الاتصال. تأكدنا من ذلك لاحقاً، عندما استعدنا مراكز إرسال معطَّلة. سألني قائد المنطقة : « ماذا تقترح ؟ » سؤال أحسسني بالمسؤولية. أنا لا أعرف من الحرب غير النظريات. من تل مشجر حيث كان مجاهدونا مشتبكين مع الجنود الفرنسيين، ينزل وادي عريض يصب في سفح الجبل. ينقسم الموقع إلى قطعتين أرضيتين : هضبتان ضيقتان مغطاتان بأشجار البلوط. اقترحت على قارة أن نموقع الفصيلة الّتي يقودها بوزينة في بطن الوادي على بعد بضع مئات من الأمتار من هنا. توقعت بأنه إذا حوصر الفرنسيون فسيستعملون هذا الطريق حتماً. بعد بضع لحظات، بدأنا نسمع الإيقاع المتقطع المميَّز لرشاشاتنا الثلاثة. وإذ حوصر العدو بين ناريْن، هرع باتجاه الهضبة من الجهة الأخرى للوادي. بدّلت بندقيتي « كرابين » الأمريكية ببندقية من نوع « موزر » تفضل أحد الجنود بتقديمها لي. من يستعمل هذا السلاح الممتاز بطريقة رزينة يضمن لنفسه إصابة هدفه. وصلت إلى المكان الّذي يوجد فيه الفرنسيون في لحظات، ورأيت الجندي المسكين الّذي استهدفته وقد انقبضت يداه فوق القربة الّتي استطاع أن يوصلها على فمه قبل أن يسلّم الروح.

استولينا على أربعين قطعة سلاح منها رشاشان AA 52، وبندقية « موزر » اغتنمت من الجندي الّذي قتل في الصباح. وحصلنا على مصدر وافر من الملابس العسكريّة والسترات الواقية وأحزمة القنابل وشباك التمويه الفردية الّتي تستعمل كلثام.

تحصَّنَّا غير بعيد من هناك في موقع قوي : كاف البشير. كنا قد ألقينا القبض على أسير مصاب إصابة طفيفة من شظايا قنبلة يدوية، حيث سُلِّم بعد فترة مع أسرى حرب آخرين إلى الصليب الأحمر الدولي. في صباح اليوم التّالي شاهدنا من أعلى الجبل استعادة العدو لجثث قتلاه بالطائرات المروحية المحمية بواسطة الدّبابات. أخبرنا مدنيون يسكنون بالقرب من مكان الاشتباك بأن الوحدة الفرنسية سجلت خسارة عديد من الجنود ولم يبق منها عند العودة أكثر من عشرين.

في اليوم التّالي، أشهر المجاهدون بفخر قبعة بيجار الشهيرة. وباركني رفاقي على دوري الّذي وصفوه بالرّئيسي في نجاح العملية. لقد تبنوني. الكلمات الجميلة الّتي سمعتها يومها حثتني على التحلي بسلوك خاص إزاء الجنود، يطبعه التواضع والإصغاء والعطف. علمتني هذه التجربة أنه بقدر ما يكون الجندي قدوة يكون قادرا على صنع المعجزات.

لم أفعل أكثر مما فعل زملائي الّذين يستحقون مني الكثير من العرفان. معركة جبل البلُّوط رسَّخَتْ اعتباري بين الجنود. عرفانهم بالجميل دفعني للالتزام بتصرف خاص معهم حتّى ما بعد الاستقلال. وعلمتني الحرب أن أفضل وسيلة لاكتساب احترام رجال الجيش هي أن نتقاسم الأخطار ذاتها معهم.

كالجميع كنت أحس بالقلق الّذي يسبق القتال. يتحول هذا الإحساس إلى خوف لمن لا يتحكم فيها. الماريشال الفرنسي توران أعطى تعريفا رائعا لمفهوم الشجاعة : « ارتعد أيها الجسم، لكنك سترتعد أكثر عندما ستعرف إلى أين أقودك ».

كنت واعيا بالمسولية الملقاة عليّ. اعتبر أن واجبي هو أن أكون في معترك الأحداث. لأن إحساسي بأداء الواجب يغمرني بفرحة خاصة.

امتياز مشبوه

قبل أن أتلقى امتحاني الأول في جبل البلُّوط، دعاني قائد النّاحية لزيارة المنطقة الأولى. كنت على وشك المغادرة عندما دعاني السكرتير رابح بن حومانة لألحتق به في ما كان يبدو مكتبه. وهناك أراني حزمة من الأوراق المالية التونسية من فئة الخمسين ديناراً، وهو مبلغ مغرٍ ! سألت وأنا مندهش إن كان قد تم تموين الوحدات. رد بالإيجاب وأكَّد ما كنت أعرفه من قبل، أن المناطق تتسلم أموالاً مخصصة للتموين، وعندما يكون ذلك ممكناً، فإنّها تتموّن أيضاً من سكان المنطقة. وهذا المال إذن... ؟ احتياجاتي اليومية لا تتجاوز علبة سجائر، أنت تعرف..

قال لي : « إنّها طريقة عمل المسؤولين المعتادة. كلّ مرّة يزور فيها أحدهم وحداته نضع تحت تصرفه مبلغا ماليا لتلبية كلّ « الاحتياجات الطارئة »...

وضعت النقود في جيبي واستأذنت بالانصراف من بن حومانة. عند وصولي إلى المنطقة الأولى برفقة قائد النّاحية، وبعد التعارف مباشرة سألت عن الوضع العسكري. الخريطة الدقيقة للخطوط المحصنة، وكلّ التفاصيل عن الحواجز المجهزة بها، وتقدم الأعمال في الأجزاء قيد الإنجاز، تواجد الجنود الفرنسيين ونقاط تمركزهم وحجم قوّاتهم، إضافة إلى الأماكن الّتي يتحركون فيها وكثافة السكان المدنيّين الجزائريين في ما يسمى « المجمّعات »، إلخ...

تناولنا العشاء جميعًا معًا. السهرات طويلة في الجبال، والرّجال يتناقشون عن كلّ شيء وعن لا شيء، وهم يرتشفون فنجان الشاي مع حبات الفول السوداني، الّذي اشتراه لهم قائد النّاحية من أحد دكاكين البقالة الّتي مازالت موجودة في الأرياف، وكنا نقضمها أحيانا أثناء جلسات لعب الورق. انسحبت لأني لم أكن مهووساً بلعب الورق. كان لي أن أرى كيف كان قائد ناحية ينعمهم البعض وهم من المحظوظين طبعا من « كرمه ». هذه الطريقة في العمل لم تناسبني، فنويت إعادة المال بكامله إلى بن حومانة. وهذا ما فعلته راجياً أن يوفر عليَّ في المستقبل هذه النظرة إليَّ بأن مجيئي لا يعني أبداً « نغنغة »، وإنّما صرامة وانضبّاطًا وعملاً.

في رأيي، من حق كلّ الثوار، بدون تمييز، أن ينالوا نفس الاهتمام من قائدهم. لأن « الامتيازات » الصغيرة يمكن أن تولِّد كبتا كبيرا. في زمن الحرب يجب أن تكون صورة القائد مرادفة للتجرّد

والإنصاف. وغداً، عندما يكون عليه، أمام عملية عسكرية خطرة، أن يعيّن الأشخاص الّذين يعرِّضون حياتهم للموت، هل سيفعل ذلك تلبية لعواطفه الشخصية أم وفقاً لمقاييس يمليها المنطق العسكري البارد ؟

لاحقاً، عندما تشكلت قيادة الأركان العامة كانت ثمة مخصصات تدفع للجنود والرتباء. وكان المبلغ موحَّداً للجميع : خمسة، عشرة، ثم خمسة عشر فرنكاً فرنسيًّا قديمًا. هذه الأجرة تكفي ربما لشراء سجائرنا. ومع ذلك كان عندي « امتياز ». عند نهاية كلّ شهر كان الجنود غير المدخنين يضعون بجانب ما كنت استعمله كسرير لي، بضع علب سجائر هدية متواضعة وثمينة، مشتراة من مالهم الخاص.

منذ أن بدأت الهبَّة الكبرى وأصبح عدد وحدات جيش التّحرير الوطني كبيراً، لم يعد بإمكان الفلاحين أن يموِّنوا الجيش باحتياجاته. فالأرياف تحطت تقريبا تحت قصف طيران العدو. والنّظام اللوجستي القديم والقائم على شبكات الدعم الممتدة في كلّ الأرياف، الّتي لم يعد موجودا ولا تؤمن للجميع « المأوى والمأكل »، لأن العائلات الفلاحية القليلة الّتي لم تفر بعد باتجاه البلدان المجاورة، لم يكن لديها إمكانيات إطعام مثل هذا العدد الكبير من الرّجال.

كانت عملية تموين الوحدات في مناطق العمليات تتم بواسطة قوافل البغال ودائماً في ظروف جد خطرة. وفي بعض الأحيان، يضطر المجاهدون لإتلاف مئات من الكيلوغرامات من المواد الضرورية لإعاشتهم بأيديهم، كي لا تقع غنيمة بأيدي العدو. المغامرة الّتي أرويها هنا تبيّن بوضوح الصعوبات الّتي كان يواجهها عناصر جيش التّحرير الوطني.

مرَّت ثلاثة أيام على التحاق بوطرفة الفاضل، قائد الكتيبة الثّانية بمواقعه، وقد ترك وراءه ضابط صف مكلّفٍ مع فوجه بالاستطلاع، مهمته مرافقة قافلة من البغال تحمل التّموين.

مر الوقت دون أن تتمكن القافلة من التحرك. علمنا بأن العدو يحتلُّ ممراً إجباريًّا : هو مضيق برجيلات الجبلي. تلقيت الأمر من قائد النّاحية للذهاب إلى مركز قيادة الكتيبَة الثّانية، والاطلاع على الأوضاع. وبما أنني لم أكن على دراية بطبيعة المنطقة، قلت في نفسي بأنه يجدر بي أن أطلّع عن كلّ شيء قبل دفع القافلة إلى الأمام. عندما وصلت إلى مقر القيادة، جمعت المسؤولين للحصول على أدق صورة عن الوضع.

منذ ثلاثة أيام كان بغَّالة العقبي الخائفون على حمولتهم يتقدمون خطوة ليتراجعوا بعدها خطوتين إلى الوراء. برجيلات... تعني باللهجة المحلية : « الّذي نبلغه بأقدام صغيرة » (أو خطوات صغيرة). اسم على مسمى فعلا. حسب المعلومات الّتي نقلت فوراً بواسطة عناصر على اتصال بالمكان فإنّ ظلالا بشرية كانت ترتسم من وقت لآخر فوق القمة، وبما أنني لم أكتفِ بأجوبة غير دقيقة كهذه قرّرت أن أقترب إلى أقصى درجة ممكنة من مسرح الظلال هذا لأطّلِع بنفسي على ما يجري هناك، متعمدا انتهاك أوامر قائد النّاحية الّذي طلب مني، باعتباره يعرف أنني حديث الالتحاق بالمنطقة، « عدم الإقدام على أية مخاطرة » !.

طلبت سلاحاً. فمدّني بوشريط ساسي، المعروف بالسويسي، قائد القسم الّذي تنتمي إليه مفرزة المرافقة، رشاشته من نوع « مات 49 » وثمانية شحّانات. كانت ثقيلة جداً، فاكتفيت بأربعة، وبدل الأربعة الأخرى فضّلت أن آخذ عصاي وهي أفضل معين لي ليلاً. انطلقنا فوراً. سيقلق الفاضل بالتأكيد لعدم وصول تموينه. وصلنا قريباً من الطلائع ولاحظنا بالفعل وجود أطياف في المضيق. أقل ما يقال إننيّ وقعت في حيرة من أمري. فعندما ينصب العدو كميناً يتموه حسب القواعد المتعارف عليها. قرّرت أن أتقدم أكثر إلى الأمام لأطمئن أكثر. وما أن تجاوزنا الطريق الّتي تربط بين بوحجار وسوق أهراس حتّى مشيت في المقدمة مع قائد الفوج يتبعني فريق من الجوّالين من نخبة المجاهدين، مترصدين المحيط. قد تكون الظلال الّتي تظهر وتختفي خدعة تخفي وراءها « كميناً متقدماً » منصوباً في طريقنا.

خلال تقدمنا، لاحظنا منزلا واستغربنا من وجوده في ذلك المكان المعزول. طرقنا الباب، فردّ أحدهم من الداخل :

- كملوا طريقكم ! في النهار يأتي العساكر وفي الليل تأتون أنتم !

العصبية الّتي ميّزت الصوت الّذي ردّ علينا، تعني « اذهبوا إلى الجحيم ! »، وهو الأمر الّذي أغضب « بوقشابية »، قائد مفرزة المرافقة المكلّفة بحراسة القافلة. أراد أن يحطم الباب، فأشرت إليه ألا يفعل شيئاً. وضعت نفسي مكان هذا الفلاح الخاضع دائماً للاستجواب والمضايقات من هنا وهناك. لأن المدنيّين الّذين يصرّون على البقاء في عين الإعصار يتعرضون إلى أشد وأسوأ الإهانات والإذلال. كنا نطلب منهم ربع كسرة وإبريق لبن، ونطلب منهم أحياناً أن ينيروا لنا الطريق في الليل. كانوا يقومون بذلك إلى آخر حدود طاقتهم. أما جنود العدو فكانوا يحرقون أكواخهم ويذبحون مواشيهم، ويقتلونهم أو يحشرونهم في معسكرات خلف الأسلاك الشائكة. وصاحبنا كان لديه ألف مبرر ومبرر ليطلب منا « الابتعاد ».

واصلنا مسيرتنا. فانتشر الفوج بعيون مترصدة وآذان مصغية لأقل همسة. فجأة ارتفع صوت آمر : « قف ! » انبطحنا أرضاً والسلاح جاهز لإطلاق النار. بعد تحاور، تعرف قائد الفوج على صوت جندي من كتيبته. انتصبنا واقفين وذهبنا للقائه. أخبرنا أنه لم يفهم ما يجري هذه الأيام الأخيرة : « نراكم تتقدمون وفجأة تتراجعون. عرف الفاضل أن القافلة أثقلت حركتكم، لذا نصّب على طول مسلككم، في الأماكن الوعرة، أوتادا لتنبيهكم في حالة الخطر ».

ارتحنا بعدما تأكدنا من أن طريقنا مؤمَّن بفعالية.

ورد إلينا أن فصيلة اشتبكت مع فرقة كوماندوس على أطراف قرية الشافية، وأن جنديًّا قد قتل خلال الاشتباك ودفن في نفس المكان، وأن القسم الأكبر من الوحدة بقيادة قائد المنطقة ينشط في موقع آخر.

عاودنا المسير. كانت النباتات تظهر الليل بلون أكثر سواداً، وكانت عصاي معيناً كبيراً لي. فضبطنا خطواتنا على نفس وتيرة سير البغال.

تبيّن لي أنني أميز حدود الأشياء بشكل أفضل عندما أتطلع إليها من طرف عيني، أي عندما يكون النظر منحرفاً قليلاً نحو الأعلى.

عندما أُخليت الساحة، سرّعنا التقدم. يجب الوصول قبل طلوع النهار لإخفاء معدّاتنا، لأن طيران الاستطلاع لا يترك أي مجال للراحة. فجأة، أوقفنا خفير : « كلمة السر ! ».

وصلنا إلى ضواحي قرية حرّاقة حيث أقام الفاضل معسكره.

كان الرّجال نائمين، والفاضل في الحراسة. جاء نحونا. كان لقاء وسلام. بدأ يحقق مع الفوج عن أسباب التأخير. رأيت أن رغبته كانت شديدة ليوبِّخ شقيقه مختار. تمالك أمامي احتراما. خاف مختار من غضب أخيه فانسحب. عينّ لنا الفاضل مكانا يمكننا أن نرتاح فيه.

استيقظت مذعوراً على هدير محركات الطائرات. كم من الوقت نمت ؟ الشمس ساطعة. كان الشافية وسهلها المخضرّ يمتد على مدى النظر وينتصب جبل بوعبّاد في الصورة الخلفية، ضخماً ومَهيباً. ولكن الوقت ليس للتأمل. والطائرات تدور من قريب إلى أقرب. أمر الفاضل بالبقاء في الخفاء. أحضر لي جندي قهوة في علبة محفوظات، مصنوعة على شكل كوب. كان « الإناء » المُسودّ من النار يبدو بوضوح أنه خدم كثيراً. الطائرات تقترب. أشار لي أحدهم أن أراقب مناورة البغال الّتي كانت قبل لحظة، ترعى العشب في الفسحة، والّتي تركض الآن باتجاه ملجأ الأشجار، ذلك أنّ أزيز الطائرات كان مرادفا للموت الأكيد. كان اثنين من بينها، لايكا ولولو، مصادرين من الحرْكي خلال أحد الاشتباكات، بالأخص مُدرّبين على هذا النوع من « التمرين ». ما إن يسمعا صوت طلقات النار، حتّى يدبّا، العنق والرأس في الأرض. هكذا أُخبرت – نظرت إليهما باهتمام أكبر – إنّها بهائم ذكية وقوية. من دونها كيف يمكن لكتائبنا نقل مدافع المورتر والقذائف والمؤونة ؟

رجال استثنائيون

تأسست القاعدة الشرقية، مثلما أشرت إلى ذلك سابقا، في ديسمبر 1956. حصلت على « استقلالها الذاتي » تحت اسم « منطقة سوق أهراس » وقد تولّى قيادتها على التوالي : باجي مختار، جبّار عمور، الوردي قتّال، وعمارة بوقلاز. كلّفتها القيادة السّياسيّة للثورة (لجنة التنسيق والتنفيذ) بمهمّة تموين الولايات الداخلية بالسلاح والذخيرة، ولقد أدت مهمتها على أحسن وجه.

بداية من مارس 1957، تسلمت الولايات الداخلية المهمّة بإيفاد العديد من الكتائب إلى تونس لجلب السلاح. تلقى الوحدات التابعة للقاعدة الشرقية المتواجدة على الأرض لتدل عليها الطريق وتسهل لها المرور.

يحمل عناصر الإمداد بندقيتين وألف خرطوشة وقاذفتي هاون لكلّ منهم. هذا العبء يعرّضهم للخطر. بدليل أن الكثير منهم لقوا حتفهم أثناء أدائهم لهذه المهمّة الخطرة. ولقد قامت

النّاحية الثّانية بقيادة عبد الرحمن بن سالم بالكثير في هذا المجال. ولقد ساعدهم الإقليم الّذي ينشط فيه (جبال بني صالح وأولاد بشيح) ذات التضاريس الوعرة والمغطى بمساحات غابية على العبور نحو الداخل. علما بأن الكثير من المجاهدين سقطوا أثناء العبور عبر سهل عنابة شمالا. استشهد عبد القادر البريكي رفقة ممرضه في جبل بوعباد. واصل نائبه، علي غيدوشي مع بقية الفرقة إلى حدود الولاية الثّالثة، وشهد الاستقلال. كما حاول يزيد من الولاية الثّانية العبور، فخسر نصف رجاله في حقل من الألغام[4] المركبة، وتراجع النصف الآخر. وتعرض عبد القادر عبد اللاوي، الّذي انتهز عبور يزيد للالتحاق بالمجال المفتوح، لإصابة في الوجه. خلال هذه العملية، كلّفتُ بشن عمليات تمويه في ناحية أخرى[5].

كان « الأصنامي » يجتاز حواجز الموت كما لو كانت مجرد طرقات معبدة. يمتاز بشجاعة قل نظيرها وبذكاء حاد وقوة في التبصر. ذات يوم في السّبعينات وبينما كنت في المدرسة الحربية بباريس، وقعت على كتاب من تأليف الجنرال إيتشيفري قائد معهد الدراسات الحربية العليا والّذي يعد من المفكرين العسكريّين. الكتاب بعنوان : « الأصنامي سيعود ». كان المؤلف قائد القطاع العسكري بالقالة في الوقت الّذي كان فيه الأصنامي يقوم بتحركاته المستمرة المميتة في المنطقة نفسها. والجنرال إيتشيفري الّذي كان على الأرجح يعلم بإنجازات الأصنامي جعل منه شخصية روائية. كان إيتشيفري يتغنى بالجزائر الّتي منحت كافة مواطنيها الحقوق نفسها. إنّها رؤيا نبيلة، لكن كم فيها من الطوباوية !

أقول دوما للذين يريدون أن يفهموا سر المقاومة الطّويلة لرجال جيش التّحرير الوطني في مواجهة جيش قوي بأنّ كلّ مقاتل كان يعتبر قضية شعبه قضيته الخاصة وهو يملك إيمانا لا يتزعزع بالنصر.

كتبت في الصفحات الّتي أعرض فيها بدايات المفاوضات أنّنا كنا قد قرّرنا مواصلة النضال إلى ما لا نهاية حتّى النصر أو الموت. للأسف، كان يوجد بيننا وفي صفوفنا بعض الأحيان رجال هم استثناء للقاعدة، هاربون من جيشهم وخونة لوطنهم. بعض هؤلاء المرتدين كانوا يحظون باهتمام الإعلام بهم بشكل مغيظ ويحتفي بهم، علي قرقابو وعاجل عجول في الأوراس، وبن زحزاح في جنوب قالمة وأيضاً علي حمبلي قرب سوق أهراس. إلى جانب هؤلاء الخونة الكبار، كان يوجد أيضاً بعض الخونة الصغار « البوشكارة » الوضعاء، القتلة بدم بارد، والّذين « أعيدوا » بواسطة بعض الرتباء المحليين ليخدموا كمساعدين للجلادين أو ملحقين للفرق الّتي تطاردنا.

أعطاني الفاضل فكرة عامة عن المنطقة الّتي كانت قوّاته تعمل فيها. طبيعة المنطقة القتالية جعلت الفرنسيين يقرّرون توسيع المنطقة المحرَّمة حتّى جبل بوعبّاد وخاصِرَتهِ. قال لي : « السكان

---

4. تطلب من الجزائر انتظار خمسين سنة من أجل التخلص من الألغام الّتي زرعها الجيش الفرنسي.

5. أقيم اليوم نُصُبٌ تذكاري في عين العسل، يحمل أسماء كلّ الّذين استشهدوا إلى جنب يزيد وعبد النور.

أُخلوا بالقوة ونقلوا إلى معسكرات مسيجة بالأسلاك الشائكة وقريباً لن تبقى نفس تعيش في جوارها ». طبق الفرنسيون نظرية ماو بشكل معكوس : أفرغ الإناء من الماء لقتل الأسماك. أضاف الفاضل أن عناصر الكوماندوس الفرنسيين يتكاثرون في المنطقة، ويحرسون خلال النهار وينصبون الكمائن ليلاً. كان الكوماندوس توما أشد السَّفَّاحين « صيّادي الرؤوس » وحشية. وكان في صفوفه عدد كبير من المنضمّين، خاصة أحد المساعدين ويسمى المساعد لحبيب وهو قائد سابق لمفرزة في إحدى وحدات جيش التّحرير الوطني، وكذلك الرقيب أول خميس. الشجاعة الخارقة للرقيب خميس دفعت قيادة المنطقة لإرساله للانضمام إلى العدو وتسرب قوّات الكوماندوس لإعدام لحبيب. ولكنَّ خميس بعد أن قدَّم (لجيش التّحرير الوطني) معلومات ثمينة خلال ثلاثة أشهر، انتهى بنقل ولائه وتغيير المعسكر وبالانقلاب قلباً وقالباً لخدمة مستخدمه الأخير. وكونه يعرف المنطقة بأدق خفاياها، ويعرف عادات المجاهدين، أوقع عدة مرات هؤلاء الثوار في حيرة.

في الليل، كنت أتساءل. لماذا « يرتدّ » مقاتل بطل من جيش التّحرير الوطني بهذه السهولة ؟ أي اكتشاف جديد ؟ أي مأساة شخصية قد أضعفت إيمانه بالنصر وثقته بالنّظام ؟ حالة الرقيب خميس جعلتني أنظر بريبة إلى دواب الحرب. هؤلاء الّذين يعيشون الحرب من أجل الحرب، والّذين ينتشون من إنجازاتهم، إنّهم أبطال تعساء لا ينتمون إلى أي معسكر، إلّا ربما معسكر الموت.

عند الصباح، أعاد الفاضل تشكيل مفارزه ووضعها في الملجإ في الأدغال الكثيفة الّتي تشكل القسم الأسفل من الغابة. جَنَّبَتْ هذه الطريقة للانتقال إلى المنطقة المحرَّمة المقاتلين عيون (جواسيس) الكوماندوس توما الّذي كان ينتظر أن يستقر جيش التّحرير الوطني حتّى ينقض ليلاً للقتل. ارتجل المسؤولون اجتماعاً صغيراً لدرس طريقة للوصول إلى غُمد الزانة حيث تتحصن فصيلة « بوجمعة » الملقب « المروكي » على الجانب الغربي لجبل بوعبّاد، وهي منطقة انكفاء للاحتماء مثالية لقوّاتنا، لم يسبق أبداً للقوّات الفرنسية أن اجتاحتها منذ بداية الحرب. أدهشني الفاضل عندما قرّر الانطلاق بعد الظهر. فالساعة المختارة تتعارض مع كلّ الشروح المنطقية الّتي أعطاني إياها والّتي تقول عن الانطلاق في الليل هو الأفضل من أجل سلامتنا. انطلقنا نحو غُمد الزانة مصحوبين بجنديين وطالب ضابط هو بوعشّة علي. الفاضل عادة متمسك جداً بإجراءات السلامة. هل خالف هذه المرّة حذره ؟ هل كان يريد أن يجنبني عبور الجبل خلال الليل ؟ لاحقاً، عندما تعارفنا بشكل أفضل، سألته لماذا خالف أسس الحذر الّتي فرضها بنفسه ؟ فقال لي : « كنت مسؤولاً عن سلامتك. رجال الكوماندوس « صيادو الرؤوس » كانوا يترصدون ولكنهم لا يهاجمون غالباً إلا في الليل. لأنه في النهار، وبعد قليل، يكون لدينا حظ أكبر بكشف مخططاتهم ».

انطلقنا إذاً في الساعة المحدّدة لعبور سهل الشافية.

مررنا قرب منطقة مهجورة لم يكن للمدنيين المنقولين منها الوقت حتّى لجمع حيواناتهم. كانت أبقارهم الضائعة تخور عندما نقترب منها وكانت الخضار والفواكه ناضجة لكن لم يكن هناك

من يجنيها. هذه الحيوانات الّتي أصبحت متوحشة، وهذه الأغصان المثقلة بثمارها والجدران المتداعية والأبواب المشرعة، هذا الفراغ أثقل نفوسنا. نحن في قلب مجرة الحرب الّتي يدور حولها كلّ شيء. حتّى الروائح والأصوات مختلفة. بقايا التمور الجافة والمتمسّكة وأزيز الرصاص الطائش القاتل في الأجواء. عند الأطراف البعيدة، حيث يبدأ التيه، أمر يصدم الأسماع ويجبر فكر السامع على العودة إلى نفسه، ومنبعثاً من المكان الآخر : « امشي خويا ! » (امشِ يا أخي !).

سلكنا طريقنا بين الأعشاب العالية، فكانت رؤوسنا تظهر من بين محيط القصب. قلت لنفسي إنّ الفاضل على حق، هنا يمكن لثلاثة أو أربعة أشخاص أن يمروا دون أن يُلاحظوا لكن القوافل الّتي تصبحنا، البغال لا يمكن أن تقوم بذلك دون التعرض للمخاطر. اخترقنا غابة بوعبّاد الكثيفة. كان السفح الّذي تسلقناه شديد الانحدار وأحذيتنا تنزلق أحياناً على الصخور بينما الأشواك تعلق بملابسنا خلال مرورنا وتبطئ سرعتنا، لا يهم ! يجب أن نصل إلى غُمد الزانة. قبل الوصول إليها اجتزنا ممرًّا جبليًّا. قلت لنفسي إذا كان جيش التّحرير الوطني مسيطراً على هذا الممر فإنّه يسيطر على كلّ المنطقة ويجعل اختراقها مستحيلاً. إلا أنه من الضروري تحصينها بأسلحة عديدة وفعَّالة وهذا ما لم نملكه بعد.

وصلنا في الليل إلى الهدف المنشود. تعرفتُ على بوجمعة. كان قد أكمل الثّلاثين من عمره ولحيته حسنة التشذيب. كان بوجمعة قد قاتل مع المحاربين التونسيين وعندما نال جيراننا استقلالهم، التحق سنة 1956 بصفوف جيش التّحرير الوطني. بوجمعة واحد من هذه النخبة الشمال إفريقية الّتي حققت الوحدة في المعركة. في المنطقة الثّالثة من قاعدة الشرق كان هناك العديد من المقاتلين التونسيين الأشداء المنتمين إلى « الدستور » (حزب الاستقلال التونسي) الّذين بقوا في صفوف جيش التّحرير الوطني حتّى الاستقلال، وقد شاركوا في كلّ المعارك.

المكان كثيف التحريج وكان مزروعاً بأكواخ نصف مطمورة في الأرض ومموَّهة بشكل محكم. لم يكن بإمكاني أن ألاحظها لولا أني قد تعثرت بواحدة منها. دخلنا منثنيين على أنفسنا بانحناء شديد إلى كوخ القسم. وعندما صرنا في الداخل، أصبح بإمكاننا أن نقف منتصبين بسهولة.

فجأة، قطع حِواري مع الفاضل طقطقة بنادق الـ « MG »[6]. تصادف وصولي مع عملية مناوشة كانت تقوم بها مفرزة سبتي زمولي. سكتنا لنصغي إلى تبادل إطلاق النار وميَّزنا انفجار قذائف المورتر خاصة من عيار 45 ملم، وفرقعة طلقات رشاشاتنا وبنادقنا الموزر عن تلك العائدة للرشاشات الثقيلة من عيار 12.7 ملم ومدافع المورتر من عيار 81 ملم، ومدفعية العدو الّتي كانت أقل « اقتصاداً » وأعلى صوتاً ومصمَّة للآذان. تخيلنا، دون جهد يذكر، الحالة النفسية لجنودنا المحميين في مخابئ طبيعية ولا يبالون بقوة النيران الفرنسية. في الحقيقة، لم تكن عمليات

6. رشاشات ألمانية ذات أخمص معدني صنعت في أواخر حرب 1939-1945، وهو نوعان : الأوّل صنع عام 43 والثّاني عام 45 وهو معروف بسرعة إطلاقه : 1200 طلقة في الدقيقة.

التنويش تهدف إلى إيقاع خسائر جسيمة في صفوف العدو المحصنة الّتي كنا نستهدفها، ولكن لنثبت للذين يَشْغَلون تلك المواقع أن جيش التّحرير الوطني كان موجوداً وأنه كان يترصد ويطوِّق ولا يترك لهم أي وقت للراحة. إنّ غضب تلك المواقع لا يزال هو هو، إذ يعبّر عن العجز والبلبلة.

كان صمت ثقيل يسيطر على الكوخ الصغير طيلة الوقت الّذي دام فيه إطلاق النار. فكرة واحدة مرت في خاطرنا : هل يستطيع رجالنا القيام بعملية تراجع دون صعوبات تذكر ؟ هل مُنُوا بخسائر ؟ دام ذلك حوالي ثلاثين دقيقة، وبعدها عاد كلّ شيء هادئاً ساكناً. فهذا الصمت الغريب يتبع كلّ اشتباك.

عادت المناقشات تأخذ مجراها، ولكنها قُطِعت بضجة مفاجئة لحوافر وحمحمة البغال. فقد وصلت أخيراً القافلة الّتي كانت تتبعنا. هَمٌ وأزيح عن كاهلي ! غادر الفاضل الكوخ ليستقبل القادمين وليراقب بدقة الحمولة الّتي أحضروها. وأمرهم قائلاً : « ضعوا كلّ شيء في مأمن ». كان راضياً ظاهريًّا عمَّا تسلَّمه. قام البغَّالة بإنزال حمولة بغالهم وربطوها قبل أن يتوزعوا في الأكواخ لقضاء الليل.

كان سبتي زمولي « المناوِشُ » قد عاد وكان تراجعه قد تمَّ كما كان متّفقا عليه. تطلّع إليه الفاضل بنظرة متسائلة، فأشار الآخر برأسه نفياً : « لا خسائر في صفوفنا ». وأنا فهمت ذلك من خلال استرخائه. أنا أقدِّر هذا الإيجاز، فهو يدل على الاحتراف. لم يكن الفاضل يحاول أن يخفي قلقه قبل عودة زمولي. لقد علّمته التجربة أن الاصطدام بالمظلّيين لا يقع في بعض الأحيان إلا أثناء العودة من المناوشات.

القافلة هنا، وزمولي أعاد كلّ رجاله سالمين، فارتاحت الأجواء. دخل جندي يحمل قدراً ووضعه على النار. كانت النار في كلّ كوخٍ تُغَذَّى حتّى طلوع النهار وكان ذلك بديلاً عن الإضاءة، وفي حالة الإنذار، كان الرّجال في حاجة إلى أن يَرَوْا قليلاً ليتجنبوا أن يحملوا، بسبب السرعة، حزام الموزر بينما يحملون بندقية « غارانت » أو « US 17 ». أو بالنسبة للذين يفضلون الراحة التامة، وهم أقلية، ويخلعون حذاءهم قبل النوم فينتعلون الفردة اليسرى في القدم اليمنى. البط الأعرج يسقط بسرعة أمام رصاص العدو. كانت في القدر بضع حبات من البطاطا جمعت من الحقول المهجورة تنضج على مهل. كان زمولي يتهكم بخبث ضاحكا ومازحا من المحافظ السياسي الطالب الضابط علي بوعشة قائلاً : « أه يا سي علي، لم يبق هناك سكان لنذهب إليهم لنرتاح عندهم ونأكل الدجاج. لم يبق في هذه القرى إلا الكلاب والقطط الشاردة ! ». كنت طوعاً في عداد الضاحكين. لم تكن طريقة الضحك من الآلام الّتي كانت تحيط بنا تهكُّماً وإنّما علاجاً فعَّالاً يخلصنا مما كنّا نحسُّ في أعماقنا من غضب وحقد.

المحافظون السياسيون هم ضحايا إزعاج استخبارات العدو، وبما أنّهم كانوا يعيشون بين المدنيّين لنشر الأفكار الثورية، فقد كانوا محظوظين مقارنة بالرّجال العاملين في الجبهة القتالية

وكانت امتيازاتهم الصغرى تجعلهم هدفاً للنكت. تبسَّم الرجل وشارك في المزاح. علي بوعشة ابن الأربعين عاماً، الثابت الخطوة، ذو العين الثاقبة والمعروف بشجاعته لم يستأ من الممازحة، فالرّجال يتذكرون إنجازاته. فقبل أن يتفرغ لمهمته الجديدة والخطرة،كان قناصاً ماهراً. وأي سلاح كان يستعمل ! إنّها بندقية برن ! البندقية الأنيقة و« الرصينة » FM من مصانع سلاح جلالة الملكة. أقول « رصينة » لأن هذا السلاح برغم طوله ورقته لا يتلعثم أبداً ولا يختنق رغم سرعة رميه. هناك أيضاً أسلحة أصيلة، خاصة إذا كان مستعملها ماهراً هادئاً – هكذا كان علي بوعشة دوما. تحول هذه الأسلحة المسنونة والقاطعة المواقع الّتي توجد فيها إلى قلاع حصينة. ليسامحني القارئ لابتعادي عن الموضوع، بحديثي عن صاحبة الجلالة الـ « برن ». أتحدث هكذا لأن المقاتلين يتعلقون كثيراً ببعض الأسلحة، وعليَّ أن أذكر مشاعرهم بهذا الخصوص. وبما أن الموضوع قد ذكر، فلنتابع. إنّهم يكنّون عشقاً حقيقيًّا للموزر الألماني بسبب رشاقته ودقته وقوة نيرانه. ستاتي الإيطالي مكروه إجمالاً، قصير جدًّا أو طويل جداً، مقبول عند إضافة الزائدة إليه والّتي تتحرك بغير ثبات كالقصبة الرخوة، ومحزَّم بشكل سيّء من أدناه إلى أعلاه وذخيرته مصنوعة في فترة 1942 - 1943 عندما كانت المقاومة الشيوعية الإيطالية ضد الفاشية الموسولينية تخرِّب في مصانع السلاح في شبه الجزيرة، فإما أن تتأخر الطلقات بالخروج أو تنفجر داخل بيت النار. لقد رماه المقاتلون عندما وصلت الأسلحة الجديدة. بقي من هذه الحقبة الملحمية هاتان المقولتان الشهيرتان واللّتان يتعذر ترجمتهما (الثوار الّذين سيقرؤون هذه الصفحات يفهمونها) : « استاتي يطحّن والخماسي مدرّق » بمعنى « ستاتي يجعلك مثل الطرطور، لكن الموزر يجعلك أقوى ». وماذا عسانا نقول عن الرشاش « ستان »[7].

لا شيء. في حرب الشوارع ربما. لكن في الجبل، فإنّه لا يمكن أن يحل محل بندقية مدروسة ورزينة تطيع رأس الجندي وليس لزناده فقط. خرجت بندقية « ستان » من مخيلة مهندس مريض نفسيا كان يريد أن يصفي حسابات شخصية مع الناس. فلأن عقبها غير مزوّد بكابح، على أدنى صدام تطلق الرصاص بلا توقف وتقتل كلّ ما يوجد حولها. لذلك أحرص ألا أكون على مقربة من حاملها.

عند وصولي إلى النّاحية الأولى، لاحظت تنافر أنواع الأسلحة عند المجاهدين. فلديهم بنادق من نوع « موزر » يعود تاريخها إلى الحرب العالمية الثّانية، وبنادق أمريكية US 17، وأخرى من طراز « غارانت » و« طومسون »، و« ماس 49 » و« ماس 36 ». وكان البعض يحمل « لوبال » نموذج « 86 » ووليدها الصغير « الموسكتون »، الّذي جلبه بعض قدماء الحركى الّذين انضموا إلى جيش التّحرير الوطني، أو اغتنمه المجاهدون في كمين.

كلّ نوع من هذه الأسلحة يوافق فترة من فترات الثورة. كانت هناك فترة بنادق الصيد والمسدسات ذات عبوة الخراطيش الدائرية الّتي أكل منها الدهر وشرب، ثم جاء عهد البنادق

7. سلاح قديم من صنع إنقليزي (يعود تاريخ صنعه لفترة ما بين الحربين). أقسامه المتحركة غير الثابتة تطلق غالبا عيارات مفاجئة.

الّتي تم شراؤها في الجنوب التونسي وفي ليبيا، دفع ثمنها غاليا « منقبو ذهب » الثورة. أما الأسلحة المصنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا فكان يغتنمها المجاهدون الأبطال في ساحات المعارك. وكلّ سلاح له قصة. فالبندقية الّتي أخذت من جثة عدو هو لقب من ألقاب الشرف. بعد ذلك، كان وصول أعداد كبيرة من « 303 انفيلد » منذ نهاية عام 1957، الّذي ساعد نوعا ما على توحيد سلاح جيش التّحرير الوطني. تمتاز « لي-انفيلد » نموذج عام 1903، 62.7 ملم، بسعة 10 خراطيش. وكانت « العشاري إنّقليز »، كما يسميها الثوار، ثقيلة نوعا ما (حوالي 4 كيلوغرام ونصف)، وإنّما هي بندقية آمنة ودقيقة. ولقد نتج عن صعوبة الحصول على الذخيرة عندما أصبحت الحواجز على الحدود محكمة (بين عامي 1960 و1962)، اختفت بعض أنواع الأسلحة (مثل بندقية موزر وكذلك الرشاش طومسون).

بدأ المطر خفيفاً بالتساقط. فأصر الفاضل المنشغل بحال رجاله بإعادة الفوج المكلّف بالممر الجبلي ثم إرسالها من جديد قبل الفجر. « بعد أن تناولنا الطعام » وناقشنا أشياء وأشياء. مرَّت الساعات. إنّه الوقت الملائم للنوم قليلاً. حذائي العسكري كان يضغط على قدمي لأني قد انتعلته دون أن أخلعه منذ أكثر من ثلاثة أيام. فطلبت من قائد القسم أن كان بإمكاني أن أخلعه.

- هنا، أنت في منطقة محررة !

خلعت « حذائي المتحجر كالتمثال »، (هذه هي المرّة الأولى والأخيرة الّتي سأجيز لنفسي مثل هذه « الكماليات »)، التحفت ببطّانيتي، وغرقت فوراً في نوم عميق.

كومندو توماس

لنرجع قليلاً إلى الوراء. عندما غادرنا أنا والفاضل إلى غُمد الزانة في وضح النهار كشفَنا رجال الكوماندوس توما. الحركيان لحبيب وخميس اللذان يعرفان طريقة تحرُّك الفاضل. استنتجا بسهولة أننا لسنا إلا طليعة وأن تحرك القوة الكبرى سيتم في أول الليل. مجموعة الكوماندوس توما تتمركز على الخط الّذي كنا قد سلكناه خلال النهار منتظرة قدوم القافلة متابعة آثارها دون أن تستطيع أن تخمِّن بدقة حجمها الحقيقي. إنّ من طبع « صياد الرؤوس » أن لا يهاجم الكوماندوس أبداً من هو أقوى منه. وفي مواجهة رد فعل عنيف يفك الاشتباك دائماً بسرعة. والسبب هو أن الخسائر الّتي مُنِيَ بها أدت، في مرات متعددة، إلى تجديد عديد جنوده. مهمته تنحصر بتحديد موقع جيش التّحرير الوطني ونصب كمائن خلال الليل بمجموعات صغيرة للحصول على أسرى لاستخلاص المعلومات الّتي سيستثمرها غيره بوسائل أكبر.

عندما وصل إلى المضيق الجبلي، وجد الكوماندوس المكان خالياً. لم يغامر بالنزول إلى منطقة أدنى كي لا يخسر مميزات الموقع الأعلى، وبدون شك أيضاً ليتجنب اللقاءات غير السارَّة. بعد إنذار

المدفعيّة والطّيران انتظر طلوع النهار ليتحرك. حوالي الساعة الخامسة صباحاً، عادت مجموعتنا لاحتلال الموقع الّذي كانت قد تركته بسبب المطر فاستُقبِلت برماية رشاش FM، فقدنا رجلاً.

أيقظ دوي الرصاص النائمين بغتة، فبقينا داخل الأكواخ نصف المطمورة محاصرين بكثافة النيران. لم أدر كيف أمسكت حذائي، ولم أتبين الأيمن من الأيسر، واحتجت لوقت كي أنتعله، فأخذت عهداً على نفسي ألا أخلعه عند النوم أبداً. توقفت الطلقات فجأة كما بدأت. بدأت أضواء الفجر تتماوج عبر الغيوم في الشرق البعيد، والمجموعة الّتي تراجعت أخبرتنا عن الكمين الّذي وقعت فيه في اللحظة الحاسمة لصعودها. البغال المربوطة بجانب أكواخنا قُتِلت لأنها كانت في الغالب موجودة أمام خط النار. شاركت المدفعيّة بالاشتباك، وكانت رمايتها مبعثرة وغير دقيقة. ثم حلَّق الطّيران فوق المنطقة ولكن الغيوم أعاقت رؤيته. فاستنتجنا أن عناصر الكوماندوس قد انسحبت وإلا كانوا أعطوا معلومات أدق لمدفعيتهم. هل تندرج حركة الكوماندوس ضمن عملية « تمشيط » أوسع للمنطقة ؟ التنسيق الّذي انحصر بسرعة ليتحول إلى نيران متوسطة، وخاصة الموجهة ضدنا من الجو، جعلنا نعتقد أن ذلك هو الحاصل.

أحصى الفاضل وكرر إحصاء العناصر المائة والعشرين لكتيبته. كان هناك إثنان غائبين. الأول قتل خلال الكمين. والثّاني – العقبي – قائد البغَّالة كان مفقوداً. سأل الفاضل رجاله بالدور : « أين ذهب العقبي ؟ » تظاهر الرّجال أنّهم لم يسمعوا السؤال. كان قائد البغَّالة غائباً دون مبرر، وأكد الكثيرون أنّهم قد رأوه بعد إطلاق النار، ولكن أين هو الآن ؟

انتزع الجنود جذور النباتات الّتي توضع فوق الجمر طيلة الليل ؛ لأن الحرس – في الذهاب كما في الإياب – يجب أن يزيدوا الحطب لإبقاء النيران متقدة. والتّموين الّذي أُحضر الليلة الفائتة كان فريسة للنيران. سنجوع ولكن لا يهم ! يجب ألاّ نترك شيئاً للعدو. سنأكل عندما نصل لمخزن آخر.

هذه الحيوانات النافقة وهذا المعسكر المكشوف الّذي يحترق وهذا التّموين الّذي دمَّرناه بأيدينا، كلّ ذلك يظهر بوضوح هشاشة الملاجئ الصغيرة الّتي التجأنا إليها. من يجرؤ على انتقاد الفاضل على إعادة الخُفَرَاء الّذين كانوا يحمون الممر ؟ السماء غاضبة، أنياب توماس وإنسانيّة الفاضل، وحريق أكواخنا الّذي يضيء الليل، كلّ ذلك يرسم لوحة يعبّر فيها كلّ عنصر عن منطقه.

كلّ شيء يوحي بأننا قد علقنا في « حملة تمشيط ». طلب الفاضل من أحد رجاله، الّذي يعرف المنطقة جيداً، أن يسير على رأس الوحدات الّتي شكلت طابوراً. جبل بوعبّاد واسع ووعر وكان عددنا كافياً. اشتباك مع العدو لا يقلقنا أبداً، المهم هو أن نعرف بالضبط حجم القوّات الّتي نواجهها استباقاً لما قد يحدث. اقترح عريفُنا الشجاع أن نتراجع باتجاه التجمع السكاني في مرداس (كومبس سابقاً)، الّتي هوجمت مساء، حيث ترتفع عند طرف الغابة هضبة تشرف على مرداس وعلى كلّ المحاور الّتي تتعرج في سهل الشافية. إذا كان الطريقان اللذان يحيطان ببوعبّاد محتلَّين فهذا يعني بالتأكيد أن هناك عملية عسكرية واسعة النّطاق. لم يبق لنا إلا أن نتحصن على هضبة وننتظر العدو ونتربص به.

غادرنا أماكننا ولم ننس أن نحمل معنا الطاجينين[8] القديمين اللذين حصلنا عليهما من أحد المنازل المهجورة وأحدهما مليءٌ بالثقوب. أشياء غريبة في مثل حالتنا ! يجوز العكس أيضاً. هاتان الآنيتان مرادف للحياة، هي لا غنى عنها لإعداد الكسرة، وهذه الحركة البسيطة لها أيضاً معنى آخر : غدا يوم آخر !

تابعت المدفعيّة إطلاق النار عشوائياً بينما ابتعد الطّيران. أكملنا سيرنا نحو مرداس حتّى وصلنا إلى الهضبة، فارتاح الطابور. تسلقت بصحبة الفاضل ودليله القمة. مشهد سهل عنَّابة ينفتح أمام الناظرين. لاحظنا تفاصيل التجمعات الصغيرة. على يسارنا وعلى يميننا الطرق الّتي تقود نحو الشافية وبارال تتلوى. ليس ثمة نفس حيَّة. إذاً ليست عملية « تمشيط وتطويق ». تأسفنا لعدم ملاحقتنا للكوماندوس. كان في استطاعتنا إدراكهم بواسطة طرقٍ مختصرة إذا انقسمنا إلى مجموعتين أو ثلاث. قرّرنا أنه لمراقبة مفاصل الطرق الّتي تسلكها السيارات المصفحة « للتمشيط »، يجب أن نسير عند طرف الغابة الموازية لطريق الشافية باتجاه حمَّام بني صالح، لأن هدفنا هو أن نصل إلى مخزن أغذية لا يعرفه إلا بعض المطَّلعين.

منذ أعلان المنطقة محرَّمةً، اتخذ الفاضل احتياطاته، فوزع مستلزماته المؤلفة أساساً من الطحين والسويكة (مزيج من السميد المحمّص والسُكَّر) والبن والسُكَّر والحليب المجفف وبضع مئات من المصبّرات. وصلنا بسرعة إلى المركز (المخزن). استقبلنا المساعد الروشي المسؤول عن المكان. من هناك يبدو منظر الشافية وسهلها واضحا للعيان. حدد قائد المنطقة مواقعنا حسب المساحات الّتي يجب مراقبتها. تسمح لنا الغابات برؤية أي تحركات محتملة للعدو دون أن يعرف موقعنا.

المناطق الّتي أعلنت « المحرَّمة » من قبل الجيش الفرنسي أُفرِغت من سكانها بالقوة. وتم تجميع الفلاحين في معسكرات مراقبة. تعرضت كلّ المنطقة لقصف عشوائي للمدفعية والطّيران. وكان كلّ ما تدب فيه الحياة يعتبر هدفاً معادياً يجب إبادته.

كان الجنود المختبئون في الأحراش يخافون أن يُعرَف مكانهم بسبب ملابسهم المتسخة بقتام الحطب المحروق. والجنبات الّتي اصطدمنا بها أثناء سيرنا في الغابات الّتي لم تُحرق تركت على أثوابنا علامات براقة.

قمنا أنا وقائد المنطقة ومعاونوه والروشي بتفقد الموقع لآخر مرّة. لم نكن قد أكلنا شيئاً طيلة النهار. فقمنا نحضّر الرغيف. إنّ وقت استخدام الطاجين قد أتى. أخذ الفاضل العجين وفعلت مثله. كنت فخورا بنفسي، فأظهرت مهارتي. أعرف أنه على المرء في الجبل أن يعمل كلّ شيء بنفسه بما في ذلك خبزه. إنّه درس جيد. أعرف أنه يحق لكلّ جندي بربع كسرة ساخنة ومقرمشة.

---

8. مقلاة فخارية تستعمل لإعداد الكسرة (نوع من الرغيف السميك).

لا أعرف لماذا عادت إلى ذهني في تلك اللحظة عبارة قالتها ذات مرّة جدتي. في مواسم « العزيب »، كانت تقول عندما يكثر الحصاد « الكسرة فايضة في الطاجين ». وكان بلدي « تحفة » لا شيء يضاهي الكسرة ولكن كلّ شيء نسبي، أليس كذلك ؟ صنيعي لا يقارن بكسرة جدتي ولا الزمن الّذي أعيشه يفيض خيرا.

كان الفاضل محتاراً من اختفاء العقبي، لذا كان يعود دائماً لهذا الموضوع. « أين ذهب العقبي إذا ؟ » كان يسأل دون توقف. سرعة البداهة هذه عند الفاضل، الّتي تجعله يرتب الأولويات، عززت رأيي عنه، أنه مجاهد متمرس لا ينسى أدنى « التفاصيل ».

اقترب مني الروشي سرِاً : « العقبي موجود هنا، ولكن أعرف لأي درجة يمكن أن يكون الفاضل قاسيًا. لذا فضلت أن أقول لك أنت ». انتحيت بقائد النّاحية جانباً وقلت له بأن مسؤول البغّالة موجود هنا. دفعته لأن يعد بأن يكون متسامحاً وأن يغفر له تذبذبه غير المبرَّر في برجيلات.

مسكين العقبي ! حادثته المزعجة حكاية أخرى، نفهم من خلالها لماذا لم يجرؤ على التقدم أمام الفاضل، فهي تعكس، بالرغم من طرافتها، الظّروف الصعبة الّتي يتعرض لها الثوار. التحرك والتنقل دون انقطاع والسير المعاكس على كلّ أشكال الأراضي وفي كلّ الأوقات، معناه الصمود والبقاء، والأقدام هي الّتي تتألم أكثر. ومع مرور الوقت، يأخذ « البلاديوم » وهو حذاء خفيف مصنوع من القماش المشمّع ونعل مطاطي شكلّ القدم الّتي تتعرّقُ وتلتهب وتتدمّل. وأثناء توقف أو استراحة في السير حين يخلع المجاهد هذا الجلد الثّاني لتتنفس وترتاح أطرافه، يحصل أحيانا ألاّ يتمكن من انتعاله ثانية. كلّ أصابع قدميه، وعقب قدميه وقبَّته، وكعب رجله المتألمة تتورم بشكل ملحوظ. فلم تعد سوى أوجاع. خلع العقبي حذاءه ولم يستطع انتعالها من جديد. تضاعف حجم قدميه تقريبًا واضطر لاجتياز جبل بوعبّاد بأقدام حافية، فكيف يقف بهذا الشكل أمام الفاضل القاسي ؟ اختفى فجأة خوفاً من التأنيب. مراعاة لي تغاضى الفاضل عن « المخالفة ».

الفاضل بوطرفة رجل سكوت لا يظهر ما في داخله لأول قادم. احتفظ باسمه الأول. لم يكن عنده أبداً اسماً حركيًّا. كنت أقف مندهشا أمام حزام بندقية « غارانت » الّتي يحملها بصورة دائمة حتّى تظن أنه ينام دون خلعها. يحبّه رجاله لأنّهم يعلمون أن بإمكانهم الاعتماد عليه في كلّ الظّروف. لقبوه باسم « بيجار » لميزاته كمقاتل محترف. لدى الفاضل دائمًا شيء مفيد ليعمله، فهو يقوم بالأعمال الّتي يمكن لمعاونيه أن يقوموا بها، ليس لانعدام ثقته بهم، ولكن ببساطة ليشغل نفسه. يطلب النصيحة من الأصغر منه ليس تواضعًا ولكن ليخضع حكمه الخاص لرأي الغير الّذي قد يكون أكثر حكمة. وجاءت قضية « غُمد الزانة » لتعزز حكمي في كلّ ما يخصه، وهذا شيء أفادني : أصغي دائماً للنصيحة – دون تطبيقها ضرورة – من الأصغر مني. رغم إصابته عدة مرات، لم ينأ الفاضل بنفسه يوما، حسب علمي، عن ساحة المعارك. لما عيّن قائد الفيلق الحادي عشر خلفا لأحمد ترخوش بعد استشهاده، جعل من هذه الوحدة واحدة من أفضل وحدات النّاحية الشمالية.

جبنا المنطقة خلال أسبوع تقريباً. كنا نسير ليلاً ونعسكر نهاراً تسترنا الأحراش. عملت على دراسة وتذكر كلّ النّواحي الأكثر استراتيجية. وكنا نختار مناطق راحتنا تبعا لخصائصها التضاريسية.

في هذه الصفحات سيأتي دائما ذكر جبل بوعبّاد. يشكل هذا الجبل جزءاً من سلسلة شاهقة من الجبال الّتي تغطي كلّ شمال الجزائر. ويشكّل بوعبّاد همزة وصل بديع بين جبال أولاد بشيح وبني صالح وجبال إيدوغ. كان طيلة الحرب طريق العبور ومكان التجمع والحصن الحصين لوحدات الولايات الثّانية والثّالثة في طريقها إلى تونس أو على طريق العودة. هناك برز رجال المنطقة الثّانية في النّاحية الأولى بقيادة الفاضل. لم تغب الأهمية والاستراتيجية لهذا الجبل عن قيادة الأركان الفرنسية الّتي فعلت كلّ شيء لتأمينه. عمقه وجسوره الصخرية والحرجية وامتداداته إلى جبال بني صالح جعلت منه مسرحاً يسمح، ليس فقط بالصمود نهاراً كاملاً في وجه الإمكانات الهائلة للعدو ولكن بالتحرك بسهولة وبالتراجع عند الضرورة في أية ساعة كان، إذا كنا بحاجة إلى عتاد. وبإمكان وحداتنا أن « تتجزأ » ثم تتوحّد بسرعة في حمى غاباتها.

مع قرب نهاية الحرب، تحوّل إلى مسرح لعملية عسكرية كبرى أحب أن أحدثكم عنها لأبيّن كيف يمكن لصفات الإقدام والشجاعة وحب التضحية، وهي خصال يشترك فيها كلّ المجاهدين، أن تتجسد عندما تكون الأرضية مناسبة. يومها كان الجيش الفرنسي قد أطلق عملية واسعة النّطاق محاولاً للمرّة الألف « تطهير » بوعبّاد. على أربعة محاور في وقت واحد، كانت القوّات المدرعة، المحمية بأسراب طائرات المراقبة وطائرات القصف، تتقدم وتتمدد وتتجه نحو جبل بوعبّاد.

كانت وحدات جيش التّحرير – وهي أربع فصائل – الحاضرة على الأرض، والّتي يقودها على التوالي : عبد ولد زايد وبورُقبة الطاهر وبوشريط الساسِي الملقب بالسويسي وحايفي مبروك، وينسق فيما بينها حسين بن صغير نائب قائد المنطقة، واجهتْ الموقف دون تسرع ولا تهوّر زائد، وقدّرت موازين القوى فقرّرت بالإجماع التصدي للعملية. وكان بوعبّاد حليفهم الرائع الّذي يعرفون كلّ صخرة فيه فأمَّن لهم نصراً مدويًّا.

أرسل حايفي مبروك وفصيلته المتمركزة في دريدرة، في المكان المسمَّى جبل رقوبة، دوريات أخبرتهم عند عودتها أن العدو يقترب من الشرق ومن الغرب على ثلاثة محاور مختلفة، باتجاه عين مقفل، قلب بوعبّاد.

قرّر حايفي مبروك الالتحاق بجبل بوعبّاد قبل حلول الليل، مخاطراً باجتياز سهل الشافية مع فصيلته. كان يعلم أنه في جبل بوعبّاد سيلتقي الكتيبة الثّانية الّتي تعرف الأرض جيداً. وسيكون اللقاء بين رجال حايفي ورجال الكتيبة الثّانية الّتي يقودها حسين بن صغير في « الرجم » قرب كاف بني فرج. بعد تبادل الآراء بين القائدين الحاضرين، استنتجا أن العدو سيرسل بالتأكيد قوّاته إلى بوعبّاد. « كان أمامهم خياران : تجنب المعركة واستغلال الظلام للاختفاء في الطبيعة أو مواجهة العدو رغم تفوقه العددي ». أحسّ بن صغير الّذي كانت لديه أربع فصائل تحت قيادته

أنه أقوى من أن يفر، فاختار القتال. وافقه قادة فصائله الرأي. فاحتلت وحداته مواقع قريبة من العدو خلال الليل ليبدأ الالتحام عند الفجر وذلك لمنع العدو من إعادة تنظيم القوّات المهاجمة. اتخذت الفصيلة الأولى بقيادة عابد ولد زايد موقعه في الهضبة، بين كاف سيدي فرج وعين مقفل. الفصيلة الثّانية بقيادة بورُقبة الطاهر اقترب أكثر ما يمكن من عين مقفل، حيث كان العدو قد تمركز. أمّا الفصيلة الثّالثة بقيادة بوشريط السّاسي الملقب بالسويسي، ونائبه بوجمعة الماروكي، فاحتل كاف سيدي فرج. اتخذت الفصيلة الأولى الّتي يقودها مبروك الّذي لا يعرف الأرض جيداً موقعاً قرب المرتفع 479، على طول السفوح الصخرية في المكان المسمى « نشعة الكبار »، لإقفال مجال الحركة على قوّات العدو بين كاف سيدي فرج والهدبة وعين مقفل.

أصاب حسين بن صغير في رأيه : كان العدو ينوي فعلاً تمشيط كلّ جبل بوعبّاد أو جزء منه. سُجِّلت بعض المناوشات هنا وهناك مع الأفواج الّتي أرسلت للاستطلاع. كانت أوامر بن صغير إيقاع أكبر خسائر ممكنة في صفوف العدو، ومقاومته لأطول فترة ممكنة، ثم الانسحاب في اللحظة الحاسمة والالتفاف على المواقع الأخرى. أنا سأكون مع الفصيلة المتمركزة في كاف سيدي فرج. ابتدأ الاشتباك منذ الفجر واستمر حتّى حلول الليل. تمسَّكت فصائل عابد وبورُقبة المتمركزة فوق النقاط العالية بمواقعها إلى النهاية. كان حسين بن صغير والوحدة المتواجدة معه الأكثر تعرضاً على المحور الرّئيسي لتقدم العدو، فشن قتالا ضاريا رجلا لرجل مع اللفيف الأجنب. سقط البطل بن صغير وأربعة عشر مقاتلاً من رجاله في ساحة الشرف، أكثرهم بشظايا القنابل اليدوية، بينما جُرِح اثنا عشر آخرون. أُجبر حايفي مبروك وفصيلته على إيقاف المعركة بسبب نقص ذخائر الرشاشات. تمكنت الكتيبة بأكملها من التراجع بنظام رغم محاولات التطويق الّتي قامت بها القوّات الفرنسيَّة. كانت خسائر العدو بالعشرات. لم تتوقف مروحيَّات الإسعاف طيلة تلك الصبيحة عن القيام بعمليات الإجلاء. وأفادت المعلومات الّتي وصلتنا لاحقا أنَّ بين قتلى العسكريّين الفرنسيين ضابطًا برتبة عقيد.

نتيجة لذلك، كانت الخسائر الّتي تكبّدها المجاهدون خلال هذه المعركة خفيفة نسبة لضراوة المعارك ومدَّتها وحجم القوّات الّتي دَفع بها العدو.

اشتهر جبل بوعبّاد كحصن منيع لجيش التّحرير الوطني وأثبت جدارته بهذه الشهرة. فغالباً ما سيلتقي قارئ هذه المذكرات بهذا المكان ومآثره الخالدة.

بعد هذه الزيارة القصيرة لبوعبّاد، نرجع إلى مغامرتنا.

لقد أحرقنا بأيدينا المؤونة الّتي تحمَّل المسكينُ العقبيُّ الكثير من المتاعب لإحضارها. ما وجدناه في الملاجئ المحفورة تحت أرض جبل بوعبّاد هو ما بقي بعد عبور هذه أو تلك من وحداتنا عدة مرات. صار الاكتفاء بالقليل مفروضاً وهو يشمل الجميع : المسؤولون والجنود في الهم سواء.

نتناول وجبة واحدة في اليوم : ربع كسرة أو بعض السُّوَيكة المعدَّة في مصبرات قديمة. الطعام غير كافٍ لدرجة أنه بهذا النّظام الغذائي يضعف الجسم. لم يبق لدينا تبغ، والقلة من المدخنين وأنا منهم أخذوا يلفُّون بأوراق الصحف أوراق الأشجار الجافة. هذا النوع من السجائر « Job » تجعل الوقت يمضي ولكنها تُشعل الفم وتثير الرئتين. شدَّني الشوق لقبضة من حبوب العرعار ملفوفة على الطريقة القديمة.

ذات صباح، أعطى أحد الحراس إشارة الإنذار : رجلان يتقدمان نحونا. رأيناهما في المنظار. إنّهما رجلا اتصال كانا يعتقدان أن القرى ما زالت مسكونة، كانا يرتديان ملابس مدنية لكي لا يثيرا الانتباه. وكانا يحملان رسالة. فقد هوجمت قاعدة الفاضل الرّئيسية الخلفية ليلاً من كومندو توماس. وسقط قتيل واحد وعدد من الجرحى بين الجنود الّذين كانوا في استراحة. عدنا في الليلة نفسها على رأس قوة نجدة. فقطعنا مسيرة ثلاثين كيلومترا دفعة واحدة، وعبر أرض مستحيلة، وصلنا إلى القاعدة المتمركزة تحت قبة من أشجار سنديان الزان. وهناك عرفنا تفاصيل أكثر عن ظروف الغارة.

استطاع كومندو العدو أن يحقق اقترابًا خفيًّا بفضل العتمة. كانت الريح تصفر، و« فراش » الأوراق الميتة والأعشاب حجب الضجة الّتي أحدثتها رغم كلّ الاحتياطات المتَّخذة أثناء المسيرة.

كان توماس يعلم دون شك أن كلّ الوحدات المدرَّبة الّتي تقوم بعمليات في المنطقة الّتي يعتدي عليها مشغولة في مكان آخر. كان يأمل بتصفية العناصر القليلة الباقية. لكنه لم يحتسب ليقظة الّذين فكَّر بمفاجأتهم. وبمجرد قدومه، أطلق حرسنا النار. أنذر العريف عامر بوقشابية (الّذي رافقني خلال الذهاب) وحدة مجاورة. ورغم الاستقبال الحار الّذي أُعِدَّ له فقد اجتاح قسما من القاعدة. والتحم في معركة مجابهة مع إلقاء الكثير من القنابل اليدوية. جُرح أكثرية رجالنا بشظايا القنابل اليدوية المزدوجة والملاعق والفتائل البطيئة المعدَّة بدقّة للحصول على مفعول مضاعف بضربة واحدة. هذه الطريقة باستخدام القنابل اليدوية فاجأت المجاهدين. لكن تهوُّر توماس كلَّفه حياته وحياة عدد من رجاله. عرفنا عدد الجرحى من كثرة طواف مروحيَّات الإسعاف في عين الكرمة.

في عين الكرمة، مراسيم تأبين مهيبة، وخطب وأجراس للموتى نظمها الجيش الفرنسي على شرف الملازم الأول الجريء توماس. كتبت عنه مقالة في جريدة « البلاد » (Le Bled). يحترم رجال جيش التّحرير الوطني الشجاعة حتّى لدى العدو، لكن توماس كان جلاداً متوحشاً وسفاحاً قاتلاً للضعفاء، ليس له الحق إلا بتأبين وحيد : « إلى الجحيم يا توماس ! ». عندما كان قائد الكومندو توماس يخسر بعض رجاله كان ينتقم بالتعذيب وبإعدام جماعي للمدنيين. كان يقتل ضحاياه بخنجر ويسيل دماءهم كما يفعل القصَّاب بالذبيحة. كان جنودنا يجدون بعد مرور توماس بأحد المشاتي، غالباً، جثث فلاحين وقد اعتراها شحوب مريع، وثقب فاغر على مستوى الشريان السباتي...

لم تترك لنا مسيراتنا ومسيراتنا المضادة ومعسكراتنا المؤقتة والمآسي الكبرى والمتاعب الصغيرة الّتي هي أشياؤنا اليومية، فرصة للتخطيط لمشاريع طويلة الأمد. فآفاقنا مباشرة والقسوة الّتي تغلِّف نظراتنا تطبع مشاهدنا بدوائر مسننة وشبكات من الأسلاك الشائكة وتنانين قشرية تنفث النار. أفراحنا بسيطة جدا : إبريق صغير من الحليب، وكسرة مطعمة بقليل من السمن، وإغفاءة لساعة مسروقة أثناء محطاتنا. مخاوفنا مكتومة في أعماقنا، تتجدد عند الارتجاجات والانفجارات والعصف. راحتنا هي قبل شيء عودة الهدوء. المكان الفارغ في الصف ونبرة صوت لن نعود نسمعه وهذه الوجوه الغائبة الّتي نستعيدها مساء عندما يلهم لهب الموقد حزننا، كلّ ذلك يجعلنا نعي بحياتنا الزائلة.

كم من رفيق رأيته يموت ويدفن غالبا في مكان سقوطه. نحمل موتانا إلى مثواهم الأخير في صمت. تقام له مراسيم جنائزية خاصة. ندفنهم في الأرض بملابسهم، وأحذيتهم في أقدامهم، ثم نقرأ الفاتحة وندعو الله ألا يكون استشهادهم عبثاً، ثم نرجع بقلب مثقل. لقد حجبت الليلة الماضية عَنَّا تضاريس الأرض : « امشٍ، إنّ غداً يوم جديد !..

مشي !.. مشي، خويا مشي ! أو « بست[9] » هي على الأرجح الكلمات الّتي يسمعها المجاهد غالباً. قبة السماء العميقة والواسعة والمغطاة بالنجوم وزرقة الليل الجليدية، والسكون الفلكي الّذي يحيط بنا، تحفرها في ذاكرتنا بشكل لا يمحى.

لا تزال فكرة الاستقلال سرابا. هل سنحيا نحن حتّى ذلك الحين ؟ هل سنتذوق نحن حلاوة الحرية الّتي سنستعيدها أخيراً ؟ لا يهم ! الحرب هنا حولنا. نحن وقودها واللهب أيضا. نحن لسنا متمردين ضائعين في الجبال. نحن جزء من جسم حي، بسيط ومعقد معا : « أنا وِلد النّظام » وهذا يعني : أنا ملتزم حتّى الموت، وبملء إرادتي من أجل الهدف الّذي حدده هذا النّظام الموجود في كلّ مكان، والمتيقظ والأخوي والرهيب في الوقت نفسه.

النّظام هو شيء يخفق على إيقاع آلاف الصدور، النّظام هو منظمة، وجسم وروح. والكلمة تتجاوز في شموليتها « الإدارة العليا » في السنوات الأولى للثورة. كما تتجاوز كلمة « القضية » الّتي يستعملها بحذلقة بعض المنظِّرين المبتدئين. إنّها تختصر وتختزن كلّ هذه الألفاظ. نحن جزء من هذا النّظام كما الخلية جزء من الجسم الحي. النّظام يعرف كلّ شيء ويفعل كلّ شيء. والسلام هو شأنه.

لا يجب أن نعتقد أن الحياة في الأدغال هي استنفار متواصل، ولا سلسلة غير منقطعة من الإنذارات والامتحانات. فالحرب تهدأ عندما نقرّر ذلك، وبناء لرغبة من مسؤول أو « الظّروف[10] ».

9. بِسْت : إشارة تعطى في الليل لضبط الطابور أثناء المسيرة الطّويلة.

10. « الظّروف السيئة » بالنسبة للمجاهد هي الظّروف الّتي تخلقها عملية عسكرية للعدو تجنّد لها وسائل وإمكانيات غير متكافئة مع إمكانياته الخاصة.

نتمركز ليوم أو لعدة أيام في مكان هادئ للقيام بهذه الأعمال المبتذلة كالغسيل أو حلاقة الذقن، أو من أجل ساعة فراغ للنفس، أو ساعة للذكريات، أو ساعة للحنين والأشواق.

في بعض الأحيان نتمازح، تنطلق المزحات من نوع : « هذا المساء ستحملها على حقيبة ظهرك »، في إشارة إلى قذيفة المدفعيّة المقدَّرة، ما همنا من الحياة وما همنا من الموت.

في النّاحية الأولى من القاعدة الشرقية، لا تمنعنا الحرب الّتي تعصف من الاستمتاع بالمناظر الجميلة للبحيرات وغابات الزان والأشجار الكبيرة الّتي يحمينا تاجها الواسع من عيون العدو. ففي كلّ فصل تنشر ألوانها وتهدي خيراتها. تأوي الأحراش الأيائل (الّتي نادراً ما نصطادها)، والخنازير وآلاف الأنواع من الحيوانات البرِّية. يسيل العسل بوفرة من الخلايا الّتي يصنعها الفلاحون من قشرتين بسيطتين من الفلين ملفوفتين بشكل أسطواني. يحصل أحياناً، أثناء سيرنا أن نوقظ سربا من الحجل الّذي ينطلق مسرعا ومستديرا في طيران مائل. لا تشتت صفوفهم أي طلقة رصاص. منذ منتصف عام 1957، لم يعد لدى المجاهدين بنادق صيد. ولم نكن بحاجة إلى قِرَبٍ، فينابيع المياه المتعددة الغنية بالحديد تهدر وتجري على جوانب التلاع.

الفصل السادس

« النّظام »

قبل أن نذكر كيف عبر كومندو حيدوش وفي أية ظروف هلك، من المفيد أن نستعرض الظّروف العامَّة الّتي كانت سائدة في ذلك الوقت، أي لماذا بني خطّ « موريس » أولاً ثم « شال » لاحقًا من قبل الفرنسيين وما هو الواقع الميداني وأوهام قيادة الثورة ؟

إنّ تشييد خط موريس الّذي غيَّر بشكل أساسي المعطيات العسكريّة لجيش التّحرير الوطني على المدى البعيد، تناقص قدرات الولايات المكافحة وتنامي القوى المعزولة في الخارج هو، قبل كلّ شيء إقرار بفشل سياسة « التهدئة » الفرنسية ثم هو اعتراف بالضعف من قبل الحكومات الفرنسية في ذلك العهد.

كان رجال السياسة في الجمهوريّة الرّابعة يتحدّثون بنفس اللغة، ويستعملون نفس المناورات ويلجأون إلى نفس الاستراتيجيات : الرياء والتخطيط السيئ والشعارات الوطنية الكاذبة، الّتي تخدم مصالح شخصية وليس بلداً.

يشنون الحرب ويتحاشون الاعتراف بذلك، يتفاوضون متكتمين مع خصمهم وهم لا يفرقون بين حرب التّحرير والصراعات الّتي تتكاثر في كواليس الأروقة البرلمانية، والّتي تحقق أهدافها بالتسوية والمناورة السياسوية، ويطلقون التهديدات واللعنات على تونس « المتآمرّة مع الفلاقة[1] » علماً منها بأن العالم ثنائي القطب، المولود في يالطا، يمنع على قوى الصف الثّاني أن تدوس حدود أي بلد آخر.

« حق الملاحقة » (أي إمكانية ملاحقة وحدات جيش التّحرير الوطني حتّى داخل مخابئها التونسية أو المغربيّة) الّذي كان مطلوبا من متطرفي الجزائر ومن قيادة أركان الجيش الجنرالَيْن لوريُّو وسالان لم يعد ممكناً. أثبت عدوان « السويس » ضد مصر الناصرية الّذي اعتبر خطأ مسؤولاً عن الإخفاقات الفرنسية في أن الأميركي أيزنهاور والسوفيتي خروتشيف يسهران على الوضع الدولي القائم.

---

1. الفلاقة : اسم أطلقته فرنسا على الجزائريين الّذين ثاروا ضدها من سنة 1914 إلى سنة 1962. (المترجم)

أصبح رئيس الوزراء فليكس غايار (6 نوفمبر1957-14 ماي 1958) أقليّة في المجلس الوطني لأنه وافق على الإجراءات القسرية لبعثة النوايا الحسنة الّتي قادها الدبلوماسيان الأنجلو أميركيَّان بيلي ومورفي بعد قصف الطّيران الفرنسي لساقية سيدي يوسف في فيفري 1958.

لقد رسم فشل حرب السويس وجريمة ساقية سيدي يوسف حدوداً لسياسة فوهة المدفع الّتي كانت تطبقها قوة لم تعد من القوى العظمى.

بالإضافة إلى الاعتبارات الدبلوماسية الّتي رأيناها، لم يكن بإمكان الفرنسيين المخاطرة بأن يروا تشكيل جبهة شمال إفريقية مكافحة. فعلوا ضدها كلّ ما يمكن فعله – وهذه إحدى ثوابت سياستهم – لمنع قيامها.

يعود هذا الخوف إلى زمن بعيد جداً. كانت معركة إيسلي، الّتي خسرها الأمير عبد القادر، بمثابة نصر للدبلوماسية الفرنسية عند السلطان المغربي آنذاك، سيدي عبد الرحمن. ولنفس الأسباب شحب نجم شمال إفريقيا للأمير خالد بسرعة. كما دفن اتفاق عام 1947 الّذي وقّعه الدكتور الأمين دباغين في تونس مع حزب الدستور الجديد ممثلاً بمنجي سليم وحزب الاستقلال ممثلاً بمهدي بن بركة، فور ولادته بسبب الضغوط الفرنسية.

إنّ الحرص على منع الوحدة بين المُسْتَعْمَرِينَ (العمق الّذي تقاس إليه آلة الحرب الفرنسية ابتلع هذه الأخيرة) هو الّذي حمى تونس الّتي استقرت فيها قوّات جيش التّحرير الوطني.

لقد قام الجنرال ديغول نفسه بأولى المساعي لدى تونس « بورقيبة » ومغرب « محمد الخامس » لتجنب هذا الخطر. إنّ إخلاء القوّات الفرنسية من تونس بعد المواجهة الدامية في بنزرت[2] وجهود موريس كوف دو ميرفيل، وهو سفير سابق في القاهرة، لتخفيف توتر العلاقات مع مصر الناصرية، تنم عن نهج الواقعية الفرنسية.

أمام عجزها عن تطبيق مبدإ « حق الملاحقة » الّذي أشهره موريس بورجس مونوري (13 جوان - 6 نوفمبر 1957)، ومن بعده فليكس غايار، لم يعد أمام فرنسا إلا إيجاد حل عسكري داخل الجزائر نفسها، ولم يكن بالإمكان إيجاد هذا الحل دون التجفيف المسبق لخطوط الاتصالات والمواصلات والإمداد بالأسلحة مع قوّات جيش التّحرير الوطني.

سمح بناء خط موريس المحصن، الّذي تدعم بعد عامين بخط آخر غير قابل للاختراق أيضاً، لقيادة الأركان الفرنسية بتجنب استخدام « حق الملاحقة » الّذي كان سيقودها إلى المغامرة وأن تعلن في نفس الوقت تحديًّا : لا بأس أن يعتمد جيش التّحرير الوطني على دورياته الشرقية في حربه، فهنا في أقاليم الشمال الشرقي ستوضع السدادة لتخنق حتّى الموت كلّ من يخاطر بنفسه – من أفواج وكتائب وفيالق – وينزلق إلى داخل عنق الزجاجة.

2. مدينة تونسية تحتضن قاعدة بحرية فرنسية لعبت دورا هاما خلال الحرب العالمية الثّانية. في الستينات، اعتبرها ديغول الحلقة الأساسيّة في سلسلة نقاط الدعنم للبحرية الفرنسية، مع برست، طولون ومرسى الكبير. كما كانت بنزرت مسرحا لمواجهة دامية بين الجيش التونسي والجيش الفرنسي يوم 19 جويلية 1961. المصدر : وكيبيديا.

لم يوفر الجيش الفرنسي وسيلة لتحويل الأشرطة الحدودية إلى منطقة عازلة مكشوفة لا يمكن اختراقها. هذه الأرض المراقبة بدقة، بعرض متوسطه التقريبي ما بين 60 إلى 70 كلم كانت مزروعة بالعوائق الاصطناعية، الإيجابية والسلبية : مراكز ثابتة (سميت قطاعات) حقول ألغام، شبكات أشرطة شائكة، حواجز مكهربة، كواشف ضوئية، رادارات، تمويهات صوتية، أنظمة تنصُّت، خيوط إنذار دقيقة جداً موضوعة على مستوى الركبة ومنشورة على هذه الجهة من الخط نحو الشرق على مسافة تتراوح بين 20 و 50 متراً من الأسلاك الشائكة، رادارات إلكترومغناطيسية، ملاجئ محصنة، دبابات تتحرك بشكل دوري، أو دبابات مدفونة في التراب، مدافع من مختلف العيارات (20، 40، 75، 105، 155 ملم) موضوعة تحت تصرفهم، وبعضها مجهَّز برادار لتصويب الرماية، معاقل محصنة، متقاربة، كلّ منها على مرمى نظر الآخر. وفي كلّ منها مجموعة من 5 إلى 6 رجال ورشاش 12/7، دوريات مصفحة، كومندوس من « صيادي الرؤوس »، وعناصر تدخُّل متحركة ومحمولة جوا.

وكان الطّيران، كوسيلة للمراقبة وقوة للقصف بامتياز، يتدخل بصورة دائمة. ويجدّد هذا النّظام ويعزَّز لمواجهة جرأة المجاهدين وعبقريتهم.

تترك مهمّة زرع الألغام لمسؤولي القطاعات، فهم متمرسون في تلغيم الحقول. لم يستطع الفرنسيون غداة الاستقلال أن يمدوّنا بخرائط تفصيلية دقيقة للأراضي الّتي قاموا بتلغيمها، إلى حد أنه استمر سقوط الأبرياء لفترة طويلة رغم الجهود الّتي بذلها الجيش الوطني الشّعبي لعدة سنوات لإزالة هذه الألغام.

الخط الثّاني، المسمَّى « شال » نسبة لمؤسسه، كان يحتوي على نفس النّظام الدّفاعي، وقد بدأ إعداده في النصف الثّاني من عام 1959 (عندما عبر كومندو حيدوش كان لا يزال في بداياته). هذا الخط اعتبر ضروريّاً بسبب التعزيزات الهامة لجيش التّحرير الوطني المتمركز في الخارج. يرجع قرار بناء خط دفاعي جديد، في أقصى الشرق، إلى قناعة لدى كافة أعضاء القيادة الفرنسية العليا بأن القوّات الجزائرية ستكون عاجلاً أو آجلاً قادرة على القيام بهجوم واسع حاسم باتجاه حصونهم في الداخل. وكان « خط ماجينو » الجديد هذا رداً استباقيا على التطور الأكيد لوسائل ومخططات الخصم المستقبلية.

لحد الآن، فهو يستجيب للحاجة التكتيكية لكسر أول انطلاق للوحدات المهاجمة، وليكشف عبورها في الوقت المناسب ولمفاجأتها في « المنطقة الفاصلة » الّتي استحدثت من أجل محقها بلا هوادة. بقدر ما كان خط موريس يستجيب للاعتبارات الاستراتيجية العليا على المستويات السّياسيّة ذات الطابع التكتيكي والعسكري المحض، كان هدف الخط الثّاني – المباشر – تكتيكيا وعلى المدى الطويل ضرورة استراتيجية لا يمكن إنكارها.

الجديد في خط « شال » هو وجود فرق النخبة الّتي تعتبر احتياطياً اختارها القائد العام منذ أن تسلم مهامه : 40 ألف عسكري على الحدود الشرقية وحدها ! محاطة بوحدات تدخُّل سريع، من الفصيلة إلى اللّواء مروراً بالكتيبة والفيلق.

ساهمت الوحدات غير المتحركة للقطاعات المزروعة في كلّ التجمعات والمراكز المتعددة، من وراء الخطين، في إحكام « تطويق » المناطق الّتي شوهدت فيها تحركات « المتمردين ».

حشد الجيش الفرنسي على شاطئ المتوسط حتّى جنوب نقرين، على قطعة أرض جزائرية عرضها 100 كلم تقريباً، حوالي 250 ألف رجل، أي ثلث القوة الناشطة فيها، متمركزين في أكثر من 700 موقع (من أصل 5.000 مركز) يغطون مجموع الأرض الجزائرية الّتي زرعها جنود الجنرال سالان بالتطويق. يشكل الأربعون رجلاً الّذين تحدثت عنهم الاحتياطي المباشر للعمليات[3].

حتّى منتصف عام 1959، كانت القوّات الجزائرية الّتي واجهت التشكيل المثالي لخط موريس مؤلفة من فيالق القاعدة الشرقية. الفيلق الأول يشغل النّاحية، من القالة حتّى جبال بني صالح، قاده لفترة طويلة شويشي العيساني. فيلق النّاحية الثّانية الّذي يقاتل في الوسط على جانبي المحور الّذي يبدأ من غارديماو إلى قرية لافيردور مع التمدد كثيراً نحو الشمال والجنوب، وعلى رأسها عبد الرحمن بن سالم. فيلق النّاحية الثّالثة بقيادة الطاهر زبيري موجودة، بين الطريق الدائري جنوب سوق أهراس وتضمل مدينة الونزة المنجمية.

الفيلق الرّابع كان من المفروض أن يتمركز شرق ڤامبيتا (تاورة) الّتي شُكِّلت لتكون أساساً « الممر » لوحدات العبور (القادمة من تونس أو العائدة والمتمركزة خلال إقامتها خارج الولايات في مراكز الزيتونة 1، 2 و3 وكذلك في قرن الحفايا، ووادي مليز والمينة بقرب ساقية سيدي يوسف). هذا الفيلق الرّابع يقوده اسميًّا محمد لخضر سيرين وعمليا يوسف لطرش وعلي باباي. (قُتل يوسف لطرش وأكثر إطارات هذا الفيلق : محمد الطاهر دويسية ومحمود سنوسي وعبد العزيز قادر ويوسف وشريف طيبي وبوجمعة سردوك وآخرون... استشهد هؤلاء جميعا خلال المعركة المسماة معركة سوق أهراس (27 أفريل - 3 ماي 1958)، والّتي أفردت لها فصلا كاملا في هذا الكتاب[4].

يمتدّ ترتيب الوحدات هنا أكثر إلى الجنوب بواسطة وحدات الناحيتين الخامسة والسادسة من ولاية الأوراس المتمركزة في تونس. (انظر في الملحق تفاصيل عن قوّات جيش التّحرير).

لام الكثيرون القاعدة الشرقية على ترك الفرنسيين يبنون حواجزهم المحصنة.

لم يكن جيش التّحرير الوطني في النّواحي الأولى والثّانية والثّالثة للقاعدة الشرقية يمتلك، حتّى نهاية عام 1957، وهي الفترة الّتي رأى فيها الخط الأول النور، إلا أسلحة خفيفة من نوع أسلحة المشاة. لكن رجاله اكتسبوا تجربة عالية في حرب العصابات. كان باستطاعة البعض من هذه الوحدات – المتحصنة في مواقع مرتفعة ومهيأة – القتال لمدة يوم أو يومين أو حتّى ثلاثة أيام دون توقف، وإن كان ذلك أمام وحدات مدربة ومدعومة بوسائل آلية أرضية وجويَّة.

3. تجدون في الملحق ترتيب قطاعات الجيش الفرنسي خلال حرب التّحرير.

4. تجدون في الملحق شهادات كل من محمد معارفية وسالم جيوليانو والجنرال غاجيت.

لكن لم تكن هذه التشكيلات الكبيرة للقاعدة الشرقية تملك القدرة التقنية لتمنع بناء الخط المكهرب.

« النّظام » والخطوط المكهربة

في جميع الأحوال، كان يتحتم على القيادة الوطنية للثورة أن تقوم باتخاذ الإجراءات الكفيلة بمواجهة الترسانة الفرنسية بأسلحة وخطط مناسبة. لنر لماذا لم تُتَّخذ هذه الإجراءات.

وجدت لجنة التنسيق والتنفيذ لجبهة التّحرير الوطني نفسها، منذ استقرارها في تونس بعد انكفائها تحت الضغط من الجزائر العاصمة، أمام وضع فوضويٍّ يعود بالأساس إلى « تدفق » عسكري تولَّد عن الهبَّة الشّعبية لبعض المناطق الريفية في أقصى الشرق : باتنة، تبسة، سوق أهراس، والقالة. كان لهذه الحيوية الملحوظة أثر سلبي لا مفر منه في غياب قيادة شرعية قوية ومحترمة[5]. لقد كرّس أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ أوعمران وكريم خاصة، وقتاً ثميناً لفرض الاعتراف بسلطة القيادة المنبثقة عن مؤتمر الصومام. لكن العمل الانشقاقي الّذي قاده أحمد بن بلّة ومناصره علي محساس، اللذيْن ألّبا قيادة أركان الأوراس ضد لجنة التنسيق والتنفيذ، يضاف إليه « حدة » عبان رمضان، أدخلا الثورة في متاهة الصراعات الداخلية.

كان وضع تنظيم خارجي جديد في محل التنظيم القديم الّذي توقف عن العمل بسبب اختطاف الطّائرة الّتي كانت تقل أبرز رجاله، عملا مضنيا وتطلب جهودا جبارة.

اصطدم كريم بلقاسم، رغم شرعيته المستحقّة لأربعة أسباب : كثوري من الرعيل الأول، وكعضو في القيادة الّتي فجّرت الثورة، وقائد سابق لولاية مرموقة وكعضو في لجنة التنسيق والتنسيق، بالقلاع الحصينة الجهوية والقبلية والمماحكات الطّويلة والعقيمة. لذلك كان الانتقال من مرحلة « الخليط » العسكري المتنافر والفوضوي إلى الجيش الحديث القادر على رفع التحديات المتعددة الّتي وضعها العدو، طويلاً وشاقا. فلقد كانت إشكالية الأسلحة عويصة.

في تونس، وطرابلس، والقاهرة، ودمشق، والرياض وفي بغداد، كان على لجنة التنسيق والتنفيذ أن تدرس جيدا البيئات المحلية قبل أن تخطو أي خطوة إلى الأمام وتطبق استراتيجياتها للانتشار. لم يكن بإمكان أحد أن يُغدق السلاح والمال على جيش التّحرير الوطني، عندما يتقدم إلى عواصم البلدان الشقيقة والصديقة عاريا ومستجديا.

ربما إنّ لجنة التنسيق والتنفيذ، ومن بعدها الحكومة المؤقتة[6] خلال عملهما على الجبهات التنظيمية والعسكريّة والدبلوماسية والإعلامية والاجتماعية (اللاجئتين) لم تقدر بعمق النتائج

5. بدأت الأمور تتطور بعد انعقاد مؤتمر الصومام.

6. في الحقيقة إنّ أعمال لجنة التنسيق والتنفيذ والحكومة المؤقتة الإيجابية منها والسلبية لم تكتب بعد.

المترتِّبة على جيش التّحرير الوطني، وبالتّالي على مواصلة الحرب من بناء هذه الحواجز. الواضح أنهما كانا جاهلين بأهميتها الاستراتيجية الكبرى. لم يكن تدفق كتائب الإمداد خلال عام 1957 أملاه الحرص على استباق المشرفين على إنجاز الحواجز المحصّنة بل كان تنفيذاً لبرنامج الصومام – تسليح الدّاخل – الّذي حجب عن نظرها العمل الهام والحيوي « للإنجاز العظيم » للجنرال لوريُّو والوزير أندري موريس. ولما لم يُؤخذ أي اعتبار لاحتمال وقوعه وبالتّالي تطوُّره وأخيراً تعزيزه، أعطت قيادة الثورة الانطباع بأنها كانت تعمل داخل أبواب « ثورية » مغلقة، خارج الزمان والمكان وخارج المسرحية الّتي كانت تلعب.

لم يكن موضوع تجنيد اللاجئين الشباب، الموجودين بكثرة على الحدود، مطروحا أصلا، في حين أن التسليح كان قد بدأ بالوصول بفضل التدفق المستمر للشاحنات ذات الحمولة الثقيلة (« الماجيروس » الشهيرة لمحمود شريف وسوفي صالح)[7]. لم يدخل في برامج مدارس التكوين أي توجيه نظري يتعلق بالتوزيع الجديد على الجبهات، ولم يوضع أي مجسّم يبيّن حقيقة الأشياء الّتي سيواجهها الثوار ولم ترسم أي خريطة تصور إمكانات طرق العبور، لأن أي قيادة حقيقية لم تبق على الأرض لفترة كافية لاستيعاب الحقائق الجديدة ! كان لابد من انتظار وصول هواري بومدين لكي تتغير الأمور... عندما أدرك المسؤولون السياسيون أن المأزق، بتطوره السريع، قد عزل الجزائر، حاولوا تهدئة النفوس بالخطابات الرنانة وحاولوا إنكار أي خطر بإرسال المجاهدين في مهمات مستحيلة.

إنّ وجود جدار محكم تقريباً، وعجز القيادة العسكريّة العملياتية عن تحطيمه، قد أجج الخصومات في قلب هذه التّركيبة القيادية، المشكلة من ضبّاط كبار مضطرين لمراعاة الترقيات الّتي كان يتنازع عليها زعماء الثورة الّتي كان هؤلاء الضبّاط أنفسهم يمثلونها.

لم تكن لتوجد « المؤامرة » الّتي اصطلح عليها باسم « مؤامرة العقداء » لولا الجو المحموم الّذي كان سائداً على الجبهة، وتمركز قسم من جيش التّحرير الوطني في تونس.

رفضت القاعدة الشرقية الّتي نصبّت نفسها لفترة وجيزة « ولاية سوق أهراس »، تحت قيادة محمد عواشرية[8]، أن يلعب رجالها دور « الدليل الجبلي » للولايات الأخرى. وكان ينظر إلى هذا الرفض على أنه معارضة « سياسية » للحكومة المؤقتة، قد كان أحد أسباب انضمام محمد عواشرية إلى طروحات العقيد محمد لعموري، المهندس الرّئيسي « للمؤامرة ».

يدل النص التّالي، الّذي يحمل عنوان « موريس وخطه »، بقلم العقيد محمود شريف[9] والمنشور في جريدة « المجاهد » الصادرة آنذاك. على أن الكلام السحري كان هو الرد الوحيد على مشروع قيادة أركان العدو.

7. كان عبد الحفيظ بوصوف المهندس العبقري لتنظيم وزارة التسليح والاتصالات العامة، الّتي ستصبح بتركيبتها التقنية المعروفة، التسليح والإشارة، ركيزة كبرى للثورة.

8. محمد عواشرية هو أحد ضبّاط الصف الّذين فروا من معسكر البطيحة رفقة عبد الرحمان بن سالم في مارس 1960 (انظر أعلاه).

9. محمود شريف نقيب سابق في الجيش الفرنسي وكان قائدا لولاية الأوراس النمامشة.

« ...بعد إفلاس أساليب فرض السلم (القمع الوحشي، عمليات التمشيط الضخمة، تطويق لاكوست، إلخ)، ها هو الرجل المنتظر يخرج إلينا : اسمه موريس. كان وزيرا في الحكومة السابقة، ولا يزال مرشحا للوزارة.

يبدو إذاً أن موسيو موريس، وزير الدّفاع الوطني الفرنسي في حكومة بورج مونوري المقبورة، اكتشف السلاح السِّري لسحق « التمرد »، وبالتّالي لوضع حد لهذه الحرب المدمِّرة لبلده على أكثر من صعيد.

يكفي أن تقام على الحدود الجزائرية، في الشرق كما في الغرب، شبكة ضخمة من الأسلاك الشائكة ويوعد بواسطة حملة دعائية صاخبة بالهزيمة القريبة « للمتمردين » بعدما يحرمون من مصادرهم التّموينية بالسلاح والذخائر.

في المقال الأوّل، كان يجب ملاحظة أن عسكر الاحتلال قد عودّونا على استعمال هذه الأسلاك الشائكة حتّى غداة أول نوفمبر 1954، قبل موسيو موريس ؛ وذلك عندما أحاطوا مواقعهم بها، ولم يتأخروا في تنصيبها في كلّ مزرعة أو مشتة أو قرية أو مدينة يقيمون فيها.

بذلك اتخذت الجزائر وجها دفاعيا مشابها لذلك الّذي كانت عليه مناطق شرق وشمال شرق فرنسا خلال حرب 1939 - 1940. إنّ فعالية أي حاجز دفاعي مماثل لا يبدو، حسب التجربة، أنه سيعطي النتائج المتوخاة هذه المرّة وكما حصل عام 1940 [...] نجاحه أقرب إلى نجاح أي سور مقام على الأطلسي خلال الحرب الأخيرة لمنع أي إنزال متوقع للحلفاء.

كانت الشبكة القوية القائمة بين المغرب والإقليم الوهراني وحدها درسا. فهي تعود إلى نهاية 1956 وتجتمع فيها على ما يبدو كلّ شروط الفعالية. لم يدَّخر شيء لصنع جدار حقيقي « غير قابل للاختراق » : مُلَغَّمٌ بشكل زائد ومكهرب، ويحتوي على ألف وألف فخ، ابتداء من العبوة القفَّازة إلى جرس الإنذار، ومحميٌ من مواقع ثابتة أقيمت على مسافات تقلُّ في بعض الأحيان عن 2 كلم، ومحروس بدوريات تجول على امتداده كلّه، وبحواجز مدفعية تفتح النار عند أول إنذار. [...] برغم ذلك استمرت الحرب في هذه المنطقة، حيث لم يكن سهلاً التأكيد أنه من الممكن أن يكون نشاط جيش التّحرير الوطني هو الأكثر كثافة في الوقت الراهن.

[...] بمحاصرة الحدود، ترمي القيادة الفرنسية العليا إلى قطع جيش التّحرير الوطني عن قواعده الخلفية المزعومة، والّتي هي موجودة بالنسبة للولاية الخامسة في المغرب، وحرمانه من التزوُّد بالسلاح والذخيرة.

[...] كانت الحكومة الفرنسية، بصوت موسيو موريس وزير الدّفاع، وبمطالبتها بـ « حق الملاحقة » قد وضعت النقاط على الحروف حول الأهمية الحيوية لمعركة الحدود.

إنّ إيلاء مثل هذا الاهتمام لعملية الدّفاع عن الحدود، والمعتبرة منذ هذه اللحظة عاملا استراتيجيّا ذات أهمية قصوى، يحمل دلالة كافية ويبيّن أن الجيش الفرنسي يقر بعجزه

عن تحقيق أي نصر حاسم على جيش التّحرير الوطني وعن سحقه، فهو بسبب عجزه عن القضاء عليه بشكل مباشر يسعى إلى خنقه بحرمانه من كلّ مصدر تموين بالسلاح والذخيرة.

[...] بعد ثلاث سنوات من الحرب، أقرَّت قيادات الأركان الاستعمارية ضمنيا بفشلها، فهي لم تستطع، خلال كلّ هذه الفترة، أن تتكيَّف مع أسلوب القتال الّذي فرض عليها بتعبئة طاقات شعب بأكمله... ».

في الوقت الّذي كانت قيادة الأركان الفرنسية تثبت على الأرض أنها استخلصت الدروس من إخفاقاتها العسكريّة وأنها في طريقها لأن تُكَيِّفَ وسائلها واستراتيجياتها، كان العقيد محمود شريف، عضو القيادة السّياسيّة، غارقا في الأوهام !

الفصل السابع

خيانة المرشدين

كان لابد من انتظار اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية، الّذي انعقد في طرابلس عام 1959 ليبدأ المسؤول الأعلى للقوّات المسلّحة – كريم بلقاسم – بزيارة الوحدات المقاتلة، لا ليطلع على أوضاعها الحقيقية السائدة في الأرض وإنّما ليحضَّ المجاهدين على... العبور إلى الجهة الأخرى !

عقد اللقاء مع القائد الأعلى للقوّات المسلّحة في النّاحية الثّانية التابعة لعبد الرحمن بن سالم. في جدول الأعمال أدرجت نقطة دخول قادة الولايات الباقين في الخارج إلى الجزائر، وكذلك الوحدات المتمركزة في الأراضي التونسية والمغربيّة.

إنَّ القرار التسلطي الّذي يقضي بإدخال الجنود والإطارات « الّذين مكثوا مدة تزيد عن الستة أشهر في الخارج وبإقامة قيادة الثورة في الداخل[1] » – سأعود لاحقا إلى هذا الطموح المتكرر للقيادة بالعودة إلى الجبل – هو أولا إقرار بأن الوحدات المتمركزة خارج الحدود قد اختارت بنفسها المنفى، وبالتّالي يكفي إصدار قرار رسمي لإزاحة العواقب الّتي تمنعها من العودة إلى التراب الوطني.

على الحدود، قمنا نحن – العسكريّين – بتنفيذ أوامر المجلس الوطني للثورة الجزائرية بواسطة كريم بلقاسم لمساعدة الجنود على العبور إلى الداخل، ماذا سيحدث للذين أهملوا لزمن طويل ويطلب منهم اجتياز نصف بلد غارق في الحرب ومحمَّلين بعتاد ثقيل. كانت الكلمة الأكثر تداولا عند الجنود هي « ماقدرش »[2]، كانت ترن في أذني وتوقظ في نفسي صور مؤلمة لشبان فقدوا حيويتهم بفعل أكلة « المحمَّصة » اليومية، وعدم الحركة والضجر والإرهاق حتّى قبل القيام بأي مجهود. ولهذا كانت إمكانيات العبور دون « أضرار » تبدو متضائلة. قيادتنا العليا، الّتي لم تتخذ أي إجراءات تهيئة الجنود بَدَنِيًّا ونَفْسِيًّا، طلبت منهم مواجهة نظام دفاعي يعمل بكامل طاقته.

---

1. هل كان هذا الوجود داخل الجزائر لمجموعة أو قسم من القيادة السّياسيّة للثورة ممكناً ؟ دون أن نأخذ بالاعتبار خطر رؤيتها خارج المعركة بطريقة أو أخرى، بسبب العدو، فقد كان من الممكن أن تخلق نفس الثنائية الّتي طغت بين لجنة التنسيق والتنفيذ الداخلية والبعثة الخارجية لجبهة التّحرير الوطني. لقد أعطت عودة واحد من الثلاثة الكبار في القيادة الجزائرية لهذه الأخيرة سلطة طاغية على الأعضاء الآخرين في القيادة الجماعية.

2. ما قدرش : لا أقدر.

وكانت الكتائب الّتي سلكت الطريق من الشرق إلى الغرب باستطاعتها هي على الأقل التراجع إلى قواعد انطلاقها في حالة الإخفاق.

لقد تعرضت الكثير من الكتائب التابعة للولايتين الثّانية والثّالثة، في طريقها إلى تونس لجلب السلاح والعتاد، لمجازر رهيبة في المنطقة العازلة عندما تتعنت في محاولة العبور. فمن غير تأطير لائق وأسلحة كافية ومتطورة ولا مرشدين مجرَّبين ويملكون معالم طريق واضحة، يذبحون عن بكرة أبيهم عندما يجدون أنفسهم عالقين في الحواجز المتشابكة والمعقدة. لقد بذل جيش التّحرير تضحيات جساماً من أجل نتائج ضحلة.

إنّ الّذين رفعوا أصواتهم داخل المكاتب ليطالبوا بالهجوم الشامل دون استعداد مادي فعلوا ذلك عن جهل وافتقاد تام للواقعية.

مرّة واحدة فقط، كان لوزارة الحرب موقف إيجابي، وذلك عندما أرسلت النقيب بن عبد المومن برفقة قائد النّاحية الثّانية عبد الرحمن بن سالم إلى نقطة التماس مع السياج لدراسة مفصَّلَة للتحصينات. ولقد أثار التقرير الّذي أعدّه هذان الضابطان الكفؤان دهشة الّذين قرؤوه. وما المأساة الّتي عاشها كومندو حيدوش سوى صورة صادقة عن « انطوائية » القيادة.

لم تكن ناحيتنا العملياتية الأنسب من النّاحية التضاريسية لعبور التحصينات. في شهر جوان 1959، تلقينا أمرا بمرافقة وحدة متكونة من مائة جندي للعبور إلى الجزائر، وكانت تلك الوحدة منقسمة إلى فرقتين : الأولى وهي الأكبر بقيادة حيدوش من الولاية الثّالثة. مهمتها هي تسليم أجهزة إرسال من نوع « ANGRC-9 » ومبلغ مالي كبير لقيادة أركان الولاية الثّالثة. أما الكومندو الثّاني فكان على رأسه دعاس لزهر[3]، أمّن حماية حيدوش على طول الطريق.

« هذه الوحدات يجب أن تعبر »، كان أمرا لا يقبل أي جدل. وهنا كان لي تدخل.

كان الفوجان المتخصصان والمكلَّفان بفتح الثغرات في خط موريس يضمان حوالي عشرين رجلا تحت إمرة بدر احسن وتركي بوبير. وقد جهّز، فضلاً عن المعدات العادية للعبور، زورقين مطاطيين سنرى فائدتهما فيما بعد. كان على هذه الوحدة المجرَّبة أن تقوم أولا بالاستطلاع ووضع علامات داخل المنطقة المحدَّدة من قبل القيادة كمركز عبور. وفور وصول فوجي الحراسة إلى مركز قيادة المنطقة، شرحت لهم مهماتهم قبل إرسالهم إلى المنطقة الثّانية، وهي قاعدة الانطلاق.

بينما كان الجنود يخلدون إلى الراحة أو منهمكين في وضع آخر اللمسات، قمنا بدراسة المسالك الّتي تسمح لنا بالانتقال من مكان تواجدنا إلى نقاط العبور. عندئذ، وفيما كنا مجتمعين، قام العقيد ناصر قائد أركان الجيش بزيارتنا. ولفرط ما كان سعيداً بوجوده في الجزائر، انحنى وقبَّل الأرض مرتين قبل أن يوجِّه إلينا خطابه قائلا : « هذه هي أرض أجدادنا. لقد ارتوت بدماء الكثير

3. زميل قديم في مدرسة القليعة.

من شهدائنا. اعملوا على ألاّ تذهب تضحيتهم هباء ! قوموا بذلك باسم هذه الأرض العزيزة علينا جميعا ! لقد نال من سبقوكم المجد فاقتدوا بهم. مهمتكم نبيلة. استشهِدوا جميعاً في سبيل الوطن وفي سبيل الله ! ». كان سي ناصر معروفاً بخطاباته المدّوية، وكنا نجهد أنفسنا للاحتفاظ برصانتنا. وفي تلك الأثناء تكلم أحد الجنود، وكان مغمورا بين الصفوف، وقال بصوت جهوري : « نموتوا كلّ »، احمرّ لها وجه العملاق محمدي سعيد من السرور. وبعدما طلب منا أن نموت، عاد قائدنا إلى تونس.

تضم القيادة بالإضافة إلى محدثكم، المسؤول عن الاستعلامات في النّاحية الأولى أحمد ترخوش، وقائدي المنطقتين : بوطرفة الفاضل وحدادي عبد النور، وهما يعرفان الأرض تماما ويعرفان خطط العدو. وبما أنه علينا أن نجتاز منطقته، قرّر الفاضل أن يتبع وجهة العمليات. كان هدفنا الأول هو المكان المسمَّى الزّوية. الرأس الشمالية لجبل بوعبّاد الّتي تطل على سهل الريغية.

كان على قائد المنطقة الأولى أن يكمل تنفيذ المهمّة، حيث كانت إحدى فصائله تنتظره مع الفوج المتخصص. ويقع المكان المختار للعبور في منطقة السبعة.

كلّ الطريق الّذي يؤدّي إلى جبل بوعبّاد مغطى بأشجار البلوط الفلِّيني والأدغال. ولقد اجتزنا الأماكن الكثيفة في وضح النهار دون خوف من اكتشاف الطائرات لمواقعنا، وكنا نجتاز ليلا المناطق الجرداء. وسرعان ما لاحظنا سوء الاستعداد البدني لرجال حيدوش، أمَّا رجال دعَّاس، ولأن أغلبهم تخرجوا من الوحدة الشهيرة الّتي كوّنها في جويلية 1956 سليمان قنون المدعو « لاسو »، فكانوا أكثر يقظة. لأن أكثر رجالها لهم في رصيدهم مهمتان على الأقل في مجال الإمداد بالسلاح إلى منطقة القبائل[4].

فبينما يكون رجال الفاضل قد أتموا مسيرتهم في ليلة واحدة، وجب علينا نحن، نظراً لأن أكثر عناصر حيدوش يعوزهم التدريب، أن نسير ثلاث ليال طويلة للوصول إلى سفوح جبل بوعبّاد عبر حراقة والشافية. استرحنا نصف يوم ثم تابعنا مسيرتنا حتّى أشرفنا على الجهة الشمالية لبوعبّاد حيث سيطرنا على المراكز العسكريّة المنتشرة على طول طريق عنابة – القالة وبحيرة الطيور الّتي تتوهج في منتصف سهل الريغية الشهير والمليء بالكمائن.

في المحصلة، كانت أفواج حيدوش المربكين بأمتعتهم الثقيلة والمعوَّقين بسبب نقص جليٍّ في التدريب، ولأنهم بلا شك لا يعرفون أن « السير سريعا أمان لصاحبه »، تؤخر التقدم.

---

4. يعتبر هذا الكوندو التابع للقاعدة الشرقية مفخرة العقيد بوقلاز، وكان يضم في صفوفه محمد معارفية وخالد بن ميمون (الّذي تولى فيما بعد منصب مدير مركز المعوقين حركيا التابع لوزارة المجاهدين)، وزراري شوشان من سوق أهراس، أصبح عقيدا في الجيش الوطني الشّعبي، الطيب بوسيري (أصبح فيما بعد رائدا في الجيش الوطني الشّعبي)، وغيرهم. برزت هذه الوحدة بهجمات جريئة شنتها في قلب الترسانة الحربية الفرنسية. ولا يزال هجوم 22 أوت 1956 في وسط مدينة سوق أهراس (دار علي ولد جمل) والّذي أودى بحياة العديد من المجاهدين، محفوظا في ذاكرة شيوخ سوق أهراس. ومن خلال هذا التذكير، أحيّ الرّجال الّذين قاتلوا ضمن هذه الوحدة وصنعوا أمجادها.

كان يلزمنا بذل جهود كبيرة لتخطي المرحلة الأولى. فلقد توجَّب عليَّ تفقد الرتل كلّه عدة مرَّات لمساعدة أولئك المتباطئين. فخطر الانكشاف قبل الوصول إلى الهدف كان دائما في بالنا، إذ إنّ الفِرَق الفرنسية الّتي تقوم بكلّ الجهود لإحباط مساعينا للعبور كانت نشطة في تلك النّواحي.

كان حيدوش، الّذي استشهد بعد ثلاثة أيَّام من مقاومة بطولية أمام عدو يفوقنا عدة وعددا، يرد على إلحاحاتي بكلمة واحدة : « قيم... قيم... » (اجلس باللغة الأمازيغية) (ابق جالسا !.. مهلا... مهلا !). هل هو تناقض أم علامة إعياء شديد.

الرّجال الّذين كان يقودهم لا يعرفون أية سلطة غير سلطته. حادث مفاجىء بعنفه، أثبت لي أننا لم نكن في نظرهم غير خَفَرٍ خشنين ليس إلا. بعد مسيرٍ أغرقهم بالعرق، اندفع بعضهم إلى بركة ماء راكدة على حافة الدرب. كلّ شيء كان يمكن أن يحدثٌ فجأة : من كمين إلى مرض ذات الرئة أو إسهال حاد. تقدمت لمنعهم من إلقاء أنفسهم إلى الهلاك كقطيع صاخب. سحب الأول الّذي حاولت إعادته إلى الوراء أقسام بندقيته الموجّهة نحوي... ليلاً، العتمة تحت الأشجار وحجم جذع شجرة حجباني عن نظره، وأنا لا أروي هذا الحادث إلا لأشرح في أي حالة غير متوقعة نفسيّا كانت المرحلة الأولى – أبعد من أن تكون الأصعب – الّتي تجاوزناها. لا نعبر سياج الموت دون استعداد جسدي، ودون تقدير لخطر كمائن المنحدرات العديدة ودون التأكيد على الأهمية الخاصة لآراء ونصائح وأوامر الخبراء مثل ترخوش، وعبد النور، ومحدثكم.

لا يهم ! التعب الّذي حلَّ على هؤلاء الرّجال واستهلك قدراتهم الجسدية تعوضه عزيمتهم، وأنا أقرُّ أنها ليست بالشيء القليل. الكلّ يأمل أن يستطيع العبور والالتحاق بالولاية المحدّدة له. كانوا يحافظون على روح المرح في أقسى اللحظات. في منتصف الطريق، وكنا ما نزال كلّيّا في جبل بوعبّاد، انهار جندي من التعب. سحبناه، أنا والفاضل وحيدوش إلى رأس الطابور لنجعله يرى بأمّ عينيه بأن القسم المتبقي لعبوره هو الأصعب والأخطر، ولكي يفهم أنه ليس لدينا الخيار، وأن عليه أن يبذل أقصى جهوده. ولما أدركنا أنه لن يستطيع أن يواصل، توقفنا عن تشجيعه على الاستمرار وعرضنا عليه البقاء مع عناصر الفاضل الّذين ستنتهي مهمّتهم هنا. كان إقناعه مستحيلا، فهو لم يقتنع وبقي مصرّا على المواصلة.

في الليلة الثّانية استأذنّا من قائد المنطقة الثّانية واندفعنا إلى المرحلة الأخيرة بقيادة عبد النور الّذي يعرف تضاريس الأرض الوعرة. هذه المنطقة الشديدة الخطر تخترقها طريق القالة-عنابة ويمتد سهل الريغية أمامنا مع كمائنه القاتلة. فيجب إما تفاديها وإما فتح ثغرات في كلّ معبر مغلق بانتباه. ازداد التوتر. أنا للمرّة الأولى في هذه المنطقة الفائقة الجمال، ولكن مهمتي ليست نزهة ريفية. قدَّرت مسؤوليتي. يجب أن أسهر على كلّ هؤلاء الرّجال. كلّ خطإٍ سينسب إليَّ مباشرة. كلّما كان يزداد اكتشافي لطوبوغرافيا المنطقة، كان توتري يزداد أكثر فأكثر. كنا « نَتَزَعْرَّجُ[5] » بين مختلف المواقع العسكريّة الفرنسية، نتجنب القرى ونجتاز المستنقعات

---

5. نتزعرج : نتزلج بتعرج : تشبيه للمسير بسباق التعرج في رياضة التزلج. (المترجم)

حتّى وصلنا أخيراً إلى الموقع حيث سيحضّر اختراق السياج المدعَّم. على فِرَقِ الكومندو أن تواجه الحواجز المكوّنة من بوناموسة وسيبوس، وهما نهران يشتهران بمجراهما الجارف.

هذه المرحلة الثّانية، الأصعب بدون شك، موسومة بأحداث غير خطرة. اجتزنا الطريق الإسفلتية وبدأنا المرحلة الأخيرة من مسيرنا. كانت الأرض منبسطة ولكنها مليئة بالأحراش والأعشاب السامقة الّتي تحجب الرّجال حتّى الخاصرة. فكلما اقتربنا من المنطقة المنشودة كلما ازدادت حيوية الجنود. وصلت المياه إلى كواحلنا وما تزال ترتفع. نحن في المستنقعات الأخيرة. ربما كانت الساعة الرّابعة صباحا. أصبح المشي صعبا. كنا نحمل أسلحتنا على أطراف أذرعنا خوفا من تبلل أجزائها المتحركة. اخترقنا رويدا رويداً نفقا من الشجيرات والأدغال. كنا ما نزال تحت هذا الغطاء عندما بدأ الفجر بالبزوغ. كان انعكاس الضوء عن صفحة البحر يزيد جلاء. تقدمنا بصعوبة أكبر مقتحمين الغابة، غصنا وراء غصن، مع القلق الكامن من أن تطأ أقدامنا حفرة لغم خادعة. وطأنا أخيرا الأرض الصلبة عبر مضيق مغطًّى بشجيرات يسميها أهل البلد « النشعة ». وتوزَّعنا تحت ستار الحشائش الكثيفة فجاءت الاستراحة في محلها.

يقع المكان الّذي نحن فيه بين جبل سيدي عامر والخط الساحلي عنابة-القالة، تقريبا عند النقطة المرقمة 43. فهناك سنستعد للمرحلة الأهم من مهمتنا : تأمين عبور الفرقتين. احتفظنا بنشاطنا ويقضتنا، مع أننا لم ننم إلا لساعات قليلة.

بقينا في مكاننا عدة ساعات مترصدين، ومسجِّلين كلّ ما يجب تسجيله. هدوء المكان والنسيم العليل وإشراق السماء واضطراب الموج الصامت والرتيب تهدهد أجسامنا المتألمة. شربنا الماء الصافي النقي من ينابيع كرَّرها الرمل الناعم الأشقر الّذي لم تطأه قدم إنسان.

قرّرنا أنا وعبد النور وحدادي وأحمد ترخوش أن نلتحق بفصيلة القطاع والفريق المختص على بعد مئات الأمتار من هنا، تاركين الوحدات في مكانها. تمَّ اللقاء والشمس في كبد السماء. بعد التحيات ناقشنا إمكانية تنفيذ مهمتنا. أود أن أسجل هنا التراخي الّذي يبلغ اللامبالاة لدى الرّجال الّذين يشغلون القطاع بشكل دائم. أكثرهم خالع حذاءه، والبعض بلغ حداً من عدم الإدراك جعله يترك سلاحه، يتركون أسلحتهم يتدلى عن أغصان الأشجار. آخرون مستلقون وقد جعلوا أحذيتهم مساند لرؤوسهم. شعرت كملتزم بالانضباط، بعدم الارتياح. فهشاشة الموقع ظاهرة للعيان. ونحن متواجدون داخل شبكة حقيقية، حيث لن يكون لنا عند أول هجوم جدي أي حظ بالنجاة. في زمن الحرب، البقاء متيقظا يضمن الحياة لصاحبه. فطيلة حياتي المهنية سعيت لغرس هذا المبدإ الأولي في محيطي.

تمركزت هيئة أركاننا الصغيرة في النقطة 43 الّتي اختيرت نقطة للمراقبة. لاحظت فورا بأننا في منطقة لا يمكن القيام منها بعبور سرِّي. إنّ مسؤول مركز العمليات العسكريّة هو الّذي اختار الموقع وعيَّن أيضا الدليلين المفروض أن يعرفا بشكل تام مخاضات نهر سيبوس والدروب المؤدية

من جبل بوحمرة إلى المواقع الّتي لا يمكن اختراقها في إدوغ. جمال الموقع لم يمنعني من إظهار قلقي. جولة بسيطة في الأفق كشفت لي المصاعب الجمَّة الّتي سنواجهها.

في الجنوب الشرقي وفي الشمال، كانت « الشبكة » الّتي وجدنا أنفسنا في داخلها مقفلة من جهة بواسطة البحر حيث يمكن أن يحصل إنزال فرق أو إطلاق رشقات مدفعية، ومن الجهة الأخرى بطريق عنابة-القالة، المزروعة بالنقاط العسكريّة « التابعة للقطاعات ». كما يمكن أن تنزل وحدات العدو المتحركة فوقنا مباشرة بواسطة المروحيَّات انطلاقاً من أي نقطة تمركزٍ للقوّات الفرنسية : عنابة، بن مهيدي، بن حومانة، بحيرة الطيور، النملية، بلندن، مرداس، وعشرات النقاط الأخرى. ويضاف إليها البطاريات ومجموعات المدفعيّة المزروعة في المنطقة والطّيران الّذي يتحرك بشكل منظّم لدعم القوّات البرية. فعند أدنى شك بوجودنا من قبل العدو، سنجد أنفسنا مطوَّقين بشكل محكم. يقع نهر بوناموسة على بعد حوالي خمسمائة متر. لاحظت قبالتنا الموقع القديم للمعبر الّذي سنجتازه. أبعد قليلاً، هناك الجسر الّذي ستسلكه فرق الكومندو. إنّ ميزة نقطة العبور هذه هي تجنّب الحاجز المكهرب، وهكذا نتجنب قطع خط الإنذار. لتفادي هذا الفخ تزود رجالنا بقضبان خفيفة تُمسَك بين إصبعين، وعندما تلمس هذه القضبان العائق يتوقف الطابور ويتم التحقق لكي تمرَّر العناصر فرداً فرداً مع اتخاذ كلّ الاحتياطات اللازمة ويستمر التقدم. الجسر مغلق فقط بأسلاك شائكة متشابكة، وهي مفخخة دون شك بألغام ضد الأفراد من نموذج 51 تدعى « المحابر »، وبقاذورات قفَّازة أشد خطرا، فهي مليئة بِكُرَات تنفجر على علو 80 سم عن الأرض لتسبب أكبر قدر ممكن من الجراح الرهيبة في القسم الأسفل من الجسم.

كان الفريق المتخصص قد بدأ عملية نزع الألغام وقطع الأسلاك الشائكة مموِّهاً بحِرَفيَّة عالية، عملية التخريب ليتجنب لفت انتباه الدوريَّات المعادية العديدة على طول الخط القريب. رأينا عن بعدٍ طريق عنابة-سوق أهراس، وميَّزنا بغير وضوح نهر سيبوس. تنتصب جبال بوحمرة وإدوغ شامخةً بجلال خلف المدى، عند الضواحي الجنوبية لعنابة. إدوغ هو جبل الخلاص الّذي يجب على المغاوير أن يبلغوه إجباريا، بعد سير ليلة بكاملها يجتازون فيها أولا وادي بوناموسة ثم الخط وأخيرا وادي سيبوس وجبل بوحمرة. إدوغ، المليء بالغابات ذو المسالك الوعرة هو الخطوة الأولى من سلسلة خطوات صغيرة تمتد حتّى منطقة القبائل مرورا بسلسلة مرتفعات سكيكدة ومنطقة جيجل والقل. عند الوصول إلى هذا الجبل الأول فإنّ الوحدة الّتي يحتمل أن تكون ملاحقة يمكن أن تتحصن وتتصدى للعدو. كما أنها تستطيع الاعتماد على أفواج جيش التّحرير الوطني الموجودة بأعداد كافية لإرشادها ودعمها.

تسمح لنا الحشائش السامقة والأحراش الّتي تفوح بالعطور المختلفة والأشجار النامية هنا وهناك بالإفلات من أعين المراقبين الجويين الّتي لا تنام.

تظل طائرات نادي طيران عنابة تحلّق فوقنا على علو منخفض لدرجة تجعلنا معرّضين في أي لحظة للانكشاف. غير أن الطيارين المنهمكين فعليا بدروسهم لا يعيرون أي انتباه لما يجري على بعد بضع عشرات من الأمتار تحتهم.

في النهار، لا يتحدّث الجنود إلا عن البعوض الّتي صار أذاها موضوع كلّ الأحاديث. تكاد هذه الحشرات الّتي اجتاحت كلّ الأرجاء تخطف الأضواء عن العدو. فكلّ جندي من جنود القطاع المحلي يحمل في حقيبته وقاء طوله متر على متر ليغطي به رأسه وجانبا من الكتفين لكي يحميه من مصاصات الدماء الّتي تزداد ضراوة في الليل. عرفت ذلك بمجرد أن أستلقي لأنام. فقد عرض علي جندي « خبير » في هذا الموضوع غطاء مشمَّعاً ونصحني بأن ألوذ بمكان مرتفع. ولكن أين نجد هذا المكان المرتفع ؟ حاولت أن أحتمي، ولكن دون فائدة. فهذه الحشرات اللعينة تتصدى للريح وتنقض مع أزيزٍ كصوت المنشار. تخترق حمَّاتها السَّامة عدة طبقات من القماش وتنغرز في لحمي. إلا أن التعبَ قد خدَّرني واستطعت أن أنام بضع ساعات.

أدركت بسرعة لماذا يشعر جنودنا المستقرون هنا بالأمان : إذا كانت الجلود السميكة والمدبوغة والّتي متّنتها تقلبات الطقس والحرمان، لا تتحمل الحشرات الصغيرة في بوناموسة، ماذا عن جلود جان بول وكريستيان الحساسة والناعمة ؟ فبمجرد أن يقترب الرومي من المستنقع، تنقض عليه أسراب من العلق ذات الأجنحة وتمتص دمه. و إنّني أسدي وسام تقدير لبعوضنا الشجاع. روي لي أنه منذ إعلان المنطقة منطقة محرّمة، اندثرت الحيوانات لاسيما منها الأبقار الّتي أبيدت تحت القصف. ولمّا لمْ يبق أمامها سوى البشر لتروي غليلها، ضاعفت من شراستها.

خلال تنقلنا حتّى نهر بوناموسة اسم على مسمى[6] كنا نتوقف لإعادة تنظيم الصفوف. نقتطع بعض الحشائش لنصنع منها مذبَّات. لكثرة ذهابنا وإيابنا نحو النهر الّذي يبعد عنا أقل من كيلومتر واحد، تشكلت حول معاصمنا وكواحلنا « أساور » دامية. لم ينج نسبيا سوى الوجه بفضل « المروحات » الّتي كنا نحركها دون توقف.

كان فكري مركَّزا على مهمتنا. أدنى ذكر لمجموع العوائق والمصاعب الّتي تنتظرنا والّتي كنت أقدِّرها بموضوعية كانت تجدِّد قلقي. إلا أن هدوء المسؤولين الّذين كانوا حولي كان يخفف عني. بررت انفعالاتي بعدم تأقلمي مع هذه الأرض الّتي أرتادها للمرّة الأولى. واستناداً إلى هؤلاء المسؤولين فإنّ هذه المنطقة عادة ما تختارها الفصائل كنقطة استراحة. لأن المستنقعات الموجودة في تلك الأرض تعرقل سير القوّات المتحركة. ولا يمكن للعدو أن يغامر فيها دون تضليل خطير لمشاته. وفي كلّ مرّة حاول فيها ذلك كان يهزم شر هزيمة. رغم كلّ شيء، كنت أصر على الاعتقاد أن المكان لا يصلح لعبور الوحدات الكبيرة نسبيّا، فكيف إذا كانت ثقيلة الأحمال أيضا. فلو قدِّر لي أن أزورها قبل ذلك لما اخترتها أبدا.

ونظراً لذلك فإنّ جبال بني صالح وأولاد بشيح شمال سوق أهراس، في النّاحية الثّانية التابعة لعبد الرحمن بن سالم، كانت تبدو أفضل.

أمضينا يوماً كاملاً في قطاع « الانتظار ». في المساء قبل الذهاب إلى النوم، تفقدت الأفواج. رأيت رجال كومندو حيدوش مرتاحين أكثر وبدوا لي سعداء لوصولهم إلى الحاجز الأول والرّئيسي

---

6. بوناموسة : الوادي المليء بالبعوض.

على طريقهم الطويل. وعليه، لم تعد بقية المسيرة تقلقهم كثيرا، لأن أكثرهم كان قد سلك الطريق نفسه عند ذهابه إلى تونس. أصبحت العلاقات فيما بيننا في الوقت الراهن أخوية. لعلهم أدركوا أخيرا أننا كنا على حق عندما طلبنا منهم الإسراع والحذر والانضباط. انتهزت الأجواء الأخوية لأصرَّ على الاحتياطات الّتي يجب أن تراعى لنتفادى أي مفاجأة غير سارة. فطلبت من كلّ المسؤولين أن يسهروا على التمويه. ووضعت رجالا يعرفون الأرض جيدا في كلّ فصيلة. فمن الضروري أن تكون طوبوغرافية هذه الأماكن تحت السيطرة وأن تكون لصالحنا في كلّ الأحوال. دعوت كلّ الوحدات للاقتراب قدر الإمكان من المستنقعات لكي تكون طلقات المدفعيّة غير مؤثرة نسبيا عليها. فقليلة هي القذائف الّتي تنفجر بعد أن يخفف الوحل من قوتها. نظمت مواقع دفاعنا على شكلّ « قنفذي » لكي تصمد كلّ النهار عند الاقتضاء. ولأن الحارس المعيّن في أعلى مكان من النقطة 43 لا يستطيع كشف كلّ التفاصيل في عتمة الليل، خرج قائد الفرقة الخاصة على رأس بضعة رجال للاستطلاع باتجاه الجسر، موضوع اهتمامنا، للتأكد من أنَّ العدو لا يشك بما نعدّ له.

أيقضني برد الفجر. كان كلّ شيء هادئا. أكاد لا أسمع صوت سعال مخنوق، وحشرجة حلق خفية، وتلاوة جميلة وخافتة لسورة الفاتحة الّتي تفتتح الصلاة الأولى لليوم. مجاهدون متوجهون نحو الشرق يسجدون لله.

مشاعر متناقضة تتدافع في رأسي، ترتبها الصور الغائمة أمام عيني شيئا فشيئا. أنا ورفاقي موجودون وسط شبكة عنكبوت، عنكبوت آلي ذات حمَّات متعددة، لاذعة وقاتلة. حرارة عابرة تلفح وجهي. أعرف أني سأفعل كلّ ما بوسعي لكي يعبر رفاقي ولنتفادى الفخ الّذي ألقتنا فيه القيادة دون احتراس. رائحة القهوة بالحليب والكسرة الساخنة تتصاعد دون استئذان. عادت بي ذكرى هذه الرائحة إلى أيام أكثر سكونا. لكن هذا الحنين ما لبث أن زال أمام الواقع المحيط بنا. قام الرّجال الّذين ذهبوا للاستطلاع بمجازفة جنونية باجتياز الخط لكي يحضروا من الجهة الأخرى هذا الفطور. تأثرت بهذا التفاني الكبير. وفهمت أنّهم يتمنَّوْن رؤية مسؤوليهم يتقاسمون معهم الأخطار الّتي يتعرضون لها بأنفسهم. لم أجرؤ على لومهم لمخاطرتهم بحياتهم من أجل أشياء بسيطة. ولكن هل هو حقا شيء بسيط أن تقول للأسلاك الشائكة وللألغام وللتيار الكهربائي القاتل : « إذهبوا إلى الجحيم، هذا الصباح سنفطر قهوة وكسرة وزبدة، رغما عنكم ! ». هكذا أفهم هذا الاستهزاء بالموت. دفعتني هذه اللمسة المؤثرة ولمسات أخرى بعدها كي أعتمد مع الرّجال الّذين تحت إمرتي مبدأ متشدداً : أتقاسم معهم دائما السراء والضرَّاء دون أي خداع. سأتعلم مع الوقت والتجربة قيمة الإنسان بغضِّ النظر عن الرتبة الّتي يتباهى بها. الاستماع إلى رأي أبسط جندي، أو ضابط صف، وتهنئته عندما يجب، يمكن أن تُخرج وحدة كاملة من أوضاع عصيبة. أثبتت معارك « غُمد الزَّانة » وجبل البلوط وغيرها من المعارك الّتي شاركت فيها أيضا طيلة الحرب، أنه حين تحترم المقاتل يمكن أن تنتظر منه معجزات من الشجاعة والتضحية.

بعد أن ارتشفت هذه القهوة بالحليب غير المتوقعة، بدأت بإعداد الوحدات لاختراق الخط. نهر بوناموسة هو هدفنا الأساسي. يجب أن تخترقه فرقتا الكومندو في الوقت نفسه، قبل الساعة الحادية عشرة ليلا ثم يستغلون عنصر المفاجأة للسير بنَفَس واحد إلى جبل إيدوغ لبلوغه قبل طلوع الشمس.

ابتدأنا نقترب نهارا بأقصى حد من الحذر والاحتياط لكي تتم المباشرة بهذه العملية حوالي الساعة السادسة مساء. المشكلة أن زورقينا المطاطيين لا ينقلان إلا شخصين في كلّ مرّة : فهما غير كافيين لنقل مائة وثلاثين رجلا إلى الضفة الغربيّة من النهر، سيما وأن زيادة عدد الزوارق ستكون مخاطرة كبرى. بعد المحاولة الأولى لاحظنا أن التيار قويٌّ جدّا. ربما أن هناك عاصفة ثارت بعيداً عند منبع النهر ؟ انتقلنا إلى موضع تفرُّق المياه على بعد مائة متر. نقلنا أولا فوج من النخبة وبندقيتين رشاشتين من فصيلة حمدان لحماية الجميع، ثم جاء دور فرقتي الكومندو. أدركنا بسرعة أن أشياء غير محسوبة تخرّب خطتنا : فالتوقيت المقرّر لم يُحترم. قرّرنا إرجاع الّذين نقلوا إلى الضفة الأخرى، والبحث عن طريقة أخرى للالتزام بالمواقيت المضبوطة لإنجاح العملية.

انفتحت أمامنا إمكانية أخرى : عبور مصب النهر نفسه، وللتغلب على التيار القوي جدا في هذه الجهة، نمدُّ حبالاً لإزلاق الزورقين المزوَّدين بحلقات. بالسحب المتتالي للحبال يمكن أن نعبر بسرعة مجرى الماء. للتحقق من فعالية الخطّة، وبينما مجموع الوحدات يعود إلى قطاع الانتظار لقضاء الليل، عادت هيئة الأركان الصغيرة الّتي شكلناها على أعقابها مصحوبة ببعض الجنود العارفين للأماكن والمجيدين للسباحة.

سرنا بمحاذاة البحر، والشواطئ الرمليّة الناعمة تتابع، والبحر يسبح بنور خافت بديع، وينعكس القمر في منتصفه على صفحة المياه. مشاهد ذات جمال أخاذ. الرّجال يروحون ويجيئون. وأطيافهم تذكِّر بأطياف المهربين المتدثرين بعباءة الليل. أعادنا العمل الّذي ينتظرنا بسرعة إلى الواقع. فنحن لا نصور فيلم مغامرات. نحن مقاتلون يترقبنا الموت في كلّ لحظة.

كانت المحاولات كارثية. فوزن الرّجال المنقولين كان ثقيلا على الحلقات المطاطية الصغيرة، فقفز الجنود الشجعان إلى الماء، وعادوا الهوينا نحو الضفة متعلقين بالزوارق، متغلبين على التيار الّذي كان يحاول جرَّهم نحو عرض البحر. فبدأنا جميعا نرغي ونزبد.

وُضِعنا جميعاً أمام الأمر الواقع : لا يطلب من جنود ضعفاء ومنهكين القيام برحلة عجيبة عبر بلد مطوّق ويحرسه جيش في حالة استنفار دائم، دون إعدادهم بدنيا أحسن إعداد. لا تُحدّد منطقة عبور على بعد بضع مئات من الأمتار من البحر حيث يمكن للمدفعية المحمولة بحراً أن تبدأ بإطلاق النار فور إنزالها، وحيث يمكن أن تتدفق بلمح البصر قوى عدوة مهمّة دون أن يكون لدينا أية إمكانية لإبعادها عنا مسافة مقبولة. مَن الّذي احتسب تلاؤم النسبة والمسافة الّتي يجب قطعها والوزن وحجم حمولة الجندي ؟ ومَن الّذي اختار في النهاية المرشدين الّذين يتعين

عليهم إيصال حيدوش إلى مخاضات سيبوس ومن بعدها إيدوغ، وعلى أي أسس خاصة بمعرفة الأرض وعلى أي ضمانات الشجاعة والقوة النفسية والتضحية في سبيل الوطن ؟

تبيّن الحالة المأساوية الّتي كنّا فيها التناقض الجوهري بين الواقع وأوهام قيادة بعيدة تطبخ سيناريوهات نظرية وهي قابعة خلف المكتب. قصر النظر وانعدام الخبرة عند الّذين نظَّموا مغامرة حيدوش واضح للعيان.

لكن من يستطيع أن يقول للمسؤولين : « كلّ ما تفعلونه خاطئ ! » حتّى عندما نكون واثقين أننا سنلقي حتفنا في حقول الألغام أو تحت طوفان القذائف، فإنّنا نفضل الصامت. فلا نتّهم « النّظام » أبدا، وأكثر ما نقوله أن « حظّنا سيء ».

فشلت إذن المحاولة الأولى. أجَّلْنا الأمور إلى مساء الغد، وبدأنا نفكر بطريقة ثانية للتنفيذ : تقسيم فرق الكومندو إلى مجموعتين وعبورها مع فارق يوم واحد بين الواحدة والأخرى. رجعنا على أعقابنا متحرسين. سيكون يومنا الثّالث في قطاع الانتظار. يومان زائدان ! اعتراني خوف من أن نُكْتَشف. الذهاب والمجيء المستمر للجنود شق أثلاماً في الأعشاب العالية، يمكن لها في كلّ لحظة أن تجذب انتباه طائرات الدورية أو طياري نادي الطّيران. في اليوم التّالي تم اجتماع جديد مع حيدوش ودعّاس. من يجتاز منهما أولا ؟ القرار يعود إليهما. أصر حيدوش على العبور أولا.

كان اقتراحه ملائما. أراد أن يستغل عامل المفاجأة. فوافقنا. سينتظر دعَّاس دوره. ولكي نضع كلّ فرص النجاح إلى جانبه اقترحنا على حيدوش أن يضم إليه رجال دعَّاس الّذين يجيدون السباحة وأن يبقي إلى المرحلة الثّانية العناصر الّتي يمكن أن تؤخِّر تقدمه، وللأسف كان هؤلاء كثيرين، أمّا مرشدي الولاية الثّانية فسيكونون طبعا ضمن المجموعة الأولى.

أعيد هيكلة فرقة الكومندو الأولى بسرعة، حيث بلغ عددها ستين عنصرا. استراح بانتظار ساعة الصفر، في آخر النهار. بقينا مترقبين عند طرف النقطة 43، قريبا جدا من مركز الحراسة لمراقبة محيط الجسر. وعند الغروب تواجدنا على تماس مع خط تفرُّق المياه. وضع الّذين يجيدون السباحة ملابسهم وعتادهم في الزورقين وارتموا في المياه. انتقل فريق الحماية إلى الضفة الأخرى، وبدأت الزوارق رحلاتها.

هاجم البعوض الجنود الّذين وصلوا إلى الضفة الأخرى عراة تقريباً. عرفنا ذلك من صوت الصفق الّذي يضربون به أنفسهم للتخلص منه. حدثٌ ما لفت انتباهي : انقلب زورق كان على متنه ثلاثة رجال. عبد النور حدادي، رئيس النّاحية الأولى من المنطقة الأولى تعرَّى تماماً وغطس في النهر وتبعه عدة رجال. حدادي وزملاؤه أنقذوا عتاد الجنود الّذين أشرفوا على الغرق. فقدنا مسدس « مات 49 » عندما اكتمل مجموع الستين جنديا عند الضفة الغربيّة لنهر بوناموسة، اندفع أحمد ترخوش ومخترقو الأسوار باتجاه الخط، وبقيت أنا في مكاني مع القسم الأكبر من قوّاتنا لمواجهة الرد المحتمل للعدو في لحظة العبور. بعد ساعتين عاد ترخوش مع مجموعته.

لقد عبر حيدوش ورجاله الخط في الساعة التّاسعة تماماً من ليلة 24 جوان 1959. غمرنا الفرح بالنجاح.

أعطينا تعليمات أكثر صرامة للحرس. الحذر ! الحذر ! غداً سيكون دور دعَّاس. نمنا قليلا جدّا. حمل سكون الليل إلينا لهاث آلة الحرب الفرنسية الضخمة : محركات طائرات، شاحنات GMC، صرير العجلات على الإسفلت، طلقات نار في أماكن بعيدة. عند الفجر كنا واقفين. حان وقت إعداد رجال دعَّاس. كانت التوصيات : الحذر دائما وأبدا ! الفطنة ! السرعة !

كنّا مطمئنين، فكومندو حيدوش لديه الإمكانية للوصول إلى إيدوغ. لقد تم عبور الخط في الوقت المحدد. افترضنا أنه أصبح بمنأى عن آليات العدو، على الأقل في الوقت الحاضر. طال النهار، عدنا متفائلين. حوالي الساعة الرّابعة والنصف بعد الظهر، أشار أحد حرّاسنا إلى أن هناك شيئا ما يحدث. اكتشفنا من أعلى النقطة 43 حسب خريطة هيئة الأركان، عربات محملة بالجنود واقفة عند مدخل الجسر. ولاحظنا بواسطة المنظار، عسكريين آخرين منهمكين في الأسفل. اعتقدنا في الأول أنه اكتشاف بسيط للعبور الّذي تم البارحة. على كلّ حال لم يبق لنا إلا الانتظار واختيار نقطة أخرى لعبور دعَّاس. الجواب كان عبر الدوائر الّتي ترسمها فوق أماكن تنقلاتنا وعلى علو مرتفع قليلا مروحيتان. فهمنا في الحال أن هناك شيئا جديدا. لا يمكن لوجود هاتين المروحيتين أن يفسَّر إلا بوجود عملية قيد التنفيذ أو الإعداد. يمكن أن يحمل إلينا الغد مفاجآت مريرة، لذلك قرّرنا أن نغادر أماكننا عند هبوط الليل.

التحقنا بمرتفع غير بعيد عن مشتة أولاد بوبكر تاركين خلفنا فصيلة حمدان الّتي هي قطاع عملياتي، على أن تمكث في مكانها مهما حصل. أمضينا الليلة في مكاننا.

في الصباح، انطلقت طلقات مدفعية من البحر تستهدف الموقع الّذي كنا قد تركنا حمدان فيه، وتحديدا في المكان الّذي كنا فيه قبل انسحابنا. تواصلت الطلقات لمدة أربع ساعات تقريبا. كانت كثيفة لدرجة أن ضجيجها المتواصل كان أشبه بقرع الطبول. هل يمكن لمهارة وخبرة حمدان ورجاله أن تخلصهم من المأزق ؟ مرَّ النهار ثقيلا. ماذا حصل يا ترى لمجموعة حيدوش ؟ كنا منشغلين فعلا بمصير رفاقنا.

عند حلول الليل، أعلمنا جندي مرسل من حمدان بأن الفصيلة سالمة، وأن الفرنسيين لم ينزلوا وحدات. اكتفوا بالقصف من عرض البحر. فبقينا نفكر ونخمّن. لم نعرف إلى حد تلك الساعة ما حدث فعلا. لكن الشيء الأكيد هو أنه إذا لم يستطع رجال حيدوش عبور نهر سيبوس فهم بالتأكيد قد تم اعتراضهم. يؤكد ذلك النشاط الكثيف للمدفعية والطّيران في سهل عنابة طيلة النهار، من جانب نهر سيبوس.

حدثنا مدنيون جاؤوا من مشتة أولاد بوبكر، ولم يكونوا على علم بأننا مرَّرْنا فرقة كومندو، عن اشتباك عنيف. قالوا بأنّهم منذ بداية الثورة لم يروا استنفارا مثل هذا للعدو ومثل هذه

المقاومة الكبيرة من قبل جيش التّحرير الوطني. أخبرونا بأن الطائرات كانت تنقض فوق ضواحي جنوب عنابة. هذا بالنسبة لنا تأكيد بأن حيدوش اشتبك مع العدو !

في اليوم التّالي، وفي آخر النهار، التحق بنا عنصر استطلاع من المجموعة الخاصة وقدَّم بعض الأجوبة على استفساراتنا. لم تستطع مجموعة الكومندو عبور سيبوس. التفسير الأول الّذي يخطر على البال هو أن المرشدين الّذين كان لديهم الوقت الكافي لإيصالها إلى نقطة عبور النهر فشلوا في مهمّتهم. وإلاّ فلماذا تاه حيدوش إلى حدٍّ أنه دخل ضواحي عنابة، ثم اضطر إلى الانحراف إلى حقول برتقال المعمّرين الكثيرة بين نهر سيبوس وسيدي سالم ؟ شيئا فشيئا بدأ يعرف السر من فم الجنود : اشتكى المرشدون من تباطؤ رجال حيدوش. أما جنودنا فلم يروا فائدة في أن يكلّمونا عن ذلك.

لا شيء يبرر ما حصل، ولا يغفر تهاون المرشدين وتخليهم عن الكومندو. مثل هذا التّصرف، إذا صحت هذه الفرضية، هي أسوأ من الجبن، إنّها خيانة شنيعة. ولكن للتاريخ – وهذا هو الأهم – لماذا لم يبذل أي جهد للبحث عن الدليلين لمعرفة الحقيقة ؟

حسب رواية أخرى (تلقي بالمسؤولية كاملة على الدليلين، لأن فرقة الكومندو لم تسلك الطريق الصحيح) انفصل رجل عن الطابور بعد العبور، بسبب التعب أو لأي سبب آخر. لعله قد فوجئ على طريق عنابة – سوق أهراس بالعسكريّين الفرنسيين ولا بد أنه قد اعترف. الأمر الّذي أعطى الفرنسيين الوقت الكافي لإعداد تشكيلهم. لقد جرت عملية تثبيت في ليلة العبور الأخيرة للخط يوم 25 جوان 1959 قبل اشتداد هذه المعارك في الساعات التّالية.

من جهتي، بقيت مترددا لفترة طويلة بين عدة احتمالات، حتّى اليوم الّذي قمت فيه، بعد الاستقلال بفترة، بمرافقة مبروك حايفي بالسير على نفس الطريق الّذي كان يجب أن يسلكه حيدوش ليلحق بإيدوغ. عند إلقائنا نظرة على السهول والأودية والمرتفعات والمنخفضات ثمة حقيقة فرضت نفسها. نظر كلّ واحد منا إلى الآخر، وعرفنا أننا نحن الإثنان نفكر في الشيء نفسه : في مثل تلك الحالة البدنية الّتي كان عليها أكثر رجاله، فإنّ حيدوش لم يكن لديه أية إمكانية لاجتياز هذه المسافات بقفزة واحدة.

بعدما تأكد للمرشدين استحالة عبور نهر سيبوس، وهما أكثر وعياً من غيرهما بالخطر، ارتأيا بدون شك أن الأفضل لهما أن يعبراه سباحة. فتوجه حيدوش، تحت الضغط والإكراه، نحو الشَّمال بحثا عن مأمن في بساتين البرتقال الكثيرة في ضواحي جنوب عنابة. كان ذلك كمن يلقي بنفسه في فم الذئب.

قاوم حيدوش ورجاله – الّذين يقارب عددهم الستين – بضراوة المعتدين المجهزين بتشكيلة من الأسلحة أقوى بكثير من الأسلحة الخفيفة الّتي كانت بحوزتهم. استشهدوا ببطولة. علمنا لاحقا أن هناك جنديين أو ثلاثة جرحى سقطوا في الأسر. في نفس اليوم، جاء الفرنسيون مصطحبين

معهم عدداً من الصحافيين (بينهم كثير من الإنّجليز) ليتبجحوا أمامهم بنجاح سياسة « التهدئة ». كانت هذه المعركة بالنسبة لهم إهانة قاسية، إذ إنّه في موازاة ذلك كانت كتائب الولاية الثّانية تقوم بعمليات تمويه بمهاجمة أهداف أخرى.

أقامت الجزائر المستقلة نصبا تذكاريا تخليدا لأرواح هؤلاء الأبطال في المكان الّذي سقطوا فيه.

قضينا الليلة في جبل حلوفة. وفي اليوم التّالي أخذنا طريقنا للالتحاق بمركز قيادة النّاحية، مؤجلين لوقت آخر عبور كومندو دغّاس، لكي لا نوقعه في شبكة ضيقة الحلقات لعملية بحث وتصفية. مرحلتنا الأولى هي جبل كاف الدابّة قرب قرية توستان (زيتونة لاحقا) لأن المنطقة الغابية الكثيفة تسمح لنا بالتنقل نهارا. فجأة، ملأ هدير محركات طائرات السماء وبدأ بالاقتراب. إنّه فوقنا. تفرقنا في الحال كي لا نقدم له أهدافا سهلة. ظهرت الطائرات : عشرة من طائرات « تي 6 » و« تي 28 » و« سبيتفاير » اتجهت نحو جبل أم علي، وبعيدا عن الطريق المعبّدة الرابطة بين القالة وسوق أهراس الّتي ما تزال بالنسبة لنا أيضا عائقا يجب تجاوزه. بوصولها فوق هدفها، ارتفعت وجنَّحت ثم عادت وانقضت من جديد.

اعتقدنا في بادئ الأمر أن هنالك اشتباكا مع الكتيبة الثّالثة بقيادة عبد القادر قارة. يبدأ الاشتباك عامّة بطريقتين : إمّا عندما يُكتشف وجود وحداتنا لحظة عبورها (عموما للهجوم على المواقع المعادية)، أو عندما يقوم الفرنسيون المسيطرون على النقاط العالية ليحتموا بها من الهجمات المميتة ضدهم، بأخذ المبادرة لنصب الكمين الّذي يتحول غالبا إلى اشتباك. ويجدر القول بأن الكمين الّذي يتم بهذه الطريقة هو كمين فاشل.

قبيل غروب الشمس، اجتزنا سريعا الطريق المعبدة وكتل العوائق المختلفة للخط الثّاني « شال » بقفزات سريعة. تخطينا الأسلاك، ولحسن حظنا لم تكن بعد مكهربة، وسرنا بخط مستقيم عبر الحقول الّتي لم نكن نعرف ما إذا كانت مفخخة. فلاحظنا انتقال السكان باتجاه الغرب. هذه الهجرة المفروضة على مدنيينا هدفها خلق منطقة عازلة بين الخط الرّئيسي موريس ومثيله في الشرق.

بدأ التعب يظهر على الجنود بعد عبور هذه المنطقة المليئة بالمخاطر. وعندما أدركنا بأننا أصبحنا بعيدين كفاية عن المنطقة المسوَّرة جيداً، توقفنا إلى جانب الطريق، بالكاد منتشرين، وحاولنا بقدر الإمكان استعادة أنفاسنا. وقف الرّجال الأكثر نشاطاً حرساً على حدود موقعنا. وفي الصباح، تابعنا تقدمنا باتجاه موقع قيادة المنطقة الأولى. وعندما وصلنا المنطقة الّتي قصفت في الليلة السابقة توقف الرّجال وكنا نحن في مقدمتهم. ثم تقدمنا بحذر أكبر وحسب تشكيلة مناسبة حتّى لا نؤخذ عل حين غرّة. كانت البغال الميتة مرمية على طول الطريق، منزوعة البرادع والحمولة. تعرّف عبد النور على بعض بهائمه، وتذكّر بأن قافلة تموين كان يجب أن تصله. نذير شؤم آخر ؟ ماذا حدث ؟ من استولى على المؤونة ؟ سنعرفه بسرعة كبرى. شرح لنا المعاون زراد

أن قصف البارحة أباد الحيوانات، ولكن رجالنا استطاعوا أن يستعيدوا الحمولة. عندما وصلنا إلى مركز قيادة الكتيبة الأولى، أخبرنا مساعد قائد النّاحية، عبد القادر عبد اللاوي الّذي كان ينتظرنا بفارغ الصبر والّذي لم يسأل عن الوضع اللازم لتنفيذ العملية، أن العقيد ناصر لم يتوقف عن السؤال عنّا. التحقت أنا وأحمد ترخوش مباشرة بنقطة اللقاء، دون المرور بمركز قيادة النّاحية.

كان العقيد ناصر ملّحا لمعرفة ما حدث، فوضع سيارة تحت تصرفنا، وهذا أمر نادر. في غارديماو، قادونا مباشرة لدى قائد هيئة الأركان. بدا الرجل قد ازداد بدانة منذ آخر لقاء لي معه. كان يرتدي قميصا داخليا. ومن شدة الغضب تغيرت تقاسيم وجهه وأصبح لا يُعرف. تركنا واقفين ومتسمرين في وقفة عسكرية. بدأ بالثناء على كومندو حيدوش، ثم راح يكرر أن هذا الأخير سطَّر صفحة مجيدة في تاريخ الثورة. كانت هذه المقدّمة الّتي نوافق على صحتها أكثر مما يتصوره، تخفي في الحقيقة لوما لم يكن يتجرأ الإفصاح عنه جهرا. حاولنا أن نعرض عليه تفاصيل العملية ولكن دون جدوى ! قناعته راسخة. فهو يعتقد بأننا، باتفاق فيما بيننا، عمدنا تمرير حيدوش أولا. حاولنا مرّة أخرى أن نتكلم. لكن بلا فائدة. لم نقبل بمثل ذلك العتاب، طالما أنّه هو شخصيا من اختار هذه المنطقة من النّاحية الأولى. كان الأجدى له أن يختار جبال بني صالح شمال سوق أهراس، الّتي كانت في كلّ الأوقات ممراً سهلا نسبيا لكتائب الإمداد. شعرنا بأن ردة الفعل تجاهنا كانت غير عادلة، وتجاوزت حدها. ألم يُدخِل حيدوش، عند عبوره الخط، بين قوّاته الكثير من عناصر كومندو دعَّاس ؟ لم يرد العقيد سماع شيء. فمن شدة الغضب تشوهت ملامح وجهه. وبحركة عنيفة، أفهمنا أن المقابلة قد انتهت.

رجعنا على أعقابنا، مصدومين من كلّ ما سمعناه، بينما العشرات من الرّجال خاطروا بحياتهم وعملوا المستحيل لإتمام مهمّتهم. فهذا القائد الّذي تقل معارفه عن مسؤولياته بكثير، والّذي نحترمه مع ذلك لصدقه وورعه، ولأنه أيضا مجاهد من الرعيل الأول، لم يكن هذا أول خطإ يرتكبه...

يقال : « التسيير هو القدرة على التنبؤ بالأحداث ». في الماضي، كلّف قصر نظر قائد مركز العمليات العسكريّة لجيش التّحرير الوطني حياة ثمانية عشر مجاهدا من بينهم جنود مخضرمون. فعندما سلم حمبلي نفسه للفرنسيين، لم يُتخذ أي إجراء، مثل تعزيز وسائل من كانوا قد رفضوا الاستسلام، أو تغيير مكان معسكراتهم لمنع ضربة مخادعة من جانب الّذي غادر بعد أن أطلق تهديدات ضد الّذين لم يستطع أن يقنعهم. عاد حمبلي إلى جبل سيدي أحمد وقام باغتيال مساعده السابق علي بن إبراهيم، وسبعة عشر مجاهدا... اكتشفت الدورية الّتي أرسلها موسى حساني[7] وتحت قيادة لخضر مصابحية[8] الوحشية الّتي ذبح بها علي بن إبراهيم ومجموعته.

7. أصبح فيما بعد وزيرا للبريد والمواصلات

8. لخضر مصابحية، من رفاق أول نوفمبر 1954، عمل إطارا في شركة سونلغاز.

لم يأخذ مركز العمليات العسكريّة لجيش التّحرير الوطني بالاعتبار أي خطر أو وجوب تحذير رفاق حمبلي القدامى. هل كان ذلك عمدا ؟ يستحيل على الإطلاق ! السبب هو ببساطة أن محمدي سعيد ناصر لم يتنبأ بانتقام حمبلي.

عندما أدخلت الأعمال الخسيسة للعقداء الفرنسيين التابعين للحرب النفسية الشك في صفوفنا وماتت أعداد لا تحصى من المجاهدين الشبان في الولايتين الثّالثة والرّابعة، ماهي التعليمات الّتي أعطيت لقيادات هذه الولايات من قبل قائد مركز العمليات العسكريّة لجيش التّحرير الوطني ؟ توخي الحذر، نظرا للهجوم الشامل الّذي شنَّه الفرنسيون ضدنا، أو الانقضاض بشكل أعمى على كلّ ما يمكن أن يكون فخاً، والتعذيب والتنكيل بالثوار المشتبه فيهم ؟

سيبقى في التاريخ أن قائد الولاية الثّانية، العقيد علي كافي، وكان لحسن الحظ متفطنا كما اعتاد أن يكون في اللحظات العصيبة، رفض أن يصدق قصة الخيانة العامة لإطارات ولايته. بدليل أن مؤامرة « الزرق » لم تنجح في ولايته. مما يعني أن أفضل دواء للحماقة هو الحكمة والتعقل.

قد يصلح محمدي سعيد ناصر قائد مركز العمليات العسكريّة لجيش التّحرير أن يكون بلا شك زعيما كبيرا في معقل صغير. وقد يكون صدقه وتقواه زادا ثمينا لقيادة محلية. أمّا النظرة الشاملة وبعد النظر الّذي هي من مميزات قائد هيئة أركان حقيقي، وفهم الرهانات الحقيقية ومعرفة المشاعر الّتي تحرك رجال الوحدات المقاتلة العالقة في جبهة دائمة، فمن الواضح أنه لم يكن يملكها.

إنّ موت عدد لا يحصى من الإطارات، ضحايا التخوين، وتدمير الفيلق الرّابع للقاعدة الشرقية، واستشهاد يوسف لطرش وحيدوش وعمار رجعي[9] ومدني وعواع وبن يزَّار وعلي بن إبراهيم ومجاهديه الأوائل أبطال أول نوفمبر والآلاف غيرهم من الثوار البواسل، كان الثمن الّذي دفعه جيش التّحرير الوطني للأوامر الجائرة ولقلة الكفاءة وللخطاب الديماغوجي.

لنقل دفاعا عنه بأنَ حظ محمدي سعيد ناصر لم يكن جيدا. فقد كان على رأس جيش التّحرير الوطني ربما في أصعب الظّروف الّتي مرت بها حرب التّحرير.

عُيِّن على رأس جيش التّحرير الوطني بحكم عامل الإخلاص ليِؤمِّن للرجل القويّ، كريم بلقاسم، التحكم في الورقة الرابحة الوحيدة ألا وهي القوّات المسلّحة. كان يوجد حوله – باسم التوازن الجهوي – عقداء جاؤوا أو بالأحرى أخرجوا من الصف (أزيحوا بطريقة فجَّة من قيادة ولايتهم بقرار حازم من كريم). انعكس التنافس الدائم بين الفرقاء الأساسيين في القيادات العليا للثورة على الأرض، لاسيما على العلاقات بين هؤلاء العقداء. كما تركت آثارا سلبية على مركز قيادة العمليات العسكريّة ذاته[10] !

9. اعمر رجعي، نائب قائد الولاية الأولى، استشهد في 30 جوان 1960 أثناء عبوره الخط في طريقه للالتحاق بمنصبه.

10. نذكر للتاريخ أن مجاهدي الدولة الجزائرية لم يطعنوا يوما في شرعية كريم بلقاسم.

من جهتي، أرى أنه ليس من الشهامة والجرأة في شيء ألا نقر بأن أحد أسباب وإحدى الحجج القويّة الّتي رفعتها مجموعة العقداء ضد الحكومة المؤقتة هو تعمد كريم بلقاسم اختيار الإطارات من منطقة القبائل، من أجل تأطير هياكل وزارة القوّات المسلّحة. فقد منح كريم ثقته، في كلّ مكان وبطريقة منهجية، لرجال قادمين من الولاية الثّالثة. حمّاي قاسي في قاعدة تونس، ومولود إيدير في وزارة القوّات المسلّحة، ومحمدي سعيد ناصر في مركز العمليات العسكريّة لجيش التّحرير الوطني، إلخ... مع مرور السنين، نستطيع أن نتساءل ما إذا كان بإمكان حصيلة كريم، الّتي كانت بمجملها إيجابية، أن تكون أحسن، بما في ذلك في التفاصيل، لو أنه أضاف إلى مفهومه الأول للمسؤول جيد، صفة الكفاءة. لاسيما وأن الولاية الثّالثة التاريخية كانت تعج بالإطارات الكفؤة.

في المحصلة، إنّ ما سبَّب فشل كريم بلقاسم، الّذي تنازل في الأخير عن وزارة الحرب، لم يكن الأصل الجهوي للمسؤولين الّذين اختارهم، بقدر ما كان عجزهم عن تنفيذ المهمات الموكلّة إليهم. وكانت خسارة كومندو حيدوش أحسن دليل على ذلك.

عانى جيش التّحرير كثيرا من عدم وجود قائد على رأسه، قادر على الاهتمام أولا بنقائصه ويقاسمه آلامه. استمر أحيانا بوشوشات وأحيانا أخرى بأصوات راعدة، في المضي قدما وفي الاستشهاد[11].

كان للاجتماع القادم « للعشرة » فضل كبير، وهو الإقرار بحاجة جيش التّحرير الوطني لقيادة أخرى. قيادة موحدة وقريبة من المجاهدين، كما سنرى ذلك فيما بعد.

حمام سيدي طراد

تقدمت الأعمال على خط شال بسرعة. فكانت الورشات محميَّة من وحدات المشاة ومن الطّيران. والأعمال ينجزها مدنيون استدعوا لهذا الغرض، تحت إشراف خبراء الهندسة. حاولنا، بالرغم من وسائلنا الهزيلة، أن نشن عمليات حتّى نبطئ عملهم قليلا، لكن من دون جدوى ! قلتها وأكررها : لم تكن لدينا الوسائل البشرية والمادية والتقنية لنواجه علنا عملية بناء هذا المشروع. فكان ينقصنا حتّى نهاية 1959 هيئة أركان تُنظم وتُنسّق وتُوقَّت وتُضبط ردَّنا. في النتيجة لم يكن باستطاعة « هجوماتنا المضادة » سوى أن تكون مبادرات فردية لا أثر لها على مجرى بناء الحاجز الثّاني. منذ عمليات تدمير أجزاء من الخطوط، شرع العدو في تشديد المراقبة.

11. يقع جبل شعانبي على بعد عشرين كيلومتراً من الحدود الجزائرية. كان مسرح انشقاق الضابط عثمان جيلالي، على رأس مئات من الرّجال، الّذي رفض الاعتراف بسلطة مركز العمليات العسكريّة لجيش التّحرير الوطني. الطريقة الّتي كانت لجنة التنسيق والتنفيذ لجبهة التّحرير الوطني والحكومة المؤقتة لتفض بها الخلافات لمصلحة سلطتها كانت سبب الانشقاق. استشهد عثمان جيلالي وغالبية رجاله في ساحة الشرف، بعد عودتهم إلى الجزائر، وبعدما حلت الأزمة.

في النهار، نكاد لا نقترب من التلال المطلة على الطريق الّتي يمتد على طولها الحاجز. كانت تعترض قوّاتنا قبل ذلك عناصر تدخل متحركة وكثيرة العدد، تتحرك في الوقت الّذي تتقدم فيه الأعمال في الخط. ثم تتولى طلقات المدفعيّة والسلاح الجوي البقية بمجرد أن تُكتشف تحركاتنا.

كان الحاجز الثّاني لا يزال في طور البناء عندما كان العسكر الفرنسيون يحاولون شن هجمات، مستهدفين بذلك بعض المناطق الحدودية الّتي بقيت مستعصية عليهم منذ بدء الحرب. حمام سيدي طراد، الّذي كان إلى ذلك التاريخ ملجأ مثاليا لرجالنا، بات أحد أهدافهم. لم يستطع الفرنسيون الوصول إلى هذا الموقع المدعوم جيدا، لا بالمدفعيّة ولا بالطّيران المجبر على التحليق على علو منخفض ليصل إلى الأهداف. تركز الجهد الرّئيسي للعملية على الكتيبة الثّالثة الّتي كان مجال عملها يمتد على كلّ الشريط الشرقي لأراضي النّاحية الأولى. اضطرت الكتيبة الثّالثة أن تتراجع، تحت الضغط، عن بعض المواقع المرتفعة على الحدود نفسها. وانطلاقاً من هذه النقاط المرتفعة، تسنى للفرنسيين أن يقصفوا بمدفع عيار 75 ملم كلّ ما يشتبه في كونه هدفا عسكريا ومن ضمن ذلك سيارة تونسية رباعية الدفع !

الوسيلة الوحيدة المتاحة لنا هي أن نأخذهم من الخلف. كلَّفتُ قائد الفصيلة، سراي أحمد، وهو رجل جريء وذكي، ومن الّذين صنعوا أمجاد النّاحية الأولى، أن ينصّب كميناً على طريق العودة الّذي يسلكه العدو، الّذي تقدم بالقوة حتّى منطقة عين نشمة. في حدود الساعة الرّابعة والنصف بعد الظهر، دخل رجالنا المعركة. دام الكمين حوالي ربع ساعة. أوقعت طلقات رشاشاتنا ومدفعيتنا المنطلقة من مختلف الأماكن خسائر كبيرة في صفوف الفرنسيين. عاد سراي ومعه أسير، وهو جندي من اللفيف الأجنبي الّذي أكد لنا أن العسكريّين تكبدو خسائر كبيرة. انفجرت قذيفة عيار 45 ملم داخل سيارة GMC كان الجندي الأسير قد قذف به إلى خارجها بفعل ضغط الانفجار قبل أن يقتاده رجالنا.

ترك الاختراق الفرنسي مرارة في نفوسنا، رغم أنها جوبهت جزئيا، لأن العدو نجح في احتلال بعض مراكزنا حتّى في قلب حصننا. بالنسبة لوحداتنا، شكّلت رؤية أنفسهم مطرودين من معاقلهم أو فاقدين لأسلحتهم قمة المذلة. الكتيبة الأولى الّتي تقلص عددها بالانتشار التكتيكي لقسم من عناصرها، والّتي لم تعد سوى فصيلة واحدة، منذ أن أعطي الإنذار، تقدمت إلى الأمام بتشكيل مروحي. تحصّن حايفي مبروك في كاف الهواري الّذي يتحكم بمدخل حمام سيدي طراد. فاستعمل العدو وسائل مهمّة لحمله على إخلاء الموقع. أجبرت الطبيعة القتالية لرجال مبروك العدو على التراجع، تاركا وراءه نشرات التعليمات اليومية المذكورة فيها خسائر العدو. ونجح حايفي بإسقاط طائرة باستعماله شخصيا مدفعه الرشاش الرهيب « MG45 ». لم يستطع الفرنسيون الاقتراب من طائرة « تي 28 » الّتي أسقطت على ضفاف وادٍ. لا تزال هذه الطّائرة إلى تاريخ اليوم معروضة كغنيمة حرب في قرية زيتونة (توستان سابقا). في المساء، عرفت الكتيبة الأولى نجاحها الفعلي.

كان حايفي مبروك أشبه بالنسر : بنظرته الثاقبة وأنف حادج ويد يمنى فولاذية. عندما ينتصب عاري الصدر محركا عضلاته والوشم الّذي يزين عضلات صدره، يشبه كاسراً عظيماً لا ينقصه أي ظفر أو أية ريشة، وكأنه يتأهب للطيران.

توفي حايفي في مارس 2003 بعد أن عاش الحرب ونجا منها. توسل إلي قائلاً بصوت واهن على الهاتف : « لا تأتِ لتراني يا خالد ». فهمت أن رفيقي القديم كان يريد أن احتفظ بالصورة الّتي أعرفها عنه في الوقت الّذي كانت النسور فيه تتربع على عروشها في القمم.

في صبيحة اليوم التّالي، تجمعنا على مرتفعات سيدي طراد (اختيرت هذه المنطقة المرتفعة للمقاومة، لاحقا كموقع لإنشاء مقبرة للشهداء. وهناك وُوري الدكتور فرانز فانون[12] الثرى). تناقشنا حول مجريات معركة البارحة. خاب رجال الكتيبة الثّالثة، وذهب كلُّ الثناء للأولى. كثر المزاح ومنه ما يخدش البشرات الحساسة. كان الشّاذلي بن جديد موجودا كعادته عقب كلّ عملية، ورغبة منه في وضع حد لهذه اللعبة خوفاً من انفلات الأمور، نبّه حرز الله « المحرِّض » مستعملا عبارة عاميّة « عمار، وطي كنواتك ! » (اخفض مدافعك) ومعناها : « ضع حدا لسخريتك ». ولكن كان لحرز الله الرد السريع : « سي شاذلي، بتخفيضها أصبنا جنودا، وبرفعهم أسقطنا طائرات ! » وانفجر جميع الحاضرين ضحكا.

علمت أن قائد الفصيلة أحمد غيدوشي، وهو خبير بكلّ ما له علاقة بالألغام والأفخاخ على مختلف أنواعها، صنع جهازا جهنميا مستخدما قداحة معدنية. ذهب إلى خط شال وزرع فخه في الأسلاك الشائكة، موّهه وقطع الأسلاك الكهربائية ليطلق الإنذار ثم تخفّى غير بعيد ليترصد القادمين. قطع انفجار الفخ يد الجندي الفرنسي الّذي حاول أن يتعامل مع هذا الجهاز المفخخ.

بعد بضعة أيام، وبعد نجاح التجربة، شرع في تصنيع قنبلة أخطر، مصنوعة من صندوق قديم لتخزين الذخائر، ملأها بالمتفجرات وببقايا الحديد ومختلف القذائف. نقل كلّ شيء إلى الخط، موّهه داخل الأسلاك الشائكة ثم نشر الخيط الموصول بالمفجّر وقطع الأسلاك الكهربائية وبقي متربصاً، على بعد بضع مئات أمتارٍ من الموقع. مرَّ الكهربائيون المكلَّفون بإعادة التيار الكهربائي، مصاحبين معهم عناصر الحماية، ولما وصلوا إلى الموقع، شغَّل الصاعق. فاندلعت نار مفرقعات حقيقية، قاذفة بالرّجال والأشياء في الهواء. عرف غيدوشي من حركة سيارات الإسعاف المستمرّة أنَ الخسائر الّتي أُصيب بها الفرنسيون كانت كبيرة.

علمت أثناء مروري بإنجاز غيدوشي. فطلبت منه تحضير قنبلة أخرى وإعلامي بالتوقيت لكي آتي لمساعدته شخصيا في تنفيذ العملية. أنا الّذي رأيت الكثير من الرفاق مقطعين أو مقتولين بكلّ أشكال الألغام المدفونة بطريقة فنية، لم استهجن هذا « الإرجاع للمرسل »، بإمضاء غيدوشي.

12. التحق الدكتور فرانز فانون طبيب الأمراض العقلية والنفسية بالثورة الجزائرية. ألهمته مقاومة الشّعب الجزائري تأليف كتابين : « العام الخامس للثورة الجزائرية » و «المعذَّبون في الأرض ».

بعد بضعة أيام، كان خبيرنا جاهزا. طلب منا بعض أمناء السر أن ينضموا هم أيضا إلى البعثة. كان الجهاز ثقيلا جدا هذه المرّة، وكبير الحجم لدرجة أنه يجب نقله على ظهر بغل. بدَّلنا الموضع لكي لا نتعرض لأية مفاجأة. من الخلف كنا محميين برشاشتين. أما أنا، فقد كنت على بعدِ بضعة أمتار من الأسلاك الشائكة. كان غيدوشي لا يزال يقوم بإجراء تحضيراته عندما سألني رابح بن حومانة، أحد جنود السكرتيرية : « هذا هو خط شال ؟ سأبول فوقه ! ». فقلت له : « اكع.. ». يحصل أحيانا، في هذا النوع من العمليات، أن يكون عندنا ما يشبه حاسة سادسة. ببساطة، لم تكن المنطقة بين رمل السوق والعيون تعجبني. لم تكد تمر عشر دقائق، وغيدوشي لم يكن بعد قد أنهى تحضيراته الأولية حتّى بدأ إطلاق نار من مجموعة من عناصر العدو متربصين وراء الخط. بعد انكشافنا لم نتأخر بالرد برشّاشتنا. ووجدت نفسي معزولا مع أربعة رجال، من بينهم رابح بن حومانة وحايفي مبروك.

استعملت ضدنا قاذفات القنابل. ومع كلّ طلقة خرطوش، كنا ننبطح بِكلّ قوانا على الأرض، نظرا لخطورة هذه القذائف الصغيرة. أصيب بن حومانة بشظيتين، الواحدة في صدغه (حتّى يتعلم كيف يفكّر، كما قال غيدوشي مازحا) والأخرى في كتفه (حتّى يتعلم كيف يهز كتفيه عندما يُطلب منه أن يتوخى الحذر، كما يضيف هو نفسه). استهدفتنا طلقات رشاشات من جانبنا الأيمن. وبما أن الفرنسيين يستعملون الرصاص الخطاط، فكانت سحب الشهب تعلمنا بخط سير الرصاصات وتسمح لنا بتجنبها عبر دبيب سريع أو حركة مختصرة، ونصفنا الأعلى منحنٍ. انتظرنا حوالي الثلاث ساعات في مكاننا حتّى الانكفاء التام للعدو، ثم التحقنا بنقطة الالتقاء. لم يكن غيدوشي موجودا. أرسلت دورية للبحث عنه. لا شك أن بنيته القوية ستصعب من عملية إخلائه على ظهر الرّجال إذا ما أصيب. بعد بضعة دقائق سمعت أصواتا، من بينها صوت غيدوشي وهو يرغي ويزبد غضبا ويلوّح بمفجِّره وأطراف من الأسلاك الكهربائية، لأن القنبلة الّتي صنعها لم تنفجر، ولكي يثبت برودة دمه وجرأته وإقدامه، توجه منذ الطلقات الأولى مباشرة نحو المفجر المعطّل. عندما اكتشف أن العطل لا يأتي من هذا الأخير، تبع الحبل الكهربائي ووجده مقطوعا في عدة أماكن بفعل انفجار القنابل. فتصاعد غضبه عندما وجد أن قنبلته قد اكتُشفت من الفرنسيين.

التقيت غيدوشي خلال معركة جبل البلوط. إنّ اللقاء الأول مع شخص يطبع الذاكرة إلى الأبد أو أنه لا يترك أي أثر. وأملاح المعادن الّتي تثبّت وتنقش الذاكرة هي قبل كلّ شيء كثافة الزمن والمكان، وكذلك تقاسيم الوجه وعمق النظرة وقوة الكلمات الّتي يتلفظ بها والأفكار الّتي يعبر عنها.

كان غيدوشي طويل القامة وبدينا، ولكن بالرغم من ذلك، كان سريعا ويمتاز بحيوية مدهشة. كانت ضحكاته ملء فمه ومعبّرة، وكان يضحك من انزعاجاتنا الصغيرة، ومن مصائب الحرب الكبيرة والصغيرة وخاصة من الحماقة الإنسانيّة العادية واليومية. كانت ضحكاته تعبّر عن شخص ذي روح منفحة عظيمة ومتفائلة.

تظاهره باللامبالاة أثناء القتال هو علامة ظاهرية عن تحديه الكامل للخطر. فعندما رأيته يلعب لعبة الخداع مع الموت، بهذه الطلاقة، مازحته بود قائلا : « رجل ضخم مثلك، كيف لي أن أحملك لو قدّر الله أن تعرضت لإصابة ؟ »

عندما يمشي على أرض وعرة، كان يزفر قليلا، ويتعرق كثيرا ولا يتذمر أبدا. وكانت جبهته دائما رطبة تحت قبعته البلدية الّتي لا تبرحه. كما كان يحب أن يتوشح بمسدسه الرشاش « الطومسون ». يرجع سلاحه دوما وراء ظهره بحزام بندقية، عندما كان يريد أن تكون يداه طليقتين أثناء الاحتكاك بالأسلاك الشائكة أو بحقول الألغام. لقد نجا من فولاذ العدو، لكن المرض بعد أربعين عاما قضى عليه. إلى آخر رمق من حياته، في يوم 22 جويلية 2002، كان يعبر عن نفس الازدراء المتعالي أمام الألم والموت بنفس ضحكة الأيام الخالية. الدرس الّذي أعطاه، في آخر لحظات حياته، هو درس الشجاعة واللامبالاة بالموت.

أخبار من عين الكرمة

في أحد الأيام، قرّرنا أن نهاجم بكثافة قرية مونيي (عين الكرمة) لكن دون أن نحاول اجتياحها. كان الفرنسيون قد بنوا مركزا عسكريا في محيط البلدة بهدف اتقاء هجماتنا الّتي ازدادت ضراوتها. كان لدينا ما يكفي من الرّجال لمحاصرة هذا المركز العسكري وإخضاعه والوصول إلى مونيي. مع بزوغ الفجر، تمركزنا عند حدود الغابة لمعرفة ما إذا كان المركز الّذي ما زال ورشة، مأهولا خلال الليل. كان ما زال مأهولا حتّى هذه الساعة. قرّرنا عندئذ الشروع في محاصرة المكان قبل التقدم إلى مسافة أبعد. وتقدمنا نحو قمة الجبل باحثين عن مواقع لمدافعنا غير المرتدّة من عيار 57 ملم ورشاشاتنا 12/7، ودون الانتباه لضوء القمر الّذي يلقي بظلالنا على الأرض ويكشف عن أطيافنا. وهنا تجدر الإشارة إلى أن النمط الروتيني يضعف في بعض الأحيان بديهة المحاربين. ولكن مشاعر الحذر تستعاد بسرعة. فقد ظهرت جدران المنازل البيضاء. غير أن نور القمر قد غدرنا وكشف أمرنا دون أن ندري. مما أعطى الفرنسيين متسعا من الوقت لتجهيز أسلحتهم من كافة العيارات ولسحب جنودهم خلسة من الأماكن المحيطة بالمركز الّذي كانوا يشغلونه وذلك فَوْرَ حلول الليل وقبل أن يتخذ « محاصرونا » مواقعهم.

ما إنّ فتحنا النار حتّى انهال علينا وابل من القذائف. ولم يتمكن أسرعُ مدفعيينا، غيدوشي، من إطلاق سوى ثلاث قذائف. أما نحن الّذين كنا نتوقع أن نفاجئ العدو شلَّت حركتنا القذائف الّتي تهاطلت علينا من كافة العيارات. تتداعى أفكار غريبة وخاطفة في بال الإنسانِ عندما يخال له أن القرقعة والانبهار بالأضواء قد قذفت به إلى مكان آخر. وفي اللحظة الأخيرة يستعرض صورا وكلمات وأحاسيس بلمح البرق. التفّ الماضي كلّه على نفسه في تعاقب متقلب بألف وجه ووجه. استرجعت حياتي من جديد بصورة متسارعة، فراغات نَهِمة تبتلع أجزاء منّي، وأخذتني مجرات

من الصور الارتدادية إلى هاوية دائرية. وتأتي كلمات أغنية قديمة وإيقاعها وتطاير برنوس المغني، لتسد على الأحاسيس المتداخلة. يتقاطع اسم هدفي مع عنوان أغنية قديمة للمايسترو الشاوي عيسى الجرموني[13]. « يا عين الكرمة، واعطيني الأخبار... ». فالروح الّتي كانت قبل لحظات منفية ومشتتة تستقر فجأة. غير أن عين كرمته تناجي النسيم الخفيف وخرير المياه والظلال الرطبة والفواكه السُّكَرِيَّة إضافة إلى أسرار بسيطة وظلال مشيقة ومقوسة الظهر... بلدتي عين الكرمة ترفسني على وجهي بقبقاب مصفَّح بقذائف مدوية ومتفجرة. قلت في نفسي : جميل أن أضحك ساخرا عندما أنظر إلى نفسي فأراني رجلا مسكينا كاد يكشف ما في العالم الآخر ولا وقت لديه إلا كي يتدحرج داخل حفرة قذيفة ما تزال ساخنة. عندها أحسست بحريق على الجهة اليمنى من وجهي، كان هذا بلا شك تأثير اللهاث. إنّها الصفعة ! من الآن فصاعدا عليّ أن أنتبه لضوء القمر وأتفادى الطرق الساطعة على خط التلال. بعد لحظات معدودة – تبدو أزلية – سمعت إطلاق نار العدو الّذي تراجع إلى الوراء. ورُصِدت أخيرا قاذفاتنا من عيار 82 ملم الّتي وضعت في حال تأهب. ثبّت مدفعيو العدو أهدافهم على قاطفاتنا هذه وأطلقوا عليها قذائف مفجرة. وسقط في صفوفنا عدد من الجرحى، ثماني عشرة منهم في حالة خطرة، وكان أغلبهم ينفثون الدماء. في وضع كهذا لم نكن نملك سوى نقالة واحدة، فصنعنا عددا منها بما كنا نملك بين أيدينا. وقد أصيب جندي في رجله وكان يمشي بشكل أعرج، لكنه كان يتقدم رغم إصابته. فعلنا كلّ ما في وسعنا لمساعدة الّذين تعرضوا لإصابات بالغة. في تلك الأثناء طلبت من قائد الفصيلة طراد شابي أن يشرف على ضبط المسيرة وأن يساعد الجندي المصاب في رجله حتّى لا يخفف بسيره وتيرة سير الرتل، لأن الوقت يمر ونحن مهددون مع طلوع الفجر بأن نتواجد في منطقة مكشوفة. نهر شابي الجندي المصاب برجله بشراسة لحثه على السير بسرعة. (عندما التقيت بهذا المسكين بعد مضي عدة أشهر رأيته مبتور الساق، حتّى اليوم لا أزال أتساءل إنّ لم أكن مسؤولا عن البتر الّذي تعرض له هذا الجندي). كنت قد تعرضت لبعض الإصابات في وجهي، غير أنني لم أبال بها. فقد كان همي الوحيد أن نصل الغابة قبل ساعات الفجر الأولى. وفي الحالة الّتي كنّا فيها كان من المستبعد أن يكشفنا الطّيران. مرّةً توقفنا في مكان يبدو أنسب لتغيير ضمادات الجرحى. كان البعض يتألم من الإصابة. وفعلنا كلّ ما بوسعنا لنقلهم إلى مركز قيادة النّاحية. لاحظ رفاقي أن لون بشرة وجهي قد احمّر ويميل إلى البنّي، وكان قد التصق التراب على بشرتي بسبب الانفجار الّذي وقع. في تلك الأثناء كنت أعاني من نزيف داخلي.

على مسافة من الحدود، أقيم مخيم للاَّجئين، طلبت من جنديين الإسراع لإحضار بغال للمصابين الّذين أنهكت قواهم. وبعد مضي بضع ساعات وصلت الدواب فرفعنا الجرحى على البرادع وتم

13. غنى عيسى جرموني كلّ أشواق الناس وعواطفهم. عين الكرمة هي قصيدة أنشد فيها الحب. ففي مجتمع تسود فيه التقاليد ويفرض التحفظ والحشمة لا يتلامس الشباب العشاق من الجنسين بحرية. فيكشفون عن مشاعرهم بخفقان القلوب، وأصبحت نبعة المياه الّتي تجري على جذع شجرة التّين صديقة وكاتمة أسرار، وباتت تشارك العشاق في كوميديا الحب. تتلاءم هذه اللوحة الريفية مع أمواج النفس والتساؤلات إضافة إلى المناجاة الرومنسية.

نقلهم إلى مكان آمن. أما أنا فالتحقت بهم بعد وقت قصير بعدما سلكت طريقا آخر. بعد وصولي واطمئناني على سلامتهم، لم يبق لدي سوى هاجس وحيد وهو أن أستلقي لأستريح.

بدا لي المنزل المتداعي الّذي استقبلني بعدما تجاوزت حدود التعب، أكثر دفئا وراحة من قصور الملوك. فالحصيرة المصنوعة من القش والمفروشة على الأرض أكثر نعومة من فراش مصنوع من الريش. وما إنّ غرقت في نوم عميق لا يخترقه أي حلم حتّى أيقظتني أصوات مدوّية. خرجت من الكوخ لمعرفة ما يحدث. إنّه قائد النّاحية الأولى بشحمه ولحمه يصرخ بغضب. حسب قائدنا المبجل يفترض أن نخفي هزيمتنا عن المدنيّين الّذين يروننا ! إلا أن الغضب، صادقا كان أو مزيفا، لا يؤثر أبدا ِفـيَّ. تقدمت نحوه كي أتفوّه بكلمات خشنة من تلك الّتي يتفوه بها المرء بسرعة وقوة ويندم عليها في ما بعد، ثم عدلت عن قراري فهو – لأنه قائدي على كلّ حال – وسألته ما المشكلة في أن يرى لاجئونا إخوتهم في هذه الحالة ؟

وثار غضب بن جديد لأننا أزعجنا سكينته. فهو هنا لأجل الموقد ودون شك أيضا لأجل مخدع النوم. أما نحن فلم نكن بحاجة سوى لقماش لتضميد جراحنا ولكوب من الحليب الساخن كعشاء ولجلد خروف نفترشه في ركن حائط من الطين والقش.

في وقت لاحق، منحه الحظ الأخرق عرشا أكبر من وزنه. وأراد أن يتربع عليه مدى الحياة، بالرغم من الدماء والدموع الّتي سالت. واضطرَرْتُ لمرّة أخرى، وبالبرودة نفسها، أن أترجى هذا الأناني المغرور كي يفتح عينيه على مآسي الآخرين.

أحمد بن شريف وحقائق الخط المكهرب

أحمد بن شريف، قائد الدرك الوطني فيما بعد، متواجد في النّاحية الثّانية الموضوعة تحت قيادة عبد الرحمن بن سالم. خلال هجوم شامل شنته جميع وحدات هذه النّاحية، حضر بن شريف فجأة أمام الفاضل وذلك من أجل عبور « فوري » للخطوط المحصّنة.

تدل هذه الطريقة في التعامل إما على حذر مفاجئ تجاه الثوار المحليين وإما على عدم ثقة، على غرار تلك الّتي تدفع « السباح المبتدئ » إلى رمي نفسه في الماء مغمض العينين... خوفا من الماء.

الفاضل، وبعدما وضعه هذا المسؤول السامي أمام الأمر الواقع، حاول الارتجال بأقصى ما يستطيع. في النتيجة، خسر عددا من رجاله وأصيب هو بجروح. كنت عائدا من مهمّة عندما علمت أن بن شريف قام بمغامرته من دون أن يوجِّه أي إنذار مسبق لأي كان وخاصة دون إعطاء الوقت الكافي للمكلّفين عادة بترتيب الأمور بحسب خبرتهم.

شاطرت الفاضل أحزانه وآلامه. كان بإمكان الرّجال الّذين استشهدوا أن ينجوا من الموت لولا التسرع المتهور للبعض وتساهل البعض الآخر.

« هذه هي الحرب ! » تعود دائما على الألسنة. أتخيل جثث هؤلاء الرفاق المعلقة كحيوانات الغابة عند أوتاد الحواجز. هكذا علقهم جنود اللفيف الأجنبي كفرائس للصورة التذكارية. كم كان عدد رفاقي الّذين قضوا في تلك الليلة نتيجة أوامر صارمة ؟

امتنعت عن النوم والتحقت بمركز قيادة المنطقة الّذي كان يبعد عنّي بحوالي 8 كلم. أخبروني أن بن شريف كان نائما. حسدته. انكفأت إلى محمد بن عيسى، (مدير الجمارك الجزائرية فيما بعد) مساعد بن شريف. ولفتُّ انتباهه إلى أن العجلة والتسرع ليستا الوسيلة المؤدية إلى النجاح وشرحت له بهدوء واقع الميدان. فاقتنع بالأدلة الّتي تقدمت بها وقال : « أنت تعرف أحمد. البارحة، بكى لأنه لم يعبر، بينما عبر معاونه وهو الآن في الجهة الأخرى ». طلبت من بن عيسى أن يخطر أحمد بن شريف أنه إنّ أراد الاجتياز بأمان عليه أن يوكلّني بالأمر ! وبعد مضي يومين استقبلت بن عيسى الّذي أتى لزيارتي : « بن شريف أعطاك الضوء الأخضر ».

كنت أعرف المنطقة جيدا لأنني اجتزتها عدة مرات. اخترت منطقة جبلية كثيفة الأشجار وتمتد على مساحة 3 كلم، قرب زيتونة. وبما أنّنا قلَّما استعملنا هذا الإقليم، فقد اعتمدنا على عامل المفاجأة. طلبت من الأصنامي الذهاب إلى المكان المذكور والبقاء فيه الوقت اللازم لمراقبة ما يحدث ولتسجيل كلّ ما يستحق تسجيله. ضم تقريره كثيرا من المعلومات وتوافق مع استنتاجاتي. وأوضح لي الأصنامي أنه بالنظر إلى مواصفات المكان، يملك بن شريف ورجاله فرصة 80 % من النجاح. ضم الفريق الّذي جهزته للعملية أهم « الخبراء » الّذين هم على معرفة تامة بالحاجز، من ضمنهم غيدوشي والأصنامي وعيواز وزمولي. لم أكن بحاجة لإعلامهم كيف يبدأون العملية. فهم يعرفون عملهم جيدا. اخترت ثلاثة مرشدين واثقين من معرفتهم التامة للمنطقة وطلبت منهم أن يبقوا مع بن شريف وألا يتركوه إلا بعد تخطي الخط الأخير (موريس).

بعدها عاد بن شريف إليّ. وطلبت منه بعدما يتخطى العائق الأول (خط شال) أن يذهب فورا ودون أن يضيع دقيقة إلى جبل بوعبّاد. فالمنطقة هناك ستسمح له في حال الاشتباك مع العدو بالصمود حتّى حلول الليل ومن ثم الانسحاب. بعدئذ عاودت سيري مع الرتل. أما الأصنامي ورجاله، إضافة إلى بن عيسى، فقد سبقونا بيومين كمستطلعين. كان يفترض بنا اللقاء بهم في قطاع الانتظار. وتفاديا لإصابة الرّجال بالتعب قمنا بتقسيم الطريق إلى مرحلتين. عندما وصلنا إلى المرتفعات المطلة على الخط، سمعنا صوت انفجارات ورأينا نارا تشتعل. يومها اشتبك فرَّاح الّذي قطع الخط منذ عدة أيام مع العدو. وفي ذلك اليوم الموافق للثالث من نوفمبر 1960، سقط شهيدا.

يعرف الأصنامي كلّ الحصون الّتي ترتكز عليها المنظومة الدّفاعية، سواء تلك الّتي يمر عليها الفرنسيون مرور الكرام، أو تلك الّتي يراقبونها بشكل دائم. فكلّ شيء يفيده : الضجيج والنور والظلال. وهذه « الصور الصوتية » الّتي حلَّلها بكثير من الذكاء فقد سهلت عملنا كثيرا. فنه هذا هو الّذي سمح لبن شريف ورفاقه باجتياز الخط عند الساعة الحادية عشرة ليلا. نظريا، كان

عندهم الوقت الكافي للوصول إلى بوعبّاد. لكن لسوء الحظ لم يتقيد بن شريف بتعليماتنا. فانبطح على الأرض عند حدود خط شال متوقعا أن لا تطال عملية التمشيط المكان الّذي يتواجد فيه. كان رجاؤه أن يكون تفكير الفرنسيين سطحيا : إطلاق عمليات التفتيش في المكان الّذي تتواجد فيه وحدة جيش التّحرير الوطني الّتي تجرأت على تخطي الحواجز والمفترض أن تتواجد فيه بعد مسيرة ليلة ! وتوقع إعادة استلام الطريق بمجرد انتهاء عملية التمشيط. لقد أدخل الجيش الفرنسي، الّذي تعلم من خيبات غير معدودة، في معادلته، ليس فقط عوامل المكان والزمان وصلابة أرجل « الفلاّقة »، وإنّما حتّى الخدع وعمليات التمويه. بدأ الجيش عمليته من نقطة المرور واشتبك مع فرقة الكومندو منذ الصباح. استشهد وأُسِرَ معظم عناصره.

تزامن عبور صلاح بوشقوف مع فوج مؤلف من خمسة عشر عنصرا مع عبور بن شريف. وهذا من حسن حظ هذا الأخير ؛ لأن بوشقوف يعرف كلّ زاوية في المنطقة فأخرجه من المأزق وأوصله إلى تلال بني صالح حيث بقي مدة ثلاثة أشهر قبل أن يتمكن من تخطي الخط الثّاني. وبقي بوشقوف محبوسا بين الخطين حتّى توقف إطلاق النار...

علمت لدى عودة المرشدين أن أحد الإطارات – من أبطال هذا العبور المأساوي – كان محاصرا، فرفع يديه. ذكرت هذا الاستثناء لأبيّن بسالة وعظمة كلّ المجاهدين المحاصرين والمنهكين الّذين قُتلوا وسلاحهم في أيديهم.

عزز الفرنسيون المراقبة على طول خط موريس عندما علموا أن بن شريف لم يظهر بين ضحايا المعركة (القتلى والجرحى والأسرى) الّتي تبعت عملية عبور الخط. لم يكن باستطاعة بن شريف أن يصل إلى الولاية الرّابعة. كان جريحا وأسيرا في نواحي سور الغزلان. شنّت الحكومة المؤقتة حملة إعلامية ودبلوماسية مكثفة لإنّقاذه. اتهم بالخيانة، فحكم عليه بالإعدام بسرعة فائقة. غير أنّهم لم يجرأوا على تنفيذ الحكم لأن امحمد يزيد الدبلوماسي المحنَّك وصحفيين بارعين أمثال أحمد بومنجل ورضا مالك نظموا حملة إعلامية عالمية لصالحه.

إنّ المصاعب الّتي نواجهها في جانب الاتصالات كمهربي أشخاص محترفين، مع الّذين يلجؤون إلينا لعبور أخطر مرحلة من رحلتهم الطّويلة، هي مصاعب تقنية فقط. إذ لم تفسد أبدا العلاقة طويلة الأمد الّتي تربطنا بهم. يعود التعايش ليسود بيننا ما إنّ يفهمون توصياتنا ويحترمونها. من جهتي كنت أفعل كلّ ما بوسعي حتّى تستوعب كافة أوامري الّتي أطلب تنفيذها مثل « خارطة طريق » أعدّت لضمان النجاح.

يعتبر أحمد الشريف نموذجا تقنيا عاليا يحتذى به. فالمصافحة القوية الّتي تبادلناها قبيل رحيله إلى دار الآخرة، قد رسّخت الاحترام المتبادل بين محاربيْن يختلفان في الطباع ولكنهما يتقاسمان نفس الحس الثوري.

ولّدت حادثة عبور الرّائد بن شريف عندي قناعة أن المجاهدين الّذين قرّروا أن يتخطوا هذا الشريط الجهنمي مهما كان الثمن، برهنوا على ذلك في الحال، وسهلوا لنا عملنا. أما الثوار الّذين جابهوه خائفين ومترددين فهُزموا وعادوا بخفي حُنينٍ إلى قاعدة انطلاقهم. ولم يجرأوا على الإقدام على هذه الخطوة مرّة أخرى. واجه الطاهر زبيري وأحمد بن شريف ولطفي وعبد الرحمن ميرة ومحمد البريكي وحدادي عبد النور وحيدوش إضافة إلى عشرات من المسؤولين بكلّ عزم وجرأة « حواجز الموت ».

أثناء عملية العبور الّتي قام بها عبد النور حدادي وعبد القادر عبد اللاوي كنت مكلّفا بتحويل أنظار العدو إلى منطقة أخرى من أجل تأخير وصول تعزيزات العدو. أذكر سراي أحمد المدعو الأصنامي الّذي كان يعيش تقريبا في المنطقة الفاصلة بين الخطين.

يعود اسم أحمد سراي الحَرَكي لمدينة « الأصنام »[14] أو الصخور الّتي هدمتها الهزات الأرضية أكثر من مرّة. فيما بعد، غسل النهر الّذي يعبر هذه المنطقة باسمه – الشلف – اللعنة المخيفة الّتي تحملها تسميتها القديمة.

كان اسم « الأصنامي » يلائم صاحبه. فهو فضفاض وموسيقي وكثيف في الوقت نفسه. لم نعرف مجاهدا يحمل اسما حركيا أنسب من هذا اللقب. يمتاز « الأصنامي » بشجاعة فولاذية. فأثناء القتال، يحتفظ « الأصنامي » برباطة جأشه ويقف صنديدا كالتمثال. إلى ذلك فإنّ الحياة ومصادفات الأدغال قد غيّرا المحاربين فضعفت أحجامهم وتضخمت صدورهم وازدادت قوة أرجلهم وتوسَّعت خطواتهم وصفا سمعهم لدرجة أنّهم أصبحوا قادرين على معرفة مصدر الصوت. وكان « الأصنامي » إضافة إلى هذه الصفات المكتسبة، يتميز بنظرة ثاقبة ومستقصية وعميقة أشبه بنظرة الأسود. وكانت حركة عينيه تشير إلى شدة انتباهه ويقظته وسرعة بداهته.

« الأصنامي » رجل قصير القامة لكنه حيوي كالنار المتوهجة. ولم يكن له مثيل في فن المراوغة والتسلل والضربات السريعة والقوية. ذات مرّة استخدم العدو آلته الضخمة كي يحاصر ويضيق الخناق ويبيد، فأظهر « الأصنامي »، أنه قادر على أن يكون في كلّ مكان. وكان جبل الصخيرة مسرحا لإنجاز « الأصنامي » ورجاله. وفي اليوم نفسه، ضربوا جنود الجيش الفرنسي في عدة محاور وجعلوهم يتوهمون أنّهم في مواجهة جيش قوي وأجبروهم على جمع قوّاتهم.

كان « الأصنامي » يتمتع بجرأة متعقلة. ولم يترك نفسه يوما عرضة لأي مفاجأة. أصبحنا صديقين لأنني كنت أصغي إليه وأفهم حركاته وتعابيره وإيماءاته وتلميحاته. لم أجده يوما متقاعسا أو خالي الشغل. كان دوما منهمكا في فعل شيء مهم كمن يشعر أن الوقت سيداهمه في القريب العاجل...

---

14. الأصنام، أورليانفيل سابقا.

كان « الأصنامي » يجتاز حواجز الموت كما لو كانت مجرد طرقات معبدة. وقبل أن يخرج إلى مهمته الأخيرة أسرّ لي قائلا : « لست على ما يرام لكن عندي أمر بالمشاركة في هذه العملية وباتباع سي عبد القادر فيما بين الخطين ». مضيفا : « أعبر الحاجز عادة دون أية مخاوف لكن هذه المرّة لست مرتاحا لهذه العملية ». هل هذا إحساس داخلي ؟ حاولت تهدئته موضحا أن هذا الشعور الّذي ينتابه ناتج عن التعب والإرهاق، ولأنه لم يشارك في التخطيط لهذه العملية. ضممته إلى صدري وقلت له إنّني متأكد من أن هذه العملية ستنجح مثل غيرها من العمليات، ثم افترقنا.

في اليوم التّالي لقي « الأصنامي » مصرعه. كانت نبوءته صحيحة.

بعد فترة، نالت الجزائر استقلالها، وبينما كنت في المدرسة الحربية بباريس وقع بين يدي كتاب بعنوان « سيعود الأصنامي »، من تأليف الجنرال إيتشيفري قائد معهد الدراسات الحربية العليا والمفكر العسكري. خلال حرب الجزائر، كان المؤلف مسؤول القطاع العسكري للقالة في الوقت الّذي كان فيه الأصنامي يقوم بتنقلاته ذهابا وإيابا في المنطقة نفسها. الأرجح أن الجنرال إيتشيفري كان على علم بإنجازات الأصنامي فجعل منه شخصية روائية. كان إيتشيفري من دعاة المساواة في الحقوق بين المواطنين الساكنين في الجزائر. هي رؤية نبيلة، لكنها مثالية وطوباوية. لم احتفظ من تلك الصفحات سوى عبارات الإشادة بالأصنامي من قبل عدو الأمس.

دبابات ورجال

المكان المسمى « المطروحة » كثير الأحراج ومحصور بين جبلين، ويقع بين زيتونة ومدينة الطارف. المطروحة أرض ملائمة لحرب العصابات. وكانت لدبابات « الهرس »[15] معرفة واسعة بهذه المنطقة. إلى ذلك فقد انتشرت الحصون على طول الطريق أيضا.

واقتصرت إحدى مهماتنا الدائمة الّتي لم تكن بحاجة إلى تذكير من القيادة، على تدمير أكبر عدد ممكن من آليات العدو وأجزاء واسعة من خط شال. وبحصولي على الدعم تمكنت من توزيع المهام على مختلف الوحدات الّتي كانت تحت إمرتي. كالعادة، تناولت عصاي وسلاحي وتوجهت خلسة نحو المطروحة. وبعدما تقرّرت المهام لم يكن عليّ القيام إلا بأمرين : إما أن أشارك مباشرة وإما أن أقف وأراقب الآخرين. غير أن مزاجي وطريقة فهمي لمسؤولياتي كقائد، دفعاني إلى أن أكون بين رجالي. لأن الجنود يحسّون بالشجاعة وبقيمتهم عندما يكون رؤساؤهم إلى جانبهم في المعركة. لقد كان على يسارنا من ناحية زيتونة فصيلتان مشاركتان في المهمّة، وعلى يميننا باتجاه قرية الطارف كانت هناك فصيلتان أخريان. لم يكن في متناولنا سوى بازوكا من نوع

15. « الهرس » هي تسمية حربية تدل على الدوريات المصفحة الّتي تمر على الطريق بالاتجاهين للمراقبة والإنذار والتدخل عند الضرورة..

« UKM » من صنع أميركي. في الساعة المحدّدة فتحنا نيرانا جهنمية على الحصون والمصفحات. بعدها أدركت أن كلّ القذائف الّتي كنا نطلقها كانت توقفها أعمدة مكهربة مزروعة بشكل متلاصق فتنفجر القذائف قبل أن تصل إلى الهدف المحدد. وفي هذه الأثناء كثفنا من إطلاق النار بالأسلحة الأوتوماتيكية. أما الدّبابات، الّتي وقعت بين فكّي كماشة، فتراجعت نحو الطارف. لكن لسوء الحظ، وفي هذا الوقت المحدد، أطلقت قاذفة مست البازوكا، بينما الآليات المصفحة وبالرغم من عددها وقوة نيرانها فقد راوحت مكانها وأصبحت لقمة صائغة. ودمّرت الفصيلة اليمنى دبابة واحدة على الجسر المؤدي إلى الطارف. واستنارت السماء بألعاب نارية من الرصاص المخطط المنطلق. وارتفعت إلى السماء نيران الدبابة الّتي أصيبت وشكلت احمرارا داميا في عتمة الليل. أما الآليات فقد تثبتت على بعد عشرات الأمتار أمامنا. وفي ما يتعلق بالجسر الّذي يشكل السبيل الوحيد للهرب، فقد قطعت الطريق عليه الدبابة المصابة. أما تلك الّتي تمت محاصرتها فظلت تقاوم بشراسة وتزمجر وتهدر وتصرّ عجلاتها وتومئُ من الأبراج وتتجشأ الرصاص والقذائف لكنها لا تبرح مكانها. في الحقيقة، إنّ من يرى أمامه مصفحات محتارة ومتخبطة يسمح لنفسه بكلّ الأعمال المتهورة.

لا يمكن أن يكون عطل البازوكا ناتجاً سوى عن المولد الكهربائي. كنت أعرف هذا السلاح لأننّي تعلّمت طريقة استعماله في مدرسة التدريب. وبالرغم من كثافة النيران، حاولت إصلاحه في مخبإ أرضي. طلبت مصباحا كهربائياًومن ثم غطاء أحجب به النور. ضبطت تنفسي وتحكمت في ارتجاف يديّ ونسيت خفقان قلبي وكتمت غيظي. احمرّ البازوكا من الخجل وعاد يعمل. وفي تلك الأثناء، نجح الفرنسيون في تخطي العائق وتحرير الجسر. مما سهّل تراجع المصفحات. وتمكنا من إصابة واحدة منها. وقد تضررت كثيرا ولفّتها ألسنة النيران. أما القذائف الّتي انفجرت بداخلها فقد هزتها وقذفتها في الهواء وأظهرت من كلّ فجواتها كلّ ما كان في أحشائها.

اكتسى المشهد كلّ هذه الكثافة غير العادية الّتي جعلت من أن كلّ لقطة وكلّ حركة وكلّ كلمة بقيت مطبوعة في الذاكرة إلى الأبد.

تخللت ساحة المعركة لحظات هدوء عابرة. كان الهواء سميكا كالقطن المندوف. وكنا نستمتع بلحظات مليئة بالإثارة الكثيفة. وتولّد لدينا الانطباع أننا أصبحنا قوة لا تهزم. فدمرنا أكبر عدد ممكن من شبكات الأسلاك الشائكة. فكانت أصوات الحديد تطقطق بقوة. وفجأة لفت انتباهنا جسم غريب. فدنونا من هذا الجسم بحذر. وإذا بجيب من طراز « ويليس » مقلوبة على الجهة السفلى من التل. رأينا جثة هامدة لجندي فرنسي بالقرب من رشاشة « مات 49 » وصندوق أدوات كهربائية. عندها سارعنا لاغتنام كلّ شيء. في مكان قريب من الغابة شد انتباهنا نور خافت. ربما هم من الناجين يعالجون جرحى. فلابد فعلا من المزيد منهم لتخويفنا. وانتقلنا إلى مرحلة « النفس الثّاني »، وكانت القذائف تموء كالقطط فوق رؤوسنا غير أننا لم نبالِ بها.

في بعض الأحيان يحدث أن يصرخ أحدنا : « آي تزفر » (ها هي تصفر) يعني ذلك أن القذيفة ليست علينا، وأنها تواصل طريقها. وحتّى صرخة : « آي تفرفر ! » (ها هي ترفرف) الّتي تدل على أننا سنتلقى ضربة قوية، فهي تتركنا غير مبالين طالما أنّ حماسنا كبير.

بعد مضي عدة ساعات ونحن نحاول تدمير الخط، تمكنا من الوصول إلى مكان الموعد مع الفصائل الأخرى. وهنا تلقينا خبر موت المساعد بوشريط الساسي الّذي ائتمنني على رشاشه خلال زيارتي الأولى لجبل بوعبّاد، أثناء كمين « غمد الزانة ». بعدما دمر دبابة على جسر الطارف توجه الساسي نحو دبابة أخرى كي يلقيها نفس المصير، غير أنه أصيب برصاص الرشاشات الّتي كانت تطلق النار بكثافة. ولم تتم استعادة جثمانه. أما قناص « البازوكا » الّذي كان يرافقه، فكان مصدوما ولم يستطع أن يحدد لنا المكان الّذي سقط فيه أخونا. في اليوم التّالي عثر الجنود الفرنسيون على جثمان الساسي.

كان الساسي قدوة لهؤلاء الجنود البواسل الّذين سقطوا في مواجهات مع عدو يمتلك وسائل تفوق قدراتنا بكثير. وكان شهادة حية على أن أهم الأسلحة والآليات لا تضاهي إرادة بعض الرّجال وشجاعتهم.

بدأ بزوغ الفجر، وسلكنا طريق العودة. في الفصيلة الّتي كنت معها استشهد مجاهد دفناه عند استراحتنا قرب منجم معدني، ليس بعيدا عن تل أم علي. في تلك الأثناء توجه جنود تائهون يتمون إلى وحدات الدعم الّتي أرسلت لتعزيز قوّاتنا، نحو قرية مأهولة في الوقت الّذي كان فيه كلّ واحد يعلم أن الفرنسيين يترقبون أدنى حادثة كي يشنوا حملات قمعاً ضد المدنيين. وبعد وقت قليل، قامت طائرات « الميسترال » النفّاثة الّتي أنذرتها طائرات الاستطلاع « بيبر » بقصف القرية. وبعد الظهر، كنت متأثرا وحزينا على ما حصل، فذهبت مع قائد النّاحية لتفقد المدنيّين الّذين تعرضوا للقصف، لنقدّم لهم تعازينا للخسائر الّتي وقعت في صفوفهم بسببنا. أما المدنيّون الّذين استقبلونا فكانوا يدلّوننا بأصابعهم إلى خزانات الوقود الّتي سقطت من الجو : « المهم بالنسبة إلينا هو أن حطامهم بقي هنا ! » ولما رأينا أن « الطائرات » الّتي أسقطت تواسيهم على ما أصابهم فآثرنا ألاّ نطلعهم على الحقيقة.

وفي إحدى ليالي فصل الربيع، قرّرت مع قارة عبد القادر، قائد المنطقة الثّالثة التابعة للنّاحية، أن نشارك في هجوم على قرية رمل السوق. هو عمل روتيني ! فالهجوم مثل الكمين هو من تقنيات حرب العصابات بامتياز. وهذا ما يساعد الضعيف في مواجهة القوي. ترمي خطّة الهجوم إلى « حرق أعصاب » العدو ووضعه في حالة استنفار متواصل، في مكان يصرف فيه كلّ الإمدادات الّتي بحوزته ويحرق أعصابه وتنحطّ قواه. والكمين الّذي يُحضَّر جيدا يوقع خسائر مهمّة في صفوف العدو من دون تكليف المهاجم أي خسائر تذكر.

عززنا فصيلتيّ مشاة بفوج مجهز بمدفعي هاون من طراز 82 ملم وبمدفعين من طراز 57 ملم أوكلّنا مسؤولياتهما إلى حسين غنّاس. كان يفترض أن تقترب الفصيلتان بأقصى ما يمكن من القرية لفرض السيطرة عليها ومن ثم تطلق نيران رشاشات من جهات متعددة على أي عنصر من عناصر العدو يحاول الخروج. كنت متمركزا مع عبد القادر قارة، منحنيين إلى الأرض قرب مدفع من عيار 57 ملم، عندما أطلقت أول قذيفة. فغطانا وأعمى عيوننا الغبار الناتج عن ضغط الغاز وراء المدافع غير المرتدة. كان المدفع مُثبّتا على أرض معفَّرة. عندها تراجعنا عدة أمتار إلى الوراء. وبعد بضع لحظات انفجرت قذيفة بالقرب منا نحن الاثنين وأصابتنا بجروح. وشاءت الصدفة أن ننتقل تقريبا إلى نقطة الاصطدام. وشعرت حينها كما لو أنني تلقيت ضربة قاصمة. اخترقت شظيتان ذراعي الأيسر من طرف إلى طرف. ودخلت شظية أخرى أصغر حجما إلى يدي بين الإبهام والسبابة. واستغرقت هذه الشظية عدة سنوات حتّى ثبتت في مكان واحد وتوقفت الآلام الواخزة، لاسيما في أيام البرد. لكنها عذبتني كثيرا. ولقد رأى الأطباء أن استخراجها سيسبّب لي مضاعفات أخرى. أما قارة الّذي أصيب بجروح خطيرة ونزف الكثير من الدم، فالرصاصة قد دخلت من ضلعه واستقرت عند أسفل رقبته، كان وضعه دقيقا، فنقلناه إلى منزل كان ما زال مسكونا وغير بعيد عنا. ولقد عانى الممرضون كثيرا لكي يوقفوا نزيفه. أُرسل بعدها إلى مستشفى في تونس. وعلى عكس رصاص البنادق والرشاشات، كانت أصوات القذائف الحادة ذات الأشكال الهجينة، تدوّي بشكل مرعب وتوقع إصابات خطيرة. حتّى اليوم ما زلنا نحمل داخل أجسادنا قطعا معدنية « كذكرى » لا تمحى عن هذه المأساة.

الفصل الثّامن

سنوات الستينيات

تُمثل الستينيات فترة اتصالات سياسية مُكثّفة بين فرنسا والحكومة المؤقتة. لكن في الجبال، لا أحد كان يُعير الأمر أهمية حقا. فالحرب لا تزال قائمة وموجودة في كلّ مكان. كانت دعوة الجنرال ديغول لـ »سلم الشجعان » دعوة للاستسلام دون شروط. وهو رفض للاعتراف بالمطلب الأساسي لحركتنا الاستقلالية : « أقول دون لف ولا دوران إنّ أكثرية الثوار قد قاتلوا بشجاعة. [...] فليأتِ سلم الشجعان وأنا متأكد بأن الأحقاد ستُمحى. تكلمت عن سلم الشجعان. ماذا يعني هذا ؟ ببساطة إنّ الّذين فتحوا النار يجب أن يوقفوه ويعودوا دون إذلال إلى ذويهم وإلى أعمالهم !.[...] إنّ الحكمة القتالية القديمة تستعمل منذ زمن طويل، عندما نريد أن نُسكت الأسلحة، راية المفاوضين البيضاء.. ».

لم يكن هذا الموقف الرسمي للرئيس الفرنسي سوى أن يعزّز تصميمنا على مواصلة الكفاح حتّى الاستقلال. لأن هدف الثورة ليس هو ما تدعو إليه فرنسا الجنرال الديغول : « تسليم أسلحتنا والترجي من المحتل أن يتحسن مصيرنا ».

كانت المفاوضات مع الفرنسيين تشبه إلى حد ما الغولة الّتي يتكلم عنها جميع الناس لكن لم يراها، مثل ثعبان البحر الّذي يُبهج ليالي البحّارة عندما يتوقف مركبهم ساكنا في موضعه، في المناطق الاستوائية. فالمجاهدون المطلّعون يعرفون أن الفرنسيين قاموا باتصالات متكررة مع القيادة السّياسيّة للثورة. وغي مولي، الرجل الّذي أغرق بلاده في لجج الحر،ومارس سياسة ثانية لكن بسرّية. فقد قاد من أفريل إلى سبتمبر 1956، سلسلة محادثات مع جبهة التّحرير الوطني، فشلت أمام الإصرار الجزائري على شرط الاعتراف بحق الاستقلال. وفي الخامس من جانفي 1957، في تصريحه عن الجزائر أمام الجمعية الوطنية، قال غي مولي : « [...] رغم الاتصالات المتتالية، فإنّه لم يحصل وقف إطلاق النار لأنه رُفض بإصرار. [...] فلقد اشترط قادة التمرد المزعومين، وسيظل يشترطون، ربط وقف إطلاق النار بالقبول المسبق واللامشروط لمطالبهم المتطرفة : اعتراف فرنسا بحق الجزائر في الاستقلال وبتشكيل سلطة جزائرية مؤقتة ».

خلال أربع سنوات، لم يكن هنالك أي انفتاح سياسي جدّيّ من قبل الحكومة الفرنسيّة المتورّطة في سياسة « التهدئة »، والّتي تأمل بين ربع ساعة وآخر زوال الثورة وانطفائها. فكان لابد

من انتظار مجيء بيار بفليملين إلى السّلطة (6 نوفمبر 1958-1 جوان 1959) لكي نسمع من جديد عبارات « المحادثات » و« وقف إطلاق النار ».

وعندما أضاف رئيس مجلس الوزراء قائلا : « نعم للتفاوض، لكن انطلاقا من موقع قوّة ! » يعني ذلك أن العدو – جيش التّحرير الوطني – لم يتمّ ردعه، وأنه صمد كلّ تلك الفترة ولم يكن في موقف ضعف. هل ينبغي أن نذكّر بأن معركة سوق أهراس الطّويلة هي الّتي فتّحت عيون الفرنسيين على الوضع الحقيقي على الأرض ؟ لا شك أن أبطال المواجن (سأخصّص في نهاية الكتاب فصلا كاملا لمعركة سوق أهراس الشهيرة) ساهموا بشكل مباشر وجلي في سقوط الجمهوريّة الرّابعة وأعادوا شارل ديغول إلى السّلطة.

من عام 1959 حتّى عام 1962، كانت همومنا مختلفة عن هموم مفاوضينا. فلا تكاد تجد حديثا مطولا عن موضوع المفاوضات. فقد كنا منشغلين كلّيا بيوميّات الحرب الّتي كنا ملزمين بخوضها. وكانت تعقد اجتماعات موسّعة للإطارات تشمل قادة الأقسام كلّ ثلاثة أشهر. وكان يترأس هذه الاجتماعات هواري بومدين شخصيا وتتناول مسائل عسكرية محضة أو تقنيّة بشكل أعم.

وكانت أوامر هيئة الأركان تقضي بمتابعة الكفاح والامتثال للتعليمات من دون نقاش. وما كانت فكرة أن نكون شهداء السَّاعة الأخيرة تخطر ببالنا البتة.

كلّ الآمال في أن تفضي المفاوضات إلى حلٍ سريع يكذّبها ما يجري في الميدان : تعزيز القوّات العسكريّة للعدو بما يقارب الثلث، بناء خط جديد ومحصّن (شال)، إنشاء مناطق محظورة أخرى والاستمرار في تطبيق مخطط قسنطينة. شككنا بأن هذه الانفتاحات الفرنسيّة ليست مرّة أخرى سوى خِدَعًا تسمح لهم بكسب الوقت أمام الضغوط المتعددة الّتي يتعرضون لها. وربّما كنا قد وصلنا إلى مرحلةٍ سيفرض فيها الحلّ السياسي نفسه، لكنّنا نحن العسكريّين المنخرطين بأعماقنا في يوميات الحرب لم نكن نملك لا الوقت ولا المزاج للاهتمام بالأمر.

كلّ التصريحات المناصرة لقضيتنا، مثل التصريح الّذي أدلى به السيناتور الأميركي ج. ف. كنيدي كّذبتها الجهود الّتي لا يزال الأميركان يقومون بها لصالح حلفائهم الفرنسيين.

من جهتنا، لم تكن كلّ هذه التحركات الدبلوماسية تهّمنا، فنحن حضّرنا أنفسنا لحرب طويلة. كنا نشعر أننا سنملك في المستقبل القدرات المهنيّة والوسائل المادية. إنّ تعاظم قوّاتنا من سنة إلى سنة، بفضل التعبئة العامة للاجئين القادرين على حمل السلاح (سواء كانوا في تونس أم في المغرب)، وتكوين عدد من الإطارات (طيّارين وبحّارة وسائقي دبّابات ورجال مدفعية) في البلدان الشقيقة والصديقة، كان سيسمح لنا على المدى المنظور أن نواجه بشكل متوازن الدّفاعات الحدودية، مما سيساعدنا أخيرا على إمداد الولايات الداخلية بالمعدات الّتي ستعطيها نفسا جديدا.

كان الوضع المقبل صعبا بالنسبة لجيش التّحرير الوطني، وكانت الحواجز المحصّنة شبه مقفلة. استمر عبور الوحدات نحو الجزائر، لكن بخسائر معتبرة. وكانت الولايات المكافحة تحت

ضغط العمليات الّتي يقودها الجنرال شال، كما أنها على خط الدّفاع وتواجه ضغوط التشتت والانفجار. إلى ذلك، بدأ التحاق الشباب الجزائري بمجموعات الحَرْكى[1] يثير القلق. كان الجو ثقيلا في وحدات جيش التّحرير الوطني المتواجدة على الحدود الشرقية. الهزات الأرضية الارتدادية الّتي هزت صفوف الجيش في لحظة أو في أخرى : تمرد جبل شعامبي (800 رجل مسلح بكلّ أنواع الأسلحة أعلنوا حالة شبه عصيان لا أحد يتصور عواقبها). استسلام حمبلي وتمرد حمّا لولو والاستياء في المخيمات والنزاعات بين الأشخاص الّتي تعصف بمركز العمليات العسكريّة، كلّ ذلك ترك آثارا.

دخل عسكريون في أعلى مستوى قيادة جيش التّحرير الوطني – المشهورون باسم « العشرة » – في اجتماع مفتوح لدراسة الأوضاع واقتراح جملة من الإجراءات للمجلس الوطني للثورة.

من بين القرارات المتخذة، نذكر : تدمير الحواجز المكهربة واستمالة الحرْكى باستخدام كلّ وسائل الإقناع وإنشاء قيادة للثورة في الداخل، وكذلك، ولعل هذا هو الأهم، إنشاء هيئة أركان عامة وعلى رأسها هواري بومدين بدل القيادتين الغربيّة والشرقية.

لقد سهّل إنشاء هيئة أركان عامة – مع أنه كان من الممكن أن يصدر هذا القرار من قبل – مهمّة إيجاد استراتيجية كفيلة بمواجهة استراتيجية الجيش الفرنسي.

هواري بومدين

هذا القائد الفريد، الّذي أسندت له القيادة السّياسيّة للثورة قيادة هيئة الأركان العامة لجيش التّحرير الجزائري ليس بقادم جديد. بل هو مجاهد من الرعيل الأول، استطاع بفضل قدرة كبيرة على التحليل، وخيارات تكتيكية مدروسة ومحكمة، أن يرتقي إلى قمة القيادة في الولاية الخامسة. جاء ليتولى على الحدود الغربيّة أيام « مركز العمليات العسكريّة »، المسؤولية العسكريّة العليا.

بحكم إقحامه (غصبا عنه ؟) كرئيس لعدد من المحاكم في الصراعات الّتي هزت صفوف جبهة التّحرير الوطني، كان مطّلعا على الملفات الحساسة للثورة. فكلّ دوافع ومبررات المتخاصمين لم تكن سرا له.

كان هواري بومدين شغوفا بالعمل، ويمكن لرسام رومنسي أن يعلّق على صورته بكلمتين : « ذئب جائع ». كان يتميز بالبنية النحيلة وبالنظرة الحادة والحذرة وبالمقاربة الصامتة وبالصبر على الألم والوقفة الهادئة والضغينة الدفينة إضافة إلى اللدغة المميتة.

بالنسبة إلينا، لا يمكن « لقائد قريب من المجاهدين » أن يعني سوى شيئا واحدا : إلى جانبنا وعلى اتصال بنا لدرجة أنه يهتز لمعاناتنا ويثور لسماع غضبنا ويبتهج لنجاحنا !

كان استقرار هواري بومدين بين الجنود منذ تعيينه، لهذا الرجل السَّكوت والسري أشبه بعُمرّة أو عودة إلى الأصل وتطهّر في جو أكثر توهجا ولكن بكلّ تأكيد أقل تعفنا مما هو في أماكن أخرى.

1. الحركى : وحدة متكوّنة من الملحقين الأهالي، يستخدمها الجيش الفرنسي لأعماله الدنيئة.

يمكن اعتبار هواري بومدين نقيض محمدي سعيد ناصر. فهو لا يصرخ بل يتكلم بكلّ هدوء. ولا يصُمّ أذنيه بقناعاته الشخصية بل يصغي للآخر. لا يلوّح بيديه بل يتأمل. لا يؤكد شيئا بل يستشير، غير أن استشارته لم تكن يوما اعترافا بالجهل لعمله، بل بالأحرى بحث عن إضاءة إضافية بهدف تعزيز أو تصحيح رؤيته الشخصية للأمور.

عندما استلم هواري بومدين القيادة في غارديماو، حصلت تغيرات جذرية في الجيش. ولقد سهّل عليه الأمور العمل الجبّار الّذي قام به كريم بلقاسم.

اعتلى بومدين قيادة الأركان العامة بعيدا عن الأضواء. لأننا كنّا منهمكين في أشغالنا اليومية فنادرا ما كنا نكترث لما يقال عن المسؤولين ولما يحصل معهم. قبل وصوله كنا نعرف أن المجلس الوطني للثورة سيعقد اجتماعا في طرابلس وسيتناول قضايا هامّة تخص جيش التّحرير بشكل أساسي.

جاء هواري بومدين في ظرف صعب. وكانت هناك وحدات شبه منشقة. كما أن بناء خط شال جعل من الصعب تمرير الأسلحة والجنود. وكانت الكتائب القادمة من الداخل وبخاصة من الولاية الثّانية متمركزة داخل مخيمات دون أي تأهيل. كما أن قائد هيئة الأركان العامة الجديد لم يكن يتمتع بأي سلطة فعلية عل الوحدات الّتي تخضع لأوامر مسؤوليها المباشرين. فكيف سيكون مستقبلنا القريب ؟

عندماعلمت هيئة الأركان العامة بوجودي في غارديماو لتسلُّم بعض المعدات، استدعتني. استقبلني بومدين شخصيا. طرح عليّ بعض الأسئلة ذات الطابع العسكري والمتعلقة بمهامنا اليومية في النّاحية الأولى الّتي أنتمي إليها.

بعدما استمعت إلى الأسئلة الّتي طرحها بخصوص معسكراتنا و المهمات الّتي ننجزها أدركت أن لدينا الآن قائداً يذهب إلى الأمور الجدية.

كان بومدين محاطا بالروّاد علي منجلي وقايد أحمد وعز الدين زراري، وشكّل فريقا مؤلفا من تقنيين وكلَّف النقيب بن عبد المومن بتدريب الجنود وتشكيل الوحدات.

تم استدعاء العناصر الّتي كانت في تونس دون وظائف محدّدة. وفي عهده وضعت خطّة حقيقية لتجنيد الشباب اللاجئين. وذلك بإرسال كلّ مجنّد جديد إلى مِلاّق فور وصوله كي يتلقى التدريب اللازم.

كانت المنطقة الشمالية تحت إمرة الرّائد عبد الرحمن بن سالم بمساعدة النقباء عبد القادر شابو والشّاذلي بن جديد وأحمد بن أحمد عبد الغني. فيما أسندت النّاحية الجنوبية إلى الرّائد صالح سوفي مع سعيد عبيد ومحمد علاق.

لا ينبغي للجيش الجزائري الحديث، الّذي رسمَ المؤتمرون المجتمعون في إيفري في 20 أوت 1956 خطوطه العريضة لمواجهة التحديات الحاضرة والمستقبلية، الّذي أعاد هواري بومدين تنظيمه وانتشاره، أن يكون مجرد جهاز ميكانيكي وتمفصل لأعداد هائلة من الرّجال والوسائل

التقنية، وإنّما يجب أن يكون جسما لفكرة طموحة، يضطلع من الآن فصاعداً برؤية أوسع وأفضل إعدادا، بحيث يصبح، الآن وللأجيال القادمة، بوتقة للوحدة الوطنية مشبعة بقيم نوفمبر السامية، قيم العدالة الاجتماعية والإنسانيّة والتسامح والرقي[2].

كان قطع الحبل السرّي الّذي يربط الجندي بالجماعة والخروج من الدفء الّذي يوفره الوسط العائلي والقبلي، بمثابة اللبنة الأولى لهذا المشروع الكبير. ولقد تخلل مشروع تحديث الجيش وشوشات وصرخات وأحزان ومآس في بعض الأحيان.

ويتذكر المجاهدون الّذين عاشوا تلك الفترة عبارات مخزية مثل : « سكتورنا »... « دخلوا لسكتورنا »... (قطاعنا... لقد دخلوا إلى « قطاعنا ! »)، إلخ. لم يكن بالإمكان كسر عقلية « أمراء الحرب » هذه الّتي غذتها النزعة الجهوية المقيتة إلا بالقطيعة الواعية بين الفرد وارتباطه بمسقط رأسه.

يعتبر الصومام المحاولة الأولى لتجاوز الأفق المباشر للمجاهد ودفعه للنظر إلى العالم من حوله بنظرة أعمق وأوسع.

ولقد عانت لجنة التنسيق والتنفيذ والحكومة المؤقتة، ثم بعدها هيئة الأركان العامة كثيرا لكي تُدخل في قالب آخر أكثر « انسجاماً »، تشكيلات منغلقة على نفسها وتخضع لأوامر قادة فرضوا أنفسهم بخصالهم الحربية أو بوزن القرابة أو بالاثنين معا في غالب الأحيان.

قبل أن يكون تقسيم النّاحية الحدودية إلى ناحية شمالية وناحية جنوبية تنظيما للوحدات القتالية وتنظيما هيكليّا، كان ثورة على « التقاليد » السائدة منذ نشأة الجيش الجزائري. هو كسر وتحطيم نهائي للترسبات الجهوية والعشائرية، وبالتّالي وثبة نوعية على المستويات الدنيا والمتوسطة والعليا للقيادة العسكريّة.

لم تكن الناحيتان الشمالية والجنوبية نسخة عن الخارطة الأصلية للقاعدة الشرقية القديمة وللناحيتين الخامسة والسادسة للولاية الأولى، بل تتعديان حدودها بكثير. يعتبر إلغاء « منطقة النفوذ » بحد ذاته تقدما نحو تحديث الجيش الّذي أصبح نموذجاً أوليا للتنظيم المركزي الّذي أملته اعتبارات موضوعية متعلقة بتحسين الأداء وليس بتوحيد الهياكل.

لم تعد الوحدات الجديدة نسخة عن التّركيبة البشرية القديمة « المنحصرة » ضمن حدود الآفاق الضيقة، وإنّما دفقاً جديداً أكثر تنوعا وتباينا. ولقد أزالت الفسيفساء البشرية مظاهرها الكاريكاتورية في قالب مدارس التكوين المهذّبة. فاستخدام نفس الألفاظ ونفس المفاهيم التقنية يشكّل أول قاسم مشترك. كما أن التبديلات بين القادة الّتي أصبحت أكثر تداولا وتحويل الوحدات ونقلها من قطاع إلى آخر في مسرح المعركة، خلقت علاقة جديدة بين الجنود ومحيطهم. وتجدر الإشارة هنا إلى التواجد جنبا إلى جنب – في الفيالق الجديدة – بين المهاجر الآتي من أوروبا والقروي

2. ولقد أثبتت ذلك بعد مرور عقدين من الزمن في وجه أعداء القيم الّتي ورثها الشّعب الجزائري عن أسلافه.

القادم من جبال الأوراس أو من جرجرة وابن المدينة الآتي من عنابة أو الجزائر العاصمة وفلاح سوق أهراس والعامل الأجير الآتي من وهران. وشيئا فشيئا بدأت تتلاشى تلك التكتلات المنزوية والمنغلقة الّتي تُفرز حولها ما يُشبه المحاجر الصحية الّتي يغلق فيها على « الآخرين » المنبوذين.

لا يعتبر التحديث في جيش التّحرير الوطني مجرد مكسب على صعيد العمليات، وإنّما يشكل أيضا فهما أعمق وأوسع لمحيطه. أما هذه التوهجات المحيطة فهي تصنع في بوتقة الحرب الانصهارات الطبيعية الّتي تلحم لبنات صرح الأمة.

إذا كان عليَّ أن أختار بين كلّ إسهامات هيئة الأركان العامة – وعلى رأسها هواري بومدين – أذكر في الأول كسر الجهوية والروح القبلية اللتين شكّلت النسيج الحقيقي لانشقاقات جبال شعمبي وسيدي أحمد وتلك الّتي انطلقت من التلال الجرداء في جنوب شرق سوق أهراس، وغيرها.

لقد تم اختيار خالد نزّار وسليم سعدي وعبد الرزاق بوحارة وكركب مختار وعبد النور بقّة وعلي بوحجة وعبد القادر قارة وعبد القادر عبد اللاوي وأحمد ترخوش ومحمد صالح بشيشي ومجذوب لكحل عياط، وغيرهم من قادة الفيالق، على رأس هذه الوحدة أو تلك تبعا لمواصفات عسكرية مُحدّدة، وليس تبعا للأصل القبلي لمعظم العناصر الموجودة في تلك الوحدات بالذات.

يعود لكريم بلقاسم وهواري بومدين الفضل الأول في العمل، كلّ حسب إمكانياته (لم يكن الظرف هو نفسه بالنسبة للاثنين) على إخراج وحدات الجيش الجزائري من قوقعتها الأولى، لإنشاء تشكيلات تعكس وحدة الصف. وقد أكمل آخرون بنجاح عمل هذين الرجلين. ويستمر التطور الطويل والإيجابي للجيش الجزائري حول المحاور الأساسيّة الّتي هي الدّفاع عن الوطن والتقدم والحداثة. كتبت مؤخراً في كتابي : « الجيش الجزائري في مواجهة التضليل الإعلامي »[3]، كيف أنَ مشروع إعادة هيكلة الجيش الوطني الشّعبي الّذي كان لي شرف كبير في تجسيده في منتصف الثمانينات، كان مبنيا على تلك الأسس الثلاثة الّتي أعطاها المجاهدون وزنا حقيقيا بفضل تفانيهم وتضحياتهم. لم يتوقف تاريخ الجيش الجزائري عند خطي موريس وشال، بل استمر ولا يزال مستمرا...

مع هواري بومدين، لم تتغير الانشغالات.

يعتبر خط شال، بفعل قوته، هدفا استراتيجيا بالنسبة لجيش التّحرير الوطني. وكنا نهاجمه بكافة السبل الممكنة. ولقد دامت العمليات الّتي خططت لها هيئة الأركان العامة الجديدة بين ثلاثة وخمسة عشر يوماً. ونُفِّذت بواسطة مختلف الوحدات المنتشرة على الحدود. وكانت العمليات المتزامنة تخلق جوا من التعبئة الدائمة في صفوف العدو وتُبيِّن له أنه من الآن فصاعداً في مواجهة مع قيادة أخرى. في مرحلة أولى تم تنفيذ مهمّة التطويع والتهيئة بشكل يتآلف فيه المجاهدون مع دفاعات الخط وذلك بهدف إزالة تلك الهالة المحيطة بها وتحجيمها واختزالها

3. « الجيش الجزائري في مواجهة التضليل الإعلامي »، الوكالة الوطنية للنشر والإشهار الجزائر، دار الفارابي بيروت، 2003.

إلى إشكال قابل للحل تقنيا. أصبحت الأسلاك المكهربة والحقول الملغّمة والأسلاك الشائكة بمثابة عوائق في متناولنا إنّ أحسننا دراستها بمقاربة هادئة وجذرية ومنهجية. وفي مرحلة ثانية، أصبحت مهماتنا أكثر هجومية. وبتنا ننصب الكمائن لدبابات « الهرس ». في البداية كان من جهة واحدة من الخط وبعد ذلك من الجهة الثّانية بعدما اجتزنا الخط. أما المجاهدون فقد تمرّسوا على هذا النمط المحفوف بالمخاطر.

تركت مبادرة الغارات الموجهة ضد التحصينات والمراكز العسكريّة، وكذلك الهجمات الاستنزافية، لقادة الوحدات. فيما كانت العمليات الواسعة النّطاق الّتي أدخلت عددا من الفيالق فقد أجبرتنا في بعض الأحيان على كبح جماحنا في انتظار الإشارة.

انتقلنا مع مجيء بومدين وفريقه من شيء يشبه هيئة أركان إلى مركز قيادة فعلية. فقد سمحت الاجتماعات مع مسؤولي المجاهدين بتعميق أفكارهم العسكريّة وحتّى السّياسيّة. وكانت المجادلات حادة، كما أن الآراء لم تكن دائما متقاربة. لقد عززت هذه اللقاءات الروابط بين الجنود وخلقت نوعا من المنافسة. هي فرصة للذين ينشطون في مختلف النّواحي لكي يتعارفوا ويتبادلوا الخبرات. تستجيب المبادرة لاستراتيجية محدّدة. كان بومدين يريد أن يوحّد الصفوف بتقريب الناس ليس جسديا فحسب وإنّما أيضا عن طريق الأفكار الّتي تشكل القواسم المشتركة. فقد أصبح جيش التّحرير الوطني يتمتع للمرّة الأولى في تاريخه بقيادة لا تتحدث فقط عن الأهداف الّتي يجب تحقيقها بتعريض أنفسنا للذبح – وهذا ما كنا جاهزين له – وإنّما عن إجراءات ذكية وحسن استعمال الوسائل. مع بومدين، تحوّل شعار محمدي السعيد : « الاستشهاد في سبيل الوطن » إلى « الكفاح من أجل الوطن ».

قيل الكثير عن جيش « الحدود ». وقال خصوم هواري بومدين أن هذا الجيش خدم الطموحات السّياسيّة. وهناك صورة نمطية تصفه كهيئة يحركها الضبّاطالجزائريون الفارون من الجيش الفرنسي والّذين قرّبهم بومدين إليه ودلّلهم لكي يساعدوه في الاستيلاء على السّلطة والاحتفاظ بها فيما بعد.

وهناك حملة مضللة ودؤوبة ظلت لفترة طويلة تصوّر هذا الجيش على أنه أحد مكوّنات جيش التّحرير الوطني الّذي اختار الهرب من ساحة المعركة « للجوء » إلى تونس والمغرب.

كلّ الأشخاص الّذين أذكرهم في هذه المذكرات ليسوا بأشباح، فإنجازاتهم وساحات الشرف الّتي حاربوا فيها وسقوط العديد منهم تدحض هذه الافتراءات. وكانت أقاليم القاعدة الشرقية، أي الناحيتين الشمالية والجنوبية، لحم هذه المعركة. وهي موجودة في الجزائر وليس على كوكب وهمي.

قدّمت القواعد والمخازن والقوّات الّتي أنشأناها في البلدان المجاورة مساعدة كبيرة لجيش التّحرير الوطني إلى درجة أن آلة الحرب الفرنسية كانت مضطرة لمواجهته بثلثي قوّاتها وإمكانياتها. وتعتبر تجارب مثل كوريا وفييتنام خير دليل على أن وجود ظهر قوي ومنظم تنظيما جيدا (في جمهورية الصين الشّعبية) كان سندا ثمينا للوحدات المقاتلة.

لماذا لم تلتحق هيئة الأركان العامة بالداخل ؟ سؤال قد يحيلنا إلى أجوبة متشعبة ! ويمكننا أن نطرح السؤال بصيغة أخرى : هل كان بإمكان دخول هيئة الأركان العامة إلى الداخل أن يختصر زمن الحرب ؟ وهل كان من الممكن للوحدات المتمركزة في تونس والمغرب أن تعبر ؟[4] نحو أي معاقل ؟ وبأي ضمان تموين ؟ من يقول ذلك يجهل واقع الحواجز ويستخف بالوسائل غير الاعتيادية الّتي سخرتها عمليات شال. وهو في النهاية رفض للاعتراف بأن حرب الاستنزاف الّتي تتابعت على الحدود قد كلّفت الكثير على الصعيد العسكري والسياسي، لأنها لم تكن ممكنة إلا عبر قواعد خلفية محصنة وآمنة.

جاذبية الأقوياء

في اليوم التّالي لعبور بن شريف للخط (في 4 أفريل العام 1960)، وبالعودة إلى مركز قيادة النّاحية الشمالية حيث جُمِعت وحدتان مختلفتان، كان بومدين هنا محاطاً بعدد من معاونيه. وعندها لاحظت من الوهلة الأولى أن أفضل العناصر – الّذين عرفتهم في المعركة – كانوا مجموعين في الوحدة نفسها، تلك الّتي أصبحت فيما بعد الفيلق الثّالث عشر بقيادة عبد القادر عبد اللاوي وكان ما يزالُ معاونا سياسياً لقائد النّاحية. أما الفيلق الثّاني – الفيلق الحادي عشر – فلم يكن عنده قائد بعد. عرض عليّ الشّاذلي بن جديد القيادة. رفضت بشكل قاطع، مفضِّلاً الانضواء تحت راية الفيلق الثّالث عشر. والحقيقة أنني لا أقبل هذه « الغربلة » للرجال، فرفضت العرض على الرغم من إصرار قائد النّاحية الّذي أبدى لي رغبته في تسوية الأمور فيما بعد وطمأنني أن « الاستقطاب » – وهي ظاهرة فيزيائية معروفة – له مفعوله أيضا على الناس. وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذه الجاذبية النابعة من الأقوياء تجذب الأقوياء. فقد دعاني كي لا أرى في ذلك أي موقف مسبق ولا أية خلفيات شائنة. اختار بن جديد وبومدين أحمد ترخوش معاون قائد النّاحية للاستعلامات والاتصالات. أما ترخوش فقد كان في البدء محتارا بين الرفض والقبول ثم انتهى بالقبول مع إصرار شاذلي بن جديد، وتمكنت بعدها من البقاء في الفيلق الثّالث عشر.

فيما بعد لعبت جاذبية الأقوياء دورا في الفيلق الحادي عشر. كان ترخوش شابا ويبدو في بعض الأحيان غير ناضج، غير أنه كان محاربا بارعا. بفضل قدوته ومثابرته أصبح الفيلق الحادي عشر أحد أهم وحدات جيش التّحرير الوطني. استشهد على رأس هذا الفيلق ببسالة مع أحد قادة كتائبه شلبي محمد الشريف. فلقد أبلى رجال الفيلق الحادي عشر تحت قيادة أحمد ترخوش بلاء حسنا وبرزوا خلال عمليات لا تعد ولا تحصى.

4. نفّذت محاولة عبور كبيرة من قبل العقيد الحاج لخضر عبيد من الولاية الأولى، تحت حماية فيلق بقيادة بن عباس غزيل ومُجهَّز بمجموعة أسلحة مدفعية خفيفة. إلى ذلك فقد لاحظ بن عباس غزيل بسرعة المتمرس أنه من المستحيل تخطي دفاعات الحواجز والوصول إلى الأوراس بهكذا موكب. للأسف لم تنجح محاولة العبور.

التحقت بجبل الفدان المطل على قرية يوسوف (عين العسل مستقبلا). هذا الجبل الّذي كان من الصعب السيطرة عليه ؛ لأنه كان يشكل جزءًا من القطاع العملياتي للفيلق الثّالث عشر. كان ينزل على شكلّ منحدر حتّى خط شالّ على عمق يصل إلى حوالي خمسة وعشرين كيلومترا. كان يبرز شكلّين مختلفين في تكوينه : أحدهما مغطّى بشجر غير قابل للاشتعال يقاوم العابل (مُسقِط ورق الشجر) الّذي كان يرشّه الطّيران الفرنسي والآخر معرّى مقطوع بوادي المكسة (أصبح اليوم موقع سد) حيث يجري نهر بوقوس. وفي هذه الأثناء كان مركز قيادة الفيلق لا يزال متنقلا. كما أن الكتيبة الثقيلة كانت تنتشر على الحدود الشمالية للغابة. احتلت كتائب المشاة الثلاث هذه التخوم الشمالية، بمواجهة الخط المحدود من الشمال بمزرعة شلوفي، ومن اليمين بجبل الحمراء. أما الفيلق الرّابع والعشرون التابع لعلي بوحجة المدعو فلفلي والفيلق الحادي عشر بقيادة أحمد ترخوش فقد تمركزا على التوالي على يسارنا وعلى يميننا.

عند المساء، اجتمعنا في مركز قيادة الفيلق مع مجموع قادة الكتائب لدراسة أفضل المراكز الّتي يمكن الهجوم عليها وتحديد دور كلّ كتيبة. وقد تركت حرّية التّصرف للكتائب كي تقود حرب الإنّهاك ونصب الكمائن على أن تؤمّن التنسيق فيما بينها أثناء العمل. كانت مبادرة الهجوم على المراكز خاضعة دوما لأوامر هيئة أركان الفيلق الّتي تقوم بإدخال الكتيبة الثقيلة الّتي ترتبط بها عضويا وتستخدم وسائل عدة كتائب في الوقت نفسه. وكانت الكتائب التابعة لنا تعرف جيدا أن فعالية الجيران من جهة اليسار ومن جهة اليمين مرتبطة بمدى السيطرة على المنطقة الّتي تشغلها. من المحتمل أننا كنا معتدّين نوعا ما بأنفسنا، لكننا هكذا كنا نتبختر متباهين عندما كنا نقرّر أن نفي بوعدنا على حساب حياتنا الّتي نجازف بها.

وبما أن الاجتماع استمر حتّى وقت متأخر، دعونا قادة الكتائب لقضاء الليلة في مركز القيادة. وفي ساعات الصباح الأولى، أيقظنا ضابط اتصال وأعلمنا بوجود للعدو على ضواحي تلال المكسة. إذاً فلقد كانت الكتائب التابعة لنا على تماس مع العدو وكان على قادتها أن يسرعوا للالتحاق بها. وطلبت من أحمد زمولي أن يتحرك إلى الأمام مع مجموعة آليات الكتيبة الرّابعة إلى نقطة أحددها له، وأن ينتظرني الوقت الكافي كي أقوم بمجموعة من الترتيبات. عند وصولي إلى المكان المحدد لم أجد زمولي ولا حتّى الكتيبة الثقيلة. فقد اتخذ مبادرة المتابعة إلى أبعد من ذلك مع الأسلحة الثقيلة لكي يساند وحدات المشاة التابعة لنا. عندها قرّرت اللحاق به لكن بنوع من القلق، لأن تدخل الوسائل الثقيلة مفروض عليّ. أثناء الطريق، في الوقت الّذي كان الطّيران يحلق فوقنا، من ضمنها مروحيات، أدركت أن المدافع من عيار 12.7 ملم و7.62 ملم كانت متمركزة هنا وهناك على عجل. وكان النار يطلق من مدافعنا ومن رشاشاتنا الأخرى وتدوّي من بعيد. كان هذا اشتباكا. كما أن الأسلحة المضادة للطّيران التابعة لي والّتي كانت مركزة بهذا الشكل لم تجدِ أي نفع. عندها اضطررت إلى الصعود إلى إحدى القمم لكي أتمكن من مراقبة

ما يحدث. وفجأة لمع في السماء دويّ قوي واقترب صوته منّي. في البداية لم أكن أفهم ما يدور من حولي، وبعدها لمحت على ارتفاع جبل أم علي على قمة يطلق عليها اسم « الركن » سربا من تسع مروحيات نقل من نوع « موزة » تواكبها طائرتيْ « سيكورسكي » للاستطلاع والهجوم. اتجهت المروحيات عموديا إلى مركز الاشتباك. عندها أدركت خطورة الوضع. كنا نهاجم الجناح الأيسر لعملية كانت تقام ضدّ الفيلق الرّابع والعشرين. أما الفرنسيون فقد أرادوا على الأرجح استغلال إعادة تنظيم تشكيلاتنا لكي يقضوا على وحدات اعتبروها جديدة في القطاع.

حطَّت المروحيات الّتي ترشدها أجهزة الاستطلاع والدعم بشكل يمكنها أن تنال، من الخلف، من بعض وحداتنا. كان القتال ضاريا. وتدخلت الطائرات ومروحيات الهجوم دون توقف. دفعت الخسائر الّتي تكبدتها قوّات العدو نتيجة الضربات المتواصلة الّتي وجهتها ثلاث كتائب تابعة لنا، القائد الفرنسي إلى طلب النجدة من وحدات النخبة : المظليين وجنود اللفيف الأجنبي. طُوِّقت إحدى فصائلنا فاستولى الفرنسيون على مدفع رشاش لنا من طراز MG 45 قتل مستخدمه وتم أسر رقيب أول جريح. عند هبوط الليل، التقيت بالملازم الأول زمولي الّذي دُفع إلى التراجع وبدت على وجهه علامات استياء من عدم احترام تعليماتي وعلامات القلق لتركه مدفعاً غير مرتدّ من عيار 57 ملم في الأدغال. طرحت عليه بعض الأسئلة المتعلقة بالمدفع. قال لي إنّه فعل المستحيل حتّى لا يكتشفه العدو. قرّرت عدم التكلم حتّى لا أزيد من معاناته. يكفيه ما عاناه من تأنيب الضمير.

بعد الاتصالات الّتي قمنا بها مع الكتائب الأخرى التابعة لنا، اتضح لنا أن وحدات العدوّ الّتي تدخلت كان معظمها من المرتزقة. والاستعدادات الّتي تفرغتْ لها أظهرت أنها هيأت المكان حتّى تمر به في الليل. ومن هنا استنتجت أنها ستحاول ليلا شن هجوم قبل طلوع النهار. على كلّ حال فإنّ « عملية التمشيط » كانت في أوجها وستعاود بالتأكيد فجر اليوم التّالي. عندها طلبت من عناصر الوحدات أن ينصبوا الكمائن على كلّ الطرقات المؤدية إلى خط قمة جبل الفدان.

عند منتصف الليل، تفاعلت كمائننا مع تقدم الجنود الفرنسيين. وقد عاد معظمهم أدراجهم باستثناء جنود الفرق الأجنبية الّذين حاولوا متابعة تقدمهم. في الصباح الباكر بعد الضربات الجوية وقصف المدافع، حصل تداخل بين الأصدقاء والأعداء ولم نعد نعرف من هذا ومن ذاك. قائد كتيبة فيزاري عبد الله الملقب « بلاندان » لم يعد يميّز بين وحداته ووحدات العدو، وقد دخل حيث لا يجب أن يدخل وتمكَّن من التراجع... وتسع رصاصات في جسمه ! ولحسن الحظ لم يصب أي عضو حيوي فيه. لقد سبق وأن أصيب فيزاري في العام 1957 برصاصة في رأسه. ويا لسخرية القدر، فإنّ هذه الرصاصة الوحيدة الّتي بقيت في جمجمته قد أودت بحياته بعد مضي أربع سنوات مسببة له نزيفا في الدماغ.

حصلت المعركة الأخيرة في مركز القيادة نفسها التابعة للكتيبة الأولى والّتي اجتاحها جنود الفرقة الأجنبية الّذين لم يتراجعوا إلا بعدما رأوا وصول إمداداتنا. بعد يومين متتاليين

من الاشتباكات، خفت الانتصارات الفرنسية. افتقدنا الذخيرة لأنَ المعارك كانت طاحنة. وبعد يومين، عاد زمولي منتصراً يحمل بيده سلاحه من عيار 57 ملم[5].

كلّفتني القيادة العامة للأركان بقيادة أول كتيبة ناحية مجهزة بالأسلحة الثقيلة. عندها غادرت الفيلق الثّالث عشر وفي قلبي غصة ونوع من التخوف تاركا ورائي زملاء أعزاء على قلبي.

تعتبر هذه الكتيبة بمعداتها الضخمة أول كتيبة تمّ تجهيزها. وكان دورها دعم ثلاث كتائب من المشاة في آن واحد. وقد شجعت فعالية هذه الكتيبة هيئة الأركان العامة على إنشاء كتائب أخرى بحيث وصل عددها إلى سبع عند وقف إطلاق النار الّذي أعلن في التّاسع عشر من شهر مارس 1962. ويظهر اعتمادنا على الوسائل المتطورة، المستمر بالتحسّن، أن الرّجال الّذين يقودون جيش التّحرير الوطني لم يخدعونا أبداً.

إلى ذلك أنجز مركز التدريب في ملاّق، وعلى رأسه النقيب بن عبد المومن، عملا جبارا. يعمل الضبّاطالمعينون في المركز إضافة إلى أساتذة الحربية، دون توقف ويدرّسون كافة المواد اللازمة ويشاركون في تشكيل الوحدات. إنّ ارتقاء قوّاتنا بسرعة مدين لهؤلاء المسؤولين.

بقيت عدة أيام في ملاّق وهو الوقت اللازم للتعرّف على وحدتي الجديدة وعلى تعلُّم استعمال كافة أنواع الأسلحة المجهزة بها، إضافة إلى المشاركة في دورات رماية. أما الأسلحة الثقيلة فقد نُقلت بواسطة شاحنات إلى مكان تعييني. قمت من جهتي بمسيرة على الأقدام على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى قربتني من المكان، والمرحلة الثّانية أوصلتني إلى وادي مليز، أما المرحلة الثّالثة فقادتني إلى الوحدة الجديدة الّتي أنتمي إليها والمتموضعة بين جبل عديسة وجبل الفدان، وهي في منتصف الطريق ما بين تمركز الفيلق الثّالث عشر والفيلق الخامس والعشرين اللذين يقودهما عبد القادر عبد اللاوي ويوسف بوبير. جهّزت بسرعة المكان الّذي يجب أن تخيِّم فيه كتيبتي. كانت غابات السنديان الجميلة كثيفة جداً وزوّدتني بالمواد الأولية لبناء تخشيبات صغيرة. استخدمت جذوع الأشجار المقطوعة لبناء الجدران، على شكلّ إسبة [مسكن خشبي يسكنه فلاح روسيّ]. أما سقف المنزل فقد صنعته من القش اليابس بشكل يضمن عزلا محكما. حرصت على بعثرة هذا المعسكر نصف المطمور في الأحراش. وساعد رجالي اللاجئون الجزائريون ومعظمهم فلاحون برعوا في بناء « الأكواخ ».

يكمن دور هذه الكتيبة الثقيلة الّتي وضعتها للتو في دعم الفيالق في عملياتها عند الطلب. إلى ذلك فقد عيَّنت مسؤولاً عن كلّ مهمّة وتوليت مرافقته بنفسي. وهكذا قمت بجولة على الكتيبة كلّها لأقدّر بعيني درجة الاحتراف عند الرّجال. قامت كتيبتي بدعم الفيالق الأخرى الّتي تتولى مهماتها وكأنها تشكل جزءاً مباشراً من فعالياتها. وفي هذا الخصوص كانت تعليماتي صارمة

5. خلال هذه الاشتباكات أصيب أخ كريم بلقاسم بجراح مميتة من النابالم. يعد من كبار المحروقين الّذين سلّمتهم جبهة التّحرير الوطني إلى الصليب الأحمر الدولي عندما وصل وفد منه للإطلاع عن حقائق هذه الحرب الّتي تحاول السّلطة الاستعمارية إخفاءها.

ولا تقبل أي عذر. كنت أصر على أن يكون تصرف الرّجال مثالياً وخاصة أثناء المعركة. وبهدف تفادي أي التباس، وضعت لهم معايير محدّدة لاستخدام الذخائر وفق كلّ نوع عمل. فقسم منها يجب أن يستخدم أثناء المعركة أما القسم الآخر فيبقى في الاحتياط لتأمين التراجع. أمّا الفرق الّتي كانت تعود بإمدادات من ذخائر غير مستخدمة خلال المواجهات فيجب بالتّالي أن تطلقها عن كثب على مراكز فرنسية. إنّ هذه المبالغة في السير في أرض وعرة الّذي أرغمهم عليه وبالتّالي هذا الخطر الّذي يتعرضون له هو بمثابة عقوبة لعدم تنفيذ الأوامر. فعندما نقدم العون للآخرين يجب أن نكون آخر من يخرج من ساحة المعركة. وأول كتيبة ثقيلة في المقاطعة الشمالية، كان يضرب بها المثل، ويستنجد بها دوما.

علامات الآخرة

القسم الأكبر من محاولة عبد القادر عبد اللاوي ويزيد بن يزّار (من الولاية الثّانية) وحدادي عبد النور لعبور الخط كان من ترتيب عبد النور، الّذي خلفني في فيلق المشاة الثّالث عشر، وهو رجل يتمتع بخبرة فائقة. أما يزيد بن يزّار الّذي تردد عدة مرات في عبور الحاجز المعزَّز فكان يريد انتهاز فرصة إرساله في مهمّة بين الخطين كي يحاول العودة إلى ولايته الأصلية.

بالرغم من زيارات يزيد بن يزّار العديدة إلى النّاحية الأولى الّتي كنت نائب قائدها، فإنّي لم ألمحه سوى مرات قليلة. أذكره رجلاً متوسط القامة وله عيناه زرقاوان وشعره أشقر. كنت أعرف أنه يبحث عن فرصة لعبور الخط لكنه يريد أن يعبره بخطى أكيدة. وبحثه هذا عن فرصة لدخول الجزائر يعبر عن الضيق النفسي إزاء المنفى الّذي يشعر به الكثير من المجاهدين الّذين أبعدوا عن وطنهم رغما عنهم. كان عندي انطباع بأنه يتفاداني. وشعرت بأنه يخشى أن يسقط أمام شروط عمل كتيبتي الصعبة : الدوامات وطول المراحل وقطاعات الانتظار وممرات العبور وجولات تقطع الأنفاس، وكلّفة تدفع عند كلّ قسم من « المتاهة ». وكانت طريقتي – الّتي ليس فيها لف ولا دوران – في مقاربة « الأمور » تثير البشرات الحساسة. فحدقيتا يزيد لم تخلقا للنظر في حقيقة العقبات، كما أن يديه لم تخلقا لحمل الـ « 303 » ولا حتّى فقرات ظهره الهزيلة كانت تقوى على متاع الرحالة. كان بن يزّار مثقّفا رقيقا تائها خارج سربه. كان مرتبطا بعبد النور الّذي يقدّر فيه الأمان الهادئ. وما لم يره – أو ما لم يرد أن يراه – هو أن هذا الأمان لم يكن ضمان نجاح المشروع المخطط الّذي يخطط له هو، إنّما سلام نفس رجل لا يهاب الموت.

وتم درس عدة نقاط عبور محتملة قبل اختيار ضواحي بلدة يوسوف (عين العسل). حسب عبد النور فإنّ المكان لديه ميزتان : أولا عامل المفاجأة، لأن هذه هي المرّة الأولى الّتي يُستخدم فيها هذا المكان. وثانيا، إنّها منطقة غابية قريبة من الخط وتؤمن التغطية للجنود بعدما يخترق الحاجز. وتمركز عدد من عناصر الفيلق الثّالث عشر المدعوم من قسم من كتيبة المدرعات التابعة

لي على جانبي نقطة العبور كي يحاولوا ردع كلّ عملية تدخل معاكسة. وهكذا فإنّ عملية العبور قد تمت بكلّ دقة. أما الوحدات المحمية من النّواحي كافة، فقد فتحت ثغرات في أماكن تشابك الحواجز، باستخدام عبوات متفجرة طويلة تسمى « البنغالور » وكانت تقذف تحت الأسلاك الشائكة. كانت هذه المتفجرات كفيلة بتدمير الأسلاك الشائكة والألغام وبفتح حفرة يصل عرضها إلى حوالي النصف متر، ولكنها كانت تنذر للأسف قوّات العدو المتمركزة ربما في المحيط القريب. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الفجوات الّتي سببتها « البنغالور » كانت كافية لمرور طابور من الأشخاص دون أي خطر. تم قطع السلك المكهرب، في نهاية المطاف، بهدف تفادي خطر التكهرب. وألقيت هذه المهمّة على عاتق القصّاصين الّذين كانوا يعرفون كيف يقطعون الأسلاك المحمَّلة بقوة كهربائية تفوق الخمسة آلاف فولت. كما تم تكلّيف عناصر مجهزة بكامل عدة الكهرباء بتثبيت الأسلاك الّتي بعدما قطعت تذهب في كلّ الاتجاهات كالزواحف المجنونة الّتي تقذف نيراناً زرقاء. كان الرّجال يضعون حول خصورهم عبوات أخرى من نوع البنغالور اللينة، الّتي يمكن أن يستعينوا بها في كلّ مرّة يتعرضون فيها لعائق معين. وكان عمق شبكات الأسلاك الشائكة متفاوتاً بين نقطة وأخرى من الخط.

في بادئ الأمر بدأ العبور وكأنه يسير بشكل طبيعي، إلا أن عناصرنا الّذين توغلوا في عمق تشكيلات العدو فوجئوا بإطلاق نار مدفعي من متاريس متمركزة في الخلف لم تكشف عندما قام رجالنا بجولاتهم الاستطلاعية. كان الرصاص الخطاط شبيهاًبجمر ملتهب حوّل حقل الألغام إلى مشواة حيث يُكنِّس ويُحَّرك جمرُ الأجساد، ويعيد بسرعة فائقة أولئك الّذين ما زالوا سالمين ولم يكن باستطاعتهم في اللحظة السابقة أن يخطوا خطوة واحدة. في هذه الأثناء أراد حدادي أن يضع رجاله في مأمن فأمرهم بأن يركضوا باتجاه الغابة المجاورة وذلك بدون التفكير بالخطر الّذي يتعرضون له في حال وقعوا في حقل ألغام. لكن هل كان عنده الخيار فعلاً ؟[6] الحيرة مطلقة هنا. من لم يذهب يوماً إلى حقل ألغام لا يمكنه أن يتخيل الذعر الّذي يشعر به من يرى لغماً ينفجر تحت قدم زميله ويسمع صراخ الألم الفظيع ينطلق من حنجرة المصاب. وفجأة انقشعت الظلمة واحمرت السماء. لقد انفجرت الألغام الواحد بعد الآخر، كلما كانت أقدام الرّجال تقع عليها. إلا أن المستغرب هو أن التفجيرات قد خفّت. كانت تشبه صدمات طرشاء. كنا نرى ظلالا تركض بشكل مستقيم أمامنا تبدو وكأنها تستسلم لمزاجات غريبة الأطوار أو تَنُطُّ على رجل واحدة وتحوم ومن ثم تنهار. ما إنّ تصطدم القدم بأسلاك الجذب المرتبطة بنظام تفجير بعض الألغام المسماة « القافزة » حتّى تندفع هذه الأخيرة بواسطة ذخيرة تنفجر عند مستوى جذع الإنسان. إنّ قياس اللغم هو حوالي 20/15 سنتم مليء بالخردق يحمل معه عندما ينفجر ذراعا أوساقًا أو جزء كبيرا من الجسم. وهنا لا فعالية لسلاح الدعم. أفشلت هذه المفاجأة الدموية محاولة

6. فجّر الفرنسيون حقل الألغام في اللحظة الّتي دخله فوج المقدمة المؤلف من أربعين جنديا.

العبور. وقد استشهد ثلاثة عشر جنديا بينهم مسؤولون أساسيون في العملية، منهم : عبد النور والأصنامي إضافة إلى سيّئ الحظ يزيد بن يزّار. لقد أصيب كثيرون بجراح وأسر عدد كبير منهم. واضطر قائد الفصيل عبد اللاوي الّذي كان وسط الرتل وأصيب بجراح، أن يعود أدراجه مع قسم من عديد قوّاته.

أقيم نصب تذكاري يخلّد بطولاتهم في نفس المكان الّذي سقطوا فيه.

بين أولئك الأبطال الّذين استشهدوا في تلك الليلة يوجد اثنان من زملائي وأصدقائي. عبد النور والأصنامي المفعمان بالشجاعة والجرأة وقد أصيبا بعدد كبير من الشظايا وأثّرا في كلّ من رآهما وعرفهما. اشترك عبد النور في حرب الهند الصينية، وكان إضافة إلى ذلك محبوبا من رجاله لنفسيته الطيبة وروحه المرحة. عاد سليما من أدغال الهند الصينية ومعه (فقط حتّى لا ننسى) ابتسامة من عيار « ثمانية عشر قِراطاً ». غير أن إشراقة ابتسامته، بالنسبة لنا، غير مرتبطة بالذهب، فقلبه هو الّذي يعبّر عن هذه الابتسامات.

تلقى الأصنامي قبل أن يلقى حتفه إنذارا بالموت. أما أنا فقد حصل معي الشيء نفسه وأحسست أن خطرا ما يدنو منّي، غير أنني قمت بالتّصرف المناسب كي أمنع حدوثه. ترى هل أن من يعيش دوما على حافة الموت وحواسه متيقظة على الدوام يتولّد لديه نوع من الحاسة السادسة في النهاية ؟ ربما... خلال توجهنا نحو أماكن الحدث، نرى علامات الموت على وجوه بعض الرّجال. فمن لاحظ بيننا هذه الظاهرة غير العادية، ينظر إلى نفسه نظرة متوجسة. في نهاية المعركة نلاحظ وبخوف أن هذا السواد حول العينين وهذا اللون العاجي للوجه اللذين لاحظناهما كانا من علامات الآخرة.

كنت ما زلت مسؤولا عن كتيبة الأسلحة الثقيلة الأولى للنّاحية عندما قمنا بالتعاون مع الفيلق الثّالث عشر بهجوم على مركز الصابونة العسكري، الواقع على جسر مهم جدا بالنسبة لقوّات « الهرس » (قوّات مصفحة للاستطلاع وتمشيط الخط المكهرب). يشكل هذا المركز الّذي لفت انتباهي عندما كنت مساعدا لقائد الفيلق، جزء من تشكيلات الدّفاع في قرية الطارف. يشكل بنيرانه، وسط الطريق المؤدية إلى رمل السوق ووادي اللبن، نقطة دعم مهمّة بالنسبة لقواعد العدو المجاورة.

شكّلنا ثلاثة تكتلات صغيرة. واحدة كانت تحت إمرة أحمد غيدوشي وكانت مسؤولة عن شن الهجوم على صابونة، والأخريان سُلِّمَت قيادتهما تدريجيا إلى كلّ من عبد الله سناني (كتيبة الأسلحة الثقيلة للنّاحية الأولى) وإلى فيزاري المدعو بلندان (من الفيلق الثّالث عشر)، وكانت مهمّتهما خلق انسدادات من الجهتين. ويعتبر هذان الرجلان أفضل من يمكن أن نجده لمثل هذا العمل. (نذكر أن فيزاري قد أصيب بتسع رصاصات في جسده خلال اشتباك جبل الفدّان). تابعت برفقة قائد الفيلق عبد اللاوي ومعاونه العسكري تامر قدور المدعو بوحرارة

سير الأحداث، معيرا اهتماما خاصا للمعركة الّتي كان تدور رحاها في جسر صابونة، وذلك نظرا لأهميته الاستراتيجية وللوسائل العديدة المستخدمة فيها.

عندما كنّا متمركزين من جهة جبل تسعيد عند النقطة 157، كان بحوزتنا جهاز راديو (V.H.F.)، هو واحد من عشر أجهزة كانت هيئة الأركان قد أرسلتها إلينا على سبيل التجربة. وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذه الأجهزة كانت سهلة الاستعمال وهي من وزن خمسة وستة كيلوغرامات تحمل على الصدر، وتسمح بالتقاط اتصالات العدو على بُعْدِ حوالي خمسة كيلومترات من جميع الجهات. وقبل بدء العملية بدأت أبحث عن الموجة الّتي يستخدمها الجنود الفرنسيون. إنّها لعبة ! الموجات مضبوطة مسبقا. عندها توقفت عند موجة، تبدو لي هي الصحيحة. انتظرنا. وكلما اقتربت ساعة التنفيذ كلما ازداد قلقنا وأصبح التوتر يسيطر على زملائي. كلٌّ كان يواجه الوضع حسب طاقته. وكنت كي « أقتل » الوقت عادة عند مواجهة العدو، أدخِّن بالسرِّ سيجارة تلو الأخرى، وحتّى لا تفضحني نار سيجارتي، كنت أضع عند مواجهة العدو غطاء على رأسي أو احتمي وراء حاجز في المنطقة. عند إطلاق النار تزول الرغبة بالتدخين – القلق – وتحلُّ مكانها ردة الفعل الطبيعية للمحارب أثناء المعركة.

كان هناك سؤال واحد يشغل بالنا : « هل سينجح رجالنا في الاستيلاء على المركز ؟ وهل سيتكبدون الخسائر ؟ » بعد نصف ساعة، توقف إطلاق النار على صابونة ورمل السوق. وحدها المدفعيّة تابعت القصف. ساد الهدوء المطلق من ناحية الكمين المغلق الموضوع إلى جنوب ويسار الجسر. نتيجة الخبرة كنا نستعرض المعركة ونتابع ردات فعل رجالنا، عمليّاً خطوة بخطوة. وكان القصف المدفعي يتقطّع أكثر فأكثر.

فجأة سمعنا صوتا عبر جهاز الراديو، إنّه صوت جندي فار من صابونة. كان على اتصال بمركز جبل تسعيد. فهمنا فيما بعد ما كان يقول عندما أرسل هذا الأخير إمدادات إلى صابونة. كان الجندي الّذي كان يتكلم عبر جهاز الراديو مضطربا ويطلب أن تُحَدَّد له فتحة حقل الألغام حتّى يصل إلى مجموعته. لكن عندما تأخر الرد بالوصول إليه أجهش بالبكاء. أدلّنا يأس « الجندي » بنجاح الهجوم. فأُخذنا بنوع من الغبطة عندما فهمنا أن غيدوشي قد نجح في تحقيق هدفه. وفي اللحظة نفسها. لمحنا غليانا في تسعيد. إنّها عربات وآليات مصفحة تتحضر. وسُمع صوت حاسم يأمر قائد القافلة بالتوجه إلى صابونة لرؤية ما يحدث. وعلى ما يبدو فإنّ الجندي المضطرب لم يلتحق بهم بعد ولم ينقل إليهم تقريراً واضحاً عن الوضع. وتلقى القائد الّذي كان على رأس الرتل والّذي ذهب لنجدة صابونة، التوصية الأخيرة بأن يحترس : « انتبه وشوف مليح في الزاوية ! » (اللفظة شوف دخلت في مفردات اللغة الفرنسية منذ حرب الجزائر، وتعني « راقب » وأيضا خفير « فلاقة » وأيضا « مرصد »، عندما تكون مسبوقة بأل التعريف). كنا نخشى على فيزاري ووحدته ونتمنى أن يكونوا في طريق العودة بما أنّهم أنجزوا العمل الّذين ينوون إنجازه.

تابعنا بنظراتنا أنوار أربع مركبات تسير على طريق شعبة الكْرامسة للوصول إلى طريق رمل السوق. إلا أننا لم نكن نتوقع أن يكون فيزاري في مكانه كما أننا لم نكن ننتظر أي ردة فعل من جهته. وما إنّ دخلت المركبات الأربع الطريق حتّى فاجأنا دوي انفجارات متتالية. فهذه النيران المفاجئة، الّتي جاءت تقدم الدعم للمدافعين عن المركز الّذي اجتاحه غيدوشي، كانت كثيفة وقصيرة. اشتعلت العربات الأربع الّتي وقعت في الكمين في الوقت نفسه. أما فيزاري فقد تحلى بسرعة الخاطر وبرباطة الجأش حتّى لا يتراجع على الفور. كان يعرف جيداً كونه كان الأقرب إلى مركز الهجوم الأساسي أن هذا الهجوم قد نجح وتوقع أن يسرع العدو بإرسال الإمدادات. غير أنه عندما رأى التحضيرات على قمة تساعيد فهم أن عليه أن ينتظر مكانه. عندئذ، أمر جنوده بإعادة احتلال الأماكن الّتي كانوا قد غادروها منذ لحظة وفقاً لتعليماته. وما إنّ اقتربت الآليات حتّى أصبحت ردة فعله مخيفة : ظهرت أمامه ثلاث آليات استطلاع مصفحة ذات عجلات (EBR) إضافة إلى مركبة نصف مجنزرة. الآلية الأولى قفزت على اللغميْن المضادين للآليات الّتي رميت مباشرة على الزفت تحت العربات، أما الاثنتان الأُخريان فقد أصيبتا بالقذائف الجوفاء. والآلية المجنزرة تلقت قذيفة من عيار 57 ملم. وهكذا دُمِّرت المركبات المصفحة الثلاث الّتي كان على متن كلّ واحدة منها خمسة رجال لم يتمكنوا من الخروج وماتوا حرقاً. ووقع الرّجال الثمانية في المركبة النصف مجنزرة تحت رماية السلاح الفردي التابع لرجال فيزاري. تمكن جندي واحد من النجاة واستسلم للأسر. كان متأثرا ومتألما مِمَّا حدث وكان يردد كالمخبول : « لقد احترقوا جميعهم ! لقد احترقوا جميعهم ! » عندها أعطيته ماء كي يشرب وحاولت تهدئته مردِّدا أنه لا يفترض به أن يخاف منا.

المدفعيّ ذو قبرين

من كلّ معارك الاستنزاف الّتي خضناها ضد قوّات العدو، والّتي يلعب فيها صبر المجاهدين وتحضيرهم دورا بارزاً أذكر معركة تمتاز عن بقيتها بنتائجها والوسائل المستخدمة فيها : وهي معركة جبل الحمراء الّذي شهد تعبئة فيلقين من المشاة : الفيلق الثّالث عشر تحت إمرة القائد محمد سلمون خلَف عبد اللاوي المُصاب، والفيلق الخامس والعشرون تحت إمرة القائد يوسف بوبير. وتكلّفت كتيبة النّاحية الثقيلة الأولى بالدعم وهي الّتي تملك مجموعة من الأسلحة (ست مدافع من عيار 75 ملم وست أخرى عيار 82 ملم وست رشاشات من عيار 12/7 ملم و12 رشاشاً 7/62 ملم و12 قاذفة صواريخ مُضادة للدروع).

كنت أؤمن القيادة والتنسيق مع المجموعة المشكَّلة. وكانت منطقة العملية للمجموعات الصغيرة محصورة بين رمل السوق ومشتة الحمراء وهي جبهة تصل إلى حوالي الثمانية كيلومترات. وكان من المفترض أن تدوم العملية ثلاثة أيام. وهكذا فقد تم توقيف تمفصل القوّات. قسّم

الفيلقان المنقسمان إلى ثلاث تشكيلات، بدورها إلى عدد من الفصائل، تتناسب مع عدد المراكز الّتي سنهاجمها في آن واحد. وتم توزيع تدخلات القوى كلّ واحدة في ليلة. إلا أن الرشاشات الثقيلة التابعة لكتيبة النّاحية الثقيلة كان يجب أن تُستخدم في منطقة « بلاد الشعالة » منذ اليوم الأول على أن تبقى متمركزة على طول خط العملية لتغطية وحدات المشاة وتحييد الطّيران، وفي الليل. يستريح الرّجال في الوقت الّذي يكون فيه الطّيران مجبرا على توقيف نشاطه.

بعد « اجتماع تعليمات » واضح ومختصر ومحدد مع قادة الفيالق، استعادت الفصائل بفضل الظلمة مراكزها مقابل أهدافها المحدّدة. وخلال النصف الثّاني من الليل أعدتُ القطع المضادة للطائرات إلى مكانها. في طريقي التقيت برتل عائد من عملية. كانوا ينقلون بعض الجرحى ومن بينهم حركي أُصيب برصاصة في بطنه. كان لا يرى بوضوح بسبب الألم وكان يصرخ من شدة الغضب : « أرأيت ماذا فعل بنا هؤلاء الفلاقة القذرين مساء أمس ! ».

بعدما انتهيت من أخذ مكاني قمت عند طلوع النهار بجولة استكشاف حتّى الطريق المؤدية من رمل السوق إلى الحمراء. عندها اكتشفت ساحة معركة حقيقية : هيكل دبابة ما زال يدخِّن وسط الأسلاك الشائكة. كما أنني رأيت آثار جنازير عند الجهة السفلى من التلّة تُظهر أن الآلية تركت الطريق المعبدة حيث أصيبت غير مكترثة بأي شيء. وهنا وهناك كنت ألحظ بقعا من الشحم وبقعا سوداء تدل على الأمكنة الّتي احترقت فيها الآليات. أما هياكل الآليات – حفاظاً على معنويات المدنيّين الفرنسيين – فقد تم رفعها بسرعة. وبعد وقت قليل، علمت كيف أن بوحرارة الّذي تحصّن في حفرة قريبة ومعه قاذفتا صواريخ، مواجها الموقف بشجاعة، تقدم إلى وسط الطريق معطيا إشارة إلى دبابة لتتوقف. أما جنود الدّبابات الّذين اكتشفوا في الحزمة الضوئية لمصابيحهم شبحا واقفا وسط الطريق المرصوف ظنّا منهم أنّهم في مواجهة عنصر صديق، توقفوا بسرعة. انفجرت الدبابة قبل أن يدرك ركابها ماذا يحل بهم. راحت المدرّعة، وقد فقدت التحكم، تتأرجح في الحفرة وكادت أن تدهس غيدوشي الّذي كان مترصدا في مكان قريب مع سلاحه من عيار 57 ملم. غيدوشي الّذي فر من الحريق رمى بنفسه في دشمة معتقداً أنها خالية... فوجد نفسه في مواجهة وجها لوجه مع ثلاثة جنود فرنسيين متكوّرين الواحد بجانب الآخر. لم يفقد غيدوشي برودة أعصابه. استغل اللبس الّذي أحدثه مظهره وأطلق وابلا من الرصاص على كلّ ما كان يتحرك، ثمَّ قفز إلى الخارج.

عندما كان الرّجال يروون الإنجاز الجنوبي الّذي قام به بوحرارة. مرت بذاكرتي صورة كالبرق : صورة لصياد طرائد كبيرة من الأوراس أخبرتني عنه جدتي، تحدى ذات يوم بمفرده، أسداً إذ أمسكه بأذنيه...

حدقت في بوحرارة المدهش، فقلت في نفسي إنّ في الأساطير دائما شيئا من الحقيقة.

التحقت من جديد بتشكيلتنا الجديدة التابعة للدّفاع المضاد للطيران، عندها بدأنا نسمع هدير محركات طائرات. وظهرت أول مجموعة مؤلفة من ست طائرات « تي 28 »، اثنتان منها كانتا تحلقان فوق الطريق، ربما لمراقبة الخسائر الّتي حصلت في المعركة خلال الليل، بينما

كان الأربع الأخريات تهاجم على جزء من رشاشاتنا الّتي بدأت تفرقع. وفي ما بعد، لحقت بها الطائرات الأخرى. وبدأ السرب وعلى رأسه القائد ينقضّ علينا. ودامت تشكيلة الطائرات حوالي عشر دقائق، ثم فجأة، انقضت إحداها ولم ترتفع. مالت قليلاً نحو الجناح وأخذت تهبط مُدوّمة فوق فرجة الغابة بقرب رمل السوق. خطّان أبيضان في السماء. انفجرت الطّائرة عند ملامسة الأرض واشتعلت. كان مكان السقوط قريباً وأسرعنا إلى المكان على أمل أسر الطيّارين. غير أن المروحيات كانت أسرع منا. أما الطائرات الباقية فقد كانت تحوم على الارتفاع نفسه فوق مراكزنا وتواصل قصفها دون التأثير علينا. أربع طائرات من طراز « بي 26 » وصلت لتقديم الإغاثة. إنّ هذه البوينغ الّتي كانت مجهزة بصواريخ تحت أجنحتها، وأربعة رشاشات من عيار 7/12 في الأمام وأربعة أخرى في الوراء وكانت واثقة من تصفيحها، تحلِّق على مستوى رؤوس الأشجار تبعث الغاز وتقوم باستعراض بهلواني وهي تطلق النار، وتنقض من جديد متابعة إطلاق النار. فمن عاش تحت نيران هذه القلاع الطّائرة يمكنه معرفة هذه الحالة المقلقة. هذا أقل ما بمقدورنا أن نكتب عن وضعنا. كانت رماياتنا تزداد كثافة ودقة. وظهرت شرارات صغيرة عابرة تلمع تحت بطنها القصديري. كنا نسعى لإصابة واحدة منها على الأقل.

وبسبب نقص الذخيرة (أو الوقود) كانت طائرات « بي 26 » تُخلي السماء لأربع طائرات سبيتفاير. كما أن كثافة طلقاتنا كانت تُجبر « نافثات النيران » على الارتفاع. انتهزت التعقل الزائد والمفاجئ لبهلوانيي السماء، انتقلت لأعاين القطع. انقضت عليَّ طائرتان، محركاهما متوقفان، وأسقطتا صواريخهما ثم عادتا تنفث الغاز. يعود الفضل بخلاصي لحساسية أذنيَّ. تجنبّت شظايا صاروخين وارتميت، في اللحظة الأخيرة، في علّيق الوزال الّذي يحيط بالساحة. أنا الحساس تجاه جمال هذه الجنبة، اكتشفت نفسي في هذا اليوم، أكثر حساسية للشوك حول الأزهار العطرة. وقفت مخدشا مثل قط متوحش وأرغي وأزبد لفقداني قبعتي. كنت، بالرغم من كلّ شيء، وجدت ما يعزيني عن خيباتي الصغيرة وعن نظرة رجالي المتسلِّين برؤية قائدهم عاري الرأس مُشعّث الشعر في أنني أرغمت الطيارين، على أكثر من صعيد، إلى اتخاذ المزيد من الحيطة. نجحنا برغم ذلك بتفجير طائرة ثانية في كبد السماء.

عند حلول الليل، رافقت رجال مدفعيتي الّذين هاجموا دبابات متمركزة خلف الخط. وكنا لاحظنا منذ وقت قصير أن المصفحات تتفادى أن تتبع الخط المرسوم وفقاً للسير الاعتيادي « للهرس ». كانت الضربات الّتي كِلْناها لهم، والّتي كلّفتهم خسائر جسيمة، هي الّتي أجبرت بالتأكيد القيادة الفرنسية على اتّباع تكتيك جديد. باتت الآليات بعد ذلك تتمركز في مواقع ثابتة أو تختبئ في الخنادق، لا يظهر منها إلا بُريجها. في اليوم التّالي، خفّت طلعات وغارات الطائرات العدو وبذلك خفت فعاليتها. لقد أثبتت رشاشاتنا، الّتي خدمت بشكل مدهش، فعاليتها في تحييد هذا السلاح الّذي كان أكثر ما يضايقنا. وتناقص عدد الطائرات بصورة ملحوظة. واستمرت هناك طائرات تحوم في الجو غير أنها بقيت على ارتفاع يفوق الألفي متر.

عندها بدأت أشعر بتعب مفرط، لكن قبل أن أذهب كي آخذ قسطا من الراحة قمت ببعض الترتيبات المهمّة. أعطيت التعليمات إلى رجال المدفعيّة وأمرتهم باستعمال الموقع حيث كنا البارحة، الّذي يعطي ميزات ممتازة ضد الدّبابات والتحصينات وأرسلت فصيلة من الفيلق الثّالث عشر لحماية الآليات عن كثب. وكان قائد الفصيلة رجلا يعرف جيدا كلّ زوايا المنطقة.

هنا تركت عالمي الصغير وانسحبت إلى الوراء كي أستريح بعض الوقت. وكان قائد الفصيلة قد اقترح على مسؤول مجموعة مدفعية 57 ملم أن ينقلها إلى مكان يبعد مئات الأمتار. « سيكونون في مكان أكثر أمانا، وذلك من دون أي حكم مسبق على فعاليتهم ! » هذا ما قاله. غير أن الجندي أجابه : « تلقيت الأوامر من قائدي أن يبقى في هذا المكان، ولا يمكنني أن أذهب إلى أي مكان آخر بدون أوامره المضادة ! » تواجهنا مع العدو. هذا المدفعيّ كان من جملة الجنود الّذين خسرهم جيش التّحرير الوطني والّذي عاقبه النّظام بقسوة. لم يكف هذا الرجل، بعد أن نفَّذ عقوبته، عن المطالبة بالالتحاق بوحدة مقاتلة. وإذ اعتاد على النّظام الّذي ترسّخ فيه في مركز التأهيل في ملاّق، دفع حياته ثمنا لطاعته العمياء لأوامر قائده. في ذلك المساء بالذات، أدخل الفرنسيون الّذين أعادوا تنظيم أنفسهم، إلى المعركة، قوّات نارية أخرى وتعاملوا معنا بطريقة قاسية. أُصيبت إحدى آلياتي إصابة مباشرة. فسقط رجال من فريق القطع قتلى أو جرحى. كنت لا أزال موجوداً تحت الشجرة، بالكاد مستيقظاً، عندما مَثَل أمامي أحد رجال الكتيبة الثّالث عشرة، بسحنة شاحبة، يحمل بين يديه جرابا من القنب يقطر دما. قوّره. كان يحتوي على أشلاء لحم، كلّ ما بقي من المدفعيّ الشجاع. بعد مرور ثلاثة أيام، كنا ما زلنا نلملم هنا وهناك قطعا من أجسام بشرية، بحيث أن هذا التعيس سيُدفن في مكانين مختلفيْن، لأن الرّجال المكلّفين بدفن بقاياه الأخيرة رفضوا أن يفتحوا قبره الأول !..

خلال هذه العملية نفسها سقط الممّرض المساعد في الفيلق الثّالث عشر شهيدا ضحية انضبّاطه وولائه وهو يشبه بذلك التلميذ القديم لعبد الحي[7]. بوخاتم فرحات المدعو بابا ديدي، وهو منحدر من عنّابة. أما قائد الكتيبة بالوكالة، سلمون محمد، الّذي كان بحاجة إلى ممرضين للقطاع، طلب من بابا ديدي أن يقوم بهذه المهمّة. فقال لي بابا ديدي، وقد اعتبرني شاهدا، وهو يمزح : « يا الحاج خالد، سأفعل ذلك للمرّة الأخيرة. بعدها لن أترك مركز قيادة الفيلق ! » وأضاف ضاحكا بلكنته الّتي يصعب تقليدها : « عند العودة نرخف البَلانكي ». (سأعيش بهدوء). تسببت قذائف العدو الّتي أصابت بشكل مباشر الذَّخائر الثقيلة الّتي كانت احتياطاً للقطع المركونة بجانبه، في كارثة ولم نجد شيئا من جثمان بابا ديدي.

وإذ أستعيد ذكرى من كان في حياة أخرى « طفلا شقيا »، أترحم على كلّ الّذين منحتهم الثورة الاعتبار والشرف.

7. مسؤول في القيادة العليا لجبهة التّحرير الوطني في تونس قبل وصول ممثلي لجنة التنسيق والتنفيذ لجبهة التّحرير الوطني إلى هذا البلد.

لم يطلق عليه لقب « بابا ديدي » صدفة. فهذه الكنية توحي بطيبة القلب والحنان. كان التغير الّذي حصل عند هذه الشخصية بمثابة تحوُّل، ولكنه داخلي وعميق، للتغيير الّذي يحول أيضا المظهر الخارجي والحديث والنظرة. كان الكثير ممن يسمّون رجال « الوسط » انضموا إلى الثورة كما لو أنّهم ينضمون إلى دين ما بكلّ إخلاص وشغف وأحيانا بقلب هائج. كما سجّل الكثير منهم أسماءهم بأعمال بطولية. « علي لا بوانت » الّذي يروى أنه كان « سيد القصبة » في مدينة الجزائر، وهذا لم يكن أمرا بسيطا في تلك الحقبة الّتي شاع فيها « الكومان » يجيدون استعمال السكاكين. أما سليمان « لاسو » من سوق أهراس الّذي لم تنجح لا فيلق طاطاوين التأديبي في عام 1952 ولا حتّى قبضة بن عبد المومن الحديدية في معسكر ملاّق في إصلاحه، وغيره من الّذين كانوا فدائيين أبطالاً في أفواج ياسف سعدي أيام كانت قصبة الجزائر دهليز الموت.

احتفظ بابا ديدي من « حرفته » القديمة بصلابة الكتفين وشموخ رأسه وبنظراته الّتي يرمي بها من طرف خفي وشاربيه العريضين والكثيفين والأشعثين اللذين يعبران عن الرجلة وبالتأكيد الندبة على خده الّتي تمثل شعار الفرسان في المدينة القديمة.

لم يكن بابا ديدي يتفوه أبدا بكلاّم غير مفيد. كان عنده مفهوم خاص للثورة والرّجال والأحداث والماضي وحتّى للمستقبل. كان عالمه غاية في البساطة : من جهة، الرّجال (الشجعان)، ومن الجهة الأخرى الجبناء والضعفاء و« المبيوعون ».

كان يحترم المسؤولين لكن أيضا القدماء والشباب والمسنين. فهو يحترم الجميع تقريبا. وكان يعبّر عن تقديره لهؤلاء بمناداتهم بـ « الحاج » في كلّ وقت.

أما الجنود فكانوا يحبون أن يلتفوا حوله وهو ملك الشوارع الضيقة والمعتمة سابقا، متربّعا على حصير من الأسل أمام غرفة التمريض الخاصة به، سيجارته وراء أذنه، ويحتسي – أو بالأحرى « يرتشف » – بحركة متقنة من بنصره قهوته على طريقة كبار المتذوّقين. « الرشفة » هي فن تذوق القهوة وهي نوع من تنفس وابتلاع نكهة القهوة، ربما هذا هو حنين الأذواق السامة.

نادرون هم الجنود الّذين خاضوا حربا بمثل هذا التفاوت في الإمكانيات. لم يكن المجاهدون يملكون لا دبابات ولا طائرات ولا سفناً حربيةً. كان عندهم سلاح فعال من نوع آخر، هو الشجاعة والتضحية والرزانة. قلت ذات مرّة إنّ النصر تحقق لأن الثوار كانوا مقتنعين أشد الاقتناع بأن قضيتهم مقدسة وأنها تعني كلّ واحد منهم بصورة مباشرة وعينية.

انخرط بابا ديدي في الثورة تلبية لنداء القضية. كانت قضيته الّتي استشهد في سبيلها.

أثناء الليل، أذهب إلى العيادة الطبية لزيارة الجرحى الّذين ازداد عددهم في اليومين الماضيين. وتجاوز المائة. كنت هناك عندما استأنفت المعركة. حضرت لوصول أولى الجرحى في تلك الليلة، بأعداد أكبر. لقد أعدّ العدو ترسانة ضخمة. وسبّبت لنا نيران المدفعيّة والدّبابات الكثيفة أضرارا كبيرة. وكانت أرض المعركة الشاسعة مضاءة باليراعات الّتي تطلقها الطائرات دون توقف.

في الماضي، كانت هذه الشموس الشاحبة تساعدنا على معرفة طريقنا، لكن اليوم أصبحت ضدنا. أرى أمامي الممرضين منهمكين في عملهم. توقفت عند أحد المصابين. حالته ميؤوس منها : فخذه كأنها مقطوعة بسكين، ولا تكاد تقف سوى على قطعة من اللحم. لقد نزف دم الرجل كلّيا قبل وصوله إلى العيادة. وكانت هناك بقع بيضاء صغيرة تظهر فوق الجرح. ذهلت من كثرة الشرايين الّتي يحتوي عليها عضو واحد من الجسم. وما هي إلا دقائق حتّى سلّم المجاهد الروح لِبَارِئِها بعدما نزف دمه تماما...

هجوم على نطاق واسع

استدعيت ذات يوم إلى مقر قيادة النّاحية الشمالية لأتبلَّغ أنني نقلت مع كتيبتي الثقيلة إلى مسافة أبعد جنوبا لأكون على اتصال بالفيلق التّاسع والثّلاثين بقيادة شريف براكتية. يسمّى المكان الّذي يجب أن أشغله وادي الزَّانة. أما الفيلق الرّابع عشر الّذي يقوده حمّة لولو فكان متمركزا إلى يساري. وعلى يمين الفيلق التّاسع والثّلاثين كان يوجد الفيلق التّاسع عشر لسليم سعدي.

بدأت القيام بعمليات استطلاع لاستقرار وحدتي. فاخترت مكانا ينمو فيه العشب بشكل كثيف. وقد دفعني قربي من المركز العسكري الفرنسي إلى الحرص أكثر على التمويه. وقدم لي بعض اللاجئين مساعدة مهمّة في بناء الملاجئ لرجالي. كان العياشي بن جديد (لا علاقة له بمن سيكون رئيس الجمهوريّة) يتمتع بضمير مهني قوي. وكان من أولئك الّذين يقال عنهم إنّهم « لا يستريحون أبدا ». يتطوع دوماً عندما يتعلق الأمر بتعزيز مواقعنا. فخلال كلّ الفترة الّتي كنا فيها معا، وحتّى وفاته، لم أره يوما دون حزام خراطيش. كان العياشي يجسّد معنى اليقظة. بينما كانت الأعمال تتقدم، وفيما كانت الدوريات تذهب وتجيء، طلبت مني قيادة النّاحية الشمالية أن انضمّ إلى الفريق المكلّف بمهمّة الاستطلاع الّتي تشمل مجمل جبهة الحدود. وبما أن قواعد الدعم اللوجستية قد بدأت تبصر النور استفدت مباشرة في خطوطي الخلفية من القاعدة الّتي يقودها النقيب عيسات رشيد. كانت معدات عيسات تستخدمها أيضا الفيالق الرّابع عشر والتّاسع عشر والتّاسع والثّلاثين، إضافة إلى كتيبة النّاحية الثقيلة الأولى. لم يكن من الصعب التنبؤ بأن القيادة تحضر لعملية هجوم واسعة النّطاق.

كان فريق الاستطلاع، الّذي ترافقه فصيلة، تحت قيادة الرّائد عبد الرحمن بن سالم شخصيا، وكان يضم الرّائد شابو عبد القادر وسليم سعدي وضابط هيئة الأركان خليفة رَحيم وأنا. رافقنا شاب في مستهلّ شبابه، هو آيت مصباح عز الدين (الّذي التقيت به للمرّة الأولى) كان قد أوفدته وزارة التسليح والاتصالات العامة. كان يستخدم آلة تصوير مزودة بمنظار للمسافات البعيدة. أما أنا فقد كنت مكلّفا بنقل رسم مراكز الحَمري وبورنّان والقوارد وذلك بواسطة منظار مكبر. وبدأت عمليات الاستطلاع من شمال خط « شال » وتتابعت في الجنوب حتّى جوار مركز القوارد.

في العام 1959 هوجم مركز عين زانة الواقع بين خط « شال » والحدود والّذي كان محصنا بشكل جيد، وقد تعرض لأضرار جسيمة من قبل فيالق عبد القادر شابو وسليمان هوفمان وعبد الرحمن بن سالم من النّاحية الثّانية. نجحت عناصر مجموعة الاقتحام الّتي كان يقودها بودالي في الدخول إلى المركز، وحصلوا على أسلحة ووضعوا خارج المعركة جنوداً معادين، بينهم نقيب مكلّف بالعمل النفسي. جرح عبد النور بقّة الّذي كان على رأس مجموعة كومندو الاقتحام. كانت هذه أولى الأعمال الكبرى الّتي جرت قبل قيام هيئة الأركان العامة. فقد استخدم فيها، للمرّة الأولى أسلحة دمار ذات قدرة كبيرة، استلمنا في البدء بضع قطع منها. ثم وصلتنا كميات كبيرة فيما بعد.

لاحظت خلال تنقلاتنا القُدرة الفائقةَ على استعادة النشاط الّتي يتمتع بها عبد الرحمن بن سالم بالرغم من سنه. خلال استراحاته كان بن سالم يكتفي في وجباته بقطعة من الخبز والبصل والقليل من الماء. لم يكن بحاجة إلى أكثر من خمس عشرة دقيقة للاستراحة حتّى يستعيد سيره، في حين نحن الأكثر شبابا كنا أقل منه قدرة على الصمود. لم نتعرض سوى لحادث واحد خلال هذه الرحلة. ذات يوم خرجنا للاستطلاع حول مركز بورنّان وكان يرافقنا بعض عناصر الفيلق الرّابع عشر والمصوّر عز الدين آيت مصباح تاركين القّوارد وراءنا. لم يكن منظاري يفارقني. ارتكبنا هفوة لما طلبنا من الشاب عز الدين آيت مصباح أن يأخذ لنا صورة جماعية. وبعد مسيرة دامت بضع ساعات وصلنا إلى القمة المشجرة الّتي تشرف على بورنّان وكنا نلهث من شدة التعب بسبب تسلُّق منحدر الجبل، حين رأيت دخاناً أبيض يتصاعد بشكل خفيف من رأس الغابة على بعد عشرات الأمتار منا. عندها سحبت عبد الرحمن بن سالم بكم قميصه وأشرت برأسي إلى ما كنت قد لاحظته. أرهفنا سمعنا وإذا بأصوات بالكاد تصلنا. عندها كانت ردة فعل بن سالم فورية. وبكلّ هدوء أمسك بزمام الأمور. كانت ردات فعله كردات فعل شاب في العشرين من عمره. وقلت في نفسي إنّ التجربة تتحدث عن نفسها. وكان هذا المحارب القديم في الهند الصينية الّذي سجن في ديان بيان فو وحارب أكثر من خمس سنوات في صفوف جيش التّحرير الوطني محترفا حقيقيا.

في هذه الأثناء قرّر بن سالم تأجيل مهمّة الاستطلاع على بورنّان. وعدنا أدراجنا على رؤوس أصابعنا حتّى لا ننبّه الفرنسيين ؛ لأن مركز القّوارد مستنفر، فقد كان من الممكن أن يقطع علينا طريق العودة. وفي حال الاشتباك قد تتم محاصرتنا بإحكام، ولا يبقى أمامنا عندئذٍ سوى القتال حتّى الرصاصة الأخيرة. في المساء اتخذ بن سالم قرار المتابعة والتقدم تاركا المصوّر أمام الفيلق الرّابع عشر الّذي كان على قائدها أن يتابع مهماته. وفي اليوم التّالي انفصلنا. وعلمنا بعد مضي ثلاثة أيام أن الفصيل الّذي كان يرافق آيت مصباح قد وقع في كمين، وأنّ هذا الأخير قد تم أسره. أما الأفلام الّتي خلدّت صورنا فقد انتهت في ملفات المخابرات الفرنسية. قائد كتيبة احتسب في تعداد الموتى لم يطلق سراحه إلا بعد الاستقلال. قلت في نفسي إنّ المعلومات الّتي من المحتمل

أن يكون آيت مصباح قد قدّمها تحت الضغط قد فضحت الهجوم الّذي كان قيد التحضير وأفشلته.

اتضح لي في ما بعد أن استنتاجاتي كانت للأسف صائبة. فعندما تلقيت الأوامر لحضور اجتماع في مركز القيادة في النّاحية الشمالية أدركت أن القيادة قد قرّرت صرف النظر عن احتمال اطلاع العدو من آيت مصباح على نوايانا. كنت مكلّفا بتقديم الدعم لأربعة أفواج هجوم على مركزي الحَمري والقْوارد. وكان يجب إسكات بورنّان حيث كان الفرنسيون يملكون مدفعية تغطي القْوارد والحَمري، بواسطة ثمانية مدافع هاون من عيار 82 ملم. وكانت أسلحتي منظمة وفقاً لقاعدتين لإطلاق النار : القاعدة الأولى كانت تحت إمرتي أما القاعدة الثّانية فكانت تحت إمرة معاوني العياشي. وكان في وحدتي – قَيْدَ التأقلم – ضابطان من قدامى المدارس الحربية في الشرق الأوسط (العربي سي لحسن وشعيب محمد عباس). أبقيت سي لحسن (الّذي أصبح فيما بعد رائدا في الجيش الوطني الشّعبي) برفقتي أما شعيب فكان يرافق العياشي. وكانت فرق الهجوم على التوالي تحت إمرة عبد الرزاق بوحارة (المخضرم رغم ملامح الفتوة الملازمة له) وشريف براكتية وفيلق سليم سعدي الّذي أخذ على عاتقه خميسات الواقعة وراء الحمري. إلى ذلك فقد تعززت هذه القوّات بعناصر آتية من الفيالق الثّالث عشر والخامس والعشرين والسابع والعشرين والحادي عشر إضافة إلى الفيلق الثّاني عشر.

كان القمر بدرا وكان نوره يعطي للنجوم بريقا مميزا بظلاله الزرقاء. وكان للسكون الّذي يخيم على الجبال صدى كالصرير. وانطلقنا نمشي. « امش خويا... امش. » كان الشعور بالخطر يسيطر على النفوس.

كلما كنا نقترب من الهدف كانت ترتسم أمامنا أشكال أشياء معتمة... إنّها جدران. كان النور المنبعث من السماء يسهل عملية مركزة أسلحتنا وآلياتنا. كنت أنتظر ساعة إطلاق النار عندما لفت الحارس انتباهي إلى رتل كبير من المشاة يتقدم على نفس الطريق الّذي نسلكه. أرجعت عددا من الأسلحة لتكون في مواجهة الدخلاء، ثم، وعلى رأس مجموعة من المستكشفين، تقدمت بحذر إلى الأمام. كنت مشغول البال. فباستثناء رجالي، ومجموعات الاقتحام الّتي سبق أن اتخذت مراكزها، لم يكن مفترضا أن تسلك أية وحدة هذا الممر. وفجأة انفصل عن الرتل طيف واتجه نحونا. عرفت معاوني العياشي. ألقيت نظرة على ساعتي فلم يكن أمامنا سوى ربع ساعة على بدء الهجوم. كان العياشي قلقا من تأخره عن الوقت المحدد. أعلمني أنه ليس لوحده. « الضابط » الّذي كان سيرشده إلى المواقع أضاع الطريق وسلك المضيق الجبلي بعدما تاه لبعض الوقت. عندئذ تركت للعياشي مبادرة فتح النار عندما يأخذ مركزه بدلا من أن أقوم بذلك بنفسي. لم أكن أعلم أن هذه المغامرة المزعجة سيكون لها نتائج مأساوية. لقد كلّفتنا حياة العياشي وشعيب محمد عباس إضافة إلى حياة رجل آخر من ضبّاط مدفعيتي.

هذا الوصول المتأخر لبراكتية سببه الطمأنينة المفرطة الّتي تميّز هذا الشخص – مع أنها صفة ممتازة في المعارك – وجعلته يحافظ على نفس الإيقاع في السير وفي الحياة. لكنها تتحوّل أحياناً

إلى عدم مبالاة. كانت هذه العادات الصغيرة واليومية تغيظ عبد الرحمن بن سالم. يهزّ النائمين ويذكِّرهم أن « الدَّزائر » ما زالت في الحرب. كان يلفظ « الدَّزائر » بدلاً من الجزائر. فاستبدال حرف الدال بحرف الجيم يقوي أوّل الكلمة ويثقلها ويحمّلها معانٍ. وفي ذلك الوقت كانت « الدَّزائر » بن سالم بمثابة جيش التّحرير الوطني المحارب المتمرس والمنظم. غير أن بن سالم كان واقعيا. وكان يعرف أننا نحتاج إلى كلّ شيء لنكوّن به جيش تحرير...

وفي اللحظة الّتي كنت سآخذ فيها مكاني سمعت رنين جرس. وكان شيئا ما قد حصل في المركز، ويتعلق الأمر حتما بإنذار ما. سُمع الدويّ الأصمّ للمدافع من عيار 75 ملم القادمة من مركز مدفعية العياشي في الساعة الواحدة والربع تماما، ثم تلتها فرقعة القذائف المنفجرة. دخلت رشاشاتنا الثقيلة بدورها في هذه الرقصة. كانت مدفعية العدو تصحح رماياتها على مركز مدفعية العياشي وتشنّ عليها قصفا مركزا. وكانت نيران مدافعي ورشاشاتي تثير ردا عنيفا. كانت قذائف العدو تنفجر حولنا. انتهزت فترة هدوء فرجعت إلى الخلف حيث تسمع الصرخات. الممرضون محيطون بالجرحى. تدل كثافة الرمايات على ضراوة المعارك. أعدت جمع رجالي وطلبت من العربي سي لحسن أن يكون على رأسهم وأن يتراجع نحو قاعدة إطلاق النار حتّى نتقدم إلى الأمام لنشارك في الهجوم. ولتفادي الأخطاء، ركزنا قطعة من القماش الملون مستطيلة الحجم مرفوعة على عصا وكان أحد ألوانها في ذلك اليوم إشارة تعريف بنا كلمة سرّ.

في طريقنا، حضر لمقابلتي رجل ينتمي إلى وحدة العياشي. فمن مظهره علمت أن شيئا خطيرا قد حصل. كونه قد فتح النار أولاً تلقى فصيل العياشي الّذي كان قريبا جدا من المركز القسم الأكبر من ضربات العدو. أعلمني الجندي أن العياشي قد أصيب بجروح بالغة غير أن سناني عبد الله قائد بطارية المدفعيّة الـ 75 ملم قد تمكن من التراجع مع مجموعة الجرحى الآخرين والآليات، وقد تم تدمير قطعة منها. ولم أتمكن من معرفة أية معلومة إضافية من المرسل الّذي ردد متأثرا : « ما زال العياشي في مكانه ! » أسرعت برفقة أحد رجال مدفعيتي عبد الله بيشاني نحو مركز إطلاق النار. ولو كنت أعلم مسبقاً الحال الّتي سأجد فيها العياشي لاصطحبت معي ثلاثة أو أربعة رجال إضافيين.

وجدت العياشي ميتا إضافة إلى شعيب محمد عباس والضابط الثّاني الّذي يأمر بعد القائد، بطاريات مدفعية الـ 75 ملم. كان المكان مليئا بحفر القنابل. وسألت نفسي كيف تمكن الآخرون من الفرار في ظل قصف مركّز كهذا. وكان نور القنابل الضوئية، الّتي كانت تسقطها الطائرات بدون توقف، تظهر صورة عباس، الّذي كان يبدو ممدداً على ظهره، كأنه نائم. أما الإثنان الآخران فكانا متقوقعين أحدهما على الآخر. وكانت وضعية جسديهما تدل على آلام الاحتضار. انحنيت نحو العياشي وحاولت أن أرفعه. فانغمس ذراعي في ظهره لأن جرحه كان عريضاً وبالغاً. كان مقطوعا إلى شطرين جراء شظية قذيفة. عندها سحبت ذراعي المغطى بالدماء وحاولت أن أرفع الجسم الهامد، غير أنني أدركت بسرعة أنه من المستحيل القيام بذلك حتّى بمساعدة بيشاني.

كان برفقتنا زميلان آخران. تركت بيشاني وعدت إلى الطريق الّذي يؤدّي إلى الممر الجبلي. وكنت أنوي طلب المساعدة من عناصر فريق الهجوم الّذين كانوا يعودون أدراجهم. غير أن العناصر الّذين صادفتهم كانوا كلّهم يحملون جرحى. عدت أدراجي وحاولت مجدداً نقل الجسم بمساعدة بيشاني. وعندما طلع الفجر لم نكن قد تمكنا من التقدم أكثر من مائة متر. خبأنا الجثث الثلاث في عمق الوادي. وفيما نحن نتسلق الجبل قصفتنا مدافع الهاون من عيار 60 ملم بشدة. عندما قطعنا الممر الجبلي كانت أشعة الشمس الأولى قد بدأت باختراق الأفق.

توجهت نحو مراكز الكتيبة الثّالثة التابعة للفيلق التّاسع والثّلاثين الّذي يقوده صالح المدعو « نهرو ». كان الرّائد بن سالم ينتظرني وعلامات القلق تبدو على وجهه. عندما نعيت إليه خبر استشهاد العياشي. وعندما رآني ملطخا بالدماء نكّس رأسه وبقي صامتا لبضع دقائق كما لو أنه يستغرق في التأمل. كان العياشي صديقه لفترة طويلة قبل أن ينظم إلى فيلقي. كان قائد النّاحية الشمالية يحاول بصعوبة إخفاء شدة تألمه مما جرى. وعندما رفع رأسه في النهاية كانت عيناه مغرورقتين بالدموع. فطلب منّي بصوت متقطع أن أذهب كي أستريح. أطعت الأوامر. لكن بالرغم من تعبي لم أستطع أن أنام. كنت متأثرا بصورة العياشي. رأيت الكثير من الصور المرعبة غير أن مشهد صديقي الّذي قسم شطرين وذراعي الّتي انغمست في أحشائه الّتي كانت ما تزال تختلج، ظلّ يسكن كوابيسي ردحا من الزمن. ما زلت اشتمُّ في أعماق نفسي رائحة الدم وبقايا هذه الجثة الّتي نقلتها إلى أبعد حد قادتني إليه قوتي حتّى أوصله وتكون له جنازة تليق به. وحول القوارد كانت النتائج غير مبهرة. كنا نريد أن نحاصر المراكز. وكنا نظن أن كافة الفرص لصالحنا غير أن النتائج كانت مخيبة للآمال. كان حصن القوارد الواقع عند الحدود مجهزاً ومنظماً في الواقع لمقاومة الهجمات كافة. وكانت هناك متاريس من الباطون تحمي القوارد، مركزة في أماكن كاشفة على مسافات متفاوتة من المركز الأساسي. كان أبعد هذه المتاريس موجوداً على مسافة ثلاثين متراً. ويتصل بالمتراس الأساسي بطريق ضيق ومغطى بشكل كثيف يسمح للمحتلين بالتراجع في حال حصول ضغط لا يقاوم. وهذا ما حصل في ذلك المساء. وصل المجاهدون، بعدما استولوا على كافة المتاريس، إلى سور الثكنة. وكان « LTZ » هو السلاح الفعّال الوحيد، وهو عبارة عن هاون من عيار قوي صنع عندنا في مصانع الأسلحة وهو قادر على قصف قنابل متفجرة يصل وزنها إلى عشرة كلّغ وذلك إلى مسافة تناهز الكيلومتر. ولقد تلقى الجنود الفرنسيون المحصنون في المركز الّذي تمت مهاجمته عددا كبيرا من هذه القذائف. وكانت تُرى من بعيد النيران الّتي تنجم عن انفجارها. يبدو أن العدو كان يتوقع هجوما من هذا النوع طالما أنّ بطاريات المدفعيّة في بورنّان كانت متمركزة في مكان آخر حتّى تفاجئنا وتوقع أكبر عدد من الخسائر في صفوفنا.

كان الفيلق التّاسع عشر الوحيد الّذي نجح في جزء من مهمته. فقد فضّل سليم سعدي في الواقع أن يتخلى عن دعم نيران مدفعيتنا ويقوم بالتمركز بصمت حتّى الأسلاك الشائكة لمركز

خميسات. وقد اتضح فيما بعد أن مناورته كانت ممتازة للغاية طالما أنه نجح، مستفيداً إلى أقصى حد من عنصر المفاجأة، يقطع الأسلاك الشائكة قبل إطلاق نيران الإسناد. وما إنّ انفجرت أولى قذائف 75 ملم حتّى هرع فريقه المؤلف معظمه من أبرز الإطارات إلى الهجوم وفاجأوا الجنود الّذين كانوا لا زالوا نائمين. كانت المفاجأة كاملة. لكن الجنود الّذين استعادوا أنفاسهم تدخلوا وحولوا المعركة إلى مواجهة ضارية. وفي ذلك الوقت رمي الكثير من القنابل. وأمام تكرار الهجمات المرتدة، تراجعت وحدة الاقتحام مصطحبة معها أسرى وأسلحة بما فيها رشاش هوتشكس. وشهد على جرأة المجاهدين عدد الجرحى في صفوفهم. أصيب سليم سعدي إضافة إلى معاونه سعيد (المدعو « لاندوشين »). وهكذا فقد أصيب أحد أفضل قادة الكتائب أحمد وارد الملقب بالوهراني إثر انفجار قنبلة في بطنه وتوفي في المستشفى بعد مضي عشرة أيام.

قبل شن الهجوم على مراكز القوارد والحمري، عملت كثيرا مع الفيلق التّاسع عشر بقيادة سعدي. كانت أسلحتنا المضادة للطائرات تتربص بالطائرات بهدف إسقاط بعضها. وضعنا مجموعة مدافعنا الرشاشة في مراكز محمية بشكل جيد وانتظرنا بكلّ صبر أن تحلق الطائرات فوقنا. وما إنّ أصبحت في متناول مدفعيتنا المضادة للطائرات حتّى فتحنا عليها نيراناً جهنميةً. فنشر الطيارون الغاز في الجو لإبعاد الكارثة. وغالبا ما كانت الطائرات تبقى بعيدة عن متناول أسلحتنا بالرغم من الأفخاخ الّتي كنا ننصبها لها، بانتظار تدخل طائرات البي 26 الواثقة من تصفيحها وقوة أسلحتها.

كنا نقصف دوريا مركز عين زانة بواسطة مدافع هاون 82 ملم. وكان عندنا في « كاف درجة » مركز مثالي لتنفيذ « ضربات ما فوق الحواجز ». كان الحاجز بمثابة منطقة غير مرئية بالنسبة للعدو وكان يحمينا من الرمي المنحني. وعندما تتدخل المدفعيّة من عين زانة ومن مركز طارات الواقع في الخلف، لا يمكنها بالطبع أن تطالنا. وكانت القذائف تنفجر إما عند الصخور وإما عند مستويات منخفضة بعيداً عن مواقعنا. وكان ذلك بمثابة تدريب بالنسبة إلينا، فنأخذ كلّ وقتنا لتصحيح رمايتنا. كانت قمة الجبال الصخرية الّتي يبلغ ارتفاعها حوالي عشرة أمتار تشرف على منحدر يصل إلى نهر مِجردة على طول خط سكة الحديد الّتي تؤدي من سوق أهراس إلى تونس. حملنا معنا أكبر عدد ممكن من القذائف الّتي حضَّرناها مسبقا ووضعناها في متناول الآليات. يمكننا أن تنصرف على هذا النحو لأن الصخر الّذي يستخدم ستاراً يقدم لنا حماية تامة. واستخدمنا بطاريات مدفعية من ستة وأحيانا من اثني عشر مدفع هاون دفعة واحدة. وبسبب تموضعها بشكل متوازٍ كانت قطعة أو قطعتان كافيتين لكسب المزيد من الوقت في تصويب الرماية. تمركزت قرب الموقع فصائل من المشاة بهدف مضايقة كلّ من يحاول الخروج ومراقبته ومضايقته.

غالبا ما كنا نكرر هذا النوع من العمليات وذلك بالنظر لفعاليتها وخطرها القليل علينا. وبعد عملية الإنّهاك نبقى في مكاننا تاركين العدو يستنفد غضبه. وننكفئ عندما يعود الهدوء. نسلك طريق السكة الحديدية حتّى نصل إلى مركز الإنطلاق تقريبا. كان المشي على سكك الحديد متعبا. فكنّا نعدل خطواتنا عند العقبات ونبدو وكأننا رياضيون يشاركون في سباق للمشي.

كنت ما أزال في واد الزَّانة عندما تعرض الفيلق التّاسع عشر لهجوم من الخلف في مكان كنت أعرفه جيدا : نفق على بعد خطوات من خط السكة الحديدية لو لم يكن محتلاً لسمح لجنود الجيش الفرنسي بالوصول إلى داخل الموقع الّذي يحتله فيلق سليم سعدي. لذا كنا نحتل هذا النفق على الدوام كي نمنع أية عملية توغل معادية. وكانت المهمّة تقع عادة على عاتق إحدى الكتائب التابعة للفيلق التّاسع عشر. وكان هناك حارس متمركز على التل المطل على النفق حيث يمكن مراقبة كلّ ما يحدث وحتّى لا تفاجِئ الوحدات بأي شيء. ولسوء الحظ في ذلك اليوم، لم يكن الخفير في المكان اللازم بحيث لم يلاحظ وجود العدو إلا بعد أن وصل. لكنه رغم ذلك أطلق صفارات الإنذار. فالرّجال الّذين كانوا يخرجون من النفق لم يكن عندهم الوقت لشغل مركزٍ مناسبٍ ولم يكن أمامهم خيار سوى عبور الوادي الّذي يبعد بالكاد مائة متر. فتمركزوا في أماكن بالكاد مغطاة بنباتات صغيرة. بعدما أدركوا بأنّهم وقعوا في فخ، سعوا إلى إنزال أكبر عدد من الخسائر الممكنة بالعدو وبادروا إلى فتح النار في الوقت الّذي تفرق فيه الجنود ضمن مجموعات صغيرة.

ومن بين الستة والثّلاثين عنصرا من فصيلتنا كان هناك ناج واحد تمكن من أن يعود أدراجه، رغم الجراح الّتي أصيب بها.

بعد محاصرتهم، لقي المجاهدون حتفهم. الضابط الفرنسي، ربما إعجابا بشجاعة هؤلاء المحاربين، صفهم جنبا إلى جنب بملابسهم العسكريّة. وتم تمديد قائد الكتيبة الّذي تم التعرف عليه من خلال بندقيته بمفرده وسلاحه بجانبه. وهكذا تعرف عليهم زملاؤهم بعدما وصلوا إليهم في وقت متأخر ولم يتمكنوا من تقديم العون لهم.

بعد مرور أيام، ذهبت إلى المكان برفقة سليم سعدي. كانت الشجرة الّتي جلس خلفها الضابط وجنوده مقطّعة كلّيا بقذائف البازوكا. وكانت برك الدم المنتشرة على الأرض تشهد على عنف المعارك.

لاحظنا خلال العمليات المختلفة الّتي قمنا بها أنه من بين الأضواء الكاشفة الّتي وضعها الفرنسيّون لمراقبة أفضل للخطّ، كان ضوء « خنڤة عون » يسبّب لنا الإزعاج الأكبر. وكان موضوع أحاديثنا دائما. وكان لكلّ واحدٍ منّا اقتراحه الصغير للابتعاد عن الشعاع الضوئيّ. لكن هذه الوصفات المختلفة ما كانت سوى حيل. فلم يكن يحتاج سوى قذيفة من عيار 57 ملم لتقضي عليه. فما إنّ تمّ أخذ القرار حتّى تمّ التنفيذ. خطَّطت بالتّالي مع المسؤولين عن الفيلق الثّالث عشر لهجوم سيشمل أغلبيّة المراكز الّتي تحيط بـخنڤة عون، بما فيها عملية تحويل أنظار محتملة. سأختارً من بين هؤلاء الرّجال أكثر رجال مدفعيتي موهبة، وهو من المغتربين أرسلته فدراليّة فرنسا، يتقن استعمال المدافع عيار 75 ملم. لو أطال الله في عمره وقرأ هذه الأسطر سيتعرف على نفسه بكلّ تأكيد. وبما أن الاقتراب من الهدف يبدو صعبا، فإنّني سأتّخذ القرار بإطلاق النار عندما أجد نفسي مستعداً للقيام بالأمر. وبغية النفاذ إلى الضوء الكاشف يجب اجتياز قسمين من خط السير هذا،

القسم الأوّل سهل جدّا. لقد وُضع الضوء على مرصد بني على أعلى قمة في غابة خنقة عون، نقطة رقم 203. وبعد أن اجتزنا من دون تعب واديين كانا يمنعان رؤية العدوّ علينا، وصلنا إلى أرض واسعة ومسطّحة. وليس ثمة أي حاجز يحمينا من عيون الحرّاس. كانت تخوم الغابات ترتسم في البعيد. لذلك كنا نلتصق بالأرض ما إنّ تكون الشبكة الضوئية على وشك أن تكشفنا، ثمَّ، وبعد أن يزول الخطر المؤقّت، نتابع تقدّمنا. كنا قد اتّفقنا ألا نفتح النار إلا على بعد 600 متر من الهدف، بغية الحصول على فرصةٍ أكبر للإصابة. وكانت مدافعنا مجهّزة بنظام تصويب ليلي. فالدقة في التصويب هي أفضل بكثيرٍ عندما يكون الهدف مضاء. لدى وصولنا إلى مرمى الهدف، تمركزنا في الموقع بنفس الطريقة متحاشين عيون المترصدين. جهّزنا سريعا لرمي المدفع وانطلقت الضربة الأولى. لم يبق ثَمَّةَ داعٍ للتموُّه. فقد بدأت تُسمع طلقات التضليل. لذلك يجب الاستفادة من الأمر وضبط طلقاتنا. أصابتِ القذيفة الثّانية المرصد إصابة مباشرة. فهلّلنا. انفجرت القذيفة الثّالثة مباشرة في كشّاف النور وأُغرق المشهد بأكمله في العتمة. ولمزيد من التأكد، أرسلنا لنفس المرسل إليهم قذيفة رابعة. ثم، بعد انتهاء المهمّة، وزّعنا قطع المدفع على عدة رجال، بعد أن فككناه بلحظة، وعدنا على أعقابنا، ملاحقين، بدون أي خسائر، برشقات كثيرة من رشاشات 12/7 ملم. نجاحنا أثلج صدورنا. في اليوم التّالي، وفي منتصف ما بعد الظهيرة، ومن أعالي مراكزنا، شاهدنا تركيب ضوء كاشف جديد بمساعدة مروحية، أُحضِر على عجل. كان قد بدأ يولّد في رأسي مشروعاً لهجوم آخر. للأسف، لم يحصل لأسباب أخرى.

قرّرت هيئة الأركان العامة، آخذة بعين الاعتبار خبرتي في القتال، تسليمي مسؤوليّة الفيلق الخامس والعشرين. عملت هذه الوحدة[8] خلال ما يقارب السّنة في قطاع جبل الفدان، وهو موقع احتلّه الفيلق الثّالث عشر عندما كنت نائبا لقائده. وبات من الضروري، حسب القيادة، إحداث تغيرات على رأس هذه الوحدة. فألحق بي ضابطان، هما طراد صالح الورجيني وجنوحات أحمد (أصبح لواء في الجيش الوطني الشّعبي) كمساعد عسكري ومساعد مكلّف بالاستعلامات والاتصالات على التوالي.

بعد أيام قليلة، استنتجت أن النقص في فعالية الوحدة راجع لعدم السيطرة على الأرض وقلة خبرة الرّجال أكثر مما هو راجع لضعف في الحماس أو نقص في الشجاعة. كان قائدهم القديم، يوسف بوبير، جنديا محنَّكا خدم في النّاحية الأولى. بعد فترة قصيرة من المراقبة، اكتشفت أن إحدى الوحدات قد أنهكت أعصابها بفعل ضغط كبير من قبل العدو، ضغط تعرضت له في وقت لم تكن مهيأة بشكل كاف لتحمّله.

لا تأتي روح المعنويات العالية من السماء، وإنّما من مجموع الانتصارات الّتي تحقّق بالجهد الشخصي. فالنجاح بالنسبة إلى الجندي ليس أبدا صدفة بل هو نتيجة التحفيز والتخطيط والتنفيذ

8. كانت في معظمها مؤلفة من مُجنّدين جدد مُتخرجين من التشكيلات الجديدة لمدرسة ملاّق.

الجيّد. اقترحت على القيادة أن تسلمني مسؤولية قطاع أقرب إلى الخط. ما من شيء أفضل من الاستنفار الدائم، ولكن المتحكم فيه والمنظم، لتمتين الوحدة وتدريبها على الحرب وتلقينها أساليب حفظ البقاء الّتي تكوّن الجندي المقتدر. أعطيت كل الصّلاحيات فذهبت مع وحدتي الجديدة للتمركز في قطاع في منطقة تسمى « منقار البط ». اتخذت موقعا مكان الفيلق الثّاني عشر العائد بقيادة علي بُوخدير ولكحل عياط مجدوب.

ينحصر ميدان عملياتي ما بين ميدان الفيلق السابع عشر الّذي يقوده ديب مخلوف وميدان الفيلق السادس والخمسين الّذي يقوده عمّار شكاي. تمتدّ « الجبهة » ما بين مركز برجيلات في الشمال باتّجاه مونييه (عين الكرمة) ومركز المدفعيّة في طارات، إلى الجنوب، باتجاه سوق أهراس. من الوراء تحدّه الحدود الجزائرية التونسية الواقعة بين الحدود الجنوبيّة لجبل الأوسط، من اليمين ومن اليسار القمم الجبلية الثلاث الّتي سماها الفرنسيون « العذارى الثلاث »، ربما لأنّهم لم يستطيعوا أبداً « اختراقها » على الرغم من « الانتصاب » القوي والدائم للمدافع من كلّ العيارات. كانت محاولتهم الأخيرة للوصول لهذا الهدف المنيع قد حصلت قبل فترة قصيرة من وصولي. وكانت قد فشلت على غرار المحاولات السابقة على الرغم من الجهود المكلّفة الّتي أوقعت الكثير من الجرحى والقتلى في صفوف وحدات النُخب. كانوا يواجهون وحدات علي بوخدير ولم يكن الأمر سهلا البتة.

سمحت لي الأرض الّتي اخترتها بتبصر بأن أتمركز في قطاع عَصيًّ على المشاة الفرنسيين لكنه كان مستهدفا بشكلٍ دائم وكثيف من ترسانتهم غير الفعّالة نظرا لَطوبوغرافية الأرض. لم أجد طريقة لتدريب الجنود أفضلً من إثارة ردّ الفعل المعادي عبر عمليات نتخذ نحن فيها المبادرة. وانطلاقا من الموقع الّذي تمّ احتلاله : قمّة تشرف على جزء كبير من وحدات العدو، على طول خطّ شال، استهدفت ثلاث نقاط ركّزت عليها كلّ وسائل النيران في فيلقي : خبوشة على المرتفع 484 بالقرب من مشتة ريحانة (بدءًا من ڤرون عيشة)، ولامي (بوحجار)، وبرجيلات (بدءاً بوادي سليانة). ولقد ساعدني بشكل كبير نائبي طراد صالح المعروف بالورجيني. أمّا تغطيتي ضد الطّيران الجويّ فقد أمّنْتُهَا بشكل واسع مدافع الكتيبة السادسة بقيادة مختار كركب.

مختار كركب، الرجل ذو المظهرين... فحسب تغير الجو، يربي لحيته وأظافره وحتّى لسانه، وكان يتأنق ويتزيّن بأبهى ملابسه ويتعطر مثل شاب في أول العمر. وكان يُشتبه به دائما أنه يضمر نوايا سيئة، ربّما بسبب السخرية الّتي تظهر من خلال نظراته، فسرّحه الجيش الفرنسي (انضمت قبيلة أولاد كركب الكبيرة كرجل واحد للثورة). قرّر جيش التّحرير تعيينه كجندي عادي في وحدة تابعة للولاية الرّابعة كانت متمركزة على الحدود الشرقية، ليزرع ألغاما على الطرق المسلوكة من قبل جيش العدو. أدى مهمته بفعالية وهو لا يزال يرغي ويزبد على « طقس اليوم » وهو « طقس غائم » طبعا...

يأخذ الجنود غير المعيّنين في المدافع أو الرشاشات، مكانهم داخل الموقع، متحصنين داخل « ثقوب الزجاجة »[9] بقرار منعهم من أن يستعملوا أسلحتهم الفردية ضد الطائرات المحلّقة على علو مرتفع. أما بالنسبة لتلك المحلِّقة على علو منخفض، فلا يحتاج الجندي إلى إذن لكي يجرب حظه.

وقع اختياري على القمة العسكريّة الّتي نحتلها وهي الوحيدة الّتي تسمح بالوصول إلى مركز خبوشة، برج مراقبة من الإسمنت المسلح « مثقوب » بملاجئ محصنة ومُطوّق بأبراج مصفحة. حُددت ساعة العمل بطريقة تجعل المعركة تدوم ساعتين على الأقل، هذا يعني حتّى حلول الليل. كان معي تعزيزات من مدفعين عيار 75 ملم (ذو مدى نصف منحنٍ يصل إلى 7.000 متر) لعبد الله سناني، الّذي كان ينتمي إلى وحدتي الثقيلة القديمة. بالنسبة لي، أخذت على عاتقي، مدفَعي هاون عيار 82 ملم على مسافة من هنا. لاحظت أن مداهما الأقصى، أقصر من المسافة الّتي تفصلنا عن الهدف بمائة متر، توقفت للحظة وراقبت الرمايات القصوى لمدافع الـ 75 ملم. كانت انفجارات قذائف مدافع الهاون عيار 120 ملم التابعة لرمضان فرّاحي على برجيلات وبوحجار، تدوي. وحيث أني كنت غير قادر على تغيير وضعية مدافعي العيار 82 ملم، لجأت عندئذ إلى حيلة قديمة استعارها النقيب محمد زرقيني من ممارسات الفرنسيين خلال حرب الهند الصينية. كانت تقضي بتقليص حجم مركز رمي الأنبوب بصب كمية خفيفة من الماء، ما يضاعف من قوة انطلاق خرطوشة الدفع للقنبلة. لكن هذه الطريقة غير المدروسة (بالإضافة إلى أنها ممنوعة) يمكن أن تسبب في انفجار المدفع وتضع مستعمليها خارج المعركة. أبعدت قسما من رجالي، وسكبت بعناية دفعتين كبيرتين من الماء داخل الأنبوب. أعطيت إشارة للرامي أن ينفذ. انطلقت القذيفة. صمد الأنبوب. الفضل يعود لزرقيني. انفجرت القنبلة على الطريق، أبعد من الهدف بكثير. صوّبت الرماية على ضوء سقوط القذيفة، فقاد مسار القذيفة الثّالثة إلى قلب الهدف.

قمت بنفس العمل مع المدفع الثّاني. بحيث أن دقة الرمي الّتي بدأت بعد ذلك، غلّفت الهدف بدخان أسود يختلف عن الدخان الأبيض الّذي تطلقه القذائف ذات الشحنة المُفَرَّغة لمدافع عيار 75 ملم.

ظهرت الطائرات. فحلقت بادئ الأمر فوق الأهداف المقصوفة. سمحت المهلة القصيرة لنا بمواصلة إرسال قذائفنا دون أن ننسى أن نمرر في الأنابيب مسحات المدافع لإزالة الفسالة الّتي يتركها بارود القذائف. والّتي تقلّص من مجال الرمي. حددت نيران انطلاق قذائفنا للطّيران مراكز مواقعنا. ودخلت رشاشاتنا المضادة للطائرات في العملية. سحبنا بسرعة مدافعنا نحو مخابئ مجهزة. على جناحنا الأيمن تدخَّلت كتيبة النّاحية الثقيلة التابعة لعبد المالك قنايزية. أصيبت

9. « ثقب الزجاجة » : موقع فردي للرمي محفور في الأرض، بشكل زجاجة. أخذه الجيش الفرنسي من العسكريّين الفيتناميين خلال حرب الهند الصينية. علوها يعادل قامة رجل (بالكاد يكون 50 سنتم)، يتوسع بالتدريج، ويزيد عمقه حتّى يصل لارتفاع 1 وضعية الرمي وقوفاً. تسمح للرامي بأن يَرى دون أن يُرى وبأن يطلق النار وهو محميٌ بشكل جيد. اتَّبعه المشاة الجزائريون للحماية وخاصة في الأراضي المسطحة.

طائرة « تي 28 » برشق من رشاشات 7/12 ثم تحطمت كلّيا. تدخلت مدفعية العدو في العملية فكان مقاتلونا يواجهون الطائرات بحماس. امتدت المعركة حتّى ساعة متأخرة من المساء. ظهرت القنابل المضيئة في السماء، وراح الخط الناري المنقّط للرصاصات الخطاطة والحرائق الّتي اندلعت بفعل قصف قنابل النابالم ترسم لوحة بديعة ومأساوية في آن واحد.

منذ لحظة توقف المعركة، قمت بجولة عبر الوحدات. قرأت على وجوه الرّجال افتخارا بإفشالنا كلّ الترسانة الحربية للجيش الفرنسي. فرُحت أتساءل إنّ كانت الثقة قد تملكت الفيلق الخامس والعشرين بهذه السرعة..

بعد هذه العملية، تبدلت الكتيبة كثيرا من الداخل. غرست فيها المعركة الّتي عاشتها – ولكن لم تصبها نيرانها – ردود فعل جديدة. أعطتها الثقة بقدراتها وبقدرات إطاراتها. بقِيت تحت قيادتي حتّى الاستقلال، في نفس القطاع الّذي يبدو فيه نشاط الفرنسيين الأكثر كثافة. لم تمنعها مواصلة المفاوضات، بما في ذلك مرحلتها الأخيرة، من مواصلة المعارك ومن تكثيفها.

لم تتوقف المناوشات الّتي تستهدف المراكز. وكانت عمليات الرد أكثر حدة، ولكن العدو أقام أنظمة قصف أكثر تطورا.

في مركز خبوشة، بدا أن الجنود الفرنسيين الّذين تلقوا عدة مرات قذائف مدمِّرة في مواعيد رفع العلم، فهموا الدرس. حيّرتنا طريقة تصرفهم. بعد مراقبتهم طويلا، اكتشفنا بأنّهم وجدوا حيلة ذكية لرفع الراية على قمة السارية وهم ماكثون داخل مخابئهم المحصنة.

شهداء الساعة الأخيرة

عشية وقف إطلاق النار، تلقينا الأمر بتصعيد الضغط على التشكيل الفرنسي وباحتلال مواقع استراتيجية. ورغم اقتراب وقف إطلاق النار الّذي حصل في 19 مارس 1962، تواصلت عملياتنا. خلال تلك الفترة، اختبرنا ثلاثة أسلحة جديدة. مدافع عيار 122 ملم و85 ملم ذات المجالات على التوالي 12 و14 كلم، وقد استعملناها ضد موقع عين زانة، وقاذفات اللهب (خليط من البنزين والجيلاتين) استعملناها لمرّة واحدة ووحيدة ضد الأبراج المحصنة. أجبر ذلك الفرنسيين، الّذين فوجئوا بالسلاح الجديد ذي الفعالية المحبطة، على التراجع منذ الهجمات الأولى، تاركين مراكزهم.

باستعمالنا هذه الأسلحة الرهيبة، كنا نخاطر أكثر من الطيارين الفرنسيين الّذين يصبُّون علينا وعلى سكاننا حاوياتهم من النابالم.

سيكون للمدفعين من عيار 85 ملم التابعين لي، والموضوعين تحت إمرة زين العابدين حشيشي (أصبح لواء في الجيش الوطني الشّعبي) فعالية كبيرة جدا. لدى استلامي هذه الأسلحة، بدأت مع حشيشي عملية استكشاف لكي نحدد أفضل المواقع للتمركز. لم يكن نقلهما بالعملية السهلة

نظرا إلى وزنهما وحجمهما. رفعناهما بالأيدي وبواسطة الحبال حتّى قمة الجبل. وضع مركزي المدفعيّة طارات وحمام بوحجر خارج المعركة ليلة السادس والسابع من مارس. زوّدتنا أجهزة التنصت التابعة لنا بنتائج هذا الهجوم. في طارات، دُمِّر مدفع وقتل أربعة جنود وجُرِح آخرون. لم يحصل رد فعل مدفعية المركز، هذا المساء، انطلاقا من موقعه الأصلي. عندما عدت إلى الموقع بعد الاستقلال، لاحظت بأن مواقع المدافع الفرنسية لم تكن مجهزة تجهيزا جيدا. ففجوات القنابل وآثار الاصطدام الّتي رأيتها بعد انتهاء العملية، تثبت بأن الفرنسيين كانوا ليس فقط متفاجئين باستعمالنا المواقع البعيدة المدى ولكنهم أصيبوا بخسائر جسيمة.

في الوقت نفسه، استلمت مدافع عيار 85 ملم، وقسما كبيرا من معدات كتيبة النّاحية الثقيلة السادسة التابعة لمختار كركب، ومن بينها مدافع ألمانية مضادة للطائرات عيار 20 ملم، وبطارية مدفعية هاون ثقيلة عيار 120 ملم، موضوعة تحت إمرة رمضان فرَّاحي، الّذي أصبح فيما بعد نقيبا في الجيش الوطني الشّعبي (تقاعد باكرا لأسباب صحيَّة). اتخذ فرَّاحي الّذي عززت قوّاته بمدفعين عيار 75 ملم، موقعا في ناحية بوحجر(لامي) حيث بقي حتّى 13 مارس 1962 مهدِّدا مراكز برجيلات (1) وبرجيلات (2) وكذلك مراكز بوحجر طبعا. ذات مساء، أصيبت ثكنة بوحجر إصابة مباشرة برشقات من قنابل عيار 120 ملم و75 ملم. فأشعلت كلّيا. في اليوم التّالي، قرأت تقريرا لأجهزة التنصت يشير إلى مقتل سبعة وثلاثين عسكريا. كان فرّاحي، الّذي سجّل بأن المسافة الّتي تفصله عن أول وعن ثاني مركز في برجيلات لا تمثل سوى « شحنة » بسيطة من البارود، يحضّر قذائفه بناء على ذلك. كان يستعمل بالتناوب قذيفة مع شحنة مقوية وقذيفة دون مقوّية، فأصيب المركزان على التوالي، وأدى ذلك إلى مخادعة المسدّدين الفرنسيين. عندما زرت القرية غداة الاستقلال، كانت جدران الثكنة ما زالت تحمل الآثار السوداء لهجماتنا.

كانت العملية الأكثر فتكا بالفرنسيين من تنفيذ معاوني طراد المدعو الورجيني[10] والكتيبة الثّانية، تحت إمرة محمد سهيلي، المجهزة بمدافع عيار 57 ملم، وبقاذفات لهب ومدافع البازوكا. فما إنّ بدأت قاذفات اللهب بالرمي حتّى أخليت الأبراج المحصنة المستهدفة، من محتليها.

نجح الهجوم، الّذي راقبته من موقع قريب بصحبة حشيشي، في مرحلته الأولى، مرحلة الاقتحام. ولكن عملية التراجع الّذي قادوه كان كابوسا حقيقيا. رُصدوا جزئيا من قبل المدفعيّة الموجهة بالرادارات المغناطيسية المنصوبة في موقع برجيلات، ولم يستطيعوا الهرب من القذائف ذات الدقة الرفيعة، حتّى عندما يتوقفون أو يغيرون اتجاههم. ولم يكن بإمكاننا أن نفعل شيئاً لأننا كنا غير قادرين على كشف مواقع العدو. فقدنا في تلك الليلة، قائد السرية محمد سهيلي

10. لسخرية القدر، سقط صالح المقدام والمشبّع بروح التضحية، بعد الاستقلال، تحت رصاصات أحد قدماء المجاهدين كان قد التحق بحركة التمرد الّتي أعلنتها جبهة القوى الاشتراكية سنة 1963 بقيادة حسين آيت أحمد، بينما كان متوجهاً إليه من دون سلاح، ليقنعه بالتوقف عن إطلاق النار على رفاقه القدامى في السلاح.

والكثير من الرّجال. وفي مارس 1962، ارتفعت خسائري لتصل إلى ستين بين قتيل وجريح، من ضمنهم مناضل من مفجّري أول نوفمبر 1954، سقط ضحية القاذفات « بي 29 » الّتي كانت تقصف على علو مرتفع.

كنت أريد أن أستعيد جثث القتلى بأي ثمن. فأرسلت مجموعتين، الواحدة تلو الأخرى. لم تعد الأولى قطّ، أما الثّانية، الّتي بقيت في الوراء، فأعلمتني بأنه ما إنّ تقدم رجال الطليعة ليحيطوا بنقطة « قرون عيشة »، حتّى وقعوا تحت نيران المدفعيّة الموجهة بالرادارات. ولم يُعثر على جثث محمد سهيلي ورفاقه المساكين إلا في يوم 19 مارس، يوم وقف إطلاق النار، وقد وُورُوا الثرى في جنائزة لائقة بهم.

إنّ الخسائر الّتي تكبّدناها حتّى الساعة النهائية للحرب، على الرغم من الضربات الّتي وجّهناها للعدوّ، جعلت من تاريخ التّاسع عشر من مارس 1962 يوما للحداد والنصر في آن واحد.

كان الصّراع بين هيئة الأركان العامة والحكومة المؤقتة الّذي ظهر للعيان، سببا آخر للحزن. فخلال الفترة الانتقالية، وبينما كنا ننتقل إلى معسكر آخر، رأيت بعض الجنود يذرفون الدموع، وهم مختبئون وراء الأشجار. لم يفهموا لماذا، بعد تلك التضحيات الجسام وفي الوقت الّذي كانت الجزائر بأكملها ستزدان بأعلام الفرح، وفي اللحظة الّتي كانت لا تزال فيها الأرض الّتي كنا قد دفنّا فيها موتانا رطبة، طُلب منهم العصيان ونُعت قادتهم بالمتمرّدين. قام مسؤولون من الحكومة المؤقتة باستخدام أجهزة إرسال زُوّدت بها الفيالق لكي يدعوا الجنود للانصراف والالتحاق بولاياتهم الأصلية.

وكان هناك رجال سياسية هرعوا إلى العاصمة في سباق محموم نحو السّلطة. وتشكّلت جماعات حزبية، كجماعة تيزي وزو وجماعة تلمسان. فهل سنتناحر ؟

إنّ التاريخ يعيد نفسه باستمرار. فقد عادت للظهور النزاعات بين الأحزاب السياسيّة الّتي برزت في الخمسينات. ألهذا السبب كافحنا بضراوة واستشهد الكثير من الجزائريين ؟

سكت صوت الأسلحة. لم يصدّق الثوار نهاية المسيرات المضنية على طول السفوح المتفحمة، ونهاية المواجهات المليئة بالغبار ودوي الانفجارات. يحمل الناجون على وجوههم آثار المأساة الطّويلة الّتي شتتت صفوفهم : جلود يبّسها كلٌّ مِنَ الشمس والصقيع، وأجساد مفككة داخل ملابس متآكلّة بفعل المسيرات عبر الأدغال. الأسلحة المصقولة تعكس بلمعانها لمسات الأيدي المتكررة. فمن خلال مظهرها الخارجي، تتجلّى كلّ معاناة الوحدات لفترة طويلة. ليس هناك أدنى علامة فرح. الأجسادة متعبة والنظرات حزينة.

مع غروب الشمس في الغرب، تفترش الجبال بساطا أحمر. فالشفق الّذي نزل على الجزائر، في اليوم الّذي تلا التّاسع عشر من مارس، هو كفن يغطي أكثر من قرن من الظلم والعنف... الجزائر فرنسية. فالجزائر الفرنسية جزائر المجازر وقانون الأهالي وضريبة الدم والمقصلة وسجون كيان لم تعد موجودة. لقد ماتت.

أحس في أعماقي بالأحاسيس الّتي أبكت بعض رجالي وهم مختبئون وراء جذوع أشجار الزان. لا شك أنّهم يفكرون في رفاقنا الّذين فقدناهم إلى الأبد ... وجوه لا تنسى تطل من أعالي الجبال.

حل الليل كاملا، ليل دامس يبدو أقل عتمة عندما أغمض عينيّ.

في فرجة الغابة الّتي أقام فيها الفيلق مسعكره، خفّت الأصوات فجأة. وتبدو الأطياف كأنها تسبح فوق سحابة من القطن. إنّها لحظات خارج الزمن تسجل في الذاكرة كلّ كلمة تُسمع وكلّ حركة تشاهد.

كان يوم 19 مارس 1962 آخر حلقة من سلسلة سبحة طويلة وأليمة، واضعا بذلك حد لآلاف من أيام الحرب. هل كان 19 مارس يوما للاحتفال ؟ هو بالتأكيد يوم عظيم، وأكبر بما يعبّر عنه.

الفصل التّاسع
إضاءات تاريخية

جيش وجبهة التّحرير الوطني

يجدر بنا أن نعرف، في الوقت الّذي أعلن فيه عن وقف إطلاق النار، كيف استطاع جيش التّحرير الوطني، بوسائله المتواضعة، أن يصمد لمدة ما يقرب من ثماني سنوات، لجيش عصري يملك موارد دولة صناعية قوية ؟ كيف كان سلوك هذا الجيش الفرنسي في الجزائر، وما هي الوسائل الّتي استخدمها في الجزائر ولماذا لم يتمكن من القضاء على جيش التّحرير الوطني ؟ وأخيرا ما هي أبرز المراحل الّتي مر به الوضع العسكري لجيش التّحرير الوطني منذ أول نوفمبر 1954، حتّى 11 أفريل 1961. خلال ندوة صحفية، صرّح الجنرال ديغول من جهته أنه « على قناعة بأن الجزائر دولة ذات سيادة في الداخل والخارج » !

في الفاتح نوفمبر 1954، تاريخ اندلاع الثورة، كان جيش التّحرير الوطني حاضرا، لكن بعدد قليل جدا لا يتعدى بضعة عشرات وفقط في بعض المناطق الجبلية، وأغلبهم مناضلون قدامى في الأحزاب السّياسيّة الوطنية الّتي كانت في السابق تنشط في السرية[1]. كانت المهمّة الأساسيّة لتلك الوحدات الأولى هي « إعلان النفير ». في خلال أشهر قليلة، أي في منتصف عام 1955، أصبحت أفواجها النشطة جدا تشكيلات تضم مئات الرّجال. وكان السلاح هزيلا ومختلطاً : بنادق صيد وبنادق حربية (نادرا) وبنادق رشاشة. معظم هذه الأسلحة تغتنم من العدو على إثر كمائن ناجحة. ولقد سمح الانفتاح على تونس بداية من أواخر عام 1955، للوحدات الّتي تنشط في الأوراس وفي منطقة سوق أهراس بالتزوّد بأسلحة حربية فردية من نوع « موزر » و« ستاتي » الّتي تخلى عنها أثناء الحرب العالمية الثّانية جنود « أفريكا كوربس » بقيادة إرفين رومل بعد انسحابهم.

إنّ سر المقاومة الطّويلة والنصر النهائي يكمن في التأييد الجماهيري الكثيف. وكانت وحدات جيش التحرير في الداخل مدعومة من منظمة سياسية إدارية هي المنظمة المدنية لجبهة التّحرير

---

1. المنظمة الخاصة : كان لأعضاء هذه المنظمة مهمّة التحضير للكفاح المسلح والمشاركة فيه فور اندلاعه.

الوطني السرية الّتي تمتاز بمستوى عالٍ من المرونة والمتانة. بحيث أن كلّ تجمع سكاني ينظم ويهيكل تمديدا لجهود الحرب. وكلما كان هناك انتصار قطاعي للجيش الفرنسي يسجل إسهاماً جديداً سرعان ما يمحو أثره.

على المستوى العسكري، لا يوجد أي فرق بين جيش وجبهة التّحرير الوطني. فحرب التّحرير لم يخضها كيانان مختلفان : جيش التّحرير وجبهة التّحرير، بل خاضتها منظمة واحدة : جبهة التّحرير الّتي تحوّلت بفعل الظّروف إلى جيش التّحرير بالداخل، وجيش التّحرير الّذي يتدخل انطلاقا من الحدود، والمنظمة المدنية لجيش التّحرير ومنظمة الفدائيين.

كانت حرب الجزائر حربا ثورية انتصرت فيها سياسيا جبهة التّحرير الّتي عرفت كيف تستغل بواقعية كلّ إمكانيات المقاومة الّتي يزخر بها الشّعب الجزائري وكلّ الفرص الدولية.

كلّ عضو من أعضاء جيش التّحرير يعتبر نفسه مسؤولا عن آمال وطموحات شعبه. « القضية » تعنيه ويرى أنه أول من يحاسب عليها قبل غيره.

هذا الانخراط الكامل، الأقوى من الانضباط وقوانين العمل وحتّى الطمع في أجرة (غير الموجودة أصلا)، هو الّذي جعل من انتصار حفنة من الرّجال على العدد وعلى المعدات الآلية ممكنا.

الخطط الّتي وضعها الفرنسيون

إنّ ما يتبيّن من دراسة الاستراتيجية الأولية الّتي وضعها الجيش الفرنسي في الجزائر بداية من 2 نوفمبر 1954، هو عدم ملاءمة الخطط نتيجة الجهل المطبق بالأوضاع السّياسيّة والاقتصادية والاجتماعية السائدة في المستعمرة، ثم بالآثار النفسية الّتي تركتها التطورات السّياسيّة في شمال إفريقيا على الجزائريين. فمن يعيد قراءة تصريحات كبار المسؤولين الفرنسيين آنذاك ويحلل قراراتهم، يشعر وكأن الجزائر أرض غريبة بينما هم احتلوها منذ أزيد من قرن. الصورة الّتي يملكونها عن هذا الإقليم، من أبسط إداري لبلدية مختلطة إلى غاية الحاكم العام، مرورا بكلّ المراتب الوسطى للأسلاك المدنية والعسكريّة، هي صورة جزائر مختلفة عن الجزائر الحقيقية.

ففي الوقت الّذي كان أعضاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل[2] التسعة يضعون آخر اللمسات لتنظيمهم العسكري، ويقسمون الجزائر إلى ولايات ويحددون تاريخ اندلاع الثورة، كان كبار رجال السياسة الفرنسيون ينوّهون بـ« الهدوء الّذي تعيشه الجزائر مقارنة بالتوترات الّتي تعرفها تونس والمغرب ».

عشية أول نوفمبر 1954، لم يكن للجنرال شيريار، الّذي تولى قيادة الجيش في 27 أكتوبر 1954 (وبقي فيها إلى غاية جوان 1955)، سوى فيلقين للمظليين، وثلاثة فيالق من فرقة المشاة الحادية عشرة، وفيلق واحد من اللفيف الأجنبي وسريتين من المدرعات.

---

2. حركة استقلالية تولّت التحضير لتفجير الثورة المسلّحة.

في أواخر شهر أكتوبر 1954، لما بدأت تتوارد تقارير مخيفة عن الاستعلامات العامة[3]، قامت السلطات، من غير قناعة كبيرة، بإخطار فرقة المشاة.. DIA. الخامسة والعشرين وقرّرت نقلها إلى الجزائر جوا وبحرا. في « مجلة الدّفاع الوطني » الصادرة في ديسمبر 1956، نشر الجنرال شيريار مقالا يدل بأنّه لم يفقه شيئا في الحركة المسلّحة الّتي يواجهها : « تبيّن التبعات المباشرة لحركة التمرد أننا أمام انتفاضة قبلية شبيهة بالانتفاضات الّتي طبعت تاريخنا في شمال إفريقيا[4]. فإذن يكفي للجيش بتحييد القبائل المتمردة بعد تحديد مواقعها وذلك بتسخير قوّات قليلة جدا لن تكون بحاجة لدعم مادي من الخارج. »

فمصطلح « pacification » (الّذي يعني لغويا إحلال السلم)، والّذي يدل على مدى نفاق دعاته وإصرارهم على إخفاء الحقيقة، يعبّر في الأصل عن فكرة خاطئة، وهي فكرة وجود حركة تمرد ريفية سببّها البؤس ويقودها أناس متعصبون ينبغي إخضاعهم وتحييدهم على طريقة جنرالات جيش إفريقيا في بداية الاحتلال.

هذا الخطأ في التقدير، الّذي اشترك فيه الكثير من القادة العسكريّين والمدنيّين الفرنسيين، كلّف الجيش الفرنسي ثمنا غاليا، بما أنه أتاح الفرصة لجيش التّحرير الوطني بتهيئة نفسه وترسيخ قواعده.

لما كان عباس لغرور في منطقة خنشلة يوّحد تحت راية الثورة الفلاحين والعمال والطلبة، خاطبه الجنرال بارلانج بأسلوب الأربعينات من القرن التّاسع عشر : « سيدي عباس، إنّ فرنسا تمنحك الأمان »[5]. فيما سعى الجنرال فانوكسم لتكرار الخطط الّتي استعملت في القرن التّاسع عشر لما كانت فرق التركوس والسبايس والزواف يذبحون الفلاحين الّذين هجموا ببنادقهم خلف رايات بعض المقامات الدينية، ودعا لبقاء لواء المشاة الجزائريين السابع عشر في الجزائر، كما سن سياسة لتجنيد آلاف من الملحقين المسلمين.

انطلق هؤلاء الجنرالات من فكرة أساسها أن الشباب الجزائري « الحركي » سيكون « النواة المركزية الّتي ستستقطب إليها مجموعات أخرى من السكان الأصليين الموالين لفرنسا. »

في الصفحات الّتي خصصتها لعملية « الساس » (مصالح الإدارة المتخصصة)، والّتي سيأتي ذكرها لاحقا، أوضحت كيف أن بعض الضبّاطالفرنسيين سعوا لتغيير مجرى التاريخ بطرق سحرية. بينما تأكد أن التخطيطات النظرية الّتي لا تراعي الواقع لا مستقبل لها.

---

3. « في 26 أكتوبر، كشف البريفي فوجور عن معلومات ثمينة وردت من اللجنة العر بية بالقاهرة ». فرانسوا بورتو موراندير، « جنود الجبل ». من مدّ الفرنسيين بمثل هذه المعلومات ؟ وهل أعلمت المخابرات المصرية بتاريخ اندلاع الثورة، ومن طرف من ؟

ولقد ردّ عليه عباس لغرور بهذه العبارة : « إنّ زمن سيدي قد ولّى أيها الجنرال ! »

4. انظروا إلى مستوى التحليل !

5. عباس لغرور، القائد العسكري للأوراس. ألحق بقوّات النخبة الفرنسية هزائم عديدة بين عامي 1954 و1955. بطل من أبطال معركة الجرف الّتي وقعت في سبتمبر 1955.

في البداية، بادرت القوّات الفرنسية المدرعة، وهي في حالتها غير مهيأة، باستعراض عضلاتها في موانئ الإنزال وعلى الطرق المعبّدة وفي محيط الجبال المحوّلة إلى ميادين للمناورات. فلقيت عبارة ليوتي الشهيرة : « أظهر القوة حتّى لا تضطر لاستعمالها » تطبيقا جديدا لها في مسرح العمليات الجزائري.

لم يتم أي شيء فعّال حقا لمنع الصعود الكاسح لجيش التّحرير، لأن قيادة الأركان الفرنسية لم تتقبل أن هذا التطور، السلبي بالنسبة إليها، هو نتيجة التحام الجماهير بفكرة الاستقلال.

لم يفعل الضبّاطالعسكريون أي شيء لحمل رجال السياسة في بلدهم على الاقتناع (وهل هم أنفسهم مقتنعون ؟) بأن الانتفاضة الّتي طولبوا بقمعها هي حركة قوية أساسها مطلب سياسي قديم لم يكن ينتظر سوى الظّروف السانحة ليعبّر عن نفسه بقوة. ولقد طبقت المقولة الشهيرة : « **القوا بالثورة في الشارع سيحتضنها الشّعب** »[6] بنجاح في أوّل نوفمبر 1954. في تلك الفترة، بادر بيار منديس فرانس، الّذي يعتبره بعض المحللين المتملقين أذكى رئيس حكومة عرفته الجمهوريّة الرّابعة وأكثرهم واقعية، بمنح الجزائريين قانون عام 1947 وحق التصويت للمسلمين... وبالتعجيل في إرسال قوّات مسلحة. الّذي أتى بعده، إدغار فور، أقام سياسته منذ 23 فيفري 1955، على نفس النهج : « الجمهوريّة الفرنسية موحدة وغير قابلة للتقسيم ». ولقد أثار « الكوليج الموحّد »[7] الّذي اقترحه إدغار فور موجة من الغضب في الجزائر وفي باريس، في صفوف دعاة بقاء الوضع الاستعماري القائم. وهذا يدل على قصر نظر أوروبيي الجزائر وممثليهم. وبينما كانت الدّار تحترق، لم يجدوا سوى أن يصبوا جام غضبهم على المطافئ. وبعد سنوات قليلة، سيعجزون حتّى على إنّقاذ أثاثهم...

الفشل في القضاء على جيش التّحرير ومعه النكبة الّتي عرفتها وحدات المشاة في الأوراس والنمامشة، أرغم إدغار فور في 19 ماي 1955 على استدعاء جنود الاحتياط.

في منتصف عام 1955، وصلت تعزيزات أخرى. حوالي عشرين فيلقا إضافيا جاءت لدعم القوّات الّتي تحارب في السلاسل الجبلية الكبرى في وسط وشرق الجزائر. لكن من دون جدوى. كانت ديناميكية المقاومة قد انطلقت. وسقط العديد من قادة الفيالق الفرنسية في المعارك. وأصبح عباس لغرور ورجاله يفرضون سيادتهم في الأوراس. في شهر أفريل، وعقب الكمين الّذي أودى بحياة الحاكم الإداري دوبوي وحرسه[8]، بالقرب من خنشلة، قرّر بارلانج إخلاء جزء من النمامشة...

كان عام 1955 بالنسبة للفرنسيين عاما من الأخطاء والارتجال والهزائم النكراء. وفي انتظار القضاء على جيش التّحرير، عمدوا تضليل الشّعب الفرنسي والرأي العام الدولي، بتزييف الحقائق أولا. أطلقت على الحرب تسمية « إحلال السلم » والمعتقلات اسم « مراكز الإيواء »، وقوّات

6. عبارة تنسب للعربي بن مهيدي.
7. في هذا الكوليج الموحّد، ناخب فرنسي واحد يعادل عشرة ناخبين جزائريين. يصوّت الأول في الكوليج الأول، والثّاني في الكوليج الثّاني.
8. كمين نصبه عمور بوقوسة، رفيق عباس لغرور.

القمع اسم « قوّات حفظ الأمن ». وفور إقامة الواجهة المزيفة، حاول الجنرالات الفرنسيون إضفاء المصداقية على شعار « السكان أوفياء لفرنسا ». استعانوا بالأعيان التقليديين، وجنّدوا فلاحين في بعض المناطق الريفية[9]. اعتقلوا بصفة وقائية الأشخاص المسجّلين في مصالح البوليس. وخططوا لعمليات إرهابية ضد قادة الثورة[10]. كما شنوا حملة قمع وحشية في الأرياف. ولما أدركوا بعد أشهر بأن الرهان مع جيش التّحرير ليس عسكريا بحتا، وإنّما بسيكولوجيا وسياسيا، بكسب السكان وأن مسعاه طويل المدى، بدؤوا يغيرون في نهجهم واضعين سكان الأرياف نصب أعينهم. وكان إنشاء مصالح الإدارة الخاصة (ساس) بتاريخ 30 أكتوبر 1955، يندرج ضمن هذا المسعى. هذه المكاتب الّتي لديها واجهة إدارية واجتماعية، تملك وسائل عسكرية وتسعى لتحقيق هدف سياسي يتمثل في صد النفوذ المتزايد لجبهة التّحرير الوطني ونشر عقيدة « الجزائر الفرنسية ». ولقد استمرت هذه الأوهام كلّ مدة الحرب. من خلال هذه العملية المدعومة بدعاية متواصلة ومكثفة، يحاول الضبّاطإيصال رسالة مفادها أن فرنسا تمثل « الحضارة » بينما جبهة التّحرير تمثل « التخلف » و« التوحش ». ولقد بلغت عملية « الساس » ذروتها بعد ماي 1958، بعناوين جديدة مثل : « الرخاء » و« الحرية » و« التربية » و« الأنوار » و« الرقي » و« القرن العشرين » وغيرها.

لكن المفارقة المطروحة : كيف يمكن كسب قلوب الجزائريين وهم يقصفون ويعتقلون ويعدمون ؟ أو عندما لا نقدّم لهم أي شيء يصلحون به أحوالهم ؟ أو عندما لا يريد الأقدام السوداء الّذين يشكّلون الأقلية التنازل عن أي من امتيازاتهم ؟ النتائج الهزيلة الّتي حققتها مصالح « الساس » في رقعتها الجغرافية الصغيرة هي أشبه بالشجرة الّتي تخفي الغابة. وتقلصت زبانيتها إلى أن انحصرت في الحركى وبعض الإقطاعيين وحاشيتها، إضافة إلى الفلاحين الّذين حلّوا رغما عنهم « ضيوفا » في المحتشدات.

فروع الإدارة الخاصة (ساس) [11]

أنشئت هذه المصلحة بقرار من الحاكم العام بالجزائر بتاريخ 26 سبتمبر 1955، نشر في الجريدة الرسمية للجزائر في أول أكتوبر 1955.

في 22 جانفي 1955، أرسل الجنرال شيريار، قائد المنطقة العسكريّة العاشرة، إلى وزيره بعدما تذكر بحملاته في المغرب الأقصى، ليطالبه بالتعزيزات الّتي وعد بها ولم تصل إلا بالتقطير وكذلك بإمكانيات إضافية لإقامة « مكاتب عسكرية للعمل والاستعلامات ». بهذه الصيغة استحدث في المغرب عام 1909 المصلحة الّتي أصبحت فيما بعد تسمى « الشؤون الأهلية ». كما اقترح

9. أمر الحاكم العام، جاك سوستيل، بتوزيع معونات على المحتاجين في تابلاط.

10. محاولة اغتيال بن بلة في طرابلس.

11. حسب دراسة قام بها جورج أودينو نشرت في جويلية 2008. شارك أودينو في حرب الهند الصينية كنقيب. في عام 1956، تطوّع للعمل في مكاتب « ساس » بالجزائر. تولى قيادة مكتب بني دوالة بمنطقة القبائل، وبقي في هذا المنصب إلى غاية أفريل 1961.

الجنرال في نفس السياق « توأمة على كافة المستويات للسلطات المدنية والعسكريّة ». ولهذا الغرض، طلب بأن يرسل إليه ضبّاطاً من الشؤون الأهلية بالمغرب المتفرغين بعد تبوّئ محميتنا للاستقلال. وعيّن هؤلاء الضبّاطفي الأوراس ومنطقة القبائل.

بعد سقوط منديس فرانس، جاء في مكانه إدغار فور. وتولى الحاكم العام جاك سوستال التكفل بمطالب الجنرال شيريار، فوضع تحت تصرفه الجنرال بارلانج وهو من قدماء الشؤون الأهلية « المغاربة »، استدعي إلى الخدمة مجددا بعدما أحيل على التقاعد. عيّن قائدا مدنيا وعسكريا لإقليم يضم الأوراس والنمامشة، مكلّفا بعملية نموذجية جنّد لها فريق من أربعة عشر ضابطا من الشؤون الأهلية وأحد عشر ضابطا من الشؤون الصّحراوية. عيّنوا على رأس أقاليم إدارية استحدثت بعد تقسيم عدد من البلديات المختلطة. شرعوا في ربط الاتصال بالسكان وهم في حالة من الرعب والخوف وتحت تأثير خفي للثوار.

إنشاء مصلحة للشؤون الجزائرية

بعد الحكم على تجربة بارلانج عموما بالإيجابية، قرّر سوستيل طرق الحديد مادام ساخنا وطالب باستحداث مصلحة جديدة، هي مصلحة الشؤون الجزائرية، على أن تلحق مباشرة بديوان الحاكم العام.

المشروع طموح ومستجد : سيتم تقسيم أقاليم البلديات المختلطة التسعة والسبعين إلى قطع تحوّل إلى فروع إدارية متخصصة، وهي تسمية لا تعني الشيء الكثير في الحقيقة، إلا أنها سرعان ما تتحول إلى « وعاء » شاسع وقابل للتمديد ستوضع تحت نفس الخوذة... الزرقاء ذات الهلال الذهبي كمية هائلة من الوظائف والمهام من كلّ نوع.

دخلت هذه الفروع الإدارية الجديدة ومعها المعيّنون فيها التاريخ من دون استئذان. وصنعت بشعارها المختزل « ساس » اسمًا أو قل اسميْنِ : الأول مؤنث « لا ساس » يعني المباني الّتي أقيمت فيها الإدارة أو القطعة الترابية الجزائرية الّتي وضعت تحت وصايتها، والاسم الآخر مذكر، « لو ساس » الّذي أصبح يعرف به الضابط المكلّف بالمهمّة... [12]

في البداية كانت « مكاتب العرب »

كما رأينا، لم يخترع سوستيل ولا الجنرال شيريار الفروع الإدارية المتخصصة (ساس) من العدم. بل أخذا وكيّفا نموذجا من العمل السياسي الإداري أثبت نجاحه في المغرب تحت تسمية مصلحة الشؤون الأهلية، الّتي أنشئت على هذا الإقليم في صيغتها المؤقتة والتجريبية عام 1909، قبل أن

---

12. اختار جيش التّحرير مهاجمة مكاتب « ساس » أولا. ويقرّ أودينو بمقتل 133 ضابطا و63 ضابط صف و1321 ملحق مدني ومخزني.

يكتمل تكوينها بداية من عام 1913 بأربعة وسبعين « حلقة » مشتغلة. في عام 1953، كانت لا تزال هناك ثلاثة وعشرون حلقة من الجبل المغربي تحت وصاية ضباط شؤون الأهالي الّذين برزوا في تلك الفترة بتجنيد وتأطير « الطوابير » الّذين شاركوا ببسالة في حملات صقلية وإيطاليا وفرنسا والهند الصينية.

لكن، إذا أردنا أن نعرف « أسلافنا » علينا أن نعيد بعجلة الزمن إلى أبعد من هذه الفترة. لكن جغرافيا نبقى في نفس المكان، لأن أول مرّة أقيمت فيها مصلحة إدارية عسكرية كان تحديدا في الجزائر، وسميت : مكاتب العرب (Bureaux arabes)، وكانت لها مهمّة متعددة، إدارية وسياسية معا يسيّرها فريق من الضبّاطالمتخصصين. هذه المصلحة الّتي أنشأها الجنرال تريزال في أفريل 1833، أقيمت تدريجيا في مدينة الجزائر وضواحيها وأسندت إلى الجنرال لاموريسيار بداية من عام 1844. وكان هناك واحد وأربعون مكتبا في عام 1865، ولكلّ مكتب عدة ملحقات.

يكمن دورها في الاتصال المباشر بالأهالي والتحكم في إدارة القبائل. كان اختصاصها يشمل المجالات السّياسيّة والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقانونية. وكانت مكلّفة بمهمّة الشرطة، لاسيما شرطة الأسواق الّتي تعد نقاطا حساسة وأماكن اللقاء التقليدية. كما كانت تمارس الرقابة على القضاء الإسلامي ولها كامل الصلاحيات للتحقيق والبت في الجرائم والجنح وأي مؤامرة محتملة ضد السّلطة الفرنسية.

يشمل عملها الإداري أمورا شتى مثل استحداث الحالة المدنية وجدول الضرائب وإنجاز أشغال ذات منفعة عامة مع التحكم في تسيير النفقات المترتبة عنها. على الصعيد الاجتماعي، تقدّم المساعدة الطبية الّتي يقوم بها طبيب عسكري.

الشؤون الجزائرية ومكاتب « الساس » عام 1955

توضح النصوص التأسيسية لمصلحة الشؤون الجزائرية البنية الإدارية للجزائر في عام 1955، مشيرة إلى أن الإقليم الّذي يتربع على مساحة قدرها 000 209 كلم^2 وعدد سكانه 000 500 9 نسمة، ينقسم إلى ثلاث عمالات : الجزائر، وهران وقسنطينة، وهي نفسها تنقسم إلى دوائر، عددها اثنتا عشرة في المجموع، تحكم سبعة مائة ألف نسمة في المتوسط.

وهناك تسعة وسبعون بلدية مختلطة ملتحقة بالدوائر، تتقاسم إدارة شؤون سبعة ملايين مسلم من الأهالي، أي ما يعادل ما بين ثمانين ألفا ومائة ألف نسمة، ما يمثل (في المعدل أيضا) ربع عمالة من عمالاتنا أي ما يعادل دائرة من دوائرنا الكبيرة.

على رأس البلديات المختلطة يوجد حاكم إداري يقوم بمهام رئيس بلدية وفق الإطار الخاص بالبلديات المختلطة، ومن المفروض أن يكون له نائب، لكن نادرا ما حصل ذلك. ويساعدهم عشرة معاونين من الموظفين وأغلبهم من السكان المحليين. كما يمثل رئيس البلدية في « البلاد » عدد

متباين من القيّاد، وهم موظفون يمثلون السّلطة على رأس الدواوير مهتمهم نشر وتنفيذ أوامر رئيس البلدية.

المدن والبلدات ذات الأغلبية الأوروبية هي فقط الّتي تتمتع بصفة البلديات « ذات الصلاحيات الكاملة »، طبقا لقانون 1884، على غرار بلديات المتروبول الستة والثّلاثين ألفاً. وهي ملحقة مباشرة بالدوائر.

كذلك إنّ تواجد مصالح الشرطة وتعداد قوّاتها بقي ضعيفا. إذ أن على مستوى البلدية المختلطة لا توجد سوى فرقة درك واحدة لا تزيد كثافة عن مركز من مراكز كانتوناتنا إلا قليلا، وحرس غابات من الأهالي يتبع الحاكم الإداري.

مهام قائد « الساس »

المهمّة العسكريّة

تكمن المهمّة الرّئيسية لقائد فرع الإدارة الخاصة (ساس)، بالنظر إلى الظّروف الطارئة، في « استعادة خط الاتصال ». وهذا يستدعي ضِمْنًا « تقصي المعلومات » الّذي يستوجب بدوره إحصاء السكان وتقييد أسمائهم بصورة آلية. كلّ ذلك، وفي الحد الفاصل بين المهمّة المدنية والمهمّة العسكريّة، يتم بالتنسيق الوثيق مع قائد وحدة التطويق الّتي يتكامل عملها مع عمل فرع الإدارة التخصصة.

بالإضافة إلى ذلك، تتضمن مهمته العسكريّة : • مشاركته في إعداد العمليات المحلية الهامة وفي تنفيذها، • التجنيد والتعبئة الدائمة للمخزن، • تنظيم القرى الموالية وتشكيل مجموعات الدّفاع الذاتي بالتعاون مع السّلطة العسكريّة.

المهمّة السّياسيّة

ينتظر من قائد « الساس » أن يخوض عمل سياسي عميق وحاسم لصد حركة التمرد ويقطع عليها الطريق، ويستعيد منها النفوذ الّذي تمارسه على السكان في أي مكان استطاعت أن تفرض نفسها فيه. ويتعيّن عليه إقناع المغرر بهم واستمالة المترددين وضمان أمن وحماية الجميع، بمشاركة الجيش.

المهمّة الإدارية

فكما سنرى ذلك طيلة هذا العرض، ليس لنطاق تدخل قائد « الساس » على صعيد المهام الإدارية أية حدود. ولا أدل على ذلك من أنني حاولت تعداد المشاكل المحلية الّتي لا تدخل في اختصاصه بشكل مباشر أو غير مباشر، فلم أجد.

فقائد « الساس » مكلّف بتنصيب وتفعيل الإدارة في جميع أشكالها وفي كلّ المجالات... ولسد النقص في البلديات، تقوم هذه المكاتب يوميا بالعمل المنوط لأي بلدية عادية تحت وصاية الدوائر الجديدة، وذلك بعدما تفرغ من إنشاء وتنصيب المصالح المطلوبة. ويتعلق الأمر بالحالة المدنية وكلّ ما يترتب عنها وصيانة الطرق والشوارع البلدية الموجودة وإنجاز طرق وشوارع جديدة. يضاف إلى ذلك الدعم الاجتماعي بجميع أشكاله، وهذا يقتضي توفير الإمكانيات الضرورية لتأمين المساعدة الطبية المجانية، من مستوصفات مجهزة وبطاقم كامل من المستخدمين وكذلك تقديم مساعدات للمحتاجين والبطالين والمكفوفين وللعجزة...

كما تتولى مكاتب « الساس » إعادة تشغيل المدارس وبناء مدارس جديدة وتوفير السكن والإمكانيات المادية للمعلّمين، وتشغيل مكتب البريد وإنّعاش السوق إنّ وجد أو إنشاء مثله حيث لا يوجد.

إنّ ما كتبه الضابط أودينو يعبّر عن الأهمية الّتي تكتسيها مكاتب « الساس » في الترسانة الحربية الفرنسية. لهذا وضع جيش التّحرير الوطني ضمن أولوياته تدمير هذه الفروع. ولقد سقط ضبّاط هذه المكاتب بالعشرات تحت ضربات الثوار.

أمام الجهود متعددة الأشكال الّتي بذلها الجيش الفرنسي لتغيير مجرى الأمور، كان جيش التّحرير دائما يتكيّف مع الأوضاع المستجدة.

ولقد عرف جيش التّحرير تطورا بشريا على مرحلتين رئيسيتين : الأولى دامت بضعة أشهر (من نوفمبر 1954 إلى ماي 1955)، وهي مرحلة أفواج الرعيل الأول من قدماء حزب الشّعب والحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، وهي متكوّنة أساسا من قرويين ويؤطرهم مناضلون الكثير منهم جاؤوا من المدن.

شعار هؤلاء المناضلين حاملي السلاح لإقناع الفلاحين : الاستقلال. ولقد أثمرت حملات الشرح المتواصلة والمكثفة لشعارات جبهة التّحرير، بالموازاة مع العمليات الّتي يخوضها جيش التّحرير في الميدان، على الانخراط الجماعي للأرياف منذ صيف عام 1955. دافعت مكاتب « الساس » عن « فرنسا الحضارة والتقدم ». لهذا حرصت جبهة التّحرير قبل السيطرة على المناطق الريفية على التدمير المنهجي للجهاز الإداري الفرنسي المباشر وغير المباشر. فتقرّر تصفية الأعيان، الّذين يشكلون الحلقة الأساسيّة في النّظام الّذي أقامته مكاتب « الساس »، تصفية جسدية إنّ رفضوا الانصياع لأوامر جبهة التّحرير.

في أواخر الخريف، امتدت « العدوى » لتمس كلّ المناطق الّتي لم تتحرك : الشمال الشرقي (القالة، سوق أهراس، الونزة)، الشمال القسنطيني، الجنوب (وادي سوف[13])، والإقليم الوهراني

13. معارك ماي 1955 الّتي شنّها حمة لخضر ضد مهاريي العرق الشرقي.

(بفضل جهود العربي بن مهيدي وعبد الحفيظ بوصوف)، وفي إقليم الجزائر (الّتي حوّلها كريم وأوعمران إلى ضاحية سياسية للولاية الثّالثة وأعطى فيها عبان رمضان أحسن مثل).

استطاعت مجموعات الثوار الّتي يطغى فيها أهل الريف بالرغم من تسليحهم الضعيف وانعدام أي تنسيق وطني لنشاطهم، أن ينشروا حالة من اللاأمن الدائم. عندما يتلقى أي قطاع ضربة، لا أحد يأتي لنجدته. يعيد بناء نفسه بنفسه بفضل تجنيد عناصر جديدة. فلقد كانت الحرب الّتي خاضتها جبهة التّحرير حربا شعبية بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى. في جبال سوق أهراس وفي الناحيتين الخامسة والسادسة من الولاية الأولى، وفي كوندي سمندو (الولاية الثّانية)، وفي الونشريس، وفي كلّ النّواحي المحيطة بجبال بالسترو (الولاية الرّابعة)، وفي أرجاء واسعة من منطقة القبائل، وغيرها، أصبح الانتقال من حرب العصابات إلى مستوى المعارك الطاحنة الّتي تدوم عدة أيام، أمرا ممكنا بفضل حيوية وشجاعة قادة محليين : نذكر هجوم 20 أوت في الشمال القسنطيني بقيادة يوسف زيغود ومعركة الجرف الّتي قادها بشير شيهاني وعاجل عجول وسيدي هاني وعباس لغرور، ومعركة سوق أهراس الّتي كان بطلها يوسف لطرش وهو من الفارين من الجيش الفرنسي (انظر الفصل المخصص لمعركة سوق أهراس).

أجبرت الانتصارات القطاعية الّتي أحرزها جيش التّحرير الجيش الفرنسي إلى العودة إلى التشدد الّذي أثبتت فعاليته فيما مضى. فلجأ إلى حملات القمع الجماعية (باسم المسؤولية الجماعية) والمناطق المحرّمة وبالأخص إلى تعميم التعذيب (باسم « الفعالية »). أثارت هذه الأساليب العملية أزمة معنوية حادة في صفوف الجيش. وتبيّن أن ما يسمى بالمديريات العملية للحماية (DOP)، الّتي تنشط تحت إمرة مكاتب « الساس » ما هي سوى نموذج فرنسي لما يعرف باسم « شوتز ستافل »[14] الهتلرية.

نهاية أسطورة « الغول » العسكري الفرنسي

رغم القمع والبطش الّذي رافق هجوم 20 أوت، إلا أن سنة 1955 كانت بالنسبة للجيش الجزائري الناشئ سنة الخروج من السبات وإنّهاء أسطورة « الغول » العسكري الفرنسي.

إنّ حث الشّعب الجزائري على خوض غمار الكفاح المسلح، بغض النظر عن الصعوبات ذات الطابع التنظيمي أو التقني، كان يعني تشجيعه على قهر الخوف. وكان ذلك أول نصر كبير لجبهة التّحرير الوطني، النصر الّذي سيحدد مصير الحرب الّتي بدأت.

14. « جهاز حماية » نازي معروف أكثر بحرفيه الأولين « اس اس ». المديريات العملية للحماية مكلّفة بجمع المعلومات بأي وسيلة. في 13 نوفمبر 1955، تسلم إدغار فور تقريرًا أعدّه جان ميري، المدير العام للأمن الوطني، يستنكر فيه الأساليب الّتي تستعملها « قوّات حفظ الأمن ». وهناك فرنسيون كبار احتجوا على هذه الطريقة في إدارة الحرب. كما رفض الكثير من المستدعين للخدمة العسكريّة حمل السلاح ضد الشّعب الجزائري. وندد عديد من الجامعيين وممثلي المجتمع المدني بالتعذيب.

لوصف صعوبة الانتقال من حالة الاستسلام إلى الثورة على الوضع القائم، أشرت بإيجاز في الصفحات الأولى من هذا الكتاب، مستشهدا بمصطفى خياطي وبكتابات القدامى، إلى ما ارتكبه جنرال جيش إفريقيا من فظائع غطّت عليها الحكومات الفرنسية المتعاقبة، بل وأثنت عليها.

في المخيلة الجزائرية، بقيت جرائم الجيش الفرنسي الماضية حاضرة. لأن الفرنسيين لم يذوقوا طعم السلم ولم يستمتعوا بثمرة غزوهم للجزائر إلا بعدما قضوا بالقتل والتشريد على مقاومة الشّعب الجزائري. فعلى هذا « الرصيد » من الرعب كان النّظام الاستعماري جالسا لمدة عقود من الزمن وتمنى الاستمرار إلى ما لا نهاية. لم يستطع الفرنسيون أن يتصوروا أن الدروس الّتي أعطيت تُنسى بسرعة إلى درجة أن أولئك الّذين عانوا من الذل يجرؤن على رفع رؤوسهم مجددا. في أواخر عام 1955، لم يكن الجزائريون خائفين. بل كانوا يقاتلون.

سنة 1956، الإشتراكيون أو إطلاق أيادي العسكر

بعد وصول غي مولي إلى السّلطة في أول فيفري 1956، سرعان ما استسلم للشارع الجزائري، مديرا بذلك الظهر لوعوده الانتخابية، وعلى رأسها صنع السلام في الجزائر.

في 12 مارس، نال غي مولي السلطات الخاصة بـ455 صوتا، بما فيها أصوات الحزب الشيوعي الفرنسي. وتعني السلطات الخاصة تجميد الحريات الفردية في الجزائر كما تعني المزيد من الحرب. فقرّر التكثيف من الوسائل والمعدات العسكريّة.

وكان الجنرال لوريو[15] يبدو هو رجل الوضعية. فقام بالتعجيل من وصول فرق حديثة إلى الجزائر، وهي فرق تابعة لقوّات حلف الشمال الأطلسي، منها الفرقة الثّانية والرّابعة لمشاة البحرية DIM والفرقة السابعة DMR.

لم يثر هذا « الاقتطاع » أي معارضة تذكر من قبل الحلفاء الأنكلو أمريكان الّذين أقرّوا بأن « الجزائر محمية من طرف الحلف الأطلسي » ! في فيفري 1957، توصل وزير الشؤون الخارجية بينو إلى إقناع دول[16] وسلفين لويد[17] بحمل الحلف الأطلسي على المصادقة على لائحة مماثلة لتلك الّتي وافقت عليها بلدانه قبل ذلك بخصوص الهند الصينية.

---

15. قائد عام في الفترة من جوان 1955 إلى نوفمبر 56.

16. جون فوستر دالس، من مواليد 25 فيفري 1888 في واشنطن (مقاطعة كولومبيا)، وتوفي في 24 ماي 1959 في مسقط رأسه، هو دبلوماسي أمريكي وسياسي. عضو في الحزب الجمهوري، وكان وزير خارجية الولايات المتحدة بين عامي 1953 و1959 في حكومة الرّئيس دوايت ايزنهاور. كان خبيرا جيوسياسيا محنكا، وهو من ابتدع مفهوم (« ردة ») (« rollback ») الاتحاد السوفيتي.

المصدر : وكيبيديا.

17. جون سلوين بروك لويد (18 مايو 1978 28 يوليو 1904)، ويلقب بالبارون سيلوين لويد، هو عضو في حزب المحافظين البريطاني كاتب دولة للشؤون الخارجية والكومنولث من 1955إلى 1960، ثم وزير الخزينة حتّى عام 1962، وكان رئيسا لمجلس العموم من 1971إلى 1976.

المصدر : وكيبيديا.

وجدت فرنسا في مخازن الحلف الأطلسي الأسلحة والمعدات الضرورية لخوض حربها. وبموجب ذلك أصبحت الثورة الجزائرية تواجه الترسانة الجبارة الّتي يمتلكها الحلف الأطلسي.

تتمثل الخوذة العسكريّة الّتي انتهجها لوريو في إقامة حاميات عسكرية في المراكز الحضرية وحول مستثمرات المعمّرين الهامة. هي خطّة التطويق الشهيرة المستوحاة من فكرة القرى الاستراتيجية الّتي جربت في الهند الصينية بلا جدوى. إذ لا يجد الثوار أية صعوبة لتجنّب تلك « المعسكرات أو ما يسمى « الأشواف ».

أعاد الفرنسيون العمل بالخطط « الباودائية »[18]، باستغلال العجوز مصالي الحاج[19] الّذي أصبح بين أيديهم استغلالا علنيا، فراحوا يجوّلونه من نيورت إلى سابل دولون، إلى بال إيل. وكان أتباعه يزورونه بكلّ حرية ويتلقون إرشادات وتوجيهات وأوامر من أجهزة الاستخبارات وضبّاط مكاتب « الساس » الّذين يأتون خصيصا من الجزائر. (لم يظهر جيش بلونيس من العدم). أصبح بعد ذلك تجنيد المرتزقة في صفوف المسلمين الّذين ظلوا موالين لفرنسا مكثفا. بعد نهاية الحرب، بلغ عدد هؤلاء الملحقين 70 ألفا (45 ألف حركيّ و15 ألف ڤومي، و10 آلاف من عناصر الأفواج المتحركة)، و60 ألف مجنّد موزعين بين مختلف الأسلاك : ألوية المشاة، فرق السبايس، وفي وحدات أقل عملية، مثل قطارات التجهيز، ونادرا ما نجدهم في الفروع التقنية أو في الاتصالات.

إنّ انضمام بعض الشباب الجزائري كمرتزقة إلى القوّات الفرنسية خلال حرب التّحرير واقع مؤسف حقا. ذلك لأن الاحتلال، بعدما خّرب النسيج الاجتماعي الجزائري وأفقر السكان وسلب هويتهم، هيأ الأرضية لتجنيد هؤلاء الشباب.

لكن القطيعة الّتي جاءت بها الثورة، أتاحت الفرصة لكلّ أولائك الّذين أحسوا بالذل في أعماقهم من قبل النّظام القائم، للالتحاق بجيش التّحرير، وأدركوا في الأخير بأنه يستحيل افتكاك أي شيء من دون الكفاح المسلح.

---

18. باو داي، آخر امبراطور الفيتنام « يحكم » تحت الاستعمار الفرنسي.

19. استعرض مصالي الحاج فكرة الوطنية الجزائرية الّتي رسم ملامحها الأمير خالد منذ عام 1924 في ندوات هامة. انتشرت الوطنية في بادئ الأمر في فرنسا في أوساط المغتربين. كان مصالي الحاج مع نجم شمال إفريقيا يدعو إلى استقلال الجزائر. بعد حلها في 26 جانفي 1937 من قبل الجبهة الشّعبية الفرنسية، عاد النجم للظهور في 11 مارس من نفس العام تحت غطاء حزب الشّعب الجزائري، الّذي حلّ هو أيضا في 26 سبتمبر 1939. بعد فترة قضاها في سجون إفريقيا، أطلق صراح مصالي في 11 أغسطس 1946 والتحق بفرنسا. في نوفمبر من نفس العام، عاد حزب الشّعب من جديد تحت اسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية. في 15 فيفري 1945، أثناء مؤتمر الحزب الّذي عقد سريا في مدينة الجزائر، تقرّر العمل على جبهتين : جبهة قانونية وتخص اللعب البرلمانية، وأخرة سرية بإنشاء منظمة شبه عسكرية لإعداد الكفاح المسلح. عند اندلاع الثورة، وصل الانقسام بين حركة مصالي وجبهة التّحرير الوطني غلى نقطة اللارجوع. وبما أن الحركة متواجدة في فرنسا فقط، قام بعض أنصار مصالي الحاج بتشكيل نواة ما سمي فيما بعد بالحركة الوطنية الجزائرية) MNA. وسوف يتبعه صراع عنيف مع هذه الحركة حتّى عام 1961 – تاريخ التحاق الناجين من الصراع بجبهة التّحرير. ولقد شمال هذا الصراع مجموعات الحركى، و« القبعات الزرقاء » ومخبري الشرطة والجنود ورجال الشرطة. ومن باب التوضيح، تشير الأرقام الّتي قدّمها في الجمعية الوطنية الفرنسية لويس جوكس وزير الشؤون الخارجية آنذاك، هي كما يلي : القتلى 3889، الجرحى 7678، مجموع الضحايا : 11567.

المصدر : وكيبيديا.

وإذا كان التحاق الشباب الجزائري بالجيش الاستعماري، في بعض الحالات الاستثنائية، قرارا واعيا وإراديا، يمكن وصفه بالخيانة أو العمالة المقصودة، إلا أن الأمر في المناطق الريفية حيث تم تجنيد أكثرية الحركى[20]، نجد أن من خطط لنظام الارتزاق هم كبار الأعيان من القيّاد الّذين يدافعون عن امتيازاتهم ومراكزهم (مثل الباشاغا بوعلام[21])، تحت تأثير ضبّاط مكاتب « الساس » أو بتقديم كلّ أشكال المساعدة لهم، ردا على التجاوزات الّتي ارتكبتها بعض مجموعات جيش التّحرير خلال عام 1955 (كثرة الحملات الانتقامية باستخدام طرق بشعة، نذكر منها « الليالي الحمراء » في منطقة الصومام، ومجزرة ملوزة[22]). ولقد أثارت هذه التجاوزات ضغائن عميقة استطاعت مع ذلك القيادة السّياسيّة للثورة أن تضع حدا لها بسرعة. المناورات الّتي تقوم بها مكاتب « الساس » تغطيها بخطابات وشعارات تحاول أن تعطي معنى إيديولجيا لعمل المرتزقة : « الجزائر الجديدة، المتساوية والأخوية والمزدهرة ! ».

عهد راؤول سالان

بداية من جوان 1956، أصبح الوضع الأمني « مثيرا للقلق » وكارثيا في بعض مناطق البلاد.

واضطر غي مولي، تحت ضغط اللوبي المتطرف والمرعوب في الجزائر، لاستبدال الجنرال لوريو.

بمجرد استلام وظيفته، طالب راؤول سالان، القائد العسكري الجديد، بمزيد من الإمكانيات وخاصة بحرية أكبر لتوسيع المناطق المحرّمة، وتعميم « المديريات العملية للحماية »، والتخلي عن الإجراءات القانونية لصالح القرارات الّتي تتخذ على المستوى المحلي في كلّ الحالات الطارئة الّتي يمكن تصور حدوثها. بقي رئيس المجلس وفيا لالتزامه، بعدما استسلم للوبي المتطرف، فأعطى لقائد جيوشه الجديد حرية العمل والرّجال والمال وكلّ العتاد الّذي يطلبه. فتم تعزيز القوّات المسلّحة بشكل هائل بفضل استدعاء ثلاث دفعات وضبّاط وصف ضباط الاحتياط. أعطى غي مولي كلّ شيء : الفرق الّتي استدعيت من الهند الصينية، ودفعات المجندين وأمر الميزانيات لتشكيل قوّات من المرتزقة، وكتائب الأمن الجمهوريّة (CRS). وفوق كلّ ذلك، منح الحرية التامة للجيش الفرنسي لمعاملة الجزائريين كأعداء، وإطلاق يديه لقمعهم من خلال ماضعفة عدد المحتشدات وتعميم التعذيب والتصفيات الجسدية وتخريب المحاصيل والنبالم وتوسيع المناطق المحرّمة. تنظم القيادة هيكلّيا وتنظيميا وجغرافيا. زيادة عدد الدوائر الفرعية/ 5 في الإقليم الوهراني، 6 في إقليم الجزائر، 5 في الإقليم القسنطيني. أما المناطق الجبلية « المتعفنة » الأوراس والقبائل فتحتفظ بقياداتها المستقلة، لأن مصير الحرب يتقرّر هناك عند البربر[23].

20. لم تكن الجهود الّتي بذلتها جبهة التّحرير الوطني للتوعية كافية للقضاء على الدواعي المادية البحتة الّتي دفعت بالآلاف من البؤساء ليكونوا في خدمة الجيش الاستعماري.

21. سليل بوعزيز بن قانة سيء السمعة.

22. حملة انتقامية أمر بها محمدي السعيد ناصر، قائد الولاية الثّالثة ضد معاقل المصاليين بقيادة بلونيس.

23. كان الجنرال فور في تيزي وزو يعلّق أمام مكتبه صورة عميروش. فهذا الوجه الّذي نجرته ضربات المنجل يقظ مضجعه. في عام 1955، كان الجنرال فانوكسيم بباتنة يضع دائما صورة عباس لغرور نصب عينيه.

صار لدى الجيش الفرنسي، مع راؤول سالان، 600 ألف رجل من المجندين وجنود الاحتياط، و150 رجل من قوّات المرتزقة (اللفيف الأجنبي، الحركى، ومختلف العناصر الملحقة).

كما تم الاستنجاد بوحدات كبيرة أخرى، نذكر منها خاصة الفرقة المدرعة الخامسة والفرقة المتحركة السابعة، والفرقة الخامسة والعشرين المحمولة جوا. وتم تعزيز الوحدات الموجودة، أعيد هيكلتها من أجل تنسيق أفضل لعناصره، انطلاقا من الفيلق. فبهذا الشكل، تكتسب قدرة عملية وقوة نارية أكبر بفضل تزويدها بوسائل أكثر مرونة وإقحام أفواج من المدفعيّة والمدرعات والطّيران. كما قرّرت تعزيزات أخرى، منها 140 ألف جندي من الدفعتين 53/1 و53/2 ، (فقد أعيد تشكيل الفرق : 9، 10، 20 ب، و29 للمشاة على عجل بفضل العناصر الجاهزة من هاته الدفعات).

قرّرت قيادة الجيش الفرنسي زيادة عدد الوحدات الّتي أثبتت قدرات قتالية عالية : سرّيات السبايس، الحركى، المهاريون وفرق المظليين.

وكانت القوّات الجوية، بكلّ أسلاكها، تناهز 180 ألف جندي. كما تم تزويد الطّيران الخفيف بأنواع جديدة من الطائرات، الـ « L19 » ومهمتها مراقبة المناطق الريفية دون هوادة من أجل جمع المعلومات وسد النقص الفظيع المسجل في هذا المجال.

واكتسبت أفواج المدفعيّة مزيد من القدرة الحركية والمناورة بفضل توفير معدات أكثر فعالية في حرب الجبال. وتطوّر الإرسال والهندسة والنقل، وتكيّفت مع المهام الجديدة للوحدات العملية. وأعيد تصميم القطاع اللوجستي بشكل جذري. كما فرضت طبيعة التضاريس والمهام تخطيطات أخرى. وأدرج التنظيم الجديد خصائص الحرب المتنقلة والمشتتة في مسرح يفتقد للثكنات ولخطوط السكك الحديدية والطرق واليد العاملة المؤهلة. وأعيد تنظيم وانتشار الهندسة في قلب المواجهة، بدافع من الضرورة.

الأسلحة الّتي طالب بها سالان بإلحاح شديد تم شراؤها بأسعار باهضة من الحليف الأميركي (مروحيات ثقيلة وخفيفة من طراز « بيل » و« بنان » وسيكورسكي، وهي مروحية استخدمت لأول مرّة كوسيلة نقل للجنود (النقل الجوي) وتسمح بمرونة أكبر[24]. وبسبب وعورة الجبال بالنسبة للوحدات الآلية، اشتريت الآلاف من الخيل والبغال. وكان عناصر السبايس والقومية يجيدون استخدامها للعمليات الخاطفة والتوغل في الأقاليم « المسمومة » أوللمطاردة عبر أراضي ذات تضاريس مستحيلة.

المخططات الّتي تعد في مكاتب الأركان العامة تنفّذ بحذافيرها. وتتلقى التعزيزات الجديدة كلّ التعليمات والتدريبات اللازمة حتّى تكون في غضون أسابيع قادرة على أداء المهام الّتي كلّفت بها.

24. افتتحها بيجار بعد تدمير ثكنة « البطيحة » قرب سوق أهراس في مارس 1956 على أيدي عبد الرحمن محمد بن سالم ومحمد عواشرية على رأس كتيبتهما.

جيش التّحرير الوطني، النفَس الثّاني

بماذا يمكن لجبهة التّحرير الوطني أن تواجه جهود الحرب الفرنسية، الّتي لا تقتصر دوافعها على الجانب الجيوسياسي، وإنّما تشمل جوانب إنسانيّة وعاطفية بسبب وجود شعب أوروبي « مهدد في مصالحه الحيوية » ووجود خطر على فرنسا « يحكم عليها بالضعف إذا خسرت الجزائر ! ».

في ربيع عام 1956، لم يتمكن جيش التّحرير من الصمود فحسب، بل عزز قدراته بشكل كبير بفضل التعبئة العفوية لشرائح واسعة من المجتمع الجزائري : طلبة (تلبية لنداء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في 19 ماي 1956)، عمال (تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين، فلاحين (وهم موجودون بكثافة في جيش التّحرير)، ضبّاط وجنود فارين من الثكنات الفرنسية اقتداء بالأبطال الأوائل.

كان النمو السريع للجيش الجزائري فوضويا في غالب الأحيان. وعمّت هذه الفوضى كثيرا من مناطق الوطن، وهذا يرجع لعوامل موضوعية وبسبب عدم وجود قيادة موحّدة. لكن أزمات النمو هذه سرعان ما وُجد لها حل، فلم تنعكس على تطور جيش التّحرير طويلا. ولو أن الأمور بالنسبة للحركة الاستقلالية لم تكن سهلة، داخل الجزائر وخارجها.

كان اعتقال مصطفى بن بولعيد من طرف الفرنسيين في مطلع عام 1955 قد أغرق الأوراس (الّتي أعطت للثورة نفسها الأول) في فتن وفوضى أضعفت قدراتها القتالية. وانعكست آثارها على كلّ الشمال الشرقي (منطقة سوق أهراس)، فصارت قطاعات هامة (من القالة شمالا إلى حدود الونزة جنوبا) تتحرك دون أدنى تنسيق.

كانت وحدات جيش التّحرير متشكلة من أفواج صغيرة غير منسجمة، وكانت تفتقد للإمكانيات الّتي تسمح لها بمواجهة مخططات الجيش الفرنسي الجديد بفعالية.

بعد تحرر تونس، تدفقت إليها أسراب من الثوار الجزائريين الّذين اجتاحوها اجتياحا، من غير انضبّاط، وأحيانا يصفون حساباتهم القديمة في قلب العاصمة تونس.

تكتسي تونس من النّاحية الاستراتيجية أهمية بالغة بالنسبة للجزائر الثائرة، ولعلها عاشت أدق فترة من تاريخها المعاصر كان حزب الدستور الجديد منقسما بين ثوريين بقيادة صالح بن يوسف وبراغماتيين يمثلهم الحبيب بورقيبة. فكان فيه احتمال كبير أن يخطئ جيش التّحرير في العدو ويقحم نفسه في نزاع أجنبي[25]. لكن أين هي السّلطة الجزائرية القادرة على تحديد الرهانات الاستراتيجية الحقيقية والتحالف مع أي شريك خدمة للمصلحة الوطنية وليس غيرها، وأكثر من ذلك على اقتحام عواصم العالم من أجل نسج علاقات صداقة لصالح الجزائر المكافحة ؟

25. انضم المئات من اليوسفيين إلى الثورة الجزائرية على الحدود. كان التقاء الحيوية الجزائرية ونضج وحذاقة الجناح المتشدد في الحزب الدستوري يشكل تهديدا على استراتيجية الحبيب بورقيبة، وعلى مستقبله الشخصي، وربما حتّى على حياته. وكان عمارة بوقلاز، خدمة لمصالح الثورة، قد لعب على هذا الجانب.

كانت قيادة جبهة التّحرير، ولأسباب متعلقة بظروف الحرب (وفاة أو نفي أو اعتقال مسؤولين) يتولاها فعليا قادة الولايات ومعهم القادة المحليين للأفواج المسلّحة.

يضاف إلى هذه المشاكل التنظيمية قلة السلاح أو انعدامها.

ففي الوقت الّذي تسلم راؤول مقاليد القيادة، كانت جبهة التّحرير تبحث عن ضالتها وكان جيش التّحرير يعاني.

كيف ومتى وبقدرة من يستطيع جيش التّحرير أن يجد نفسه الثّاني ؟ ومع ذلك كانت تقوية صفوف الجبهة هو الرد الوحيد على الشعار الأخرق الّذي رفعه معظم صناع القرار الفرنسيين : « الجزائر هي فرنسا ! »

مؤتمر الصومام

ماذا تعني الجبهة ؟ هل هي شكل من أشكال الحزب الواحد ؟ وهل هو نظام شمولي ؟ وهل هي جمعية من المتعصبين يأتمرون لبعض شيوخ الأرياف ؟ لا، بل إنّ جبهة الآباء، آباء نوفمبر، الّتي أقرّها مهندسو الصومام[26] – وعلى رأسهم العربي بن مهيدي وعبان رمضان وأعادوا هيكلتها، هي اتحاد الشّعب الجزائري المصمم على استرجاع استقلاله.

في الوقت الّذي كان الفرنسيون منهمكين في ضبط رؤيتهم ومراجعة خططهم ووسائلهم العسكريّة تماشيا مع الأوضاع المستجدة، كيف كان حال جبهة وجيش التّحرير ؟

كان هناك رجلان يعود إليهما الفضل في إعادة تأسيس الهيئات القيادية العليا للثورة، ألا وهما : العربي بن مهيدي وعبّان رمضان.

ولد الفاتح نوفمبر من أزمة. وكانت عبقرية بن مهيدي وعبان هي إدراكهما المبكر بأنه لن يكتب لجبهة التّحرير أن تعيش إلا بامتصاص الآثار السلبية للشقاقات والصراعات الّتي انفجرت في صفوف الأحزاب الوطنية في بداية الخمسينات. وكان مهندسا المؤتمر يعرف أحدهما الآخر منذ منتصف الأربعينات. يختلفان في الطباع، لكن الأمل الّذي يجمعهما أذاب كلّ الفروق وقرّب بينهما. وأصبحا مثل الرجل الواحد في العمل. الأول، بن مهيدي، رزين وبطيء، حذر وواقعي، و يحرص على ضمان النجاح لأعماله بالصبر والإقناع، وكان يحمل معه تجربة عريضة ومعرفة راسخة للميدان وللرجال، ورؤية الطبيب الباردة والدقة في التخطيط والتوقيت.

أما عبان، فكان مليئا بالإرادة وأحيانا مغاليا في الأحكام الّتي يطلقها على رفاقه، ويعتمد في تحاليله الأسلوب المباشر المختصر. وبما أنه لم يعش الجدالات المنهكة الّتي عرفتها الحركة

26. اسم الوادي الّذي عقد فيه الاجتماع الّذي يحمل نفس الاسم. برز خلال هذا الاجتماع العربي بن مهيدي وعبّان رمضان، المبادرين والمحررين لأرضية الصومام.

الوطنية قبل نوفمبر[27]، ولا المناورات السّياسيّة الخسيسة ولا الصراعات، فلم يكن بأي ضغينة لأحد، وبالتّالي لم يتقبل أن تؤدي نزاعات ثانوية، وأكثر من ذلك قديمة، إلى منع الثورة من استرجاع حيويتها. فسعى من أجل أن تكون الجبهة عنوانا لاتحاد الشّعب الجزائري، وكان يدرك أنه لن تكون كذلك إلا بتوحيد النخب السّياسيّة في البلد.

كان مؤتمر الصومام، الّذي انعقد يوم 20 أوت 1956، قبل كلّ شيء بفضل هذين الرجلين خطوة نوعية هائلة إلى الأمام بالنسبة لجبهة التّحرير الوطني. وسمح ببروز قيادة تتمثل في لجنة التنسيق والتنفيذ. عنوانها يلخص البرنامج : « التنسيق » الّذي يعتبر الشرط الأساسي للنجاح، و« التنفيذ » الّذي من دونه لن يكتب لأية حركة الصمود والبقاء. هذه اللجنة هي بمثابة الهيئة التنفيذية المتبصرة والمصممة الّتي تنفذ قرارات المؤتمر.

وافق المؤتمرون على التّقسيم الأولي إلى ولايات وحددوا تفرّعاتها. بحيث أن كلّ ولاية من الولايات الستة، تنقسم إلى أربع أو ست نواح سياسية عسكرية. وكلّ ناحية تنقسم إلى أربع أو ست مناطق. وكلّ منطقة تنقسم بدورها إلى ستة أو ثمانية أقسام. ويراعي هذا التّقسيم الوضعية الجغرافية والإنسانيّة لكلّ منطقة من مناطق الوطن.

على رأس الولاية يوجد عقيد ينوبه ثلاثة روّاد مكلّفون، على الترتيب، بالشؤون السّياسيّة والعسكريّة والاتصالات والاستعلامات. على أن تحافظ هذه القيادة الولائية على استقلاليتها إلى غاية الإعلان عن وقف إطلاق النار. في كلّ منطقة ينشط ثوار يفتقدون لأدنى سلاح آلي. يقودهم ضابط برتبة نقيب ينوبه ثلاثة ضبّاط برتبة ملازم أول. القوّات الموجودة في المنطقة تعادل نظريا الفيلق (من 800 إلى 1200 جندي). ويتباين تعدادها حسب الظّروف والتضاريس.

تنشط في المنطقة كتيبة من المجاهدين تضم ما بين 200 و250 رجلاً، ويقودها ملازم ثان. أما القسم فيسند لضابط برتبة مساعد يقود فصيلة قوامها ما بين 60 و70 جندي.

القادة الّذين تعاقبوا على الولايات هم :

الولاية الأولى : مصطفى بن بولعيد*، بشير شيهاني*، عاجل عجول، محمد العموري*، محمود الشريف، أحمد النواورة*، الحاج لخضر عبيد والطاهر زبيري.

الولاية الثّانية : مراد ديدوش*، يوسف زيغوت*، لخضر بن طوبال، علي كافي، صالح بوبنيدر المدعو صوت العرب.

الولاية الثّالثة : بلقاسم كريم، محمدي السعيد المدعو ناصر، عبد الرحمن ميرة*، محمد يزوران المدعو سعيد، آيت حمودة عميروش*، محند أولحاج.

---

27. كان مسجونا.

الولاية الرّابعة : رابح بيطاط، اعمر أوعمران، سليمان دهيليس، امحمد بوقرة*، جيلالي بونعامة* المدعو محمد، يوسف الخطيب المدعو سي حسن.

الولاية الخامسة : العربي بن مهيدي*، عبد الحفيظ بوصوف، محمد بوخروبة المدعو بومدين، بن علي بودغن المدعو لطفي*، حدو بوحجر المدعو سي عثمان.

الولاية السادسة : أحمد بن عبد الرزاق* المدعو سي الحواس، الطيب جغلالي المدعو سي محمد*، محمد شعباني.

منطقة الجزائر الحرة :

تمت ترقية الجزائر العاصمة إلى منطقة حرة. وتنحصر مهمتها في :

- تنظيم حرب العصابات في النسيج الحضري.

- تقديم الدعم متعدد الأشكال (معلومات، مالية أوعتاد) لمختلف تشكيلات جيش التّحرير الّتي تنشط في الجبال[28].

فدرالية جبهة التّحرير الوطني بفرنسا :

تضطلع فدرالية جبهة التّحرير الوطني في فرنسا بالمهام التّالية :

دور تعبوي : هيكلة الجالية الجزائرية بالمهجر وتحسيسها بنداء أول نوفمبر 1954.

دور سياسي : إيصال رسالة جبهة التّحرير إلى أحزاب اليسار والشّعب الفرنسي بصفة عامة، وشرح الغاية من كفاح الشّعب الجزائري وهي تصفية النّظام الاستعماري.

دور خاص بتوفير الدعم المالي واللوجستي الفعال : الإسهام الّذي يقدمه المهاجرون للجهد الجماعي. هذه المشاركة طيلة السنوات السبعة والنصف الّتي استغرقتها حرب التّحرير تجسدت بمداخيل قدرها 17 مليار فرنك. مساعدة المتطوعين الراغبين في الالتحاق بالثورة ومرافقتهم إلى غاية الحدود الشرقية والغربيّة للجزائر. توفير الأسلحة اليدوية والأختام وبطاقات الهوية وغيرها لمبعوثي جبهة التّحرير المكلّفين بمهمّة.

دور عسكري : فتح « جبهة » للتمويه على الأراضي الفرنسية لغرض إبقاء أكبر عدد ممكن من قوّات العدو من أجل التقليص من قدرات جيش الاحتلال في الجزائر، وكذلك من أجل التعريف بالقضية الجزائرية وبحرب التّحرير.

---

28. جرت العمليات الفدائية في جميع مدن الجزائر، من بداية حرب التّحرير على نهايتها. وكان لتلك الّتي شهدتها الجزائر العاصمة والّتي حظيت بإشهار خاص، وقع سياسي كبير. وكان لابد من تدخل مظليي الجنرال ماسو الّذين خاضوا معركة حقيقية معروفة باسم « معركة الجزائر »، للتغلب على التنظيم الّذي شكلته جبهة التّحرير الوطني وعلى رأسه عبان رمضان أولا، ثم بعده ياسف سعدي.

قائمة بمختلف مديريات فدرالية جبهة التّحرير بفرنسا

الأعضاء الفدراليون :

الفدرالية الأولى، من 1954 إلى جوان 1956

- طربوش مراد - لوانشي صالح
- بن سالم نور الدين - ماضي محمد
- دوم أحمد - سويسي عبد الكريم
- قراس عبد الرحمان - طالب أحمد

الفدرالية الثّانية، أواخر 1956

- البجاوي محمد - طالب أحمد
- بوعزيز سعيد - بن صيام يوسف
- بولحروف الطيب - المهداوي حسين
- بومنجل أحمد - العدلاني قدور
- مونجي حسين - سويسي عبد الكريم
- سيد علي مبارك براهيم

الفدرالية الثالثة، منتصف 1957

- بوداود عمر - قروج مسعود
- بوعزيز سعيد - العدلاني قدور
- بومنجل أحمد - مونجي حسين
- حربي أحمد

الفدرالية الرّابعة، من أوائل 1958 إلى غاية الاستقلال

- بوداود عمر - العدلاني قدور
- بوعزيز سعيد - سويسي عبد الكريم
- هاورن علي

ملاحظة : يقدّر عدد الجزائريين المقيمين في فرنسا بحوالي 300 ألف نسمة.

قد تبدو هذه التنظيمات ضحلة أمام الجيش العرمرم الّذي أعدّه الفرنسيون لدحر جيش التّحرير.

ناحية سوق أهراس الّتي أصبحت تسمى « القاعدة الشرقية » : مختار باجي*، عمور جبار*، الوردي قطال، عمارة العسكري المدعو بوقلاز، محمد عواشرية*.

قاعدة في الشرق[29]

تحتل القاعدة الشرقية في هياكل جيش التّحرير مكانة هامة. والدور الّذي لعبته أحرز للثورة قفزة نوعية هائلة بفضل موقعها الجغرافي، وطبيعة الأرض الّتي تسيطر عليها والإمكانيات الّتي سخرتها، والعزيمة الّتي تتصف بها وحداتها والصفات الّتي يمتاز بها قائدها المحبوب العقيد عمارة بوقلاز.

أعطت لجنة التنسيق والتنفيذ الأولوية لتعزيز الكفاح المسلح بإعادة هيكلة جيش التّحرير ومضاعفة الجهود لتزويده بالوسائل العسكريّة الفعالة. وكان الوفد الخارجي لجبهة التّحرير الوطني، قبل اختطاف أعضائه في أكتوبر 1956، قد أعد ملفا كاملا عن مصادر التّموين من بعض بلدان الشرق الأوسط، ومثله عملت لجنة التنسيق والتنفيذ، من خلال نواتها الصلبة، على توسيع المحيط الجغرافي الّذي قد تجد فيه الثورة الجزائرية مؤازرة فعلية تتجسد لفتح مخازن للأسلحة.

المرحلة الثّانية، وهي بلا شك الأصعب، تتمثل في توريد العتاد العسكري، الّتي يتم الحصول عليها بصورة أو بأخرى، وإمدادها إلى من سيستعملها في أعماق الجبال الجزائرية. وهي المهمّة الرّئيسية الّتي تضطلع بها القاعدة الشرقية [30].

أصبحت القاعدة الشرقية المكان المفضّل للمواجهة بين جبهة التّحرير والجيش الفرنسي. وفي سنة 1957، قامت القاعدة بوضع نظام متكامل لإمداد الولايات الداخلية بالسلاح.

قيادة جيش التّحرير الوطني :

من ضمن توصيات مؤتمر الصومام، بعد إقرار وحدة القيادة السّياسيّة لجنة التنسيق والتنفيذ، وبعدها الحكومة المؤقتة تزويد جيش التّحرير بقيادات عملية مركزية، من أوائل 1958 إلى غاية إعلان وقف إطلاق النار، وتتمثل في الهيئات التّالية :

---

29. سمح اجتماع الكاف بتونس بين القادة المحليين للشمال الشرقية، في جويلية 1956، والّذي عقد بمبادرة من عمارة بوقلاز، سمح بترتيب الأوضاع في ناحية سوق أهراس، ووضع الإطار العام للقاعدة الشرقية المستقبلية، وإعداد وسائل العمل الّتي تحتاجها للجنة التنسيق والتنفيذ.

30. عندما وصل اعمر أوعمران إلى تونس في أواخر عام 1956 للاستطلاع، أدرك الحاجة لقاعدة في الشرق، من أجل إيصال المعدات إلى الولايات الداخلية. وهذه القاعدة موجودة بالفعل، هي النّاحية الّتي أعلنت نفسها ناحية سوق أهراس الحرة.

لماذا أعلنت هذه المنطقة الّتي تمتد من القالة إلى شمال تبسة، على عمق عشرات الكيلومترات، استقلاليتها في حين أنها كانت تابعة للولاية الثّانية ؟ يمكن تفسير ذلك ببضعة جمل : وهو أن شساعة إقليم الولاية الثّانية، ومحدودية إمكانياتها في البداية، لم تسمحا التنسيق الفعال بين قيادة الولاية والوحدات الّتي تنشط في أقصى الشمال الشرقي بعد موت باجي مختار في 11 جانفي 1955. بعد هجوم 20 أوت 1955 والقمع الّذي شنّه الجيش الفرنسي، اضطرت قيادة الولاية للانسحاب التكتيكي. كانت الأوراس في أوج قوتها، وكانت حريصة على توسيع نطاق الثورة وتوحيد المناطق الناطقة بالبربرية تحت إدارتها المرموقة، فيما وراء سفوح السلاسل الجبلية في الوسط الشرقي. فعيّنت في منطقة سوق أهراس ضبّاطا (طاهر عرفة، الوردي قتال وعمور بوقسة) ووحدات قتالية تتألّف أساسا من مخضرمي النمامشة. ولقد قبل زيغوت يوسف، ومن بعده لخضر بن طوبال ضمنيا بسيطرة الأوراس طالما أن عمل هذه الأخيرة تسعى بفعالية من أجل تحقيق الهدف المشترك.

- **وزارة الحرب** مع كريم بلقاسم.

لم يكن الانتقال بالنسبة للجيش الجزائري، من مرحلة حرب العصابات من دون قيادة موحدة وبذهنيات جهوية أحيانا، إلى مرحلة جيش منظّم مطابق للأنماط الحديثة، أمرا سهلا. فقد حاول كريم بلقاسم، مسؤول القوّات المسلّحة، تحسين الأوضاع الّتي وجدها بكثير من الإرادة.

- **القيادة العملياتية العسكريّة**، مع محمدي السعيد في الشرق، وهواري بومدين في الغرب.

- **اللجنة الوزارية للحرب**، مع كريم بلقاسم، عبد الحفيظ بوصوف ولخضر بن طوبال. تأسست اللجنة عقب الإعلان عن الحكومة المؤقتة.

قيادة الأركان العامة

بعدما أثبت التسيير الجماعي على مستوى القيادة العليا للجيش عدم نجاعته، تم تعيين العقيد محمد بوخروبة المدعو « هواري بومدين » في جانفي عام 1960، قائدا وحيدا لهيئة الأركان العامة لجيش التّحرير الوطني، وينوبه الروّاد عز الدين زراري وأحمد قايد وعلي منجلي ومكتب تقني يتألف من عسكريين محترفين، من الضبّاط الفارين من الجيش الفرنسي أو ممن تلقوا تكوينهم في المدارس العسكريّة في الشرق الأوسط.

كانت الحدود الشرقية، قبل عام 1960، منقسمة إلى ست نواح (النّاحيتان 5 و6 التابعتان للولاية الأولى، والنّواحي 1 و2 و3 و4 التابعة للقاعدة الشرقية)، وأعيد هيكلتها في قيادة عمليات تشمل ناحيتين موحّدتين، هما : النّاحية الشمالية والنّاحية الجنوبية.

وبقيت الناحيتان الأخريان (الهقار وأقصى الجنوب) في طور المشروع. ففي عام 1957، وفي شهر جويلية، كانت هناك محاولة لفتح جبهة جنوبية، عبر إقليم فزان الليبي، قام بها الرّائد مولود إدير، مدير ديوان كريم بلقاسم العسكري، على رأس وحدة من قدماء الولايتين الأولى والثّالثة والقاعدة الشرقية، لكنها باءت بالفشل. ذلك لأن ليبيا الإدريسية رفضت استخدام أراضيها كقاعدة انطلاق لجنود جيش التّحرير الوطني.

بدأت قوة الجيش الجزائري في التنامي، بداية من عام 1957، تزامنا مع إدخال أسلحة حديثة وفعالة، من مدفعية ميدانية ورشاشات ومدافع مضادة للطائرات من عيار 20 ملم.

أمام التحصينات الفرنسية، بدأ ينشط منذ أواخر عام 1959 ما يقرب من 25 وحدة من نوع الفيلق (10، 11، 12، 13، 14، 15، 17، 19، 21، 23، 24، 25، 27، 29، 39، 41، 42، 43، 45، 56، 65، 68، 71، 72، 75). وهناك ست كتائب ثقيلة وعدة بطاريات مستقلة من المدفعيّة وقذائف الهاون. وكلّ هذه الوحدات تحظى بدعم في مجال العتاد توفره عشرة قواعد لوجستية.

انطلقت عمليات التدريب عام 1958 في مركزين متخصصين، أحدهما قريب من مدينة الكاف في تونس، لتكوين الإطارات، والآخر مكلّف بتكوين خبراء في المتفجرات بالقرب من مدينة ساقية سيدي يوسف[31]. مع ظهور هيئة الأركان العامة، تم دمج هذه المراكز في مركز واحد، لمختلف

31. في وادي مليز.

الأسلحة، تحت إشراف النقيب بن عبد المومن في المكان المسمى « ملاغ » نسبة لاسم الوادي الّذي يحمل نفس الاسم. وعرف هذا المركز عند الجميع باسم « فيرمة موسى[32] ». ووصل عدد طلبته حدود خمسة آلاف طالب في وقت واحد، من جميع التخصصات.

عرفت الحدود الغربيّة نفس التنظيم الّذي طبّق على الحدود الشرقية : ناحية في الشمال وقيادة في الجنوب. النّاحية الشمالية يقودها النقيب الطيبي العربي، يساعده عبد المجيد بن قدادرة وسي عمر بن محجوب وبن الزيم أحمد المدعو « إينيڤادي ». أما النّاحية الجنوبية فيقودها العقيد لطفي، بمركز قيادة الولاية في بوعرفة. بعد استشهاد العقيد لطفي، في أفريل 1960، عينّ في مكانه العقيد عثمان. وكان مقر قيادة النّاحية موجودا في فِيڤيڤ. ويقود هذه النّاحية عبد الغني عقبي ومحمد بن أحمد عبد الغني والنقيب فرحات بلعيد. على مستوى هاتين الناحيتين ينشط فيلقان. وكانت توجد أيضا مراكز تدريب، أهمها : مركز كبداني، ومراكز زغانغن وبركان والحراش. وحوّل مركز خميسات إلى ورشات لصنع الأسلحة. وهناك صنعت الشحنات الممدودة، الحادة والمرنة، الّتي اشتهرت باسم « بنڤالور » الّتي تقضي على أمتار ممتدة من الأسلاك الشائكة. كما تصنع في هذا « المصنع » قنابل يدوية هجومية ودفاعية : قنابل من نوع LTZ (قذائف متفجرة تزن 10 كلغ ويبلغ مداها ألف متر) وقذائف هاون من طراز 45 و60 ملم. بل وقد توصل المركز إلى صياغة بندقية رشاشة، لكن لم تصنع منها كمية كبيرة[33].

كما أقيمت مدرسة للإرسال ومركز للتنصت في مدينة وجدة، وأطلقت دورة تدريبية لتقنيي الإرسال اللاسلكي في مركز كبداني.

في يوم 5 جويلية 1962، كان عدد جنود جيش التّحرير في الحدود الشرقية والغربيّة 35 ألف رجل (25 ألف منهم في الشرق، و10 آلاف في الغرب). فيما كان عددهم في الداخل (في الولايات المكافحة) بين ألفين وثلاثة آلاف مجاهد في كلّ ولاية، أي بمجموع يتراوح ما بين 42 ألف و50 ألف مجاهد.

وكان جيش التّحرير، فوق كلّ ذلك، يتوفر على قواعد دعم منتشرة عبر الأراضي المجاورة للجزائر :

القيادات الحدودية الشرقية والغربيّة تشرف على المصالح الإدارية والاجتماعية والصحية ومراكز التدريب العسكري والإرسال اللاسلكي والاستعلامات والاتصالات العامة (الّتي أصبحت فيما بعد وزارة التسليح والاتصالات العامة « المالغ »)، وكذلك الشرطة العسكريّة.

ولقد قدّمت تونس، الّتي عاملتها لجنة التنسيق والتنفيذ بذكاء، مساهمة ثمينة لجهود الحرب الجزائرية.

---

32. موسى حواسنية، من مجاهدي الرعيل الأول، وكان المعتمد العام لهذا المعسكر.

33. تتمتع الحدود الشرقية بالعمق الضروري للحصول على أسلحة بكميات كبيرة. حتّى عام 1959، وصلت أسلحة كثيرة إلى جيش التّحرير الوطني من خلال شبكات الموردين المطاردة من قبل الأجهزة الخاصة الفرنسية. ولقد حقق عبد الحفيظ بوصوف وشريف محمود نتائج ممتازة. في عام 1959، بعد الزيارات الّتي قام بها قادة الثورة إلى الاتحاد السوفييتي السابق والصين، بدأت تصل الأسلحة الثقيلة والخفيفة بأعداد كبيرة.

أنشأت لجنة التنسيق والتنفيذ مصالح إدارية عديدة ومتنوّعة في كلّ من تونس (باجة، الكاف، تاجروين) وليبيا (لامزرع) والمغرب (وجدة، فِيقِيف، الناظور، طنجة، الخ).

قام كريم بتنصيب « المكتب التقني » الّذي يضم صفوة الكفاءات العسكرية الجزائرية، من ضبّاط فارين من الجيش الفرنسيين أو من خريجي المدارس الحربية بالشرق الأوسط. وضاعف من عدد مراكز التكوين، ووحّد القيادة.

وكانت الجهود الّتي بذلها كريم تتكامل مع الجهود الّتي بذلها عبد الحفيظ بوصوف[34]. فلقد استطاعت وزارة التسليح والاتصالات العامة (المالغ) أن تنوّع وتكثّف من مصادر توريد الأسلحة والمعدات العسكريّة. وأنشأت جهاز إرسال فعال وتنظيما كان يعد بمستقبل عظيم تحت مسميات أخرى...

كلّ عملية التحديث العسكري، الّتي أخذت في الاعتبار جميع القطاعات وجميع الوسائل، تمت في خضم المواجهة مع العدو. ولو أن الصعوبات في تنفيذ قرارات لجنة التنسيق والتنفيذ وثم الحكومة المؤقتة، ولّدت بعض التأخير والضعف. رأينا ذلك بخصوص القيادة العملياتية العسكريّة[35].

في حديثي عن التقدّم الّذي أحرزه جيش التّحرير، ذهبت إلى حد الفترة الّتي تأسست فيها قيادة الأركان العامة ورأت الوحدات القتالية الرّئيسية النور، لكن من المهم جدا، لفهم الأحداث، أن نعود قليلا إلى الوراء.

سنة 1957

كان عام 1957 عاما حاسما نجحت خلاله القوّات الجزائرية، بعد صعوبات صيف 1956، في أول تحوّل كبير لها، وبدأت في أخذ زمام المبادرة، بفضل تعزيز إمكانياتها العسكريّة، وذلك على حساب الوحدات الفرنسية الّتي أثبطتها عقيدة التطويق العقيمة الّتي انتهجتها.

رسم راؤول سالان أربعة محاور عمل رئيسية :

أ- تجفيف منابع الأسلحة والمعدات العسكريّة الّتي تتدفق من تونس والمغرب على الولايات المكافحة.

ب- كسر شبكات جبهة التّحرير الوطني في المدن الكبرى، خاصة في العاصمة. جاك ماسو، في يوم 7 فيفري 1957، وعلى رأس ثمانية آلاف رجل من فرقة المظليين العاشرة الّتي يقودها، دخل مدينة

34. يستحق أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ وعلى رأسهم كريم بلقاسم وعبد الحفيظ بوصوف ولخضر بن طوبال، أن ترتبط أسماؤهم بهذه الجملة التي قالها وينستون تشرشل خلال الحرب العالمية الثّانية : « لم يُعرف أبدا في تاريخ الحروب، أناس بهذا العدد مدينون لأقل عدد منهم ».

لا تزال ملحمة هؤلاء الأبطال الّذين قدّموا الكثير لوطنهم لم تكتب بعد.

35. في الصفحات الّتي أفردتها لعبور كومندو حيدوش للحواجز المحصّنة، أشرت إلى النقائص والأخطاء الّتي أضعفت الجهود الجبارة الّتي بذلتها كلّ من لجنة التنسيق والتنفيذ والحكومة المؤقتة ولجنة العمليات العسكريّة وفي طليعتها كريم بلقاسم.

الجزائر. « انتصر » في « معركة الجزائر » باستخدام أساليب هزت الطبقة السّياسيّة الفرنسية وأجبرتها، بتاريخ 5 أفريل 1957، على إنشاء « لجنة لحماية الحقوق والحريات الفردية. » نشرت هذه اللجنة تقريرا ملخصا عن التعذيب والإعدام خارج نطاق القضاء والمفقودين. اقترفت القوّات المسلّحة الفرنسية في الجزائر كلّ هذه الجرائم تحت شعار « فرض السلم » و« الشأن الداخلي ».

جـ- « كسب » (أو « استعادة ») ثقة السكان المسلمين حتّى يتسنى لجهود « التهدئة » أن تتحقق ولا تستلزم تكرارها. فترك الجنرالات « غير الأكفاء » أو الّذين « تجاوزتهم الأحداث » مكانهم لضبّاط اكتشفوا أساليب الحرب الثورية في الهند الصينية ويدركون بأنّهم يواجهون في الجزائر حركة مسلحة بإيديولوجية تعتنقها غالبية السكان. الجيش الفرنسي، وبعدما كان لسنوات طويلة يظن أن ما يحاربه في الجزائر ما هو سوى انتفاضة قبلية متعصبة تستلهم فكرها من عقيدة دينية متحجرة، وثم مع فريق السويس، امتداد باطني ودموي للقومية العربية الّتي أصبحت موضة العصر، صار يؤسس عمله على فرضية جديدة : أن جبهة التّحرير الوطني هو تعبير عن إيديولوجية ثورية فرضتها نخبة مسلمة مفتونة بنماذج بعيدة. وكان العقداء آرغو وليجي ولاشروي وترانكيي وغودار وبيجار وجان بيار، وسال ودوكرنو[36] ودوكاس الوجه المظلم للجيش الفرنسي « العظيم ».

إنّ العملية الّتي نالت أكبر نجاح على يد مهندسي العمل البسيكولوجي (غودار وليجي) تتمثل في اختراق معاقل الولايتين الثّالثة والرّابعة من خلال تسرب سوسة الشبهات إليها. مئات من أعضاء جيش التّحرير الوطني أعدموا بأمر من قادة الولايتين الثّالثة والرّابعة الّذين أوقعهم هؤلاء المحترفون في العمل البسيكلولوجي في مصيدتهم.

هذه المحاولة لانتزاع السكان « بأي ثمن من نفوذ المحافظين السياسيين لجبهة التّحرير الوطني الموالية لموسكو » أدت إلى وضع مليوني شخص في معسكرات يقال عنها « للإيواء » من أجل إبعادعم عن نفوذ جبهة التّحرير، قبل إخضاعهم لعمليات « غسل الدماغ ».

كما كان العمل البسيكولوجي موجّها للشعب الفرنسي. وفي هذا الشأن، هناك قرار وزاري مؤرخ في 25 ماي 1956 ينص على أنّه « لا يجوز للصحافة الناطقة أو المصوّرة أو المكتوبة بأي حال من الأحوال أن تنشر بمبادرة منها الأرقام الخاصة بالخسائر الصديقة وبالأخص أسماء الضحايا العسكريين، (أو) التطورات المقرّرة للعمليات الجارية[37]. »

36. قام دوكرنو، قائد قطاع الحروش، بعرض جثث الجزائريين الّذين قتلتهم قوّاته في الساحة العمومية.

37. كانت سنوات 1955، 1956، 1957، 1958 سلسلة من التفاؤل العسكري الفرنسي الّذي غذّته أجهزة الاستخبارات. فصار كلّ القادة العسكريّين وجميع القادة السياسيين يكذبون بصوت واحد على الفرنسيين مارسيل شامبيكس، وزير الدولة للشؤون الداخلية مكلّف بالجزائر، (أمام المجلس العمومي للكوريز)، ماكس ليجون، في 6 جوان 1956 (أمام لجنة مجلس الشيوخ المكلّفة بالدّفاع الوطني) وروبير لاكوست، في 15 سبتمبر من نفس العام (على شاشة التلفزيون الفرنسي)، وفي 8 ديسمبر (التعليمة العامة الثّالثة) وفي 11 جانفي 1957 (في مسرح السفراء)، غي مولي تقريبا في كلّ خطاباته، وأيضا راؤول سالان (في رسالته لنهاية السّنة 57/12/23 موجهة إلى الجيش الفرنسي في الجزائر)، لسان حال واحد : « التهدئة » نجحت، و« المتمردون استنفذوا طاقتهم »، وباختصار : هو « ربع الساعة الأخير للحرب. »

إلى جانب هذه الجهود الجبارة في مجال الدعاية والتضليل، حاول راؤول سالان ميدانيا تنفيذ استراتيجية أكثر هجومية، لكنها ظرفية نسبيا، لكونها لا تنم عن خيار منهجي. بل ما هي إلا رد فعل آني لعمليات جيش التّحرير. ومن هذه الزاوية، تبدو تحصينات خط موريس وسياسة التطويق المنتهجة تطبيقيا ميدانيا للنهج « الستاتي » (عكس الديناميكي) الّذي فرضه سالان. (سنرى بالتفصيل لاحقا كيف ولماذا اتخذ قرار بناء الحاجزين الكهربائيين على الحدود).

أنشأ سالان خمسة آلاف مركز محصّن، 18 بالمائة منها على الحدود الشرقية وحدها. داخل القاعدة الشرقية وقبالتها.

في الفترة الّتي سلّم فيها سالان القيادة، كان جيش التحرير يخوض معركة « الإمداد ». خاضتها بفضل الفيالق الّتي أنشئت حديثا والأسلحة الّتي تم توريدها أو شراؤها من بعض البلدان الشقيقة والصديقة. خاضتها على طول المسالك السرية الّتي تربط الحدود التونسية والمغربيّة بمراكز قيادة الولايات المكافحة. خاضتها على ظهر الرّجال، ليلا ونهارا. القوّات الجزائرية الّتي تم الاشتباك معها في فيفري وأفريل 1958 كانت تقوم بعمليات إسناد لتموين الولايات الداخلية. فمعركة « سوق أهراس » الّتي أفردت لها عدة صفحات في أحد فصول هذا الكتاب، تعكس جيدا، من خلال الفيلق الرّابع للقاعدة الشرقية، المستوى النوعي والكمي الّذي بلغه جيش التّحرير وفعالية أسلحته والقدرة القتالية لقيادته.

هذه المعارك الّتي امتدت من أواخر فيفري 1958 إلى شهر أفريل من نفس السّنة هي بمثابة الإعلان الحقيقي عن بداية معركة الحدود.

بالرغم من كلّ الصعوبات والتأخر والانتكاسات والنقائص، أصبح جيش التّحرير أداة عسكرية في تطور وتوطّد مستمر. وكان لزاما على استخدام وسائل أخرى واستراتيجيات أخرى ورجال آخرين للتمكن من القضاء عليه...

تحدثت طوال هذه المذكرات عن الحواجز السلكية المحصّنة وأعطيت نظرة فوقية على خطوطها. ولقد بدا لي أنه من واجبي أن أتطرق هنا للموضوع بمزيد من التفاصيل حتّى يتسنى للقارئ أن يفهم لماذ وكيف تم بناؤها وعلى يد من.

نظرية « المجال المغلق »

كتب الجنرال هيوغ سيلفستر دوصاصي، رئيس المصلحة التاريخية للقوّات الجوية الفرنسية حول هذا الموضوع : « أصبحت الحواجز الشائكة منذ إنشائها في عام 1957، البند الرّئيسي في البرنامج العسكري المخطط له في الجزائر وأكبر الأولويات عند جميع كبار القادة ». ولقد عبّر الجنرال شال، في الفترة الموافقة لقيادته للقوّات الفرنسية في الجزائر، عن هذا الحرص على إحكام غلق الحدود وأصدر تعليمته رقم 3 المؤرخة في 18 ديسمبر 1959، الّتي أكد فيها على أن نجاح

خطته يتوقف على على ثلاث نقاط رئيسية : « الحفاظ على السرية، إعداد العمليات، والأهم من كلّ ذلك منع أي اختراق للحدود، الأمر الّذي سأسهر عليه شخصيا وأطلب منكم، كلّ في موقعه، اعتباره مهمّة أساسيّة ». وختم الجنرال دوصاصي بالقول : « كلّ خطّة شال كانت مبنية على هذه الفكرة الأساسيّة الّتي يصطلح عليها اسم « المجال المغلق » الضرورية لتجفيف مصادر تموين جيش التّحرير الوطني ».

كان الحاجز في نسخته الأولية لم يتبع الخط الممتد على طول الحدود الجزائرية التونسية، وإنّما كان يتبع خطا متواصلا يبدأ من القالة شمالا إلى غاية نقرين جنوبا. كان هناك هامش يتسع في بعض الأحيان على عشرات من الكيلومترات بين الحاجز والحدود، الهدف منه تسهيل العمل للسلاح الجوي والمدفعيّة بتكثيف نيرانها على وحدات جيش التّحرير المتحركة باتجاه الغرب في منطقة أخليت من سكانها لاهتمامهم بتموين جيش التّحرير. كان هؤلاء السكان يعيشون في تلك المناطق قبل أن تعلن مناطق محرّمة، وذاقوا بسبب ذلك كلّ أنواع الظلم والتشريد والتنكيل، كما تعرضت بيوتهم للحرق والتخريب، ومن أبعدوا إلى المحتشدات لم يفلتوا من طغيان ضبّاط « الساس » ومن بطشهم وممارساتهم الجهنمية.

في البداية كان الحاجز مجرد سياج تحذيري صعب الاختراق، ولأن الحاجة أم الاختراع، أصبح مع تدعيمه شيئا فشيئا، منطقة وقوف، سواء في نقاط تشابك أسلاكه، أو في محيطه القريب. وكانت هذه الحواجز تتشكل من شبكات أسلاك وحقول ألغام « مضادة للأشخاص » ومن خطوط مكهربة ممدودة بعضها فوق بعض تغذيها من الطرفين، على بعد 10 كلم، مولّدات أقيمت تحت ملاجئ مبنية بالإسمنت المسلح. بالشكل التّالي : شبكة من الأسلاك الشائكة من جهة تونس، وشبكة مكهربة مركزية، وشبكة من الأسلاك الشائكة من جهة الجزائر. الشبكة المكهربة مفخخة بأسلاك شائكة تمر عبر الخيوط الكهربائية تزيد من صعوبة اختراقها. وكان الفنيّون الكهروميكانيكيون المكلّفون بإيصال الكهرباء يعملون بالتنسيق الدائم مع الدوريات المدرعة. فيما تقوم آليات الاستطلاع المدرعة (EBR) والسيارات رباعية الدفع دودج 6/6، جيب من نوع « دولاهاي » والدّبابات AMX 13، بدوريات حراسة على امتداد المحيط المباشر للخط على مدار الساعة، على طريقة المعول الدوّار الّذي يستخدمه الفلاحون. بعد ذلك، ارتأى الجيش الفرنسي وضع الدّبابات AMX في مواقع قارة كفيلة بحمايتها من القذائف المضادة للدبابات الّتي بدأ جيش التّحرير بتشغيلها في ظرف وجيز. أما النشاط الآلي لحماة الحاجز فلقد تم بفضل إقامة منشآت قاعدية ضخمة والمهندسين والأعمال الشاقة المفروضة على الجزائريين وأيضا بفضل شركات خاصة.

كانت حراسة الخط تتولاها مختلف أسلاك الجيش الفرنسي المتواجدة في الميدان : وتتمثل في القوّات البرية والجوية والمدفعيّة. وإليكم ما كتبه في هذا الموضوع ضابط فرنسي، الملازم الأول جاك فيرني، وكان مكلّفا بحماية قطاع من الحاجز سنة 1959 - 1960 : « عندما يحل الليل،

يتم مسح الجزء من الشبكة الّذي يقع تحت مسؤولية الفرقة من طرف أحد عناصر المدرعات، بعدها تنصب مدرعات حراسة في نقاط محدّدة. يليها وصول كتيبة المشاة المحمولة وتنصيبها. فيما تستمر الحراسة عن طريق الراديو على مدار الساعة على القناة الّتي تضم الفيلق والكتيبة، والفنيين الكهروميكانيكيين والسلاح الجوي. عند مطلع الشمس، تقوم نفس الدورية بمسح جميع القطاع لاستكشاف آثار... أو أي محاولة عبور ». أثناء الليل، عندما يشتبه في عبور ما، تتدخل المدفعيّة مدعمة بجهاز رادار. بلغت هذه المنظومة درجة عالية من الإتقان والتطور بعد إدخال عتاد جديد جلب معظمه من وحدات القوّات الفرنسية المستقرة في ألمانيا، ويتعلق الأمر برادار AN/MPQIO الأمريكي وCOTAL الفرنسي. ومنذ أن بدأ جيش التّحرير الوطني يتزوّد بقذائف الهاون الثقيلة، صار الفرنسيون يستخدمون أجهزة SDS DRMT-2A الّتي تسمح لهم بتحديد مصدر أي قذيفة بدقة بفضل رسم مسار قذيفة العدو بواسطة حاسب إلكتروني مدعّم برادار. هذا النوع من العتاد هو الّذي تدخل ضد كتائب النّواحي الثقيلة وضد فيالق جيش التّحرير الّتي تنشط ضمن نطاقها. في مذكراته عن حرب التّحرير، يروي اللّواء خالد نزار كيف استهدفت الوحدة الّتي كان يقودها في عام 1961 من قبل ثنائي الرادارات والمدافع في أعقاب هجوم شنّه رجاله : « بعد أن أصبحت القوّات جاهزة، وتم تحديد يوم وزمن الهجوم بساعة بعد منتصف الليل... أنهينا تنصيب أسلحتنا... ألقيت نظرة على ساعتي. لم يبق سوى ربع ساعة على الهجوم... نيران مدافعي ورشاشاتي أثارت بالمقابل ردا قويا... وكانت قذائف العدو تنفجر حوالينا ». كانت هذه القدرة على التكيّف مع وسائل جيش التّحرير المتطورة باستمرار، ثمرة التخطيط المتواصل لضبّاط الأركان العامة الّذين يملكون تكوينا وتوجيهات واضحة من قيادتهم، وتساعدهم على أداء المهام المنتظرة منهم على أحسن وجه. خسر خالد نزار في تلك الليلة ضبّاطا كانوا من خيرة ضبّاط، وكان قد وقع ضحية مدافع متصلة بالرادار. إذ كان وصول الطلقات الّتي يضربها رجال نزار تسجل على منصات الرماية في حينها وتبلّغ إلى القائمين بالمدفعيّة. وبمجرد أن تنسحب وحدة جيش التّحرير، مع اشتداد الضربات عليها، تطارد خطوة بخطوة بقذائف هاون موجّهة بفضل الأصداء الّتي يلتقطها ويعيد إرسالها رادار حراسة ثان. ولم تكتب للمجاهدين النجاة إلا بفضل طبيعة الأرض. (استشهد بخالد نزار، لأنه يعد من المجاهدين القلائل، على حد علمي، الّذين سردوا تجربتهم مع الحاجز المحصّن بالتفصيل).

واستنادا إلى المساعد أول فيليب آليكس دائما : « مع بداية الفصل الثّالث من عام 1957، بدأ العمل بستة مراكز رادار مدفعية. ليرتفع عددها منذ أوائل عام 1958 إلى تسعة، ألحقت بها في عام 1960 فصائل رادار متنقلة. » رافق إنشاء هذه المراكز إنجاز منشآت قاعدية هامة من مسالك وطرق ومشاريع بناء لإيصال العتاد والمؤونات ولضمان تطور المنظومة باستمرار تبعا لتكيف جيش التّحرير مع هذه المنظومة. تعتبر قوّات العدو المعدّة لصد الهجمات الّتي تشنها وحدات جيش التّحرير في منطقة القالة أحسن نموذج لما أعدّ من قوّات على طول الحاجز. وهي

دليل على أن اليقظة كانت دائمة. لنستمع لما يقوله في هذا الصدد النقيب فيليب فوكي لابار، الّذي كان لمدّةٍ طويلة مكلّفا بحراسة وحماية الحاجز في المنطقة الممتدة من سوق أهراس إلى القالة : « ... كنّا نشكّل وحدة احتياطية للهجوم. في الليل، تنصّب وحدات متكونة من فصيلة ودورية من الرشاشات الآلية بالقرب من مختلف المراكز الّتي تشغلها فرقة القناصة الجبليين. في النهار، تجرى دوريات استطلاع بشكل دوري.. هدفها منع إقامة أي معسكر لجيش التّحرير الوطني.

تم إشراك سلاح الجو الفرنسي بكثافة، وذلك باستغلال كلّ إمكانياته من أجل التضييق أكثر على الراغبين في عبور الحاجز وتعريضهم لخطر أكبر. وكان هناك الاستطلاع الجوي لتفقد الحالة العامة للحاجز واستكشاف الآثار المحتملة لأي عبور، وكذلك لتقديم الدعم العسكري. ولقد أعدّ عديدا ممّا يسمى « سرّيات الدعم بالطائرات الخفيفة » (EALA)، المجهّزة بالنفاثات « تي 6 » و« تي 28 » ومروحيات « بيرات » و« ميسترال » وأف 47 توندبولت و AD4 سكايريدرز. بفضل هذه المعدات الخاصة، وسّع سلاح الجو الفرنسي مهامه لتمتد إلى ما وراء الفضاء الجزائري، إلى أبعد نقطة ممكنة، لمنع تموين جيش التّحرير الوطني عن طرق البحر أو الجو. وكانت طائرات « بي 26 » تتدخل مثل اليراعات في مهمّة خاصة تتمثل في إنارة ميدان المعركة أو في مهمّة قصف.

وحدات جيش التّحرير المحتشدة والمعدّة لتخريب الجزء من الحاجز للسماح بالعبور نحو الجزائر، تصدّها قوّات برية يطغى عليها عنصر المدرعات. وتعتبر الدبّابّات AMX 13 والرشاشات الآلية السريعة والصامتة أهم الأسلحة المستخدمة. فكثافة انتشار قوّات العدو على امتداد قطاع صغير على مستوى مدينة سوق أهراس تعطي لك صورة عن كثافة وعمق القوّات المسلّحة المجنّدة. إذ نجد ما لا يقل عن ثلاثة عشر موقعاً تتمركز فيها من المخرج الشرقي لسوق أهراس إلى مدينة تاورة (ڤمبيطة) الصغيرة.

شارل ديغول، بحثا عن النصر العسكري

يعتبر يوم 13 ماي 1958، تاريخ الانقلاب الّذي قام به اللوبي المتطرف الّذي أعاد شارل ديغول إلى السّلطة، قبل كلّ شيء يوم انتصار دعاة « حق التّصرف »، والحرب الشاملة لإبادة القوّات المسلّحة الجزائرية. ففي رأي مدبّري المؤامرة، باستطاعة شارل ديغول، الّذي يشيدون بشجاعته السّياسيّة وبنظرته الحادة لمصالح فرنسا، أن يقوّي الجبهة الداخلية ويصلح الوضع العسكري.

تم الإعداد لمظاهرات ماي 1958، الّتي سميت « مظاهرات التآخي »، في صالونات قصر « تراب » على بعد خمسة عشر كيلومترا من الجزائر العاصمة. مهندساها هما العقيدان آرغو ولاشروا وآلان سيريني المكلّف بالدعاية، فيما تولى بورجو وبلاشير وشيافينو وآبو الشؤون المالية. أما الحركى فقد أهينوا بالمناسبة ومنحوا دور الكومبارس في « الجزائر الفرنسية » المستفيدة سياسيا.

لم يقبل الجنرال ديغول انهزام الجيوش الفرنسية ثلاث مرات في ظرف عقدين قصيرين.

وبالإضافة إلى نكسة عام 1940، صفعة عام 1954 في الهند الصينية، لم يكن ليحتمل خزي واترلو جزائري على هيبة فرنسا وجيشها. فكان هزْمُ حركة التمرد بالسلاح غاية تندرج ضمن رؤيته لعظمة بلاده. ولهذا كان يبدو له محو هزيمة ديان بيان فو انتصار عسكري في الجزائر، حتمية معنوية وسياسية في آن واحد[38].

لإلحاق الهزيمة بجيش التّحرير الوطني، كان شارل ديغول بحاجة لقائد عسكري أقل « روتينية » وأكثر تحررا وقادر على تجاوز كلّ المعتقدات والعادات الراسخة، ولقائد واقعي وجريء في نفس الوقت، يستطيع أن يقوم بما لم يجرؤ عليه من سبقوه قط، وهو الخروج إلى الميدان لاقتفاء آثار وحدات جيش التّحرير الوطني ثم تسخير كلّ الوسائل لتدميرها. فهكذا وقع اختياره على جنرال من سلاح الجو، هو الجنرال شال[39]، الّذي جهّز الجيش الفرنسي لهجوم شامل.

قبل التحرّك، قام شال أولا بإصلاح قوّات الاحتياط بإعادة هيكلة فرقتي المظليين العاشرة والخامسة والعشرين وكذا فرقة المشاة الحادية عشرة، مع تجنيد عدد كبير من عناصر الحركى.

قام بتعزيز دفاعات الحاجز الأول، وشرع في بناء خط ثان يحمل اسمه. إلى هذا الخط الّذي يعبر قلب القاعدة الشرقية، أرسل الجزء الأكبر من قوّاته المتألفة من خمسة ألوية مشاة أجنبية (الأول والثّاني والثّالث والرّابع والخامس)، ولوائي مظليين و6 آلاف جندي موزعين على لواء المظليين الثّاني، وعلى ثلاثة ألوية لمشاة البحرية (الأول والثّاني والثّالث). وأضاف إلى هذه لواء القناصة المظليين التّاسع، وكتيبتي كوماندوس جويتين، ونصف سرية من مشاة البحرية ونصف السرية الثّالث عشرة للفيف الأجنبي وعدة كتائب صحراوية من اللفيف المحمول.

وبالإضافة إلى الوحدات المنتشرة على الأرض (الّتي تضم عشرات الآلاف من الجنود)، كان يتوفر على 40 ألف رجل للتدخل السريع مدعومين بنسبة قوية من السرايا المدرعة.

وكجنرال في الطّيران، لم يهمل شال السلاح الّذي يعرفه أكثر مما يعرف غيره، بل لقد أدى سلاح الجو دورا أساسيا في ترسانته الحربية.

يمتد خط « موريس » الّذي شيّد ابتداء من جوان 1957، من البحر المتوسط إلى جنوب نقرين الجنوبي. وينشر تحصيناته بالتوازي مع الطريق عنابة-تبسة (شرق هذا الطريق). فهو يأخذ على مستوى تبسة شكل عقد يطوّق جبال النمامشة. بداية من عام 1959، تم تعزيزه بهذا الخط الثّاني الّذي كان الجنرال الكبير يعقد كلّ آماله عليه. ينطلق هذا الخط مباشرة غربا من مدينة القالة. يقترب أكثر من الحدود مع تونس. ويتقاطع مع خط موريس على مستوى سوق أهراس، ويندمج

---

38. أراد شارل ديغول أن يعطي معنى لقتال قوّاته فبدأ بالتأكيد على استحالة الفصل بين الجزائر وفرنسا. في يوم 6 جوان 1958 في وهران، قال : « الجزائر هي عضويا أرض فرنسية اليوم وأبدا ».

في 23 أكتوبر 1958 اقترح « سلم الشجعان » وهذا يعني الراية البيضاء والاستسلام. يوم 8 جانفي 1959، يوم توليه منصبه كرئيس للجمهورية، تكلم عن جزائر « مرتبطة ارتباطا وثيقا بفرنسا ».

39. شال قائدا عاما من ديسمبر 1958 إلى مارس 1960.

معه، ثم يبتعد عنه قبالة القرية الّتي تسمى غامبيتا وصولا الى تبسة و« يلحّم » أسلاكه الشائكة وحواجزه في أسلاك وحواجز العقد الّذي يحيط بالنمامشة.

عندما يتباعد الإنجازان أحدهما عن الآخر، يشكّلان خطين متوازيين. الخط الأول، بما في ذلك الأراضي الممتدة بين الحواجز والحدود، يمثل مجال عمل النّاحية الأولى التابعة للقاعدة الشرقية، الّتي أشرت إليها في هذا الكتاب، أما الثّاني فالمساحات الّتي تمتد بين هذا الخط والحدود التونسية، فتمثل مجال عمل الفيلق الثّالث التابع للقاعدة الشرقية والناحيتين الخامسة والسادسة التابعتين للولاية الأولى. لم يمنع التواجد الكثيف جدا للقوّات الفرنسية الّتي تعبر وسط القاعدة الشرقية جنودها البواسل من شن عملياتهم الحربية.

أعيدت هيكلة القيادة العسكريّة حسب الأسلاك والنّواحي والقطاعات. وبقي هذا التنظيم تقريبا على حاله إلى غاية الإعلان عن وقف إطلاق النار.

بعدما تم تهيئة كلّ هذه الوسائل، قام شال بإطلاق نصف مليون جندي في الجبال. وفي يوم 22 جويلية 1959، جنّدت عملية « جومال » أزيد من 20 ألف عسكري في منطقة القبائل. وهي العملية الأولى من سلسلة عمليات هجومية أطلقت عليها مسميات « نفيسة[40] ». مهمتها تمشيط جميع السلاسل الجبلية في الجزائر : القبائل، الونشريس، جبال سعيدة وفرندة وزكار والأطلس البليدي والحضنة ومرتفعات جيجل وشبه جزيرة القل وجبال إيدوغ والأوراس.

مع شال في القيادة، كان عام 1959 عام الآمال الجديدة للاستراتيجيات السّياسيّة والعسكريّة الفرنسية. شهد سقوط رموز كبيرة من المقاومة : في يوم 28 مارس، استشهد عميروش والحواس، القائدان المرموقان للولاتين الثّالثة والسادسة، في معركة مع قوّات المظليين بقيادة الكولونيل دوكاس. علي حمبلي، الّذي كان يحتل موقعا هاما على جانبي الحدود الجزائرية التونسية، سلّم نفسه في 21 مارس مع 156 من جنوده. كما تكبّد جيش التّحرير الوطني خسائر كبيرة على الحواجز الحدودية بما في ذلك على الّذي شيّد في الحدود الغربيّة.

أحرزت القوّات العسكريّة بقيادة شال، والّتي لعبت فيها قوّات التدخل السريع دورا أساسيا، انتصارات أكيدة. وهذا ما شجع ديغول ليصرّح يوم 16 أفريل من ذلك العام قائلا : « أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك حل عسكري للقضية الجزائرية، لأن الحواجز الحدودية تؤدي دورها وأنه من الممكن التخلص بسرعة من الخصم » !..

واصل الجنرالات كريبان (من مارس 1960 إلى 1961)، وغامبييز (من فيفري إلى جوان 1962) وآيري (من جوان 1961 إلى مارس 1962) الاستراتيجية الّتي رسمها شال.

40. « الحزام » Courroie، « الشرارات » Etincelles، « الأحجار الكريمة » Pierres précieuses، « فيروز » Turquoise « الزمرد » Emeraude و« توباز » Topaze.

عمل هيئة الأركان العامة لجيش التّحرير الوطني

بعد تولي هواري بومدين زمام القيادة، شرع بحزم على الحدود الشرقية والغربيّة في استئناف عملية « التسوية » الّتي لم يكمّلها محمدي السعيد المدعو ناصر. فاستحدث فيالق تستجيب لجداول متجانسة من حيث التّموين والتجهيز. يضم كلّ فيلق ما يقرب من ست مئة رجل مدرّبين ومكوّنين، موزعين على ثلاث كتائب مشاة : كتيبة دعم ثقيلة، وأخرى للقيادة والثّالثة للخدمات. تجسدت هذه الهيكلة الجديدة انطلاقا من الهياكل التابعة للنواحي الست الموجودة وتلك التابعة للولايات الداخلية الممثلة في المعسكرات المنتشرة على طول الحدود. يعيّن كلّ فيلق في قطاع جغرافي محدد[41].

الأقاليم الجزائرية المتاخمة لتونس، والمتمثلة في النّواحي الست الصغيرة، قسّمت إلى منطقتي عمليات كبيرتين متميزتين، هما المنطقة الشمالية والمنطقة الجنوبية.

في غضون أقل من عامين، أصبح جيش التّحرير الوطني، في الشرق، يضم ما يزيد عن خمسة وعشرين فيلقا وسبع كتائب نواحي ثقيلة[42]، والعديد من القواعد اللوجستية المختصة بالدعم.

تشكل المناورة الّتي تجتمع فيها ثلاثة فيالق وكتيبة نواح ثقيلة واحدة وقاعدة لوجستية قوة مسلحة لا تختلف كثيرا عن اللّواء الفرنسي في سنوات الخمسينات.

تجسّد صعود جيش التّحرير الوطني، على الحدود الشرقية والغربيّة، من خلال عمليات أكبر حجما أعطت صورة أخرى عن الحرب. وسرعان ما أثبتت هذه الاستراتيجية المرتكزة على استنزاف قوى العدو فعاليتها. فاضطر العدو لحشد المزيد من القوّات باستمرار. وهذا ما يخفف العبء في الداخل على الجيش الجزائري الّذي كان يعاني من هول عمليات شال العملاقة الّتي جنّد لها عشرات الآلاف من الجنود. للصمود أمامها، عرف كيف يتكيّف فانقسم إلى وحدات صغيرة ومتنقلة، حتّى يتسنى له أعادة هيكلة نفسه بمجرد ما تتاح له الفرصة. طبّق نظرية ما يسمى بقطرة الزئبق.

الشّعب الجزائري في الشارع

أدى عجز الجيش الفرنسي عن القضاء على وحدات جيش التّحرير، وبالتّالي عن إنهاء حالة انعدام الأمن الدائم الّتي يعيشها كلّ شبر من التراب الجزائري، في نهاية المطاف إلى زرع الشك والتعجيل بانتشار الفتنة في صفوفه. في عام 1960، قامت مظاهرات شعبية عارمة عبر المدن الجزائرية واستطاعت أن تكسب سياسيا ما أحرزه الجيش الفرنسي عسكريا. واستخلص الجنرال ديغول من ذلك حكما منطقيا، وهو أن فرنسا أخفقت في قلب مسار التاريخ، وخسرت حرب الجزائر.

41. جاء هؤلاء الرّجال لجلب الأسلحة والذخيرة. بقوا في تونس بعدما أصبحت الحواجز صعبة العبور.

42. كتائب نواحي ثقيلة مجهزة بالمدفعيّة : مدافع هاون عيار 120 ملم ومدافع عيار 85 ملم.

اكتسب ديغول تجربته العسكريّة والسّياسيّة خلال حربين عالميتين. يعرف أن استقلال أي بلد تضمنه صلابة جيشه. فتجربة فرنسا نابليون الأول، وألمانيا غيوم الثّاني، والإمبراطورية النمساوية المجرية وأبعد منها تاريخ روما في بداية الألفية الأولى غرست فيه القناعة بأن الهزائم العسكريّة لا تأتي نتيجة لضعف في القدرات الحربية لجنس ما، بقدر ما تكون نتيجة نظام سياسي أدرك نهايته.

إنّ العالم الجديد الّذي ولد في يالطا هو عالم ذو قطبين، غير آمن وغير مأمون، ويعج بالتهديدات النووية. قبل ذلك ببضع سنوات في لندن وواشنطن، كان ديغول قد رأى كيف تعامل بلاده الّتي لم يعد لها وزن على الساحة الدولية وأصبحت محل رأفة الدول العظمى الّتي تصدقت عليها بمقعد صغير على أطراف مائدة المنتصرين.

لاستعادة مكانتها كقوة عظمى في عالم يتقدم بخطوات عملاقة، كان على فرنسا، وفقا لرؤية ديغول، أن تسوي بأي ثمن القضية الجزائرية الّتي ترهن مستقبلها وتدمر اقتصادها، وتنخر جيشها وتهدد تماسك شعبها.

آثر ديغول في البداية أن يترك الفرصة لحملات الجنرال شال وللوعود الاقتصادية لخطّة قسنطينة، ثم، وفي يوم 16 سبتمبر 1959، تحدث لأول مرّة عن « حكم الجزائريين بالجزائريين ».

العقبة الرّئيسية لهذه السياسة الجزائرية الجديدة للجنرال ديغول صدرت عن الأقلية الأوروبية الّتي استوطنت في الجزائر وعن اللوبي القوي الّذي يحرّكها عبر وسائل الإعلام. وكان آلان سيريني على رأس « ليكو دالجي »، وجورج بلاشيت مع « لوجورنال دالجي » و« ليكو دوران » لبيار لافونت و« لادبيش دو كونسطنطين إي دولاست ألجيريان » للإخوة موريل صنّاع الرأي بالنسبة لفرنسيي الجزائر.

كلّ رأي مخالف يُنظر إليه على أنه محاولة لبيع الجزائر ويجذب لصاحبه اللعنات والشتائم. هنري بورجو، آبو، ريمون لاغيير، أميدي فروجر، شيافينو وريني ماير هم الأصوات المدوية لما يسمى « تجمع فرنسيي الجزائر » الّذي يملك خزينة حرب هائلة استخدمت لكسب رضا الوزراء والجنرالات. كانوا يعارضون أدنى إصلاح، وأسقطوا عدة حكومات. فهم لا يقبلون بأي سياسة جزائرية أخرى غير السياسة الأمنية. فأوّل ما ظهر خيار تقرير المصير، ركبهم الجنون وراحوا يجيّشون صحفهم وحلفاءهم من اليمين الفرنسي.

كثير من الضبّاط، خاصة في قوّات المظليين، من الّذين استأنسوا بـ« دفء وكرم الأقدام السوداء » ووقعوا ضحايا أوهامهم، أعلنوا تمردهم في محاولة لوقف الديناميكية الّتي أطلقها ديغول. فأصبحت الأقلية الأوروبية بذلك مادة للمناورات المتواصلة.

هذه المعارضات تفسر المسار الشاق والملتوي الّذي أخذته المفاوضات الّتي شرع فيها الجنرال ديغول مع جبهة التّحرير الوطني. فرنسي مرتين وليس مرّة واحدة deux Gaulles، (كما تقول الأغنية). كان ديغول يحتقر الغوغاء المتوسطية الّتي استوطنت في إفريقيا، وحلت بالأرض

الجزائرية عن طريق المغامرة وقوافل البوهيميين وفي أمتعة المتشردين أو في حشرات وحراب الجنرال غاليفي[43]. هذه الأقوام المتنافرة الّتي انصهرت وأصبحت تشكل الشّعب « الفرنسي » تمييزا عن الشّعب الآخر، الأصلي، المسلوب من أرضه والمستسلم، تريد أن تفرض على ديغول النهج الّذي ينبغي أن تسير عليه السياسة الفرنسية. الحلول الّتي يقترحها هذا اللوبي، وهي الإدماج، لم تعجب ديغول. بل كانت تثير حفيظته. لأنه كسياسي محنك، ولديه بعد نظر كما يقول عنه البعض، يعرف بأن الإدماج الحقيقي للشعب الجزائري أمر مستحيل.

كان ينظر إلى سياسية الإدماج على أنها ستؤدي في النهاية إلى « تهجين » الهوية الفرنسية. وأن الانفجار السكاني للجزائريين سيخل بتوازن المؤسّسات الفرنسية بعد جيل واحد فقط.

هل يجب القضاء على عشرة ملايين جزائري ؟ وبعبارة أخرى تكرار مجزرة 8 ماي 45 ألف مرّة، لكن ذلك لم يعد أمرا مقبولا لأسباب تتعلق بالسياسة الداخلية والحفاظ على الهيبة الدولية.

لم يعد لشارل ديغول أي خيار. فالتكلفة العسكريّة والسّياسيّة والاقتصادية للبقاء في الجزائر تقتضي « التخلص » من العبء الجزائري.

فرضت قوة صمود جيش التّحرير الوطني على فرنسا الدفع بأقصى ما تملك من أوراق رابحة. لأن بإمكان جيش التّحرير أن يذهب أبعد من ذلك. فهو قادر على حشد المزيد. تحضيره وتجهيزه العسكري أخذ في التوسع والتنوّع. إذ بدأ يقر في استراتيجيته إدخال شتى أنواع الأسلحة. الهدف الّذي سطرته على المدى المتوسط هو تدمير الخطوط المكهربة الّتي تعزل الولايات الداخلية عن قواعدها الخلفية، وذلك بتكبيد الجيش الفرنسي أكبر عدد ممكن من الديان بيان فو المحلية الصغيرة، تثقل على كاهلها. وكان يتوخى، على المدى الطويل، الانتشار الدائم في مربع أقصى الشمال الشرقي، الممتد من القالة إلى الضاحية الشمالية لسوق أهراس وتحويل هذه المعاقل الجبلية إلى قبر لألوية النخبة الفرنسية. هذه هي الأهداف الّتي سطرها. هل حققها ؟ تلك قصة أخرى.

كان الرهان الّذي رفعه الجيش الجزائري هو استرجاع سيادة الوطن. أما بالنسبة للفرنسيين، فرهانهم ليس سوى الحفاظ على مستعمرة أرض أو إقليم أجنبي. سبع سنين من الحرب لم تحل شيئا. فهل يجب خوض حرب المائة سنة بقبول التّقسيم ؟ العقل السليم لا يقبل بذلك.

بداية من عام 1961، وبعد مظاهرات الجماهير الجزائرية الحاشدة، لم يعد لديغول أي سياسة بديلة. وأدت القطيعة بين أوهام اللوبي المتطرف في الجزائر وواقعية ديغول إلى محاولة انقلاب عسكرية قادها موريس شال و طغمة من الجنرالات في عام 1961. لكن نفوذ الرأي العام في فرنسا وتردد المجنّدين أدى إلى هزيمة المتمردين، فصار بمستطاع شارل ديغول أن يذهب في مشروعه إلى أبعد نقطة.

43. غاليفي Gallifet : جنرال فرنسي قاد حملة القمع ضد أنصار « الكومونة ».

بعدما تبيّنت للحكومة الجزائرية المؤقتة حالة الانسداد الّتي تتخبط فيها الحكومة الفرنسية، وافقت على الذهاب إلى المفاوضات. لأنها تعلم أن من ينتظرونها على الجانب الآخر من الطاولة أصبحوا أخيرا واقعيين.

ومثلما أشرت إلى ذلك آنفا، كنا في الجبل نتابع – ولو من غير تحمس – مراحل نضوج الواقعية عند الجنرال ديغول. كنا نقول إن الأمور أخذت هذا المنحى بفضل مثابرة وتضحيات جيش التّحرير الوطني. وما زلت أعتقد أن ظل المجاهدين، الحاضر مثل تمثال القائد في قاعة المفاوضات، هو الّذي شجع مفوضّينا على عدم التنازل قيد أنملة من مطالبنا الثابتة. في يوم 5 سبتمبر 1959، عندما طالبنا ديغول بإيداع « السكاكين في مخازنها، أي بقبول وقف إطلاق النار قبل الذهاب إلى المحادثات ». وفي يوم 30 مارس 1961، عندما أعلن جوكس أن « فرنسا ستتفاوض أيضا مع الحركة الوطنية الجزائرية (المصالية المترجم) ». وفي جويلية 1961، عندما تم الرجوع عن جزائرية الصّحراء، أو عندما أفصح المفاوضون الفرنسيون عن نيتهم لمنح الأقلية الأوروبية حصة الأسد من الامتيازات ومكانة خاصة.

إنّ القول بأن ديغول أعاد الجزائر إلى الجزائريين إكراماً منه، ينم عن جهل تام بالواقع الفرنسي الداخلي الّذي استعرضنا جانبا منه، وبإرادة جيش التّحرير الوطني – الّذي التف حوله الشّعب الجزائري – لمواصلة الكفاح مهما كان الثمن.

إنّ الّذين يصدقّون رواية « الاستقلال المهدى » يجهلون كلّ شيء عن استراتيجية جبهة التّحرير الوطني وتضحيات الجزائريين والطاقات الّتي تزخر بها الجزائر.

ولا يزال تاريخ الجيش الجزائري مستمرا.

الفصل العاشر
معركة سوق أهراس : منعطف في الحرب

شهادة محمّد معارفيّة

انضمّ محمد معارفيّة إلى صفوف الثورة منذ الأيام الأولى لاندلاعها. وقد حارب وهو لا يزال في ريعان شبابه، وكان عضوا في الفرقة الأولى في منطقة سوق أهراس الّتي كانت تضمّ مناطق حدوديّة من شمال شرق البلاد الّتي أصبحت فيما بعد بقرار من لجنة التنسيق والتنفيذ لجيش التّحرير الوطني تسمى القاعدة الشرقية بقيادة العقيد عمار العسكري الملقّب بوقلاز. انضمّ محمّد معارفية إلى فرقة كومندو سليمان « لاسو » ووحدة النخبة بقيادة سبتي بومعراف. واستمرّ في النشاط في تلك المنطقة حتّى عام 1960. وبعد أن تلقى تدريبا في تشيكوسلوفاكيا انضم إلى الولاية الأولى إلى أن نالت البلاد استقلالها. معرفته الممتازة بالمواقع الّتي خدم فيها وبالرّجال الّذين عاشرهم، سمحت لمحمد معارفيّة عبر عدّة أعمال مكتوبة نشرتها الصحافة، بأن يسلّط الضوء كاملا على تاريخ القاعدة الشرقية بالإضافة إلى العمليات الّتي شنّها بها الثوار الأبطال.

عرف محمد معارفيّة كيف يضع معركة المواجن الكبرى في سياقها السياسي والعسكري، وهي المعركة الّتي قام خلالها الفيلق الرّابع التابع للقاعدة الشرقية بدعم من كتيبتين من الولايتين الثّانية والثّالثة في طريقها إلى الداخل، بمواجهة عدوّ يفوقه عددا وعدة.

وقد تركت معارك سوق أهراس – ومن بينها معركة المواجن – آثارا عسكريّة وسياسيّة ودبلوماسيّة غيّرت من مجرى الثورة.

تمتد المنطقة الّتي تحوّلت في أواخر 1956 إلى « القاعدة الشرقية » من القالة شمالا حتّى الونزَة جنوبا. ويحدّها من الغرب وادي سيبوس ومحاور الطرق الّتي تصل من الشمال إلى الجنوب المناطق السكنيّة في عنّابة – لافردور – ومداوروش والونْزة والكبريت. تضم هذه الأراضي الّتي يتراوح عمقها بين 50 ومائة كيلومتر عدّة سلاسل جبليّة وعرة ومشجرة. في جنوب وجنوب غربي القالة : جبال بوعبّاد وبوحمرة، أولى سفوح جبل إيدوغ. في شمال وشرق سوق أهراس : جبال

بني صالح وأولاد بشيح وأولاد ضياء. وعلى حدود الونزة : جبال بوسِسّو وبوعامود ولوڤرين والدف. في جنوب شرقي الونزَة تمتدّ هضاب (الفِلتة) السهلية.

حصلت هذه المنطقة التابعة أصلا للولاية الثّانية على « استقلالها الذاتي » تحت تسمية « ناحية سوق أهراس » غداة أول نوفمبر 1954. وقد تولّى قيادتها على التوالي : باجي مختار (استشهد في ساحة المعركة في 11 جانفي 1955)، وجبّار عمور (استشهد في 6 ماي 1956)، والوردي قتّال، وعمارة العسكري (الملقّب بوقلاز) وأخيراً محمد عواشريّة (استشهد عام 1958). واكتست أهميّة استراتيجيّة فائقة عندما أصبحت تسمى « القاعدة الشرقية »، لتصبح موقع المعارك المفضل لجيش التّحرير الوطني ضدّ الجيش الفرنسي.

تتمتّع ناحية سوق أهراس الّتي تقع على الحدود التونسية بعمق استراتاجيّ تجاه تونس وليبيا ومصر وبشكل أبعد تجاه المشرق العربيّ الحر. فلقد سهّل هذا الانفتاح على الفضاءات الكبرى المتضامنة ليس بالتزوّد بالأسلحة والذخائر فقط بل أتاح على المدى البعيد فرصا استراتيجيّة من خلال التدويل الحتمي للصراع.

كانت الوحدات المقاتلة الّتي احتلّت ناحية سوق أهراس هذه (تسميتها الأصليّة) مقسّمة حتّى شهر أكتوبر 1956 إلى مجموعات مسلحة يتراوح عددها بين 60 و200 مقاتل. ولقد قاتلت هذه الوحدات الّتي لم تكن تتمتّع بتنظيم عسكري رغم ذلك بعزم وشجاعة. نذكر من بين أشهر القادة الأكثر في تلك الحقبة : الطاهر زبيري، عبد الرحمن بن سالم، شويشي العيساني، علاوة بشايريّة، موسى حواسنيّة، الزين نوبل، الطاهر سعد سعود، سليمان بالعشاري، الطيّب جبّار، عبد الله سلامي، محمّد الأصنام، محمّد لخضر سيرين، الحاج لخضر داودي، سليمان ڤنون المدعو « لاسو » والعظيم سبتي بومعراف. هذه اللائحة غير شاملة طبعا. لأن عدد القادة الّذين كافحوا ببطولة وبسالة ولقوا حتفهم وبقيت أسماؤهم مجهولة لا يحصى.

قام عمارة بوقلاز، التقنيّ السابق في البحريّة الوطنيّة الفرنسيّة والّذي أصبح قائد قطاع القالة، ما إن تولّى قيادة ناحية سوق أهراس (سبتمبر-أكتوبر 1956) بوضع الخطط التنظيمية والبنى التحتيّة الّتي حدّدها مؤتمر الصومام والّتي ستسهل ترسيخ لجنة التنسيق والتنفيذ لجيش التّحرير الوطني في تونس من أجل إعادة إطلاق ناجح للعمليّة العسكريّة الّتي تباطأت أو توقفت بسبب المصاعب الّتي برزت خلال صيف 1956.

منذ أواخر عام 1956 تشكلت ثلاثة فيالق : في الشمال، (النّاحية الأولى) الفيلق الأول مع شويشي العيساني. ويضمّ بين أفرادها ضبّاطا ممتازين : علاّوة بشايريّة ويوسف بوبير محمّد مزوز وعبد القادر عبد اللاوي وسبتي زمولي والفاضل بوطرفة والشّاذلي بن جديد، إلخ... (ولقد بدأ ارتقاء الشّاذلي بن جديد عندما تمّت ترقية شويشي العيساني إلى قائد فيلق).

في الوسط، (النّاحية الثّانية) قبالة مخيم عين زانة والثكنات العديدة الموجوة في سوق أهراس وفي محيطها، نجد الفيلق الثّاني بقيادة عبد الرحمن بن سالم، وهو الرجل الّذي اجتاح، رفقة محمد عواشريّة، ثكنة البطيحة الفرنسيّة وانضم إلى جيش التّحرير الوطني مع 156 قناصاً في شهر مارس 1956. ظل بن سالم محاطاً برفاقه، من بينهم ذيب مخلوف ولخضر وارتسي ومحمد صالح بشيشي وصالح نهرو، إلخ... وكان مطلوبا من النّاحية الثّانية أن تبقى مفتوحة « قنوات » الزعروريّة ومشروحة وعين سنّور الّتي على متنها ستتدفق على الجزائر الأسلحة والأجهزة العسكريّة إلى أن أصبحت الحواجز المحصّنة شبه عازلة.

في الجنوب، (النّاحية الثّالثة) يوجد الفيلق الثّالث بقيادة الطاهر الزبيري، الّذي سيتولى فيما بعد قيادة ولاية الأوراس مع سبتي بومعراف وجيلاني بن ضوحة وشريف برقطية وزين نوبل، وشريف ملاح، وموسى حواسنيّة ومحمّد لخضر سيرين وغيرهم. تمكن هذا الفيلق الثّالث، بفضل الأرض الجرداء الّتي قادت فيها عمليّاتها وخاصة - أيضا - بفضل الفصيلة الثّامنة (سبتي بومعراف)، من تحقيق انتصارات كبيرة.

لعبت هذه الفيالق الثلاثة فيما بعد دورا مهمّا في تسريع ديناميكية الحرب. وستتحمّل طوال العام 1957، وفترة من عام 1958، أعباء وآلام المسيرة الطّويلة. وكانت مهمتها بفضل معرفتها التّامة للأرض قيادة وحماية كتائب التّموين الآتية من الداخل أو العائدة، وفتح الطريق لها في دفاعات الخطوط الّتي كانت تسعى إلى عزل الجزائر عن العالم الخارجي.

طوال عام 1957 تدفقت الأسلحة بغزارة، ما أعطى هذه الفيالق الثلاثة الهامة (يزيد عدد جنود كلّ منها عن الثماني مئة) قوّة قتاليّة معتبرة. فتحولت الهجمات المحتشمة والكمائن المترددة إلى عمليات مركّزة وأكثر فعالية : هجمات على الحصون وعلى الجيوش خلال قيامها بعمليّات عسكريّة مع احتجاز الأسرى، قصف الثكنات بقذائف الهاون، معارك منظّمة انتهت في معظم الأحيان لصالحه، طيران خفّت فعاليّته بسبب ظهور مدفعية فعّالة مضادة للطائرات.

كثف العقيد عمارة بوقلاز، تحت ضغط لجنة التنسيق والتنفيذ، من دورياته في الداخل، وعزز وسائل الوحدات العملياتية، وأعدّ خططا أكثر طموحا وأدخل أكبر كمية ممكنة من الأسلحة إلى الجزائر.

يعود ضعف ردة فعل العدو، خلال السنوات الأولى أمام استماتة وحدات القاعدة الشرقية، إلى طبيعة استراتيجية الفرنسيين ذاتها. بمعنى أن الحاميات الّتي تطوق الشمال الشرقي (وكلّ الجزائر) كانت تشتبك أحيانا مع كتيبة من الكتائب، لكنها لا تقوى على ملاحقتها باستمرار ومحاصرتها والقضاء عليها. ولقد شكّل سيل الأسلحة الّتي تتدفق داخل البلاد، بفضل كتائب العبور الّتي أنشأها العقيد بوقلاز، خطرا على المراكز الفرنسية، وشلّت المواصلات وولّدت خوفا من حصول كارثة عسكرية بعواقب سياسية وخيمة.

كان هناك أمران طارئان ولا مجال للتهرب منهما شغل قيادة الأركان الفرنسية : وقف تدفق الأسلحة، مهما كلّف الأمر، لأنه يعطي إمكانيات جديدة لجيش التّحرير الوطني، وتدمير قوّاته في أي مكان حيث يُمكن الوصول إليها. كيف ذلك ؟

- بتجميع سكان الأرياف في معسكرات تخضع لمراقبة عسكرية، بهدف تجفيف الإمدادات اللوجستية الّتي يستفيد منها جيش التّحرير الوطني.

- وببناء حاجز على طول الحدود، يخطط لغلقه بإحكام مستقبلا بفضل تسخير مزيد من الإمكانيات. هذا الخط المسمى « خط موريس » نسبة لمصمّمه، يمر من القالة في الشمال إلى نقرين جنوبا. أي أنه يقطع قلب الأراضي الّتي تنشط فيها الفيالق الثلاثة. على أن يُزوّد ابتداء من الفصل الثّاني لسنة 1959 بخط ثان، هو « خط شال ».

- بإنشاء وحدات تدخل سريع مؤلفة من أفواج نخبة وكوماندوس « صيّادي الرؤوس » لتطهير الأراضي الّتي تنشط فيها قوّات قاعدة الشرق.

كانت القناعة الراسخة – والمبرّرة على كلّ حال – في ذهن الفرنسيين بأن كلّ الشر يأتي من ناحية سوق أهرس، أدّت إلى تدفق هائل للقوّات والوسائل إلى هذه المنطقة.

لم تكن معركة سوق أهراس معركة معزولة ومحدودة في المكان وفي الزمان، بل امتدت، في مرحلتها القصوى، على مدى أربعة أشهر، وكانت ذروتها المواجن.

العوامل الرّئيسية الّتي دفعت إلى شن هذا الهجوم على وحدات جيش التّحرير الوطني الّتي تنشط في ناحية سوق أهراس، هي :

- احتلال الثكنة المسماة « مزرعة ميشيري » وتدميرها في أكتوبر 1957 على يد الكتيبة الثّامنة (سبتي بومعراف) من الفيلق الثّالث، الّتي كلّفت حياة الكثير من العسكريّين الفرنسيين، والّتي ستشكل التجربة الأولى لما يحضّره جيش التّحرير الوطني ضد مراكز التطويق.

- واقعة 11 جانفي 1958 عندما استُدرجت كتيبة من فرقة المشاة الثّالثة والعشرين كانت معسكرة في حصن الڤوارد، قبالة مدينة ساقية سيدي يوسف التونسية، إلى كمين منصوب من قبل فصيلتين[1] تابعتين للكتيبة التّاسعة التابعة للفيلق الثّالث (سبعة عشر قتيلا وعشر جرحى وأربعة أسرى من الجانب الفرنسي). اتّهم النقيب ألار التونسيين من سريره في مستشفى سوق أهراس، بعد أن أعلمته بالحادث الدوائر الخاصة : « بورقيبة متواطئ ! » وعنونت الصحف الصادرة بالجزائر العاصمة : « الأسرى هم في تونس ! » استدعي السفير، سلمت عن طريق اليد برقية تحمل لهجة تهديدية إلى الباهي الأدغم، نائب رئيس الجمهوريّة التونسية، بواسطة الجنرال (باشلي).

أثارت الصدمة الهائلة الّتي سبّبتْها أحداث « مشري » والڤوارد حفيظة القنصل العام روبير لاكوست وأغضبت قادة الأركان الفرنسية.

---

1. يقودهما حواسنية العياشي وصالح نهرو

أمام هذا الوضع، ازداد السخط على فليكس غايار[2]، رئيس مجلس الوزراء الفرنسي، من قِبل الصحافة الناقمة والمعمّرين المتطرفين وضحايا التجارب الجزائرية، (جاك سوستيل وأندري موريس وغيرهم)، وكثّف من ضغوطه على القيادة العسكريّة للحصول على « نتائج ».

أرسلت فرق المظليين بسرعة إلى ناحية سوق أهراس « المتعفنة » بمهمّة محدّدة هي « سد » الحاجز وتدمير جيش التّحرير الوطني تدميرا نهائيا.

في أول فيفري 1958، اشتبك عناصر من الكتيبتين السابعة والتّاسعة التابعتين للفيلق الثّالث للقاعدة الشرقية، ومجمل كتيبتها الثّامنة، مع قوّات المظليين. استمرت المعارك من أول فيفري حتّى الثّامن منه وامتدّت من صفَحلي إلى البطيحة مروراً بوادي الشحم والعوايد وكاف لعكس. كلّفت المعركة جيش التّحرير الوطني مئتين وخمسين قتيلا. استشهد سبتي بومعراف وشريف ملاّح وطيّب جبار ومعظم الإطارات الموجودة على الأرض. وتكبّد الفرنسيون خسائر معتبرة لأنّهم لم يعرفوا في البداية أي قوّات سيواجهونها، فدفعوا بمشاتهم. إلى ساحة المعركة.

افتتحت هذه المعركة الكبيرة الأولى المسماة « معركة سوق أهراس »، الّتي خاضها من الجانب الفرنسي خمسة ألوية مظليين وقوّات من القطاعات ومختلف فرق المرتزقة (أجانب وحرْكى)، سلسلة من العمليات الضخمة الّتي أطلقها الجنرال شال بعدما أصبح قائد القوّات المشتركة.

في يوم 8 فيفري 1958، قام الطّيران الفرنسي بقصف ساقية سيدي يوس. فحوصرت الثكنات الفرنسية في تونس من قبل الحشود التونسية، ونظم حزب الدستور الجديد مظاهرات في البلاد تحت شعار واحد : « الجلاء ». تدخل الصليب الأحمر. وعرضت الولايات المتحدة الأمريكية وإنقلترا مساعيها الحميدة.

هلَّلت لجنة التنسيق والتنفيذ ! واتجهت أنظار سفارات كلّ الدول المهمّة نحو الجزائر. القضية تدوّلت !

ازدادت الحاجة إلى تشكيل الفيلق الرّابع للقاعدة الشرقية بسبب تكرار عبور كتائب الإمداد القادمة من داخل البلاد والّتي يجب على هذا الفيلق أن يمّد لها يد العون. قائد هذه الوحدة هو النقيب محمد لخضر سيرين، بمساعدة يوسف لطرش وعلي باباي وأحمد دراية.

بيّن إنشاء الفيلق الرّابع، المشكّل من عناصر النخبة المأخوذين من النّواحي الثلاث الأخرى، للفرنسيين مدى الخطر الّذي بات يهددهم.

يشكّل عبور خط موريس، في 28 أفريل 1958، الّذي أوجب على الفيلق الرّابع، بالإضافة إلى تسهيلها وحماية عبور كتيبتي الولايتين الثّانية والثّالثة ووحدة اتصالات للولاية الأولى، التمركز في منطقتها العملياتية الجديدة غرب الحاجز في تاورة (غامبيتا)، يشكّل بلا ريب منعطفا كبيرا في الحرب.

2. فليكس غايار، الّذي أصبح اسمه فليكس غايار ديمي، رجل سياسي فرنسي ولد في 5 نوفمبر 1919 بباريس وتوفي في 10 جويلية 1970 في عرض بحر جيرسي. ترأس الحكومة الفرنسية من 6 نوفمبر 1957 إلى غاية 14 ماي 1958.

كانت معركة المواجن (27 أفريل-3 ماي 1958) بلا شك أكبر وأهم معركة من سلسلة المعارك الّتي شهدتها القاعدة الشرقية. فبعد بضعة أيام على هذه المعركة، أسقطت بقايا الفيلق الرّابع وعناصر الولاية الثّانية مروحية كان على متنها العقيد جان بيار الّذي استطاع أن يفك الحصار.

أظهرت معارك سوق أهراس – وليس معركة واحدة – بشكل جليّ أن القيادات والجنود بسبب الوسائل المحدودة الّتي كانوا يملكونها – تسليح خفيف للمشاة – عملوا كلّ المستطاع محليا لمنع بناء الحواجز المحصنة ولم يفلحوا لأنه لا مجال للمقارنة بين إمكانياتهم وتلك الّتي يملكها الفرنسيون.

لقد استخلصت قيادة جيش التّحرير الوطني، أي هيئة أركان القاعدة الشرقية أولا، ومن بعدها مركز العمليات العسكري ومن ثم هيئة الأركان العامة، من معركة سوق أهراس الطّويلة والدامية دروسا مهمّة للمرحلة القادمة من الحرب :

- استحالة التخطيط لاحتلال نواح محدّدة مسبقا، لغرض التفوق السياسي، بطريقة ثابتة وظاهرة.

- في حالة القوّات الموجودة، خطر عبور الخط المحصّن بوحدات مهمّة، حتّى ولو كانت معتادة على الحروب ومسلحة تسليحا جيدا.

بناء على ذلك، سطّرت الولايات الداخلية – مكرهة – سياسة انعزالية لحفظ البقاء. شعارها غير المكتوب « الاستمرار ». وشرع الجيش الجزائري المحصور على الحدود، والّذي أعيد تنظيمه ويقوده بحكمة ومنهجية هواري بومدين، مراعيا إمكانياته وحدوده، في اتباع تكتيك حرب استنزاف مع الاستعداد الطويل لليوم الّذي يصبح بإمكانه تدمير دفاعات الحاجز ومواصلة الطريق المقطوع لأبطال المواجن.

معركة المواجن الكبرى (27 أفريل- 3ماي 1958)

في أواخر شهر أفريل 1958، قرّر قائد القاعدة الشرقة العقيد عمارة العسكري المدعو بوقلاز، تعزيز وجود جيش التّحرير الوطني في ناحية تاورة (غامبيتا) بوحدة قتالية مهمّة، هي الفيلق الرّابع المكوّن من عناصر أخذوا من النّواحي الأولى والثّانية والثّالثة ومن القاعدة الشرقية، مهمتها الأساسيّة مواكبة وحماية كتائب العبور المتوجهة إلى تونس أو العائدة إلى الجزائر.

وشاركت أيضا في معارك أواخر أفريل وأوائل ماي 1958 كتيبتان من الولايتين الثّانية والثّالثة وفصيلة إشارة من الولاية الأولى.

كان لكلّ واحدة من هذه الوحدات الثلاث استقلالية القيادة ما إن يتم عبور الحاجز. وبما أن قائد الفيلق الرّابع، محمد لخضر سيرين، لم يكن قد عبر الحاجز بعد، أدار المعركة معاونه العسكري يوسف لطرش، وهو ضابط صف قديم فار من الجيش الفرنسي.

تكشف شهادات النقيب مقران آيت مهدي من الولاية الثّالثة، وسالم جيوليانو من الفيلق الرّابع، من الجانب الجزائري، والجنرال روبير غاجيت وباتريك شارل رينو، من الجانب الفرنسي، عن بعض جوانب هذه المعركة الكبرى الّتي تركت أثرها في النفوس، وعن حجم الوسائل الّتي استعملها العدو[3]، الأرضية منها والجوية، كما تبيّن المقاومة البطولية لجيش التّحرير الوطني. تمثل وحدات جيش التّحرير الوطني المشتبكة ما يقارب ألف وثلاثمائة رجل في منطقة العبور، إذا حسبنا عناصر الناحيتين الثّانية والثّالثة الموجودين أو الّذين التحقوا بالسلاح بعد اندلاع المعارك.

لقد أجبرت خبرة جنود جيش التّحرير، الّذين يعرفون بصورة أفضل استعمال الأرض عبر انتشارهم المنهجي وخلق عدة نقاط تمركز، العدو على تشتيت قيادته ونقاط اتصاله وعلى استعمال طيرانه ومدفعيته بقوة وكبّدوه خسائر هامة. إلا أن الخسائر الّتي مني بها جيش التّحرير الوطني، لم تمنع الناجين، من أن يتابعوا مهمّتهم وأن يسلموا الأسلحة والمعدات الّتي كانوا يحملونها.

ستبقى المعركة البطولية الّتي خاضها من كانوا في المواجن مسجّلة إلى الأبد في تاريخ ثورتنا التّحريرية المجيدة.

حسب كتابات الجنرال غاجيت نفسه، خسرت القوّات الفرنسية مائتين وتسعة وسبعين بين ضابط وصف ضابط وجندي، وأصيب سبعمائة وثمانية وخمسون عسكريًّا، أغلب إصاباتهم خطرة.

قطعت كتيبة الإمداد التابعة للولاية الثّالثة حوالي سبعمائة كيلومتر بعدما تمكنت من كسر الحصار ووصلت إلى ولايتها بثلث عناصرها، أما البقية فسقطوا في ساحة.

فقد جابه هؤلاء الرّجال الجوع والتعب وقلة النوم، دائما في حالة تأهب ويتقدّمون بشكل غير منتظم ويلتصقون بالأرض، مع الحرص على حمولتهم الثمينة، أجبروا العدو على التراجع وكبّدوه خسائر فادحة.

شكلت العناصر الناجية من الفيلق الرّابع فيما بعد نواة لوحدة جديدة تمركزت بالرغم من كلّ شيء في ناحية التحاقها. وشنت عدة عمليات حتّى الوقت الّذي استلمت فيه من القيادة، في بداية عام 1959، الأمر بالانقسام إلى كتائب وفصائل التحقت بشكل منفصل بالنّواحي الأولى والثّانية والثّالثة.

كنت، في تلك الفترة قائدا مساعدا للنّاحية الأولى عندما التحق بنا سالم جيوليانو مع تسعة وعشرين من رجاله، الناجين الوحيدين من كتيبته. الّتي كان تعدادها مائتي جندي.

ظلت الملحمة الّتي عاشها رجال الفيلق الرّابع لوقت طويل موضوع الحديث الوحيد لسالم جيوليانو ورفاقه، فمن خلال قصصهم عرفت وقدّرت المحنة الّتي مرّوا بها.

أردت من خلال استحضار معركة المواجن عبر هذه الصفحات إحياء ذكرى هؤلاء الّذين سقطوا ببسالة في ساحة الشرف.

---

3. 6 فيالق مشاة، و4 ألوية مظليي كومندو، 1 مجموعة مصفحة مع دعم الطّيران والمدفعيّة.

يسرد الجنرال روبير غاجيت في كتابه « La saga des paras » (ملحمة المظليين)، بعض فصول هذه المعركة، ويورد إيضاحات دقيقة عن الخسائر الّتي تكبّدها العسكريون الفرنسيون. ولم ينس روبير غاجيت أن يحيي شجاعة الخصم.

كتب غاجيت : « بعد عمليَّتي العبور الّتي اعترضهما لواء المظليين الأجانب الأول، واللتين تركتا رغم كلّ شيء اثنين وثلاثين قتيلا من بينهم ستة ضبّاط وستة وتسعين جريحا، أوقف الفلاقة محاولاتهم.

إلاّ أنّهم لم يتخلوا عنها نهائيا. والسبب هو أن جيش التّحرير الوطني قد ابتكر تقنية جديدة للعبور تقوم على حفر أخاديد تحت الأسلاك المكهربة، يزحف عبرها المقاتلون على بطونهم. وإذ اتخذ القرار بالقيام بضربة كبيرة، اختار زعماء جيش التّحرير الوطني في تونس أن يعبروا بقوة إلى سوق أهراس. لهذا الهدف، ترك ألف وثلاثمائة جندي قواعدهم لينفذوا عبورا غير مسبوق.

تبقى هذه المعركة الجهنمية الّتي جرت أيام 28 و29 أفريل وأول ماي، والّتي أطلق عليها البعض اسم معركة المواجن، واحدة من أنصع الصفحات في تاريخ هذه الحرب. [....]

...في صباح يوم 29 أفريل، دخلت فرقة القناصة المظليين التّاسعة في عملية على وادي مِجِرْدة، على بعد خمسة عشر كيلومترا غربي سوق أهراس. كان رأس الحربة لمجموعة ألوية أسندت للعقيد بوشو، تتألّف من لواء المشاة الستين، والكتيبتين الأولى والثّانية للّواء المشاة المائة واثنين وخمسين. كانت مهمتها التفتيش عن « عصابة » استنادا لمعلومات موثوقة.

وفيما كانت العملية تتطور وصلت فصيلة مدرعات « الهرس » الّتي تفتش يومياً ضواحي الحاجز، إلى مسافة أربع كيلومترات جنوب سوق أهراس. فجأة، أوقف قائد الدورية سيارة الطليعة لأنه اكتشف شيئا غير طبيعي في تشابك الأسلاك الشائكة.

نزل من مركبته، واقترب من أقرب نقطة واكتشف ستة خنادق محفورة تحت الشريط المكهرب. وعلى مسافة أبعد، جثتين متكهربتين كانتا عالقتين بالشبكة. [...]

فور تلقيها الإنذار، قرّرت القيادة تركيب العملية وتتمثل في مجموعة تدخل قوية مدعومة من الدّبابات والمدفعيّة والطّيران. وفي اللحظة ذاتها، دعيت القطاعات العسكريّة في لافردور وسدراتة ومورسو إلى القيام بتطويق المقاطعة. تدّل مجموعة التدخل المتمفصلة حول أربعة ألوية مظليين وستة فيالق مشاة ومجموعة دبابات ومدفعية الطّيران ومروحيات النقل والرصد، على حجم العملية الّتي كانت مهمتها اعتراض سبيل الجنود المتسللين والقضاء عليهم [...] ».

من كلّ العمليات الّتي نفّذتها قوّات التدخل، لا يروي الجنرال روبير غاجيت إلا المعركة الّتي خاضتها كتيبتا المظليين التابعين للّواء القناصة المشاة التّاسع. ولكن نستطيع بكلّ سهولة أن ندرك أهمية المعركة وقساوة المعارك الّتي دفعت المقاتلين من الجانبين إلى معارك التحامية لا هوادة فيها.

يتابع غاجيت في سرده : « اختار العقيد المتمركز على علو شاهق مناطق تمركزهم وتعامل معهم بطائرات « تي 6 ». كانت الكتيبة الثّالثة بقيادة النقيب بومون أول كتيبة جاهزة، نُقِلَت

في طائرات « H21 »، وأقلعت طائرات « بنان » مثقلة بحملها باتجاه النقاط الّتي عيّنتها طائرات الاستطلاع « بيبر » على قمة المواجن.

أخذت المروحيات المنظّمة والموزّعة في الجو بالنزول على الأرض. ولكن في اللحظة الّتي هبطت فيها طائرة « البنان »، أصيبت بطلقات نارية كثيفة، فجرح اثنان من المظليين. صعَّد طيران المطاردة المركزة من دعمه وتتابعت عمليات الإجلاء بالمروحيات [...].

شاركت كلّ فصائل الكتيبة الثّالثة في معارك حامية. رد المظليون الّذين فوجئوا في البداية بكلّ أسلحتهم. وفجأة، أمام الفصيلة الأولى، كشف ثلاثة أو أربعة « فلاقة » عن أنفسهم، وتقدموا رافعي الأيدي استسلاما دون شك. تقدّم الملازم الأول باتجاههم عندما دوّى صوت صفارة. ارتمى الفلاقة على الأرض وحُصد المظليون بإطلاق نار عنيف كان يغطي عن مناورة لتطويقهم.

تدخلت الفصيلة الثقيلة سعيا لاحتواء الهجوم، بواسطة الهاون ومدفع الـ 57 ملم غير المرتد، ولكن القذائف نفذت بسرعة والعريف أندريجاك، الّذي أصيب إصابة بالغة، استطاع أن يخفي مدفعه قبل أن ينهار. فوقع مركز قيادة الكتيبة الثّالثة بالكامل بين نارين.

فهم النقيب بومون بسرعة أنه محاصر. كانت اتصالاته عبر الراديو رديئة، والتردد مشوّشا. يجب على فصائله أن تتحرك لأنه بفعل تداخل المظليين، أصبح أي تدخل جوي غير مفيد. وأكثر من ذلك، بسبب كثافة الرصاص، ستنفذ الذخيرة سريعا من الكتيبة. أراد بومون أن يشرح وضعيته الحرجة فنادى مراسل الراديو.

- ديمار، ركّب الهوائي الكبير ونادي مركز القيادة.

ولكن الفلاقة كشفوا الراديو. وركزوا ضرباتهم على مركز قيادة الكتيبة. جُرح النقيب. وبعد أن ضُمِّدَت جراحه سريعا، نادى الفصيلة الثّالثة وأمرها بأن ترص صفوفها مع الأولى تفاديا للتطويق.

كانت كلّ الفصائل متلاصقة من دون تنسيق حقيقي.

خاض المظليون بمجموعات صغيرة قتالا مستميتا، لكنهم فوجئوا بكثرة أعداد العدو وكثافة نيرانه. وبينما كان يحاول تشجيع جنوده، أصيب بومون مرّة ثانية مع تقني إرساله. قبل أن يسقط، نادى النقيب مساعده وأمره بمحاولة فتح ثغرة باتجاه الشمال مع كلّ أفراد كتيبته.

أدرك الملازم الأول سابورو الاضطراب الّذي سيحصل بموت النقيب. فتقدم راكضا وهو يطلق النار باتجاه الأدغال وملتفتا نحو رجاله، وصرخ :

« أثبتوا، بالله عليكم ! سنتمكن منهم !.. »

وأكد جملته برشق طويل.

حوصرت الكتيبة وتكبّدت خسائر كبيرة. نجحت الفصائل وجرحاها ذوو الإصابات الخفيفة في الالتحاق بمركز القيادة قرب مجموعة من الصخور حيث يمكن الاختباء خلف بعض الشجيرات الموجودة حولها (...)

أنزلت الكتيبة الثّانية التابعة للنقيب ڤيڤان على مسافة كيلومترين شمال شرقي الكتيبة الثّالثة وكذلك كتيبة « غلازر : التابعة للّواء المظليين الأجانب الّتي وصلت من قالمة. أمرهما العقيد بوشو بالسير نحو الكتيبة الثّالثة لإحباط عملية التطويق.

اندفعت الكتيبة الثّانية بالزخم نفسه خلف قادة الفصائل الّذين أعطوا المثل لجنودهم. أصيب الملازم الأول بوانسو إصابة مميتة. وسقط عدة مظليين صرعى، لكن المقاومة تعثرت.

في تلك اللحظة، اندفعت الكتيبة الثّالثة واخترقت بفضل الاضطراب الّذي أثاره هذا الهجوم المضاد.

وبينما كان الناجون من الكتيبة الثّالثة يفتحون طريق التراجع وينضمون إلى الجرحى، لاحقهم « الفلاقة » وأصلوهم نيران رشاشاتهم.

الساعة السابعة والنصف مساء. اقترب الليل، لكن الكتيبة الثّالثة نجحت في الاتصال بالمحاصرين في وادي دكنا، حيث كان الملازم الأول سابورو يعد رجاله. ينقص ما يقارب نصف الكتيبة، من بينهم النقيب والملازم الأول تييري وعدة ضبّاط صف.

بعد الّذي عايشوه، تطوّع كلّ المظليين ليعودوا إلى أماكن المعركة مسرعين لنجدة رفاقهم ولاسترجاع موتاهم.

استعانت المجموعة بالقنابل المضيئة، فدخلت المعترك وعبرت الحصار متسلقة منحدرات الجبل، لكنها اصطدمت فورا بالفلاقة الّذين استقبلوها بنيران كثيفة. ومن شدة تعب رجاله، قرّر النقيب وقف مشروعه والتحق بالحصار.[.....] »

هذه فكرة عن المعارك الّتي دارت بعد ظهر 29 أفريل، وتواصلت بنفس الشدة حتّى ما بعد 3 ماي. اشتبكت كتائب جيش التّحرير الست بكاملها منذ عبورها، ليلة 28 إلى 29 أفريل. قال الجنرال غاجيت بأن عمليات العبور توالت حتّى الثّالث من ماي، خاتما بالقول : « تطبيقا دون شك لمخطط مرسوم، أرسلت قيادة جيش التّحرير الوطني في تونس بجنود جدد إلى الموت، متجاهلة النهاية المأساوية للفيلقين الثّالث والرّابع[4] ».

ليس هنالك اعتراف بشهامة جنود ومجاهدي معركة سوق أهراس، أعظم من تلك التصريحات الّتي أدلى بها العقيد بيار بوشو الّتي نقلها الجنرال غاجيت في ذات الكتاب : « أسفت دائما لأن اسم سوق أهراس لم يوضع على راية لواء المظليين التّاسع لأنه ليس هنالك طريقتان للموت في سبيل الوطن، طريقة فردان وطريقة المواجن ».

مثل هذا الزعم الخاطئ راجع ربما لكون أن الجنرال غاجيت لم يكن يملك كلّ المعطيات. لأنه فعلا، ومنذ عدة أشهر، كانت القيادة الفرنسية قلقة من تزايد عمليات العبور. إلاّ أنّ ما يقوله الجنرال غاجيت يشهد على لامركزية المعارك على مستوى الكتائب. كما تؤكد شهادته على التكتيك المستعمل من قبل عناصر جيش التّحرير الوطني الّذين عمدوا، لتفادي الضربات الجوية، الالتصاق بالجنود الفرنسيين، وهذا ما يفسر تداخل الخطوط.

4. لم تكن للفيلق الثّالث، عدا بعض العناصر القليلة، أيُّ مشاركة في المعركة.

كان هذا التخطيط الواقعي والجريء للمعركة من توقيع يوسف لطرش، ضابط قديم فار من الجيش الفرنسي التحق بجيش التّحرير الوطني سنة 1956. لطرش صاحب القامة المتوسطة، رقيق ومرن مثل نصل فولاذي، ذو شارب أشهب مقصوص على طريقة إيرول فلين، هو المثل الحي للحيوية والإقدام. كان في البداية مساعدا لعمّار تيتي في قطاع العوايد غرب سوق أهراس قبل أن يُعَينَّ مساعدا لقائد الفيلق الرّابع. عندما لاحظ أن محمد لخضر سيرين وأحمد دراية لم يلحقا به، لم يستلم قيادة الفيلق فقط ولكنه « صحَّح » في قلب المعركة سُلم القيادة الّذي فرضه بوقلاز. فمثلا، جعل من عبد العزيز قادر الّذي لم يكن سوى ممرض الفيلق مساعده. (في اليوم الثّالث من المعركة، أصيب قادر فوق كاحله بشظية قنبلة، بترت رجله دون تخدير ومات بعد ساعتين، بعد أن نزف دمه وهو لصيق ببندقيته الرشاشة !)

وخلال نفس المعركة، تمت ترقية سالم جيوليانو، قائد الكتيبة المقتطعة من النّاحية الأولى، قائدا مساعدا للفيلق الّذي يقوده يوسف لطرش.

ابتداء من أوائل شهر أفريل 1959، عملت لفترة طويلة مع سالم جيوليانو، وخاصة عندما كنت مساعدا عسكريا للنّاحية الأولى التابعة للقاعدة الشرقية، ومن ثم قائدا مساعداً للفيلق الثّالث عشر. كان سالم قائد الكتيبة الثقيلة. سنحت لنا الفرصة كي نستذكر لعدة مرات معركة سوق أهراس. تبيّن لي على الفور بأن سالم يعرف أشياء كثيرة عن مآثر وبطولات الفيلق الرّابع.

تدافعت الذكريات في رأسه، مشاهد المعارك المستمرّة دون ترتيب، ودون توجّه واضح، متدافعة بالعاطفة مبتورة التسلسل التاريخي. مع الوقت، قال لي بأنه سيعيد ترتيب كلّ هذه الصور ويعيد تشكيل ذاكرته. شهادته الّتي دوّنها لاحقاً تبيّن بشكل أوضح بكثير الطريقة الّتي قُررت بها ونُظمت عملية العبور هذه الّتي يجب أن نقول ونكرر أنها كانت فريدة من نوعها في تاريخ حربنا التّحريرية. يضع جيوليانو في سياقه العام معركة سوق أهراس، كواحدة من أكبر المعارك الّتي خاضها جيش التّحرير الوطني، مع معارك الجُرف في الولاية الأولى، وتيميمون في التخوم الصّحراوية، أو تلك الّتي قادها حمة لخضر ضد المهاريين في العرق الشرقي بوادي سوف سنة 1955، أو تلك الّتي قادها سبتي بومعراف في فيفري 1958 وغيرها من المعارك المنسية.

شهادة سالم جيوليانو

كنت مسؤولا، خلال حرب التّحرير، عن قطاع في المنطقة الثّالثة التابعة للنّاحية الأولى. ألحقت وحدتي بالفيلق الرّابعة. ففي نهاية عام 1957، وفي بداية سنة 1958، أدت مختلف المعارك الّتي جرت في غامبيتا إلى مقتل الكثير من المجاهدين. بدأت السلطات العسكريّة الفرنسية تطلب من المزارعين العودة إلى أراضيهم لحرثها وزرعها مؤكدة لهم بأنه لم يعد هناك « فلاقة » في الجبال. لكن ومع ذلك، لم تتوقف العمليات في منطقة « خط موريس ».

العقيد بوقلاز، وبمجرد أن وصلته أصداء عن هذه الدعاية، قرّر إنشاء فيلق مكوّن من أربعة كتائب شكّلها من النّواحي الموجودة[5].

تمت عملية إعادة التنظيم في شهر فيفري 1958. كان الفرنسيون على علم بما يحضَّر، حتّى أنّهم حددوا أماكن التجمع. ربما كان هذا واحدًا من الأسباب المحتملة لاتخاذ القرار بقصف ساقية سيدي يوسف، وهي قرية تونسية تقع على مقربة من مكان التجمع. بعد ذلك، قمنا بتجميد عملية تجميع الثوار وأجّلناها إلى شهر مارس.

على إثر هذا الاجتماع، تم تعيين أربعة مسؤولين على رأس النّاحية الرّابعة، وهم : محمد لخضر سيرين وكمعاونين يوسف لطرش و أحمد دراية وعثمان باباي الّذين كلّفوا على الترتيب بالشؤون العسكريّة والسّياسيّة والاستعلامات والاتصال.

قمنا بتدريبات وحصلنا على أسلحة وذخائر وانتظرنا ما يقارب الشهر عملية عبور الحاجز المكهرب، يوم 26 أفريل 1958. بعد يومين تلقينا رسالة من قائد ناحيتنا الجديدة، سيرين، يأمر فيها كلّ الكتائب بأخذ مواقعها المحدّدة قرب الحاجز وذلك من أجل عبوره عند غروب الشمس.

كانت التعليمات توصي بتجنيب الكتائب أي احتكاك مع العدو بعد عملية الاجتياز. لأن المهم هو الالتحاق بالنّاحية دون مشاكل. بالفعل، كان لكلّ كتيبة مهمّة محدّدة بدقة، والهدف هو احتلال المناطقة المشار إليها والتمسك بها.

عيّنتُ في منطقة تسمى « السبيطار ». فيما أرسل عيسى إلى بقعة تقع بين وادي مِجرْدة ومدينة سوق أهراس. كان عثمان ويوسف لطرش قد اجتازا الوادي من جهة الطريق الّتي تؤدي إلى الزعرورية. كلّفت وحدتي بمرافقة كتيبة من الولاية الثّانية بينما تكفل يوسف لطرش بكتيبة من الولاية الثّالثة. أما عثمان فقد تسلم فصيلة الإشارة التابعة للولاية الأولى.

في المساء، وما إن انتهينا من أخذ مواقعنا حتّى رُصِدَ محمد لخضر سيرين ومقر قيادته من قبل القوّات الفرنسية، تلا ذلك اشتباكٌ متواصلٌ حتّى الساعة الحادية عشرة ليلا. وأعلنت الفصيلة التابعة لمقر القيادة عن مقتل جندي وجرح ثلاثة آخرين. فضَّل محمد لخضر سيرين الانسحاب. وهذا ما يفسّر قرار قيادة الفيلق بعدم اجتياز الخط المحصّن[6].

عند حلول الليل، بدأنا بشق فجوات في الأسلاك الشائكة. مررنا تحت الجسر إلى الجهة الثّانية من الحاجز. كان هنالك دبابات على مقربة من الجسر، ولكن الغريب أنها لم تهاجمنا، وذلك دون شك لأن العدو كان يعرف ما كان ينتظرنا من الجهة الثّانية.

كانت القوّات الّتي تنتظر منّا مواجهتها تعدُّ بعشرات الدّبابات والطائرات الحربية ومروحيات الاستطلاع والهجوم، من غير حساب قوافل الجنود الّتي لم تتوقف عن الوصول والتموقع لوقف

5. الظاهر أن سالم جيوليانو لا يعرف الأسباب الحقيقية لقصف ساقية سيدي يوسف، كما أنه يجهل بأن المهمّة الرّئيسية كانت للفيلق الرّابع.

6. عاد أحمد دراية إلى تونس مع الجرحى.

عملية عبورنا. من بين الجنود الّذين أسروا، اعترف بعضهم لنا بأن الجيش كان قد استعد منذ خمسة وأربعين يوما لتلك المعركة، لأنه كان دائم الانشغال بعبور وحدتنا القريب. أصبحنا بعد العبور على تماس مع العدو حيث خضنا ضده معارك متلاحقة. وقد فهمنا أنه لا يوجد حل آخر إلا القتال وتكبيد الفرنسيين أكبر الخسائر. تتابعت الهجمات من الجانبين، وقد كانت قطع أرضية تمثل أهمية نسبية في أعيننا كما في أعين العدو تؤخذ وتُستردُّ. تحمّس الجنود عند مشاهدة النتائج على الأرض فراحوا يبلون البلاء الحسن. لم يكن لديهم خيار ثالث : « النصر أو الموت ». استطعنا أن نصمد على هذه الحال مدة يومين متتاليين بالرغم من ضعف التغطية.

خلال أحد تحركاتنا، انكشفنا فجأة وسط أرض جرداء تماما. وهنالك تكبّدنا أكبر الخسائر. كان العدو القوي بوسائل الاستطلاع والترصد متربصا بنا. اتبعنا منذ بداية المعارك خطّة تقوم على الالتصاق إلى أقصى حد بقوّات العدو وذلك حسب أوامر يوسف لطرش، لنتجنب قدر الإمكان الضربات الجوية والمدفعيّة.

في الساعة الثّالثة صباحا، أعلمني الكشَّافون بأن قوّات العدو متموقعة في النّاحية الأخرى من الوادي. قرّرت عندها أن أقود الرّجال إلى قمة تسمى الحمري. كان النهار قد طلع عندما أخذنا مواقعنا. التحق بنا يوسف لطرش وعثمان وعيسى. تكلم لطرش مع المجاهدين ليعلمهم بأن أعضاء القيادة لم يعبروا بعد الخط المحصن ولهذا فهو يتسلم القيادة. قرّرنا عندئذ بأن ننتشر على مساحة كبيرة مقسمين إلى أفواج صغيرة وبأن نلتصق بالعدو لندافع بفعالية أكبر. قسمت كتيبتي – أو على الأقل ما كان قد بقي منها – إلى أربعة أفواج، تسلم قيادة أحدها الهادي دلال والآخر عمارة صالح الملقب بالعنابي، أما الثّالث فقد كان على رأسه أحمد الّذي لم أحفظ لقبه العائلي. أما الفوج الرّابع فكان تحت إمرتي.

خلال اليومين التّاليين، تابع يوسف لطرش التقدم وهو يخوض المعارك. أما فيما يخصنا نحن، فكنّا نتعرض لغارات جوية كثيفة رغم الخسائر الّتي ألحقت بطائرات العدو – كنا نرى من وقت لآخر طائرات تتحطم خلف الدخان المتموج الّذي تتركه وراءها –، استغلَلْنا حلول الظلام لنترك مواقعنا في آخر النهار الثّالث ونتوجه نحو قمة جبل يسمى « كف لَمْساخطة ». اسم على مسّمى حقا، لأنّ لَمَساخطة في اللغة المحلية تعني الجحيم أو القيامة. وكان فعلا كذلك.

في اليوم الخامس، تم كشف موقع يوسف لطرش لدى استعماله جهاز الإرسال « ANGRC 9 » طالبا القيام بعملية إلهاء وتضليل من الجهة الثّانية للحاجز. بعد ظهر هذا اليوم الخامس سقط ببطولة تحت نيران وقذائف الطّيران. لم يجرؤ رجال مشاة العدو على مهاجمة موقعه من الأمام.

في اليوم السادس، ذهبت إلى الموقع الّذي سقط فيه لطرش ورجاله قتلى. استرجعنا الجرحى وأقمنا جنازة للمجاهدين الّذين استشهدوا في أرض المعركة. أكملت المعركة بعد عدة ساعات، وحاول العدو محاصرتنا ولكننا توصلنا إلى إفشال عملية التطويق وتبديل مواقعنا ووضع جرحانا في منأى عن الخطر، في مكان آمن قرب الوادي.

في الثّالث من شهر ماي بالتحديد، شعرنا بأن المعركة بدأت تخمد قليلا والطوق بدأ ينفك. سحب العدو المتعب هو أيضا معظم وحداته الثقيلة. عندما بدأنا بجمع رجالنا، اكتشفنا بأننا كنا مبعثرين لدرجة أننا كنا نجد رجالنا ضمن مجموعات من عشرة إلى خمس عشرة جنديا. لم يبق هناك سوى بضعة مروحيات وطائرات استطلاع كانت تجوب الأجواء فوق منطقة المعارك ليلة الثّالث ماي.

عالجنا المصابين، وكان عددهم مائة وأربعين وضعناهم في ملاجئ محصنة حفرناها خلال فترات الهدنة. أعتقد أننا ألحقنا العدو خسائر فادحة إذا أخذنا بعين الاعتبار الأسلحة الّتي اغتنمناها من أرض المعركة. قمنا بتدمير قسم كبير منها وذلك لعدم قدرتنا على حمله معنا. أسر العدو عددا قليلا من رجالنا لأن جنود جيش التّحرير يقاتلون ويفضلون الموت على أن يقبض عليهم أحياء.

كانت خسائرنا جسيمة، حوالي ستمائة قتيل وذلك لأننا قاتلنا في أرض شبه مكشوفة ضد عدو يفوقنا عددا وعدة. من أصل ثلاثة كتائب كانت تشكّل الفيلق، لم يبق أكثر من ثلاثة فصائل على قيد الحياة. أما الفصيلة الّتي جاءت من النّاحية الثّانية فبقيت في أرض المعركة لإثبات وجود جيش التّحرير إلى أن تأتي الأوامر بالالتحاق بناحيتها السابقة لإنشاء الفيلق الرّابع.

كانت هناك فصيلة واحدة فقط من الولاية الثّالثة استطاعت أن تلتحق بأكفادو حيث مقر قيادة عميروش، بعد أن قطعوا مئات الكيلومترات من الأراضي المعادية.

لم ينج سوى ثلثي عناصر الكتيبة التابعة للولاية الثّانية، الّذين التحقوا بمواقع انطلاقهم. بعد خمسة عشر يوما تقريبا من المعركة، تمكنت كتيبة الولاية الثّانية من إسقاط مروحية كان على متنها الكولونيل جان بيار.

جاء الجنود الّذين قاتلوا واستشهدوا في المواجن من كلّ مكان : قبائل جرجرة، وشاوية الأوراس ونمامشة تبسة ووهرانيون وحضريون من سوق أهراس ومن مناطق أخرى، ومن سكان الأكواخ وشبان منحدرين من عائلات بورجوازية غنية وجنود وضبّاط صف وضبّاط أتوا من الثكنات ومن المدارس العسكريّة الفرنسية، حاربوا بيد واحدة. استشهدوا في نفس الجبال. ولم تكن لعبارة باراز : « إنّ الأمة هي سلسلة طويلة من المعارك، ومقبرة مشتركة »، دلالة أدق وأقوى من تلك الّتي عبّرت عنها في المواجن. ولقد أثبتت القاعدة الشرقية في المواجن وفي ميادين القتال الأخرى، أنها البوتقة الّتي تنصهر فيها الوحدة واللحمة الوطنية.

لقد أنارت الكتيبة الرّابعة، من خلال المثل الّذي أعطته بالشجاعة وروح التضحية والتفاني، الطريق الّذي يجب أن يتبعه كلّ الرّجال الّذين يكافحون في سبيل الجزائر. سجلت صفحة بطولية من النضال في سبيل تحرير الوطن، فهل ستذكرها الأجيال القادمة ؟

آيت مهدي المدعو سي مقران، ضابط سابق في جيش التّحرير الوطني بالولاية الثّالثة : من سانت مكسان إلى المواجن

« قبل الدخول في عمق الموضوع، أوّد أن أقول بأنني ضابط قديم هارب من الجيش الفرنسي، موقوف سابق في سجن فران ونقيب سابق في الدرك[7].

الدرك الوطني مؤسسة رائعة كنت قد غادرتها بملء إرادتي في شهر جانفي 1968 بعدما ساهمت مع ضبّاط بارعين في بنائها.

قبل ذلك بكثير مررت بمدرسة الذكور في ميزون كاري، حاليا الحرَّاش. كان هناك زميل عزيز على قلبي وأخ اسمه بن إيدير أحمد، رحمه الله، أسس سنة 1949، وهي السّنة الّتي أجرينا فيها امتحان البكالوريا، القسم الأول، أول خلية للحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، وكنت أحد عناصرها.

كان صديقي أحمد بن إيدير في السابق ينشّط الحركة الوطنية في كوليج بن شنب بالمدية، حيث كان تلميذا بصحبة المحامي أرزقي بوزيدة الّذي كان مراقبا داخليا في المؤسسة نفسها.

كنا نتناقش حول الظلم الاستعماري. ونقرأ منشورات وصحف الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، ونمررها إلى رفاق موثوق بهم. ذهب بن إيدير مرارا لزيارة مصالي الحاج... شجّعني كثيرا في تحضيراتي العسكريّة العليا. خلال دورة البكالوريا، توفي والد أحد أصدقائي بفعل مضاعفات عملية جراحية جرت له في العيادة السابقة في فردان (حاليا مستشفى آيت إيدير، على اسم النقيب السابق آيت إيدير، جراح في الجيش الفرنسي سقط في ساحة الشرف بالولاية الثّالثة سنة 1958). ترك بن إيدير أحمد دراساته ليتسلم العمل التجاري الصغير الّذي تركه له والده، في أومال، حاليا سور الغزلان.

بعد ذلك بكثير، دخلت مدرسة ضبّاط الصف بشرشال حاملا شهادة البكالوريا الحديثة، وسنة دراسية في قسم الفلسفة. كنت برتبة عريف وعيّنت مراقبا ناظرا في مدرسة الطلبة العسكريّين، في الوقت الّذي كنت أحضّر امتحان الدخول إلى مدرسة سان سير. ولكن اتخذ القرار بإرسالي أنا ورفاقي إلى سان مكيسان، حيث اشتركت في تربص الدفعة الأولى حيث تخرجت برتبة ملازم.

في الرّابع عشر من سبتمبر 1957، أوقفت في دينان (فرنسا) بتهمة المساس بأمن الدولة ومحاولة الهرب من الجندية.

حجزت في القلعة ثم نقلت إلى سجن فران حيث كان شقيقي الأكبر أحمد يأتي لزيارتي.

عند إطلاق سراحي، قرّرت الالتحاق بصفوف جبهة وجيش التّحرير الوطني ونظمت نفسي من أجل ذلك. عندما عرف النقيب زرقيني بنواياي، أعرب عن رغبته بالمجيء معي خلال عودته

---

7. أول قائد لمدارس هذا السلك سنة 1962، ومتخرج من المدرسة الوطنية لضبّاط الدرك الفرنسي في مولان، وقائد المجموعة الجهوية بقسنطينة.

إلى سطيف حيث كان ذاهبا ليحل مشاكل عائلية. أخبرت الشخص المسؤول عن هذا الأمر فأعطاني موافقته.

في اليوم المعيّن، تكفلوا بنا فخبأونا في باريس ثم نقلنا إلى بروكسل. هنالك، وبعد أن أتلفت أوراق هويتي، اضطررت للانتظار بضعة أيام قبل الانتقال إلى ألمانيا حيث التقيت، في باد غودسبيرغ، مسؤول جبهة التّحرير الوطني، مولود قاسم.

التقيت في تونس ضبّاطا آخرين فارين من الخدمة العسكريّة (عددهم حوالي عشرة، من بينهم أحمد عقون ومصطفى بن مصابيح اللذان سقطا في ساحة الشرف) حيث أدلينا بتصريح لجريدة « المجاهد ».

طُلب متطوعان اثنان إلى الولاية الثّالثة. أعطيت في الحال موافقتي ثم تبعني بن مصابيح الّذي كان هو أيضا ضابطا سابقا في الجيش الفرنسي ومنحدراً من معسكر.

أبلغنا بالتعيينات عن طريق المحامي أرزقي بوزيدة. قادونا بعد ذلك إلى غارديماو حيث حصلنا على أمتعتنا. تنازلت عن ثيابي المدنية لصالح محَند أوشعبان[8] الّذي فقد يده في الولاية الثّالثة.

بعد ذلك التحقنا بمعسكر « المينة[9] »حيث كان يتواجد جنود الولاية الثّالثة التابعين للقاعدة الشرقية. كانت وحدات الولاية الثّالثة بقيادة حيدوش الّذي استشهد في جوان 1959 في حقول البرتقال بعنابة، بالقرب من سيدي سالم.

بعد عدة أيام أمضيناها هناك، انطلقنا على متن سيارات مدنية باتجاه معسكر زيتون القريب أيضا من الحدود.

التقينا هناك الرّائد بن سالم المدعو سي عبد الرحمن، رحمه الله، وهو من مواليد منطقة سوق أهراس. كان دائما يلبس ربطة عنق يبدو أنه متعلّق بها، كان هادئا وودودا، يدخن كثيرا ولا يتخلى أبدا عن عصاه. كان رقيباً أولَّ سابق في الجيش الفرنسي، هاربا من الجندية سنة 1956، رفيقاً للرقيب الأول عواشرية، الّذي أصبح بعد ذلك قائد القاعدة الشرقية، أخذوا كلّ سلاح الكتيبة بصحبة عدة عسكريين، بعد تدمير المعسكر. لعب الرّائد بن سالم دورا أساسيا وخاصة في نقل الجنود والأسلحة إلى الولايات الداخلية.

في اليوم التّالي لوصولنا، توجهنا نحو خط موريس، حيث كان الرّائد بن سالم، المكلّف بعملية عبورنا، قد ذهب للاستطلاع.

---

8. شهد محند أوشعبان الاستقلال. توفي في حادث مرور في الثمانينات.

9. يقع معسكر المينة في منجم قديم مهجور على مقربة من قرية ساقية سيدي يوسف التونسية حيث تم تجميع قسم من الفيلق الرّابع قبل العبور. كان المعسكر على بعد بضع مئات من الأمتار من مركز فرنسي يدعى القوارد (الغابات) منصوباً على الحدود. من المحتمل أن يكون هذا أحد الأسباب الّتي جعلت القرية تتعرض للقصف من قبل الجيش الاستعماري (وهي المعلومات الّتي تؤكد ما أورده سالم جيوليانو).

تمت عملية عبور الأسلاك الشائكة تتم فرادى في ليلة شديدة الظلام. حُفِرَ ممر تحت الشبكة الأولى المكهربة وكان علينا أن نعبره حبوا ومنبطحين إلى أقصى حد ممكن في مستنقع صغير مملوء بالماء. كان سي عبد الرحمن يقف منتصبا حاملا عصاه. وفجأة سمعت صرخة مزقت هدوء الليل وانبعثت رائحة الشعر المحترق. لقد تكهرب جندي. قام سي عبد الرحمن، وبمساعدة عصاه، بسحب جسم الجندي ليفتح الممر. وبعدها بلحظة لقي جندي آخر نفس المصير.

بعد إتمام عبور الشبكة الأولى، وصلت دبابة كانت تكشف بأنوارها منطقة تواجدنا (بين شبكتين مكهربتين). ودون حراك، منبطحين على الأرض، اختبأنا عن عيون الدورية. نظرا لتأخر الوقت (الساعة الرّابعة فجرا)، كان علينا أن نقطع الشبكة ونندفع بأقصى سرعة.

عند طلوع النهار (الساعة السابعة)، وصلنا إلى أرض لا يوجد فيها جبال ولا صخور ولا مخابئ، فقط بعض التلال الصغيرة. باختصار، أرض غير مناسبة للحماية. على بعد أربعة كيلومترات بخط مباشر ظهر مركز عسكري. فجأة، اتجهت نحونا طائرة استطلاع « بيبر ».

نسيت أن أذكر أن قيادة هذه الكتيبة (حوالي مائة وخمسين رجلا) من الولاية الثّالثة كانت مسندة إلى الرقيب الأول حسين موسطاش، وكان ملقبا هكذا نظرا لشاربيه الكبيرين. وهو من قدماء مجاهدي الولاية الثّالثة أتى على رأس وحدة لجلب الأسلحة.

كانت مهمتنا أنا وبن مصابيح أن نساعده. كان معنا أيضا الملازم الأول سي طاهر من القاعدة الشرقية. كان الانتشار الاستراتيجية الوحيدة المفروضة علينا في مثل هذه الظّروف الحرجة. وإلا كيف نستطيع أن نواجه الدّبابات الّتي بدأت بالتحرك، والطائرات الّتي تأتي بأعداد كبيرة (ست وعشرون طائرة ما بين « تي 6 » و« بي 26 » و« بيبر »، من غير المروحيات « بنان » و« سيكورسكي »). أعطي الأمر بالانتشار في أفواج صغيرة. من ناحيتي، أمرت مجموعتي الّتي كانت معي بالاحتفاظ بهدوئها وبالانبطاح على طول حفرة طبيعية يبلغ عمقها الخمسين سنتمترا، وبتأمين الحراسة مناوبة وبالاستراحة، لأن الأيام القادمة ستكون قاسية.

في آخر الظهر اكتشفتنا إحدى المروحيات وبعدها مباشرة اتجهت صوبنا طائرة المراقبة « بيبر » وتبعتها « تي 6 ».

في ذلك الوضع، استلمت قيادة المجموعة وغادرنا موقعنا بأسرع ما يمكن بعد أن قامت طائرة الاستطلاع بإلقاء قنبلة دخَّانية هدفها إعلام طائرة « تي 6 » بموقعنا. عندما بدأت الطّائرة بإطلاق القذائف، كنا قد أصبحنا في مكان بعيد.

استمرت المطاردة الجنونية وقتا قصيرا حتّى أصبحت المنحدرات عميقة وأوقف مسيرتنا حائط من العليق والعوسج. لم يعد باستطاعة الطّيران أن يرانا، وكان يحلّق فوق رؤوسنا. استمرت طائرات « تي 6 » بإطلاق نيران أسلحتها بتقطع ودون هدف واضح. أصيب جندي واحد فقط. إنّها معجزة حقا !

ولكن فجأة أنزلت مروحية من طراز « بنان » عسكريين على بعد حوالي أربعمائة متر من مكان وجودنا، وكانوا يتكلمون فيما بينهم. صاح أحدهم« mon commandant » « رائدي » بلكنة جنوبية قوية. اتجهوا نحونا وهم يطلقون الرصاص ويرمون القنابل اليدوية باتجاه المنحدر.

لدى اقتراب العسكريّين، على بعد حوالي مائة متر، قلت للجنود بأنه يجب علينا الخروج والبدء بإطلاق الرصاص على الرّائد ورجاله. ولكن المجاهد المخضرم الّذي أصيب في الحادث الأول قال لي : « سي مقران، فلنبق هنا ونضع ثقتنا بالله ». أخذت برأيه وبقينا صامتين مترقبين ما سيأتي. لدى وصولهم إلى مستوانا قاموا بإحراق مشتة قريبة. وفجأة سمعت صفارة فهمت أنها أمر للتجمع. وفي خلال خمس دقائق حل الظلام. خرجنا من مخبئنا وبدأنا نتفحّصُ الأماكن غير البعيدة الّتي استهدفها الطّيران في غاراته الفعالة. اكتشفنا جثث جنود سقطوا في ساحة الشرف، ولقد سلبت منها البدلات العسكريّة والأحذية.

اتجهنا بعد ذلك نحو مشتة كان يقف أمامها أحد السكان، فأدخلنا إلى بيته وأعطانا قليلا من الكسكس والقهوة وسيجارة لكلّ واحد منّا. طلبنا منه أن يرافقنا وأن يقودنا بحيث نبتعد عن هذه الأمكنة وأن يوصلنا لنقاط تواجد جنودنا أو أن يقودنا إلى ملجإٍ مناسب. أجابنا بأن جنودنا وقعوا في كمائن، تقريبا في كلّ مكان. اقترح علينا أن يأوينا داخل مخبإٍ على مسافة عشرين دقيقة من مكان تواجدنا، في أرض مهجورة. لم يكن عندنا خيار إلا أن نضع ثقتنا به. لدى وصولنا إلى المكان المقصود، دخلنا وكان يسعنا للجلوس مقرفصين. أعاد مضيفنا وضع حجر كبير على مدخل المأوى فأغلقه وانصرف.

عند طلوع النهار، بدأت القذائف تتساقط فوق رؤوسنا وأصوات العسكريّين تقترب تدريجيا حتّى أننا بدأنا نفقد ثقتنا الّتي وضعناها في مضيفنا.

أعطيت التعليمات بكيفية التّصرف في حال تم اكتشاف أمرنا ولكن شيئا من هذا لم يحصل. توقفت الانفجارات وبدأت الأصوات تخفت ثم اختفت.

عند هبوط الظلام، جاء مضيفنا ليلقانا وعلامة الارتياح بادية عليه، ثم قادنا في مسيرة استمرت طوال الليل.

التقينا بالناجين ومن بينهم الرقيب حسين موسطاش واعمر، المختص في الرمي بالرشاش الألماني MG 42. تابعنا تقدّمنا واستمرت المعارك بشراسة. مواجهات متعددة، هجمات مترددة ومتجددة لكسر عمليات التطويق الجارية من ناحية ومن أخرى وفي بعض الأحيان كانت مصحوبة بخدع حربية وأعمال تمويهية فعالة.

بالنسبة لكتيبتنا التابعة للولاية الثّالثة، كانت النتائج جيّدة لو ننظر إلى الظّروف الّتي جرت فيها هذه المعركة غير المتكافئة، الّتي لم تخفف من آثارها سوى استراتيجية الانتشار والتفرق.

نجا حوالي ثلاثين عنصرا. ولقد سقط بن مصابيح مصطفى في ساحة الشرف في التّاسع والعشرين من أفريل 1958. وأصبحت مدرسة الدرك الوطني في سيدي بلعباس تحمل اسمه.

جنّدت عملية العبور ربما ألف وثلاثمائة مجاهد وتمت في عدة نقاط من خط موريس أيام 29 و28 و30 من شهر أفريل وفي الأول حتّى الثّالث من ماي 1958.

منذ 28 أفريل وحتّى الثّالث من ماي، خاض فيلق لجيش التّحرير الوطني مدعما بكتيبتين معارك ضارية لفك الحصار على أبواب سوق أهراس.

كانت معركة تاريخية في كفاحنا المسلح، أرغمت بفعل امتدادها وضخامتها الجنرال فانوكسين، قائد ناحية الشمال القسنطيني على دخول ساحة القتال شخصيا. توخى الجيش الفرنسي الإبادة الكلّية لوحدات جيش التّحرير الوطني الّتي عبرت الحاجز عبر عملية تطويق محكمة للأرض، مسهّلة بدء التنفيذ وتحرك قوّات التدمير عبر إدخال قوّات تدخل المظليين، مدعومة بترسانة جوية ومدفعية أرضية هائلة.

كان القتال جد حامٍ في مناطق مختلفة كثيرة وذلك لأن المعركة كانت « غير مركزية » على مستوى كلّ عنصر مٌشتبك.

أثبت عدد القتلى، الّذي ناهز الستمائة من جانب جيش التّحرير الوطني مع انعدام شبه تام للأسرى، مدى تصميم الجنود وإيمانهم بقضية الاستقلال.

لنترحم على أرواح الّذين استشهدوا بشجاعة وبطولة ولنحيّ قدوتهم في التضحية.

كان انتقالنا إلى الولاية الثّالثة محنة كبيرة جدا. قطعنا مراحل طويلة وأحيانا بتسريع الخطى حتّى نصل إلى منطقة آمنة قبل طلوع النهار. لم نكن ننام، حتّى أنّه حدث لي أنّني نمت وأنا ماشٍ للحظات من دون أن أفقد حواسي. أمر لا يصدّقه العقل.

أحيانا نحس بأرجلنا وهي تنزف دما، لأنه لم تكن لدينا أيام للراحة. لكي نخفف الألم، استعملنا عشبة « أمقرمان » حيث كنا نضع أوراق النبتة تحت باطن القدم، في داخل الحذاء، حتّى تبطل مفعولها. تشفي هذه النبتة الجلد وتصلّبه، كما أنها تخفف التعرق وتسكّن الألم.

كانت بعض المحطات جد قاسية، لأننا كنّا نمشي عبر الأدغال، خارج الدروب، لنتجنب أماكن الخطر، مصحوبين في بعض الأحيان بعواصف رعدية كبيرة، في ليالٍ دامسة ووسط رياح قوية جدا تلزمنا بالتكاتف بعضنا على بعض.

كنا ننام أحيانا في الهواء الطلق، وأحيانا أخرى في مخابئ يحرسها مجاهدون في المناطق المحرمة، وأيضا عند الأهالي. برغم التعب، كان الإيمان حافزنا إلى درجة أن قدرة التحمل والشجاعة عندنا فاقت كلّ تصوّر. فالإنسان يختزن طاقة هائلة عندما يكون مؤمنا بغاية سامية تشحذ همّته !

تم اللقاء مع العقيد سي عميروش، رحمه الله، في بونعمان. طرح علي بضعة أسئلة للإطلاع على وضعنا ثم قال لي : « اذهب وارتاح ».

خلال السّنة ذاتها 1958، سررت باصطحاب وحراسة الرّائد سي عمر الصدّيق، رحمه الله، والرّائد عز الدين الّذي كان يعبر منطقة عين الحمَّام متوجها إلى تونس.

أُصبت بالعرج بعد إصابتي في المعارك. وتمت إعادة تأهيل ساقي على الأرض وكانت قاسية. كنت أقوم بمهمات قائد المنطقة، في نواحي عين الحمّام، ثم في وادي الصومام، بجاية، أكفادو، منجو، ذراع الميزان، بوغني، سيدي علي بوناب، بومهني وغيرها.

نشطت في كلّ هذه المناطق المذكورة في أوج عملية « جومال » الشهيرة.

شهادة باتريك شارل رينو، في تدخل الطّيران كقوة دعم في معركة المواجن المعروفة باسم : « معركة سوق أهراس »

« في منطقة سوق أهراس الوعرة، يلتصق خط الحاجز تماما بحدود الخط الحديدي بون-تبسة (عنابة-تبسة). يقع على بعد حوالي ثلاثين إلى أربعين كيلومترا من الحدود، ما يعادل مسيرة بكاملها. من نوفمبر 1957 حتّى فيفري 1958، كان كلّ نشاط الجيوش الفرنسية موجهاً نحو اعتراض « العصابات » القادمة من تونس، كذلك قوافل المتطوعين المجمعة في الجزائر والموجهة نحو الشرق لتنظيم صفوفها وللتسلح. دمَّر المظليُّون وقوّات القطاع « العصابات » المحلية وكذلك تلك القادمة من تونس الواحدة تلو الأخرى.

كان على « المتمردين » لكي يكونوا قادرين على إرسال الرّجال والسلاح نحو الجزائر، أن يقوموا إعادة نشر عناصر محلية مسلحة ومدربة تدريبا جيدا إلى الغرب من الحاجز لتأمين حياة « العصابات » الّتي تتمكن من عبور الحاجز. في غضون شهر مارس، قرّر جيش التّحرير الوطني إنشاء فيلق جديد منظَّم ومسلَّح تسليحا جيدا، ومؤلف من صفوة المقاتلين اختيروا من الوحدات الأخرى التابعة للقاعدة الشرقية. كان عددهم يبلغ حوالي الأربعمائة رجل، وجهز فيما بعد باثني عشر رشاشا وأربعة وعشرين بندقية رشاشة على الأقل. وهو الّذي سيشكل فيما بعد « الفيلق » الرّابع للقاعدة الشرقية.

جَمعَ المعلومات الأولى المتعلِّقة بتشكيل الفيلق في 23 مارس المكتبُ الثّاني لفرقة المشاة الثّانية. في أفريل، أفادت معلومات مستقاة من الفارين من الجندية ومن المخبرين تفاصيل إضافية. في 24 أفريل 1958، وعند مغادرة الفيلق الرّابع تونس، بات قادتها وأسلحتها وقوّاتها والخطوط العريضة لتوجهها ومهمّتها كلّها معروفة. يستعد لعبور الحاجز بقوة، ككتلة واحدة، إلى جنوب سوق أهراس. استغلت الفرصة عدة « عصابات » لتقليده. كانوا حوالي الأربعة آلاف رجل[10] يستعد جيش التّحرير الوطني أن يدفعهم نحو الجزائر خلال الأسبوع الأخير من شهر أفريل 1958. لتبدأ أكبر معركة عرفتها حرب الجزائر.

10. إنّ رقم 4000 رجل رقم مغلوط. لم يكن هنالك إلا 1200 جندي، ومن ضمنهم كتيبتا الولايتين الثّانية والثّالثة. لقد تم عبور الحاجز في ليلة واحدة وليس في خلال أسبوع، كما يروي المؤلف.

في ليلة 27 إلى 28 أفريل 1958، هُوجم الحاجز في ثلاثة أماكن مختلفة. في بداية الصبيحة، اكتشفت طائرة استطلاع « بيبر » موقعاً « للمتمردين » على جبل عروس. استنجد بالطائرات المطاردة لتثبيت الخصم خلال الوقت الّذي كان فيه مظليو اللّواء التّاسع يتحركون للوصول إلى المكان المحدد. تم القضاء تقريبا كلّيا على « العصابة » المحاصرة. في اليوم التّالي، بدأ البحث للعثور على بقايا « العصابة » الّتي اعترضوها البارحة. في الوقت ذاته، اكتشفت دورية استطلاع عند الفجر فجوة في الأسلاك الشائكة على مسافة أربعة كيلومترات جنوب سوق أهراس. كان السياج الكهربائي غير ملموس لأن الممر قد حفر تحته، بواسطة ثلاث فجوات بسيطة يبلغ عرض الواحدة من 60 إلى 80 سنتمترا، وعمقها من 30 إلى 40 سنتمترا ومتباعدة فيما بينها ببضع عشرات من الأمتار. لذلك لم ينطلق الإنذار الكهربائي. الآثار المهمّة جداً المكتشفة في العشب تدعو إلى الاعتقاد بأن « العصابة » كانت كثيرة العدد.

في الساعة الثّانية وخمس عشرة دقيقة ظهرا أقلع العقيد دو كوكبورن، مساعد الجنرال قائد فرقة المشاة الثّانية، من سوق أهراس على متن مروحية « بال » تابعة لتجمع طوّافات GH2. عند مغادرته أرض المطار ولدى وصوله إلى موازاة وادي مِجرْدة، أصيبت الطّائرة برشق من أسلحة نارية مصدرها النقطة 721، على مسافة ستة كيلومترات جنوب غربي سوق أهراس. انفجرت الرصاصة دون أن تخدش الطيار وراكبه. ولكن « العصابة » كشفت عن نفسها.

في الأخيرا، وخلافا لما قد يذهب تفكيرنا، لم تبتعد « العصابة » عن الحاجز. كانت تحوم على مقربة من مدينة سوق أهراس، وعلى المرتفعات المطلة عليها.

تحرك الكولونيل بوشو، قائد لواء المظليين التّاسع في الثواني الّتي تلت، وقرّر إرسال فرقة من المظليين على متن مروحية. قام بتسييج مركز انطلاق المروحيات بسحابة من الدخان، فقوبل بإطلاق نار كثيفة من قبل « المتمردين ». أصيبت الطّائرة عدة مرات. فقامت طائرات « تي 6 » التابعة للسرب 72/12 المتمركزة في بون (عنابة)، بقصف الأدغال من أجل تطهير القطاع.

اقتربت الدورية الأولى المؤلفة من ست طائرات من طراز « بنان » من تجمع الطائرات الثّاني. تمركزت المروحيات ذات المراوح الثنائية في فرجة الغابة. وما كاد المظليون يقفزون حتّى انهمر عليهم طوفان من النار. رأى الطيارون بوضوح لمعان انطلاق البنادق والأسلحة الأوتوماتيكية. وكانوا يسمعون رغم صوت المحرك، ضجيج ارتطام الطلقات بجسد الطائرات. في خلال بضعة ثوانٍ، رجع الملازم الطيار هاوسر، الّذي وصل في المركز الثّالث، باتجاه داخل الطّائرة ليتحقق مما إذا كان جميع رجال الكومندوس قد خرجوا. رأى اثنين ممددين، غارقين في دمائهم. أقلع من جديد آملا بأن تكون الأجزاء الرّئيسية لطائرته لم تُصَب، ثم عاد إلى حقل سوق أهراس، الواقع على مسافة 6 كيلومترات. كان الأمر مستعجلا، لأنه يجب تحضير الدورية الثّانية لتأتي لمساعدة المظليين الستين المتروكين لمصيرهم وسط عدة مئات من « الفلاقة » المجهزين بكلّ أنواع الأسلحة. ما من شك أنه الفيلق الرّابع الّذي علمت المخابرات الفرنسية بتشكيله.

تتابعت الدوريات مع خمس مروحيات إضافية من وحدة المروحيات في تبسة حيث قام العقيد بوشو بالاستيلاء عليها بعد أن حوّلها عن مهمتها الرّئيسية. لم يكن أحد المظليين الّذين كان على وشك الصعود إلى طائرة الملازم هاوسر مطمئنا بعدما رأى رفيقيه أثناء عمليات الإجلاء وهما مضرجان بالدماء.

على قمة جبل المواجن، طُوِّقت الكتيبة الثّالثة التابعة للّواء القناصة بقيادة النقيب بومون. وضعت بين كتيبتيّ « المتمردين » اللتين ظهرت في آخر محطة للطائرات. انتبه بومون بسرعة للوضع. فإذا كان « المتمردون » قد سدوا الطريق في الشرق والشمال والغرب، لم يبق الخلاص إذن سوى عبر منطقة الجنوب. اقترب « المتمردون » من المظليين متظاهرين بأنّهم سيسلّمون أنفسهم، ثم كشفوا عن موجة ثانية قامت بالهجوم باستعمال مناورة بالصفير. قام « الفلاقة » بثلاث أو أربع محاولات قوية، بينما كانت عملية التطويق تكتمل. فأمر بومون عندئذ بالتجمع وبعدها بالقيام بمحاولة الاختراق ثم التراجع عبر الجنوب. ثم قتل بعد أن أعطى أوامره.

تكثفت حركة الطّيران. فاكتشف الطيارون جموعا من « المتمردين » ثم ظهرت في السماء طائرات « كورسير »[11] تابعة للأسطول البحري الرّابع عشر بقيادة النقيب ريشوبي. أثناء عملية الانقضاض أو التقويم[12]، تفرز أجنحة هذه الطائرات وراءها دخانا أبيضَ على أطرافها، وهي خطوط بيضاء ناتجة عن تكثيف بخار الماء في الهواء.

وصل الملازم الأول شامبون بدوره على رأس أربعة طائرات « تي 6 » من السرب 72/17. وسط اخضرار الجبل، لاحظ بوضوح أجساد المظليين عراة، مذبوحين وممددين على الأرض. أطلق النقيب بايرج، قائد السرب 72/12 ومساعده الملازم فايسلر عدة صواريخ وأمطروا بالرصاص الأدغال الّتي تعج بالمتمردين. قادوا « الكورسير » وكذلك « البي 47 » والميسترال التابعة لسرية المطاردة 6/2 نورماندي – نيمن الّتي أتت للنجدة. هدرت أيضا طائرات « البي 26 » من السرب GB 1/91 في السماء. فكانت حربا جوية حقيقية.

وسط هذا الضجيج حيث تتجانب مختلف أنواع الطائرات، طائرات الاستطلاع « بيبر » البطيئة مع « البروسارد » التابعة للسرب EL 03/45، كان الملازم بورني يقود طائرته من نوع L9 محلقا فوق أحد السفوح. رفع مراقبه، الملازم الثاني دولالوي، الّذي كان وراءه، الزجاج الجانبي لينظر إلى اليسار وإلى اليمين. ثم فك حزامه أيضا ليستطيع أن يتحرك بحريَّة في مقعده. يستطيع بواسطة الأنترفون أنْ ينقل إلى الطيار نتيجة ملاحظاته المبلغ بها في الحال إلى القاعدة.

انخفض بورنيه إلى مستوى مئتي متر في عمق الوادي عندما سمع صوت الملازم الثاني دولالوي يهدر من خلال سمّاعات خوذته.

11. طيران البحرية.

12. إطلاق غازات بعد الانقضاض.

- مدفع رشاش في الأسفل !

للأسف، لم يكن المدفع الوحيد. كان هنالك ستة مدافع بالقرب منها، عدا بطاريات المدفعيّة المتواجدة على المنحدرات، على نفس ارتفاع « البيبر » الهشة، بل فوقها. كانت الطّائرة الّتي تطير بأقصى سرعة 150 كلم في الساعة، هدفا لعدة أسلحة أوتوماتيكية اخترقت داخلها بعشرين طلقة. أُصيب بورني إصابة بالغة في الفخذ، فتبلّلت بالدم بزّتُهُ، كما لوثت بقعة من الدم أرضية الطّائرة. واجه بورني صعوبة كبيرة في قيادة طاكسي مع كلّ الأوجاع الّتي تنتابه. لحسن حظه لم يكن المطار بعيداً، ولكنه كان محجوزاً بثماني عشرة مروحية « بنان » من السرب الثّاني الّتي استدعاها العقيد بوشو. فتم الهبوط بصعوبة بمساعدة الملازم الثاني دولالوي الّذي توصل إلى تجميد « البيبر » بين حواجز خشبية[13]، وسط غابة من المروحيات. نُقِلَ الملازم الطيار بورني إلى مستشفى سوق أهراس من قبل رفاقه في سيارة « دوشوفو » كانت ملكا للنقيب راباني.

من الأرض، كان « الفلاقة » يطلقون الرصاص على الطائرات الّتي تغير عليهم. فأصيبت طائرة النقيب بيرج « تي 6 » بست عشرة طلقة، فكان عليه أن يهبط هبوطاً اضطرارياً على المهبط الصغير المزدحم بسوق أهراس. أصيب أيضا زميله ست مرات. أُحصي على التوالي من طائرة « كورسير » التابعة للسرب « ف 14 » أحد عشر وستة ثقوب في سطحها. القليل من الطائرات استطاعت أن تتخلص من نيران رشاشات العدو، حتّى الميسترال[14] الّتي أُصيب اثنان منها. ورجعت طائرة من طائرات « البي 26 » بعشر ثقوب، ومحرك متوقف، والتدريع مثقوب من جهة، حيث أتلف آخر رافعته، وهبطت بعناء في بون.

أُعيد تجميع لوائين من المظليين لمواجهة هذا الهجوم غير المسبوق الّذي شنّه جيش التّحرير الوطني. وجاء قناصة اللّواء الرّابع ومجندو اللفيف الأجنبي الأول لنجدة رفاقهم في اللّواء التّاسع الّذين عانوا كثيرا وخاضوا معركة التحامية دامية ومريعة. وُجّهت كلّ الوسائل المتاحة نحو سوق أهراس. فدارت معارك في غاية العنف حتّى المساء حيث نفذت عملية تطويق. في آخر النهار، كانت حصيلة المعركة جسيمة في صفوف القوّات الفرنسية : 20 قتيلا، من بينهم ثلاثة ضبّاط من لواء المظليين التّاسع، و18 مفقودا اعتبروا في عداد الأموات، و33 مصابا. ولم ينع « المتمردون » سوى ثلاثين قتيلا وخسارة بضعة أسلحة.

خلال الليل، استمر التطويق المشدد بمعدل ستة وعشرين كتيبة على طول ثلاثة عشر كيلومترا. وهناك مئة وخمسون مركبة موضوعة بعرض الطريق، يفصل بين الواحدة والأخرى عشرون مترا، ومصابيحها مشتعلة تضيء الجهة الشرقية الّتي يمكن أن يخرج منها « المتمردون ». ولقد حاول « الفلاقة » عشر مرات متتالية كسر الحصار.

---

13. تستعمل لسد الطرقات.

14. طائرة نفاثة.

في فجر 30 نيسان 1958، استؤنفت العملية الّتي كانت تتمثل في تطهير مجمل البقعة ما بين طريق سوق أهراس – سدراتة والحاجز. استمرت المعارك مشتعلة كل النهار.

كانت الوسائل الجوية الّتي جنّدت يومي 29 و30 أفريل في المعركة من قبل سلاح الجو والبحرية ضخمة : ثماني طائرات ميسترال، أربعة عشر كورسير، طائرتي P47، سبع B26، ثلاث بروسارد[15]، أربعة وأربعون T6، وطائرة C47 الّتي كانت مهمتها إطلاق قذائف مضيئة فوق منطقة المعارك خلال الليل. وشارك الطّيران الخفيف التابع للقوّات البرية بفعالية في المعارك عبر مروحياته الثمانية عشرة وطائرات استطلاع « بيبر »، حيث أصيب معظمها.

ليس هنالك شك من أن معظم الخسائر الّتي مني بها « المتمردون » كانت نتيجة المشاركة الفعالة للطّيران الّذي كانت حركته كثيفة. فهو الّذي كشف موقع القسم الأكبر « للعصابة » الّتي ثبّتها في مكانها في انتظار استكمال عملية التطويق، وهو الّذي قدّم الدعم الحاسم للوحدات المحاصرة والمهاجمة من قبل « المتمردين »، كما أنّه سمح بتعويض النقص[16] العددي للقوّات البرية في بداية المعارك.

في يوم أول ماي 1958، وفي حدود أواخر الليل، عبرت عصابة جديدة من « المتمردين » الحاجز[17] في الاتجاه شرق-غرب، ومن جديد إلى الجنوب من سوق أهراس، في المكان نفسه الّذي تم العبور منه في اليومين السابقين. فأطلقت عمليات تفتيش جوية وأرضية. وفي الساعة التّاسعة والنصف، أشارت طائرة استطلاع « بيبر » من السرب (PA 11 DI) التابعة للّواء المشاة إلى وجود عناصر متمردة في شعبة الأبيض، إلى الشرق من النقطة 721. نفذت عملية تحضير كثيفة للمدفعية متبوعة بتحريك جوي بينما كانت قوّات البر تتموضع. تمّت العملية بنفس الطريقة الّتي جرت سابقتها عشية ذلك اليوم.

تكمن مهمتها في حصر المتمردين عند الحاجز : في النهار، كانت قوّات المظليين والمشاة تقوم بدحر قوّات « الفلاقة » الّذين أحسوا بأنّهم وقعوا في الفخ، انزلقوا نحو الجنوب وصعدوا إلى جبل المواجن ذي السمعة السيئة. في الساعة الخامسة مساء، طُوِّق « الثوار » بالكامل. تدخل الطّيران بكثافة وخاصة عبر القصف بقذائف النابالم[18]. تبيّن أن العملية الجوية كانت مهمّة جدا ودقيقة وسط الاشتباكات العنيفة. أصيبت فقط طائرتا ميسترال من سرب المطاردة السادس، إصابات خفيفة. في الساعة السادسة مساء، بدأت فرقة المظليين الأجانب الثّانية الهجوم بتسلق جبل المواجن. ومع حلول الليل، كانت العملية قد انتهت.

---

15. طيران خفيف للمراقبة ولضبط المدفعيّة.

16. بالعكس، فإنّ تفوق القوّات الفرنسية كان جليا.

17. إنّ عملية الانتشار المعتمد منذ العبور وشراسة المعارك أقنعت العدو بوجود عبور متعدد. إنّ عبور 1200 رجل تم في ليلة واحدة من 27 إلى 28 نيسان.

18. سلاح محظور طبقا لمعاهدة جنيف.

الفصل الحادي عشر
قطاعات الجيش الفرنسي في الجزائر

القوّات المسلّحة بوهران[1]

ناحية الشمال الوهراني

الفرقة المدرعة الخامسة

• الجنرال ريتوري (1954) • دو كرمُجان (1956) • دودونيون (1957) • كانتاريل (1959) • دو مانديتّ (1961) • دو ميزون روج (1961 - 1962)

نزلت الفرقة المدرعة الخامسة في وهران في أفريل 1956 هي وريثة الفرقة المدرعة الخامسة الّتي أنشئت قبل ثلاثة عشر عاما في شمال إفريقيا مجهزة بمعدات أمريكية. لدى وصوله، استلم الجنرال ريتوري قيادة النّاحية العملياتية بتلمسان الّتي أنشئت حديثا، والّتي تضم عناصر مختلفة بالإضافة إلى عناصر فرقة المشاة الثّانية عشرة. تولّى العقيد دو كارمُجان قيادة الفرقة المدرعة الخامسة بالذات الّتي تضم القوّات الآتية من ألمانيا حيث كانت تتمركز :

• لواء الخيالة الخامس في مونتانياك والمؤلف من لواءين مدرعين الواحد من أربع كتائب راجلة، تُركت دبابات M 48 التابعة لهما، في ألمانيا : لواء المدرعات الأول الّذي عاد، بعد إقامة قصيرة في منطقة البليدة – حجوط (مارينغو سابقاً) ليتمركز في سوق الاثنين – لواء القناصة الإفريقية السادس الّذي نشط في تيبازة ومن ثم في سوق الأربعاء قبل أن يتمركز في پون دو ليسير (جسر يسر).

• نصف السرية المختلطة الثّامنة الّتي تشرف في منطقة ندرومة على فيلقي قناصة راجلين متشكلين من أربع كتائب : كتيبة القناصة الراجلة التّاسعة عشر متمركزة في منطقة ندرومة بعدما كانت تنشط في منطقة بوسعادة إلى غاية شهر أوت.

• لواء السبايس الجزائريين الثّاني، الّذي حافظ على أسلحة الاستطلاع وتمركزت كتائبه الثلاث المصفحة في نيمور بعد أن عملت في العفرون، ثم في قطاع عين تيموشنت العملياتي.

1. كانت جميع الوحدات التابعة لقوّات الجيش بوهران ممثلة في هذا الملحق الأول في مجملها – وعلى سبيل المثال بالنسبة لقطاعي الجزائر وقسنطينة. عمدنا استعراض هذين الأخيرين بإيجاز، لأنهما مشكلان بنفس الطريقة عموما الّتي شكّل بها قطاع وهران. القطاعات الثلاثة موزعة عبر جميع أنحاء التراب الجزائري، من الشمال على الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

• فوج الراجلين الثّاني التابع للّواء المدفعيّة الرّابع والعشرين الّذي كان مجهزا بخمس بطاريات مدفعية مزروعة عند جسر يسر.

• الفوج الثّالث التابع للّواء المدفعيّة الرّابع والعشرين المجهز بخمس بطاريات مقطورة متمركزة قرب ندرومة، وألحق بها سرب طائرات الفرقة المدرعة الخامسة الّذي التحق بموقع سيدي بلعباس.

• فيلق الهندسة التّاسعة في مغنية.

• فوج النقل الـ 385 في عين يوسف (لافيسيار سابقا).

• مركز قيادة الفرقة في ندرومة مع فيلق الخدمات الـ 85 الّذي يضم كتيبة الإرسال الـ485، وكتيبة الصيانة التابعة للفرقة الـ 186، والفصيلة الـ85 للتموين وتسيير العتاد.

ابتداء من شهر نوفمبر، عُززت الفرقة بوحدات عديدة من المشاة : نصف سرية لرماة البحرية مشكّلة من ثلاثة فيالق، الفيلق الأول مؤلف من كتائب الرحالة الجزائريين، فيالق المشاة الـ245. وسائل كثيرة من سلاح الهندسة مشغّلة على الحدود المغربيّة : الفيلق الثّاني من سلاح الهندسة الـ104، والفيلق الأول من سلاح الهندسة الـ106.

في مارس 1957، وفي إطار إعادة التنظيم الإقليمي والعملياتي للقوّات الموجودة في الجزائر، كلّف الجنرال قائد الفرقة المدرعة الخامسة بقيادة ناحية الشمال الوهراني الّتي عيّن مقرها في مستغانم. فتحركت الوحدات المختلفة للفرقة نحو الغرب لتحل محلَّ عناصر فرقة مشاة البحرية الرّابعة الّتي توجهت نحو الجنوب.

تتكوّن النّاحية الّتي كانت في الأصل تحت إمرة الجنرال دودونيون مما يلي :

• قطاع مستغانم الفرعي، حضري.

• قطاع سيدي علي (كاسينيْ سابقا) الّذي أوكل إلى الفيلق الخامس، من لواء قناصة إفريقيا السادس في رينو، من الفيلق الثّالث للّواء المدفعيّة الرّابع والعشرين في عين تادلس، ومن الفيلق الثّالث للّواء القناصة الجزائري الواحد والعشرين في الظهرة.

• قطاع غليزان أوكل إلى لواء السبايس الثّاني في زمورة، المؤلف من الفيلق الثّالث للّواء القناصة الجزائري الواحد والعشرين في غليزان، والفوج الأول التابع للّواء المدفعيّة المضادة للدبابات الثّاني عشر في منداس (منديز سابقا).

• قطاع وادي رْهيو (إنكرمان سابقا) موكل إلى وحدات غير منضوية إلى فرق وهي لواء المشاة الـ93 مع فيلقه الثّاني في عمّي موسى والفوج الأول التابع للّواء مدفعية إفريقيا بالعاطف في الونشريس.

• قطاع معسكر تحت إمرة نصف السرية الثّامنة، المجهزة بفيلقي قناصة التّاسع عشر في بوحنيفية، والعشرين في تيغنيف (باليكاو سابقا)، وفيلق بطارية المدفعيّة الثّاني للّواء المدفعيّة

الرّابع والعشرين في نيسموث وفيلق بطارية المدفعيّة الأول للّواء المدفعيّة الخامس والعشرين في وادي الأبطال (دومبال سابقا).

• أما سلاح الهندسة والقطر والنقل والإرسال، الخ، فقد استقرت في محيط مستغانم.

شرعت الفرقة المدرعة الخامسة في شن هجمات على النّواحي الّتي لجأت إليها وحدات جيش التّحرير الوطني. نفذت عملية « Pilote » (طيار) في مرتفعات الظهرة سنة 1957 - 1958، وسنة 1959 في الونشريس.

قام الجنرال كنتاريل بعملية تحويل لهياكل النّاحية ومختلف المربعات. فتم تجميعها ضمن قطاعات مجهزة بفيلق قطاع أعطى « كتائب الفروع الإدارية المتخصصة (ساس) المعززة ». في نهاية السّنة، قسّمت النّاحية إلى ستة قطاعات :

• مستغانم مع الفيلق الثاني للّواء المشاة 93.

• سيدي علي (كاسيني سابقا) مع الفيلق الثّاني للّواء المشاة الرّابع والأربعين الّذي وصل من عين الصفراء في شهر مارس 1958، بالإضافة إلى فرقة السبايس الثّانية.

• معسكر مع فيلق المشاة الـ158، بالإضافة إلى فيلق القناصة الراجلين التّاسعة عشرة في بوحنيفية وفيلق الخيالة الثّلاثين القادمة من قطاع عين الصفراء.

• غليزان تحت إمرة العقيد قائد لواء القطر والنقل الواحد والعشرين المجهز بفيلقين، وفيلق بطارية المدفعيّة الأول للّواء البحرية الثّامن عشر المضاد للطّيران الّذي حوِّل إلى فيلق القطاع.

• وادي رهيو (إنكرمان سابقا) : مع لواء القناصة الألبي التّاسع الّذي شكل من عناصر الفيلق الثّاني التابع للّواء المشاة الـ93، بالإضافة إلى لواء الخيالة المدرعين في عين طريق (غيّومي سابقا)، ولواء القناصة الألبي الثّامن في ملعب، وفيلق القناصة الراجلين العشرين مع فيلق بطارية المدفعيّة الثّالث التابع للّواء المدفعيّة الرّابع والعشرين في رامبة، وفيلق بطارية المدفعيّة الأول التابع للّواء المدفعيّة الرّابع والستين في العاطف.

• تغنيف (باليكاو سابقا) قطاع جديد استلمه لواء المدفعيّة الثاني والستين المؤلف من عناصر فيلق بطارية المدفعيّة الأول التابع للّواء المدفعيّة الخامس والعشرين في وادي الأبطال (دومبال سابقا) ومن فيلق بطارية المدفعيّة الثّاني للّواء المدفعيّة الرّابع والعشرين في نيسموث.

كان كلّ قطاع مجهزاً بفرقة كومندو للمطاردة مرقمة ضمن السلسلة خمسين.

ناحية الوسط الوهراني

فرقة المشاة التّاسعة والعشرون

• الجنرال برترون (1956) • دو وينتر (1957) • باستم (1958) • بركوتا (1959) • دو بيليني (1961) • سيمون (1962) • كالودانو (1962).

تم إعداد فرقة المشاة التّاسعة والعشرين، الّتي أعيد تشكيلها كفرقة احتياط سنة 1953، في 13 أفريل سنة 1956 ضمن مخطط طوارئ. شكّلت من جنود احتياط « استدعوا » من دفعة 3/51 و1/52 بعد إنزالهم في وهران ابتداء من 29 أفريل سنة 1956. أرسل عناصر الفرقة تحت إمرة الجنرال برتون في الحال إلى منطقة عين تيموشنت حيث أصبح الأشخاص وممتلكات المجموعات المسيحية والإسلاميّة مهددة بالإبادة بفعل تمدد الثورة. يضم قطاع العمليات بعين تموشنت على الوحدات التّالية :

نصف سرية مشاة متمركزة في العامرية (لورمال سابقا) ويغطي : الفيلق الثّاني من لواء المشاة الثّاني والتسعين في بوتليليس، فيلق المشاة الألبي السابعة والتسعين في الراحل، الفيلق الثّالث للّواء المشاة الخامس والثّلاثين في حمّام بوحجر.

• لواء المشاة الكولونيالي وزعت فيالقه الثلاثة بين عين خيال، أغلال (دو مالزيرب سابقا) وبني صاف.

• لواء الخيالة المدرعين العاشر في سيدي بن عدة (تروا مارابو سابقا).

• الفوج الحادي عشر التابع للّواء المدفعيّة التّاسع عشر.

• فيلق الهندسة التّاسعة والأربعون في المالح (ريو سالادو سابقا).

• فوج النقل الـ379 في المالح (ريو سالادو سابقا) أيضا.

كتيبة الاتصالات التلغرافية الكولونيالية الـ79، الكتيبة الـ297 للقيادة العامة، الفيلق التّاسع والسبعون للخدمات، المؤلف من كتيبة حركة المرور وكتيبة عناصر الصحة التّاسعة والسبعون، كلّ الوحدات المنشأة مع كتيبة الصيانة التّاسعة والسبعين لدى مركز قيادة فرقة عين تيموشنت.

ناحية الغرب الوهراني

فرقة المشاة الثّانية عشر

• الجنرال لاندوزي (1956) • لو بيلوش (1956) • برترون (1958) • بازيّون (1959) • فوركو (1969) • م. لنويّيو (1961).

أُنشئت فرقة المشاة الثّانية عشرة في أول مارس سنة 1956 في طولون، حيث أبحرت في أوائل أفريل باتجاه إفريقيا الشمالية. أقيم مركز قيادتها في تلمسان، واستلم الجنرال قائد الفرقة قيادة ناحية العمليات بتلمسان. تعايشت الفرقة في إقليم الدائرة مع الفرقة المدرعة الخامسة الّتي استلمت القسم الشمال الغربي من المنطقة. تم تكوين هذه الفرقة المشكّلة في غالبيتها من وحدات تابعة للجيش الكولونيال في جنوب فرنسا واستدعيت من الهند الصينية.

ناحية الشرق الوهراني

فرقة المشاة المتحركة الرّابعة

• الجنرال بيدرون (1954) • دينوفال (1956) • دودوليي (1957) • جاري (1959) • أليكس (1959) • لاسال (1961) • فايار (1961) • لابوم (1963).

تعتبر فرقة المشاة المتحركة الرّابعة وريثة فرقة المشاة الرّابعة الّتي نشطت خلال الحرب العالمية الأولى والفرقة المغربيّة الرّابعة الّتي برزت من سنة 1943 حتّى 1945 في إيطاليا وكورسيكا والألزاس، وأنهت حربها في النمسا. يذكّر شعار الفرقة بأصولها وذلك لاعتمادها الألوان الخضراء والحمراء وشجرة التنّوب.

بعد فترة انشغال في ألمانيا، تحولّت إلى فرقة متحركة تجريبية تضم خمسة ألوية مشاة متحركة تحتوي كلّ منها على هيئة أركان، وكتيبة قيادة وخدمات، وأربعة كتائب متحركة (مجهزة بآليات دودج 6×6)، وكتيبة استطلاع ومضادة للدبابات تحت إمرة نقيب من الخيالة المدرعة، ومحمولين على سيارات جيب وعربات مصفحة خفيفة AMX13 قناصة دبابات، وكتيبة دعم مجهزة على الأخص ببطارية مدفعية هاون ثقيلة عيار 106 ملم منصوبة على عربات نصف مجنزرة.

ناحية الجنوب الوهراني

فرقة المشاة الثّالثة عشر

• الجنرال أوبير (1956) • كوز (1957) • باكيت (1958) • بوفان (1958) • كريبان (1959). ميرامبو (1959) • جينستي (1960) • كازيل (1961).

حلت هيئة أركان فرقة المشاة الثّالثة عشر في الثّامن من جوان 1956 في مرسى الكبير مع الكتيبة الثّالثة والستين للقيادة العامة وكتيبة المرور الـ263. وفي انتظار وصول فرقة المشاة المتحركة من المغرب، استقرت في معسكر.

في أول سبتمبر تولت الفرقة مسؤوليتها على قطاع العمليات بمنطقة وهران الوسطى المؤسس حديثا. وهو مجهز من عدة عناصر منضوية لفرق.

القوّات المسلّحة بالجزائر

منطقة جنوب الجزائر

فرقة المشاة العشرون

• الجنرال سيمون (1956) • دوبويّي (1957) • روي (1958) • أرفويّو (1960) • روييه (1961) • لوماسّون (1962) • دو تامبل دو روجمون.

تشكلت فرقة المشاة العشرين في شهر ماي 1956 عبر استدعاء مجندين من غرب فرنسا. حصلت على تعزيزات من عدة فيالق غير نشطة على مسرح العمليات التونسي والمغربي. تضم النّاحية القطاعات التّالية : قطاع المدية، وقطاع سور الغزلان (أومال سابقا)، وقطاع بخاري (بوغاري سابقا)، وقطاع عين وسارة (بول كازال سابقا) وقطاع الجلفة وقطاع بوسعادة. هذه الفرقة مؤلفة من عدة ألوية وفيالق وكتائب. مركز قيادتها موجود في المدية.

ناحية شرق الجزائر

فرقة المشاة الألبية السابعة والعشرون

• الجنرال غورو (1955) • غيران (1957) • فور (1958) • دو كاما (1960) • سيمون (1961) • لورِيْ (1962).

وهي تضم فرقة المشاة الألبية السابعة والعشرين – وشعارها زهرة الجنتيان – وهي وريثة تقاليد فرقة المشاة السابعة والعشرين المؤسسة في غرونبل سنة 1874. أعيد تنظيمها سنة 1951، وبعد الانتهاء من استكمالها مجددا في صيف 1955 أرسلت إلى الجزائر. ولقد بدأت عدة فيالق منظمة عسكريا في أواخر 1954 بالعمل. المقاطعة مؤلفة من سبعة قطاعات : تيزي وزو، عزازقة، ذراع الميزان، الأربعاء ناث يراثن (فور ناسيونال سابقا)، برج منايل، البويرة والأخضرية (باليسترو سابقا). وستدعّم هذه النّاحية بعدة وحدات أخرى. وهي مجهزة بالإضافة إلى ذلك بوسائل تحكم وإسناد ودعم جوي (كان هناك سرب طائرات متمركزا في رغاية قبل التحاقه بمطار تيزي). كما تعززت الفرقة بعشرين فيلقا راجلا منبثقا من شتى الوحدات.

ناحية غرب الجزائر

فرقة المشاة التّاسعة

• الجنرال دو بريبيسون (1956) • رينو (1957) • غراسيو (1958) • دي باساج (1959) • كازناف (1960) • بريبور (1961) • بولانجي (1961).

تحت تصرفها فرقة المشاة التّاسعة المؤلفة من عدة ألوية وفيالق.

أقيم مركز القيادة في الشلف (أورليانفيل سابقا) ويتكون من أربعة قطاعات : تنس في الشمال وثنية الحد في الجنوب، ومليانة في الشرق وأخيرا الشلف في الغرب.

القوّات المسلّحة بقسنطينة

ناحية الشمال القسنطيني

فرقة المشاة الرّابعة عشر

• الجنرال لافو.توما دو لابارث (1955) • ديفونتين (1957) • ديفاري (1958) • جانو (1959) • لنويّيو (1960) • مالتز (1961) • فْرا (1961-1962).

أنشئت فرقة المشاة الرّابع عشرة ابتداء من أول جويلية سنة 1954. وهي تضم عدة مجموعات متحركة، ألوية وفيالق وأفواج. تمركزت هذه القوّات في بجاية وسطيف ومشروحة (لافردير سابقا)، بينما نقل مركز القيادة من باتنة إلى سطيف. قسّمت دائرة قسنطينة إلى أربعة قطاعات : غرارب، الحروش، عين مليلة، وسكيكدة (فيليبفيل سابقا). تخص الدائرة الثّانية مدينة عنابة (بون سابقا) وهي تضم ثلاثة قطاعات : عنابة، قالمة وسوق أهراس.

ناحية الغرب القسنطيني

فرقة المشاة التّاسعة عشر (ديسمبر 1955-جانفي 1963)

• الجنرال دوفور (1955) • جيرو (1957) • غاندوي (1958) • ديليبيير • كازناف (1959) • جيليو (1960) • بورداریاس (1961) • غايّار (1962) • أوليون (1962).

أعيد تجميع فرقة المشاة التّاسعة بعد أن خدمت في مختلف مناطق مدينة قسنطينة أواخر شهر ديسمبر سنة 1955 على إقليم دائرة سطيف. كانت مجهزة بمجموعة طوافات الهليكوبتر رقم 2 التابعة للقوّات البرية. تشمل النّاحية المقاطعة الغربيّة لقسنطينة المعاد تنظيمها في تسعة قطاعات : سطيف، سيدي عيش، أقبو، بجاية (بوجي سابقا) بوقاعة (لافاييت سابقا)، خراطة، برج بوعريريج، العلمة (سانت آرنو سابقاً) والمسيلة.

ناحية الشرق القسنطيني

فرقة المشاة المتحركة الثّانية (جوان 1955-31 ديسمبر 1962)

• الجنرال بوفر (1955) • رودون (1956) • فانوكسيم (1957) • غاندو (1958) • دولاك (1959) • أيّوري (1960) • دومارل (1961) • مولتنر (1961).

تشكلت فرقة المشاة المغربيّة الثّانية في أول مارس 1955. وفي شهر أكتوبر من نفس السّنة تمركزت تشكيلاته المختلفة في مورسوتّ وهيليوبوليس وسدراتة وسوق أهراس وعين البيضاء وقالمة. عندما تحولت الفرقة الثّانية إلى فرقة جيش في مارس 1957، كانت ناحية العمليات بالشرق القسنطيني تضم القطاعات التّالية : عنابة، قالمة، سوق أهراس، سدراتة، عين البيضاء وقطاع تبسة المستقل.

ناحية الجنوب القسنطيني

فرقة المشاة الواحدة والعشرون (جوان 1955-31 ديسمبر 1962)

• الجنرال فانوكسيم (1956) • دايّي (1957) • دو كريفكور (1958) • دوكورنو (1960) • دوك (1961).

في سبتمبر 1954 وعشية إعلان « التمرد الجزائري »، تشكل في جنوب دائرة قسنطينة القطاع العملياتي الجنوبي، وهو يضم القطاعات الفرعية بتبسة، أريس، خنشلة، بسكرة وباتنة، حيث أقيم مركز قيادتها.

ملاحظة :

لم يشر إلى وسائل الدعم الجوي في هذه الملاحق. فلم يذكر على سبيل المثال سوى تلك الموجّهة إلى ناحية الشرق القسنطيني. ينسق بين هذه الوسائل مركزا قيادة للطيران : مركز قيادة الجو عنابة (بون سابقا) للنصف الشمالي، وتبسة للنصف الجنوبي. تتوفر الفرقة، بالإضافة إلى وحدات

التدخل لطائرات الهليكوبتر المرسلة من قبل فرقة جيش قسنطينة، على كتيبتي طيران خفيف تابعة للقوّات البرية : (ALAT) والسرب المختلط طائرة الهليكوبتر رقم 1 في عنابة، وسرب الطّيران رقم 2 التابع للسرب المتمركز في سوق أهراس، وقد شارك في كلّ العمليات الّتي دارت ما بين الحاجز والحدود.

بالنسبة للحواجز، فإنّ مقاطعة شرق قسنطينة مجهزة بخمسين ألف رجل قبالة الحواجز، أي ما يعادل تقريبا ثلث تعداد فرقة الجيش، عدا التعزيزات الوافدة من مختلف الوحدات.

الباب الثّالث

مشواري العسكري

مقدّمة

في هذا الباب الثّالث من الكتاب، سأتحدث عن أزمة صيف 1962 وصراعاته حول السّلطة وعواقبها. وأقولها مرّة أخرى إنّني لا أدعي على نفسي القيام بعمل المؤرخ. فلقد ترك العديد من صنّاع تلك الأحداث الّتي وقعت غداة الاستقلال مذكرات، كما تناول الكثير من الكتّاب والمؤلفين هذا الموضوع، واهتم به مؤرخون أفذاذ. فأنا لا أريد نقل شهادتهم في نقطة أو في أخرى، ولا تصحيح ما ذكروه. كلّ ما أريد هو أن أدلي بشهادتي كعضو من أعضاء جيش التّحرير الوطني والتعبير عن مشاعري ومشاعر رفاقي خلال تلك الأيام المشحونة بالآلام والمآسي لمّا وقف قسم من ثوار حرب التّحرير في وجه قسم آخر وعارضه بالسلاح.

أحكي كيف أن الجزائر، الّتي ما إن تحررت من قيود الاستعمار حتّى وجدت نفسها مضطرة، في أكتوبر عام 1963، لمواجهة المخططات العدوانية للمملكة المغربيّة، وأصف الحماس الوطني الاستثنائي الّذي عبّر عنه المواطنون في تلك الأيام. حاولت أن ألخص بأوضح العبارات الممكنة، أوضاعا معقدة مثل الأحداث الّتي اندلعت في منطقة القبائل، لمّا قرّر زعيم تاريخي في سبتمبر 1963 الانتقال من الاحتجاج السياسي إلى المعارضة المسلّحة، وجرّ معه في مغامرته الكثير من المجاهدين، وكذلك عندما أدّى اختلاف في الرؤية وفي التحليل، مع ما ينجر عن ذلك من صدمات عاطفية ومغامرات، بالعقيدين محمد شعباني والطاهر زبيري، الأول قائد الولاية السادسة والثّاني قائد أركان الجيش الشّعبي الوطني، إلى التمرد العسكري أملا في تحويل مجرى الأمور الّذي لم يرق لهما. في اللوحة الّتي أرسمها عن هاتين القضيتين، حرصت على أن أتحدث عن أبطال هذه الأحداث بتبجيل واحترام، بالنظر إلى ماضيهم وما ضحّوا به من أجل مبادئهم ومواقفهم. سأتحدث عن الحقبة الّتي حكم فيها أحمد بن بلة ونتائجها المنطقية. فلقد شهدت وشاركت غصبا عنّي في آخر أيام القائد الثوري المتحمس والأهوج الّذي فعل كلّ ما يمكن أن يفعله رجل سياسي للتعجيل بالعاقبة المؤسفة الّتي رسمتها سياسته منذ زمن طويل.

وفي نفس الجزء من الكتاب، سأتحدث عن الجيش الجزائري وتحوّله الصعب من جيش التّحرير الوطني إلى الجيش الوطني الشّعبي، وكذلك عن الرّجال الّذين أتموا هذه المهمّة. وعندما أعطي رأيي في هواري بومدين، كشخصية يصعب حصرها وجذابة وفي نفس الوقت مخيفة

ومحيّرة، أسرد حقائق وتفاصيل تدعّم وجهتي النظر الأولى والثّانية. كقائد أركان جيش التّحرير الوطني خلال السنوات الأخيرة من الحرب، وكوزير للدّفاع بعد الاستقلال، فعل الكثير لبناء جيش وطني غني بالتنوع البشري الّذي يزخر به شعبنا، وأنا من بين الّذين يحق لهم القول بأن الجيش الوطني، ولأنه بُني على هذه الأسس الصحيحة الّتي كان فيها لهواري بومدين إسهام كبير، ظل واقفا على الرغم من الاستراتيجيات والوسائل المستعملة لإسقاطه أو لتحريفه عن مبادئه. وهذا لا يمنعني من الحديث عن أوجه الضعف والحسابات الأنانية والتصورات الاقتصادية غير الواقعية الّتي فرضها هواري بومدين : أخطاء في التخطيط قادت خطاه إلى طريق مسدود عنوانه التأميم القسري للأراضي والتصنيع المفرط. كرئيس للبلد، شيّد دولة لم تزَل بزواله. ولتحقيق الخيارات الكبرى الّتي أقرّها رجال الثورة خلال حرب التّحرير، استخدم كلّ إمكانيات هذه الدولة وبإفراط ملحوظ، كما لو أنه أحس بقرب نهايته. ولا تزال هذه الدولة مستمرّة ولم تفرّط بقيد أنملة من سيادتها في الوقت الّذي رأينا طبقة سياسية، بعد عقود من رحيل المؤسس، غارقة في الانتهازية أو راضية بأن يأتي من يدعون بالدين ليهددوا الأساس الّذي تقوم عليه الجمهوريّة.

إنّني إذ أدعو القارئ الشاب، في عدد من الصفحات، ليتبعني إلى ضفاف قناة السويس، قصدت أن أثير الإحساس بالفخر والاعتزاز في نفسه، لأن جيش آبائه وأجداده أثبت أمام جيش « تساحال » الّذي طالما اشتهر اسمه، قدرته التكتيكية وشجاعة رجاله.

قادني مشواري العسكري، في السّبعينات والثمانينات، للعمل لسنوات عديدة في الجنوب الجزائري. وكانت فترة « تندوف » غنية بالتجارب الرائعة والدروس المفيدة، وكانت أغنى بالاحتكاك الّذي أتيح لي برجال أعتبرهم مثالا في الإخلاص والشجاعة. أحيانا يستميلني حب التفاصيل، فأستعيد حكايات وطرائف من الحياة اليومية، كلما شعرت بأنها قد تفيدني في وصف الأحاسيس الّتي يحس بها الجنود الّذين عاشوا تلك الأيام الصعبة بعيدين عن ذويهم وأحبّتهم وفي تلك الظّروف القاسية الّتي يؤدون فيها واجبهم الوطني.

ثم إنّني أذكر كثيرا الشّاذلي بن جديد. في الجزء الثّاني من هذه المذكرات، أبدو قاسيا في حكمي على الرجل السياسي بن جديد لأن حساباته الأنانية وتخطيطاته العشوائية كانت كثيرة جدا ومدمّرة للبلد. لكنّني لم أغفل عن ذكر أخلاقيات الجندي الّتي يتميّز بها. فعندما يستولي التردد على النفوس، يمرر مصلحة الجيش قبل مخاوفه وتوجساته. كان واعيا بالبيئة الجيوسياسية الخاصة الّتي كانت سائدة في مرحلة من المراحل. ويعرف في مجال الدّفاع الوطني، كيف يتخذ القرارات الصائبة الّتي سمحت لنا فيما بعد بمواجهة موجة التخريب والإرهاب. إليه يعود الفضل في إنشاء هيئة الأركان العامة الّتي اندثرت من التنظيم الهيكلي لوزارة الدّفاع الوطني بعد فشلها في عهد الطاهر زبيري. وهو أيضا من قام بإعادة الهيكلة، وفقا للمخطط الّذي أعدّه محترفون لديهم نظرة شاملة عن أدوات التجديد والتحديث : تمفصل الجيش بين وحدات قتالية كبيرة،

تكييف الموارد البشرية، تخصيص المعدات والوقت الضروري لإعداد كلّ مرافق الجيش وضمان جمهوريته بسرعة. ظل تحسين الظّروف المعيشية لأفراد الجيش، بعد ما يقرب من عقدين من الحياة الضنكى، انشغالا دائما عند بن جديد. أما هواري بومدين، فكانت لديه أولويات أخرى غير راحة عناصر الجيش. فكان في ذهن القائد السابق لهيئة الأركان العامة – وهو حكم غير جائر – أنّ الّذين عانوا من قسوة الحياة في الجبال يجب أن يكتفوا بالهواء المنعش والمياه العذبة وبالحرية. ولقد قام بن جديد بترقية الجنود على أساس الجدارة ولم يكترث أبدا بالروابط الجهوية ولم يراع الحسابات السّياسيّة الّتي تجعل من الولاء الشرط الأساسي لترقية الإطارات، أو لتوزيع المناصب « المغرية ». ولم يشجّع الفساد ولم يسمح به أبدا لضمان بقائه السياسي. وما قصة بلوصيف إلا دليل على ابتعاد بن جديد عن كلّ أشكال المحاباة أو التحايل. وفي وقت لاحق، رفض تفكيك القيادة العليا للجيش كما طالبته به الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ لما كانت في أوج غطرستها. إنّ اتساع نطاق الموضوع يمنعني من التحدث باستفاضة عن كلّ الطفرات والتحوّلات الّتي عرفها الجيش الجزائري، بالشكل الّذي أرغب. رجائي أن تلهم شهادتي غيري من الرفاق، وتحثّهم على سد الثغرات الّتي قد لا تخلو منها هذه الشهادة، حتّى تكتمل كتابة تاريخ الجيش الوطني الشّعبي ويتم ذلك بعمق ودقة.

الفصل الثّاني عشر
ما بعد الاستقلال

صيف كلّ المخاطر

ظهرت الخلافات بين هيئة الأركان العامة والحكومة المؤقتة عندما انطلقت المفاوضات مع الفرنسيين. التاريخ حافل بالأمثلة الّتي يبرز فيها اختلاف في وجهات النظر بين رجال السياسة والقادة العسكريّين المشتركين في كفاح واحد بمجرد أن يلوح في الأفق اتفاق مع العدو.

دفاعا عن القيادة السّياسيّة للثورة، لابد لنا أن نعترف بأن هواري بومدين ونوّابه شاركوا مشاركة كاملة في مفاوضات إيفيان. وكان موقف هيئة الأركان العامة يعكس تصميمه على متابعة مجرى المفاوضات ويلقي بكلّ ثقله على المفاوضين لمنع الطرف الآخر من أن يفرض حله الخاص. وكان الوفد الجزائري متفهّما تماما لهذا الحرص.

وخلافا لما قرأناه هنا وهناك، لم يكن بومدين يوما من دعاة التصلب العسكري. فقد عبّر عن رأيه بكلّ وضوح عن قضايا وطنية قد يسبب عدم تسويتها ضررا بمستقبل البلاد، مثل اجتزاء التراب الوطني من عمقها الصحراوي وكذلك الامتيازات المفرطة الّتي منحت للأقلية الأوروبية.

ثمة نقطة خلاف أخرى تتمثل في قبول الوفد الجزائري في إيفيان بإنشاء « قوة محلية » متكوّنة من أربعين ألف جندي. وكان هواري بومدين يرى في ذلك مناورة للتفوّق على جيش التّحرير الوطني المتمركز على الحدود.

يقول رضا مالك، مقرّر الوفد الجزائري في إيفيان، إن الحجة الّتي وُوجه بها قائد هيئة الأركان هي أن « التفاوض مع فرنسا تشكّل لأول مرّة فرصة تاريخية قد لن تعوّض في المستقبل ». إنّ المعرفة الجيّدة للأوضاع السّياسيّة الّتي يمر بها نظام الحكم الفرنسي وللأوضاع الدولية والعراقيل الموضوعية، في نظر أعضاء القيادة السّياسيّة، هي الّتي تحدد موازين القوى. فإذا أزيح ديغول (بطريقة أو بأخرى) من طرف أنصار الجزائر الفرنسية، أي سلطة فرنسية يمكن أن تقف في وجه هذا اللوبي الّذي يضع مصالحه فوق مصالح الغالبية العظمى من الفرنسيين ؟ كان إذن هناك

خطر، في حالة ما إذا ظل موقف الجزائر متصلبا وطال أمد المفاوضات، أن تستمر الحرب لسنوات طويلة أخرى.

وفور التوقيع على نصوص الاتفاقيات مباشرة، قرّر هواري بومدين الذهاب أبعد من ذلك بحيث وضع نفسه حكما في أيِّ تطوّرٍ سياسي للوضع، من أجل توجيهه الوجهة الّتي يراها في مصلحة الجزائر، ولم يخش إطلاقا أن يُتّهم بالسعي لفرض « أولوية العسكري على السياسي. » لم يكن يريد مهما كان أن تتولى الحكومة المؤقتة أو أحد أعضائها قيادة الجزائر المستقلة. وبعد استمالة أحمد بن بلة بعد فشلها مع محمد بوضياف[1]، أحدثت هيئة الأركان شرخا في مجموعة الخمسة[2]. وبعد ذلك، أصبحت لهواري بومدين اليد العليا أمام حكومة مؤقتة أنهكها الحكم وأضعفها التسابق على الكرسي بين أعضائه الرّئيسيين.

النواة الصلبة للجنة التنسيق والتنفيذ، منذ أن فقدت تماسكها بعد ذوبانها في حكومة مؤقتة غير منسجمة وخاصة منذ أن فوّض كريم سلطته على الجيش لوكيل – لجنة العمليات العسكريّة – لم يكن قادرا بالمعنى التام والكامل للكلمة على مواجهة التفوق الساحق للقوّات والمعدات الّتي جنّدها الجيش الفرنسي، بل ولم يكن قادرا حتّى على تصوّر خطط لتوفير دماء جيش التّحرير، تحملت عبء الانتقادات الّتي تصفها بالعجز والإفلاس.

لا توجد قيادة سياسية في زمن الثورة قادرة على الإفلات من تهمة « الإفلاس » أو حب الرفاهية، عندما يكون لدى من يمثّلونها القوة المسلّحة. أخطاء لا تعد ولا تحصى وتجاوزات خطيرة صاحبت المسار الفاشل والدموي للجنة المصغرة الّتي كانت لديها اليد العليا على شؤون الثورة. فأحكام الإعدام المتتالية الّتي نُفذت في حق أعضاء من قيادة الأوراس، ومقتل عبان، والمذبحة الّتي راح ضحيتها صفوة جنود الولايتين الثّالثة والرّابعة على يد خبراء فرنسيين في العمل البسيكولوجي[3]، واختناق الولايات الداخلية، كلّ ذلك ترك آثارا وأفقدت « الباءات الثلاث » شيئا فشيئا هيبتهم كآباء للثورة يحمون البيت من النزاعات ويقونها من المنافسات.

فمنذ أن أقحموا هواري بومدين في أعمالهم، ولا سيما القذرة منها، كاغتيال عبان والتصفية الرهيبة لقيادة الأوراس الثّانية، سقطت هيبتهم في عينيه. لم يعد عبد الحفيظ بوصوف، ألد خصوم عبان، قائدا للولاية الخامسة منذ اجتماع المجلس الوطني للثورة الّذي عقد في القاهرة في جويلية 1957. وفي تلك الفترة، لم يمكن لهواري بومدين الّذي كان المسؤول الميداني في المغرب، أن يكون على غير علم بالكمين الّذي سقط فيه عبان في شهر ديسمبر من نفس العام.

---

1. كان عبد العزيز بوتفليقة المهندس الرّئيسي لهذه العملية.

2. سجن حسين آيت أحمد، وأحمد بن بلة، ورابح بيطاط، ومحمد بوضياف ومحمد خيضر في سجن أولنوي وأفرج عنهم في 18 مارس 1962.

3. مؤامرة « الزرق ».

أضف إلى ذلك أن القاعدة الشّعبية الوحيدة الّتي يملكها « النّظام » كانت تتشكل من اللاجئين الجزائريين في تونس والمغرب، وأن النّظام البوليسي المحكم الّذي أقامه عبد الحفيظ بوصوف ولّد عندهم الخوف، ثم الرفض. أما القاعدة العسكريّة لنفس هذا « النّظام » فتتمثل في وحدات جيش التّحرير المتجمّعة خارج حدود الجزائر، والمجبرة بالرغم من التفاوت في القوى، على مواجهة الحواجز المحصنة الّتي كانت تعزل الجزائر في سنوات 1958 و1959. و منذ عام 1960، أصبحت هذه القاعدة العسكريّة بين يدي هواري بومدين.

وقعت هناك حادثة تبدو في الظاهر بسيطة وعادية[4]، لكن كانت لها عواقب وخيمة، بيّنت مدى وعي هيئة الأركان العامة بقوتها وإمكانياتها[5].

كانت الانتقادات الموجّهة لكريم بلقاسم تنحو المنحى الّذي ترغبه هيئة الأركان العامة، فتبنتها وراحت تُقنع بها كلّ من يستمع إليها[6].

ومع ذلك، لم تصل هذه الهجمات إلى حد إنكار صفة الممثل للجزائر المكافحة على القائد السابق للولاية الثّالثة. وللتاريخ، يجدر الذكر بأن الثوار لم يريدوا أن يوقّع على الاتفاقيات مع الفرنسيين رجل سياسي انخرط حديثا في الكفاح المسلح، وإنّما رجل ثوري حتّى يكون ذلك الدليل على أن الّذي افتك الاستقلال هو جيش التّحرير الوطني وليس مساعي الأحزاب الكلامية، المتذبذبة والمتوجّسة. بغض النظر عن الخلافات مع كريم والمآخذ الّتي يؤاخذ عليها، كان هناك جوهر لا يمسّ وهو ماضيه الثوري. من كان يستطيع أن يمثل جيش التّحرير الوطني أفضل من رجل أول نوفمبر، القائد السابق لولاية مرموقة، وآخر الرّجال الّذين أشعلوا شرارة الثورة ؟ فلم يكن من الوارد بالنسبة لجيش التّحرير القبول بأن يأتي شخص آخر غير الّذي حمل العبء الأثقل في أحلك الظّروف، ليغتنم ما جناه. لذلك كان توقيع كريم على وثيقة إيفيان اعترافا للعدو بتضحيات وشجاعة الجيش الجزائري.

وصلت الأزمة ذروتها خلال الدورة الرّابعة للمجلس الوطني للثورة، الّذي انعقد من 27 ماي إلى 30 جوان 1962 في طرابلس من أجل المصادقة على الاتفاقيات الموقعة في إيفيان، والاتفاق على برنامج وتعيين قيادة سياسية. وكان بن خدة يرى نفسه، ولقد أظهر ذلك علنا، أن لديه كلّ القدرات وكامل الشرعية ليكون على رأس الجزائر المستقلة. وقد نتج عن هذه المشادات انشقاق

---

4. قضية الطيار المرسل في مهمّة تجسس عام 1961، فوق قواعد جيش التّحرير الوطني، وأسقطت طائرته فوق التراب التونسي. رضخت الحكومة المؤقتة لضغوط بورقيبة، فطالبت هيئة الأركان العامة إطلاق سراحه ونالت ذلك منها.

5. عندما اتهمني الشّاذلي بن جديد في وقت لاحق بالعمالة لهؤلاء المجاهدين الكبار، فذلك طبعا غير صحيح، لكنني عملت مع « الباءات الثلاث » بكلّ فخر واعتزاز. سوف لن أخبرهم بأفعال وممارسات هؤلاء وأولائك، لكنني كنت سأطلعهم على الواقع الّذي يواجهه جيش التّحرير الوطني.

6. لكن عندما بدأ سيل الانتقادات يصب في اتجاه « الباءات الثلاث »، ما هي الخيارات الّتي أقرها هؤلاء الرّجال الثلاثة الّذين تحملوا وطأة الحرب وتوّجت مجهوداتهم في إيفيان، لمواجهة تحديات أزمة النمو الّتي طبعت مجرى الثورة خلال سنوات 1956 - 57 - 58 - 59 ؟ الأحكام البعدية لا تأخذ بعين الاعتبار تعقد الأوضاع والحالات الطارئة الّتي كان لكريم ورفاقه مسؤولية إدارتها.

خطير داخل القيادة السّياسيّة للثورة. فلم تعد لكلمة الحكومة المؤقتة أية قوة أو مفعول. ولم يلعب أعضاؤها، باستثناء « الباءات الثلاث »، أي دور ملحوظ في التأثير على مجرى الأحداث. الصراع محتدم بين بن بلة، المستقوي بتحالفه مع هيئة الأركان و« الباءات الثلاث »، وكان كلّ واحد من هؤلاء مصمّما على المقاومة. كانت الهجمات في الجلسات العلنية للمجلس الوطني للثورة والمناورات وراء الكواليس، خاصة ضد كريم بقاسم، بدرجة كبيرة من العنف. وما هي إلا أيام حتّى انهار هرم « النّظام » الّذي بني على قاعدة مثلثة الأضلع، كان كلّ واحد من « الباءات الثلاث » يتحكم في ضلع واحد، بعدما استسلمت هذه الركائز الّتي واجهت كلّ العواصف، وانكسرت تحت وطأة الاتهامات والإدانات. وزراء وإطارات سامية وسفراء ومسؤولون في هذا القطاع أو ذاك، كلّهم انساقوا وراء تيار انتهازي واحد منضمين إلى صفوف أنصار بن بلة. كان أحمد بن بلة يريد تصفية الحكومة المؤقتة واستبدالها بمكتب سياسي على مقاسه. كلّ الأدوار الأولى المعروفة في عقد الخمسينات ماتت، والبقية – فريق كبير من رجال متمرسين – أرغمهم على الصمت رجل واثق جدا من نفسه وقوي بتحالفاته. فحتّى قبل المسيرة نحو العاصمة، كان ميزان القوى قد حُسم نهائيا. بعد فشل لجنة بن يحيى[7]، انفض المؤتمر دون أن يتمكن من تزويد البلد بقيادة سياسية. وغادر بن خدة مؤتمر طرابلس دون سابق إنذار. وافترق باقي المشاركين في جو من الفوضى. فقامت حرب حقيقية بين القادة. وبدأت قيادات الولايات تتململ وتتموقع مع هذا المعسكر أو ذاك. ووجدت الذرائع السّياسيّة للدخول في المعارضة، سواء ضد الحكومة المؤقتة أو ضد هيئة الأركان العامة، في حين أن الجيش الفرنسي لا يزال في حالة تأهب، وكانت منظمة الجيش السري تقتل وتحرق وتجنّد الحركى وما تبقى من الحركة المصالية، فيما كان لا تزال الأمور في فرنسا، لدى فئة معينة من السكان، غير محسومة.

هذا ما كتبه بنجامين ستورا في ما كان يجري في المدن الجزائرية في الفترة الّتي كانت فيها القيادة السّياسيّة للثورة تتمزق :

« بعد اتفاقيات إيفيان الموقعة في 19 مارس، لم تتوقف تفجيرات منظمة الجيش السري. بل ويمكن أن نقول إن الإرهاب قد ازداد حدة وعنفا : عمليات اغتيال فردية للمسلمين، مطاردة الأشخاص المستهدفين، تفجيرات بالقنابل واستعمال قذائف الهاون. في أواخر شهر أفريل، انفجرت سيارة مفخخة في سوق شعبي يتردد عليه الجزائريون المسلمون بكثرة في مثل تلك الساعة من شهر رمضان. كانت العملية الأولة من نوعها، وفي الثّاني من شهر ماي، نفس الطريقة، انفجار سيارة مفخخة في ميناء الجزائر العاصمة، أوقع 62 قتيلا و110 جريحا، جميعهم من المسلمين. في نفس الشهر، في وهران، كان كلّ يوم يسقط ما بين عشرة وخمسين جزائريا على يد منظمة الجيش السري. ومن وحشية تلك الأعمال، قرّر من كانوا لا يزالون يسكنون الأحياء الأوروبية مغادرتها على عجل. يعتبر اليوم السابع من جوان من أبرز المحطات في « سياسة الأرض المحروقة »

7. في اجتماع المجلس الوطني للثورة، كانت لجنة بن يحيى مكلّفة بإجراء مشاورات للتوصل إلى توافق بشأن الهيئة السّياسيّة الّتي ستقود البلاد في المستقبل إلى غاية المؤتمر القادم. في يوم 5 جوان 1962، أقر بن يحيى بفشل اللجنة الّتي كان يترأسها.

الّتي انتهجتها منظمة الجيش السري. إذ قامت فرقه المسماة « كومندو دلتا » بحرق مكتبة الجزائر وإلقاء كلّ كتبها وعددها ستون ألفا لألسنة النيران. في وهران، تم تدمير دار البلدية والمكتبة البلدية وأربع مدارس بالمتفجرات. غرقت المدينة في فوضى عارمة وأصبحت منقسمة إلى قسمين، بحيث لم يعد هناك جزائري واحد في شوارع المدينة الأوروبية... »

لم يكن لاضطرابات طرابلس ومحاولات أنصار الجزائر الفرنسية أي تأثير في الجيش الّذي ظل مجنّدا باستمرار وعلى استعداد لمواجهة كلّ التطورات المحتملة. ومن الاحتمالات الّتي كانت واردة نشوب حرب شوارع ضد أتباع منظمة الجيش السري الّتي تعززت بالملحقين وكتائب من شباب الأقدام السوداء المصمّمين على تحويل المدن الجزائرية إلى خنادق. لهذا بادرت هيئة الأركان العامة بتنظيم تربص خاص بحرب الشوارع، شاركتُ فيه مع عدد من قادة الكتائب في معسكر التدريب بوادي مليز.

واكبت إعادة انتشار جيش التّحرير الوطني المتمركز على الحدود، في الأيام الّتي أعقبت وقف إطلاق النار، العديد من التخطيطات : بخصوص المواقع الّتي يجب احتلالها، والمعدات الّتي ينبغي إعادة ترتيبها أو تغليفها، وتعيين الإطارات وجرد المخازن وجمع الأرشيف، مع توقع استئناف الأعمال العدائية في أي لحظة، في حالة ما إذا... لأن الهدنة الّتي تم الاتفاق عليها في إيفيان لا تزال هشة. ولا أحد يجرؤ على الاعتقاد بأنها متينة ونهائية.

عاش هواري بومدين الفترة الانتقالية في حالة تأهب دائم. كانت فترة مليئة بالشكوك والمخاطر ! تجرأ بن خدة وطلب من ديغول عدم السماح لجيش الحدود بالدخول إلى الجزائر. لكن الرّئيس الفرنسي رفض التدخل. ومع ذلك، حظي رئيس الحكومة المؤقتة بدعم الحبيب بورقيبة الّذي وضع جيشه وحرسه الوطني في حالة استنفار قصوى. في تونس، نصّبت العديد من نقاط المراقبة على الطرق، مع أمر بوقف أعضاء هيئة الأركان العامة. وانتشرت شائعات تقول بأن السلطات المحلية طالبت برأس هواري بومدين. لتجنّب اعتقاله، غادر منطقة غاردماو رفقة سعيد عبيد على متن سيارة إسعاف تابعة للهلال الأحمر الجزائري.

في الوقت الّذي انطلق سباق أعضاء الحكومة المؤقتة نحو الجزائر، وعلى رأسهم بن خدة، شرعنا نحن في تنفيذ قرارات القيادة ميدانيا. حزمنا أمتعتنا وغادرنا ثكناتنا ومراكز تدريبنا ومعسكراتنا المؤقتة وخنادقنا وحُفرنا. وكانت المكاتب التقنية التابعة لهيئة الأركان العامة قد رسمت المسارات وحددت المحطات ونقاط الوصول. لكن بهذه الطريقة، أليس هناك خطر بأن يفلت الرّجال الّذين لم يروا أبناءهم وزوجاتهم وأهاليهم منذ سنوات، من أي رقابة ويختفون في الطبيعة، لاسيما وأن النداءات إلى العصيان الّتي أطلقها أعضاء الحكومة المؤقتة، وتبثها إذاعة تونس، لا تزال مستمرّة ؟[8] لكن الجيش، على الرغم من محاولات التفتيت هذه، اجتازت ببراعة

8. وبطرق أخرى كذلك، علما بأن مبعوثين أجروا اتصالات سرية مع عدد من أعضاء هيئة الأركان العامة لإقناعهم بالتخلي عن هواري بومدين. لم يكتب لمحاولتهم النجاح، إلا في حالة عز الدين زراري « الرّائد عز الدين » الملتزم بالشرعية، فانضم إلى صف كريم بقاسم.

محنة تلك الأيام العصيبة والحرجة. لا أحد ترك الوحدة الّتي ينتمي إليها. لأن العمل الّذي قام به الضبّاط الّذين كوّنوا هذا الجيش وقادوه في وجه العدو، غرست فيه مبادئ الوحدة وروح العمل الجماعي الّتي دعّمت تماسك الصفوف. لم يحدث أي انفراط لقوّاتها مثل ما حدث للوحدات التابعة لبعض الولايات الّتي اضطرت للجوء إلى عناصر القوة المحلية[9] أو « مجاهدي » الساعة الخامسة والعشرين لتعزيز قوّاتها.

عاد الجيش إلى الجزائر منضبطا ويؤطره قادة متمرسون تكوّنوا في ميادين القتال ويحملون على أجسادهم آثار الإصابات الّتي تلقوها في عشرات من المعارك.

الخطوط المكهربة معطلة. والحواجز الّتي استغرق الجيش الفرنسي سنوات عديدة لبنائها، وترجّى منها النصر، لا تزال منتصبة بتشابك خيطوها المتمددة والمتعرجة مثل آلة الأكورديون، وبمخابئها وأبراج مراقبتها، لكن كلّ شيء أصبح قفارا وفراغا صامتا. كما غادر حراس الجحيم. ومن بعيد يبدو جنود العتاد منهمكين، تحت حماية الدّبابات، في تفكيك المولّدات الكهربائية الّتي تؤمّن للطاقة الكهربائية قوتها الفتاكة. ويقابلنا فلاحون يسوقون دواب تجرّ وراءها أكواما هائلة ومتباينة الأشكال من الأسلاك الشائكة. إنّهم السكان القدامى لتلك الأماكن الّذين يحاولون تحرير الأراضي الّتي كانت تغذيهم من قبضة الأسوار الحديدية. لم يُصغ لتحذيرات جنود جيش التّحرير المارين من هناك. فما قتلته الألغام في شهور ماي وجويلية وأوت وسبتمبر، وشوّهته من نساء ورجال وأطفال، فاق ما قتلته في عام من الحرب.

لم تكن وحدتي بحاجة إلى أي ضبط جديد. فلم يسبب لها وقف إطلاق النار أي اضطراب أو تململ بداخلها، ربما لأن إشارات وحركات الأمس لم يعد لديها نفس الدرجة من الاستعجال. في « قرون عائشة »، آخر معسكراتنا، أدينا تلك الحركات في جو خال من التوتر. فلقد زال الخوف

---

9. القوة المحلية هي قوة مختلطة مكلّفة بحفظ الأمن في الجزائر، تم إنشاؤها في 30 مارس 1962 في إطار اتفاقيات إيفيان المبرمة في 18 مارس 1962، ووضعت تحت إمرة السّلطة التنفيذية المؤقتة والمفوض السامي للجمهورية الفرنسية في الجزائر، كريستيان فوشي. تنظم في شكل وحدات من القوّات المحلية (رابطة المحترفين)، وكانت عند تأسيسها تضم 40 ألف رجل. هذه الوحدات هي تشكيلات مختلطة تتألّف في معظمها من « مسلمين » (90 ٪) ويقودها أوروبيون (10 ٪ من مجموع القوّات). تتميز بضعف فعاليتها وعملها الارتجالي، وسرعان ما واجهت موجات فرار جماعي للجزائريين المجندين في صفوفها، والّذين انخرطوا في صفوف جيش التّحرير الوطني الجزائري. بدأت تفقد جدواها تدريجيا إلى أن حلت اعتبارا من تاريخ 17 جويلية 1962.

تعود فكرة انشاء « قوة محلية » مكلّفة بحفظ الأمن في الجزائر إلى 20 جانفي 1961، قبل التوقيع على اتفاقيات إيفيان بكثير، وصدرت عن لجنة الشؤون الجزائرية. في نهاية المطاف، تحولت هذه القوة تحت قيادة « هيئة جزائرية مكلّفة بالتحضير لتقرير المصير ». كانت قوّاتها المختلطة (جزائرية – فرنسية) تضم بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألف رجل.

أثار المقترح المتعلق بإنشاء قوة محلية الّتي قدّمها المفاوضون الفرنسيون خلال محادثات إيفيان، نقاشا ساخنا أثناء المفاوضات، بحيث عارض الجانب الجزائري وجود ملحقين [كانوا في خدمة الجيش الفرنسي أثناء الحرب] في صفوف القوة المحلية. في آخر المطاف، تم إنشاء القوة المحلية بالمرسوم المؤرخ في 30 مارس 1962

المصدر : صورية لعريبي، في دراستها : « القوة المحلية بعد اتفاقيات إيفيان (مارس-جويلية 1962) »، مجلة « حروب عالمية ونزاعات معاصرة »، العدد 259، الصادر في 29 سبتمبر، 2015، ص 77 - 92.

من هجوم سرب الطائرات الفتاكة، كما قلّ خطر القذائف من عيار 155 ملم الّتي تمزق الهواء وهي تعوي مثل القطط البرية. قادني المسار الّذي حدد لي، على رأس فيلقي، إلى بوحجر، ومكثت هناك بضعة أيام. اعتدنا السير في الجبال، لم يكن لدينا أي شيء ثقيل أو معيق نحمله للذهاب إلى حيث حططنا الرحال في انتظار أوامر أخرى. كانت أسلحتنا وذخائرنا وبعض اللوازم الخفيفة كلّ أمتعتنا. فلم تكن تستدعي شاحنة من نوع GMC[10]. كنت في حالة نفسية لم أعهدها من قبل. أحسست بأن عهدا جديدا قد دق أبواب التاريخ. وتداخلت في ذهني أفكار متضاربة. كيف لي أن أرتّبها ؟ وما هي الأهمية الّتي عليّ أن أوليها ؟ ما هي الكلمة الّتي يجب أن أستخدمها للتعبير عمّا يختلج في صدري وأنا أطأ أخيرا التراب الجزائري المحرّر، في الوقت الّذي كنت أرى على الطرق عودة الشّعب إلى أرضه وهو يكتشف فجأة حكم التاريخ البتّار ؟ الفرح ؟ النشوة والحزن ؟ كلّ كلمة من هذه الكلمات وكلّها في آن واحد !

شيء ما في أعماق نفسي يدفعني للتحرك. مشيت عبر الدروب الّتي تقطع غابة بني صالح. ونزلت إلى أولاد بشيح. لكلّ فرجة قصة. وكلّ تلة تروي ملحمة.

في شمال بلدة خبوشة، وفي المكان المسمى « ترات » أدركتني الحرب. توقفت على جانب الطريق. كان هناك مجاهدون من الفيلق السابع عشر، تعرّفت على بعضهم، يراقبون جنودا كلّفوا بعملية إزالة الألغام. وفجأة، أطلق أحدهم صرخة مروّعة من الألم. لغم فجّر إحدى ساقيه. نقل إلى حافة الخندق، وهو ينزف دما. ربطت ساقه برباط لوقف النزيف فوق الركبة. لكن من دون جدوى. الدم لا يزال يسيل. تراءى لي أنه لم يبق له أكثر من خمس دقائق ليلفظ أنفاسه. كنّا نحاول توقيف سيارة مدنية لنقله إلى مستشفى سوق أهراس، عندما انفجر لغم آخر بعيدا عن المكان. هو من نوع الألغام الناسفة. الرجل الّذي حط قدمه عليه احترقت فخذاه وبطنه بشظايا. تُرى من أودى بهؤلاء المساكين إلى تلك المحرقة ؟ قبل تلك الأحداث بأيام قليلة، طلب منّي عبد الرحمن بن سالم تجنيد فيلقي في عملية إزالة الألغام. قلت له : « ليس لرجالي أية تجربة في هذا النوع من الأعمال. إجبارهم على القيام به يعني إرسالهم إلى موت محقق. » استطعت في الأخير أن أقنعه. ولم نعد للكلام عن ذلك منذ تلك اللحظة. سألت الجنود لأعرف من أمر بهذا « التطهير » ومن هم هؤلاء المكلّفون بإزالة الألغام. قالوا لي : « هم حركى. قائد فيلقنا، قاضي قدور، هو من أعطى الأمر ». أمرت بوقف العملية. أشير لي إلى المكان الّذي يوجد فيه مركز قيادة قاضي قدور. استقبلني واستمع لي، واقتنع فورا بحججي. وهكذا أمر بوقف المذبحة.

لم يُعرف مكان في الجزائر ارتكب فيه جيش التّحرير ما يفقده شرفه بالإقدام على الانتقام ممن حملوا السلاح ضد وطنهم. كانت هناك حالات تصفية لبعض المجرمين الّذين عذبوا وقتلوا بأوامر

10. بخصوص شاحنة نقل الجنود لشركة جنرال موتورز (GMC)، خطرت في ذهن صديقي مختار كركب، الّذي كان ربما يريد الوصول بسرعة إلى مشروحة الّتي عيّن فيها، فكرة مجنونة أن « استعارة » شاحنة من إحدى وحدات الجيش الفرنسي. واضطر في الأخير لإرجاعهم لهم.

من ضبّاط مكاتب « لاصاص ». قام بها قرويون خارجون عن سيطرة جيش التّحرير. بالإضافة إلى أن هذه التصفيات لم تكن معمّمة ولا بالأعداد الّتي يدّعيها من كانوا في فرنسا وما زالوا يصوّرون الجيش الجزائري على أنه حفنة من القتلة. ولقد أقيمت للحركي الّذي قُتل في حقل الألغام جنازة لائقة.

بخصوص المزاعم الّتي تناقلها المحنّون للجزائر الفرنسية حول المصير الّذي لقيه الحركى، يبيّن ما كتبه بنجامين ستورا، المختص في تاريخ في المغرب العربي، بأي « إنسانيّة » عاملت فرنسا الرسمية عملاءها :

« إنّ أوّل من استخدم كلمة « التخلّي » كانوا أنصار الجزائر الفرنسية ضد السياسة الجزائرية الّتي أتى بها الجنرال ديغول. لكنها رسخت في الأذهان بشأن الحركى الّذين يشكلون القوّات الملحقة للجيش الفرنسي. قبل 19 مارس 1962، بادر بعض ضبّاط « لاصاص » (الفروع الإدارية المتخصصة، المكلّفة بتأطير سكان الأرياف) بنقل الأشخاص المهددين إلى فرنسا. لكنه جاءت برقية (رقم 125/ IGAA) مؤرخة في 16 ماي تنهيهم عن ذلك : « طلب وزير الخارجية لويس جوكس من المندوب السامي بالتذكير بأن كلّ المبادرات الفردية الساعية لترحيل فرنسيين إلى الأراضي الفرنسية ممنوعة منعا باتا ». تلتها تعليمة أخرى صادرة عن نفس وزير الدولة، بتاريخ 15 جويلية، تنص على أن « الملحقين الذاهبين إلى فرنسا خارج الخطّة العامة سيعاد ترحيلهم إلى الجزائر. » واعترف هؤلاء الضبّاط بالقول : « لقد فقدنا شرفنا مع نهاية الحرب في الجزائر ».

ما من شك أن هناك تصفية حسابات، لكنها لم تكن أبدا على نطاق واسع.

وهذا يحدث في كلّ مكان، بدرجات عنف متفاوتة في أعقاب الحروب، عندما يجد خونة استخدموا في الأعمال القذرة أنفسهم بلا حماية بعدما تخلى عنهم من دفعوهم لمحاربة شعبهم. فرنسا بعد ماي 1945 مع « عملائها »، ويوغسلافيا تيتو مع الأوستاشي، ورجال البوليس التشيك الّذي ساعدوا الغستابو في عهد كالّتينبرونر، والأوكرانيين الّذين خدموا في جيش هتلر ومئات من الأمثلة الأخرى عبر العصور والقارات.

بعد هذا التذكير المحزن باستمرار حرب الألغام، عدت إلى وحدتي مكسور القلب. أصدرت أمرا بالتحرك باتجاه عنابة. وبمجرد وصولنا إلى عنابة، أسكنت رجالي في مرقد ثانوية للبنات. وقدّمت لي المديرة، وهي فرنسية، مساعدتها بصورة عفوية. وقالت لي مندهشة ومبتسمة : « جنودكم أكثر انضباطا من بناتي ! » حاولت الحصول على إذن بالبقاء يوما أو يومين إضافيين في عنابة حتّى تسترجع فرقي كامل قواها. لكن من دون جدوى. سخرت لنا شاحنات مدنية قادتني إلى الوجهة المقصودة.

في صباح اليوم التّالي، وبينما لم يستمتع رجالي سوى بساعتين من الراحة، نقلت وحدتي إلى عزابة. مع العلم بأن إقليم الشمال القسنطيني التابع للولاية الثّانية ليس تحت السيطرة الكاملة لهيئة الأركان. وعليه فأنا موجود في منطقة « غير آمنة » ! لحسن حظي أن طول مدة

إقامتي في هذه المنطقة، لم أسجل سوى حادث بسيط واحد فقط. رأينا عشرات من الجنود مسلحين ومكدسين في سيارات « جيب » (أكيد هي « غنيمة حرب ») يروحون ويغدون أمام المدرسة الّتي رابطت فيها. كانوا دون شك يريدون استفزازنا وهم يصيحون : « جيش الولاية ! » عسكرنا هناك لمدة عشرين يوما. رحّب بنا السكان ترحيبا حارا، وكرمّونا أحسن تكريم. وكانت النساء يحضّرن لنا الطعام بأنفسهن. مع أن المنطقة معروفة بصرامتها وحشمتها. فلم نكن غرباء حتّى تحتجب النساء أمامهم أو يخفين وجوههن، وإنّما كنّا في مقام أبنائهن وإخوتهن الّذين يفتخرن بهم. كنا جد مسرورين بكلّ تلك الثقة والدفء الّذي أُحطنا به. وطوال فترة وجودنا في تلك المنطقة المتمسكة بقيمها وعاداتها، لم ألمس شيئا يوحي بالنفور أو العداء.

بعد عزابة، أخذنا طريقنا باتجاه القل. ذات يوم وبينما كان فيلقي متواجدا في مرتفعات هذه المدينة الساحلية الجميلة، في المكان المسمى « زيتونة »، في مركز قديم للجيش الاستعماري، سمعت ضجيجا في الخارج. هرعت إلى الباب الخارجي. عشرات من النساء متوجهات نحونا. رفعن رايات وهن يهتفن : « لا إله إلا الله ». في البداية، فهمت بأنها مظاهرة مثل كلّ تلك الّتي تقام في شتى أنحاء البلاد. أوفدت أحد رجالي لتحري الأمر. بعد الاستفسار عن أسباب هذه الضجة، عاد ليقول لي بأن هؤلاء النساء يردن زيارة « الحنشة اللّي بلعت رجالنا[11] » (الوحش الّذي ابتلع رجالنا). أعطيت موافقتي على الفور. زرت معهن الأقبية. وراء باب كانت هناك حجرة كبيرة. طلبت إنارتها. المشهد الّذي تراءى لنا تقشعر له الأبدان. لم يكلّف محتلو الدّار القدامى أنفسهم حتّى عناء إخفاء الأدلة على جرائمهم. فالجدران ملطخة بالدماء المجففة والمسودّة. خيوط تتدلى منها أقطاب كهربائية لا تزال معلقة على طاولات حديدية، تكشف فيما كان يستخدم كلّ هذا العتاد. وكان هناك حمام لا يزال ممتلئا بسائل تنبعث منه رائحة كريهة، ومن تلك الرائحة نتكهن ممّا يتركب. حلقات معدنية مختومة على الأرض تبيّن الرعب الّذي عاشه أولئك الّذين كانوا محتجزين هناك. كانت النساء من حولي يتألمن في صمت وكبرياء. وكانت الدموع تغمر وجوههن. وتنهدات كبيرة ترفع الصدور. لو كنّا في زمن آخر، لشرعت في الحفريات للعثور على رفات المعذبين. ولقد اكتشف من قاموا بعد ذلك بالحفر في ساحات الثكنات الفرنسية القديمة، أو في محيطها المباشر، عددا لا يحصى من المقابر الجماعية. هذا دليل على الثمن الباهظ الّذي دفعه سكان الجبال ذات التضاريس الوعرة، حيث ركز الجيش الفرنسي تقريبا كلّ جهوده، أثناء الحرب التّحريرية[12].

سمحت لي هذه الاستراحة الطّويلة في زيتونة بالإطلاع على ما يحدث في البلد. الأمور ليست بالبساطة الّتي قد يتصورها البعض. الحقيقة هي أن الخامس جويلية 1962 كان قطيعة عنيفة.

11. الثكنة الّتي اختفى فيها أزواجهن أو أبناؤهن أو آباؤهن.

12. أكتب هذا والحملة الانتخابية للرئاسيات الفرنسية 2017 في أوجها. مسألة الاستعمار موضوع متكرر في خطابات المترشحين. واليمين المتطرف ينفي الجرائم ضد الإنسانيّة الّتي ارتكبت خلال سيطرة المستعمر الفرنسي لجزء من دول العالم، وذلك باسم فكرة « عظمة » فرنسا و« رسالتها الحضارية ».

مازالت الأقدام السوداء[13] تفر من الجزائر بكلّ وسائل النقل الممكنة، تاركين وراءهم منازلهم وأثاثهم وتحفهم الفنية وسياراتهم. فسياسة الأرض المحروقة الّتي يمارسها مارقو الجيش السري، عجّلت من هجرتهم، وأبطلوا بذلك ضمنا اتفاقيات إيفيان.

ولمّا لم يعد لفرنسا مواطنون تحميهم أو تساعدهم، دارت وجهها عن الجزائر، وتركتها تواجه وحدها مشاكل بلد خرج مما يقرب من ثماني سنوات من حرب مدمرة. الوضع لا يدعو للتفاؤل. ملايين من النازحين، وإدارة مختزلة في أبسط أشكالها بعد رحيل الإطارات الفرنسية، واقتصاد متوقف، وانعدام الأمن يعّم البلد، وعشرات الآلاف من الأسلحة منتشرة في الخلاء. تبيّن الأرقام الرسمية للخسائر، من الجانب الجزائري، الّتي كشفت عنها قيادة الجيش الفرنسي في الجزائر، وأوردها فيما بعد رضا مالك في كتابه « الجزائر في إيفيان »، تكلفة الحرب بالنسبة للجزائريين. « في 23 أكتوبر 1958، قتل 77 ألف جزائري في ساحات القتال، وأسر 60 ألف منهم. في 10 نوفمبر 1959، قتل 145 ألف جزائري في ساحات القتال، وازداد عدد الأسرى بنسبة 30٪. وهذا يعني أن الخسائر الجزائرية تضاعفت في أقل من عام، وأن العام 1959 لوحده شهد سقوط نفس عدد الضحايا الّذين سقطوا في السنوات الأربع السابقة مجتمعة. واستنادا لنفس المصادر، فإنّ الخسائر في صفوف المدنيّين بلغت، في سبتمبر 1959، 600 ألف. وفيما يتعلق بالمحتشدات، يقدّر بول ديلوفريي[14] عدد المحتشدين في مارس 1959 بمليون شخص. في جانفي 1960، قدّره المونسنيور رودان والقس بومونت بمليوني شخص. »

عشية الاستقلال، بلغ عدد الأسرى 40 ألفا في فرنسا و16 ألفا في الجزائر (هذا الرقم المنخفض نسبيا من السجناء في الجزائر راجع إلى إقدام الجيش الفرنسي في الجزائر على تطبيق « الحل النهائي » على الّذين ألقي عليهم القبض والسلاح في أيديهم أو أخذوا في حملات الاعتقال في الأرياف). وإذا أضفنا إلى هذه الخسائر ضحايا سنوات 60 - 61 و62، عندما أطلق الجنرال موريس شال آلته الحربية الجهنمية، نجد أن رقم المليون شهيد غير مبالغ فيه بالمرّة. إنّ ما رأيته في الثكنة الفرنسية القديمة بزيتونة ليس سوى صورة عمّا عانى منه الشّعب الجزائري.

لا تزال الجزائر في غالبيتها بلدا ريفيا. ومع انسحاب مكاتب « لاصاص »، عاد الفلاحون الّذين كانوا مجمّعين في المعسكرات إلى دواويرهم ومنهم من أقام على أراضي المعمّرين. وراحوا يشمّرون على سواعدهم. وبهذه الطريقة نشأ بشكل عفوي نوع من التسيير الذاتي. حُصد القمح. وكان عام 1962 عام الخير. ولم تشهد الجزائر أية مجاعة.

---

13. يقصد بالتسمية الشّعبية « الأقدام السوداء » الفرنسيين المنحدرين من الجزائر، وعموما الفرنسيين من أصل أوروبي الّذين استقروا في إفريقيا الفرنسية الشمالية.

14. بول ديلوفريي Paul Delouvrier، من مواليد 25 جوان 1914 في روميرمونت (فوج) وتوفي في بروفينس (سيان إيمارن) في 16 جانفي 1995، موظف سامي فرنسي في عهد الجمهوريّة الخامسة.

في ديسمبر 1958، عيّن من قبل الجنرال ديغول مندوبا عاما للحكومة في الجزائر مكلّفا بـ« التهدئة » وتنفيذ خطّة « قسنطينة »، وتولى هذه المسؤولية إلى غاية 24 نوفمبر 1960.

كيف، وبأية وسيلة، يمكن للجزائر أن تعيد بناء ما تم تدميره، ولمن ستعهد إدارة دواليب دولة قابلة للحياة ؟[15]

هل أنا مخطئ في اعتقادي بأن الجيش الجزائري الحديث، الّذي شهدت ميلاده ومراحل نموه، يعتبر حقيقة القوة المنظمة الوحيدة القادرة على وضع حد لحالة انعدام الأمن الّتي تأتي في أعقاب الحرب وعلى توفير الموارد البشرية للمؤسسات والإدارات الّتي من شأنها أن تسمح لها بالوجود وبالعمل ؟

منذ أن بدأت الثورة تنمو وتتوسع، لم ينقطع التفاعل والتواصل بين السياسي والعسكري. فمن كان سياسيا، ومن كان عسكريا خلال فترة الصراع الجزائري الفرنسي ؟ كلّ أعضاء جبهة وجيش التّحرير الوطني كانت تحذوهم فكرة سياسية بالمعنى التام للكلمة. وكان معظمهم عسكريين بحكم الضرورة، فكانت المكانة الّتي يحتلها الجيش هي الّتي تهيكل التنظيم السياسي الإداري للثورة (أو ما يسمى النّظام)، من كلّ منافذها المفتوحة على الدوام. ممن تتوقع الجزائر المستقلة الخلاص إن لم يكن من الجيش الوطني، مما يفرغ الشعار المجتر « أولوية السياسي على العسكري » من أي معنى ؟ سأعود للحديث عن هذا الموضوع لاحقا، لأنه موضوع طالما شغل بالي. ولا يهمّني إذا كسرت هنا طابوها من الطابوهات.

كنت لا أزال موجودا في القل عندما وصلني قرار إنشاء مجموعات فرعية، كلّ مجموعة منها مقسمة إلى ثلاثة فيالق. وكلّها تشكل ما يعادل تقريبا فرقة فرنسية. وفي وقت لاحق، يتم تعزيز نفس تلك المجموعات بوحدات دعم وإسناد ونقل، على أمل الوصول إلى مستوى ألوية مشاة آلية. ولكن لم نصل بعد إلى هذا الحد. على الرغم من تنقلات وحدتي عبر الشمال القسنطيني، أقيم مركز قيادة المجموعة الفرعية في الطارف، بقيادة الشّاذلي بن جديد، بمساعدة كلّ من كمال عبد الرحيم وعلي بوخذير وأنا. التحقت بالطارف على رأس رجالي. ثم جاءت أوامر أخرى. يجب علينا التوجه إلى بوسعادة حيث أقام بومدين قيادة أركانه مؤقتا. لا حاجة للمرء أن يكون خبيرا استراتيجيا كبيرا لكي يفهم أن بوسعادة أرضية مثالية لمن يريد أن « ينطلق » إلى الجزائر. بدأت استوعب الغرض من كلّ حركات الذهاب والإياب الّتي نؤمر بها. لاسيما وأنه تأكد لنا أن الجماعتين المتنافستين على السّلطة جرّت وراءها القوّات التابعة للولايات الأولى والخامسة والسادسة وجزءاً من الولاية الثّانية، بالنسبة لجماعة « تلمسان »، والقوّات التابعة للولايتين الثّالثة والرّابعة، بالنسبة لجماعة « تيزي وزو ». لما لم أجد الشّاذلي بن جديد، الّذي كان غائبا لسبب لا أعرفه، تحركت باتجاه بوسعادة عبر قسنطينة وسطيف والمسيلة مع الفيلقين الحادي عشر والثّالث عشر المتكونين من قدامى النّاحية التابعة للقاعدة الشرقية.

---

15. كانت الجزائر في عام 1962 لا تضم سوى بضع عشرات من طلبة الجامعة. ولم تكن هناك سوى جامعة واحدة فقط في كلّ البلد.

في قسنطينة، اعترضتنا حشود من الجماهير الشّعبية. الجزائريون لا يريدون مواجهات بين الإخوة. (سبع سنين بركات !) وكانت تعني : « بعد سنين من المعاناة، وفي الوقت الّذي لا نزال نبكي موتانا ونبحث عن مفقودينا، ها نحن نشاهد ما لم يكن يخطر على بال : أبناؤنا الّذين نجوا من الموت في الجبال، يتقاتلون أمام أعيننا ». الشعار السلمي يرنّ في آذاننا كالعتاب. وكان المواطنون يعبّرون عن يأسهم بحركات استعراضية أثرت في نفوسنا أيّما تأثير. رجال ونساء وأطفال يلقون بأنفسهم أمام عجلات الشاحنات. كم عانينا نحن العسكريون من هذا الشرخ الّذي كاد يلقي بالجزائر في أتون الحرب الأهلية. كيف لنا أن نفهمهم بأنه ما بيدنا حيلة ؟

كيف يمكن أن نقنع هؤلاء الأمهات الثكلى والشيوخ المفجعين بأننا لسنا دعاة حرب أهلية، وإنّما جنود بسطاء لا دخل لهم فيما يحصل ؟ أحسست في تلك اللحظات الحرجة بأن شيئا ما يتغير، ربما الثوب الطاهر الّذي كان الشّعب يُلبسه على الثورة. كان لعلي منجلي، وهو من قدماء إطارات الولاية الثّانية، أتباع وأصدقاء في المنطقة. شاءت الصدف أن كان متواجدا هناك. صعد على قاطرة شاحنة وراح يخطب في الحشد وتوصل إلى تهدئة النفوس. لم نصل إلى وجهتنا إلا بعد يومين فقط، في أولى ساعات المساء، بسبب المظاهرات الشّعبية الّتي أبطأت تقدّمنا.

أقام بومدين معسكره في بوسعادة، وتحديدا في فندق « ترانزات »، رفقة نائبيه قايد أحمد وعلي منجلي. وكان قائدا الولايتين الأولى والسادسة، الطاهر زبيري ومحمد شعباني، يروحان ويغدوان. سألني هواري بومدين إن كان رجالي قد تعشّوا. كان ردّي بالإيجاب ! نسيت أن أضيف : « بالخبز والبطيخ لمدة ثلاثة أيام. » وهي أكلة « مفتخرة ». وقلت لمعدتي الّتي تهمس لي مطالبة بالمشوي (لأننا كنّا في بوسعادة) : « تذكّري السويقة ».

شرح لي بومدين مهمتي وأمرني : « ستذهبون إلى عين حجيلة[16]. سوف تجدون وحدات الولاية الأولى بقيادة الطاهر زبيري. ثم تمشون باتجاه الجزائر العاصمة وفيالقكم في المقدمة ! ». وأضاف بالفرنسية : « صوّبوا البنادق نحو الأسفل، أنا لا أريد الدم، لكن يجب أن نصل إلى الجزائر ! »

كانت المرّة الأولى الّتي أجد فيها نفسي وجها لوجه مع هواري بومدين. خلال سنوات الحرب، عندما يأتي لمقابلة الضبّاط، كنت أفكر في أشياء أخرى غير التدقيق في تقاسيم وجهه أو محاولة تفسير إيماءاته وحركاته. وجهه هو نفسه الّذي عهدته على الحدود : عظمي وحاد، بوجنتين بارزتين وجبهة عريضة وعيون صغيرة خالية تقريبا من الرموش، وشفة ثخينة تكاد لا تتحرك لإخفاء أسنان أتلفها التبغ الرديء.

قد تبدو الهيئة الخارجية الّتي أرسمها عن هواري بومدين مختلفة في كلّ مرّة، أو لنقل « متطورة ». لأن الوجه والطلعة وطريقة التعامل لا تبقى جامدة إلى الأبد. فهي تعكس صورتنا الداخلية تحت تأثير الأحاسيس والأحداث. لهذا كان لبومدين عدة وجوه. شيء واحد فقط لم

16. عين حجيلة، قرية صغيرة في الهضاب العليا.

يتغير قط عنده، هي نظرته. نظرة ثاقبة وثابتة، نابعة من أعماق الإنسان حيث تنشأ الغرائز البدائية لبعض الحيوانات الّتي تعي بأنها إذا أرادت أن تعيش، يجب عليها أن تعض وتسحق. فليس هناك إنسانيّة في نظرات هواري بومدين عندما تقع على من أثار حفيظته.

من خلال نظراته النافذة وسبابته المحتدة في أواخر شهر جويلية هذا في بوسعادة، فهمت أنه مصمم على تذليل كلّ العقبات في طريقه بالقوة. وأكثر من ذلك فهمت أننا قد نضطر لاستخدام أسلحتنا ضد إخواننا. ساعتها، انطلق الفيلقان الحادي عشر والثّالث عشر.

مع بداية الظهيرة، دخل رجال الولاية الأولى في اتصال مع مجاهدين من الولايتين الثّالثة والرّابعة. مئات من الرّجال مجهّزون بمختلف أنواع الأسلحة أوقفهم حاجز هش : برميلان موضوعان على جانبي الطريق تصل بينهما عارضة خشبية. كان هناك ضابط صف برتبة مساعد، قصير القامة ونحيف، متوتر ومزمجر وهو يرفع مسدسا مهددا بإطلاق النار على كلّ من يتجرأ على لمس الحاجز الّذي يحرسه. وعلى منحدر إلى اليسار، يقبع عشرون جنديا وراء جدار من الطوب يحميهم إلى حد الأكتاف، يصوّبون بنادقهم تجاه القادمين الجدد. حاول زبيري التفاوض مع المساعد. لكن من غير جدوى. لم يرد أن يسمع منه شيئا، وهو يردد : « لن تمرّوا ! » كان زبيري يبدو مستاء، لكنه لم يعط أي أمر. فجأة، اندفع أحد رفاقه وهو محمد الهادي رزايمية، وأمسك بـ« حرس الحدود » من بدلته وأزاحه بعنف من الطريق. ولم يكن لرجاله من وراء مخبئهم سوى أن ينكّسوا أسلحتهم. ولحظتها، عبر جنود الولاية الأولى نقطة اللاّعودة، بمعناها الحقيقي والمجازي.

في اليوم التّالي وفي حدود آخر الليل، وصلت بدوري إلى المكان واستلمت قيادة الطليعة خلفا لوحدات الولاية الأولى.

أمرت رجالي بتعليق البنادق على الظهر والفوهات مصوّبة نحو الأسفل، وذلك حتّى نظهر للمجاهدين أمامنا أننا لا نريد إطلاق النار عليهم. كما أنّني كنت بلا سلاح. أملي أن إظهار نوايانا الحسنة سيكون كافيا لإقناع أولئك الّذين يبدو أنّهم يريدون اعتراض طريقنا بألا يستهدفونا. كان الطاهر زبيري جد متأثر وهو يردد باستمرار : « كارثة، كارثة... ! »

حاول الفيلقان اللذان أقودهما التقدّم إلى الأمام، أحدهما على يمين الطريق، والثّاني من اليسار، كما أشرت إلى ذلك قبل قليل، وفوهات البنادق مصوّبة نحو الأسفل. أما الأسلحة الثقيلة فكانت تسير وراءها بمدافع موجهّة نحو الخلف. عندما وصل الفيلق الثّالث عشر إلى مستوى إحدى وحدات الولاية الثّالثة، سُمع دوي رصاص. مجاهد من الولاية الثّالثة حوّل سلاحه على نفسه وقُتل. يا له من سوء الفأل...

لم يُبد مجاهدو الولاية الثّالثة أية مقاومة جدية. فهؤلاء الرّجال الّذين حاربوا قوّات النخبة في الجيش الفرنسي يستطيعون، لو أرادوا، أن يرتكبوا مذابح في صفوفنا. وبالتأكيد ليس من قلة

الشجاعة، بل فهمنا أنّهم لا يرغبون في إطلاق النار على إخوانهم في الكفاح. وعلى الرغم من بعض الحوادث الّتي اعترضتنا، واصلنا طريقنا إلى سيدي عيسى.

قبل دخول سيدي عيسى، أوفدت قدور بوحرارة للاستطلاع مع فصيلة على متن سيارة. والتحقت به بعد ساعة. نحن الآن على بعد بضعة مئات الأمتار من سيدي عيسى.

استُقبلنا بإطلاق نار كثيف. أصبح الوضع خطيرا. احتسبت أنني بعيد عن مرمى النيران، أمرت رجالي بعدم الرد والبقاء في الشاحنات. أصيب أربعة جنود، وسقطوا من المركبات. لم يكن لديّ خيار آخر. أنزلت الجميع واتخذت التدابير استعدادا للقتال. ثم انضم إليّ بقية الفيلق. جهّزت المدافع عيار 75 ملم، وكانت بضعة طلقات تحذيرية كافية للاستيلاء على سيدي عيسى من دون قتال.

في تلك الأثناء، وصل الطاهر زبيري، رفقة حسن خطيب[17]. توجه العقيدان إلى منزل كان بداخله مسؤولون آخرون من الولايتين الثّالثة والرّابعة. وتم الشروع في مفاوضات. في غضون ذلك، تململ جنود الولاية الثّالثة المحاصرون ملوّحين بالانسحاب. أبلغت زبيري بالأمر. طلب منّي أن أسمح لهم بالرحيل.

قضينا الليلة قرب سيدي عيسى على ضفاف وادي يستظل بأشجار الكاليتوس.

أخبرني عناصر الاستطلاع الّذين كلّفتهم بأن جنودا من الولايتين الثّالثة والرّابعة قد عززوا مواقعهم ويبدو أنّهم مصممون على عدم التنازل عن شبر واحد من الأرض. مع من كنّا نتعامل ؟ فهل تعرّض يا ترى من سمحوا لنا بالمرور في الصباح لضغوط من مسؤول ما ؟ علمنا أن محند أولحاج جاء رفقة ضبّاط من الولاية الثّالثة، ليخطب في رجاله.

في صباح اليوم التّالي، استأنفنا الطريق. كنت أنا على متن سيارة مدنية، على رأس رتل من الشاحنات. فجأة، تراءت لي ألسنة نيران منطلقة من أولى سفوح مضيق الديرة. وفتح النار علينا ! وفي الحال، نزل الفيلقان الحادي عشر والثّالث عشر من المركبات ليشرعا في حركة التفاف. كانت هناك معي كتيبة من الولاية السادسة وكذلك ثمانية مدافع رشاشة من نوع « دوشكا » كسلاح دعم على طول الطريق. كان الطاهر زبيري واقفا ومكشوفا، غير مبال بأزيز الرصاص الّذي يصفر تحت أذنيه. طلب منّا أن نمر بالقوة. بعد أربع ساعات من القتال، أدركت أننا كنّا محصورين بين نارين. أكثرية جنودنا تأخروا بسبب كثافة النيران. مما تسبّب لي في خسائر. فقرّرت الالتحاق بمركز قيادة سي الطاهر الواقع على بعد بضعة مئات من الأمتار. ركبت خلف سائق دراجة، أشبه بمغامر أفلام كانت له « البركة » يومذاك، لأننا مررنا دون أن يمسّنا شيء وسط وابل من الرصاص.

التحقت بالطاهر زبيري لأطلب منه تحريك الفيالق الّتي أرسلت لالتفاف. فقام زبيري بتكليف النقيب محمد الصالح بن عباس من الولاية الأولى، بالتسريع من تقدّم الوحدات. كان النقيب

17. حسن خطيب، واسمه الحقيقي يوسف خطيب، قائد الولاية الرّابعة.

بن عباس[18] يرتدي قشابية مخططة، وكان أيضا بلا سلاح. علمت أن سي محمد الصالح تلقى لحظة انضمامه إلى الفيلق الأيسر رصاصة في القلب أردته قتيلا على الفور.

نجحت عملية الالتفاف، فاستطاعت طلقات الأسلحة الثقيلة للفيالق أن تشق لنا الطريق.

في اليوم الثّاني، كان القتال يفوق كثافة كلّ ما شهدته أنا شخصيا أثناء حرب التّحرير. العديد من جنود الولايتين الثّالثة والرّابعة أوقفوا القتال. جاؤوا إلينا من تلقاء أنفسهم، واقتيدوا إلى غاية بوسعادة حيث مقر أركان بومدين. تجمعنا في الليل، ومع مطلع الفجر اتجهنا نحو تلال جبل الديرة. قمت بمحاولة أخرى للإقناع لتجنب سقوط المزيد من الضحايا. أوفدت قائد الفيلق الثّالث عشر قدور بوحرارة لمطالبة من كانوا في الجهة المقابلة بعدم اعتراض طريقنا. خاطبهم بواسطة مكبر للصوت. وكان ردهم أن أطلقوا النار باتجاهه. وما هي سوى بضعة قذائف عيار 75 ملم دون تراجع، حتّى أصبحنا على مرتفعات الديرة. ومنها تتراءى لنا أَعُمَال من بعيد. وحدات من الولاية الأولى، كانت في الصف الثّاني، تقدّمت لتأخذ الطليعة. تقدّمت على طول الطريق بالرغم من تدمير الجسور الّتي تقطع العديد من الأودية الّتي كانت جافة في ذلك الموسم. وفي تلك الأثناء اندفع رجال الولاية الأولى بعد وفاة قائدهم، بالأمس. وكان ردهم عنيفا جدا. من أعالي الديرة أرى ظلالا تطارد ظلالا في البراري. استمر إطلاق النار لكن بصورة متقطعة. وبعدها بفترة ساد الهدوء.

جمعت رجالي واتجهنا نحو سور الغزلان الّتي وصلنا إليها بعد ساعتين من الزمن. حطت مروحية كانت تقل بن بلة. طلب منا بن بلة أن نكفّ عن الرد على إطلاق النار. أطعنا أمره وحاولنا أن ننأى بأنفسنا عن الخطر، ولم يكن ذلك بالسهل علينا. قام من سيكون الرئيس المقبل للجمهورية، متبوعا بالطاهر زبيري، بزيارة المستشفى حيث يرقد العديد من الجرحى. قراره بوقف إطلاق النار جاء، كما علمت لاحقا، على إثر اتفاق عقد في الجزائر العاصمة بين « المتحاربين ». وذهب الطاهر زبيري إلى العاصمة مع أحمد بن بلة. بقينا نحن في سور الغزلان في انتظار المستجدات. ويشهد من لا يزالون على قيد الحياة على مشاعر الحزن والألم الّتي انتابتنا في تلك اللحظات.

في غياب أي أخبار عن مسؤولينا، نزلنا إلى مدينة تابلاط. وبينما كنا نحن في المضيق المؤدي إلى الجبال المحيطة بهذه المدينة، انضم إلينا قايد أحمد، وهو بالتأكيد أُبلغ بتقدّمنا. أكد لنا أن « هناك اتصالات جارية مع قادة الولايتين الثّالثة والرّابعة وبالتّالي ليس هناك داع للتقدّم أكثر. »

هل استطاعت حكمة حسن الخطيب ومحند أولحاج والطاهر زبيري، بالإضافة إلى « صحوة ضمير » بن بلة الّذي كان ربما يدرك أنه يستهل مسيرته السّياسيّة لما بعد الاستقلال بسفك دماء المجاهدين، أن تطفئ نار الفتنة ؟ سيكشف التاريخ يوما عن فحوى تلك « المفاوضات » بين الإخوة

18. محمد الصالح بن عباس، من رفاق أول نوفمبر 1954، قائد النّاحية الأولى التابعة لولاية الأوراس. نجا النقيب بن عباس من جميع معارك حرب التّحرير، إلا أنه مات تحت رصاص إخوانه في السلاح.

الأعداء. فيما يخصّني أنا ورفاقي، لم يكن لدينا أي حكم على مساعي هؤلاء أو أولائك. كلّ رجاؤنا أن تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي وأن يتوقف الاقتتال بين الإخوة. لأن القادة، قادتنا مثل قادة من كانوا في الجهة المقابلة، جميعهم يتحدّثون عن « الثورة ». يستخدمون نفس المفردات. وكلّهم يريدون السعادة للشعب. ولديهم نفس مشروع المجتمع : « وحدة الشّعب، والنهضة الوطنية والتحوّل الجذري للمجتمع. » وما دام الوضع كذلك، نحمد الله على ما نحن فيه. كان شعبنا أعقل من أولائك الّذين يطمحون لقيادته، وكان يقول بأعلى صوت ما كنّا نحن العسكريون نفكر فيه بصوت خافت : « سبع سنين بركات ». كنّا غصبا عنّا أطرافا في مأساة ليست بحكم إرادتنا. إنّ الحسرة الّتي أحس بها وأنا أخطّ هذه الأسطر، هي نفسها تقريبا الحسرة الّتي كانت تعصر قلبي خلال تلك الأحداث المؤسفة. من كان على خطإ ؟ ومن كان على صواب ؟ من كان مخطئا في معارضة الآخرين باستعمال السلاح، ومن كان محقا في الرد عليه بنفس الوسيلة ؟ إنّه ابتداء من تلك الأيام العصيبة توّلد عندي حذرٌ فطري من « السياسة » الّتي يخوضها أصحابها لاعتبارات أنانية. عاهدت نفسي خلال تلك المسيرة الدامية نحو الجزائر العاصمة، على أن أضع دائما مصالح بلدي فوق كلّ الثرثرات الحزبية والحسابات السّياسيّة الضيقة. تذكرت ذلك بعد مرور ثلاثة عقود، لما وجدت نفسي في مواجهة خيارات كبرى. لكن عليّ أن أقول أيضا أنه كان يتملّكنا شعور آخر في تلك الأثناء. كنّا مغتاظين – كضبّاط وجنود – من محاولة منعنا من الوصول إلى العاصمة. لأن الجزائر العاصمة تمثل رمزا وهدفا من أهداف الحرب. الجزائر العاصمة ليست حكرا على الولاية الرّابعة. بل هي عاصمة كلّ الجزائريين. لم نرد دحر الولايتين الثّالثة والرّابعة الّتي نحترمهما لبطولاتهما، هما اللتان تحملتا في عزلتهما الصدمة الأقوى في سنوات الحرب. كنّا نريد أن ندوس بأقدامنا « منتدى الفرنسيين »، المعلم الّذي يرمز لكلّ ما جُرّب ضدنا وألحق بنا الكثير من الأذى. نريد أن نشاهد الشرفة الّتي ألقيت من فوقها النداءات الهستيرية من أجل جزائر فرنسية، والدعوات الوقحة إلى « التآخي » بين الجلاّد وضحيته، وخطابات الوعيد الّتي يلقيها المندوبون العامون والبيانات العارية من أية حقيقة ومن أي تقدير يصدره جنرالات الحرب الشاملة.

وكانت هناك تهمة أخرى تصل إلى آذاننا وتثير حفيظتنا : وهي أننّا كنّا، في نظر البعض، جيشا من « المتهرّبين » و« المرتزقة » في خدمة رجل وجماعته. بوحي من إرادتهم، قرّر هؤلاء الّذين يريدون تلقيننا الدروس محو سنوات من المعاناة والحزن الّتي ذقنا مرارتها، وأرادوا أن يصدوا الباب على ملحمة جزء من جيش التّحرير الوطني. وفاء لأرواح مجاهدي القاعدة الشرقية البطلة الّذين استشهدوا في ساحات المعركة، وقتلوا على الخطوط المكهربة، وأبيدوا على أيدي عساكر شال : السبتي بومعراف، الطيب جبار، يوسف لطرش، فلاقو العياشي، أحمد ترخوش، عبد النور حيدوش، لصنامي وغيرهم من الشهداء، كلّنا عازمون على إيصال هذه الفكرة البسيطة، وهي أننا أيضا الجيش الجزائري ولا شيء يمنعنا من دخول عاصمتنا.

إنّ منعنا من الوصول إلى الجزائر العاصمة هو إهانة لشهدائنا وازدراء بأسلحتنا. أما ما عدا ذلك – أيّ السياسة – فهذا ليس شأننا. كان بالنسبة لنا السير في شوارع الجزائر العاصمة، ومشاهدة المباني الّتي سكنها الفرنسيون منذ فترة طويلة، والتجول في الشوارع الّتي تحمل أسماء الجنرالات الّذين ذبحوا آباءنا وقَهَرْنا « أخويهم التوأمين » في سفوح جبالنا، مصدر ارتياح لا نظير له، وقطعة صغيرة من الاستقلال. أما طلقات النيران الّتي طالتنا والخسائر الّتي تكبّدناها، فهي تقوّي عزيمتنا.

فإذن، واستنادا لقايد أحمد، الأمور سائرة نحو التهدئة. وهذا الخبر أسعد الجميع، لكن لم نصل بعد إلى هنا. احتسابا لما قد تكون عواقب القتال في تلك الأودية شديدة الانحدار أمام قوّات تحتل المرتفعات، فكّرنا في التخلي عن المركبات واتباع مسار التلال، أمتعتنا على الظهر والبندقية في اليد، وهذا ما نتقنه ولا يجارينا فيه أحد. فيما تتولى المدفعيّة، في أسفل الطريق، بتحييد أي عنصر متربص يرغب في توقيفنا. لكن تطورات الأحداث جنبتنا اللجوء إلى هذه الخطّة.

وبعد فترة قصيرة، تلقيت أمرا بالتوجه بالفيلقين اللذين أقودهما نحو منطقة عين وسارة. أقمت معسكري هناك في ثكنة كان الجيش الاستعماري يستخدمها كمعتقل للجزائريين الّذين يقتادون من الأرياف المجاورة. للمرّة الأولى، أكلنا ملء بطوننا، وذلك بفضل الرعاية الّتي خصّنا بها رجال الولاية الرّابعة.

اغتنمت فرصة الاستراحة لزيارة أهلي في سريانة. وكان اللقاء حافلا بالذكريات والعواطف الجيّاشة، واستمر الفرح العائلي أربعين ساعة. بعدما أرهقني العناق، وأنا متخم من الشربة والكسكس ومشبع بالحكايات، فيما كانت نظرة أبي المليئة بالفخر تملأ قلبي، عدت إلى جنودي.

أقمنا معسكرنا هناك، ودامت الاستراحة خمسة عشر يوما. بعد ذلك، رحّلت رجالي وكلّ الأمتعة في القطار المتوجه إلى البليدة. كنت سعيدا لما رأيت أن القطارات لم تتوقف عن السير، بالرغم من رحيل موظفي السكك الحديدية الفرنسيين. في كلّ مكان، كان الجزائريون يجتهدون لتشغيل الآلات الّتي تركها الفرنسيون معطّلة. كان العقيد في نفس المقصورة الّتي ركبت فيها. خلال الرحلة إلى البليدة، لمحت قائد الولاية السادسة شعباني. كان لا يزال في ريعان شبابه، ويكاد لا يكبرني في السن إلا قليلا. متوسط القامة وذا وجه ممتلئ وابتسامة لا تغيب عنه. كثير الكلام، وله صوت بطيء تخرج منه بين الفينة والأخرى تلك النبرة خاصة بالقادة المعتادين على الأمر والنهي. في اللحظة الّتي كنّا نعتقد أنه سيسلّم نفسه، استرجع طاقته في اندفاع ودي ليترك بينه وبين غيره مسافة تدل على صفة الإباء الّتي تطبع شخصيته. لم يكن متاحا لأيّ كان أن يتولى منصب قائد ولاية في مثل سنّه. لأن رتبة عقيد وقائد ولاية في زمن الحرب ليست رتبة بسيطة. فهي تختزل قدرا هائلا من المتاعب والمسؤوليات الثقيلة.

ابتداء من شهر سبتمبر عام 1962، عادت الأمور إلى الوضع الّذي أراده أحمد بن بلة وحلفاؤه من هيئة الأركان العامة. دخل الجيش الوطني الشّعبي إلى الجزائر العاصمة. وفي 20 سبتمبر، قام

المكتب السياسي الّذي عينّ بن بلة غالبية أعضائه، بتنظيم الانتخابات التشريعية. وتم انتخاب مجلس وطني تأسيسي. وبذلك تحقق الانتصار الكامل والنهائي للثنائي أحمد بن بلة-هواري بومدين على خصومهما السياسيين.

عينّ أحمد بن أحمد عبد الغني قائدا على الجزائر العاصمة، ثم نصبه على رأس النّاحية العسكريّة الأولى[19] الّتي تغطي تقريبا إقليم الولاية الرّابعة سابقا، ومقرها البليدة. ففي هذه النّاحية بالذات تلقيت الأمر بنشر جنودي لتغطية المحور البليدة-الأربعاء-بودواو. لأن استعادة الأمن، على الرغم من تنصيب الحواجز، ليست سهلة. أحجز على أي سيارة سائقها ليس هو المالك الشرعي. لم يكن عمل الشرطة هذا مستحبا، لكن طالما أنه ضروري فأدّيته بكلّ تفاني.

أمام انسداد العمل السياسي بأمر من أحمد بن بلة، قرّر حسين آيت أحمد وكان عضوا في المجلس التأسيسي، إنشاء حزب معارض أطلق عليه اسم « جبهة القوى الاشتراكية ». لم تكن التعددية السّياسيّة، لسان حال آيت أحمد، سوى ذريعة لفرض قيادته. في 29 سبتمبر 1963، أدخل أتباعه في ثورة مسلحة ضد سلطة أحمد بن بلة. فانكمشت صورة الزعيم السياسي المحبوب وذي البعد الوطني ليتحوّل إلى أمير حرب في مسقط رأسه بمنطقة القبائل. لم يكن للقتال الّذي دار في صيف عام 1962 طابع الحرب الأهلية لأنه لم تشترك فيها الأهالي. فشعار « سبع سنين بركات » يحمل دلالة كافية على رفض الشّعب الجزائري للمشاركة في الصراعات الدائرة بين المسؤولين. ولا يبدو على آيت أحمد أنّه، بإقحامه جزءاً من سكان منطقة القبائل في دوامة التمرد والفتنة، احتسب لعواقب ما قام به على الوحدة الوطنية.

الأطماع المغربيّة

استغل المخزن المغربي الاقتتال الداخلي على أبواب الجزائر العاصمة ليعلن هجومه العسكري على الجنوب الجزائري في شهر أكتوبر 1963.

بدأت حرب « الرمال ». لم يكن لدينا قوّات كبيرة في تندوف، وهذا ما ساعد المغاربة كثيرا.

في الصفحات السابقة من هذا الكتاب، عندما أشرت إلى « نظرية الحقل المغلق » الّتي طبّقها الفرنسيون من خلال خطيّ « موريس » و« موريس » (أندري موريس وشال موريس، قلت إنّ الهدف هو خنق الجزائر المكافحة للتمكن من التغلب عليها على نحو أفضل. في هذا السياق جاء العرض الّذي قدّمه الفرنسيون للمغاربة والمتمثل في « استرجاع » منطقتي تندوف وبشّار، وإنشاء ما يسمّى « منظمة استغلال المناطق الصّحراوية » مقابل إغلاق قواعد جيش التّحرير الوطني الموجودة في الأراضي المغربيّة... خوفا من انتفاضة شعبه، رفض ملك الغرب الصفقة، لكنه وظّفها

19. في تلك الفترة قسمت الجزائر إلى نواحي عسكرية تتقاطع تقريبا مع حدود الولايات التاريخية القديمة.

للضغط على الحكومة الجزائرية المؤقتة، إلى أن نال من هذه الأخيرة، لأسباب سياسية داخلية، ما لم يمكن أن يقبله من الفرنسيين.

وافق فرحات عباس مُكرها (كان ذلك في أعسر أوقات الحرب) على إبرام اتفاقية مع محمد الخامس، تنص على إعادة التفاوض بشأن ترسيم الحدود مع المغرب بمجرد نيل الجزائر لاستقلالها، مع الأخذ بعين الاعتبار مطالب هذا البلد على منطقتي تندوف حاسي بيضاء بالقرب من برج لطفي. وعندما أدرك الحسن الثّاني، ملك المغرب الجديد، أن الجزائر المستقلة ليس لديها نية لتنفيذ الوعد الّذي انتزع منها عن طريق الابتزاز، أطلق جيشه لغزو المناطق الّتي يدعّي ملكها.

لم يثر العدوان المغربي سخط الأحياء الشّعبية في العاصمة فقط، بل الجزائر كلّها. ففي منطقة القبائل، رأينا أن حب الوطن كان أقوى من نوبات غضب صادرة من آيت أحمد. وفي تلك الأيام، قرّر العقيد محند أولحاج ومجاهدوه مغادرة جبهة القوى الاشتراكية وتجنّدوا للدّفاع عن الوطن المعتدى عليه.

كنت في ثكنة علي خوجة بالجزائر العاصمة، عندما لقي النداء الّذي أطلقه بن بلة « حقرونا ! » في تجمع شعبي، استجابة جماهيرية منقطعة النظير. وأمام زحف الجماهير الّتي تريد الذهاب لمؤازرة الجيش الوطني الشّعبي، وجدت نفسي مضطرا لإغلاق أبواب الثكنة. ومع ذلك استمر تدفق المتطوّعين. تمكنوا من تخطي السور الخارجي. كيف يمكن منعهم من الدخول ؟ كان عزمهم وحماسهم الفياض أقوى من أن يهدئ أعصابهم بابٌ مغلق أو نداءات إلى الحكمة والتعقل. داخل الثكنة، المدنيون مختلطون بالعسكريّين في فوضى لا توصف. بعضهم، لدى وصوله، قال لنا : « هذه مفاتيح سيارتي (أو دراجتي) وهذا عنواني. إذا كنتم لا تستطيعون أن تردوها لأهالينا، احتفظوا بها. فهي لكم ! ». تمكنّا من تشكيل ثلاث كتائب من المتطوعين الّذين سيتوجهون إلى الجنوب. كنت متشائما من الفعالية العسكريّة لهؤلاء الرّجال، أنا الّذي أعرف الوقت والجهد اللاّزمين لإنشاء وحدة قتالية متكاملة. انطلقوا من ثكنة علي خوجة في الجزائر العاصمة بما حملوه على ظهورهم، وهم غير معتادين على الظّروف المناخية في الجنوب الكبير، ولقد وجدت هؤلاء المتطوعين لاحقا في حالة مزرية.

في أولى أيّام « حرب الرمال »، حُوّلت إلى بشّار كمساعد لعبد الرحمن بن سالم الّذي استدعي وعيّن قائدا للقطاع العسكري الشمالي للنّاحية العسكريّة الثّالثة، بعدما انتخب نائبا في المجلس التأسيسي. وعينّ معي الغوثي، وهو ضابط سابق في الولاية الخامسة خلال حرب التّحرير. شنينا هجمات مضادة في حاسي بيضاء. لكن الاشتباكات الأعنف وقعت في مركالة بالقرب من تندوف. استطاع الجيش المغربي، المدجج بالآليات، أن يطوّق مشاتنا من زعاق وأن يحتل مركالة. ولقد أبلى مجاهدو الفيلق الخامس والأربعين، وعددهم 250، بقيادة الملازم بوبكر[20]، بالرغم من ضعف

20. من قدماء تلامذتي في مدرسة تكوين أخصائيي المتفجرات خلال حرب التّحرير وابن مجاهد معروف.

تسليحهم، بلاء حسنا على المرتفعات مثلما تعوّدوا على القيام به خلال حرب التّحرير. سقط بوبكر شهيدا، ودفن في المكان الّذي استشهد فيه. سأل جندي مغربي أحد المجاهدين لما رآه يطلق النار برشاشته على دبابة، وقال له : « أين تعلّمت أنه يمكن وقف دبابة برشاشة ؟ ». رد عليه المجاهد : « هذا ما عندي. لو كان عندي مدفع هاون، فسوف لن تصمد طويلا أمامي[21] ».

خسرنا معركة مركالة، لكننا لم نخسر حرب « الرمال ».

كان الهجوم المضاد الّذي شنّه فيلقنا الخامس والعشرون على المدينة المغربيّة « فقيق » ضربة موجعة للجيش المغربي الّذي ترك أسرى في قبضتنا. ولقد تدخل مبعوثو منظمة الوحدة الإفريقية وممثلون عن دول صديقة تحت نيران الرشاشات للتوصل إلى وقف إطلاق النار. وفعلا توقف القتال بفضل المساعي الحميدة الّتي قام بها هؤلاء الرّجال ذوو النوايا الحسنة.

وانتهى الأمر في الأخير بالجزائر والمغرب بالتوقيع على اتفاق تحت رعاية منظمة الوحدة الإفريقية. وتم بذلك ترسيم الحدود بين البلدين باستثناء شريط من حوالي 50 كيلومترا يواجه جيراننا الصّحراويين. أما مع النيجر ومالي وموريتانيا، فلقد تم ترسيم الحدود نهائيا في غضون عام 1983 - 1984. بقيت ليبيا القذافي الّتي جعلت من قضية الحدود مبدأ « لاحدود » لا رجعة فيه : لا فصل بين الدول العربية ! ومع ذلك، فكانت الحدود الجزائرية الليبيية، من دون أن ترسّم، محدّدة ومحترمة من قبل الطرفين. وسأتطرق لاحقا لمسألة الحدود مع تونس.

عملية التحوّل

كشفت المعارك الّتي دارت لفترة وجيزة بين الجيشين بالقرب من تنجوب وحاسي بيضاء ومركالة، عن ضعف الجيش الوطني الشّعبي أمام جيش يتوفر منذ فترة طويلة على إمكانيات موارد الدولة المستقلة. ولقد حثنا هذا الاستنتاج، في وقت لاحق، على الإسراع في تحويل جيش التّحرير الوطني إلى الجيش الوطني الشّعبي، وما يقتضي ذلك من تحديث وتجهيز. وتم هذا التحوّل من دون أدنى إسهام جديد، عدا خدمات المتعاونين الأجانب، القادمين أساسا من الاتحاد السوفيتي سابقا.

الآثار المترتبة عن « قطيعة » عام 1962 هائلة ومهولة. ولايات بأكملها كانت خارجة عن سيطرة وزير الدّفاع : الثّالثة مع موح الحاج، رأس حربة جماعة « تيزي وزو » خلال صراع صيف 1962، والرّابعة، وعلى رأسها قيادة جد مسيّسة ولا تريد أن ترضخ لأحمد بن بلة. إلا أنه في الواقع لا يتفق مع الطريقة الّتي كان هواري بومدين ينظم بها عمل وزارة الدّفاع. أما شعباني فقد أعلن رفضه لتعيين بعض المسؤولين، خاصة أولئك الّذين فروا من الجيش الفرنسي خلال حرب التّحرير.

21. في أواخر السّبعينات، وبينما كنت في تندوف، اكتشفت إحدى وحدات الجيش الوطني الشّعبي في مركالة رفات الجنود الّذين قتلوا على يد الجيش المغربي ودفنوا بملابسهم. ذخيرتهم الاحتياطية الملفوفة في ورق السيلوفان وفي أقمشة وقطع من الجلد وجدت في حالة جيدة، كأنها خرجت للتو من المخزن.

كان الهدف الأول لهواري بومدين هو تهيئة الظّروف لرحيل قادة الولايات التاريخية[22]، جميع قادة الولايات دون استثناء. كان ذلك ثمن إعادة هيكلة الجيش الوطني الشّعبي وفقا لمخططات التحديث.

لم تكن العملية لا سريعة ولا سهلة بتاتا. بل وقد كلّفت في غالب الأحيان ثمنا باهظا. كان صالح بوبنيدر المدعو « صوت العرب »، أوّل من رحل، بعدما أحس بالخيانة ووجد نفسه معزولا. العقيد عثمان من الولاية الخامسة، الّذي بقي مترددا أيام المواجهة مع الحكومة المؤقتة، أقيل من منصبه دون مقاومة، أما موح الحاج، فتعب من الانسياق وراء آيت أحمد، وغادر مقر قيادته وهو مشمئز من ألاعيب السياسة القذرة والدموية. وغادر أيضا حسن الخطيب، من الولاية الرّابعة، الّذي كان في طليعة المعارضة المسلّحة لبن بلة وحلفائه.

في تلك الفترة، كان الطاهر زبيري لا يزال مقربا من بومدين، وبالتّالي لا يشكل أي عائق. نشأ في العمل النقابي النضالي في الونزة، وكان من مجاهدي أول نوفمبر 1954، وبالتّالي يعرف كلّ مراحل الثورة وكلّ الأزمات الّتي مرت بها. عندما عرض عليه هواري بومدين إدارة الأكاديمية العسكريّة بشرشال، وافق من دون تردد. لأنه يعلم أن وزير الدّفاع كان يحضّر لإعادة هيكلة جذرية للجيش وأن المخططات الهيكلية الجديدة سوف تستعين بجيل جديد من الضبّاط، الأصغر سنا والأكثر إلماما بالشؤون العسكريّة من كبار المحاربين من طينته.

فرض النقص الملحوظ في الإطارات المتكوّنة في المدراس الحربية تعيين كبار ضبّاط جيش التّحرير في المناصب القيادية، وهم يمتازون بشجاعة وعزيمة لا يرقى إليهما شك، لكنهم يفتقرون لأدنى تكوين عسكري تقليدي.

كانت البداية مع هيكل إداري صغير، تحت إشراف عبد القادر شابو الأمين العام لوزارة الدّفاع الوطني، هو الّذي تولى تدريجيا وبعيدا عن الأضواء عملية التحويل من غير موارد بشرية أخرى غير المجاهدين الّذي خاضوا الكفاح من أجل الاستقلال.

كان هناك عدد قليل من الضبّاط الّذين تلقوا تكوينهم في الشرق الأوسط، أو المتخرجين من الجيش الفرنسي، شغلوا مناصب إدارية أو تكوينية. ولقد أدى إنشاء مديريات مركزية تحت إشراف هؤلاء الشباب وترقيتهم إلى مستوى قادة النّواحي، إلى ظهور نوع من اختلال التوازن في القيادة.

ازدادت هذه الحالة تعقيدا بعد ذلك عندما حصلت « التوأمة » بين الحزب والجيش، وخاصة أيضا بسبب حضور عدد من كبار ضبّاط الجيش في مجلس الثورة بعد الاطاحة بأحمد بن بلة. ومن ذلك اليوم، أصبح المسؤولون العسكريون أكثر استعدادا للمشاركة في الحياة السّياسيّة من أداء مهامهم العسكريّة.

---

22. وهم البعض من هؤلاء المجاهدين الكبار بأدوار سياسية، فيما قبل البعض الآخر الرحيل بعد الحصول على قروض بنكية معتبرة.

تزوّد الجيش الوطني الشّعبي بمعدات جديدة : دبابات ومدفعية. وتعزز بإنشاء سلاح جوي وآخر بحري وهياكل لوجستية ملائمة لأهدافها وعملها. وبدأت شيئا فشيئا تتخلص من طابعها المتنافر الموروث من زمن حرب التّحرير. وتحوّل واجب التضحية من أجل الاستقلال إلى الواجب العسكري في سبيل الوطن. وهذا فرق كبير. صار بإمكان القيادة أن تحيل على التقاعد أو تفصل أفرادا من الجيش بمجرد قرار إداري. في زمن الثورة، كلّ الثوار متطوّعون، وسواسية أمام الموت ولا تمييز فيما بينهم. فهم غير مقيّدين بنظام معيّن، وإنّما مؤمنون بقضية تستوجب منهم التضحية ونكران الذات. أما الاختلافات في السن والحجم والقامة والكفاءة والمستوى التعليمي فأمور لا أهمية لها. كلّ ما يهمّ هو درجة الإقدام والقدرة على استخدام البندقية. كذلك، التكتيك الّذي يطلب من الثوري أن يطبقه تكتيك بسيط : أن يتواجد في كلّ مكان على الأرض والبقاء فيه لأطول مدة ممكنة، حتّى ينقل الشعور بانعدام الأمن في معسكر الخصم إلى مداه. لم يكن تقاعد رفاق حرب التّحرير الّذين عشنا معهم أوقات عصيبة أمرا هيّنا، حتّى بالنسبة لصنّاع القرار.

بعد هذه الإقامة القصيرة في الجنوب، ذهبت لمزاولة تكوين في قيادة الأركان لمدة سنة. كنت ضمن الفوج الأول من الضبّاطالّذين أرسلوا بعد الاستقلال إلى موسكو. كان التدريس باللغة الفرنسية بواسطة مترجم. وكنا بموازاة ذلك نتابع تسعين ساعة من الدروس المكثفة في اللغة. ولقد ساعدنا الاتصال بمواطني ومدرسي هذا البلد على تعلّم الروسية. كانت أصداء الكفاح المسلح الّذي خاضه شعبنا قد وصلت إلى روسيا. وساهم حسن الضيافة الّذي يشتهر به المجتمع السلافي بالبقية. وكنّا فعلا محل ترحيب من الجميع. في مدرسة قيادة الأركان، تعلّمنا الجوانب التكتيكية والاستراتيجية والعملية للحرب. كانت الدروس تنتهي على الثّالثة والنصف زوالا، لكننا نواصل الدّراسة حتّى منتصف الليل في بعض الأحيان. وكان لدينا يوم راحة واحد فقط، هو يوم السبت.

سأظل أتذكر هؤلاء المواطنين الموسكوفيين الّذين استضافونا في بيوتهم بحفاوة كبيرة. في يوم عيد ميلادي، قامت العائلة الّتي استقبلتني بشراء ما هو أثمن في السوق القريبة : طماطم وبصل وحتّى فواكه... وهي مواد نادرة في بلد يعيش ثمانية أشهر من أصل اثني عشر تحت الجليد. عشية رحيلنا، أهدت لنا المدرّسات ملاعق خشبية مزيّنة بطريقة يدوية. وهي طريقة مؤثرة أردن أن يودّعن بها من شاركهن لحظات لا تنسى من العشرة الطيبة.

في عام 1964، وبينما كنت متواجدا في موسكو، انفجرت « قضية » شعباني. العقيد محمد شعباني، قائد الولاية التاريخية السادسة، شاب تعوزه التجربة. وليس لديه بُعد النظر التاريخي الّذي يسمح له بتحليل الوضع المعقد المستجد بعد الحرب بموضوعية. فكان التنافس بين كبار قادة الثورة، ودوامة « الغربلة » الفورية الّتي أعقبت وقف إطلاق النار والديناميكيات السّياسيّة الّتي تولّدت عنها مثل التحالفات بين خصوم الأمس، والصراعات بين أقوياء اليوم والرغبة في الانتقام لدى ضحايا أزمة صيف 1962، كلّ ذلك غاب عن نظره وتحليله للأمور. فهو لا يعرف أن أولئك

الّذين كانوا يتزلفون له لا يريدون سوى إدخال رجل عسكري في معادلتهم. وكان معنى عبارة « الاستخدام كأداة » غريبا عليه. هل أصغى لممثلي شركات النفط الفرنسية كما اتهم بذلك ؟ لم أصدّق هذه الرواية يوما وما زلت لا أصدّقها. في الحقيقة، لم يكن لشعباني المسكين هدف محدد، عدا ربما طموح عابر لتولي وزارة الدّفاع الوطني. كان لديه ألف سبب وسبب يجعله يختار طريق التمرد. لكن لم يكن لديه سبب وجيه واحد يضمن له تحالفات أو حتّى ظروفا مخففة يوم وقف أمام القاضي. عارض أول مرّة هواري بومدين، ثم أحمد بن بلة بعد ذلك. وكان مستعجلا في إعلان معارضته، بعدما أغراه خيار التمرد كحل للأزمة. فتعدى الخط الأمر. لكنه لم يذهب بعيدا. طورد وحوصر ثم ألقي علي القبض، وفور ذلك قدّم أمام المحكمة وحكم عليه بالإعدام، ونفذ الحكم فيه رميا بالرصاص في شهر جويلية 1964.

لم تنفعه التدخلات المتعددة للطاهر زبيري وقادة النّواحي، لإنقاذه من الموت. وكانت كلّها تقابل برفض مطلق من بن بلة. كان إعدام العقيد الشاب هو في الواقع تحذير مباشر موجه من بن بلة لأي شخص يجرؤ على معارضته. لقي إعدام العقيد الشاب شعباني إدانة واسعة في صفوف الجيش الوطني الشّعبي. أدركوا جميعا أن بن بلة لن يتوقف عند أي حد لإدامة سلطته.

عدت إلى الجزائر في جانفي عام 1965. وبعد شهر من الإجازة، عيّنت مديرا مركزيا للعتاد في وزارة الدّفاع، خلفا للنقيب بوزادة، الّذي أرسل هو بدوره إلى موسكو.

بعد « هدوء » الساحة السّياسيّة، بدأت تظهر إلى السطح الشروخ الأولى في الثنائي أحمد بن بلة-هواري بومدين.

كان بومدين، نائب الرّئيس ووزير الدّفاع، في رحلة إلى الاتحاد السوفيتي على رأس وفد عسكري كنت أنا من ضمن أعضائه[23]. أبلغنا العربي بلخير[24] بأن الطّائرة الرئاسية الّتي أقلّتنا إلى موسكو عادت إلى الجزائر في اليوم التّالي لوصولنا بأمر من بن بلة ومن دون إبلاغ بومدين بالأمر. ثارت يومها ثائرة بومدين وكانت كعادتها باردة وصامتة لا يخرج منها الخير أبدا. دعانا السوفييت لتمديد إقامتنا حتّى يتسنى لنا المشاركة في الاحتفالات بعيدهم الوطني الموافق للتاسع من ماي. مكثنا في العاصمة السوفيتية شهرا كاملا. وحتّى يزيد من استفزازاته، أمر بن بلة بإرسال وفد رسمي آخر إلى موسكو لتمثيل الجزائر في العيد الوطني السوفيتي، بينما نائب رئيس الجمهوريّة موجود هناك.

23. أمام مأدبة العشاء، ألقى المارشال مالينوفسكي كلمة قصيرة دعا فيها ضيوفه لرفع كؤوسهم. رفع بومدين كأسه لكنه وضعه في الحين. أصر عليه مالينوفسكي، إلا أن بومدين اعتذر قائلا : « لم أشرب في حياتي وليس في هذا اليوم سأبدأ ». وازداد إصرار المارشال : « أعطيك عن كل كأس تشربه دبابة تي 55 ». التفت بومدين نحو ملحقنا العسكري في الاتحاد السوفيتي، المعروف عنه ميله للكحول، وردّ على مالينوفسكي : « في هذه الحالة، ستكون خسارتكم كبيرة، لأن لدينا هنا شخص يمكن أن يخفف عنكم فرقة بأكملها ! ».

24. العربي بلخير من الضبّاط الفارين من الجيش الفرنسي. قائد فيلق في جيش التّحرير الوطني، ثم ارتقى إلى رتبة عميد في الجيش الوطني الشّعبي، وتولى منصب مدير ديوان الرّئيس بن جديد في الثمانينات، ثم منصب وزير الداخلية في التّسعينات.

بهذه المبادرة العجيبة، قام بن بلة بتدويل الأزمة. كنّا نقدّر كلنا قدرة هواري بومدين على التزام الهدوء، حتّى عندما تكون المؤامرة كبيرة. أحس القادة السوفييت بالحرج فقاموا بكلّ مجهوداتهم لتجنب التقاء الوفدين الجزائريين. ختمت « طعنة موسكو » القطيعة الرسمية للتحالف بين الرجلين. ويومها ربما ختم بن بلة أيضا مصيره. في غضون ذلك، قرّر بن بلة تسمية الطاهر زبيري قائدا لهيئة الأركان العامة للجيش الوطني الشّعبي دون علم وزير الدّفاع. ولقد تلقينا الخبر في جريدة « الجزائر الجمهوريّة ». كان تعليق بومدين الوحيد : « ليسوا منطقيين مع أنفسهم »، قال ذلك ثم ركن إلى الصمت.

انقلاب 19 جوان 1965

الخلاف بين أحمد بن بلة وهواري بومدين ناتج في الأساس عن اختلاف في الطباع. فبومدين رجل رزين وكتوم وقليل الكلام، ولا يندفع بسرعة ولا يفعل شيئا دون إعداد الأدوات الموضوعية الّتي تضمن نجاح أي قرار. بينما بن بلة إنسان جموح وهائج ومليء بالرومانسية والعفوية، ومهووس بالخطابات الرنانة أمام الجموع المحتشدة الّتي يشعر أمامها بالنشوة والثمالة ويرى نفسه سابحا في الملكوت الأعلى. يغمرها بعبارات جاهزة من مثل : « جينا رحمة »، و« معجزة » و« حقرونا » و« الحمّام » (في قوله : سنترك البورجوازيين يفقدون شحمهم الزائد بالحمّام)... كان إنسانا نرجسيا ومتقلب المزاج، فوضويا وشعبويا، ومحبوبا عند النساء، يفقد صوابه أمام هرج وبهرجة الساحات العمومية. أحاط نفسه بمجموعة من التروتسكيين والعملاء الناصريين وغرق في نظريات هلامية ومشوّشة أرادها إسلامية سوفيتية جزائرية اشتراكية. فراح يرتكب أخطاء تلو الأخرى. وقطع صلته برفاق سنوات المحنة. وأخذ بوليسه السياسي يعتقل ويعذّب ويفرض الإقامة الجبرية وينفي حتّى رجالات الثورة المرموقين. وقاده نهجه الجنوني إلى أن انقلب الجميع عليه. في نظره، كلّ الصعوبات الّتي واجهته مردّها ضعف إرادة الرّجال وليس الظّروف الّتي يعيشها البلد، فلم يتردد في إقالة الوزراء والولاة ورؤساء البلديات بجرة قلم. وفي إطار مساعيه دائما لإضعاف نائبه وعزله، استهدف رفاقه القدامى الواحد تلو الآخر : مدغري، قايد أحمد، بوتفليقة...

بلغت هذه الدسائس عند بن بلة ذروتها خلال مؤتمر جبهة التّحرير الوطني الّذي انعقد في قاعة سينما « إفريقيا » في شهر أفريل 1964. فقام بعض المندوبين[25]، بإيعاز منه، بمهاجمة بومدين. أعابوا عليه « إعادة هيكلة الجيش مع ضبّاط متخرجين من الجيش الفرنسي ». هواري بومدين الّذي رأى هؤلاء الرّجال الّذين يرمون بالحجارة في الميدان خلال الحرب، رفض هذا التصنيف الجائر للمجاهدين. دافع عن رؤية يكون فيها الجيش الوطني الشّعبي غنيا بجميع روافده وجميع كفاءاته. وجاء عصيان النقيب بوعنان، قائد مقر وزارة الدّفاع، بتحريض من بن بلة. لما علم بومدين بموقف بوعنان المتغطرس إزاء الأمين العام للوزارة، انتقل إلى مقر

25. صاحب أعنف هجوم كان بوعلام بن حمودة من الولاية الرّابعة، الّذي تولى وزارة العدل في السّبعينات.

القيادة العامة الموجود في ساحة أول ماي. وعندما وجد الباب مغلقا، حاول التسلق فوقه. لكن كان هناك ضابط هدده بسلاح. انسحب بومدين ليشرع في الإعداد لخطّة لإخماد التمرد. وفي ظرف 24 ساعة، سلّم بوعنان نفسه[26].

ثم جاء قرار إنشاء الميليشيا بعد ذلك بفترة، لتبين أن بن بلة كان يريد امتلاك قوة عسكرية تابعة له وحده. أسندت الميليشيا إلى الرّائد في جيش التّحرير محمود قنز، وخطت خطوات في التنظيم والتجهيز. كمسؤول للعتاد، استقبلت ذات يوم سفير جمهورية الصين الشّعبية. أخبرني بقرب وصول شحنة أسلحة على متن سفينة قادمة من بلاده. عند قراءتي لبوليسة الشحن، آدهشتني نوعية المعدات المدرجة فيها. فمثل هذه الأسلحة لا يمكن أن يستخدمها إلا جيش تقليدي، وبالتأكيد ليس ميليشيا. هل كان الدبلوماسي يريد من خلالي تنبيه وزارة الدّفاع ؟ وهل كانت الصين تريد من خلال هذه اللفتة أن تثبت أن لديها سياستها الجزائرية الخاصة الّتي يمكن تلخيصها كما يلي : « نحن لا نريد أن نكون طرفا، بشكل مباشر أو غير مباشر، في مواجهة بين الأشقاء في الجزائر الصديقة ». وما زلت أطرح على نفسي هذا السؤال حتّى يومنا هذا.

لم نكن سذجًا، نعرف أن هدف الميليشيا ليس إرسال « البرجوازيين » إلى « الحمّام »، وإنّما لمعارضة الجيش الوطني الشّعبي، الّذي لا يزال متألفا من المجاهدين بنسبة 90٪، بقوة السلاح. في القيادة العليا للجيش، أحس الجميع بخيبة الأمل. فبن بلة هو واحد من الّذين فجّروا ثورة نوفمبر. ويكنّ له المناضلون الوطنيون احتراما وتقديرا كبيرين على التضحيات الّتي قدّمها طوال مسيرته السّياسيّة، والآن يخطط بدم بارد لسفك الدماء من جديد لإرواء عطشه للسلطة المطلقة.

لم تكن فكرة الميليشيا سوى صورة عن مشروع قديم يتمثل في تشكيل قوة مسلحة قادرة على قلب ميزان القوى لغير صالح الجيش الوطني الشّعبي. كانت « القوة المحلية » في فترة ما قبل الاستقلال نموذجا أوليا. أشرت آنفا إلى أن هيئة الأركان العامة قد فهمت جيدا الأغراض الخفية لأولئك الّذين قبلوا في إيفيان بإنشاء مثل هذا « الجيش ». ولم تكن آخر محاولة تجرى لهذا الغرض. فبعد مرور ثلاثة عقود، وسوف أتطرق بالتفصيل لهذا الموضوع في الجزء الثّاني من هذه المذكرات، حاول الإسلاميون الجزائريون مع الجيش الإسلامي للإنقاذ إنشاء قوة عسكرية من شأنها أن تسمح لهم بالالتفاف أو القضاء على الجيش الوطني.

بعدما حلّت الميليشيا إثر سقوط بن بلة، لقينا صعوبات جمة، أنا ومحمود قنز، لاسترداد كافة الأسلحة الّتي تم تسليمها لأفراد تلك الميليشيا.

ابتدأ شهر جوان 1965 بأجواء مبشّرة بالنسبة لبن بلة. فتحت رئاسته سيقام، في الجزائر العاصمة، الاحتفال بالذكرى العاشرة لمؤتمر باندونغ. بدأ يصل رؤساء دول مرموقون. وانتشرت شائعات تقول بأن الرّئيس سوف يعلن عن تغييرات كبيرة في الحكومة. وفهم الجميع أن بومدين

26. حكم على بوعنان بأربع سنوات سجن. وقضى عقوبته في سجن سيدي الهواري بوهران. بعد انقضاء مدة سجنه، احتفظ به في الحجز برسالة « مختومة ».

هو على لائحة الّذين سيتم إعفاؤهم. لم يفكر بن بلة أن لا أحد سيحاول القيام بأي شيء ضده عشية موعد دولي بمثل تلك الأهمية. هو واثق أشد الثقة. سافر إلى وهران لحضور مباراة لكرة القدم كان نجمها اللاعب الأسطوري بيلي. ثم عادت به الطّائرة إلى الجزائر العاصمة...

عشية يوم 19 جوان، على الساعة الرّابعة مساء، استدعاني العقيد شابو إلى مكتبه. كان يحمل وثيقة في يده. هو أمر عملي. تصفحته على عجالة. مهمتي هي إعداد الدّبابات المودعة في الدار البيضاء من النّاحية التقنية مع تفريغ شحنها ثم السهر على حفظ النّظام والأمن في الجهة الغربيّة من الجزائر العاصمة، المنقسمة إلى قطاعين. أما الجهة الشرقية فأسندت إلى النقيب الشريف جغري. وكلف سليمان هوفمان بتنصيب الدّبابات في المواقع الحساسة بالعاصمة. حينها أعطيت إشارة الانطلاق لعملية الإطاحة ببن بلة.

أخذت موقعي في مديرية العتاد، محاطا بضبّاط من الجيش والشرطة والدرك. اتفقت مع جلول خطيب، مدير تشريفات الرّئيس، أو قُل الأمين العام، على كلمة السر الّتي سيُعلن بها عن نجاح العملية. في يوم 19 صباحا، كلّمني خطيب على التلفون : « العصفور في القفص ». فهمت أن كلّ شيء تم كما خطط له.

عندما غادرت في الصباح وزارة الدّفاع، الّتي أذهب إليها في الفجر، رأيت المواطنين مستائين. كأن نظراتهم تقول : « صبّحنا مع مشاكل جديدة ! ». عند عودتي إلى مكتبي، وجدت رسالة تخبرني بأن الطلبة يتظاهرون في تافورة. كان النقيب علي بلعزيز في منطقة قريبة. دخل وسط الشباب وراح يرقص على أهازيجهم. ولما تفاجؤوا من المشهد الغريب لصاحبنا، تفرقوا. هذا دليل على أن الفكاهة أفضل بلسم للأمزجة المعكرة. في عنابة، كان رد الفعل الشّعبي أكثر عنفا. في مثل هذه الأحداث، يمكن لتدفق الجماهير وعدم التحكم في الوضع المتصاعد، أن يسببا في مآس. لأن هناك للأسف سفكا للدماء.

في اليوم التّالي، أوقفتُ مسؤول جهاز الأمن القومي المصري قرب فندق « أليتي » (السفير حاليا). وفي تلك الأثناء، كانت هناك غواصات مصرية على الحدود من مياهنا الإقليمية. طلبوا منّا الرسو للتزود بالوقود. وكان جوابنا بالرفض. فهمنا لماذا اقتربت هذه الغواصات بتلك المسافة من سواحلنا ولماذا كان رئيس الأمن المصري متواجدا في الجزائر العاصمة.

غضب المصريون من الإطاحة ببن بلة، فطلبوا منا أن نعيد لهم طائرات « ميغ 15 » الخمس الّتي قدّموها لنا هبة غداة الاستقلال.

مصير آخر للجزائر

في غضون عامين، كان بمقدور نزلاء سجن أولنوي الخمسة أن يرسموا للجزائر مصيرا آخر، إلا أنّهم اختفوا من الساحة السّياسيّة بعدما تناحروا وتقاتلوا بلا رحمة. كان بن بلة خائفا

من منافستهم، فأخذ يعزل رفاقه في الكفاح وزملاءه في السجن، الواحد تلو الآخر، قبل أن يُعْزَل هو بدوره. أدخل السجن. وقبله آيت أحمد. فيما كان خيضر في منفاه بجنيف. أخذ معه غنائم حرب جبهة التّحرير الوطني الّتي رفض إرجاعها. كانت أيّامه معدودة. أما محمد بوضياف، الّذي أسس الحزب الاشتراكي الثوري، فحكم عليه بالإعدام في عام 1964، ولجأ إلى المغرب. بقي رابح بيطاط، الّذي ظل لفترة طويلة صامتا، ثم انضم إلى السّلطة المنبثقة من حركة 19 جوان. كيف كانت ستتطور الجزائر لو فكّرت النخب السّياسيّة والعسكريّة للثورة في إيجاد مخرج سلمي للأزمة ؟ لكن عجلة التاريخ لا تعود إلى الوراء.

في نفس السّنة، وبينما كنت لا أزال مديرا للعتاد، كلفني بومدين بنقل المعدات العسكريّة المخزّنة على ضفاف نهر النيل إلى الجزائر. بعد أن تركت الملازم عبد الرحمن بن عطية يسبقني بشهر، استأجرت باخرة وحجزت مكانا في طائرة متوجها إلى مصر.

في القاهرة، اتصلت بالقائم بأعمالنا. وبعد عدة اتصالات، وُجّهنا نحو قسم العتاد التابع لهيئة الأركان المصرية، وذهبنا إليه في سيارة السفارة. أُدخلنا إلى مكتب المسؤول. وجدناه في اجتماع مع مجموعة من الضبّاط. تجاهلنا وواصل حديثه. كنا جالسين في زاوية، في انتظار أن ينتبه إلى وجودنا. استمرت اللعبة ربع ساعة. أخيرا، دار بكرسيه نحونا وطلب منا إعلامه غرض زيارتنا. شرحت له أننا جئنا لاسترداد عتاد جيش التّحرير الوطني الّذي كان مخزّنا في مستودعاتهم. فردّ علي بكبرياء : « لقد تركتوه لنا. ولدينا وثيقة تثبت ذلك ». طلبت منه رؤية « الورقة ». دعاني للعودة في اليوم التّالي في نفس الساعة. سوء استقباله لنا منعنا من مصافحة اليد الّتي مدّها إلينا.

استرجعت الورقة في اليوم التّالي بعد أن وقّعت على وصل. كان قرار تسليم عتادنا لمصر من توقيع العقيد بن عودة، الملحق العسكري لسفارتنا في القاهرة، بما في ذلك المعدات الثقيلة، وأحدثها الّتي تبرعت بها الصين والاتحاد السوفيتي. أما الباخرة الّتي استأجرتها فعادت من الإسكندرية محمّلة بخردوات. وأظهر تقدير تقريبي أن السلطات المصرية قد استولت على كمية كافية من الأسلحة لتجهيز جزء هام من وحداتنا للمشاة والمدفعيّة في ذلك الوقت.

فور وصولي إلى الجزائر، قصدت الرّئيس بومدين. بعد قراءة الرسالة، اعترته نوبة غضب لم يسيطر عليها إلا بصعوبة كبيرة في حضوري. لم أفهم كيف يمكن لملحق عسكري أن يوقّع على وثيقة بمثل تلك الأهمية دون الرجوع إلى رئيسه : وزير الدّفاع !

في ليبيا حيث نملك أيضا عتاداً، لم تعترضنا أية مشكلة.

بعد عودة النقيب بوزادة من تربصه، استدعاني عبد القادر شابو. عرض عليّ البقاء على رأس مديرية العتاد. لم تكن لدي استعدادات خاصة لمهنة أمين المخازن. والمنصب لا يناسبني. قلتها لشابو، فحوّلت إلى هيئة الأركان الّذي يوجد مقرها في شارع فرانكلين روزفلت، بالقرب من فندق سان جورج (الجزائر حاليا) بلا مهمّة محدّدة. كان الطاهر زبيري، قائد الأركان، محاطا بضبّاط

شباب أكنّ لهم كلّ الاحترام والتقدير لماضيهم في صفوف جيش التّحرير، لكنني لا أشاركهم أفكارهم. الجو ثقيل في شارع فرانكلين روزفلت. الرّائد عمار ملاح الّذي يلعب دور نائب زبيري يقود حملة حقيقية ضد وزير الدّفاع ومسؤولي مختلف مديريات الوزارة. نحن في عام 1966، وفتيل النزاع مع المغرب بدأ يشتعل من جديد. طلبت الذهاب للإشراف على إحدى الوحدات القتالية. وقُبل طلبي. أخذت قيادة لواء المشاة الميكانيكي الثّاني، الّذي يغطي قطاع عملياته مناطق المشرية وعين الصفراء والبيض سيدي الشيخ، مقابل الحدود مع المغرب.

14 ديسمبر 1967

كنت في عين الصفراء عندما حاول العقيد الطاهر زبيري، بعد أزمة دامت شهرين، الإطاحة ببومدين. سمعت بما كان يدور في الجزائر العاصمة يوم 3 نوفمبر من العام نفسه. طلب الشّاذلي بن جديد، قائد النّاحية العسكريّة الثّانية، منّي ومن عبد القادر عبد اللاوي مرافقته إلى حفل استقبال نظّم على شرف الملحقين العسكريّين الأجانب. وخلال الحفل الّذي أقيم في نادي الضبّاط في الرايس حميدو، وضعني لكحل عياط في الصورة : إن قائد الأركان لم يحضر احتفالات أوّل نوفمبر. بل ولم يشارك حتّى في الاستعراض العسكري التقليدي. وكان العقيد عباس هو من أشرف على الحفل في مكانه.

كما أعطاني العقيد محمد الصالح يحياوي، الّذي التقيته عدة مرات خلال شهر رمضان هذا العام، تفاصيل أخرى. حسب قوله، حاول معارضوا بومدين دفعه لتغيير موقفه إزاء بعض المسائل. مسائل تدور، كما هو الحال دائما، حول القيادة. تريد هذه الشخصيات أن تضع بومدين في موقف الأقلية داخل مجلس الثورة وذلك بتحريض أعضاء جماعة « 20 جوان » على التصويت ضده، وهم الأعضاء الّذين انضموا إلى مجلس الثورة بعد الإطاحة ببن بلة. رفض بومدين اجتماعا كان هدفه المعلن تقويض شرعيته. تعقدت الأمور على بومدين عندما أدرك أن بعض قيادات الجيش لا تريد تحديد موقفها وبقيت تترقب.

قضيت الليلة من 3 إلى 4 نوفمبر في الجزائر العاصمة. في اليوم التّالي عدت إلى عين الصفراء، لكن أصداء ما كان يطبخ في العاصمة وصلتني. مجالس الحرب شائعة في أوقات الأزمات. وبعد بضعة أيام، علمت أن ضابطا جاء سرا من باتنة، نظّم اجتماعا في منزل أحد الضبّاط في مشرية مع حفنة من الرتباء لهم علاقة بالمجموعة الّتي تحوم حول زبيري. هذا لم يقلقني كثيرا مع ذلك ؛ لأن الوحدات الّتي أشرف عليها منضبطة والذخيرة المستعملة للدبابات والمشاة موجودة داخل ثكنة في مشرية تحت إمرة النقيب أحمد جنوحات وهو معروف بالتزامه الشديد بالشرعية. أكد لي أحد قدماء المجاهدين، الملازم أحمد خوجة من الوحدة المدرعة، أنه عقد فعلا اجتماع، موضحا أنه لا يعرف التفاصيل، إلا أنه متأكد أن الأمر يتعلق بإعداد حركة تمرد. وحسب قوله، يوجد قائد كتيبة

واحد فقط يميل إلى صف آنصار زبيري. وطالما أن الذخائر تحت حراسة أمينة وأن طاقم الدّبابات في عناية جيدة، كنت مطمئنا.

كان الشّاذلي بن جديد، بعد كلّ لقاء له مع بومدين، يطلعنا أنا وعبد اللاوي، قائد لواء المشاة الأول المتمركز في سيدي بلعباس، على تطورات الأزمة. في الليلة من 14 إلى 15 ديسمبر، وعلى الساعة الثّانية صباحا، اتصل بي هاتفيا ليبلغني بأن الوحدات الموالية لزبيري هي في طريقها نحو الجزائر العاصمة. وحدات تابعة للّواء الأصنام، تحت قيادة العياشي حواسنية، ووحدات من المدية يقودها قارة معمر ومن خميس مليانة بقيادة عبد السلام مباركية، متوجهة نحو البليدة. الانقلاب محكوم عليه بالفشل مسبقا. فهل من الممكن لدبابات جرارة أن تقطع مسافة أكثر من 200 كيلومتر من دون حاملة دبابات ؟ والنتيجة أن فيلق الدّبابات الأول، الّذي يعد رأس حربة العملية، ترك معظم آلياتها على الطريق بعدما نفد وقودها.

كما وقف في وجه الانقلابيين متربصون في كلّيات الهندسة، ووحدات موالية ورجال درك إلى جانب سريّات تابعة للطيران. وما هي سوى بضعة ضربات بالبازوكا وقذائف من طائرات « ميغ 17 » و« ميغ 21 »، حتّى تشتت المتمردون في الجبال المجاورة، تاركين وراءهم الدّبابات والمركبات.

في تلك الأثناء، انتحر سعيد عبيد، قائد النّاحية العسكريّة الأولى، الّذي لم يفلح في ثني قادة الفيالق الثلاثة المذكورة أعلاه على الانضمام إلى زبيري. ولم يكن لقائد أركانه، العقيد ماضوي، وضابط الأركان رشيد عيسات، وهما من أقرب معاونيه، وكانا لهما مكتبان مجاوران لمكتبه، سوى أن يعاينا وفاته. وبموته خسرت الجزائر ضابطا موعودا بمستقبل مشرق.

لم تكن هيئة الأركان في عهد زبيري تشكل في الحقيقة خطرا على هواري بومدين ؛ لأن هذه الهيئة تحت قيادة زبيري، كانت من حيث الصلاحيات قوقعة فارغة. فلم تكن لديه سلطة مباشرة على الوحدات. أما الخطر الّذي كان يهدد هواري بومدين فكان من طبيعة أخرى ؛ يكمن في العلاقة الشخصية مع الضبّاط. لم يستطع بن بلة أن يأتي بين هواري بومدين ومختلف القادة العسكريّين. لكن زبيري، كضابط خارج من الصف، ومحترم لماضيه وشجاعته، ومحبوب لنزاهته[27]، كان يتمتع بشعبية كبيرة في آوساط معظم إطارات الجيش الوطني الشّعبي، وحتّى لدى قادة النّواحي. لقد أعطت مواجهة 14 ديسمبر 1967 الفرصة لهواري بومدين لأن يزيح من طريقه منافسا داخل المؤسسة وليس خصما سياسيا. بعد فشل زبيري، ظهر هواري بومدين بمظهر مختلف. فكان التحوّل سريعا وعميقا. وفي ظرف وجيز، أظهرت السّلطة الشخصية والمطلقة ومن غير منازع، رئيس المجلس الثوري في وجه آخر.

27. بعد مرور أشهر على رحيل زبيري، وصلتني أنباء عن حالة اختلاس في الجيش، وقلت بصوت عال وواضح وأمام عديد من الضبّاط : « الطاهر زبيري كان على حق ». نقلت هذه الجملة إلى هواري بومدين، وتسببت لي بعض المشاكل.

الفرقة الثانية للمشاة المحمولة جوا

في هذا الجزء الثالث من الكتاب، أحكي كيف شاركت الجزائر وجيشها، قبل خمسين سنة، مع الأشقاء المصريين في أحلك الأوقات الّتي مرّ بها تاريخ مصر بعدما أغرق هول الخسائر وشدة الإحساس بالذل، في أعقاب حرب الستة أيام، الشعوب العربية في الحزن وألبسها الحداد.

دامت حرب الاستنزاف عدة سنوات. وكانت ردا على القصف الإسرائيلي الذي قضى على قسم هام من قيادة الجيش الثاني وأدى إلى مصرع قائد الأركان المصرية، عبد المنعم رياض، مقابل الإسماعيلية يوم 11 مارس 1969. لم تكن حرب الاستنزاف بالنسبة للجيش المصري مجرد حرب بقاء، بل خاضها على امتداد خط وقف النّار 1967، الّذي يربط قناة السويس ببور سعيد وبور فؤاد، وتشمل كذلك، ولو بأقل حدة، جزءًا من سيناء. إذا كانت إسرائيل هي الّتي فرضتها في الأول، فإنّ المصريين الّذين انكبوا على إعادة تشكيل جيشهم، وجدوا في هذا الاستفزاز من قبل الإسرائيليين فرصة لتحويلهم إلى هدف حربي، كما يشير إلى ذلك المشير الشاذلي، قائد أركان الجيش المصري[28]، ولمسته أنا بنفسي.

كان الإسرائيليون من شدة ثقتهم في قدرات طائراتهم الهجومية، وتفوّق وحداتهم المدرعة، وسرعة تعبئتهم، والاستجابة الفورية لقيادات أركانها، وقد أعماهم ازدراؤهم للآخرين، لم يعيروا اهتماما خاصا بتحركات الجيش المصري الذي لا يفوتنا أن نثني على شجاعته وتفانيه وتضحياته.

ساعدت حرب الاستنزاف شيئا فشيئا على محو الآثار الّتي تركتها حربَا 1956 و1967 وساهمت في إنجاح حرب « الستة أيام » الّتي حققت هدفين هامين، ويتمثلان عبور خط بارليف ثم هدمه وساعد على إنجاز العبور الأكثر نجاحًا من كل عمليات العبور قاطبة.

كان للجيش الوطني الشعبي شرف عظيم أن يكون إلى جنب الجيش المصري عندما بدأ، بعد فترة من التجربة والشك في قلب شكل جديد من أشكال الحرب، يستعيد الثقة في قدراته.

لم تستطع الصور الّتي كانت تبثها القنوات التلفزيونية الغربية على مدار الساعة، والّتي تُظهر صحراء سيناء مليئة بالأحذية، أن تحطم معنويات الجنود المصريين، بل ضاعفت من إرادتهم للتغلب على الشدائد.

سأذكر في الصفحات التالية ما أنجزه اللّواء الثاني التابع للجيش الوطني الشعبي الّذي كان تحت قيادتي في أوج حرب الاستنزاف، كما أحيّي شجاعة وبسالة رجال المدفعية الّذين نالوا إعجاب جنود الجيش المصري الثّاني والألوية السودانية والفلسطينية الّذين رأوهم في الميدان. وأحيّي كذلك الطيارين المتأهبين دائما على الخط بين القاهرة والجزائر، محوّلين طائرات « أنطونوف 12 »

---

28 « من وجهة النظر العسكرية، هدفنا كان أن نرفع معنويات جيشنا الذي كان محبطًا من جراء هزيمته النكراء بأن نكبد خسائر لعدو جد حساس للخسائر في الأرواح .» عن اللّواء سعد الدين الشاذلي في كتابه : « عبور السويس »، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.

الصاخبة إلى حافلات حتّى لا يفتقر إخوانهم الّذين يقاتلون على الجبهة إلى أيّ شيء. وأخيرا أحيّي جميع وحدات الجيش الوطني الشعبي الّتي سبقت اللّواء الثّاني أو جاءت بعده إلى مسرح الحرب في الشرق الأوسط.

سخّرت الجزائر لمدة تقرب عشر سنوات، من 1967 إلى 1975، جيشها وأموالها وعتادها لتجسيد تضامنها مع مصر الشقيقة. وأنا أكتب هذه الأسطر، وبعد مرور خمسين سنة على ملحمة مصر، آلاف من أعضاء الجيش الوطني الشعبي السابقين الذين تعرضوا لإصابات أو أصيبوا هناك بداء البلهارسيا الرهيب، تظاهروا في الجزائر العاصمة للتذكير بحجم تضحياتهم والمطالبة بالاعتراف بحقوقهم. أغتنم هذه المناسبة لأعرب لهم عن محبتي وتضامني.

وفي وقت لاحق، عندما عبّرت الجزائر عن رأيها في مسعى سياسي يخدم مصالح مصر وحدها، حل الغضب والكلمات الحادّة الّتي عبّرت عنه محل الاحتجاجات الودية وأنست موقف الجزائر وحضورها في معترك الأحداث.

إنّ الصفحات الّتي أذكر فيها هذه الفترة من مشواري العسكريّ هي أفضل دليل على أن الدّفاع عن القضايا العادلة والأخوة في الكفاح هي قيم لا تموت، لأنها تذهب إلى أبعد من تقلبات السياسة والصراعات الظرفية.

عندما بلغت الشتائم ذروتها، كان رد هواري بومدين بأسلوب واحد مصبوغ بالعظمة والكبرياء ؛ فأمام جنود الجبهة في مدرسة طفراوي، حيث أقلعت الألوية إلى مصر، قرأ أسماء الغائبين، أسماء الّذين تركوا شبابهم في رمال السويس.

ماي 1967، في صحراء سيناء

في يوم 5 جوان 1967، اندلعت الحرب بين العرب والإسرائيليين. وقبل ذلك بخمسة عشر يومًا، كنت رفقة وفد عسكري جزائري في مدينة العريش، بصحراء سيناء، حيث حضرت مناورةً عسكرية كبيرة. كانت ثاني زيارة لي إلى مصر. الزيارة الأولى، كانت في إطار دعوة من الجيش المصري للبلدان الأعضاء في المنظمة العسكرية الأفريقية الّتي كان مقرها في أكرا عاصمة غانا[29].

رحلتي الثانية إلى مصر كانت أكثر أهمية. ذهبت، كما أسلفت القول، خلال شهر ماي 1967، قبيل اندلاع حرب الستة أيام، وذلك في إطار تكوين عسكري، بالإضافة إلى زيارة مدارس التدريب،

29 كنا في فجر الاستقلال نثير فضول الجميع من حوالينا. ليس فقط لأن الثورة الجزائرية تخطت الحدود، لكن لأنّنا أيضاً كنا نرتدي البدلات القتالية، بحيث لم تكن قد سلمت لنا بدلات الخروج بعد. أتذكر أننا حينما كنا نتناول الطعام في مطعم فندق « شيبيردس » حيث كنا نقيم، كان هناك رجل يجلس ليس ببعيد عنا، يحدق فينا بشكل مُلِحّ وخفي، إلى أن جاء يوم كسر فيه العربي سي لحسن اللغز وكنا في انتظار المصعد. تبين لنا أن هذا الرجل الفضولي الذي ظل يلتهمنا بنظراته لأيام طويلة، كان فقط متشوقا لرؤية جزائريين عن قرب، هو الذي سمع عنهم الكثير. كان هو عبد القادر إسكر، فرنسي من أصل جزائري، وهو مخرج سينمائي ذاع صيته بعد ذلك كثيراً، وكان سعيداً بلقاء أبناء وطنه.

دعونا لمشاهدة مناورة كانت تجري في سيناء، بالقرب من مدينة العريش. شارك فيها اللّواء عبد الحكيم عامر، نائب الرئيس ووزير الدّفاع المصري وألقى كلمة في ختام العملية بثت على الإذاعة. كان عرضًا ضخمًا. أهداف الدبابات أصيبت كلها بحيث كان يتصاعد منها كل مرّة نار ودخان. المستندات النّارية، سواء كانت مدفعية أو جوية، كانت تتقدم كما لو أننا فوق حقول الرّماية. وكانت تحركات القوّات الأخرى تتم كما لو أنها في استعراض. كل ذلك كان يملأ الجمهور الحاضر اعتزازًا واطمئنانًا.

دعونا لمشاهدة مناورة كانت تجري في سيناء، بالقرب من مدينة العريش. شارك فيها اللّواء عبد الحكيم عامر، نائب الرئيس ووزير الدّفاع المصري وألقى كلمة في ختام العملية بثت على الإذاعة.

كنّا في أوج الصراع بين الدول العربية وإسرائيل. وكانت مصر قد قررت حظر مضيق تيران على الملاحة الإسرائيلية، واعتبرت تل أبيب هذا القرار إعلان حرب. وفي مواجهة عنتريات القادة العرب، قامت إسرائيل بعيدا عن الأضواء بحشد قواتها وتعزيز تحالفاتها. كل القنوات الأوروبية نشرت رسائل مشفرة موجهة إلى جهات كانت تبدوا للجمهور غامضة. كان المتطوعون يتوافدون بجميع وسائل النقل إلى إسرائيل ؛ من الضباط الفرنسيين الّذين يريدون الانتقام في مصر على جبهة التحرير الوطني، وقدامى المحاربين اليهود الأمريكان في الحرب العالمية الثانية، المتخصصين في الإرسال والمدرعات والمدفعية، وطيارين تدربوا في كوريا يحملون جنسية مزدوجة لكنهم يهود قبل كل شيء قبل أن يكونوا هولنديين أو بولونيين أو إنقليز أو ألمان، وكل من يعادي العرب، كلهم تضاربوا موعدا في إسرائيل. وعشية قيام حرب « الستة أيام »، أصبح الجيش الإسرائيلي الجيش اليهودي. والجميع يعرف وجهته. وكلّ له دوره. تنظيم محكم لم يترك شيئا للصدفة. وكان هناك شعار واحد : « تدمير جميع القوّات العربية بضربة قاضية واحدة! ».

عند عودتي إلى الجزائر، رددت لمن في محيطي بأن المصريين كانوا الأقوى وأنّهم، في حال نشوب نزاع، سوف ينتصرون بلا أدنى شك. كنت ناشئا في هذا المجال، وكنت مليئًا بالحماسة. وكان إيماني أن نهاية إسرائيل محتومة. وكان المصريون يردّدون بقولهم « شربة مية »، من فرط ثقتهم في أنفسهم. كم كنت مخطئًا، لأني سرعان ما اكتشفت بأن المصريين اعتادوا تزييف الحقائق والمبالغة مما يعطي انطباعًا خاطئًا عن جيشهم. عرفت فيما بعد أنّها في الأخير ليست سوى مسرحية هزلية. المصريون كانوا قد أخفوا براميل من الوقود خلف أهداف الدبابات وجميع الرميات كانت محددة ومهيأة سلفًا. وراء كل هذا السيرك كان هناك هدف واحد : كسب رضا القائد.

ورأينا تمثيلية أخرى، تتمثل في نشر وحدة مكافحة الغازات، حيث يتحرك الجنود شبه عراة تحت بالوعات من الماء الساخن. هل كان في نيتهم أن يدفعوا بالسيناريو أبعد من ذلك ؟ تجب الإشارة إلى أنه كان بجانب المصريين آنذاك مدربون سوفييت لم يكن هدفهم نقل التكنولوجيا

بقدر ما كان للإبقاء على نظام يسعى أولًا وقبل كل شيء لتمديد بقائه على الأرض وأيضًا لبيع تجهيزاتهم. لم يكن غريبًا أن يكون السوفييت قد نقلوا مثل تلك الأساليب التمثيلية للمصريين بالقدر الّذي يشتهون ويملأ لهم عيونهم.

كنت قائدًا على النّاحية العسكرية الثّالثة، عندما عادت في ذهني ذكرى تلك الأيام أثناء مناورة للمدرعات حضرها عدد كبير من الضباط التابعين لمختلف النّواحي العسكرية، وكذلك الرئيس الشاذلي بن جديد. الجنرال السوفييتي المكلف بالمدربين جاء خصيصًا إلى الجزائر العاصمة. تعرفت عليه لأني التقيت به قبل ذلك بتندوف. اندهشت عند رؤية كمّ هائل من القذائف من نوع BM 21، المشهورة باسم « أراغن ستالين »، في حين كان يكفي إطلاق بضعة رميات لأن الأمر كان يتعلق بما يطلق عليه في اللّغة العسكرية بـ « رميات تجريبية ». وتقام لأهداف إيضاحية وتعليمية فقط، لاسيما وأن الذخائر نفيسة الثمن. كان الجنرال السوفييتي محصورًا بين الرئيس والضباط المنظمين لتلك المسخرة، غير مرتاح، وهو يختلس النظر باتجاهي. كان يعرف بأنه لن أجامله عندما تأتي لحظة تقييم التمرين، وهو في ذلك لم يخطئ. بعد انتهاء المناورة، عرضت عليه وجهة نظري وأبديت له عدم اقتناعي لهذا الأسلوب في العمل. أخذني الجنرال على انفراد وقال لي بالروسية دون أن يقنعني بكلامه : « ”No chto tavaritch younas Président !“ لكن يا رفيق، الرئيس هنا ». أصبت بالدهشة. لأنّه بالأحرى صار مسموحًا أن تشوه الحقيقة، طالما أن الرئيس كان يحضر مناورة.

هل كان المصريون ضحايا سوء نية السوفييت أم أنّهم كانوا متواطئين في هذه التزييفات غير النافعة وغير المجدية ؟ على أيّ حال، كان ذلك أحد عوامل هزائمهم المتكررة ضد الإسرائيليين.

وفي يوم 6 جوان 1967، اندلعت الحرب بين العرب واسرائيل. في ذلك الحين، كنت في الجزائر العاصمة. كنت أتتبع جزءًا من وقائع المعركة انطلاقًا من مقر المحافظة السياسية، وكان المقر الوحيد الذي يتوفر على أجهزة الكتابة عن بعد. وكانت تصريحات المصريين الانتصارية تتوارد بشكل غير منقطع. مع ذلك قرّرت أن ألتحق بوحدتي في الجنوب الغربي في حالة ما إذا احتاجتني قيادة الأركان. في طريقي أرغمني عطب في السيارة للتوقف في مدينة الأصنام (الشلف حاليًا)، وهناك سمعت عبر الإذاعة بأن الجيش الإسرائيلي دخل مدينة العريش التي كنت قد زرتها في السابق. فهمت بأنّهم خسروا الحرب، لأن اجتياح العريش يعني أن الإسرائيليين تخطوا واقتحموا آخر صروح المصريين. في المساء وصلت إلى وحدتي. قائد أركاني، المرحوم محمد أوسليمان كان ينصت إلى جهاز الراديو على مدار الساعة وكان يستمع أكثر للمحطات التي تنشر « الأخبار السارة ». كنت عارفًا بالنكسة، لكن لا أحد يريد أن يصدّق. محمد أوسليمان الذي عرف مدارس الشرق الأوسط، كان لحظتها منقسمًا بين واقع الحرب المر وعواطفه الخاصة. مزيج من الحسرة والأمل الزائف.

في الغد ظهرًا، علمنا بأن القاهرة قصفت وأن الجنود الإسرائيليين وصلوا قناة السويس. على الطاولة، كانت الإذاعة تقصفنا بالأخبار المفجعة. لم يكن لأوسليمان سوى أن يسلم بالأمر

الواقع فراح يجهش بالبكاء. دخل الثورة وهو صغير السن، وكان ذلك منذ أول يوم من اندلاع ثورة نوفمبر 1954 فهذا الرجل الذي يعد من الرعيل الأول من المجاهدين، وكنت أقدره وأحترمه كثيرًا، لم يكن يقوى على مقاومة دموعه أمام ما كان يعتبره مذلة لكل العرب. كان للخبر أثر الصاعقة على الجميع، إلى درجة أن هناك من مات بأزمة قلبية. كما علمنا عبر الإذاعة بأن هناك فتيات حاولن الانتحار بإلقاء أنفسهن من الأعالي.

استعدادات للحرب

كانت ترد إلينا أوامر تحضرنا للالتحاق بالشرق الأوسط. مجموعات حاشدة تحت قيادة النقيب عبد الرزاق بوحارة كانت تستعد للطيران إلى مصر، ولقد سبقه الرائد زرقيني وضباط آخرون أُرسِلوا كمستطلعين. كنا في حالة تأهب حينما أعلمنا بأن وجهتنا هي مصر. كنا آنذاك نملك ثلاث فرق مشاة متحركة، الأولى بقيادة النقيب عبد القادر عبد اللاوي، والثّانية كانت تحت إمرتي، وأما الثّالثة فكانت تحت قيادة النقيب محمد علاق.

بالإضافة إلى قوّاتها البريّة، قامت الجزائر أيضًا بإرسال قوّاتها الجويّة.

النقيب محمد بوزغوب، وهو حاليًا عقيد متقاعد، كان يقلع من إحدى قواعد الجنوب الشرقي للجزائر مع سربين من طائرات « ميغ 17 ». بالإضافة إلى خمسة عشر طائرة من طراز « ميغ 21 » كنا اقتنيناها حديثًا وكان يقودها مصريون. فور هبوط طائراتنا « ميغ 21 »، حضرت بسرعة وأرسلت لتوها إلى مهمتها. الطائرات المصرية حطمت كلية على الأرض. إحدى الطائرات « ميغ 21 » الموشحة بالراية الجزائرية أسقطت فوق تل أبيب. والأدهى والأمر بالنسبة للمصريين، زيادة على كل الشائعات الّتي تروج حول نكساتهم، ما روي خطأً أن الطائرة الوحيدة الّتي مست إسرائيل كانت طائرة جزائرية.

تعزيزاً لمجموعة النقيب بوحارة، كانت هناك فرقة عتاد كبيرة بقيادة النقيب سليم سعدي، مدير النقل آنذاك، تبعتها عبر الطريق البري. عند وصوله إلى ليبيا، تلقى النقيب سعدي أمرًا بالعودة فور علم السلطات في الجزائر بنهاية الحرب. في طريق العودة، وجدوا استقبالاً آخر لدى التونسيين الّذين كانوا في الذهاب قد استقبلوا القوافل بالزغاريد والأزهار والحلوى، ليس لأنّ الجيش الجزائري عاد من حيث أتى، وإنما لأن التونسيين مثلنا جميعًا شعروا بالذل والهوان لما علموا بأن العرب انهزموا بتلك السرعة. كانوا من شدة احتقانهم وقفوا طول الطريق مشيرين بأصابعهم المرفوعة باتجاه الشرق بحركة لم تخلُ من السخرية تدل أن رجالنا أخطؤوا الطريق لأنّ مصر موجودة في الاتجاه المعاكس.

شكّلت هزيمة الجيوش العربية صدمة كبيرة في الجزائر وأثارت موجة غير مسبوقة من الغضب والسخط في أوساط الشعب الجزائري. والسؤال البسيط والمأساوي في الوقت نفسه

الّذي يعود على كل الألسنة : كيف يمكن لبلد صغير مثل إسرائيل أن يهزم، في غضون أيام قليلة، ثلاثة جيوش عربية ؟ وبمجرد أن هدأت النفوس، كان يجب مواجهة الحقيقة وطرح الأسئلة الصحيحة. لم تتمكن الأنظمة العربية المسؤولة عن هذه الكارثة من خلق الأدوات العسكرية القادرة على مواجهة الجيش الإسرائيلي. قام بعض الخبراء العسكريين بتحليل مجريات العمليات، وفي استنتاجاتهم درسوا العوامل التالية : الأصل الاجتماعي للغالبية العظمى من الضباط، وتدريب الجنود، ومتانة سلسلة القيادة، وكفاءة القيادات العسكرية، ونوعية الأسلحة، ومستوى التحكم في التقنيات، ومعنويات الجنود، والعوامل التي تدخل في تماسك وقوة الجيش والّتي يمكن تلخيصها في بضع كلمات : يجب أن يدرك الجيش بأنه هو آخر حصن يدافع عن الأمّة. وعلى كل هذه النقاط، كانت الغلبة للجيش الإسرائيلي.

ماذا كان ينقص الجيوش العربية ؟ حب الوطن ؟ بالتأكيد لا. هل هي إذن الشجاعة ؟ لقد أتيحت لي الفرصة أثناء إقامتي على جبهة قناة السويس، التعرف على قيمة الجندي المصري. ماذا إذن ؟ كانت الجيوش العربية ضحية عجز قياداتها والديماغوجية والحسابات الضيقة الّتي أعمت القادة السياسيين عن موازين القوى الحقيقية، وضحية فشل أجهزة المخابرات الّتي تهتم بالمعارضين السياسيين أكثر من انشغالها بالتهديدات الخارجية، وضحية الثراء الفاحش لفئة من الضباط. ومن يتلاعب كثيرا يدفع ثمنه غاليا بمجرد أن يغادر الادعاءات الكاذبة لمواجهة الواقع. التقييم السياسي للوضع في إسرائيل، الّذي قامت به الحكومة المصرية، كان خاطئا. وكانت المعادلة مطروحة بهذه الصيغة البسيطة : مصر خالدة، وإسرائيل تحس بنفسها هشة ومحاصرة. ويمكن لمصر أن تفقد كل الحروب، لكن إسرائيل لا تسمح لنفسها بأن تخسر حربا واحدة. وكان عبد الناصر يثق أشد الثقة في تحصيناته الدبلوماسية، لكن إسرائيل لم تكن مبالية ؛ لأن الدولة اليهودية ستستخدم حينئذ كلّ الوسائل، وكلّ الدسائس والحملات التضليلية لدرء شيء واحد تخاف منه : الهزيمة العسكرية !

لم يكن الرئيس هواري بومدين من طينة الرجال الذين تثبط عزيمتهم في أول معركة خاسرة. فشرع في تحركات لإنقاذ الموقف، وذلك بتكثيف الضغط على الحلفاء السوفييت. ذهب إلى موسكو وطلب من بريجنيف عدم التخلي عن مصر « أعيدوا تسليح الجيش المصري، والجزائر ستدفع جميع الأسلحة التي ستزوّدونها ». لقد تفاعل هواري بومدين مع الحدث، وهو المعروف ببرودة دمه الأسطورية، في تلك المناسبة، مثلما تعامل أوسليمان وتعاملت أنا وكل الجزائريين، وذلك بأن استسلم للعاطفة. والعلاج ليس في الإلقاء بآلاف الأطنان من الأسلحة على ضفاف النيل، وإنما كان من المطلوب أولا أن تقوم مصر بمراجعة نفسها وترتقي بنفسها إلى مرحلة أخرى، وأن يذهب المسؤولون عن هذه النكبة، وأن تبرز نخب عسكرية جديدة، وأن يقوم المصريون أنفسهم بتقييم الأوضاع المريرة، مهما كان حجمها. بعد ستة أيام من بدء القتال، لم يعد للطيران العربي

تقريبا أي وجود، واحترقت الدبابات المصرية والأردنية والسورية في سيناء، وفي الضفة الغربية ومرتفعات الجولان. كما كسبت الدولة اليهودية أراضي جديدة تعادل ثلاث أضعاف ما كان لها. احتلت سيناء وغزة والأردن والقدس الشرقية. وبغضّ النظر عن التكلفة المادية الرهيبة، هناك الآثار المعنوية والنفسية لهذه الهزيمة. ولقد تركت صورة أحذية الجنود المصريين الفارين المتناثرة في صحراء سيناء أثرا عميقا في الذاكرة[30].

في الواقع كان بومدين يعرف، وهو الذي عكف على إعادة بناء جيش مفكك ومنحط معنويا، أن الأمور ليست بهذه البساطة، ولا سيما في السياق الجيوسياسي السّائد آنذاك. لم يؤمن بالصحوة الفورية للجيوش العربية، لاسيما وأن لا أحد منها تراجع خلف خطوط يسهل الدّفاع عنها، بل كان يؤمن بالحرب الشعبية وقالها لعبد الناصر. ونصح بتوريط الجيش الإسرائيلي في النسيج العمراني للمدن العربية، واستهدافه بآلاف العمليات الفدائية، وإجباره على أن يكون في كل مكان في وقت واحد، وباختصار وضعه في مواجهة الشارع العربي، ولعمق شمال إفريقيا وللجماهير الإسلامية المتكاثرة والمتحمسة. ذلك أنه ليس لديه لا القدرة البشرية ولا الإمكانيات العسكرية ولا التحالفات اللازمة للدخول في مثل هذه المغامرة. إلا أن عبد الناصر، الذي يرى القاهرة وهي على وشك السقوط، كانت لديه مقاربة مختلفة للأشياء. في الحقيقة، إن عبد الناصر هو حاكم كبير، وهو قائد كل وجهاء الجيش والإدارة والنّظام في مجمله، ولم يكن ولم يرد أن يكون ثوريا. ولقد أخطأ بومدين في الشخص ؛ فليس كل من يريد أن يكون هوشيمين هو هوشيمين. عندما وجد نفسه الريس الكبير وبطل العروبة والتضامن العربي أمام الجدار، تراجع أمام الحل الحقيق الوحيد. لا يريد الحرب الشعبية، لأنها تعني الثورة وما تحملها من اضطرابات.

كانت الجزائر تريد حل المشكلة من أساسها : فلسطين. أما عبد الناصر فكان يريد استرجاع سيناء. كان بومدين يسعى من أجل غاية سامية، فيما كان عبد الناصر يرمي إلى هدف صغير. هو كل الفرق بينهما...

توقف الجيش المنتصر على ضفاف القناة لتجنب الوقوع في الفخ الذي كان بومدين يأمل أن يراه واقعا فيها. وفي وقت لاحق، خلقت له غزة الصغيرة الكثير من المتاعب، بحيث فضل الخروج منها، والاكتفاء بمحاصرتها عن بعد حتى استتبعه الموت وليس الاختناق. ولقد أعطت غزة الدليل القاطع، بعدما انسحب منها الجيش الإسرائيلي، على أن بومدين في عام 1967 كان على حق.

شرع الجيش الإسرائيلي في تأمين قناة السويس، وتهيئة الأراضي المحتلة حديثا. ومما زاد الطين بلة، أن فرديناند ديليسبس، الرجل الذي أنجز القناة، قام بتكديس الأتربة الناتجة عن الحفريات على الضفة الشرقية من الممر المائي. ومع مرور الزمن وتراكم أقدام المارة، وأحيانا

30 في الواقع، تخلص المشاة المصريون ببساطة من أحذية غير مناسبة لطبيعة الأرض الّتي كانوا يحاربون فيها. والحديث عن « الذعر » افتراء وليس حقيقة.

بسبب سوء الأحوال الجويّة، أصبح الردم صلبا ومتينا، ويشكّل جدارا مرتفعا من عدّة أمتار. ولقد استغله الجيش الإسرائيلي أحسن استغلال وصنع منه حاجزا كاملا من المخابئ والمواقع للمدفعية والدبابات والتحصينات المختلفة، والأسلاك الشائكة والألغام.

في أكتوبر عام 1968، تلقيت أمرًا بالاستعداد للذهاب إلى مصر وباستخلاف الفرقة الّتي كان يقودها النقيب عبد القادر عبداللاوي. بينما كانت مجموعة النقيب بوحارة وفرقة النقيب عبداللاوي تتناوبان على مدار كل ستة أشهر، كانت القيادة الجزائرية، ربما بعدما رأت أن الحرب قد يطول أمدها، قررت أن تكون الإقامة في المستقبل لمدة سنة لكل فرقة، على أن يبقى كل العتاد هناك، فالاستخلاف يخص الرجال فقط. كان قرارًا حكيمًا، لاسيما وأن الجزائر كانت جغرافيًا بعيدة جدًا عن الشرق الأوسط وأن وحداتها خلال حرب « الستة أيام » جاءت بعدما انتهى كل شيء...

كان عناصر اللّواء الثّاني يعرفون أنّهم ذاهبون إلى الجبهة في مصر، وكلهم راحوا يعلقون على الموضوع، وكلهم كانوا فرحين بالسفر إلى بلد أصبح مثار اهتمام كبير سياسيا وعسكريا. كان عليهم بعض القلق، لكن ليس كثيرًا لأن الحرب يعرفونها جيدًا، هم الذين خاضوا كم من معركة في حياتهم. لأن معظم عناصر وحداتنا الذاهبين إلى الشرق الأوسط مروا بحرب التحرير.

كانت فرقتي تتألف من ثلاثة فيالق، كل فيلق يتشكل من ستمائة رجل، ومن فيلق يضم 31 دبابة من طراز « تي 55 »، ومن فوج مدفعية (بطاريتين ذات مدى بعيد معيار 122 ملم وبطارية قذائف 152 ملم)، ومن فوج دفاع مضاد للطيران وبطاريتين أنبوبيتين 35 ملم وبطارية 14,5 ملم فوق عربات رباعية. وكانت تتكون أيضًا من خمس كتائب نقل وإرسال واستطلاع للقيادة والخدمات. وتلقينا في وقت لاحق كتيبة سادسة للهندسة.

كان الإقلاع يتم من القاعدة الجوية بـ« طفراوي »، المحاذية لمدينة وهران في الغرب الجزائري. وكان مبدأ المناوبة واضحا وبسيطا، فالفوج الآتي يستلم مهام الفوج الذي انتهت مهمته وهكذا دواليك، ثم جاء الدور على وحدات القيادة وقيادة القوّات نفسها. وكان قائد اللّواء آخر من يسافر، لأنه مكلف بتحميل الجميع. وكانت العشرون يوما المخصصة للمناوبة كافية للجميع لأخذ التعليمات، سواء كانوا ضباطا أو ضباط صف أو رجال فرقة، وكان الوقت كافيا بالنسبة إليهم ليتعودوا على التجهز للحرب، في حين كان قائد اللّواء آخر من يسافر لأن مهلة اليومين تُعتبر جد كافية لحفل تسليم المهام والصلاحيات.

مكثت في مدينة وهران، حيث كنت أقيم أحيانا في مقر إقامة الضباط وأحيانا عند بعض الأصدقاء، وكنت أستريح في الصباح وألتحق بالوحدات العسكرية التي تصل إلى وهران بعد الزوال، وذلك في منطقة التجمع والانتظار. وكان ذلك يتم في ثكنة مجاورة لمدرسة « طفراوي » وقد وضعتها القيادة تحت تصرفنا. وكانت تتميز بكونها فسيحة الأرجاء ونظيفة، كما أنها كانت مجهّزة لتمكن الوحدات المارة من الإقامة فيها ليلة أو ليلتين من أجل الاستراحة، وكانت كذلك مهيئة لتحضيراتهم وتزويدهم بالمعدات.

كانت وهران في أوج ألقها وجمالها، وكان الفرنسيون قد غادروا مرسى الكبير قبل المدة المحدّدة ولم تجد بيوتهم المهجورة من يسكنها. وكانت شبابيك النوافذ في الشقق التي تخلى عنها المستعمر في « فالمي »، وهي قرية كنت أمر عليها مرتين في اليوم عندما كنت أتوجه إلى « طفراوي »، كانت شبابيك النوافذ تصطفق بفعل الرياح وبسبب عدم وجود السكان. وقتها، لم يكن الهجوم واقتحام البيوت والمساكن أمرا شائعا. ولم يبدأ « النزوح » إلا غداة الثورة الزراعية.

كنت قبلها قد استقبلت امحمّد بن شرشالي، محاطا ببعض الضباط، في قاعدة « المشرية » أثناء التوقف للتزود بالوقود. وفي تلك الفترة، لم تكن وضعية حدودنا الغربية على ما يرام، ولم تكن جراح « حاسي البيضاء »[31] قد التأمت بعدُ، وكان امحمّد يشيع طائرة استطلاع من طراز « ياك2 » حول منطقة « تندوف » وكنت سعيدا بلقائه، لأنه قد كان، إضافة إلى الصداقة التي تربطنا، طريفا وجذابا ووديا، كما أنه كان سريع التجاوب وحاضر البديهة فيما يتعلق باختيار الكلمات المضحكة والطريفة.

وقد كان سليل عائلة ميسورة الحال تشتغل في التبغ وتضررت من سياسات التأميم. وكان والده وطنيا من الطراز الأول ومنذ الساعات الأولى، وتحول من صاحب أملاك إلى موظف في مصنعه، وقد قدّمت عائلة « بن شرشالي » الكثير للجزائر، حيث استشهد أخوه مصطفى في الجبل عام 1957، كما أن امحمّد نفسه كان مجاهدا، وكذا شقيقه نور الدين.

كان اللّقاء في قاعدة طفراوي مع الضباط الطيارين، وأغلبهم كانوا رفاقي في السلاح، حارا. وكنا نشترك في أشياء كثيرة كانت تجمعنا، فلقد كنا لامبالين، وهذه اللاّمبالاة هي الّتي كانت تمنحنا اندفاع الشباب وحماسته، وكنا نحلم بمشاريع كثيرة.. لم نعرف المراهقة ولم نقدم أبدا على ما يفعله الشبان في أعمارنا، مثل الجلوس في سطح مقهى أو الذهاب إلى الأماكن المشبوهة، الّتي كانت الأخلاق التي تربينا عليها تمنعنا من ذكر حتى أسمائها. وكنا جد حذرين كلما خرجنا في بعض النزهات.

عندما جاء موعد الذهاب إلى الجبهة المصرية، جلست أراجع نفسي قليلا. ما هي المشاريع الشخصية الّتي حققتها ؟ ولا مشروع واحد. لكن لا يهمّ ! لدي أثمن الكنوز : أربع أو خمس سنوات غنية في صفوف جيش التحرير الوطني، سنوات حافلة بالتجارب واللّقاءات مع رجال رائعين، فارقنا الكثير منهم.

كنا نسافر أنا ورجالي على متن طائرة « أنطونوف 12 »، وكنا نُسند بطائرات مصرية. وكان الضباط طرابلسي وجيلالي تيمولغي، وهما حاليا طياران ضمن الخطوط الجويّة الجزائرية، وسْليم بن عبد الله الذي شغل لفترة طويلة منصب طيار الرئيس وهو حاليا عميد لا يزال ضمن الخدمة،

31. اسم المكان (البئر) الواقع على الطريق الرابط بين بشار وتندوف وتتخطّى الحدود الجزائرية المغربية. احتلاله من طرف القوّات المغربية أدى إلى اندلاع حرب مع الجزائريين عام 1963 (بعد نيلنا للاستقلال مباشرة)، والمعروفة باسم « حرب الرمال ».

ورشيد بوتلّة ومحمد بولهزاز ومصطفى دواجي ودرّاجي وصويلح ضمن آخرين نسيتهم، وهم جميعا في التقاعد، كان أولئك هم الذين يقودون الطائرات الست التي كنا نملكها في ذلك الوقت.

لقد كان أولئك الطيارون في زهرة عمرهم وهم يجوبون السماء معرّضين حياتهم للخطر وهم لا يملكن سوى بعض التجربة التي تحصلوا عليها بعد خروجهم من المدارس. لقد امتطوا طائراتهم دون تردد لأنّهم اعتقدوا أن حلمهم حقيقي. وكانوا مرابطين على الثغور ليل نهار، على مدار تعاقب الوحدات العسكرية الجزائرية في الشرق الأوسط. لقد كانوا يحلقون في أوضاع جد مزرية، متحدين الأعاصير على علو 4000 متر من سطح الأرض[32].

في يوم من الأيام كان الملازم الأول محمد بولهزاز على متن طائرة « أنطونوف 12 » وفجأة تعطّل رادار الملاحة منذ الإقلاع من المطار العسكري بطفراوي، وأكمل رحلته وهاجسه الوحيد هو الوصول في الوقت المحدد، وكان يأمل في أن يُجري الإصلاحات على الطائرة عند توقفه في بن غازي أو في طرابلس بليبيا، ولكن لما لم يتمكن من ذلك كما خطط له واصل رحلته إلى القاهرة مستعينا بجهاز إرساله اللاّسلكي ليتجنب العواصف، وقد كان يتجنبها مناورا ذات اليمين وذات الشمال مستدلا عليها بالصوت الذي يصله عبر السماعات جراء الاضطرابات الكهربائية.

كنت متواجدا في الطائرة التي كان يقودها سْليم بن عبد الله، وبعد غفوة صغيرة وعلى مقربة من القاهرة دخلت إلى قمرة القيادة، وتفاجأت وأنا أرى ضوءا أزرق يغطي قبة الطيّار، وسألتُ الطيّار عن معنى ذلك فأكّد لي بن عبد الله بأن هذا أمر عادي وهو عبارة عن الكهرباء الساكنة التي تتولد جراء بعض الظروف المناخية.

وتعلمت، في نفس الموقف، أن الطائرة التي سبقتنا، وهي من نفس الطراز، قد أصيبت بصاعقة، وكان يقودها محمد طرابلسي الّذي أعلمنا بالأمر فور حدوثه عبر جهاز اللاّسلكي، واضطربت الطائرة كما تشكلت كرة نارية داخلها، مما أحدث هلعا في صفوف الـ90 جنديا المتواجدين بالداخل كادوا يهربون إلى المقدمة لولا التدخل القوي للطاقم الذي حال دون حدوث اختلال توازن داخل الطائرة. وأعلمنا طرابلسي مرة أخرى عبر الجهاز اللاّسلكي أن الأمور عادت إلى طبيعتها دون أي حادث. عندما حطت بنا الطائرة بعد عشرات الدقائق من هذه الواقعة، تجمع حولنا ضباط جزائريون ومصريون، ولمحتُ مع سْليم بن عبد الله تمزقا في هيكل الطائرة التي تعرضت للصاعقة يمتد من أنفها إلى كافة الهيكل، فأصابنا الذهول وعرفنا أنهم كانوا جد محظوظين عندما لم يُصابوا بأيّ أذى.

كل أسبوع، تحط في القاهرة طائرة من طراز « أنطونوف 12 » مكلفة بالإمداد. وفي رحلة أخرى، اهتدى أحد أولئك الطيارين الشباب وقد وجد نفسه في أحوال جوية سيئة للغاية وعرف أنه لا يمكنه التحليق في هذه الظروف على هذا الارتفاع ولا يمكنه حتى الرجوع إلى القاعدة،

32. لقد كانوا يحلقون في أوضاع جد مزرية، متحدين الأعاصير على علو 4000 متر من سطح الأرض، ولم يكن في طائراتهم سوى قمرة قيادة صغيرة مكيّفة الضغط ولا يمكن أن تحمل أكثر من عشرات الأشخاص الجالسين.

اهتدى إلى تجميع كل الرجال المتواجدين داخل الطائرة في قمرة القيادة مكيفة الضغط وحلق بهم على ارتفاع 8000 متر، وهذا ما جعله يتجنب سوء الأحوال الجوية ويُنقذ طائرته وعددا كبيرا من الأرواح البشرية.

طوال فترة وجود ألويتنا في مصر، ما بين سنتي 1967 و1975، كانت الحكومة الجزائرية هي المتكفلة بها. وكانت للألوية مسؤول مكلف بالمالية قيّد حسابه في أحد البنوك المصرية، ومدعوم من قبل الخزينة الجزائرية. علما بأن العلاوة وغيرها من العلاوات، هي نفسها للجميع. وهي تعادل تلك الممنوحة في الجزائر، مما يرفع مستوى معيشة المجندين إلى ثلاثة أو حتى أربعة أضعاف.

يتوفر اللّواء على شقة في العاصمة المصرية، وسيارة خدمة.

على الجبهة

في 11 مارس 1969، قررت مصر رسميا إنهاء وقف إطلاق النّار، لكن في واقع الأمر، لم تتوقف المواجهات منذ جوان 1967.

أطلق على هذه المرحلة من الصراع العربي الإسرائيلي اسم « حرب الاستنزاف »، وكان الرئيس جمال عبد الناصر هو الذي أطلق عليها هذه التسمية حيث قال في خطاب له : « لا أستطيع أن أجتاح سيناء، لكني أستطيع تحطيم معنويات إسرائيل بالاستنزاف ». وبدأت الحرب بقصف مدفعي ثم السلاح الجوي بعدما بادرت إسرائيل إلى استعمال الطيران في هذه المواجهة. وأسند المصريون هذه العمليات بعمليات « كومندوس » في العمق بهدف جمع المعلومات.

استمر القتال المتقطع حتى وقف إطلاق النّار في أوت 1970، الذي فرضته الولايات المتحدة على طرفي النّزاع. استغلت إسرائيل الهدنة لتعزيز مواقعها في القناة، ببناء خط دفاع ثان.

كان اللّواء الذي كنت أشرف عليه مُلحقا بالوحدة الثّامنة عشر للمشاة المتحركين الّذين كانوا تحت قيادة العميد مصطفى شاهين. وكان قائد القوّات هو العقيد أبو غزالة الّذي أصبح فيما بعد القائد العام لقيادة القوّات في فترة حكم الرئيس السادات. لقد كان أبو غزالة أحد أبرع المتخصصين في المدفعية وكتب حول ذلك عدة مؤلفات. وكان العميد مصطفى شاهين رغم كبر سنه رجلا حيويا ولا يُفارق جنوده، وكان يُقلّني في سيارته العسكرية لأزور وحداته العسكرية التي كانت في الجبهة، ولم تخلُ سيارته يوما من مختلف الهدايا الّتي كان يُكافئ بها أحسن الجنود.

وفي أثناء زيارة قمت بها إلى اللّواء الذي يقع تحت إمرتي، أُعجب العميد مصطفى بطريقة التنظيم التي اعتمدتها إلى درجة جعلته يستدعي قادة الوحدات ليعاينوا طريقة تنظيمنا المحكمة. وقال العميد مخاطبا أحد ضباطه الذين كانوا يدّعون أنهم يمتلكون نقاط ارتكاز مماثلة لتلك الّتي نملكها، وقد تضايق من دعاويه : « هيّا فرّجوني ! ».

منذ الاجتماع الأول بمركز قيادة الفرقة، حينما تمت مناقشة كل المواضيع المتعلقة بالعمل وبدأ الحديث عن الأمور الداخلية كنت أتأهب للمغادرة فالتفت إليّ وقال لي بكل تواضع : « ابق معنا يا أخ خالد، لا يوجد شيء نُخفيه عنك ». وفي أحد الأيام وضع تحت قيادتي وحدة حرس السواحل المنتشرة على امتداد البحيرة المرة. ولم يتوان عن تنبيهي إلى حادثة مزعجة وقعت لهم قبل ذلك، حيث قال : « احذر فقد فوجئوا من جهة السويس وقُتل حوالي 60 جنديا بالخناجر ».

احتلت الوحدة الجزائرية التي سبقتنا على جبهة السويس المواقع التي هيأتها الوحدة الّتي استخلفتها. ولا فكّر في بناء مراكز جديدة. واتخذت قرارا بتنظيم مراكز أخرى، لكي لا يفاجأ رجالي من قبل العدوّ.

استضافني المساعد السياسي للجيش الثاني العميد عبد المنعم خليل ذات يوم في مقهى الضباط بمنطقة « فايد »، وهي مقاطعة صغيرة تقع على وادي عامر، قرب تموقعي الدّفاعي. ترجاني خليل بالجلوس أمامه واغتنم الفرصة ليقول لي : « عندما كنت مارا رأيت رجالا يحفرون خنادق جديدة للتموقع، لا جدوى من هذا لأن العدوّ لن يحارب من هذه الجهة على الإطلاق.. أقترح عليك أن تنسحب إلى خلف الجبهة وتهتم بتكوين رجالك ». وعلى وقع الذهول الذي أصابني، كدت أقول له : « كيف لكم أن تكونوا متيقنين ؟ »، ولكنّني عدلتُ عن رأيي. هل كان عليّ أن أذكّر العميد خليل أن القاعدة التي تحكم أساليب المواقع البديلة عندما تكون موجودة أو تهيئتها إن لم تكن كذلك تُدرّس في كل المدارس، سواء في باريس أو موسكو أو القاهرة ؟ وماذا يعني حفر خنادق للتموقع عند وصولنا إلى مواقع جديدة من أجل إنقاذ الأرواح البشرية ؟

تأملت طويلا بعد ذلك في كلماته، ولكنّني لم أستجب لاقتراحه وتركت رجالي يواصلون تحضير المواقع الجديدة، وكان هذا من حسن حظنا لأن الإسرائيليين استقبلوا وصولنا بقصف مدفعي مكثّف أصاب كل مواقعنا القديمة.

كنا نعتمد أسلوب الملاجئ المهيأة تحت الأرض، وهي ملاجئ لم تكن محمية بصفة كبيرة، وكان من خواصها أنّها واسعة من أجل تسهيل راحة الجنود في ملاجئ مضادة للقنابل وبخنادق مغطاة تحوي كذلك أنابيب. وكانت هناك حفر صغيرة متناثرة هنا وهناك من أجل إعطاء الفرصة لأي جندي للاحتماء بداخل أقربها عند أول إنذار. وتطلبت هذه التحضيرات ستة أشهر طويلة من العمل، ولم أغادر المكان طيلة هذه الفترة، وكان هاجسي الوحيد هو توفير الحماية اللّازمة لرجالي.

وإضافة إلى أعمال الهندسة، كان من الضروري السهر على المقاييس الصحية من أجل تجنيب رجالي ملاقاة المصير الّذي لقيه بعض من سبقونا في هذه المهمة وإن كان المصابون قلة، مثل مرض البلهارسيا، وهو مرض مُقعد وينتشر كثيرا في مصر، وخاصة في مناطق دلتا النيل التي كنا متواجدين بها. لقد كانت هناك قنوات صرف تمر على منطقتنا وتصب في الدلتا، وهذا مكان سريان المرض بنفسه. ولمقاومة هذا المرض الخطير، بدأنا بمنع الاقتراب من قنوات الصرف « الترعة » وزودنا

كل قطاع بنصف برميل يحوي 200 لتر يُجبر الجنود على غلي ملابسهم بداخله ثم تنظيفه بالماء الساخن، وقد أثمرت هذه الإجراءات لأننا أثناء عودتنا إلى الجزائر لم نسجل حالة إصابة واحدة.

وكان الجنود قبل كل إجازة تُمنح لهم للتوجه إلى القاهرة يصطفون أمام عيادات الوحدات، وكانوا يُحقنون بحقنة بنسيلين ذات مفعول مؤخَّر حتى لا يكونوا عرضة لأي مرض، وكان الجنود يحترمون هذه الاحتياطات الصحية رغم كونها تعسفية، كما أن ما يرونه يصب يوميا عبر قناة « بانوراما » المصرية يدفعهم إلى الصرامة أكثر فأكثر. وكانت الصور الدعائية للحضارة الفرعونية التي كان قطاع السياحة يتبجح بها سرعان ما تترك مكانها لصور فلاحين يغتسلون أو يغسّلون أبقارهم داخل المياه المتعكرة في القناة، كما كانت النساء يغسلن الملابس أو الأواني، في حين كان الأطفال يقتحمون، لا مبالين، الماء وهم عراة.

كانت مراكز الملاحظة التابعة لنا متواجدة في الفيلات القديمة التي يملكها ضباط سابقون أو شخصيات مرموقة في البلد. وكنا مستقرين في منطقة كثيرة السقي وتعتمد على الزراعة، حيث كانت أغلبية الأراضي مزروعة بأشجار مثمرة، خاصة أشجار البرتقال وفواكه المانجو الممتدة على مد البصر. وكانت الأراضي لا تزال حينها في أيدي الملاك الكبار، ولم تُوزع سوى قطع صغيرة فقط في إطار الإصلاح الزراعي الّذي انتهجه عبد الناصر. وكنا نعرف المستفيدين الجدد من هذه الأراضي بسواقيهم القديمة وأبقارهم الهزيلة التي لصق جلدها بالعظم.

وكانت إحدى هذه الفيلات من أملاك المشير عبد الحكيم عامر، وكان المطّلعون على هذا الأمر يسمونها « فيلّة المشير ». وجاءنا ساع في أحد الأيام وهو يحمل بريدا أرسله مُحام طلب منا دفع ثمن إيجار الفيلات الثلاث أو الأربع التي كانت بحوزتنا.

لا أعرف كيف أصف هذه المبادرة العجيبة : سخافة، غباء أم استفزاز ؟ أبلغت رائد مقاطعة فايد « لكنني لم أتلق أي رد منه ». عاهدت نفسي على إقناعه في الزيارة المقبلة للمبعوث بأن يرسل لي المحامي لأضعه في ثقب زجاجة لمدة 8 أيام وأطالبه فيما بعد بحق الإيجار.

كان بإمكاننا مشاهدة البواخر العديدة التي فاجأتها الحرب فاتخذت البحيرة كمرسى. وفي أوقات صفاء الجو كان « خط بارليف » يبدو قريبا جدا. وكنا بمساعدة مناظيرنا نستطيع مشاهدة تحركات الجنود الإسرائيليين. وفي الجنوب كان بإمكاننا مشاهدة ضواحي مدينة السويس ودروبها. أما في الشمال، فقد كان المصبّ المشهور يمتد قبالتنا، كما تتراءى مدينة الإسماعيلية أمام أعيننا.

كان يحدث وأن أن نستمتع بالشواطئ القريبة من هذه الفيلات، وأحيانا كنا نأخذ عناصر بطارية المدفعية للسباحة ونسيان قساوة الصحراء، ولو لفترة. وكان العائق الوحيد هو الألغام المضادة للقوارب البحرية الموضوعة على بعد متر ونصف من حافة البحيرة على امتداد الساحل. وبما أن هذه الألغام كانت واضحة للعيان فإننا كنا نقوم بتنبيه الجنود قبل الترخيص لهم بالذهاب إلى البحيرة. وحدث أن لمس أحد جنودنا صاعق لغم عن غير قصد فانفجر عليه ومزّقه إلى أشلاء

لم نجمع منها سوى بقايا حمراء مختلطة بالرمل، ولم نكتشف إلا بعد حوالي ساعة بأن ما جمعناه هو ما تبقى من هذا الجندي المسكين. ورافقنا تابوته الذي لم يكن يحوي سوى علبة صغيرة مليئة بالرمل والبقايا التي أمكننا جمعها، وكان على المرافقين أن يشرحوا لعائلته ظروف موت ابنهم، وألزمناهم بعدم فتح التابوت. وبعد هذا الحادث المؤلم تم حظر السباحة في هذه الأماكن الخطرة.

كانت الأرصفة تمتد على طول البحيرة لتمكين الصيادين من إرساء قواربهم، بما فيها تلك الّتي كانت في الخط الأمامي للّواء.

كان الصيّادون يدفعون قواربهم كل صباح نحو البحيرة للصيّد، وفي حدود العاشرة صباحا تظهر مئات القوارب التي تحجب رؤية ماء البحيرة لكثرتها، وكانت هذه القوارب كلها متشابهة. وكان الصيادون يرجعون إلى بيوتهم قبل غروب الشمس ليبدؤوا دورة حياتهم مرة أخرى في اليوم الموالي، وكان بعض هذه القوارب يستغل هذا الجو المضطرب ليرسو في الضفة الأخرى ويتواصل مع الجنود الإسرائيليين، قبل أن تتخفى بعد رجوعها مع مجموع القوارب في وسط البحيرة. وعندما أُبلغت بهذه المعلومة اتصلتُ بالمسؤول عن مصالح الأمن في القطاع الذي سُلمت فيه مركز القيادة، وأعلمته بأن هذا الأمر يُعتبر « خطيرا جدا »، لكنه لم يتفاجأ على الإطلاق، ثم وعدني بأن يُقدم لي جوابا عن الموضوع « في حدود 3 إلى 4 أيام » بعد قيامه بتحقيق. وأعلمني بعد أسبوع بأن أولئك الصيّادين كانوا في « مهمّة خاصّة »، ولم أقتنع بهذا الجواب وأنا أتساءل في قرارة نفسي هل ما ذكره صحيح أو أنه اتخذ إجراءات لكي لا يتكرر الأمر. ولكن الأمر نفسه تكرر بعد ذلك.

لم تعد الاتصالات مع الإسرائيليين تتم بنفس الوتيرة التي كانت عليها في السابق، لكنها كانت تولّد الشك في أذهان جنودنا، فقرّرتُ تعيين مترصدين بالمناظير وكلفتهم بمراقبة كل من يتواصل مع العدوّ، وكانت العقوبة واحدة على جميع المخالفين : ضرب مبرح ومصادرة القارب وحظر الدخول للبحيرة مرّة ثانية، ولكن هذا لم يمنع صيّادين آخرين من مخالفة التعليمات بشكل يومي انطلاقا من أرصفة أخرى.

كانت الحياة أبعد ما تكون عن الرتابة، وهو ما يستدعي الحذر الذي كان يأتي من تلقاء نفسه. وبدأت أعجب بهذه الحياة المثيرة التي كنت أقضي بعضها في زيارات تفتيش في الميدان وبعضها في مراقبة توجيهات الرجال دون تمييز بين رتبهم، سواء كانوا ضباطا أو ضباط صف أو جنودا.

وكان ضباط مصريون من مختلف التخصصات موّفدين للقيام بمهمة التكوين في فترات مغلقة، وكنت إضافة إلى ذلك مطّلعا على كل ما كان يدور في جبهة الجيش المصري 2، حيث كنا نتابع كل ما يجري في الفضاء الجوي للجبهة ونشارك في العمليات الميدانية سواء كانت متعلقة بمواجهة الطائرات أو القصف بالمدفعيات والدبابات، وبما أننا لم نستطع استعمال الدبابات في الرمي المباشر، كنا نقوم باستعمالها في بعض الأحيان في التحضير للرماية المدفعية.

كانت علاقتي بكثير من الضباط المصريين محصورة في ميدان العمل، وكنت أتفاجأ أثناء زيارتي للجبهة مرّة بعد أخرى من سلوك الجيش المصري. لقد كانوا يصرخون كلما أبصرونا

– وكنا معروفين ببدلاتنا ذات اللّون الأخضر الذي يشبه الزيتون – : « تشربوا حاجة ؟ ». كان هذا التصرف المهذب الّذي يكشف عن كرم أصحابه ينبعث منهم آليا حتى إذا لم يكن لديهم شيء لتقديمه. وبعد فترة، عرفنا أن هذا يُعتبر من باب الترحيب واللطافة. وعلى عكس كل القيل والقال الّذي سمعناه، اكتشفنا من تلقاء أنفسنا أن الجنود المصريين يتحلون بالشجاعة والانضباط، ولم يكن ينقصهم سوى الإمكانيات الماديّة والتجهيزات الحديثة الّتي يحظى بها الإسرائيليون، إضافة إلى تكوين عسكري جيّد.

وفي أثناء زيارة قمت بها إلى اللّواء الّذي يقع تحت إمرتي، أُعجب العميد مصطفى شاهين بطريقة التنظيم الّتي اعتمدتها إلى درجة جعلته يستدعي قادة الوحدات ليعاينوا طريقة تنظيمنا المحكمة. وقال العميد مخاطبا أحد ضباطه الّذين كانوا يدّعون أنّهم يمتلكون نقاط ارتكاز مماثلة لتلك الّتي نملكها، وقد تضايق من دعاويه : « هيّا فرّجوني ! » لكنني كنت أرى قائد عمليات هذه الوحدة بانتظام، وهو المُقدّم جلال، حيث كان عليّ أن ألجأ إليه كلما أردت مقابلة قائد الوحدة أو المسؤول الأول على قيادة القوّات. لقد كان المقدّم جلال ظريفا، وكان يستقبلني بابتسامة ويبادرني بسؤاله المعتاد كلما أجلس : « تشرب إيش يا أخ خالد ؟ »، وعندما يطول الانتظار – وهذا أمر « طبيعي » – لا أجد بدّا من التسلح بالصبر لعلمي المسبق بردة فعله : « وراك إيه يا أخ خالد ؟ ».

وفي يوم من الأيام أثناء مروري بالوحدة، تم تعريفي بالعميد الّذي جاء لاستخلاف العقيد أبو غزالة الّذي استدعي لمهام أخرى. لقد كان يُمارس التعذيب على اللّغة الفرنسية بدل التحدث بها وهو يظن أنه يرفع من شأن نفسه بالحديث بها. ومنذ ذلك اليوم، كان ذلك الأمر بمثابة تعذيب موجه لشخصي، لأنّه لم يكن من الممكن تجنّبه ولا تجنّب كل الاهتمام الّذي ينبغي عليّ إبداؤه أمامه من أجل فهم بعض فُتات رطانته بلغة موليير. وكنت أصاب بالصداع كلما التقيته بسبب المجهودات الخارقة الّتي كان عليّ بذلها من أجل فهم كلامه. وكان علي الالتقاء به أكثر فأكثر منذ توليه قيادة الوحدة الثّامنة عشر. وفي يوم من الأيام، جذبني على انفراد وقال لي : « لقد التقيت وأنا أمرّ على مقربة من فوج المدرعات الخاص بكم بأحد جنود الدبابة، لقد كان وجهه متغضنا.. "عجوز كِده" ». وتعرفت على الجندي مباشرة. ثم أردف : « كلّمته بالفرنسية ولم يفهمني، ثم بالعربية فلم يفهمني كذلك ». فوجئت واستأت لما لم يتلقّ العميد أجوبة على الأسئلة الّتي طرحها. وكان الأمر يتعلق بالملازم لحلو الّذي كان بإمكانه الحديث مع العميد بسهولة. ولما رجعت إلى اللّواء، توقفت لدى فوج المدرّعات المتواجد على مقربة من الطريق، وأعلمت الضابط المساعد للوحدة بأني أريد رؤية الملازم لحلو. ولما امتثل الملازم أمامي، قمت بتأنيبه لأنه لم « يعرف » كيف يجيب عن أسئلة قائد قيادة قوّات الوحدة الثّامنة عشر، فأجابني مباشرة : « نعم، لقد التقيت عميدا، ولكنّني لم أشأ كشف شيء أمامه لأني لا أعرف من يكون. ثم إنه يُفترض

أن نُعلم بزيارة عميد قبل مقدمه، وإلا لكان في مقدور كل أحد أن يدّعي أنه عميد ». لقد كان الملازم لحلو داهية، وعزمته لارتشاف قهوة معي وبحثت عن طريقة أعتذر بها للعميد الغاضب.

كنا نقيم اجتماعات من فترة لأخرى مع قائد الوحدة. وفي يوم من الأيام، عندما كنا جلوسا في طاولة واحدة مع مجموع قادة اللّواء وهذه الوحدة الكبيرة، تحدث قائد الوحدة، لمن أراد الإصغاء، بأن الجيش الثّاني اضطر إلى تغيير قرار بناءً على طلب « الأخ خالد »، قائلا : « أنا أضمن الأخ خالد لأن ثقتي فيه كاملة »، ثم ذكّرني بطلبي الّذي قدمته له قبل ذلك، والمتعلق بتهيئة موقع دفاعي يمتد مباشرة إلى قناة السويس لتمكين جنودي من المشاركة حتى لا يقعوا فريسة للملل على طول وادي عامر، على بُعد 14 كم عن خطوط العدوّ.

أعطانا قائد الوحدة خارطة تتضمن مواقعنا الجديدة لأن الاستجابة لطلبي هذا أحدثت تغييرات كبيرة. ولأننا كنا مكدسين في ملجأ خاص بقائد الوحدة، لم نتمكن من نشر خرائطنا لمعرفة حدودنا الجديدة، وأرجأت ذلك إلى حين عودتي لمقر قيادتي، وواصلتُ تسجيل التوصيات الّتي وجهت لنا. لاحظت أن جيراني حول الطاولة كانوا يرمقونني بتعجب لأنّني كنت أسجل ملاحظاتي باللّغة الفرنسية في حين كان النقاش يدور باللّغة العربية، فابتسمت وأوضحت لهم أن جيلنا لم يحظَ بشرف تعلّم اللّغة العربية ولكنّه تمكن مع ذلك من طرد الفرنسيين خارج الجزائر. المصريون ناس أذكياء، فهموا ما قصدته بكلامي.

ورجعت إلى مركز مقر قيادتنا رفقة المسؤول عن قيادة القوّات رفقة النقيب رشيد عيسات وشرعنا مباشرة في العمل ونحن نرى مواقعنا الجديدة. ونشرتُ المخطط الجديد لأكتشف أن هناك خللا ما فيه. لم أعرف الطريقة الّتي تمكنني من إقامة وحداتي الرئيسية لأنّني لم أكن أحظى بعمق كاف، وبدا الأمر وكأن واضعي هذه الخطة القاصرة، حتى على الصعيد المبدئي، أرادوا الحفاظ على قطعة كبيرة من الأرضية لصالح الجار.

فلقد كان يجب علينا تحضير مذكرة تحوي رأيا معاكسا وتشير إلى مقترحات جديدة. أكملنا العمل في ساعة متأخرة من اللّيل ثم توجهنا إلى مركز قيادة الوحدة لتقديم نظرتنا في المخطط والمقترحات اللاّزمة لتدارك الأمر. وبما أنه كان علينا أن نتحلى بالصبر، قررنا زيارة « الخبير السوفييتي » – مثلما يحلو للمصريين تسميته – لنرى تصوره حول الموضوع. وأدرك الخبير مكمن الخدعة بسرعة وقال لنا على البديهة : « توجهوا إلى قائد الوحدة فهو رجل مستقيم، وسيُنصفكم ». وفي الملجأ الذي كان يُتخذ كقاعة عمليات للوحدة، وبحضور صاحب الدسيسة العقيد جلال، طلبنا الحديث مع قائد الوحدة مباشرة. وطُلب منا الانتظار بضعة دقائق قبل إدخالنا عنده. استقبلنا العميد مصطفى شاهين بلطف وبشاشة ثم سألنا عن سبب زيارتنا الصباحية. وشرحت له ما كان يشغلنا.

ألقى نظرة على مخططنا وأدرك المكيدة بسرعة، ثم صرخ بأقصى قوة : « جلال ».. وأصدر أوامره : « ستكون قيادة اللّواء 134 تحت يد الأخ خالد »، ثم التفت إليّ وقال : « هذه هي

الحدود الجديدة، احذر من المصب فإنه جدّ حساس، وأنشئ مركز قيادتك ووحدات الإسناد خلفه[33] »، ثم تمنى لنا حظا سعيدا.

لم نطلب شيئا آخر. انسحبنا بسرعة، ثم حيينا العميد « جلال » الّذي بدا منزعجا بعض الشيء ولكننا كنا سعداء لأننا أحبطنا مخططه ومخطط زميله، قائد اللّواء 134 الذي تلقيت منه مكالمة هاتفية في ساعة متأخرة من الليل، حيث سألني إذا كان بالإمكان أن يزورني في مركز قيادتي، ففهمت أن قائد الوحدة شرع في المناورة وأراد إصلاح الأضرار بسرعة بسبب قلة النزاهة التي اكتشفها.

وحانت ساعة اللّقاء المتوقعة في المساء، فقررت دعوته معنا إلى العشاء، ولكن العقيد الّذي رفض عرضي، ملمحا إلى أنه يريد أن تتم مراسيم تسليم المهام بأكبر سرعة ممكنة. وكان هذا ما أردته، بصراحة. وبعد انتهاء الأمر قرر الاختفاء. وفي مراسيم تسليم المهام فهمت لِمَ كان متشبثا بمركز قيادته. لقد كان هذا المركز مموّنا بالكهرباء عبر خط عالي الضغط لا يبعد كثيرا عنه، وهو ما مكّنه من تشغيل جهاز تلفزيون.

وكان مسؤولو قيادة القوّات يقيمون في ملاجئ مهيئة ومخبأة بصفة جيدة، تحت حاجز من أشجار البرتقال، واكتشفت أياما بعد ذلك أنه على قدر ما كان قائد القوّات مقيما في مكان مريح، على قدر ما كانت رفقته تعاني من الإهمال والضياع، رغم أن ما بين الموضعين صف من أشجار البرتقال فقط، ولم يكن يتطلب التأكد من ذلك سوى الانتقال خطوتين أو ثلاثا فقط. ولم تحظ أيّ فرقة بملجإ، حيث كان لكل واحد من مجموع 600 رجل غطاء معدني مقاسه متر في متر كانوا يسمونه « غطاء الرأس »، رغم أنه لم يكن في حقيقة الأمر كذلك، لأن بعض الجنود كانوا يستعملونه كما يشاؤون، في حين كان يُفترض أن يقوم الجنود بتجميع هذه القطع المعدنية لتشكيل أخدود مغطى، وعند ملاحظة الوضع كان واضحا أن أولئك الرجال لم يحظوا بعناية كافية من طرف مسؤوليهم.

بعد ذلك بأيام، تم إيقاظي فجأة في وقت الفجر، حيث جاءني ضابط ليُعلمني أن هناك عطلا عاما حدث في مجموع شبكتنا السلكية، وأن كثيرا من محاولات التصليح لربط الاتصال في داخل اللّواء وخارجه قد باءت بالفشل، كما أعلمني بأنه من المستحيل إجراء اتصال بالوحدة أو بالجيش، وهو ما يعني بأن اللّواء كان معزولا تماما عن العالم.

أصدرت تعليمات، بفتح شبكة الراديو والبقاء على أهبة الاستعداد وعدم استعمال الجهاز إلا بأمر مستعجل[34]. ولم يأت مسؤولو الاتصال للاهتمام بالأمر سوى في حدود الساعة العاشرة

33. المكان الذي تنصب منه مياه القناة في الحوض المالح، وكان يمثل إحدى نقاط الفصل بين الجيش المصري الثّاني من الجيش الثّالث. مثلما كانت الثغرة التي تغلغلت عبرها القوّات الإسرائيلية لمحاصرة القوّات المصرية.

34. تكون موجات الراديو الأصلح عند الحركة، لأنه بذلك تقلص من مدة رد فعل العدوّ حتى في حالة التقاطها. أما الموجات الخطية التي لا تنتشر سوى في حالة دفاع، فلا تسمح بأيّ التقاط للصوت.

أو الحادية عشر، واكتشفوا أن الأسلاك التي تصل اللّواء بالشبكة العامة للوحدة قد تم قطعها بالسكين على بُعد كيلومتر واحد ونصف، وكان واضحا أن هذا العمل هدف إلى إلحاق الضرر بنا. ورغم أن الإصلاحات كانت تجري على قدم وساق إلّا أن ذلك أخذ يوما كاملا.

وتوجه نظري أياما بعد ذلك صوب رجلين سبق وأن رأيتهما من قبل ويظهر أنهما كانا يواصلان البحث عن دلائل تؤكد خيبة أملنا، وناديتهما وأنا على وقع الغضب وقلت لهما بلا تحفظ : « ما هذا.. ألم تفهموا بعد أن عناصر من اللّواء 134 هم الذين قاموا بهذا العمل ؟ ».

غير أن اللّواء 134 أعاد توجيه الأنظار صوبه عند هجوم إسرائيلي استهدف مجموع مراكز المعاينة المدفعية المتوقعة على طول قناة السويس، وخاصة المراكز المتواجدة على جبهة الجيش الثّاني من وادي عامر إلى مدينة « بور فؤاد »، بل إن هذه العملية مثل غيرها بقيت في سجلات حرب الاستنزاف. لقد استهدفت هذه العملية الجريئة والخفية والمتزامنة في نفس الوقت مجموع مراكز المعاينة التابعة للجيش المصري الثّاني. وكان الجنود المصريون والجزائريون المعلقين فوق الأشجار باعتبارها نقطة المعاينة الوحيدة المتاحة تحت وقع المفاجأة جراء هذه الهجمات ولم ينجوا سوى بسبب الأغطية المعدنية التي كانت بحوزتهم حيث استعملوها كوسيلة للتزحلق مثل رجال الإطفاء لدى إعلان الحريق.

وكان لواؤنا يملك مركز معاينة مجاور للّواء 134، وهو ما جعلني أتابع هذه العملية بواسطة الرائد في بطارية المدافع ذات قذائف 152 مم التي كنا نسميها « ارجى (انتظر) » نظرا لبطئها في إمدادنا بتصحيحات القذف. وكان ضابطنا أكثر حظا وحمى رجاله، على عكس رائد بطارية المدافع في اللّواء 134 الّذي تعرض رجاله للقتل والإصابة، وحتى هو نفسه أصيب. وكنت أطلب من الوحدة إرسال مساعدات نحو مركز المعاينة، وأرهقت بالاتصالات الهاتفية ولكن لم يسأل أحد عن الخسائر والجرحى، بل كل ما كان يهمهم هو معرفة وضع الضباط، أما رجال الفرق فلم يكن أحد ليهتم بهم.

وبعد ساعة تقريبا، ولأنّني لم أر أيّ وحدة إنقاذ تصل إلى عين المكان، أمرت رائد فرقة الاستطلاع الخاصة بلوائنا، وهو النقيب العربي، بأخذ سيارة ونقلهم رغم كثافة النيران. وبعد ساعتين كان الجرحى في العيادات بمأمن، حيث تم تقطيب جراحهم في انتظار أن تأتي وحداتهم لاستلامهم. وفي نهار غد، توجهت إلى العيادة لمعاينة وضع رجالي واغتنمت الفرصة لزيارة الجنود المصريين الذين كانوا على مقربة منهم.

ولما علموا بوجود ضابط جاء لزيارتهم اقتربوا مني وكلهم احترام وعرفان، فصافحتهم ورأيت أن بعض ملابسهم لا تزال مضرجة بدمائهم، كما عرفت عبر ضابط المدفعية الّذي كان تحت قيادتي أن أصحاب الجراحات « الخفيفة » أعيدوا إلى مراكزهم مساء الحادثة.

ولم يعرف المصريون سوى بعد هذه الحادثة، أثناء حرب الاستنزاف، أهمية الجنود ووضعهم العقلي والنفسي في المعركة.

ملجأ الملازم رزقي

كان الملازم الأول المتخلق والمتفاني سماعين مهندسا في أصل تكوينه، وتم الاحتفاظ به من أجل الحرب عندما كان يؤدي الخدمة العسكرية في قناة السويس، منذ بداية تدخلنا في الشرق الأوسط. كنا نعرف أن الملازم الأول سماعين يتبع لمصالح الاستعلامات، ولكنّنا لم نأخذ ذلك في الحسبان، لأنّنا كنا متواجدين من أجل خدمة إخواننا العرب ولم يكن هناك شيء لنُخفيه. بعد ذلك تم تدعيمنا بالملازم الأول الدكتور فاروق، وهو طبيب جراح، وكنا نلتقي أثناء وجبات الغداء في مطعم للضباط تم تهيئته في أحد الأكواخ[35] وكنا نستعمله في الأيام الحارة. لم نكن نرى بعضنا كثيرا أثناء الصباح لأنّنا كنا نتسلم وجباتنا بسرعة، أما في المساء بعد العشاء، فقد كنا نجلس لفترة أطول معا، نشاهد التلفاز أو نلعب الورق. وفي إحدى الأمسيات الّتي كنا نقضي أوقات فراغنا بلعب الورق فيها، كان الملازم الأول فاروق يُحدّق فينا دون توقف وهو مُنزوٍ، ثم قال : « يا أخ خالد.. أنا أتابعك منذ أيام ولم أر شيئا مما حكاه عنك زملائي في السويس[36] ». وتساءلتُ مستغربا في قرارة نفسي عما يمكن أن يخبره زملائي عني وهو لا يوافقهم عليه.

باح لي بعد ذلك، وهو على وشك الالتحاق باللّواء الجزائري، أنه سمع كلاما مسيئا في حقنا : « هل استمتعتم مع هؤلاء الوحوش ؟ ». الملازم فاروق مليء بالإرادة لكنه قليل الفعالية.

أسندنا في يوم من الأيام إلى الملازم الأول فاروق مهمة مرافقة تابوت إلى القاهرة لنقله صوب الجزائر، وظنّنا أنه قد يتدخل لصالحنا مع زملائه لتجنّب معاملة توابيت موتانا كما تُعامل أي أمتعة مُبتذلة وأمام مرأى من الجميع، وهو ما كان يحدث غالبا. ولكن للأسف لم يفعل ذلك أمام بيروقراطية غير مبالية وغير إنسانية.

استيقظتُ في أحد الأيام على وقع دوي انفجار هائل وقع على بُعد مئات الأمتار من مركز قيادتي، وكان الهدف هو معسكر تمت إقامته من طرف كتيبة الاتصالات بالفرقة في الوحدة وكتيبة الهندسة. لقد فوجئ الجنود أثناء اجتماعهم بطائرتين من طراز « سكاي هاوك » قدمتا من الشرق حيث كانت أشعة الشمس تحجب الرؤية عن الجنود الّذين يشغّلون المدافع المضادة للطائرات، وقد اختار الإسرائيليون هذه اللحظة الدقيقة للهجوم وإلقاء القنابل، مما أحدث مجزرة.

وبما أن هذا كله حدث على مقربة مني، ركبتُ سيارتي وتوجهت نحو مجموعتي المكلفة بالمدافع المضادة للطائرات، وهكذا أمكنني معاينة الوضع. لقد كان المشهد مُحزنا، حيث تم حجز جميع السيارات لنقل الموتى والجرحى، وكان هناك ضباط لا يزالون بثياب النّوم كانوا يمشون فيما كان قبل دقائق فقط ساحة للتجمع. وعندما وصلت إلى مركز مضادات الطائرات تساءلتُ وأنا على وقع الذهول : « هل يُدركون خطورة التجمع أمام العدوّ ؟ ». لم يظهر الملازم الأول فاروق

35. في جزر الأنتيل وغويان الفرنسية، خيمة كبيرة تشيّد بالأوتاد وأوراق الشجر.

36. المدينة الّتي أقيم فيها مركز القيادة الصحية.

إلا 3 أيام بعد الحادثة بسبب انشغاله بالوضع، وقص علينا بعد ذلك أنه أحصى أكثر من 70 قتيلا دون احتساب الجنود الّذين نُقلوا إلى أماكن أخرى، أما الجرحى فقد بلغوا المئات. لم يكن للفيلقين القادمين حديثا الوقت الكافي لحفر ملاجئ.

دعاني قائد الكتيبة 36 السيد علي بوغزالة إلى زيارة السرية الّتي كانت تحت قيادة الملازم رزقي، وكان مقر قيادته يقع في إحدى الملاجئ المشيّدة بقطع معدنية كما كنا نحلم أن تكون مقارّنا مثلها. نزلنا حوالي 3 أمتار تحت الأرض وجلسنا في الملجأ المصنوع من معدن « النيكل »، وهو ملجأ لا ينقصه أي شيء، فقد كان مشكلا من أقواس معدنية صغيرة وكان سقفه مطليا بالزفت، كما لاحظت ابتسامة قائد الكتيبة في الزاوية وهو يحدّث الملازم الأول رزقي بصوت منخفض : « هيّا، قل له من أين حصلت عليها ». لكن رزقي لم ينبس ببنت شفة. وحاولت تشجيعه لكي يُجيبني، فرفع رأسه ورمقني بنظرات بدت مُحرَجة، ثم قال لي :

- لقد اشتريتها من قائد بطاريات 40 مم « بوفور » بمبلغ قدره 3 جنيهات.

- وسألته بإلحاح : من هو هذا القائد ؟

- ذاك الذي يُشرف على البطاريات القريبة منا، والمتواجدة بين قرية « فايد » وفريق مدفعية 100مم التابعة للجيش 2.

ذهلت لما كنت أسمعه، وقارنت في أعماق نفسي بين ضابط يدفع من جيبه لكي يوفر الحماية لرجاله، وآخر...

منذ تلك اللّحظة، أمرت بإزالة المعادن أينما وجدت، سواء في الثكنات المهجورة بالبيوض وزكريا أو في أيّ مكان آخر. كان هناك خط سكة حديدية يصل قريبا من مواقعنا فأمرت الضباط باستغلاله، ولم يكن ينبغي فعل أكثر من ذلك. وعلى امتداد قرابة شهرين، كانت الأصوات تملأ الأرجاء، حيث تم فك الخطوط الحديدية ونُقلت على ظهور الرجال إلى غاية مواقعهم لإنشاء ملاجئ تصمد أمام قذائف المدفعية والقنابل الإسرائيلية.

وكنا نقتني ما ندفع ثمنه في السوق المحلي. لقد كانت وتيرة العمل تسري بصفة جيدة إلى درجة جعلت قائد خلية المدفعية المضادة للطيران في الجيش 2 المصري يسألني في زيارة له عندما أدخلته إلى قاعة تحت الأرض مشيدة بالحجارة كلية : « هل لديكم مهندسون لكي يفعلوا هذا ؟ »، فأجبته : « يمكن لأي أحد منا في الجزائر أن يبني شيئا كهذا ». وخطر في ذهني سكان جبال لمتراس الّذين يتقنون بناء المنازل بالحجارة الحمراء الّتي تعرف بها جبالهم ويصنعون منها تحفا جميلة وهي المهنة التي تعلّموها أبا عن جد.

كان ضباط مصريون من مختلف التخصّصات موفدين للقيام بمهمة التكوين في فترات مغلقة، وكنت إضافة إلى ذلك مطّلعا على كل ما كان يدور في جبهة الجيش المصري 2، حيث كنا نتابع كل ما يجري في الفضاء الجوي للجبهة ونشارك في العمليات الميدانية سواء كانت متعلقة بمواجهة

الطائرات أو القصف بالمدفعيات والدبابات، وبما أننا لم نستطع استعمال الدبابات في الرمي المباشر، كنا نقوم باستعمالها في بعض الأحيان في التحضير للرماية المدفعية.

لقد كانت أهدافنا هي « تل السلام » ومصب النهر وخزان الماء الذي يمد جزءا من « خط بارليف »، وكنا نستهدف الأهداف المتحركة باستعمال الربط بين الجيشين الثّاني والثّالث أو باستغلال أهداف في العمق أو بتوجيه القذائف المضيئة.

ولما بدأت حرب الاستنزاف في التصعيد، لم يتحرج كل من الإسرائيليين والمصريين في استعمال الطيران. وبما أن الجيش الإسرائيلي كان هو الأقوى في هذا المجال، فقد اعتمد على سلاح الجو كطريقة أساسية في غاراته. وكانت الإنذارات الجوية اليومية لا تهدف إلى مهاجمة وتدمير الأهداف المتعددة بقدر ما كانت تهدف إلى زعزعة معنويات القوّات المصرية.

قبل تلك الفترة كان الإسرائيليون يعيشون في سيناء حالة من اللاحرب واللاسلم معا. وكان الشباب يعتبر مدة الخدمة العسكرية المفروضة، وهي ثلاثون شهرا، طويلة جدا، إلى درجة جعلت الجنرال موشيه ديان يعلن احتمال تقليص مدة الخدمة « طالما أنه لا يوجد أي خطر الآن يهدّد البلد ».

سمح بقاء الوضع على حاله على خطوط وقف إطلاق النّار لعام 1967، لإسرائيل، وبدعم من غالبية الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، بالإضافة إلى التضامن الفعال الذي توفره لها الجالية اليهودية في العالم التي يسيطر على معظم وسائل الإعلام والبنوك الأوروبية والأمريكية الكبرى، بإرساء وإدامة احتلالها تحضيرا لضم الأراضي التي اجتاحها جيشها، أو على الأقل هذا ما تأمل.

عند عودتهما من مهمة في عمق الأراضي المصرية، جاءت طائرتان حربيتان إسرائيليتان تحلّقان فوق الجهة الغربية الّتي يوجد فيها اللّواء، متفاديا دفاعنا المضاد للطيران. فاجأتنا الطائرتان بطيرانها غير المعتاد : طيران يمزق جدار الصوت على علو منخفض جدًّا لدرجة أن أثار سحبا من الرمال. كنّا في حيرة من أمرنا. من أين جاءت ؟ في اليوم التالي، علمنا أن الطائرتين المقاتلتين حلّقتَا فوق القصر الرئاسي. استفزاز أم تحذير في وقت واحد.

وقد كانت الطائرات الإسرائيلية تقذف القنابل المُحرقة أو تقوم بغارات في عمق مواقعنا، وكنا كثيرا ما نسمع صوت المروحيات الإسرائيلية الّتي كانت تطير فوق خطوطنا وتحاول استرجاع طياريها الّذين تحطمت طائرتهم في نفس اليوم ولم يتم أسرهم، أو إنزال فرق « وحدات خاصة » للقيام بمهمات تم الإعداد لها سلفا.

موت الفريق الأول عبد المنعم رياض

لقد سلبت الحرب والبؤس، الّذي هو نتيجة الحرب الطبيعية، الحياة من معناها، فالموت أضحى شيئا عاديا. وقد أخبرني قائد وحدة الدرك الخاصة[37] بحاكم الصلح يوما أنه لما رأى جثة

37. رجال درك مكلفون بتأمين إجراءات الشرطة بين المدنيين من جهة والعسكريين من جهة أخرى.

طافية في مياه قناة صرف ذهب ليُعلم الشرطة، فتلقى جوابا مخيبا أغاظه، حيث قيل له : « سيبك (لا تهتم) ». ولأنّني صُدمت بدوري من هذه الحادثة، أخبرتُ الرائد غازي، وهو ضابط فلسطيني كان لواؤه متواجدا قرب مواقعنا الخلفية فأجابني وهو مشدوه بتفاجئي : « ألا تعلم ذلك ؟ إن هذا أمر مألوف هنا. وعندما نرى جثة فإننا نُمسكها من الشعر ونقلبها لنرى إن لم تكن لواحد من رجالنا »، وإذا كان الأمر بالعكس، فإنه شرح لي ببرودة أنهم يشقون طريقا في قناة الصرف للموتى ليلقيهم الماء بعيدا. وأصابني هذا الجواب المرعب بالقشعريرة، فالشرطة كان لديها من الوقاحة ما يجعلها تجرّم كل من يزعجها بتقديم هذه المعلومات المثبّطة للعزيمة.

دفعني العبء الثقيل المفروض على الجنود، على غرار المصريين، إلى منح رخص تسريح لرجالي بمعدل 3 أيام في كل شهر ونصف لكل جندي، ضابطا كان أو ضابط صف. أما أنا، فقد أرجأت موضوع الاستراحة بسبب انشغالي بما يجب عليّ فعله. لقد كنت واعيا بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقي، وقد كنت متضايقا من الوضع لأنّنا لم نكن لا في حالة حرب ولا في حالة سلم، وكذا هاجس حماية اللّواء الّذي يقع تحت يدي.

كنت أنام قليلا، قلقا من فكرة اندلاع الحرب في حين أن رجالي ومعداتي متواجدة تحت الملاجئ، وشعرتُ بآلام معوية حادة ولم يتم تشخيص سبب ذلك في الجبهة، وكنت أعاني في صمت. لقد مرت ستة أشهر والآلام متواصلة، فقررت استشارة طبيب فور ضبط موعد مع دكتور من طرف سفارتنا في القاهرة، فتوجهت إلى العاصمة للراحة لمدة 3 إلى 4 أيام، وقضيتُ الليلة في الشقة التي وُضعت تحت تصرفنا. وفي الصباح، رافقني ممثل عن سفارتنا إلى الطبيب، وكانت جدران قاعة الانتظار مغطاة برسومات لمشاهد طبيعية أوروبية، وقد كان الطبيب أوروبيا، ولمحت ذلك بسبب لكنته رغم أنه كان يتكلم العربية جيّدا، ثم زودني بأقراص مضادة للألم وطلب مني إجراء تحاليل.

قضيتُ الأمسية برفقة الدليل الذي كان معي، وتوجهت بعد العشاء إلى شقتي. وفي حدود الساعة الحادية عشر ليلا سمعت دق الجرس، ففتحت الباب ووجدتني وجها لوجه مع الملازم الأول أحمد بنّاي، قائد سريّة الإدارة للّواء، وكان يبدو مضطربا لأن شيئا خطيرا قد حدث. لقد وقع تبادل قصف مدفعي بين الإسرائيليين والمصريين طيلة اليوم، وشاركت في القصف مدافعُنا ولم نُصب بأي خسائر، ولكنّ قائد أركان الجيش المصري لقي حتفه. وفور سماعي لهذا الخبر حزمتُ أمتعتي وتوجهت صوب الجبهة. كنّا في يوم 11 مارس 1969.

ولم أعرف كيف سقط قائد الأركان سوى في اليوم الموالي، فلقد كان في مهمة تفتيش كعادته بعدما عُيّن حديثا في هذا المنصب، ولم يكن يدّخر جهدا في تأدية مهامه على أكمل وجه، وكان يحظى باحترام الرجال الّذين يصرخون كلما رأوا طائرة مروحية تحوم فوقهم : « هذا هو قائد الأركان ». وكان المصريون الّذين اكتووا بهزائم كثيرة قد عقدوا آمالهم على هذا الضابط الّذي كانوا

يُقدّرونه، كما أن ملك الأردن عبد الله الذي عيّنه مستشارا له أثناء حرب 1967 لم يُخف ثناءه عليه في كتابه « حربي مع إسرائيل ». وفي يوم وفاته ذهب للاستطلاع أمام الإسماعيلية، وكان مرفقا بأغلبية قادة خلايا قيادة الأركان الذين قُتل وُجرح أكثرهم. لقد ذهب قائد الأركان للتعرف عن بعد على جزيرة صغيرة في بحيرة التمساح قرب الإسماعيلية، حيث كانت تتواجد مجموعة من الدبابات الإسرائيلية، ورغم أن رجاله كانوا متمرسين في الحرب إلا أنّهم أخطؤوا بالتنقل عبر سياراتهم الّتي كانت مخصصة للعمداء فقط، وهو ما كان غنيمة سهلة لم يتوقعها الإسرائيليون الّذين أطلقوا نيران الدبابات والمدافع وأجهزوا على قيادة أركان الجيش 2 في طرفة عين. وأخبرني المستشار السوفييتي أن العميد عبد المنعم رياض توفي على إثر نزيف لأن وحدات الإنقاذ لم تصل بسرعة.

وفي نفس اليوم، أخبرني العميد مصطفى شاهين أن ضباطا بقوا في مراكز قيادتهم في الجيش اختلط عليهم صفير قذائف المدفعية مع أصوات الطائرات المقاتلة أثناء انقضاضها إلى درجة أنهم بعد ربع ساعة من الحادثة أرسلوا إلى مكتب عبد الناصر برقية تتحدث عن هجوم جوي. وقال شاهين مستغربا : « هل تعرفون ما الذي يمكن أن تؤدي إليه غلطة فادحة مثل هذه إذا صعّد الجيش المصري الموقف ؟ » وهو ما يعني بعبارة أخرى أن سلاح الجو المصري لم يكن بمقدوره الرد لأنه كان في مرحلة التهيئة.

وفي الصباح، شهدت الجبهة غليانا كبيرا. وبحسب الإذاعة المصرية فإن الإسرائيليين قاموا بتدمير المحطة الكهربائية في « نجا حمادي » عن طريق قصف جوي، لكن الإسرائيليين لم يتأخروا في توضيح الأمر حيث قالوا « إن المحطة لم تُقصَف بواسطة سلاحنا الجوي وإنما عبر فريق وحدات خاصة منقولة عن طريق المروحيات ». وكانت الدهشة تعلو كل وجوه الضباط المصريين الذين التقيت بهم، حيث تدور في أذهانهم الأسئلة التالية : كيف قام الإسرائيليون بهذا العمل ما دام أن « نجا حمادي » ليست في متناول فرق « الكومندو » ؟ وكيف تجرّؤوا على ذلك ؟ لم يتوان الإسرائيليون عن استغلال المناسبة لتضخيم هذه العملية إعلاميا، وساعدتهم في ذلك وسائل الإعلام الغربية.

وفي صبيحة اليوم الموالي لهذه العملية، استلمت « شفاف » الوضع الجوي لليلة أمس وفهمت منذهلا الطريقة التي لجأ إليها الإسرائيليون : لقد حلقت 8 طائرات مروحية من طراز « سوبر فرولون » شبه متلاصقة، وهي حاملات ضخمة صُنعت في فرنسا، وهذا ليوهموا المصريين بأنها أربع مروحيات فقط بدل ثمانية، وهو ما جعل شاشات الرادار لا تكشف إلا عن أربع أجسام فقط. وفي منتصف الطريق إلى « نجا حمادي »، عادت أربع مروحيات أدراجها وحطّت الأربع الباقية، فظن المصريون أنها محاولة اقتحام محدودة. وبعد هبوط المروحيات تمكنت سيارات « جيب » مليئة بالقوّات الخاصة من التوجه نحو الهدف ووضع عبوات مؤقتة التفجير. وعند الفجر، ظهرت 4 بقع على شاشات الرادار، وهي للمروحيات الأربعة التي عادت أدراجها إلى الأراضي الإسرائيلية بعدما قامت بالعملية وأنجزت مهمتها في « نجا حمادي ».

اللّواء الجزائري تحت نيران العدوّ

من كل المعارك الكثيرة التي خضناها في الجبهة، لا تزال اثنتان منها تثيران انتباهي. شن الإسرائيليون يوما غارة جوية بحوالي بضعة وعشرين طائرة مقاتلة من طراز « سكايهاوك » و« فانتوم » دون احتساب عدد من طائرات الدّفاع الجوي من طراز « ميراج »...

كان المسؤول عن الدّفاع عن اللّواء الجزائري هو فوج الدّفاع الجوي بقيادة النقيب حسين أوسعيد الّذي أهلته رباطة جأشه وخبرته ليكون جنديا مثاليا. وكانت بحوزته بطاريتان بـ6 مدافع عيار 37 ملم ثنائية الفوهات وبطارية مدفع رشاش رباعي الفوهات عيار 14,5مم، وأثناء هذا الهجوم، لم تتمكن أيّ طائرة إسرائيلية من رمي قنابلها على أهدافها بسبب دقة التصويب الجزائري، لأن الجنود الّذين كانوا ضمن جيش التحرير الوطني متمرسون في هذا النوع من المواجهة.

كانت الطائرات الإسرائيلية تلقي جميع قنابلها في الصحراء، وبعد حوالي 20 دقيقة من ذلك حاول الإسرائيليون القيام بمناورة لإلهائنا بسبب تأثرهم بفعالية رمي بطارياتنا المتواجدة في قلب الصحراء، وتم هذا باستعمال طائرات « ميراج » انطلاقا من الإسماعيلية من الخلف، وفي الوقت نفسه بمساعدة طائرتَي « سكايهاوك » حلقتا على مسافة قريبة من الأرض من أجل مباغتة البطارية. ولما وجدوا أنفسهم تحت نيران البطارية الدقيقة، ألقتا حمولتهما من القنابل الحارقة التي لم تُفلح سوى في إحراق غطاء المدافع المتواجدة على بعد 100 متر.

ومن الجانب الجزائري، لم يُصب سوى ثلاثة أو أربعة جنود نتيجة اصطدام خوذات رؤوسهم. لقد كانت طائرتا « ميراج » تطلقان قذائفهما دون إصابة الأهداف. وحسبتُ مدى تأثير هذه القذائف بالتقريب فوجدت أنها تنفجر على بعد حوالي 800 متر من أهدافها، وهو ما جعلها عديمة التأثير علينا لأنّنا كنا بمنأى حتى عن حطامها.

وكانت هذه النتائج ترجع إلى العمل الكبير الذي قام به جميع عناصر اللّواء ؛ فلقد قاموا بتهيئة الأرضية باستغلال مستلزمات هندسية رغم المنع الذي قوبلنا به في البداية، وهو ما جعل النجاح حليفنا، حيث فهم المصريون أهمية ما قمنا به وحذوا حذونا باستعمال وسائل أكبر.

وبطبيعة الحال، فإن الإسرائيليين حاولوا المبالغة في تقدير الخسائر فتحدثوا في الإذاعة أن طائراتهم خلفت أكثر من مئة قتيل في صفوف الجزائريين، وأن قائد اللّواء الجزائري قُتل في هذه الغارات. وفي صبيحة اليوم الموالي، زارني الملحق العسكري الجزائري في مصر، وهو العقيد الطاهر بودربالة، وذلك لمعاينة ما حدث الليلة الماضية، وأخبرني بأن الرئيس اتصل، قلقا، على الساعة الثّانية صباحا بقاصدي مرباح، مسؤول الأمن العسكري، ليعرف مزيدا من المعلومات عما حدث. وقمت بطمأنته وأخبرته بأن كل شيء على ما يُرام، لأن المعلومات المُذاعة من الجانب الإسرائيلي هي مجرد دعاية لتغطية الخسائر التي تعرضوا لها. وفي مساء الغارة، تلقى قائد فوج الدّفاع الجوي كلمات تهنئة وتشجيع من كل جيرانه المسؤولين على الوحدات المصرية والفلسطينية

والسودانية، كما اتصل بي قائد الجيش المصري 2 هاتفيا واستهل حديثه بتهنئة رجالي ثم أعلمني أن هناك طائرة ثالثة لم أشر إليها ورآها المصريون وهي تسقط خلف البواخر الراسية في وسط « البحيرة المرة »، ثم سألني إن كانت هناك خسائر في صفوفي، فأخبرته بأنه لم يُصب أحد من رجالي، فصرخ مذهولا : « إزّايْ ؟ ».

وبما أنني كنت متواجدا في منطقة تحوي عدة وحدات صغيرة تُركت لتؤدي مهامها بمفردها، سهرتُ بالخصوص على أن تُصدر التعليمات حول الرماية المضادة للطائرات لجنودي في الوقت المناسب، وذلك أنّني كنت أخشى أن نقوم بإسقاط طائرات مصرية خطأً، في حين أنّنا قدمنا إلى مصر لمساعدتهم.

وبعد الغارة الإسرائيلية حينما كنت متواجدا في مركز قيادة فوج المدفعية وكنا في وضع « النيران المقيّدة »، وهو ما يعني منع الرماية، سمعت أصوات رمي صادرة من البطارية الثّانية ذات عيار 37 ملم، وبما أنني لم أتمكن من التواصل معها هاتفيا توجهت مباشرة نحو مواقعها مخافة أن ترد علينا الطائرات خطأً. وتفاجأت عندما علمت أن قائد البطارية استهدف طائرتي « ميراج » إسرائيلية معروفة بشكلها، وكان هذا الإنجاز الآخر من أحد رجالنا يكشف غنى الخبرة التي حظي بها قدماء جيش التحرير الوطني أثناء مشاركتهم في الحرب التحريرية. مثال آخر : كنت في طريقي إلى قواتي المتموقعة حول السد عندما فوجئت بنيران كانت تستهدف، بشكل عشوائي، سرية الجزائري مكلفة بمراقبة جسر صغير على خط للسكك الحديدية . أوقفت السيارة وتسلقنا أنا والسائق مرتفعًا يطل على الموقع الّذي أقام فيه رجالي معسكرهم. رأى قائد السرية، وبينما القذائف تنهمر على المكان، وقد أخرج صدره من ثقب الزجاجة، برباطة جأش عجيبة وهو يشير بأصبعه إلى رجاله ويعطي أوامر كما لو كان في تمرين عادي. جيراننا في كلتا الثكنتين، زكريا والأبيوض، وفي تناقض مع القواعد الأساسية للجندي في منطقة القتال، بدؤوا يجرون في كل الاتجاهات، على سفح هضبة شبرويت وتحت أنظار سكان فايد والجنود الفلسطينيين والسودانيين الّذين ذهلوا. وكانت هذه الفوضى تتكرر في كل مرة يهاجم الإسرائيليون، ولم يتمكن المسؤولون من فرض النظام.

أما الذكرى الثّانية، فقد حدثت عندما طلب منا المصريون وضع بطارية مدفعية عيار 122 ملم التي كانت ذات وصلة أطول بين الجيشين المصريين، حيث اعتاد الجيش الإسرائيلي على اختيار هذا الموقع لاستهداف المواقع المصرية التي لم تكن تحظى بتغطية. واستدعيت قائد المدفعية، وهو النقيب بوستة الّذي كانت فرقته مدمجة ضمن فرق المدفعية وأعلمته بذلك، لكنه نصحني بعدم الاستجابة لهذا الطلب، معللا ذلك بأن « وضع بطارية دون تغطية أخرى كان من النّاحية التكتيكية انتحار »، وهو ما كان صحيحا، غير أني أجبته بأنه في كل الحالات نحن متواجدون هنا

لمساعدة المصريين، وأن من واجبنا الاستجابة لطلبهم، وفكرت في أنه يمكن للبطارية استغلال عامل المفاجأة لتتجنّب من ثم ضربات العدوّ.

لم يكن أمام الرجال سوى وقت قصير لتحضير المواقع بطريقة عشوائية وتهيئة المدافع والرجال في حالة محاولة الجيش الإسرائيلي استهداف القوّات المصرية، حيث يجدون أنفسهم في مواجهة قذائف رجالنا. وبسبب هذا النقص، كنا نسمع عن بُعد أصوات مركباتهم وهي تهرب في الصحراء كما رأينا عددا من أعمدة الدخان الأسود المتصاعد إلى السّماء، وهو دليل على وجود مركبات محطمة. وبعد نصف ساعة هدأت الجلبة وأعطى الجيش الأمر برمي حوالي 20 عبوة لفرق المدفعية صوب هدف حدّده المصريون عبر البيانات، وهو ما كان غلطة لا ينبغي الوقوع فيها، لأن بطاريتنا بعد عملية مثل هذه تحتاج إلى وقت من أجل تغيير موقعها، لكنها لا تستطيع ذلك لأنّه سيتم تحديد مكانها والإجهاز عليها بسرعة. وللأسف، فقدنا رجلين وأصيب البعض في صفوفنا، كما تم تدمير أحد المدافع، ولما قطعت بطاريتنا منطقة « فايد » للعودة إلى مواقعها الأولى اصطف القرويّون على الطريق كتعبير عن التعاطف والاعتراف بما فعلناه.

وعندما اكتشف الإسرائيليون مركز قيادتي، صوبوا نحوه وابلا من النيران الّتي أطلقتها المدفعية آلية الحركة الّتي كانت دائمة التنقل وكان من الصعب تعطيلها بواسطة الرماية المضادة. وعموما، كنا نقوم بإعلام القيادة المصرية الّتي كانت ترد باستعمال سلاح الجو.

وبما أنّني أخذت احتياطاتي وحفرت حفرا على شكل « عنق القارورة »، وهو ما كانت تسمح به الأرضية الرملية، فإن رجالي كانوا رغم كل شيء في أمان. وفي إحدى حملات القصف الإسرائيلي، سقطت عبوة على مقربة من إحدى هذه الحفر إلى درجة أن الفجوة صارت سوداء بسبب المادة المتفجرة، وطلبتُ من فريقي الإبقاء على هذه الحفرة كما هي عليه، وفي إحدى زيارات العميد مصطفى شاهين، قصصتُ عليه القصة وأخذته إلى عين المكان، فسألني : « وما الذي حدث للجندي الذي كان متواجدا داخل الحفرة ؟ »، فأجبته : « إنه متواجد معنا »، ثم قدمته له. وأوضحت للعميد أن الجندي تعرض لصدمة بسبب انفجار العبوة، وأننا جعلناه يُفيق برشه بالماء فقط.

ثم شرحت له ماهية هذه الحفر التي ورثناها من العهد الاستعماري وأن الفرنسيين أنفسهم نقلوها عن الفيتناميين، ثم قلت له « إن أرضيتكم تساعد على هذا ». لم يكن من المطلوب سوى حفر حفرة في الأرض على شكل عنق قارورة، تضيق في البداية ثم تتسع في الداخل، وتكون الحفرة بطول الرجل بحيث تمكّنه من الانزلاق فيها، وكانت هذه الحفر تحافظ على سلامة الجنود ضد كل أنواع القصف، وخاصة القصف الجوي، كما تمكن الجنود من الرمي مع البقاء في مكان آمن، وأعجب العميد مصطفى شاهين بطريقة الحماية هذه إلى درجة أنه سلمني أياما بعد ذلك كراسة تحوي شروحات ومخططات للتموضع الّذي أطلقوا عليه « النموذج الجزائري للتموضع الفردي في الرمي ». لقد قام الجيش المصري رسميا بتبني هذه التقنية.

أثناء مشاركته في حرب الاستنزاف الثّانية بمصر، وجّه اللّواء الجزائري الثّاني ضربات إلى الإسرائيليين تفوق تلك التي تلقاها، حيث لم تتجاوز الخسائر التي ألحقها العدوّ بنا تلك الّتي نجمت عن حوادث مركباتنا وأسلحتنا النّارية.

رادار السويس أو خبرة الإسرائيليين

كان « جبل شبراويت » هو تقريبا المرتفع الوحيد في المنطقة، حيث كان عبارة عن ثلاث نجوات يتراوح طول كل واحدة منها ما بين 200 إلى 300 متر وتشرف على « البحيرة المرة »، وكان بعيدا عن خطوط العدوّ بأكثر من 10 كيلومترات. وتمركزت على أعلى نقطة فيه وحدة دفاع مضادة للطائرات مجهزة بمدافع عيار 20 ملم.

واختار الإسرائيليون هذا الموقع للقيام ببعض الاستفزاز، حيث كانوا يظهرون يوميا في نفس الساعة السّادسة عشر بالضبط ويهاجمون بواسطة طائرات مقنبلة ترفع مقدمتها إلى السماء، وعندما كانوا يصلون على حدود ما تصل إليه القذائف المصرية، كان الطيارون الإسرائيليون يقلبون طائراتهم ليتواجدوا في الجهة المعاكسة للهدف ثم يلقون قنابلهم وسط عجز الطائرات المصرية عن الرد لأن الإسرائيليين كانوا يملكون غطاء جويا قويا، وهو ما كان فرصة إسرائيلية سانحة للقيام بضربات قوية.

وكان هذا الفعل يتكرر يوميا بما يُشبه الطقوس تقريبا. ودام هذا الفعل قرابة الشهر. وبما أن هذه الهجمات كانت استعراضية، فقد حدث وأن اخترنا بعض المرتفعات القريبة لمشاهدة فوج الطائرات.

تعود جرأة الإسرائيليين إلى الدراسة المتأنية للمشكلة التي أجروها للتوصل إلى أفضل حل، ثم إلى تنفيذ محدد للخطط التي وضعتها قيادات واقعية وعملية وذكية. بعد شهرين من عودتي إلى الجزائر، تمكنت قيادة أركان الجيش الإسرائيلي من الاستيلاء على جهاز رادار اقتنته القوّات المصرية حديثا.

هذا الجهاز من طراز « P37 » وثلاثي الأبعاد، ومن تصميم حديث، والذي أثار أطماع الجيش الإسرائيلي، قادر على تحديد، ليس فقط المسافة والاتجاه، ولكن أيضا ارتفاع الطائرات، مهما كان تحليقها على علو منخفض جدا. فهو يساعد على الحصول على جميع المعلومات الكفيلة بإدخال أي نوع من الأجهزة المضادة للطائرات بفعالية. في الأسابيع الأخيرة من وجودي في مصر، جبت جميع أنحاء المنطقة التي نصّب فيها مركز الكشف والمراقبة الذي ينتمي إليه الرادار « المتبخر » لم أكن أتصور أنه يمكن أن يحدث شيء من هذا القبيل ! من المفروض أن هذا الهدف، المصنف على أنه « حساس »، يحظى بعدة دفاعات، سواء ثابتة أو متحركة، تشمل أنظمة نيران أرضية ومضادة للطائرات. لكن على ما يبدو ليس هو الحال. قام الإسرائيليون، بعدما اكتشفوا ثغرات في النظام، بشن عملية سمحت لهم، في البداية، بعزل وتثبيت القوّات على الأرض بنيران

أرضية وجوية، ثم جاءت قوّات المظليين، لتفكيك مختلف أجزاء الجهاز وربطها إلى حبال تتدلى من طائرات هليكوبتر أخذت بعد ذلك اتجاه الشرق، أمام نظرات الجنود المصريين المذهولة.

الزحف نحو القاهرة

في بداية صيف 1969، تلقيت اتصالا هاتفيا من العميد شاهين يُعلمني فيه أنّني انتقلتُ إلى العمل تحت قيادة الفرقة المدرعة الثّانية الّتي كانت منطقة تحركها محاذية للفرقة 18 الّتي تمتد إلى غاية الإسماعيلية في الشمال.

وفي صبيحة اليوم الموالي، ذهبتُ إلى القائد الجديد لفرقة المدرعة، وهي الوحدة التي أُلحق بها لوائي للتو، حيث كان مركز قيادته يقع في برج مصفح يعود إلى الحرب العالمية الثّانية. وعند وصولي، تم إدخالي إليه مباشرة، وقد كان العميد طريفا وطلب مني توضيحات حول اللّواء، ثم عزمني على غداء وقال لي : « سوف تتعرف على زملائكم المصريين ».

في المساء نفسه، تعرفت على أبرز الضباط الّذين كانوا جميعا لطفاء وبشوشي الوجه، وكانوا يتحدثون حول مواضيع مختلفة بهدف تمضية الوقت. وبدا أن جو التفاهم يسود بين جميع الضباط الّذين بلغ عددهم حوالي 12، وهو دليل على أن هذا العميد استطاع خلق جو عمل ودي، وهو ما كان مهما بالنسبة لضباط يشتغلون 18 ساعة في اليوم، ولم نكمل عشاءنا حيث تم إطلاق إنذارات جويّة. وتوجهنا إلى الخارج جميعا واصطففنا في ليلة حالكة السواد أمام مركز القيادة. لقد كان الإسرائيليون يطلقون صواريخ مضيئة وقنابل حارقة على المواقع المتقدمة القريبة. وعلى العموم، لم تكن هذه الهجمات تهدف إلا لتثبيط عزائمنا، وبقينا في أماكننا ما دام الإنذار، قبل أن يطلب منا قائد الفرقة الرجوع إلى مواقعنا فأكملنا العشاء قبل افتراقنا. زارنا قائد الفرقة الثّانية لواءنا مرتين في إطار جولاته التفقدية، وكانت فرصة لأعرّفه على رجالي. وطرح أسئلة عديدة وبدا مهتما بكل شيء، وظهر أنه كان يذهب في كل مرة وهو مطمئن وراض.

وفي صباح أحد الأيام، رن الهاتف وكان المتصل هو العميد مصطفى شاهين الذي قال لي : « أخ خالد، لقد عدنا، ومنذ الآن أصبحت مرة أخرى تحت قيادتنا »، ثم أردف : « أنا أنتظرك في مركز قيادة الفرقة 18 في حدود الساعة الحادية عشر ». وأجبته بالإيجاب قبل إقفال الخط وأنا مندهش قليلا من عودته السريعة. وجهزت أوراقي، وخاصة مخطط عملي، وانتظرت وقت الانطلاق. ولم يكن مركز القيادة يبعد سوى 10 دقائق، وبمجرد خروجي من الغابة المحاذية للقناة، وجدتُني في مقابلة شيء كان جديدا بالنسبة لي : عربات ومركبات بالعشرات، ماذا أقول ؟ بل بالمئات كانت متناثرة في الصحراء. ولم أعرف إلى من تتبع هذه المركبات خاصة وأن هذا لا يتلاءم مع طريقة عمل العميد مصطفى شاهين. ولم أفكّر للحظة أن الأمر يتعلق بالفرقة 18. كنت مستغربا كيف

أن الإسرائيليين لم يغتنموا هذه الفرصة التي كانت ماثلة أمامهم ! وربما أن تحركا مثل هذا بكامل هذه المركبات لا يمكن أن يتم دون أخذ الاحتياطات اللاّزمة، وهو ما جعل الإسرائيليين يُحجمون عن الهجوم. ولمّا وصلت إلى المكان المحدد توجهت صوب مخبإ العميد، حيث كان جالسا خلف ما يؤدي وظيفة المكتب، فاستقبلني بابتسامة عريضة فرحا بقدومي، وكنت أنا كذلك. وبدأ مباشرة في شرح الوضع لي قبل أن يسألني إذا كنت تتبعت حوادث الأمس. فأجبته بجواب عام لأنني لم أكن أملك كل التفاصيل، وقد عاينتُ إطلاق صفارات الإنذار.

« لقد حاول الإسرائيليون القيام باجتياح على طول الطريق المؤدي إلى القاهرة، ولم آخذ احتياطاتي شخصيا لأن هذا النوع من المناورات كان رائجا حينها، ثمّ إنّ التصدي لهذا الاجتياح كان من صميم عمل الجيش 3 وليس الجيش 2 الّذي كنت أرجع في قيادتي إليه. بعد الاجتياح الإسرائيلي على طول الطريق بين السويس والقاهرة وتوغلهم إلى حدود 60 كلم من العاصمة، اختارت قيادة الأركان الفرضية الأكثر خطورة لأنها خشيت من هجوم عام حسب ما ذكر لي العميد شاهين. وبناء على هذا، أمرت قيادة الأركان العامة كل الوحدات الّتي كانت خارج مواقعها بالالتحاق بها على وجه السرعة. ثم أخبرني العميد أن ما قام به هو السير مع الفرقة بكاملها في ليلة واحدة، وبما أن الوحدات لم تصل إلّا في الصباح، فإنّها لم تتمكن للأسف من اتخاذ أدنى التدابير الأمنية ».

لست متيقنا. فخلال حرب التحرير، ومهما كان تعب المجاهدين بعد قتال لأيام متتالية ومسيرات مضادة مضنية، كان أول رد فعل بمجرد طلوع الفجر هو البحث عن الموقع الأكثر ملاءمة « لرؤية القادم » بالمعنى الحقيقي للعبارة. لكن هنا، ليست لديّ جميع المعطيات لكي أصدر حكما.

وبدا أن العميد كان مسرورا من أداء وحدته، وذلك أن السير في الليل برفقة 3000 مركبة وأكثر من 10 آلاف رجل على امتداد 150كلم كان يُعتبر إنجازا كبيرا.

الاستنزاف بالمدفعية

اشتدت حدة العمليات العسكرية، وخاصة تلك المتعلقة بالمدفعية أكثر من أي أسلحة أخرى. وكانت المعارك تدور في كل الجبهة المصرية الّتي كانت تشكلها قناة السويس، وكذا في العمق بسيناء. لقد تم التخطيط لهذه العمليات وتنفيذها بناء على أوامر القيادة أو على رد على هجوم الإسرائيليين.

وفي صبيحة القيام بإحدى العمليات، تمكنتُ من معاينة مخطط عمل العقيد أبو غزالة، قائد قسم المدفعية، وتسنت لي رؤية كل مواقع وحدات المدفعية وأهدافهم وكذا البيانات المتعلقة بمختلف مراحل الرمي. وكانت مواقع الدبابات مسجلة كذلك في هذا المخطط، حيث يمكن لها المشاركة.

كانت المعطيات التقنية والتكتيكية للدبابات المصرية (طراز تي 54، تي 55 وتي 62) مُتجاوزة، ونفس الأمر بالنسبة لذخيرتها. واعتبرت دبابة تي 62 ذات رمي قتالي لا يتجاوز 1800 متر في تلك الفترة أفضل دبابة بالنسبة للمصريين، في حين كانت الدبابات الإسرائيلية تحظى بمدى رماية يصل إلى 4000 متر، وكانت أحيانا تستهدف دبابات مصرية فتحطمها دون أن تتمكن هذه الأخيرة من معاينتها.

وفي ذلك اليوم، أطلقت فرقتنا « الفرقة 18 » لوحدها أكثر من 10 آلاف قذيفة على أهداف إسرائيلية، على فترات زمنية ممتدة بين 30 و45 دقيقة، بحسب الإمكان. كان هذا النوع من الرمي يهدف إلى تحضير الجنود، سواء كانوا مجرد ممونين بالذخيرة المدفعية أو ضباط وحدات وقادة أركان، وكذا الإبقاء على حرب الاستنزاف : استنزاف الأعصاب والأجهزة.

بعد انتهاء القصف في حدود الساعة العاشرة مساء، جاءني قائد فوجنا للمدفعية النقيب بوستة ليُعلمني بأن هناك خطأ في الرمي قد تكون إحدى بطارياتنا مصدره، وكنت قد أعلمت مسبقا بأن إحدى عبواتنا سقطت بعيدا عن هدفها، على الحدود بين المصب والبحيرة المرة، مما جعل الأسماك الميتة تطفو فوق الماء. وشرع النقيب بوستة في الشرح حيث حدث هذا حسب تحقيق تم القيام به في وحداته بسبب انقطاع الاتصال في لحظة الإعلام بتصحيحات الرمي، ولم أكن مقتنعا كثيرا بأن المكان الّذي طفت فيه الأسماء الميّتة يوجد في مسار إحدى بطارياتنا، وأن مدفعا واحدا من بين الأربعة كان هو المخطئ. وهذا يدل على أن الخطأ جاء من أحد مستخدمي المدفعية لأنه لم يعط البيانات الصحيحة. وسعدت لأنه لم ير غيرنا هذه الأسماك الطافية فوق القناة لأن رجالنا كانوا متمركزين في تلك المنطقة لوحدهم، ورفضت إعلام القيادة المصرية، بسبب الأنفة دون ريب.

كانت قيادات الأركان المصرية أحيانا تغتنم فرصة التغطية التي كانت توفرها نيران المدفعية من أجل إرسال وحدات « المغاوير »، وهي قوّات خاصة مكلفة بمهمة الحصول على المعلومات حول التشكيلة الإسرائيلية. وهو ما حدث يومها. غير أن أولئك « المغاوير » قد تم رصدهم للأسف وتمت ملاحقتهم بواسطة الدبابات.

لقد ظهرت أكثر من عشر مركبات في مكان تواجد لوائنا واللّواء 134، ودهش رجالي وهم يرونهم متجولين ومنيرين كاشفاتهم الضوئية وقادة الكتيبة واقفون في برج الدبابات. لقد تحول هذا المشهد إلى مادة للحديث بين جنودي عدة أيام، حيث كانوا يتساءلون كيف أمكن للإسرائيليين التصرف بهذه الطريقة تحت وابل من النّار المصبوب عليهم. وظل هذا الاستهتار بالخطر موضوع حديث الجنود الجزائريين لساعات طويلة.

وكان الجواب بطبيعة الحال سهلًا : لقد كان الجنود مدربين بصفة جيّدة وكانوا يعرفون أنّهم في منأى عن قذائفنا، لأنّ الدبابات لا تصاب في المعارك إلّا إذا تلقت عبوة أو صاروخًا مضادًا للدبابات مباشرة. أمّا الرجال الواقفون في مدخل الدبابة، فقد كان تصرفهم طبيعيًا كتصرف كلّ

قائد دبابة في مواجهة رمي عشوائي، وهذا يعني أن كلّ عسكري يمكنه التصرف بمثل ما تصرف به الإسرائيليون في ظروف مماثلة.

العودة

في شهر أكتوبر 1969 تلقينا أمرًا بالتحضير لاستقبال اللّواء الجديد، وهو اللّواء الرّابع الّذي يقوده الرائد محمّد علّاهم. وجهّزنا خطة نقل اللّواء والبعثات الأولى من وحدتي غادرت ليلا إلى القاهرة، حيث يعودون إلى الجزائر عبر طائرات « أنطونوف 12 ». وبحسب القدوم والذهاب، على امتداد 20 يوما تقريبا، وصل قائد اللّواء الجديد. وفي هذا الوقت كله، لم نكن نشعر بمرور الزمن بسبب انشغالنا بالأعمال اليومية. وكان يحدث بانتظام أن نتوجه إلى المخابئ، فالإسرائيليون الّذين رأوا بالضرورة هذه التحركات كانوا « يحيّوننا » و« يسلمون » على الوافدين الجدد بطريقتهم الخاصة. وعندما كنا متواجدين أمام المخابئ، كنا نداعب بعضنا البعض من أجل تمضية الوقت، ولم نكن ندخل مخابئنا إلّا إذا فهمنا بدافع الخبرة أن العبوات كانت تستهدفنا، وكنا نضحك عندما يرتمي القادمون الجدد على الأرض عند إطلاق الإسرائيليين العبوات، لأنّهم لم يكونوا متعودين على الوضع.

وكان هذا أيضا هو الوقت المناسب لتوديع الأشقاء المصريين، ولاسيما العميد مصطفى شاهين الّذي اعتبرني دائما واحدا من أفراد فرقته، فكان يُشركني في كل اجتماعات الضباط ولا يخفي عنّي أدق التفاصيل حول ما يحدث في الجبهة.

سلوانا من الحزن الّذي خيّم علينا مع اقتراب موعد الرحيل أن يكون من سيحلون محلّنا في مستوى آمالنا. وفي رصيد محمّد علّاهم إنجازات استثنائية.

عدت إلى مصر للمرّة الرّابعة في بداية السبعينيات، كنت ضمن وفد كلّف بتسليم بعض التجهيزات للقوّات العسكرية المصرية. كان الوفد تحت قيادة العقيد محمد الصالح يحياوي. حملنا رسالة من هواري بومدين يبلغ فيها وزير الدّفاع المصري، اللّواء محمود فوزي، استعداد الجزائر لأن تضع في متناول بلده ستين طائرة حربية، و150 سيارة مصفحة وما بين 75 و100 دبابة سيسلمها الاتحاد السوفيتي. على أن تتفاوض الجزائر على مجموع ذلك وتدفع ثمنه. وفي الحقيقة إنّ المساعدة الّتي قدمتها الجزائر لمصر لم تحسب أبدًا.

غادرت أنا ورجالي مصر في حالة حرب ونحن مرتاحو الضمير على القيام بواجبنا في أحسن وجه. كنّا إلى جنب جيش يتعافى ببطء من هزيمته.

لم يمنع التفوق العسكري المصريين من عبور القناة ومباغتة العدوّ، رغم « خط بارليف »، وكان هذا في حد ذاته إنجازا للجيش العسكري الّذي طالما وصفته التعاليق الدعائية والمغرضة أنه جيش لا يقهر.

وأثبت العبور قدرة المصريين على التنفيذ المحكم لما تم التخطيط له مسبقا، كما أنها أثبتت من جهة أخرى ضعف قيادات الأركان والقيادات في توجيه العمليات الطارئة. كما سمح النصر المصري بالتخلّص من عقدة التفوّق وأسطورة الجيش الصهيوني الّذي لا يُقهر. ولقد أعدّ هذا النصر في « مدرسة » حرب الاستنزاف. ولقد كان للجزائر وجيشها دور كبير فيه.

لكن حرب أكتوبر وما تلاها قصة أخرى...

المظليّون

بعد عودتي من الشرق الأوسط، استدعاني عبد القادر شابو ليبلغني بأن الرّئيس بومدين كلّفني بتشكيل أولى قوّات المظليين الجزائرية. لم يقلقني تكوين المشاة المظليين من نوع الكوماندوس ؛ لأنه من تخصصي. لكن تقنيات القفز غريبة تماما عليّ. لهذا كان الإشراف على مدرسة لتكوين مظليي الغد من دون معرفة أبجديات القفز بالمظلات، يبدو لي أمرا غير جدي. فطلبت أن أرسل للتكوين في الاتحاد السوفيتي.

في ريازان على بعد 350 كيلومترا من موسكو، حيث توجد مدرسة المظليين، أشرف على تكويني ضابط طيران وضابط مشاة. لمدة شهرين ونصف، علّمنا المدرّبون معنى القفز بالمظلات : مهامه، تقنيات القفز وإلقاء العتاد. مهمّة المظلي، بمجرد أن يصل إلى الأرض، هي نفس مهمّة جندي المشاة. أي أن المظلة ما هي في الحقيقة إلا وسيلة من وسائل النقل. ويمكن للمظلي أيضا أن يؤدّي مهمات مدنية في حالة وقوع كارثة طبيعية، كما يمكن أن يشارك في تدريب الشباب في نوادي القفز بالمظلات. بالإضافة إلى ذلك، يمكنه في حالة الحرب أن يضطلع بمهام صعبة خلف خطوط العدو، في عمليات فدائية أو كشف مناطق الإلقاء. قد تتم العمليات بواسطة جهاز إرسال أو إلقاء أو بالنزول. يشكّل المظليون وحدات خطرة ؛ لأن بإمكانهم السيطرة على أهداف استراتيجية هامة مثل المطارات. وبعد فرض السيطرة على المطار وتأمينه، يمكن للطائرات الهبوط وإنزال جنود ومعدات. وهناك أقسام رياضية مجهزة بقناع أكسجين، يلقون في سقوط حر من ارتفاعات تصل إلى ثمانية آلاف متر.

بعد الانتهاء من تربصي، عدت إلى الجزائر مع فريق من المتخصصين يقوده الجنرال كوروتشكين لننجز معا دراسة القابلية. بدأنا بالبحث عن موقع قريب من أحد المطارات من أجل الاقتصاد في التكاليف وفي الوقت. اخترنا سطيف، لكن سرعان ما تخلينا عن هذا الخيار، فهذه المدينة الواقعة على ارتفاع يقرب ألف متر من مستوى سطح البحر، ليست مناسبة لمجنّدين شباب يفتقرون للخبرة. فوقع اختيارنا على بسكرة.

في بسكرة مطار، كما أن عدد الأيام المشمسة وسرعة الرياح المحسوبة على مدى العشر سنوات الماضية، مواتية. بالإضافة إلى أن وجودها على ارتفاع أقل من 5 أمتار تحت مستوى سطح البحر

ووجود مناطق نزول قرب سيدي عقبة في مساحات شاسعة، يساعدنا. يجب ألا تتجاوز سرعة الرياح للمبتدئين 5 إلى 6 متر/ ثانية. أما القفز القتالي، فيمكن أن يتم في أي موقع، في الجبال وفي الغابات وفوق الماء، ليلا ونهارا. في هذا النوع من القفز، يجهز الرّجال بأسلحة فردية وجماعية : بندقيات رشاشة ومدافع هاون وأجهزة إرسال وغيرها من المعدات. ويلقى بالعتاد الثقيل إما في أكياس خاصة أو في عربات نابضة من 500 كلغ في شكل خلايا النحل. وهناك منصات تزن ما بين 3 إلى 5 أطنان مجهزة بصواريخ رجعية للكبح.

قام مهندس سوفييتي، بمساعدة أخصائي جزائري، بإنجاز « المدينة المحمولة جوا » حيث كلّ شيء متوفر : محاكاة القفز، ميدان للقتال ضد الدّبابات وميدان للمخاطرة. ولقد تكفلت بصنع برج القفز الشركة الوطنية للحديد والصلب في الحجار.

المظلات يطويها القافزون أنفسهم. ويستغرق الطي نصف يوم. العملية بسيطة، لكن أدنى هفوة في ترتيب المظلة قد يسبب خسائر في الأرواح.

اعتمد السوفييت هذا الأسلوب ؛ لأن قواعدهم المعدّة للطي، خلال الحرب العالمية الثّانية، دمّرت بالكامل من قبل سلاح الجو الألماني واستخدم مظليوهم كمشاة. في بلدان أخرى، يوظف متخصصون في الطي، خاصة من النساء، لأنهن أكثر مهارة لمثل هذه المهام.

في البداية، كانت الطّائرة المقاتلة الّتي نستخدمها، وهي من طراز « أنتونوف 12 »، تلقي بسرعة عالية جدا (360 كم/ساعة) مع خروج من الخلف، مما يسبب في دوامات هوائية كبيرة. المظلة المستخدمة لهذا الغرض هي من النوع المتحكم فيه، مزوّدة بجهاز ضبط، وكذلك تلك المستخدمة للقفز في الجبال. يتم القفز القتالي بالتحكم الذاتي، يسحب فيه المظلي بنفسه على المقبض لمدة 5 ثوان. يكون المظليون، في أولى تجاربهم، مزوّدين بجهاز فتح آلي يشغّل مقبض الفتح في حالة إغماء بعد الخروج من الدوامات. قبل استخدام الطّائرة المقاتلة، يطلب من المظلي إجراء ثلاث عمليات قفز من طائرة أبطأ، بواسطة مظلة ذات الفتح الآلي. وقع اختيارنا للتدريب على طائرة « فوكر 27 »، الّتي تؤمّن مهمتي الطّيران والهبوط بالمظلات في آن واحد. أدركت أثناء التجارب أن الطّائرة تطير بسرعة كبيرة جدا وأن خيوط اللف المطاطية تتمزق.

الشركة الّتي اشتكينا لها عدم ملاءمة المظلة للطائرة، سمحت لنا بالحد من السرعة الّتي كانت حينها تقارب سرعة الانفصال. أصبح من الممكن القيام بعمليات القفز التجريبي على علو منخفض مع فتح جميع الأبواب، طالما أن الطّائرة جديدة ويقودها طاقم ذو خبرة. فيما بعد، استبدلت الطّائرة المقاتلة وأعطيت طائرات « الفوكر » للطّيران المدني.

تم اعتماد شهادتين في القفز. الشهادة البسيطة تتطلب ثماني عمليات قفز، ثلاثة منها تدريبية ؛ أما الثّانية، وهي الدرجة الأولى، لا يُحصل عليها إلا بعد خمس وعشرين عملية قفز. بعد نيل الشهادة، يجب إجراء ثماني عمليات قفز سنويا في إطار الاستجواب، من أجل الحصول على الإجازة. الضبّاط، من جهتهم، ملزمون بإجراء ست عمليات قفز رياضية. هم آخر من يقفز، ولديهم

مظلات قابلة للتوجيه تسمح لهم بالتموضع وسط جنودهم. يتم القفز القتالي في ضاية قرب بريكة. الجنود مجهزون بكافة المعدات وسرعة الرياح تتراوح بين 8 و10 أمتار في الثّانية.

ذات يوم، عشية افتتاح المدرسة، وبعد الانتهاء من تشكيل فيلق والشروع في إعداد الثّاني، أجريت غارة على مسافة 75 كم، تم جزء منها ليلا. عندما تأتي الطائرات للإلقاء، تتضاعف سرعة الرياح الّتي نحسبها بواسطة أجهزة قياس فردية، وتعصف بسرعة تتراوح بين 10 و12 متر/ثانية. قرّرنا رغم ذلك السماح بالإلقاء، علما بأن الرّجال على أتم الاستعداد. في لحظة انفتاح المظلات أجبرتنا قوة الرياح على التفرّق في المنطقة لخنق القباب المنتفخة الّتي أصبحت خطرا حقيقيا على المظلي. بعد القفز، يجري المظليون تمرينا في الاستطلاع والتحمل البدني إلى غاية بسكرة. يلقى بهم دفعات. في الليل، يقومون بمحاكاة هجمات على مواقع معدة مسبقا ومحتلة من قبل من يمثّلون العدو، وفي أيديهم خرائط وبوصلات. عندما يصلون إلى بسكرة، يختمون بعملية إطلاق نار قتالي خاص بالكتائب. على الرغم من سرعة الرياح المفرطة، لم تسجل أية إصابات في ذلك اليوم. وقال لي الأخصائي السوفيتي : « لديكم مظليون ممتازون ومتمرسون. إنّ القفز في مثل هذه الظّروف عندنا قد يسبب لنا ليس فقط إصابات، وإنّما ربما أيضا قتلى. »

يوم افتتاح المدرسة، كان بومدين حاضرا. وقدّم أمامه عرض قفز قتالي مع مناورات بالذخيرة الحية. بدأ الاستعراض بقفز رياضي. إحياء للصداقة بين الجزائر والاتحاد السوفيتي، قفز قائد القسم الرياضي، الملازم دهان عبد الحميد والأستاذ السوفيتي، يدا في يد، من على ارتفاع ألفي متر، وكان كلّ واحد يحمل علم بلاده على طول ساقه، راسمين على مجراهما خطا ملوّنا من الدخان.

بعد ذلك، أسسّت مدرسة جديدة وصار ضبّاط كلّ المدارس يقضون فيها أسبوعين لنيل شهادة مظلي. الكثير من الضبّاط المدرّبين في هذه المدرسة يحتلون اليوم مناصب عليا في الجيش الوطني الشّعبي. بعضهم تولى قيادة فرق مشاة، وآخرون أصبحوا نواب نواحي عسكرية، وكثير منهم في الوحدات القتالية. إلى آخر يوم من تواجدي ببسكرة، تم تنفيذ ما يقرب من ألف عملية قفز. وسجّل حادث مميت واحد فقط.

وفيما يخصّني، ما زلت احتفظ بذكريات لا تنسى عن جميع الضبّاط وضبّاط الصف والجنود المنتمين إلى فرقة النخبة هذه والّذين رافقوني وشاركوا في إنشاء هذه المدرسة، ولاسيما منهم عناصر الدفعتين الأولى والثّانية. وأترحّم على كلّ الّذين استشهدوا في ميدان الشرف، منهم العقيد حاج شريف جلول من الدفعة الأولى للمظليين، وقائد قطاع العمليات بالجزائر العاصمة، الّذي سقط ببطولة يوم 2 نوفمبر 1994 وهو يحاول تهدئة إرهابيين كانوا يهددون بقتل رهائن وتفجير المبنى الّذي اختبأوا فيه في حي تليملي.

بعد بسكرة، وبينما كان العديد من رفاقي قد انتقلوا إلى الكلّية الحربية والعمل الّذي كلّفت به لتكوين فرقة المظليين قد قطع مراحل متقدّمة، طلبت أن أسافر إلى باريس لاستكمال تكويني. وقُبل طلبي.

في الكلّية الحربية، كنت ضمن الدفعة التّاسعة والثمانين الّتي كانت تضم آنذاك 53 متربصا من بينهم عدد من الأجانب. عيّنت في فوج من 15 ضابطا، يوجد فيه أوبريان وهو مقدّم أمريكي ولاتوري، رائد إيطالي، وأنا. أحتفظ بذكريات جميلة عن هذه المدرسة العريقة الّتي تقدّم تعليما في مختلف الأسلحة (البرية والجوية والبحرية) واستكملت ما تعلّمته في الاتحاد السوفيتي وصقلت تجربتي الذاتية.

في الغرب، يقوم المبدأ الأساسي الّذي يستند إليه التعليم في المدارس على الاستثمار في الإنسان. وكان أحد مدرّسي التكتيك في مدرسة ستراسبورغ يقول : « نحن الفقراء (يقصد بذلك مقارنة بالسوفييت والأمريكان)، نفضل مناورة النيران والوسائل عكس نظام « الجيش الجرار » الّذي يستخدمه السوفييت والأمريكان، الّذين لديهم إمكانيات غير محدودة.

عدت إلى هذه المدرسة في حالة ذهنية أخرى. ذلك أن الجزائر مضطرة لاعتماد نموذج العمل التكتيكي والاستراتيجي الفرنسي والغربي عموما، أما الدعم اللوجستي، فيمكن أن يستلهم من السوفييت في ذلك الوقت ؛ لأن هذا النمط في رأيي هو الأنسب.

الباب الرّابع
مشواري العسكري

مقدّمة

1970، الاستقلال أقفل سنته الثّامنة. الجزائر الّتي واجهت أزمات متكرّرة لا تزال تتعافى. المواجهات الّتي اندلعت في صيف 1962، وأحيت الولائيّة وأثارت حملات العدوان الخارجي، وحركات التمرّد العسكريّة، والانقلابات الفاشلة والانقلابات النّاجحة، كلّ ذلك تغلّب عليه هواري بومدين وتجاوزه. وهو الآن لوحده على السّاحة السّياسيّة ويحكم الجيش بقبضة حديديّة.

بعد فشل محاولة الانقلاب الّتي قادها زبيري في ديسمبر عام 1967، عانى الكثير من قدماء جيش التّحرير من عواقب عمليّة « التقليص » الّتي أجراها الأمين العام لوزارة الدّفاع عبد القادر شابو. لم يغادروا الجيش لأنّهم من مؤيّدي زبيري أو من أقاربه، لكن لأنّهم غير قادرين على المشاركة في تجسيد دفتر الأعباء الجديد للمؤسّسة العسكريّة.

بعدما تحرّر هواري بومدين من البعض وتخلّص من البعض الآخر، راح يخطّط لبرنامج اقتصادي واجتماعي يضفي محتوى على عمله، وينمّق الكلمات الّتي يخطب بها على الجماهير، ويصنع الأدوات البوليسيّة الّتي تضمن له السّلطة مدى الحياة، وشرع في بناء سمعة دولية. اختزل الجيش في دور القوّة المتحكّمة على رقاب الشّعب، وحدد سقفا أعلى للرّتب العسكريّة، كما عمل على إدامة الصّراعات بداخله، وأقحمها رغما عنها، وظاهريّا فقط، في السّياسة (مجلس الثورة)، وأصبح القاعدة الأساسّية الّتي تقوم عليها هياكل النّظام.

أسند لأحد أجهزته دور البوليس السّياسي الّذي أدّته بفعاليّة كبيرة. فأصبح الأمن العسكري الذّراع العسكرية للنّظام وورّط الجيش بكامله في قمع المعارضين السياسيّين.

إنّ تاريخ الجيش الجزائري، في عهد البومدينيّة المظفّرة، هو تاريخ مؤسّسة عسكريّة حادت عن مهامها الدّستوريّة الحقيقيّة بسبب حسابات السّلطة الّتي يغذيها قائدها الأعلى، وخاصة بسبب هواجسه.

في غياب تهديدات خارجية محددة وفوريّة، احتلّت فيالق الحدود القديمة، الّتي تمّ تجديدها وأعيد تشكيلها، مواقع استراتيجية لأوسع « تغطية » ممكنة للتّراب الوطني[38].

38. كان بومدين يردّد : « يجب أن يكون الجيش عصا في أيدي السّلطة الثورية ».

وكانت الحاجة لإعادة هيكلة الجيش حاضرة في الأذهان منذ عام 1962. لم تتحقّق لأنّها لم تعتبر أولويّة. كانت هناك تعديلات لمسايرة العصر ودعمٌ بوسائل جديدة وفقا للإمكانيات المتوفرة لدينا. إلاّ أنّ هذا التطوّر البطيء والتّجريبي لوسائلنا الدّفاعية تأثّر أكثر بجمود من كانت بين يديه سلطة القرار. خلال الفترة الانتقالية الّتي أعقبت وقف إطلاق النّار، تمّ إنشاء لجنة في ملاق (تونس) مهمّتها اقتراح التّركيبة الّتي ستكون بها القوّات المسلّحة في مرحلة ما بعد الاستقلال. أعدّت « نظاما مؤقّتا للخدمة في الجيش »، دخل حيّز التّنفيذ فور نشره، واعتمد لسنوات عديدة. كما اقترحت نفس اللّجنة إنشاء مجموعات فرعيّة من القوّات ونواح عسكريّة.

بعد الاستقلال مباشرة، أنشئت مديريّات جديدة للأسلحة : الطّيران والبحريّة والهندسة، والعتاد والإرسال والإدارة والماليّة والمدفعيّة، والدّفاع المضاد للطّيران، والصّحة وسلاح الفرسان المدرّعة، والنّقل عبر السّكك الحديديّة والأمن العسكري.

وأسسّت مدارس : مدرسة متعدّدة الأسلحة بشرشال، ومدرسة المهندسين والتّقنيّين ببرج البحري، ومدرسة العتاد في « بوليو » (المكان الجميل)، ومدارس للإدارة والمدفعيّة، والدّفاع المضاد للطّيران وسلاح الفرسان المدرّعة، وكذلك مدارس لتكوين ضبّاط الصّف ثمّ ضبّاط الخدمة الوطنيّة. كان التّقسيم الإقليمي في البداية منطبقا للولايات التّاريخيّة : النّاحية الأولى في البليدة، والنّاحية الثّانية في وهران، والثّالثة في بشّار، والرّابعة في ورقلة، والخامسة في باتنة، والسّادسة في قسنطينة، والسّابعة في تيزي وزو... ثمّ عدّل هذا التّقسيم بعد ذلك بنقل قيادة النّاحية الخامسة إلى قسنطينة، وإلحاق النّاحية السّابعة بالنّاحية الأولى (البليدة). وفي كلّ ولاية أنشئ قطاع عسكري إقليمي.

كان عقد السّبعينات هو عقد هواري بومدين حقا. هو عقد المخطّطات الرّباعية والإصلاح الزّراعي والميزانيّات الضّخمة المخصّصة للتّعليم، وهو أيضا عقد تشييد « الدّولة الّتي لا تزول بزوال الرّجال ». وفوق كلّ هذا كان عقد الأمل.

كانت الأولويّات بالنّسبة لهواري بومدين في أماكن أخرى غير الجيش. ولتنفيذ برنامجه الاقتصادي والاجتماعي الطّموح، لم يرغب في الإنتظار مدى الدّهر، بل أراد أن يستمتع بلده بثمرات جهوده في أسرع وقت. وبما أنّه لا يؤمن إلّا بالطّرق المختصرة وبفعاليّة الهيئات المنظّمة، شارك الجيش، من خلال الخدمة الوطنية، في مهام التّشييد في مجالات شقّ الطرق وحملات التشجير وفي أعمال اجتماعية شتّى. الثورة الّتي أعلنها بومدين وقادها بالأوامر، جرت من دون الإقبال الشّعبي الّذي يضمن النجاح. لكن ذلك لا يهمّ، ما دام الأمل في حياة أفضل موجود. فالجزائريون، وعلى الرغم من الحزب الواحد والأساليب الشّديدة الّتي يمارسها البوليس السياسي، وعلى الرّغم من الندرة من كلّ الأنواع، لم يكونوا كتلة مهملة. فكان لشعار « بالشّعب وللشّعب » مضمون فعلي لا يمكن لأحد إنكاره.

أشار إلياس بوكراع في كتابه الممتاز « الجزائر، الرّعب المقدس »، إلى « استراتيجية التنمية الجزائرية » وحللها كما يلي : خطّة ثلاثية (1967 - 1969) وخطّتان رباعيتان (1970 - 1973 و1974 - 1977). وتتميّز الخطّة الرباعية الأولى بحجم الاستثمارات : 33,1 مليار دينار بهدف تحقيق زيادة بنسبة 37٪ من النّاتج المحلّي الإجمالي. وخلال الخطّة الرّباعية الثّانية، ارتفعت الاستثمارات إلى 110 مليار دينار. وهو مستوى إستثماري لم يصل إليه آنذاك أي بلد في العالم خلال تلك الفترة الزّمنية القصيرة : ما يقرب من 28٪ من النّاتج المحلّي الإجمالي في 1969 وأكثر من 50٪ في عام 1977. وينفرد القطاع الصّناعي بحصة الأسد : 45٪ من المبلغ الإجمالي، مقابل 15٪ فقط للزّراعة خلال المخطّطين. كانت نتائج هذه الجهود الاستثمارية الضّخمة ملموسة. فقد امتلأت الجزائر بالورشات خلال هذه الفترة. مئات من المصانع رأت الوجود. ووفّرت الجزائر لنفسها الوسائل اللّازمة لصنع الجرّارات في قسنطينة والشّاحنات في الرويبة، وآلات الحصد والدّرس في سيدي بلعباس والحديد والصلب في الحجّار... وسيّل الغاز الطبيعي في أرزيو وكرر النفط في كلّ من سكيكدة والجزائر العاصمة.

« في خلال عقدين من الزّمن، أخذت الجزائر مكانتها بين اقتصاديات حوض البحر الأبيض المتوسط، بناتج محلّي إجمالي (36 مليار دولار في 1980) يأتي مباشرة بعد إسبانيا، ويتعادل مع تركيا ويوغوسلافيا ومتقدّم على اليونان والبرتغال والمغرب ومصر. وفي نفس السّنة، كان دخل الفرد 1935 دولار، أي ضعف ما هو في المغرب المجاور. كما نتج عن هذه العشرين عاما من النّمو المتسارع تحسن لا جدال فيه في مستوى معيشة السكان.

أنشئ 600 ألف منصب شغل. وفي الفترة ما بين عام 1966 وعام 1987، انتقلت حصة المساكن الموصلة بشبكة المياه من 1219 في عام 1963 إلى 17760 في عام 1987. وعدد الصيدليات من 204 إلى 1752، وأطباء الأسنان من 151 إلى 5684. وفيما يتعلّق بالتعليم، ارتفع عدد المتمدرسين من 809 ألف في عام 1963 - 1964 إلى أكثر من 5 ملايين في 1987 - 1988، خلال نفس الفترة. وأخيرا، ارتفع عدد الطلبة في الأقسام الجامعية من 2800 إلى 174 ألف... »

كانت الجزائر يحسد عليها بين دول الجوار الّتي تعاني شعوبها من الفقر والاستغلال ومن ظلم وقسوة أنظمة القرون الوسطى أو البرجوازية الكومبرادورية. لكن أخطاء في الرّؤية ونقائص وانحرافات منعت هذا الجهد الهائل من تحقيق كلّ النتائج المرجوة. ومع رحيل بومدين ومجيء الشّاذلي بن جديد إلى السّلطة، وتفويضه الحكم لمسؤولين عديمي الكفاءة ومتسلّطين، وضعت حدّا نهائيّا للتنمية المخطّطة في البلد.

دفع انسحاب إسبانيا من الصّحراء الغربيّة، وقرار الحسن الثّاني بأخذ مكان المحتلّ القديم، بهواري بومدين لتغيير نظرته الشخصية عن الدّور الحقيقي للجيش. فأصبح الجيش الساكن والموجّه للاحتلال الأفقي للبلد مضطرّا للتغيير.

طمع المغرب في استعادة « الإمبراطورية » العلوية القديمة في « حدودها التّاريخية » الّتي ترسمها ولاءات بعض أعيان القبائل وعصابات النهب المخزنية والقوافل الّتي ترغمها المحطات الّتي توجد فيها نقاط المياه على التفافات طويلة للطّريق. ولقد تسبب هذا الحلم في « الهويّة المغربيّة » الّتي يريد ملك المغرب أن يخضع باسمها أقاليم وشعوبا لسلطانه، في بلبلة كبرى عمّت المنطقة كلها. جزء كبير من الصّحراء الجزائرية معني بالقضيّة[39]. كان الحسن الثّاني يواجه مشاكل داخلية عويصة، ومنبوذا من قبل شرائح واسعة من المجتمع المغربي، بالإضافة إلى أنه كان تحت تهديد العسكر لا ننسى أنّه نجا في جويلية 1971 وأوت 1972 من محاولتي اغتيال دبرهما ضبّاط من القوّات المسلّحة المغربيّة. ولهذا أراد أن يستعيد السيطرة على الجيش ويعيد توحيد بلده حول شخصه بإعلان « حدود جديدة ». فكانت « المسيرة الخضراء »، الّتي انطلقت في شهر نوفمبر 1975 ودفعت إلى الأراضي الصّحراوية بنحو 350 ألف مغربي، تحت تأطير 20 ألف جندي بقيادة ذراعه الأيمن أحمد الدليمي[40]، وأعطت إشارة الانطلاق لهذه العملية التمويهية.

ظلّ مستقبل السّلام في هذا الجزء من شمال إفريقيا مرهونا بالطّريقة الّتي ستعارض بها الجزائر المد التّوسعي المغربي. فمنذ حرب الرّمال عام 1963، نشأ نوع من التوازن العسكري الاستراتيجي بين البلدين. كان الملك لا يريد جيشا مغربيا قويا قادرا على تهديد عرشه، ولهذا لم يكن متحمسا للسّباق من أجل التسلح. ومن جهته، كان هواري بومدين منهمكا في البناء الاقتصادي لبلده مستثمرا فيه كلّ دينار يدخل إلى الخزينة، فلم يعط الأولوية للجيش الوطني الشّعبي. وبسبب الحسن الثّاني، عاد البلدان لسباق محموم ولا حدود له من أجل التسلّح. بغض النّظر عن المطلب الخاص بالأراضي، أعطى النموذج الجزائري المعروض على الشباب المغاربة الّذين يعانون من ديكتاتورية القرون الوسطى، بعدا إيديولوجيا لمعاداة الملك. وبصرف النّظر عن خطر الوقوع تحت الحصار وخسارة أراضي وتركيز كلّ الجهود على التصدّي لجار مصمّم على انتهاك القوانين الدولية وتجاهل المعاهدات، كانت للجزائر كلّ المبررات الأخلاقية والسّياسية لمعارضة السّياسة التوسّعيّة الّتي أقرّها الحسن الثّاني.

بعد احتلال الصّحراء الغربيّة والتصريحات المنسوبة لجهات مغربية ولم تكذّب[41]، تدعو للطّعن في اتفاقيات ترسيم الحدود المبرمة عام 1972، أدرك هواري بومدين بأن الجزائر في مرحلة خطر ويجب تركيز الجهود على وسائلنا الدّفاعية. مع قضية امقالة، أدرك فجأة بأن الجيش ليس

39. كانت مخابراتنا تعرف أن هناك مبعوثين مغربيين يحاولون إثارة بعض القبائل المتمركزة في جنوب غرب الجزائر. في 3 جويلية 1962، وفي يوم استقلالنا، رفعوا العلم الشريفي على المباني الرسمية، مما أثار رد فعل عنيف من قبل جيش التّحرير الوطني.

40. ورث أحمد دليمي، المدبر الرّئيسي لاغتيال بن بركة، صلاحيات الجنرال أوفقير، قائده السّابق. بعد رقي إلى رتبة لواء القوّات المسلّحة المغربيّة، قتل هو بدوره على يد الحسن الثّاني، في يوم 22 جانفي 1983.

41. هناك خرائط عن « المغرب الكبير » تظهر عليها الأقاليم الّتي يدّعي الحسن الثّاني انتسابها إلى بلده، تملأ جدران الأقسام في مدارس المملكة. ويبدو جزء كبير من الصّحراء الجزائرية تحت الألوان العلوية. ولقد خاض حزب الإستقلال حملات متتالية من أجل تجسيد هذا « المغرب الكبير » على أرض الواقع.

فقط مدراء مركزيّين يؤدّون دور رؤساء مكاتب ويعملون تحت إشراف أمين عام حريص على عدم إلقاء أيّ ظل على « المعلّم »، وقادة نواحي طيبين غارقين في روتينهم اليومي وحفنة من الضّباط المحترفين لا سلطة لهم ولا إمكانيات. عندما استدعاني من المدرسة الحربية بباريس، في أوج الأزمة مع المغرب، ليطلب منّي الذّهاب إلى تندوف من أجل تقييم الوضع وصياغة مقترحات، كان على استعداد للنّظر عن كثب في النقائص الّتي يعاني منها الجيش الوطني الشّعبي وللبحث عن علاج لها. بعد عدّة أسابيع من وجودي في الميدان، تخلّلتها العديد من الزّيارات إلى الوحدات المتناثرة على الهضبة، عدت لأقدّم له عرضا استمع إليه بأذن صاغية. وفي التّقرير الكتابي الّذي سلّمته إياه، والّذي أعددته وأتممته بالتّشاور مع الضُبّاط المتواجدين في الميدان، كنت مصرّا على حاجة الجيش للتّموين والتّأطير والتّدريب والتّنظيم، حتّى يؤدّي مهامه على أحسن ما يرام. وعلى الرّجال الّذين يشكّلون هذا الجيش أن تتاح لهم وسائل الرّاحة الّتي تساعدهم على تحمّل الظّروف الشّاقة الّتي يتميّز بها الجنوب الكبير.

في هذا الجزء من الكتاب، أشرح كيف أنجزت الخبرة المطلوبة منّي، وأستعرض إنجازاتي في قطاع العمليات لجنوب تندوف التّابعة للنّاحية العسكريّة الثّالثة، في الفترة ما بين سنة 1976 وسنة 1979، ثم على رأس نفس تلك النّاحية من عام 1979 وحتّى عام 1982. حوّل الضبّاط وضبّاط الصّف والجنود بقعة مربّعة الشّكل تفحّمت تحت الشمس والريّاح الرملية، إلى ميدان ضخم للتّدريبات والمناورات ساعدهم على تحويل جيشهم إلى أداة عصرية وفعّالة. إنّ الإنجازات الّتي صنعها هؤلاء الرّفاق الشّجعان والمتفانون جديرة فعلا بأن تُذكر حتّى يعرفها الجيل الجديد.

كانت هضبة تندوف، خاصة في السّبعينات والثمانينات، تشكّل محطّة هامّة في تحوّل هيكل الجيش الوطني الشّعبي وتغيّر ملامحه الخارجية. ذلك أن الإقامة في النّاحية العسكريّة الثّالثة، من خلال التّناوب العادي للوحدات وتعيينات شباب الخدمة الوطنية، كانت أكثر من حضور بدني في منطقة جديدة من مناطق البلاد، وإنّما غوص في أعمق أعماق الوطن. فهذا الجنوب الّذي ذهبوا للتّدرب والحراسة فيه، صقلت الصورة الّتي تكوّنت لديهم عن امتداد بلادهم وتعدد مناخاتها وتضاريسها وتنوّع عاداتها وتقاليدها.

في هذه الصفحات، أشيد بالدّور الّذي اضطلع به الشّاذلي بن جديد، بعد تولّيه رئاسة الجمهوريّة، في عملية تحوّل الجيش وفي تجهيزه بالمعدّات الحديثة.

قد يتفاجأ القارئ لمّا يسمعني أقول كلاما جميلا عن بن جديد، بعدما قلت عنه في نصوص أخرى، كلاما قاسيا. لكن دعونا نضع كلّ شيء في نصابه. يعتبر الشّاذلي من أبناء الجيش، ولهذا كان يعرف عيوبه ونقائصه. ولم يكن لديه خلاف شخصي مع أيّ إطار من إطارات المؤسسة[42]. لم يكن

42. أمر بإطلاق سراح أعضاء سابقين في الجيش الوطني الشّعبي سبق وأن أدانتهم المحاكم الخاصة الّتي أنشأها هواري بومدين، ووضع حد لنفي المعارضين السياسيين، واستعاد رفات المجاهدين الّذين أعدمتهم « الثورة » ودفنوا في تونس والمغرب. ورد الاعتبار لكبار قادة الثورة الّذين اغتيلوا بعد الاستقلال، وأمر بإطلاق اسماءهم على شوارع كبرى وجامعات، ومن بينهم كريم بلقاسم ومحمد خيضر.

لبن جديد نفس الحواجز النّفسية ونفس الهواجس الّتي كانت تسكن سابقه. فعمليّات التّنظيم والتّكوين والتّجهيز والتّحديث الّتي بدأت ببطء في السّتينات والسّبعينات، شهدت وتيرة متسارعة وأكثر عمقا في الثّمانينات.

أدركتُ أثناء تأليف هذا الجزء من ذكرياتي، أنّه كان عليّ أن أستعرض مسيرتي ضمن سياق سياسي أوسع وأشمل مع احترام خطيّتها. فلا يسع لي أن أحصر شهادتي في الجانب العسكري الّذي قد لا يهمّ في هذه الحالة سوى عدد قليل من الناس. فكان عليّ إذًا أن أتطرق إلى ما هو أبعد من ذلك. كنت خلال مسيرتي شاهدا على أفعال وقرارات كان لها أثرٌ جَلي على الحياة الوطنية وعلى الجيش، وأحدثت ديناميكيّات ودفعت أحيانا الجيش لتخطّي الجلمود الصّخري المحيط بثكناتها.

سأتطرّق من ضمن النّقاط الّتي سأتناولها، إلى الأيّام المشهودة الّتي قامت فيها حفنة من « صنّاع القرار » العسكريّين ومن غير تفويض من أقرانهم، بفرض الأمر الواقع وتنصيب « أقدم عسكري في أعلى رتبة » على رأس الجيش والبلد. وسأشرح بعد ذلك لماذا كان ذلك ممكنا، وكيف تم ذلك.

سأتحدّث عن العمل السياسي الّذي قام به الشّاذلي بن جديد بعدما ورث دولة كانت سائرة في نمو متسارع، وفشل في مواصلة جهود سلفه، إلى أن بدأ شبح الإحتجاجات يخيّم على شوارع مدننا وقرانا.

لقد تناولت معظم هذه المسائل في كتابي : « محاكمة باريس. الجيش الجزائري في مواجهة التضليل ». رجعت إليها وأعدت صياغتها وحصرها في الإطار الخاص بهذا الكتاب. كان بوسعي أن أخصصها للشّق السّياسي من مسيرتي، أي للكتاب الثّاني من مذكّراتي. لكن بعد تفكير، ارتأيت أن أستحضرها هنا، لأنها تسلّط الضوء على مرحلة حاسمة اضطر فيها الجيش، بسبب فشل الحكام وأعمال الشغب العبثية، للتخلي عن دوره التقليدي من أجل خير هذا البلد، وربما ليس لخير قادته.

إنّ الصّفحات الّتي أفردها لهذه الأحداث هي مراجعة مختصرة وضرورية لفهم الكيفية الّتي سارت بها الأمور.

دورات الحياة الثلاث

كانت السنوات الّتي قضيتها في بسكرة ربما أسعد سنوات حياتي ؛ لأنّ الدّورات الثلاث الّتي تكوّن حياة الإنسان كانت متطابقة بشكل متناغم. يحدث أن تتداخل في بعض الأحيان، لكنها لم تتصادم أبدا. الدورة الأولى مليئة بوجه المرحومة زوجتي وأبنائي مع كلّ التفاصيل الكثيرة والمحفورة في الذّاكرة، وتقاطعات الأصوات والصّور والأحاسيس الّتي تشكّل النّبضات الحيّة للماضي. الدّورة الثّانية غنية بدفء الصّداقة والثّالثة هي الّتي أتحدّث عنها على امتداد صفحات هذا الكتاب، وتخص عظمة وتعاسة حياة الجندي.

نحن في أوائل سبتمبر 1975. كنت قد أتممت خمس سنوات على رأس مدرسة المظليّين. انتهينا من إعداد فيلق وكان هناك فيلق ثان على وشك التكوين. الإطارات يؤدون مهمّتهم على أحسن وجه. أثريت دورتي الثّالثة – المهنية – في بسكرة بآلات طائرة ورجال مهمّتهم ريادة الآفاق، ولكن من دون الشعور بأي دوار أو استسلام له. عندما يحلّق الجندي تحت مظلته المنجدة وهو متعلّق بالخيوط أو على متن طائرة من طراز « أنطونوف »، تتلاشى الدوائر المباشرة، وتبدو الجزائر من القمم في شساعتها الّتي لا يحدّها البصر. شبّان جزائريون يحذوهم حماس المبتدئين، رأيتهم وهم يتعلّمون، يوما بعد يوم، كيف يتحكّمون في هول الفراغ وقانون الجاذبية. سعادتي هي في أنني لقّنتهم القواعد الّتي تكوّن جنود النخبة ولمست ثمرة الجهود الّتي بذلتها عندما أشاهدهم في الميدان. لقد حان الوقت بالنسبة لي لأن أسلّم المشعل...

كنت قد اتفقت مع رؤسائي لاستكمال تكويني في المدرسة الحربية بباريس. وكان قد سبقني إليها ضابطان هما سعدي سليم ولكحل عياط مجدوب. فكنت أنا ضمن الدّفعة التّالية، وهي الدفعة التّاسعة والثمانون.

في يوم السّفر، ذهبت إلى مطار الدّار البيضاء. بعد الانتهاء من إجراءات الشرطة والجمارك وأظهرت الأمر بالمهمّة الّذي أحمله، اتجهت نحو قاعة الرّكوب. كانت مكتظّة بالمسافرين. وفجأة أوقفني شرطي : « جواز السفر من فضلك ؟ » ما له يطلب منّي جواز سفري، بعد أن مررت أمام زملائه ؟ لم أرد عليه. إعتقد أنني لم أفهم، فأصرّ باللغة الفرنسية : « باسبور، بالعربية ! اتبعني ! » تبعته إلى غاية حجرة كبيرة. في آخرها كان هناك رجلان جالسان على أريكة غارقين في المحادثة.

أحدهما هو محافظ المطار. بحركة فظة بيده، كما لو أنه يطرد شخصا غير مرحّب به، أشار إلى أنه لم يعد بحاجة إليّ. اندفعت نحوه وصحت في وجهه : « قل لي ما بك ؟ » فرد عليّ قائلا : « استغربت لما رأيت ضابطا برتبة مقدّم يسافر للتربّص ! » لم يكلّف نفسه حتّى عناء الوقوف. فغطّيت عليه كليّا بقامتي، وقلت له : « عليك أن تعود إلى المدرسة لأمرين : أولا لكي تتعلّم كيف تؤدّي عملك، وثمّ لكي تتعلّم التّربية » وأردفت قائلا : « إذا كانت هناك وثائق رسمية تبدو لك مشبوهة، لديك طرق أخرى للتحقّق من الأمر بدلا من التّظاهر باستجوابي، وبأيّ طريقة ! ». عدت إلى قاعة الركوب، ومررت من دون التوقّف أمام المراقبة بالرغم من صيحات الأعوان. كنت سعيدا بالثأر للمواطن البسيط الّذي يتصبّب عرقا أمام طغاة الشبابيك.

بعد مرور أسبوعين، التحقت بي عائلتي في باريس. وشرعت في الدورة الأولى من برنامج المدرسة الحربية، الخاص بالقوّات البرية. وكانت الدّورة الثّانية تخصّ برنامج المتعدد الأسلحة، لكن هل ستسمح لي الظّروف بإتمامه ؟ لا أدري، لأنّ أمورا كثيرة تحدث على الحدود الغربيّة من البلد. فبالرغم من بُعد المسافة، كنت دائما متتبعا للأخبار الآتية من الجزائر.

في غرّة كل شهر سبتمبر، وتبعا لتقاليد هذه المؤسسة، يقدّم كلّ طالب سيرته الذّاتية، ثم تأتي رعاية الأجانب. فبالنّسبة للضّابط الأمريكي والضّابط الإيطالي، اللّذين يزاولان مثلي

نفس التكوين، جرت الأمور على نحو ما يرام. لكن عندما نُطق باسمي، خيّم صمت مطبق في القاعة. رأيت « الرّعاة » المتطوّعين ينظرون أمامهم متسمّرين في أماكنهم من شدة الحرج. وفجأة، رفع جاري الجالس بجانبي، الرّائد كروينو، يده موافقا على رعايتي. وفي نهاية الدرس، كلّمني الرّائد أوتل، وهو من الأقدام السوداء عاش في باب الوادي، أصيب في الأوراس خلال حرب التّحرير، وقال لي : « كنت أريد أن أرعاك، لكني لم أتجرّأ، لأنني كنت أخشى أن يرفض طلبي بسبب كوني من الأقدام السوداء ». أجبته قائلا : « بالعكس، كان ذلك سيسعدني ! ». لم يكن أوتل وحده الّذي أحسّ بالحرج والخوف من مصاحبتي. كان غيره من المتربّصين الفرنسيين يتفادونني ولا يكلّمونني عندما يقابلونني، في حين كنت أبذل قصارى جهدي لتجاوز الأحكام والأفكار المسبقة. ذات يوم، جاء إليّ أحد زملاء الدّراسة، الرّائد دافو دوستاست D'Avout D'Auestaesdt، وهو نجل جنرال أصيب بجروح خطيرة في الجزائر وأصبح مديرا لمتحف « الأنفاليد »، سألني عن رأيي في زملائي الفرنسيين وعن طبيعة علاقتي معهم. لا شكّ أنه لاحظ أنّهم يتجاهلون وجودي معهم. كما لاحظ أنني أعاملهم بالمثل. عرض عليّ أن نتكلّم في الموضوع. بعد ذلك بيومين، جاء إليّ وقال لي : « في الحقيقة، إنّهم لا يلومونك. لا يلومون سوى أنفسهم. » ذلك أن المتربّصين الفرنسيين الّذين شاركوا في حرب الجزائر، لم يستسيغوا أن يكون واحد من « الفلاڤة » زميلا لهم في الدّراسة. لمست شدة الغيظ الدفين عند أولئك الّذين لم يهضموا هزيمتهم في الجزائر. ولقد لمست ذلك أكثر من مرّة في العقود التّالية. لكن كانت هناك استثناءات. وكان من بينها كروينو، الضّابط الّذي كرمني برعايته، وكان طيبا ولطيفا معي، ولقد استقبلني مع أسرته يوم الاحتفال برأس السّنة.

كانت لي علاقات أفضل مع المتربصين الّذين لم يشاركوا في حرب الجزائر. وكان الهدف من التربّص مع هؤلاء، ضمن فوج مختلف، تعلّم بعض المبادئ الخاصة باستخدام القوّات، ولا سيما الجانب المتعلق بالإشارات التقليدية. ودام هذا التربص الّذي سمي باسم لا يخلو من الطرافة « تربص الأميين »، ثلاثة أسابيع.

بسبب أزمة الصّحراء الغربيّة، لم أستطع إتمام السّنة الثّانية الّتي تتناول برنامج المتعدد الأسلحة. وهي السّنة الّتي يوحّد فيها ضّباط القوّات الجوية والبحرية والبرية في « لجنة كبرى » واحدة.

أمڤالة

رفضت الجزائر، من خلال إرسال قوّات إلى الصّحراء الغربيّة، واقع الأمر الّذي أراد المغرب فرضه علينا. فعلت ذلك باحتلالها عسكريا لنقاط حسّاسة متناثرة عبر الأراضي الصّحراوية. وبهذه الطريقة قامت وحدات من الجيش الوطني الشّعبي باحتلال ڤلتة زمور وبير ماڤرين وامڤالة وبير لحلو وتيفاريتي وعدد من النّقاط الأخرى. إنّما هذه المواقع تم اختيارها بعيدا عن أي منطق ومن ودون أي فكرة عملية عن الكيفية الّتي يمكن الدّفاع عنها. ففي حالة حدوث هجوم على

أحد المواقع، لا يمكن لأيّ موقع آخر نجدته. كان المغاربة في المقدّمة واختاروا المبادرة بالهجوم. قصدوا امقالة الّتي احتلّتها إحدى كتائبنا الّتي وصلت قبل يوم واحد. قامت القوّات المغربيّة المتواجدة بأعداد كبيرة منذ « المسيرة الخضراء » الّتي نظّمت في نوفمبر 1975، بهجوم مكثف على الواحة الصغيرة وحقّقت انتصارا سهلا. حدث ذلك في جانفي 1976.

كان لأصداء هذه « الهزيمة » الّتي مني بها الجيش الوطني الشّعبي وقع كبير في المغرب وفي فرنسا. ويمكن للمرء أن يتصوّر رعشة الصحف المغربيّة. « الجزائر، البلد المعتدي، تتلقى الهزيمة الّتي تستحقها ». وأشهرت الدعاية المغربيّة بالحادثة لمدة طويلة. كان لهذا « الانتصار الكبير » الّذي حقّقته القوّات المسلّحة المغربيّة أثر على كلّ الجيش الوطني الشّعبي. في الإستراتيجية العسكريّة، إنّ نشر قوّات واستعراض العضلات يفتح المجال على احتمالين، إما أنّ الحرب لا تقع، فيتمّ تجنّبها، أو تفرض نفسها. وفي الحالة الأخيرة، يجب أن تتوافر فيها جميع الشروط. وإنّ الحركات العشوائية يُدفع ثمنها في الحين. وفيما يخصّ حالتنا، دفعت قوّاتنا المتكوّنة بنسبة 80٪ من جنود الخدمة الوطنية والّتي تحارب في بيئة غريبة عليها تماما، دفعت ثمن غياب التّحضير والارتجال. وكان علينا منذ تلك اللّحظة أن ننظر إلى الأمور بجدية.

النّاحية الثّالثة في عهد « البودينيات »

لم يسعف الحظ كثيرا النّاحية العسكريّة الثّالثة، الّتي كانت تواجه التهديدات المغربيّة مع مختلف قادتها. فقرارات التّعيين في هذه المناصب ذات المسؤولية العالية اتخذت طبقا لمعايير سياسية. كان بومدين يرى أن الولاء غير المشروط لشخصه بديلا كافيا عن الكفاءة العسكريّة. قد يمكّن الرّائد صالح سوفي[43]، المجاهد الشجاع خلال حرب التّحرير، أن يواجه الموقف بلا شك في حالة مناوشات محدودة، لكنه ليس لديه المؤهّلات المهنية لتحليل أيّ وضع أو ينظّم وينسّق عمليات مع كلّ ما يفترض ذلك من وسائل تقليدية يُطلب منه استخدامها. وكان عليه أن يترك قيادته. عينّ في مكانه محمد الصالح يحياوي[44]، وهو عضو سابق في قيادة الولاية الأولى التّاريخية لعدة سنوات. في حين أنّ النّاحية الثّالثة كان يقودها المقدّم سليم سعدي. منذ بداية أزمة الصّحراء الغربيّة، عين يحياوي في تندوف للإشراف على قطاع عمليّات جنوب تندوف الّذي يصطلح عليه بالحروف « SOST ». كان للعقيد يحياوي أسلوب يمكنني أن أصفه بأسلوب « جيش التّحرير » مع الضبّاط والجنود. وبعبارة أخرى، كلّ يعرف ما يجب القيام به وكلّ « يدبّر أحواله » كيفما يستطيع. ليست عنده المفاهيم العسكريّة الخاصّة بالجيش التقليدي. تعرّض لإصابة بليغة في الأوراس

43. وهذا ما أسمّيه هاجس « بوديني ». أرجو من الّذين يعرفون تاريخ الثورة الروسية أن يغفروا لي هذا التراكب في الأمثلة، لأن النّسبة والسّياق مختلفان فعلا.

44. كان محمد الصالح يحياوي، خلال أزمة ديسمبر 1967، قد اختار مساندة هواري بومدين بينما كان معروفا بقربه من زبيري، الّذي كان نائبا له في الأوراس.

عام 1961، فلم يكن يقوى على قطع المسافات الهائلة الّتي يجب قطعها للإطلاع عن كثب على أوضاع كلّ فيلق من فيالقنا. ذلك أن المقاعد الصّلبة لسيارات « لاند روفر »، وهزّات الطّرق غير المعبّدة وطول المسافات تعذّب عظامه الّتي قصمها حديد العدو. ولم تكن عنده فكرة محدّدة عن حجم وطبيعة القوّات الّتي يواجهها ولا عن موقعها بالتّدقيق. بعد امقالة، غادر هو أيضا قيادته.

الهجمات المضادّة للّواء الآلي الثّاني عشر والوحدات الأخرى الّتي تنشط على الحدود الموريتانية، لم تتم. فقد أعطيت أوامر لكافة قّواتنا للعودة إلى قواعدهم داخل حدودنا.

سأظلّ أتذكر دائما ذلك اليوم الّذي نزلت فيه أخبار امقالة، وزادت السماء الباريسية المنخفضة والرّمادية الملوّثة حزنا. كان يوم سبت أو أحد. ليست عندي دراسة. يوم الإثنين، جئت متأخرا إلى المدرسة، على أمل أن ألقى جميع الطّلبة قد دخلوا القسم، وألاّ ألزم بالإجابة على الأسئلة[45].

كانت حفنة من المتربّصين العرب تسدّ الرّواق الطّويل الّذي يؤدّي إلى قاعة الدّراسة. كان هناك مقدّم لبناني، ومقدّمان مغربيان ومقدّم تونسي. كانوا على ما يبدو ينتظرونني. أغلب الظّن أنّهم كانوا يتحدّثون عن « القضيّة ». حييّتهم دون كلمة واحدة ودخلت القسم. وفي فترة الإستراحة رأيت العقيد المغربي توريس[46] يتربص بي بالقرب من رواق القهوة. دخل عليّ مباشرة : « يا سّي نزار، ما حدث أمر خطير للغاية ». وكان ردّي : « خطير في ماذا ؟ هاجمتم ناشطين في العمل الإنساني كانوا يموّنون السّكان المدنيين. نعم هذا أمر خطير ! » وظلّ يردّد : « تعرف، هذا أمر خطير، أمر خطير ! ». وأنا أردّ عليه : « نعم، إنّه أمر خطير ». لكن « خطيري » أنا ليس له نفس المعنى الّذي يدل عليه « خطيره » هو. المهم أنه يتّهم الجزائر بالسّعي لتحريم المغرب من قطعة صغيرة من الصّحراء، في حين أن صحراءنا « كبيرة جدا ». « الحسن الثّاني، سَنُخلِص عليه، بطريقة أو بأخرى ». ماذا يقصد بكلامه ؟ أنّ الحسن الثّاني هو من يمنع العقيد توريس ورفاقه من تصفية حساباتهم مع الجيش الوطني الشّعبي ؟ تشعّب بنا الحديث حتّى فاتنا موعد المحاضرة الّتي كانت تجري في قاعة المحاضرات.

أبلغني لكحل عياط، عندما التقيت به في باريس قبل الذّهاب لقضاء عطلة الصيف، أنّ إسمي ورد من ضمن المقرّر إرسالهم إلى تندوف وأن العقيد محمد الصالح يحياوي هو من أخبره بذلك. كنّا في شهر جويلية 1976. وفي أوائل أوت كنت في الجزائر لقضاء عطلة الصيف.

مهمّة في تندوف

قضيت شهرا كاملا دون أن يصدر شيء جديد عن وزارة الدّفاع. كنت على وشك الشّروع في إجراءات العودة لمباشرة الدورة الثّانية من برنامج المدرسة الحربية. استدعاني المقدّم لطرش،

45. في يوم 14 فيفري، شنّت قوّات البوليساريو عدّة هجمات ضدّ وحدات القوّات المسلّحة المغربيّة الّتي تراجعت إلى امقالة. ووصلت هذه الهجمات ذروتها عندما قامت البوليساريو، بعدما أخرجت الجيش الموريتاني من ساحة القتال وتجهزّ تجهيزا أفضل، بتركيز هجماتها على امقالة. اضطرّت القوّات المسلّحة المغربيّة لإخلاء الواحة حيث سقط الجنود الجزائريون في جانفي عام 1976.

46. في وقت لاحق علمت أن العقيد توريس نجا وهو مجروح من عملية قام بها الصّحراويون في سمارة، حيث كان في إحدى الثكنات.

الأمين العام لوزارة الدّفاع، وهو رجل سرّي إلى حدّ الهوس في كلّ ما يبدو له مندرجا في دائرة اختصاصه، وإسم على مسمّى، لكونه فعلا لا يسمع لكلّ ما يعارض نظرته الخاصّة للأشياء. قال لي : « أعتقد أنّهم بحاجة إليك « الفوق ». إنتظر في قاعة الضبّاط، وسوف أناديك ! ».

بعد نصف ساعة، نادى عليّ : « روح، عبد المجيد علاهم[47] في انتظارك ». وحتّى أترك المقدّم الفذّ لطرش يتأمل في « شبكاتي » و« وسطائي » و« علاقاتي » الّتي تمكنّني من معرفة الأمور قبله هو، شرحت له سبب استدعائي من قبل الرّئيس : « يريد إرسالي إلى تندوف وسوف أوافق. أطلب منك شيئين : سلفة تعادل ما كنت سأتقاضاه لو بقيت سنة أخرى في المدرسة الحربية وخمسة عشر يوما لترتيب أموري ». كان مستعجلا من خروجي من مكتبه، فهمهم بكلمات : « طيب... سنرى ذلك، إطلع الآن فهم في انتظارك ! »

بسبب طريقته في العمل، عزل لطرش نفسه عن الجميع، في حين أنّ المنصب الّذي يشغله يتطلّب حسن الإصغاء والصبر والتعقّل في تسوية المشاكل وحسن معاملة الرّفاق بحكم المصاحبة والمعاشرة. لا يعقل أن يحلّ محلّ عبد القادر شابو من أراد، بفعل قرار. فلقد أغرق لطرش الإدارة المركزية لوزارة الدّفاع في متاهة بيروقراطية لا مخرج لها أثارت إستياء قادة النّواحي والوحدات الميدانية. عندما أرغم المرض هواري بومدين على التّقليل من حضوره في إدارة وزارة الدّفاع، كان الضبّاط مجبرين، لأسباب خاصة بالعمل، على مقابلة لطرش، ومضطرّين أن يصعدوا مكرهين ومرغمين الدّرج المؤدّي إلى مكتبه.

كان للطرش مفهوم شخصي جدًّا للموقف الّذي يجب أن يكون عليه القائد. يعتقد أنه بالحزم الشّديد والحرص الزّائد عن حده سيزيد من إحترام الآخرين له. وكان معظم الإطارات الّذين يعانون من متاعب يومية، بمن فيهم أقرب معاونيه، ينتظرون بشغف اليوم الّذي سيغادر فيه منصبه.

ذهبت إذن إلى الرّئاسة. أدخلني علاّهم على الفور، وهو أمر استثنائي، فقام الرّئيس من مجلسه وجاء يستقبلني. صافحني ودعاني للجلوس. وقال لي : « أعرف أنك رحت وجئت كثيرا، لكن أنا بحاجة إليك في تندوف، وإذا قلت لا، سأتركك تنتهي تربصك. » هو يعرف (بومدين يعرف كلّ شيء) أنني اتخذت قراري. وواصل كلامه : « سيعقد إجتماع بشأن تندوف. عليك بحضوره. ستذهب إلى تندوف لإجراء تقييم للوضع العام، بعدها ستعود لتقدّم لي خلاصتك ».

الأمر واضح وضوح الشمس. أومأت برأسي موافقا. قام من مجلسه ليرافقني، ويده على كتفي، ثم قال : « قيل لي أنّ لديك بعض المشاكل الشخصية تريد تسويتها ؟ إذهب وخذ وقتك. عندما تنتهي من مهمّتك في تندوف، ستعود لمقابلتي. وسآخذ بعين الإعتبار جميع إقتراحاتك ! ». صافحني مجدّدا. بعد التّحية انصرفت. عدت إلى الوزارة وأنا سارح في تفكيري : عندما يريد بومدين شيئا، لديه طريقته لوضع ضبّاطه أمام الأمر الواقع !

---

47. مدير بروتوكول الرّئيس هواري بومدين.

قابلت لطرش مرّة أخرى. « سأكون بعد أيام قليلة في تندوف. أنت تعرف ذلك أيضا. لكن عليّ أن أعود إلى باريس لمدّة أسبوعين. سأكرّر عليك ما قلته لك قبل حين : « سلفة بمعدل أجرة سنة سأسددها على أقساط. فراح يصرخ : « هل تعي ما تطلبه منّا ! على أيّ حال، أنا لا أملك هذا المبلغ ». إشمأزت من انقلابه، فأسمعته ما لم يجرؤ أحد في حياته أن يقوله له. لم ينطق بكلمة.

تحدّثت آنفا عن البيئات أو الحلقات الّتي يعيشها الإنسان في حياته. ذكرت الحلقة العائلية والحلقة المهنية. هناك حلقة ثالثة، هي حلقة الصداقة. مثل شعاع من النّور يكشف عن تفاصيل مشهد مسرحي غارق في العتمة، بدت لي فجأة وجوه كلّ أولئك الّذين أعطوا للسّنوات الّتي قضيتها في بسكرة مبرّرا إضافيا لأن تحب هذه المدينة : دراجي حليمي، وسي صالح مخزّن الأسلحة والدكتور مجاجي الهواري. قرّرت أن أفاتح حليمي دراجي في الأمر. فسألني : « متى ستذهب إلى باريس ؟ » أجبته : « يوم السبت ».

في اليوم التّالي، كان دراجي رفيق العمر منذ أيام المسيرات الجبلية الطّويلة، في باريس أمام باب منزلي وفي يده رزمة منتفخة الشكل وملفوفة في ورق تغليف. وأضاف : « إذا كنت بحاجة إلى مزيد من المال، أطلب هذا الشخص »، وهو يسلّم لي، بالإضافة إلى الرزمة، قصاصة من الورق عليها إسم وعنوان.

« القصدير »

حضر إجتماع « تندوف » حول بومدين العقداء محمد الصالح يحياوي قائد الأكاديمية العسكريّة بشرشال، والشّاذلي بن جديد قائد النّاحية العسكريّة الثّانية، مرفقا بنائبه عبد المالك قنايزية، والمقدّم سليم سعدي قائد النّاحية العسكريّة الثّالثة، وقاصدي مرباح مدير المخابرات، وأنا.

نفّذ بومدين ما قام به قبل ذلك خلال حرب التّحرير في سنوات 1960، 61، 62. قسّم الأقاليم الحدودية مع المغرب إلى منطقتين : جنوبية وشمالية. سليم سعدي في الجنوب والشّاذلي بن جديد في الشمال. وتمّ تعزيز القوّات في تندوف بشكل عاجل، لكن لا يزال تجهيزها ضعيفا. ولقد بذل سليم سعدي، قائد النّاحية ومختار كركب الّذي عيّن قائدا بالنّيابة لقطاع عمليات جنوب تندوف بعد استدعاء يحياوي، كلّ مساعيهم لتحسين الأمور. وأعتقد أن تحذيراتهم المتكررة هي الّتي دفعت الرّئيس للإطلاع عن كثب على الوضع العام للجيش في هذه النّاحية العسكريّة الثّالثة الإستراتيجية.

كان هناك سؤال واحد مدرج في جدول الأعمال : تعزيز قوّاتنا في تندوف بالعناصر المدرّعة الكبيرة الّتي كانت إلى ذلك الحين متموقعة في مداخل سيدي بلعباس الأمامية، ليس بعيدا عن الحدود مع المغرب. وكانت مهمتها، في حالة الهجوم من قبل القوّات المسلّحة المغربيّة، أو احتلال لأي نقطة من التراب الوطني، أن تصدّ الهجوم وتتوغّل بدورها في الأراضي المغربيّة.

دار النّقاش حول كيفية استخدام هذه القوّات بعد نقلها. وعرضت وجهتا نظر على طرفي نقيض : وجهة نظر بومدين ووجهة نظر سليم سعدي. ففيما كان سليم مصرّا على أن تكون في وضعية « القنفذ »، أي في وضعية دفاع عن تندوف، كان بومدين لا يريد أن يجنّد « قوة ضاربة من هذا النوع لحصرها في الدّفاع. » وبقي سليم مصرّا في موقفه، وكان يعرف ماذا يقول : « سوف تتيه، سيدي الرّئيس ! » كان بومدين متلك بعض المفاهيم العسكريّة البدائيّة مقرونة بصور خاطفة عن معارك الحرب العالمية الثّانية، لكنّه لا يفرّق بين الفيافي الصّحراوية الشاسعة وطاولة الشطرنج[48].

الصّحراء هي الحرارة والعطش والمسافات الممتدّة الشّاسعة وإنهاك المعدّات، واختبار اللّوجستيك الّذي لا يزال في طوره الجنيني عندنا، والخطر من أن « تتيه » الوحدات المتحركة، على حد قول سليم، في كلّ لحظة. قادة ألويتنا وفيالقنا ليسوا روميل ولا غيدريان. ومسرح عملياتهم ليس سهل كورسك، وإنّما فيافي رملية قاحلة. فمن ليس لديه معالم توجيهية، ولم يعدّ دعمه اللوجستي إعدادا جيّدا، فسيذهب صوبا إلى الهاوية. سليم سعدي رجل تكتيكي حذر وواقعي، وبومدين مخطّط إستراتيجي في السياسة. تصوّره لاستخدام القوّات يتعدّى إطار الدّفاع عن تندوف، ليشمل رفض القبول باحتلال الصّحراء الغربيّة. وعليه يجب أن ينظر إليها على الجانب الآخر من الحدود على أنها معدّة للهجوم. ولكن ما قيمة الإستراتيجية السّياسيّة إذا اختفت فجأة الأداة العسكريّة الّتي ترتكز عليها وتضفي عليها مصداقيتها ؟ هناك سؤال يحرق شفتي. لكن ما هي الكلمات الّتي يمكنني استعمالها لصياغته ؟ هل وقّع الرّئيس على معاهدة عدم اعتداء سرية مع الحسن الثّاني بعد قضية امقالة ؟ وهل ينوي توظيف التّهديد الّذي تشكّله قوّاتنا المنتشرة، لإجبار المغرب على تغيير سياسته ؟ لكن لا تُطرح أسئلة على هواري بومدين، وخاصة أسئلة من هذا النوع[49].

يعرف سليم كرجل محترف سبق له أن قاد فيلقا خلال حرب التّحرير، أنّ معرفة الأرض والتحكّم فيها أمورا أساسيّة.

كانت لهواري بومدين رؤية ضيقة عن الحياة العسكريّة. فشكاوي العسكريّين هي في نظره إتهامات شنيعة، تدرج في الخانة الّتي تلي تهمة المساس بأمن الجيش مباشرة. طلباتهم للحصول على المعدّات « هوس » لا طائل منه بالقصدير ليس إلاّ. إلاّ أنّه مع ذلك تزعزع أمام صحّة الحجج الّتي شرحها أمامه سليم.

لم يكن سليم يؤمن بالضّمانات الدبلوماسية، أو بالأحرى يريد لها أن تكون مضمونة بضمانات عسكرية قوية. قبل ذلك ببضع سنوات، ارتأينا أن نضيف كلمة « العمليّات » في جدول أعمال الإجتماعات الّتي يترأسها هواري بومدين مرّة في السّنة مع ضبّاط الجيش. كنا نحن الّذين لا نملك

48. كان هواري بومدي لاعب شطرنج خطير.

49. وفي وقت لاحق، قال هواري بومدين : « على أية حال، فإن نصادر النّزاع مع المغرب سوف تجد حلولها لها تحت ظلال الحراب ».

أيّ خلفية سياسية، نعرف أنّ هناك شيئا أساسيا ناقصا في الجيش الوطني الشّعبي، وهو قيادة عملياتية موحّدة. خلال هذا الإجتماع المخصّص لتندوف، كان أملنا أن يتطرّق الرّئيس أخيرا لهذه المسألة الّتي كانت تشغلنا كثيرا. لأنّ من دون قيادة أركان، لا يمكن لأيّ جيش أن يقوم بمهامه. وكان كلّ مرّة يصم أذنيه لأيّ حديث عن الموضوع. بعد الصدمة الّتي تلقاها إثر انشقاق زبيري في ديسمبر 1967، لا يرغب في وجود هيئة تفصل بينه وبين عسكرييه. كان يقول : « جرّبت ذلك مرّة واحدة. إعلموا أنها سوف لن تتكرر مرّة أخرى ». ويضيف : « سوّيت مشاكل حسن الجوار مع المغرب، ثقّفوا أنفسكم، كوّنوا أنفسكم، عهد القصدير سيأتي فيما بعد ». أغلق الملف الموضوع أمامه ورفع الجلسة. لحظتها، سمعت سليم الّذي كان جالسا إلى يساري يتفوّه بكلمة ساخطّة، ثم قال بصوت عال، غير خائف من أن يُسمع : « سأذهب إلى المدرسة الحربية ! »

لم يكن هواري بومدين يضمر أيّ عتاب لسليم الّذي تجرّأ على الوقوف في وجهه ومعارضته. لأنّه يعلم أن سليم يؤدّي دوره كقائد عسكري مسؤول عن حياة رجاله وحماية عتاده. ويعرف في قرارة نفسه يمكن أن نتّهم بومدين بكلّ شيء إلا بقلّة النّباهة أنّ سليم على حق. ففي عصر الوحدات المدرّعة والميكانيكية، المعروفة باستهلاكها الكبير للتّموين من جميع الأنواع، مازال الجيش الوطني الشّعبي يفتقر للقدرات الّتي تسمح له بتنفيذ العمليات المركبّة.

فور عودتي من باريس، إنتقلت بعائلتي إلى الجزائر. وجدت عند والد زوجتي، سي عبد الحميد بركات الرجل الكبير المتقاعد، استعدادا وحضورا في جميع الأوقات. عاش مع ابنته والأطفال ما يقرب من أربع سنوات. ويغيب بمجرد أن يعرف من زوجتي أنني على وشك العودة إلى البيت. وكان أحفاده لا يفهمون لماذا يتزامن رحيله مع عودتي. فتراهم يطلبون منه أن يرحل حتّى أظهر أمامهم. في تلك المرحلة، كان إبني البكر، البالغ من العمر ثلاثة سنوات، يصاب بأزمات عاطفية. وكانت والدته وجدّه يجريان وراء المستشفيات. عالجه البروفسور بلامين، الأخصّائي في أمراض الحساسيّة، وأخضعه لعلاج خاص. عندما أكون في الجزائر العاصمة، أرافق أنا شخصيا إبني إلى الطبيب. وهي فرصة بالنسبة لي أن أكون أكثر حضورا إلى جنب أسرتي.

تندوف، عرض حال

لم يتغيّر شيء في تندوف[50] الّتي زرتها لأيّام معدودة في عام 1967، إلاّ الطّريق المشيّد بألواح PSB، وأصبح معبّدا. من بعيد، أرى طائرات من نوع « ميغ 17 » في خلاياها. طائرتان في حالة تأهب تبدوان في آخر المدرج.

50. تقع تندوف في القرن الجنوبي الغربي من الجزائر، على بعد 720 كم جنوب غربي بشّار و1460 كم من الجزائر العاصمة. ظلت تندوف ومنطقتها في صلب المطالب الإقليمية المغربيّة الّتي ترمي إلى تحقيق « المغرب الكبير ». في 7 جويلية 1962، بعد أيّام قليلة من إعلان استقلال الجزائر، تحدثت الصحافة المغربيّة عن « وصول وفد من ممثلي قبائل تندوف إلى الرّباط، جاء ليقدّم إلى ملك المغرب وثيقة تعترف به كزعيم روحي ومدني ». واندلعت مواجهات في 2 أكتوبر بتندوف عندما رفع العلم المغربي فوق المباني الرّسمية. يذكر أنّ التوقيع على اتفاقية الحدود الجزائرية المغربيّة في 15 جوان 1972 تمّت المصادقة عليها في العام 1973 من قبل الجزائر ولم تصادق عليها المغرب إلا في عام 1992.

في تندوف تتمركز وحدات دعم ومراكز قيادة. أمّا القوّات القتالية، فهي منتشرة فوق الهضبة.

إستقبلني المقدّم مختار كركب مسؤول عمليّات، والرّائد العياشي صياد قائد القطاع الإقليمي. توقّفنا للإستراحة في مركز قيادة القطاع لتناول القهوة. ثم انطلقنا باتجاه مقر القيادة الّذي يقع في ثكنة تعود إلى الحقبة الإستعمارية، بنيت خارج القرية وتطلّ من إحدى تلال تندوف العالية. مررنا على عدد من المباني الّتي أقيمت فيها مصالح اللوجستيك.

أراني المسؤولون بافتخار أحدث مقتنياتهم : فرن كهربائي لصنع الخبز يعمل على مدار 24 ساعة في اليوم، مع خبّازين جنّدوا من جيجل. ذلك أن إطعام آلاف من الرّجال ليس بالأمر الهيّن. كان معظم الجنود ولفترة طويلة لا يعرفون سوى الخبز المحلّي المحضّر داخل الرّمل المسخّن على نار الحطب، يدعى « الملّة ». توقّفت عند كلّ مصلحة. أخذت كلّ وقتي لطرح الأسئلة المفيدة والتعرّف على طاقم المستخدمين.

أخذني كركب إلى النّقيب بوجمعة الّذي خدم تحت إمرتي في النّاحية الأولى من القاعدة الشّرقية. وهو الآن يقود فيلقا من الدّبّابات معظم جنوده من قوّات الاحتياط. لقد مرّ بوجمعة بأوقات صعبة في تندوف. وجدته متعبا للغاية. أخبرني كركب بأنّه لا يخرج تقريبا من مخبئه. لم أتعرّف على بوجمعة الّذي عرفته أيام الثورة. فعلا هناك رجال لا يتأقلمون أبدا مع الظّروف الخاصّة الّتي تميّز الجنوب الكبير ولا يتعوّدون على فراق أهاليهم طويلا.

يتشكّل الجيش الوطني الشّعبي في غالبيته من رجال ينحدرون من الطّبقات الشّعبية الّتي ألفت مواجهة الظّروف المعيشية الصعبة. فهم بسطاء ومتواضعون تغلب فيهم صفات القناعة والصّبر والكتمان. حاربوا في أسوأ الظّروف ضدّ الفرنسيين، وإذا رأيتهم أحيانا يفقدون معنوياتهم، فاعلم أنّهم لم يتلقوا ما يساعدهم على التكيّف مع مهامهم الجديدة.

عندما خرجت من عند بوجمعة، قال لي كركرب : « تعرف أن بوجمعة يشوف الفيلة في تندوف ». لا أدري إن كان كركب جديّا في كلامه. في اليوم التّالي، وبينما كنّا نزور الموقار، بعدما تحوّل إلى مركز عبور للخارجين في إجازة، رأيت رسوما منمّقة ضخمة أشبه بالنقوش الصخرية، ولها ملامح قريبة من الفيلة، عدا أن الملامح مصنوعة بالخرسانة. سألت ما ذلك الشيء، فإذا بمختار يقول : « ها هو حتّى قائدنا الجديد يرى هو أيضا الفيلة ! » وقهقه الجميع. بدأت اتساءل إذا كان النّاس في تندوف لم يتلقّوا ضربة شمس.

في المساء، انضمّ إلينا قادة الوحدات لمأدبة عشاء أقامها الرّائد العياشي وهو مجاهد معروف من النّاحية الثّانية التّابعة للقاعدة الشّرقية. ولقد ضاعف طبّاخوه من جهودهم. إلتقيت الرّائد لمين زروال قائد اللّواء الآلي الثّاني عشر، وقائد أركانه الرّائد محمد العماري، والرّائد يحيى سوايدية قائد اللّواء الميكانيكي الرّابع والثّلاثين وعددا من قادة الفيالق المستقلّة، ومعظمهم من معارفي القديمة خلال حرب التّحرير. قضينا سهرة لمّت شملنا جميعا. كلّ يحكي المغامرات الّتي عاشها. وكلّ يروي قصّته الخاصة.

الخط التوجيهي

في اليوم التّالي، قمت بزيارة كتيبة الإستطلاع الأولى بقيادة الملازم شيخ، وهو مقاتل سابق في النّاحية الثّامنة التّابعة للولاية الخامسة. وتواصل الحديث. رافقني يحيى سوايدية، ونبّهني إلى أنّ الدّنيا ليل وقد نتيه في الطريق. إستأنفنا الطريق، وتتبّعنا عشرة سيارات « لاند روفر ». بعد بضعة كيلومترات من السير، بدأت سيارة المقدّمة تتردّد. لم تعرف طريقها. غربت الشمس وخيّم الظلام. تقدّمنا بضعة مئات من الأمتار، ثم توقّفنا تماما. نزل يحيى من سيارة « لاند روفر »، وقال : « ياك قلت لكم ! »

لم أفهم كيف يتيه العساكر بهذه الطّريقة. التّحذير الّذي قاله سليم سعدي لبومدين « إنّهم سيتيهون في الصّحراء »، أثبتت لنا صحّتها. كنّا نفكّر فيما هو أفضل لنا، أن نعكسر في الموقع أو نواصل الطريق، عندما اشتعلت فجأة أضواء من مكان بعيد. كان هناك ضوء واحد، ثمّ إثنان، ثم ازداد وكثر عددها على جبهة عريضة. أدلت علينا هذه اليراعات الاتجاه الصحيح. عند وصولنا إلى المكان المقصود، إستقبلنا من طرف قائد أركان اللّواء الرّابع والثّلاثين، حسين أوسعيد، وهو الّذي قام فوجه المضاد للطّيران بإسقاط ثلاث طائرات إسرائيلية خلال حرب الإستنزاف على قناة السويس. فهم أننا كنّا تائهين فقام ليدّل علينا الإتجاه الصحيح.

في اليوم التّالي، قرّرت ألاّ أكرّر نفس المغامرة، فوضعت في الجيب العلوي من ببذلتي العسكريّة بوصلة صغيرة، وحتّى لا تضيع منّي، علّقتها بواسطة حبل صغير على العروة. سجّلت عددا من زوايا الإتجاهات للعثور على طريقي، في حالة ما إذا... ولقد احتفظت بذلك الجهاز الثمين الصغير لمدة طويلة. لكنّني لن أقف عند هذا الحد ! فلا بدّ من إيجاد حل في أسرع وقت. كيف يمكن أن نطالب رجالا بالقتال إذا كانوا لا يعرفون أين هم موجودون تحديدا وما هو الإتجاه الّذي ينبغي عليهم أن يسلكوه ؟

كانت تجربتي المصرية هي الّتي أنقذتني. على قناة السويس خلال تدريبات المدفعيّة، وخاصة في الرّماية أثناء الحركة، كان الضبّاط المصريون يستعملون معالم مصنوعة بالإسمنت المسلّح تكاد لا تظهر فوق مستوى الرّمال. تستخدم النّقاط الجيوديسية الّتي تدرس في جميع المدارس العسكريّة عبر العالم لتحديد إحداثيّات المكان الّذي يتواجد فيه الإنسان.

فور تعييني النّهائي في قطاع العمليّات بجنوب تندوف، كرّست نفسي للمشكلة حتّى أجد لها حلا جوهريا. طلبنا مساعدة اللّواء محمد صنهاجي، المدير المركزي للهندسة. بعد أيام قليلة من الدّراسة مع المعهد الوطني للجغرافيا، جاء لزيارتي مع بطاقة على مقياس 1000/100 لهضبة تندوف منقطة بالعديد من النّقاط الصغيرة. وتمثل هذه النقاط معالم مرتفعة من مترين ونصف المتر. الإرتفاع المقدّر يسمح بالرّؤية من معلم لآخر وفقا لمبدأ الإشارة. ولقد كلّفت بصنع هذه المعالم مصلحة الهندسة ببشّار. والبقيّة لي. أعطيت كلّ معلم إسما رمزيا مكوّنا من أرقام وحروف.

للحصول على الرؤية الجيّدة، يجب أن تراعي المسافة بين المعالم إنعكاس الشمس. وتقام لهذه المعالم بطاقات تحتوي على خرائط مشفرة ومختومة « سري للغاية ». ومع بدء العمل بها، أصبح التنقّل في الصّحراء آمنا.

تفقّدت بقية كتائب الإستطلاع والإنذار المتموقعة كالأولى على الحدود لضمان أمن المنظومة بأكملها.

المرتفع الوحيد الّذي يطلّ على هذه البقاع المسطّحة هو مرتفع مركالة، سيئة الذكر. ففي هذا المكان قامت القوّات المغربيّة، خلال « حرب الرمال » عام 1963، بمحاصرة 250 جنديا من الفيلق الخامس والأربعين بقيادة الملازم حشاني بوبكر. لم يكن لدى بوبكر أيّ قدرة على المناورة، ولم يتوفر حتّى على سيارة.

رحت أعاين وألاحظ. عملت بشكل منهجي، آخذا الوقت اللاّزم لمعرفة هموم الرّجال والوسائل المتاحة لهم معرفة جيدا. وكنت أستشير الإطارات. فقد عاودت الإحتكاك باللّب الحقيقي للجيش. وكنت أصغي بتأنّي حتّى يتسنّى لي تقييم العروض المقدّمة لي على حقيقتها. أدنى حادثة وأبسط ملاحظة لها تكلّفتها. لمست في كلّ مكان نوعا من الإستسلام والإحباط من ضعف تجاوب الوزارة للإحتياجات المعبّر عنها. تكلّموا معي بصراحة. ومعا قدّرنا ما ينبغي القيام به لتحسين الأوضاع. وشرعنا في التخطيط لأهداف نسعى لتحقيقها.

كان للضبّاط حرّية كلام مطلقة عندما يتعلّق الأمر بمشاكل جنودهم أو أحوال معدّاتهم. كقائد أركان، أعدّ مختار كركب خلاصة شاملة من أجل إستغلال جيد للعروض التقييمية الّتي قدّمت لي. ودامت مهمّتي لإعداد تقرير خبرة نحو شهر.

بعد هذه الجولة الميدانية، نزلت عند سليم سعدي في بشّار، لكي أستشيره في كلّ نقطة من النّقاط الّتي سجلتها. كان سليم، وبمبادرة منه، قد اتخذ عددا من القرارات السّليمة. أرسل ثلاثة فيالق من جنود الخدمة الوطنية لإزالة قضبان السّكك الحديدية المهجورة، بشّار قنادسة، ولتحويلها إلى تندوف، بمعدل 60 قضيبا في شاحنة مقطورة. وتولّى المهمّة في عين المكان رجال الهندسة على أحسن وجه.

الخطوط العريضة للتّقرير الّذي رفعته إلى الرّئيس تتلخّص في تحسين الظّروف المعيشية للمستخدمين. كما لفت انتباه الرّئيس بعد ذلك على ضرورة إنشاء نظام لوجستي فعال. وختاما، ركّزت على ضرورة أن يتمتّع المحترفون الّذين أسندت إليهم مسؤوليات في عين المكان بحرّية التصرّف في القوّات المجنّدة والمنظومة العملياتية عموما وإعادة نشرها تبعا لتطوّر المعايير. اقترحنا سحب الوحدات الّتي كانت موجودة في عين المكان منذ فترة طويلة، دون إضعاف وسائلنا مع ذلك. قرّرنا إبقاء اللّوائين الإثني عشر والرّابع والثّلاثين، وكتيبتي الدّبابات « تي 55 » و« تي 62 »، والوحدات القيادية ومصالح الدّعم. إقترحنا أيضا ترحيل الوحدات الّتي لم تهيأ

للقتال ذات الطّابع التقليدي أو توجيهها للتّدريب المكثف. وأرسلت تعزيزات إلى تندوف، وأحيانا بطريقة غير محسوبة. وافق بومدين على مقترحاتنا في مجملها. أمّا الباقي فهذا عملنا. أيّاما بعد تولي منصبي في « قطاع عمليات جنوب تندوف » الّذي يصطلح عليه بحروف SOST، بدأت التّعزيزات الّتي طلبتها تصل عبر أسراب من الطّائرات إستمرت عشرة أيام.

مرّة أخرى أثبت الطيّارون مهارة عالية، وقد أثبتوها قبل ذلك في عمليّات الجسر الجوي نحو قناة السويس.

تحسين الظّروف المعيشية

ظهرت لي الحاجة الملحّة لإيجاد علاج فوري لحالة الإكتئاب الّتي استولت على الرّجال الّذين يعانون من قسوة الفراق مع ذويهم والظّروف المعيشية الصّعبة، صباح أحد الأيام عندما دخلت عن طريق الصّدفة إلى أحد الملاجئ، فوجدت ضابطا يبكي. وهو من المخضرمين، ومن رفاق السّلاح خلال حرب التّحرير. ألححت عليه بأن يبوح لي بما يؤلمه. وعيا منّي بأسباب المعاناة هذه، قرّرت الإسراع في تنفيذ التّدابير الّتي تكفل للعسكريين النّاشطين في أقصى جنوب البلاد إمكانية الحفاظ على الروابط بين الجندي وأسرته. حفاظا على معنويات الجنود، يجب أن تكون القيود المهنية أخفّ ما يمكن على الحياة الأسرية.

كيف يمكن تسهيل التنقّل لهذا العدد الكبير من الرّجال من مكان تعيينهم إلى المدن والقرى الّتي يعيش فيها أهاليهم ؟ ومرّة أخرى كانت تجربتي المصرية في نجدتي. كان الجيش الفرنسي يعرف أنه في يوم من الأيام سيهاجم خط برليف، فقرّر منح الجنود إجازة أربعة أيام من كلّ شهر قضوه في الجبهة. وبما أن وجودنا في الجنوب الجزائري سيطول، فنحن بحاجة إلى ترتيب الأمور بطريقة عقلانية ودون المساس بالخدمة. على الجنود الحاصلين على التّسريح أن يأخذوا الوقت الكافي لحل مشاكلهم الشّخصية، مثل إدخال أبنائهم إلى المدرسة أو أي مسألة أخرى تتعلق بحياتهم العائلية. لأنّ كسر العزلة، ولو لوقت قصير، مفيد جدا للرّوح المعنوية.

إجازة لمدة إثني عشر يوما، بحساب الزّمن الممضي في الطريق، لضبّاط الصّف وللجنود باتت أمرا ضروريا. وتتجدّد في كلّ شهرين أو ثلاثة أشهر ونصف. وهي لمدة شهرين للضبّاط، الأقل عددا. تعدّ القوائم على مستوى الوحدات ويتم الإعلان عنها. كلّ جندي أو ضابط ملزم بانتظار عودة زميله قبل الذّهاب بدوره. وبهذه الطريقة، تضمن ديمومة الوحدات، مع الإحتفاظ بالوقت المخصّص للتّدريب والإستعداد للقتال.

وهكذا وضعت حدا للطلبات العشوائية للإجازة.

ولقد تمّ تخصيص أربع وعشرين حافلة وفرّتها لنا الشركة الوطنية للنقل من أجل العملية. وكانت رحلات الذّهاب والإياب تتمّ في الموقار بتندوف. أما العودة فتتمّ من الجزائر العاصمة

ووهران وقسنطينة. يبلّغ الجنود والمسؤول عن النقل بالمواعيد. أمّا الطّائرات، حسب توفّرها، فتمنح الأولوية للوجهة الأبعد، وهي قسنطينة.

بعد مرور فترة زمنية لاحظنا أنّ الرّجال يؤدّون أعمالهم بشكل أفضل.

نصّب سليم سعدي مجموعة من المسيّرين على مستوى ديوان الخضر والفواكه بسيدي بلعباس، تتمثّل مهمّتهم في تموينا بالمواد الغذائية الأساسيّة. وفي هذا الجانب، حان الوقت لتغيير الأوضاع. وحول هذه النقطة، سأحكي قصة طريفة لكنها ذات دلالة عن مشكلة الندرة الّتي كان يعاني منها أفراد الجيش.

ذات يوم، وبينما كنت أتفقّد الفيلق التّاسع والعشرين، قدّم لي النّقيب محرز، وهو من رفاق السّلاح في النّاحية الأولى التّابعة للقاعدة الشرقية، بطّيخة بملء ذراعيه. قال لي : « سي خالد، هذه تحلية جنودي. منذ علمت أنك ستأتي، احتفظت بها لأريها لك ! ».

كانت قصّة البطّيخة – الّتي ضحك منها الجنود الّذين عاشوها – مثالا عن مصير أوصال الطلبيات الّتي يصدرها قادة الوحدات العملياتية.

كان الماء في هذه المناطق القاحلة مشكلة ويزوّد بالقطرات. عندما وصلت، كان هناك بئران اثنان فقط. أمّا بالنّسبة لاستهلاك المركبات والآلات، فهذه قضية أخرى. كلّ صباح، وفي ساعة جد مبكرة، نتنقّل أنا والمقدّم كركب إلى الوحدات لحضور التدريبات. وكان كركب عندما يرى السيّارة قد اعتراها الغبار، يسأل السّائق : « وأنت ألا تغسل سيّارة العقيد ؟ ». يردّ عليه السائق قائلا : « ما كانش الماء حضرات ! ». يرفع كركب حينئذ يديه إلى السماء متضرعا إلى الله : « لكن في أي بلد نحن ! لا ماء، لا بصل ولا بطاطا لا ! ماذا فعلوا بنا ناس العاصمة ! ». لا يغيب عنّا أننّا كنا في زمن الإشتراكية ذات الخصوصيّة الجزائريّة وزمن النّدرة من كلّ أنواع، وأنّ في أسواق الفلاح سعيدة الذّكر، إذا أردت أن تشتري طبقا من البيض، عليك بالوقوف في طابور لمدّة ساعة وتشتري معه عجلة عربة يدويّة أو مشبك.

تَمّ حفر بئر واحد فقط أمام المعسكر، بالقرب من الحدود. أطلق عليه المقدّم علاق، أيام كان على رأس لواء المشاة الثّالث، اسم « بير العزم ». هل كان يرى أن رجاله قليلي العزيمة ؟ وهل يمكننا أن نتصوّر ماذا سيصير لجنودنا لو أن البئرين هدّما أو احتلّا من طرف القوّات المعادية ؟ أصبحت مشكلة الماء هذه انشغالي الشّاغل، وكان موضوع عدّة تقارير. أستشير سيد أحمد غزالي، مدير سوناطراك، في القضيّة، وجاء إلى مقرّ وزارة الدّفاع ببطاقة عن هضبة تندوف ملوّنة كلّيّة بالأزرق. الهضبة غنيّة بالمياه !

قال : « لديكم الماء في عمق ما بين 100 و120 متر. المياه الجوفية تغطي كلّ الهضبة، إنّما هي مياه الأمطار، تتجدّد مرّة كلّ مائة سنة ». وضع تحت تصرّفنا آلة حفر أخذت من حظيرة سوناطراك. وبعد شهر من وصول جهاز السبر هذا، ظهر أول بئر، نصّب فوقه عمود لتسهيل ملء الصّهاريج.

بعد فترة وجيزة، تعزّز بجهاز سبر ثان. قوّة تدفّق الآبار الّتي سلّمت في ظرف شهرين إلى شهرين ونصف، تصل 4 إلى 5 لترات في الثّانية. وفي غضون سنة واحدة فتحت عدّة آبار. وبهذه الطّريقة، حلّت مشكلة المياه على هضبة تندوف بصفة نهائية.

نضحّي بأنفسنا من أجل الحصول على العتاد الكفيل بتوفير نوع من الرّاحة في مرافقنا. إنطلقت قوافل من كلّ أنواع السيارات ولم تتوقّف عن الحركة. ولم يتوقف تدفّق الإسمنت والحصى والحديد والخيوط والكوابل وصفائح الزّنك، الخ... لمدة أشهر على المواقع لجعلها قادرة على استقبال الجنود. وشارك الجميع في هذا الجهد.

ذات يوم، وبينما كنت أعبر الهضبة، على مقربة من فيلق القيادة ومصالح اللّواء الرّابع والثّلاثين، رأيت قائد فيلق حافي القدمين، وقد رفع سرواله إلى ما فوق الرّكبتين، وهو يعجن الطين الخام ليصنع منه طوبا. وكان حوله جنود شباب، موغلين هم أيضا أقدامهم في الوحل، يعملون بجدّ ونشاط. يعرفون أنّ كلّ ذلك من أجل رفاهيّتهم. الطّين المخلوط بالتّبن، الّذي نحضره على شاحنات مقطورة كاملة، يقولب في شكل آجور. كنّا عند هذا القائد الموهوب نحب أن نلتقي لنتذوّق طبقا شهيّا من الكسكس. وعنده أيضا فاجأنا المقدّم بولكرام باقتراح غريب. سأعود إليه. كانت هذه المواد المصنوعة من الطّين الأكثر استخداما في القطاع. فالصّفائح المموّجة الّتي تستعمل كأسقف تغطّى بطبقة سميكة من الطّين كعازل حراري. وهي طريقة معروفة منذ القدم. كما هيئت ملاجئ للوقاية من كلّ أنواع النّيران. وتحفر ثقوب « زجاجة » دون انقطاع وخنادق مغطّاة بقضبان السّكك الحديدية الّتي كان قائد النّاحية سليم سعدي يسعى جاهدا على جلبها لنا.

بعد أن تولّيت مهامي مباشرة، نظّمت اجتماعا مع كافة الإطارات وعرضت عليهم فكرتي عن تعديل النّظام. وهذا ما تمّ بموافقة وتعاون الجميع. وكان شعارنا هو تحقيق المزيد من الفعّالية والقدرة العمليّة والمبادرة.

كلّ صباح، أقوم بمرافقة المقدّم كركب، ثم بعده بمرافقة قائد أركاني الجديد، سليمان بوشوارب، بجولة حول الهضبة. وكان سائقي المدعو « لرنب » (الأرنب) يملك حسّا فطريّا بالاتجاه. قبل أن تنصّب المعالم، كنت كلّما لا يجد الرتل طريقه أبعثه إلى الأمام. بحدسه يعرف الإتجاه الصحيح. يحدث لي أحيانا أن أتأخّر في المراكز المتقدّمة إلى حدّ غروب الشّمس. لا أقلق مادام أن « لرنب » موجود معنا. في بعض الأحيان يتعمّد المرور بين الفجوات الّتي تفصل بين مواقع وحداتنا لإظهار معرفته الصّحراء. مع « لرنب » لسنا بحاجة للبوصلة الجيروسكوبية.

إستئنفت التّدريب في القاعدة، بدءا بالفوج القتالي، فالفصيلة ثم الكتيبة.

كانت هضبة تندوف ملائمة تماما للمناورات على الطّبيعة. تسمح بإجراء مناورات بسيطة، باستخدام واقيات الصّدر، أو مزدوجة بإشراك وحدات كبيرة، على مساحات واسعة.

كلّ عام تجرى في كلّ قطاع مناورات مزدوجة من إعداد قيادة أركان النّاحية ويشرف عليها قائد النّاحية.

التدريبات المتكرّرة حرثت الهضبة طولا وعرضا. وتحفر فيها عجلات الدبّابّات والآليّات مسالك لا حصر لها. المسافر الّذي يصل على متن طائرة تتراءى له تندوف على بعد أكثر من 150 كلم، من خلال سحابة الغبار الصّفراء الهائلة الّتي يصل ارتفاعها 8 آلاف متر فوق مستوى سطح البحر.

تقوم الفيالق المعزّزة بتمارين استعراضية بالذّخيرة الحيّة وبإشراك المدفعيّة والدبّابّات وأحيانا الطّيران. تشترك في التّمارين المزدوجة عدّة ألوية. تنفّذ بمحاكاة أو دون محاكاة على مسافات تتراوح بين 80 و100 كلم. والهدف من ذلك هو تدريب الأركان وقادة الوحدات على التّفاعل مع الحالات الطارئة. ويحضر الضبّاط الإجتماعات الختامية. تشمل التّمارين مرّة في السّنة كلّ قطاع العمليّات.

وتمّ التحقّق من التّكوين الجيّد لعناصر الكتائب والألوية ومجموعات القوّات الّذي جرى تدريجيا. كما أجريت تمارين لوجستية خاصة بالإمداد والدّعم الصحّي والدّعم التّقني، بالتّنسيق مع الطّيران. في نهاية السّنة، تنظّم مناورات واسعة النّطاق يشارك فيها ضبّاط النّواحي العسكريّة الأخرى والقيادة المركزية. يشرف على توجيه التّمارين قادة قطاعات العمليات. فيما تتولى عملية التّركيب هيئة أركان النّاحية العسكريّة.

عشيّة التّمارين يكون مطعم تندوف ممتلئا إلى آخره. يسعد الضبّاط كثيرا بالتّلاقي وينادون بعضهم بعضا. وتختتم هذه الإجتماعات بمأدبة عشاء كبيرة يقيمها قائد النّاحية.

تأكّدت من خلال كلّ هذه التّجارب ضرورة إدخال البُعد الثّالث على مستوى اللّواء، والمتمثّل في استخدام طائرات هليكوبتر للقيادة والإستطلاع. هذه الأداة أساسيّة للّواء في إجراء مناوراتها في التّضاريس الصّحراوية.

بغضّ النّظر عن فائدتها التّقنية، للمناورات هدف سياسي يكمن في تحذير المعتدين المحتملين ممّا قد تكلّفهم أيّ محاولة للمساس بالوحدة التّرابية للجزائر، مثلما فعلوا بعد استقلالنا مباشرة.

بعدما بدأت تتصاعد تحرّكات جيراننا، شرعنا في إعداد الدعم الصحيّ. وأخذ أطباؤنا وممرضونا يعدّون العدّة تحسّبا لنشوب حرب. وتمّ تعيين مواقع ملحقاتهم مقدّما حسب عدد المصابين المحتملين المصنفين بين مصابين بجروح بليغة وجدّ بليغة وخفيفة ومصابين بكدمات. مثلما حدّدوا عدد الفرق الجراحية في إطار نفس الخطّة. وحدّدوا نشر المستشفيات الميدانية بالقرب جدّا من الوحدات وخلف مسرح العمليّات. تتمّ عمليّات إجلاء المصابين بجروح خفيفة وبكدمات برا. فيما تتولى الطّائرات إجلاء المصابين بجروح بليغة. أمّا المصابون بجروح جدّ بليغة، فنظرا لاستحالة نقلهم فتتمّ معالجتهم في عين المكان.

بالموازاة مع هذا العمل الملموس الخاص بتعزيز منظومتنا وإضفاء الرّوح الإنسانيّة على مرافقنا، شرعنا في تطوير نظامنا اللوجستي.

منذ نهاية حرب التّحرير، وبأمر من الرّئيس بومدين، كانت لوحداتنا دائما وحداتها الجويّة الخاصّة. فالطّائرات الّتي تتنقل من قاعدة إلى أخرى، تزوّد فضلا عن القنابل بذخيرتها : من قذائف وصواريخ مضادّة للطّائرات وقذائف المدفعيّة. ونظرا لبعدها عن أقرب مركز (بشّار موجودة على مسافة 800 كلم شمالا)، فمن الضّروري الحصول على استقلالية في الإمدادات من كلّ نوع للجنود وللمركبات.

تملك الألوية « مطاعمها المتنقّلة » الّتي تقدّم وجبات خفيفة. أنشأنا مثلها على مستوى قطاع العمليات بجنوب تندوف، وأعددناها داخل المخازن الموجودة في الخلف. تتحرك هذه « المطاعم المتنقّلة » فور الإعلان عن اندلاع القتال وتتبع عن كثب وحداتها لتموينها وفقا لاحتياجاتها. إنّ الوحدات القتالية الحديثة هي عبارة عن آلات مستهلكة. إذا لم تموّن فستتحوّل إلى أهداف جامدة. يشارك مسؤولو الوحدات اللوجستية في الإستعداد لقتال الوحدات. تتلقّى نفس الوثائق التكتيكية والعمليّة الّتي تسلّم للوحدات، والّتي يجب أن تعرفها جيّدا وتتبعها لتموينها بشكل مستمر ومضمون.

كلّ الشّاحنات المعدّة للمطاعم المتنقّلة وكذا للمواد المنقولة مقنّنة. كلّ أنواع الإمدادات تسلّم في الموعد المضبوط وفي المكان المحدّد. دعونا ولمن يعرف تاريخ الحرب العالميّة الثّانية، نتذكّر ملحمة غوّاصات الإمداد الّتي تتموّج في المحيط باتجاه السّفينة المراد تموينها. ويمكن مقارنة مساحات الجنوب الكبير اللاّمحدودة، في هذا الجانب، بامتداد المحيط الشّاسع. وصفت في الصفحات الّتي أتحدّث فيها عن حرب التّحرير، الإستياء والحيرة الّتي أحسّ بها مجاهد اكتشف، في لحظة استنفار، أنّه كان يمسك بحزام خراطيش غير مناسبة للسّلاح الّذي يحمله هو بذاته. وإذا سحب ذلك على قياس وحدة مشاركة في القتال، فالأكيد أنّ أيّ خطأ يكون ثمنه باهظا.

الخدمات اللوجستية ومفاصلها المختلفة موجودة في كلّ جيوش العالم منذ اللّفائف الرّومانية وجحافل حانيبعل الّتي يتّبعها سوّاق بغالهم، والعربات الّتي تجرّها الثّيران في عهد داريوس وقوافل الأمير عبد القادر. عندما تنقطع سلسلة التّموين الطّويلة والمعقّدة لمدّة طويلة، تنهار الجيوش. وهذا ما حدث لجيش نابليون الكبير عام 1812 والجيش الألماني عام 1942 في السّهول الروسيّة الكبرى وفي الصّحراء اللّيبيّة عام 1943. ومنذ ذلك الزمن، أعدّ الجيش الجزائري وسائله اللوجستية وفق التّخطيطات العسكريّة الكلاسيكيّة وبالتّكيّف باستمرار مع الظّروف الخاصّة بالأرض الّتي ينتشر عليها، وهذا تحت التّهديد المستمر من وقوع عدوان خارجي.

تقسيم جديد لمجموع القوّات

أثناء محادثاتي مع إطارات الوحدات المتمركزة فوق الهضبة، أدركت أنّه ولا أيّ منها لها مهمّة محدّدة. وإذا كانت كلّها تعرف أنّ المعتدي المحتمل لا يمكن إلّا أن يأتي من الغرب، إلاّ أنّها

لا تتصوّر في الحقيقة حجم قوّاته، ولا طبيعة معداته وكيف ستنتشر حتّى تواجهه له على ساحة المعركة. على أي محور، وإلى أيّ مدى، وبالتّنسيق مع أيّ عنصر صديق ؟ مرّة أخرى، بدت الحاجة لتشكيل هيئات أركان صغيرة ملحّة عليّ. وفي انتظار ذلك، نقوم بما هو ضروري لإعداد المنظومة القتالية وضمان جهوزيتها.

وفي وقت لاحق، لاحظت أثناء تصفّحي الوثائق ومقارنة المعطيات، أنّنا خدعنا تماما من قبل المغرب من خلال استعراضات عسكرية ومدنية[51]. كانت وسائلنا ومعدّاتنا، عشيّة موقعة أمقالة، كافية لردع الحسن الثّاني من احتلال الصّحراء. كان لدينا قوّات مدرّعة ومؤلّلة، وأفواج مدفعيّة، وعشرات من الفيالق الّتي أعيد تنظيم معظمها في ألوية تدخل خفيف وطيران متفوّق تماما على طيران جيراننا. كانت خطّة القوّات المسلّحة المغربيّة تتلخّص في تغيير أماكن أربع مجموعات فرعيّة معرّفة بالحروف الأبجدية (أ، ب، جـ، د)، تتألّف كلّ مجموعة منها من سرّية من الدبّابّات الخفيفة من طراز AMX-13، وفيلق مشاة و بطّارية مدفعيّة من عيار 105 ملم، وذلك لإيهامنا بوجود قوّات أكبر بكثير من قوّاتنا. في ذلك الوقت، كان الأمن العسكري بقيادة مرباح وزرهوني مهتمّا أكثر بما يقال في نوادي الثّكنات وفي مقاهي العاصمة. كان لا يعرف سوى أشياء قليلة محدّدة عن حجم القوّات المسلّحة المغربيّة وعن خطط الحرب الّتي يعدّها الحسن الثّاني. كان لمحمد الصالح يحياوي، المسؤول في عين المكان، كامل المواصفات للوقوع في الفخ.

لا يمكن للأمن العسكري أن يحلّ محلّ هيئة أركان مجهزة بمكاتب متخصّصة وإطارات أكفاء. الإستعلامات العسكريّة، عندما تكون معدّة إعداد جيّدا، تتدخّل بشكل كبير في عملية صنع القرار.

وبمجرد الإنتهاء من تقييم الوضع بشكل دقيق، إنتقلنا مع سليم إلى احتمالات إقدام القوّات المغربيّة لشنّ هجوم علينا. توصّلنا إلى خلاصة مفادها أنّ الجيش المغربي غير قادر على إعلان الحرب علينا ومواجهة جبهة البوليساريو العازمة والمستميتة في آن وحد.

منطقتنا العمليّاتيّة الرّئيسيّة تتربّع على مساحة من 180 كلم على 30 كم، يحدّها من الجنوب النّقطة الحدودية « رقم 40 »، ومن الشّمال مركالة و41 النقطة « 41 مكرر »، فيما تقع مدينة تندوف شرق تقاطع أقطار هذا المربّع.

أظهرت لنا طبيعة التّضاريس والإمكانيات اللوجستية الّتي يملكها الجيش الملكي المغربي، بأنّ عملا هجوميّا من هذا الأخير في تندوف غير محتمل. لكن اشتباكات على الحدود، أو غارات محدودة تبقى واردة. تبيّن أنّ لتأهيل قوّاتنا وإمكانيّاتنا أثرا رادعا. وكان للصّحراويّين حرّية تصرّف كاملة. خلال معركة « زعاك » وجد ثلاثة آلاف جندي مغربي أنفسهم محاصرين من قبل القوّات الصّحراوية، وكانت الممرّات الجبلية تسمح بالتّموين المتوقّف ووحدات التدخّل السّريع عالقة في سفوح جبال أوركزيز. لم تحاول القوّات المغربيّة استعمال « حق الملاحقة »، على غرار الجنرالات

51. المسيرة الخضراء الّتي أطلقت على الأراضي الصّحراوية 350 ألف مغربي وأطرها 20 ألف جندي.

الفرنسيين الّذي كانوا يطالبون به خلال حرب التّحرير[52]. ولقد سمح لنا تقييمنا العقلاني للأخطار بتعزيز مواقعنا دون تسرّع وبتحسين جهوزية جنودنا للقتال. معظم القوّات المكلّفة بالدّفاع عن تندوف ومنطقها نظّمت نفسها بانسجام على المستوى العمليّاتي تحت حماية وحدات الإستطلاع المتنقّلة الّتي وضعت في الطّليعة وجهزّت وفقا لذلك. وفي غضون ذلك كانت تتوالى التّدريبات مع ودون محاكاة لترويض المنظومة.

و نظرا لكون دفاعنا متنقّلا، خطّطنا لإجراء مناورات هجومية أو دفاعية.

في قطاع العمليّات بجنوب تندوف، أخذت الأمور في التحسّن يوما بعد يوم. فبدأت التّدابير المتّخذة تنتج مفعولها. أصبحت التّغذية أفضل. وحركة الحافلات الّتي تقلّ الخارجين في إجازة تعمل من دون توقّف. وتدريب الجنود يسير على قدم وساق. وتوالت التّمارين. وتوّلدت الثّقة من جديد.

كنّا في تندوف لتطوير وسائلنا الدّفاعية، عندما كانت ترد إلينا أخبار مقلقة بشأن صحّة هواري بومدين. وبعد مرور فترة وجيزة، فجعنا بنبأ وفاته.

في أيّ حالة ترك البلد والجيش ؟ من سيخلفه ؟ ماذا سيحدث غدا ؟ هي الأسئلة الّتي راح يطرحها كلّ واحد منّا على نفسه.

بومدين والجيش الوطني الشّعبي

الجيش الوطني الشّعبي هو من صنيع رجال كثيرين. جعل منه بومدين ملكيّته الخاصة وأداة بين يديه والأسطورة الّتي يخوّف بها غرماءه ويردعهم بها. فكان الآمر النّاهي في كلّ شيء. كلّ التنقّلات والترقيّات والإحالات على التقاعد هي من اختصاصه لوحده. خوفا من أن تتحوّل وحدة القادة إلى مؤامرة، عمد ترك خطوط الشّرخ الصّغيرة بين قدماء المجاهدين والكفاءات الشّابة مفتوحة، مستغلًّا آثار سوء التّفاهم الكامن فيما بينهم.

ما من قرار يُتّخذ في غيابه. كان دائما بالمرصاد وحذرا، كما عطّل لمدة طويلة إنشاء وحدات عمليّاتية كبيرة. مثلما فعل كلّ ما بوسعه لتفادي أي اقتسام للقرار السياسي، وأبقى الجيش الوطني الشّعبي تحت وصايته المباشرة، دون وسيط وبلا أدنى لبس.

كانت الفترة الّتي مارس فيها السّلطة، على الرّغم من وجود مجلس الثّورة[53]، فترة تهميش على المستوى السياسي للجيش والركود النسبي على المستوى التقني.

---

52. كان الجيش الفرنسي المحاصر من طرف كتيبة تابعة لجيش التّحرير الوطني، يريد ممارسة حق الملاحقة إلى غاية تونس والمغرب حيث كانت توجد قواعدنا.

53. قد يبدو أن تشكيلة مجلس الثّورة، وهي الهيئة الأعلى للسّلطة السّياسيّة، أنّها سيّست الجيش الوطني الشّعبي، إلاّ أنّ قادة النّواحي الّذين هم أعضاء فيه كانوا في الواقع مبعدين من القرار السياسي... لأنّهم تحت قبّعتهم العسكريّة ملزمون بالطّاعة. ومع ذلك، يبقى أنّ حضور العسكر في الهيئة السّياسيّة العليا للبلاد، ولو بشكل صوري، وخاصّة النشاط الأمني العسكري، أقحم الجيش بصورة لا رجعة فيها، وفي كلّ الظّروف، في صفّ هواري بومدين.

كانت التّهديدات على حدودنا الغربيّة هي فقط الّتي دفعت هواري بومدين إلى الشّروع في اقتناء ما كان يسمّيه « القصدير » والتّعجيل بعملية العصرنة، كما أشرت إلى ذلك آنفا.

وبالنّسبة للغالبية العظمى من ضبّاط الجيش الوطني الشّعبي، ولاسيما أولئك الّذين قاسموني نفس المشوار، كان الوفاء لبومدين لا تشوبه شائبة. مع العلم أنّه كانت لهواري بومدي علاقة شخصيّة وقويّة وإنسانيّة ودافئة مع الكثير منّا. وتفسّر هذه العلاقة الإستثنائية وجودهم إلى جانبه عندما أضعفت الظّروف موقعه وأعاقت حرّيته في التّصرف. لا أحد من كلّ الّذين خدموا الجزائر تحت قيادته أحسّ بتأنيب الضّمير على العمل تحت إمرته، لسبب بسيط وبديهي، هو أن ما بين 1954 و1962، كانت مختلف هياكل جبهة وجيش التّحرير تعمل في إطار البرنامج الشّامل لبيان أول نوفمبر 1954، الّذي التفّ حوله الجميع بعفوية وحماس. ولأنّ الأزمات المتعاظمة الّتي أثّرت على صفوف الحركة الوطنية لم تهدّ أساس المشروع الّذي نال إجماع كافة المناضلين الإستقلاليين حوله.

بالمثل، لم تؤدّ المنافسة العنيفة أحيانا من أجل الاستيلاء على الحكم إلى زعزعة مبدأ الدّولة الجمهوريّة وقيمها المحدّدة والموضّحة، وأكّدت عليها قرارات مؤتمر الصّومام وبرنامج طرابلس وميثاق الجزائر. إنّني لا أدعي هنا إعادة النّظر في التّاريخ، وانتقاد خصوم بومدين والحكم على الأسباب الّتي دفعتهم للتّحرك. كان كلّ فرقاء العمل السّياسي يستلهمون أعمالهم من الخيارات الإيديولوجية الكبرى الّتي يشتركون فيها، وقدّموا، كلّ بطريقته الخاصّة، حججا ورؤيا وأساليب عمل مختلفة، لكن بهدف تجسيد نفس المثل الأعلى.

في أعقاب وفاته، التفتنا طويلا في كلّ الإتجاهات، فلم يكن هناك خليفة ولا شخصية سياسية تحقق حولها الإجماع، ولا عضو سابق في المجلس الثّوري يملك مسيرة وقدرات فكريّة وشخصيّة تضاهي مسيرة وقدرات وشخصيّة الزّعيم الّذي فارقنا. لماذا هذا الفراغ ؟ كيف وصلنا إلى هذا الوضع ؟ كيف يمكن لبلد كانت لديه نخبة سياسيIة معروفة بذكائها وإقدامها وعزمها، خاضت الكفاح من أجل الإستقلال وانتصرت فيه، أن يجد نفسه مستنزفا إلى هذا الحد ؟

الأقدم في أعلى رتبة

من أهمّ نتائج الصّراعات من أجل السّلطة الّتي وقعت في صيف عام 1962، والّتي حلّها ميزان القوى بدلا من ميزان العقل والحوار، إنشطار النّخب السّياسية الّتي أفرزتها الثّورة وانفراط عقدها.

في أعقاب رحيل هواري بومدين، كان مصير الجزائر بين أيدي حفنة من الأشخاص لا يملكون رؤية استراتيجية ولا بعد نظر. وليس لديهم أيّ قدرة على إجراء تقييم واقعي للأوضاع السّياسيّة والإقتصادية والإجتماعية للبلد، ووضع تخطيط سياسي كفيل بفتح عهد جديد من التّجديد والإصلاح في الجزائر. إستطاع قاصدي مرباح، بعدما استرضى عددا من أعضاء مجلس الثورة

القديم[54]، مدعوما من مجموعة من الضبّاط، أن يُسكت أصوات الإطارات المدنية والعسكريّة الّتي لم ترد المشاركة، دون مناقشة مسبقة، في تعيين بن جديد منسّقا للقوّات المسلّحة. وبقية المهمّة تكفلت بها الإنتهازية الصّاخبة لمسؤولي حزب جبهة التّحرير الوطني.

لقد قام المسؤولون الّذين مهّدوا الطّريق للشّاذلي بن جديد إلى كرسي الرّئاسة، بذلك باسم الجيش الوطني الشّعبي. وضعوا أمام الأمر الواقع جميع سلك الضبّاط وكافّة المؤسّسات. ولقد فوّت قرارهم على الجيش الجزائري موعدا كبيرا مع التّاريخ.

أقدّم إيضاحات وافية عن الشّعور العام الّذي قوبلت به الشّائعات الّتي كانت تروّج حول التّحضير لتنصيب بن جديد على رأس المؤسّسة العسكريّة ثم اقتراحه لأن يكون رئيسا للجمهورية. وما أن بدأت الشّائعات تتشكّل، حتّى طلب منّي العقيد سليم سعدي بالذّهاب إلى العاصمة لمقابلة قاصدي مرباح، لكي أوصيه بعدم اتّخاذ أي قرار حتّى يلتقي جميع قادة الجيش ويدرسون الوضع النّاتج عن شغور السّلطة. جاءت مبادرة سليم سعدي بعد اجتماع مع ضبّاط النّاحية الثّالثة، وهي الأقوى من بين كلّ النّواحي العسكريّة من حيث الإمكانيات العسكريّة[55].

كان سليم سعدي يعرف الشّاذلي معرفة جيدة، مثلي أنا أيضا، بما أنّني كنت نائبه خلال حرب التّحرير. كنّا أنا وسليم مقتنعين بأن الشّاذلي هو الأقل تأهيلا لتبوء منصب القاضي الأول للبلد. فمعارفه السّياسية محدودة جدًّا وسريع الإنفعال وبالتّالي سهل للتأثّر. فكنّا جد متوجّسين من إمساكه بزمام الحكم والتحكّم في مصير الجزائر. فالصّلاحيات الّتي يمنحها الدّستور يمكن أن تؤدّي بالوطن إلى الهاوية إذا ثبت أن الرّجل المختار غير قادر على أن يكون في مستوى المهمّة.

عند وصولي إلى العاصمة، كلّمت قاصدي مرباح على الهاتف لأطلب منه أن أقابله. أجابني بأنّه لا يستطيع استقبالي بدعوى كثرة مشاغله. بيد أنني استطعت أن أبلّغه تحفظاتنا. في اليوم التّالي، أبلغني الأمين العام لوزارة الدّفاع الوطني أنّ كلّ شيء قد تم. تمّ تعيين الشّاذلي بن جديد منسّقا للجيش. ومنذ تلك اللّحظة، أصبح قاب قوسين أو أدنى من كرسي الرئاسة.

علمنا لاحقا بأنّ الصّفقة تمّت بين قاصدي مرباح وعبد الله بلهوشات ومحمد عطايلية، وهذان الأخيران منحا تزكية قادة النّواحي. فيما كلّف عدد من الضبّاط، من ذوي الرّتب الأدنى، بردع المناوئين. لم يكن قائد الأمن العسكري يرغب في المرشّحين الآخرين اللّذين أعلن عن اسميهما في مرحلة متقدّمة، بأيّ ثمن.

ما هي المعايير الّتي اعتمدها قاصدي مرباح لفرض بن جديد ؟ هل هي معايير الشّرعية التّاريخية ؟ أم يا ترى الشّجاعة البدنية ؟ أم الكفاءة ؟ كان الشّغل الشّاغل لقاصدي مرباح، كما أوضح ذلك فيما بعد، هو أن يكون على رأس الجيش ضابطٌ منبثق من صفوفه[56] قادر

54. من بينهم عبد الله بلهوشات وأحمد بن أحمد عبد الغني وأحمد بن شريف.

55. انظر كتاب : « محاكمة باريس. الجيش الجزائري في وجه التضليل الإعلامي ».

56. الأقدم في أعلى رتبة.

على الحفاظ على وحدة وتماسك المؤسّسة العسكريّة، ضامنة استقرار البلد، ويجنّبها الوقوع في يد رجل يستخدمها ضدّها وضدّ الوطن. ومع ذلك، لم يمنع الشّاذلي بن جديد من تشكّل مسامير وتكتّلات داخل الجيش.

على الصّعيد السّياسي البحت، كان قاصدي مرباح بلا شك يفكّر تفكيرا قياسيّا، مستندا على أحكام قيمية، وهو أنّ « الشّاذلي، رجل من الشرق، تبنّاه رجال الغرب »، قياسا بالمواصفات الّتي تنطبق على هواري بومدين. لكن في الحقيقة، كان قائد المخابرات، في سعيه للإحتفاظ بجوهر السّلطة، إختار الرجل الّذي تناسبه مواصفاته وخصائصه البسيكولوجية.

وبعد مرور بضع سنوات، كنت في رحلة على متن طائرة جالسا بجنب السّيدة مرباح، وكان زوجها قد اغتيل في تلك الأيّام على يد الإرهابيين الإسلاميين. هذه المرأة الّتي حلّت عليها مصائب كبيرة وتحمّلت كربها برباطة جأش كبيرة، قالت لي : « كان زوجي كثيرا ما يردّد عليّ، بتنهّد، كان عليّ أن أصغي إلى خالد نزار ».

من بين كلّ الذّكريات الّتي بقيت عن اجتماع اللّجنة المركزيّة الّذي خُصّص لتزكية اختيار الشّاذلي بن جديد مرشّحا لجبهة التّحرير الوطني لرئاسة الجمهوريّة، فإنّني لا أزال أحتفظ بصورة الرّائد معاوية، وكان أحد مساعدي مرباح، وهو واقف ممدّدا ذراعيه، يوجّه مثل قائد جوق موسيقي، حركات المربّع الكثيف الّذي يشغله ممثلو الجيش الوطني الشّعبي. وقف الجميع مثل رجل واحد بإشارة منه في لحظة دخول الشّاذلي بن جديد القاعة ! وجلس الجميع، دائما بإشارة منه، عندما أقبل محمد الصالح يحياوي وبوتفليقة بدورهما[57]...

بعد تزكية الجيش الوطني الشّعبي، تسلّم الشّاذلي بن جديد مقاليد بلد انطلق في مسيرة كان من المفترض أن تخرجه نهائيا من حالة التخلّف الّتي أبقاه فيها المستعمر. في كافة مجالات الحياة الإقتصادية، كانت جهود هواري بومدين كبيرة، لكنّه لم يكن لديه الوقت الكافي لتسوية جميع المشاكل الّتي كانت تعاني منها البلاد والجيش. وعلى الرّغم ممّا أنجز منذ عام 1975، فإنّ الجيش ما زال تجهيزه ضعيفا نسبيّا، وحركته مشلولة بسبب عدم التّناسب بين أهميّة المناصب المشغولة والقدرات التّقنية الفعليّة لأولئك الّذين يشغلونها. على هذين المستويين، لابدّ من البدء من نقطة الصّفر أو إعادة كلّ شيء من جديد. فالجيش والبلد كلّه ينتظران بن جديد على أرض الواقع.

لم يكن بن جديد، في اللّحظة الّتي أعلى به سلّم قصير، لكنّه متين، وحطّه على كرسيّ الرّئاسة، لديه فكرة عن الحالة الحقيقيّة للبيت الّذي تسلّم مفاتيحه.

الأشياء الّتي زاد بن جديد من تعقيدها

عرفت الجزائر الّتي ورثها بن جديد، بالرّغم من أنّ حصيلتها كانت إيجابية عموما، تشوّهات كبيرة.

57. أنظر كتاب : « محاكمة باريس. الجيش الجزائري في وجه التّضليل الإعلامي ».

أدّى نمط التّسيير والتّنمية المعتمد لإدخال البلاد في العصرنة بحرق المراحل، وكذا الإمكانيات المسخّرة لإنجاحها، وفي غياب الموارد البشرية القادرة على التكفّل بها ومناخ سياسي ملائم، كلّ ذلك أدّى بجزائر بومدين إلى التّخفيف من وتيرتها التنموية.

وقد نتج عن وصفات التّصنيع المستوردة الّتي طبّقت بشكل قسري، ودافع عنها بعناد انتحاري حكّام متعصّبون لأفكارهم، تشريد سكّان وتفقيرهم وتهجيرهم. كما ساهمت الإنتكاسات في المجال الزّراعي، بسبب تنفيذ شعارات مبسّطة سرعان ما أفرغتها من محتواها بيروقراطية رهيبة : « الأرض لمن يعملها[58] »، في تحطيم البنيات التّقليدية لتنظيم وإنتاج هذا القطاع الّذي يتوقف عليها الإستقلال الغذائي للبلد[59]. وترتب عن افتقاد المواد الغذائية الأساسيّة استفحال ظاهرة النّدرة وتسلّل الشّك إلى نفوس المواطنين قبل نفاد صبرهم.

بينما كان هواري بومدين يملي قراراته، وكانت الشّرطة السّياسيّة تتعقّب أدنى معارضة، كانت الحركة الإسلاميّة الآتية من ضفاف النيل، والّتي لم يوليها في البداية سوى اهتمام عابر، تتمدد وتتنظّم وتتدعّم.

فهذا الإخلال في الإهتمام، وإهمال قطاعات بأكملها (الديموغرافيا والمدرسة) مكّن الأعضاء الإسلاميّة المزروعة، وسط لامبالاة الحكّام المطلقة، من تعديل إسلام آباءنا تعديلا وراثيا.

ولقد سمح بن جديد للإسلاميين بالتّحليق بأجنحتهم واحتلال فضاءات واسعة في المجتمع بالإستيلاء على المساجد والإستثمار في الشؤون الإجتماعية.

ولقد ساهم النّمو الديموغرافي في تدني مستوى التّعليم بسبب استحالة العثور على مدرّسين، بالكميّة والنوعية الكافية، يكونوا قادرين على مواجهة تحديات التعليم للجميع. وأسندت البرامج المدرسيّة لموظفين يسعون وراء التّرقيات، وأخطر من ذلك، لمناضلين إيديولوجيين يريدون خوض كفاح تحرّري جديد من خلال معاداة اللّغة الفرنسيّة ومستعمليها[60].

نتج عن رفض النّخبوية[61]، الّذي قرّر في البداية عن خيار إيديولوجي، وفرضه بعد ذلك تزايد عدد السّكان، الرّداءة للجميع وفقدان المرجعيّات الّتي تمكّن المواطن من الإدراك بأنّ مصلحته الشّخصية تكمن في مصلحة الوطن الّذي ينتمي إليه. فكان من هيّأ تربة التردّي والرّداءة وأثراها هم مخططو المدرسة الجزائرية. وفيها انغرس الإسلاميون. كما أنّ موجات النّزوح نحو المدن

58. لا تزال ملكية الأرض موضوع نقاش حتّى اليوم !

59. المناطق الجغرافية الّتي عاش فيها الإرهاب الإسلامي في التّسعينيات هي المناطق الّتي انحلّت فيها الرّوابط التّقليدية بالأرض.

60. « إنّ تأثير الإسلامويّة كان محصورا في الجامعة، وتحديدا في كلّيات الطّب والعلوم والتّكنولوجيا، قبل أن يمتد إلى كلّيات العلوم الإنسانيّة، وخاصة كلّية الحقوق. وبعبارة أخرى، كانت الحركة الإسلاميّة في السّتينات والسّبعينيات محصورة في دوائر صغيرة من المثقّفين والإطارات والجامعيّين. وهناك عاملان ساهما في تهميش جناحها الفرنكوفوني : صعود اليسار وسياسة تعريب التّعليم ».

61. عندما حاول أنصار التّعريب الفوري والشّامل، في التّسعينات، فرض قانون يحظر استخدام الفرنسيّة، كان من وقف في وجههم هو أحد قادة جيش التّحرير القدامى، وهو معرّب تماما، الرّئيس علي كافي.

الّتي يوجد فيها عمل ووسائل الترفيه تجاوزت إمكانيّات الإدارة. وفي الأحياء القصديرية، الّتي تقع خارج سيطرة الدّولة، ازدهرت الشّبكات السّرية.

قائدا للنّاحية الثّالثة

بعد « انتخابه » رئيسا للجمهوريّة مباشرة، قام الشّاذلي بن جديد بتعييني قائدا للنّاحية العسكريّة الثّالثة، خلفا لسليم سعدي الّذي استُدْعِي إلى مهام في الحكومة. وبالإضافة إلى قطاع جنوب تندوف، فإنّني مسؤول أيضا عن قطاعي برج لطفي في الوسط، وبشّار في الشّمال المقابل للقوّات المغربيّة المتمركزة في قصر السّوق. وتضمّ القطاعات الثّلاثة ألوية قتالية ووحدات مستقلّة وقواعد جويّة، واحدة منها خاصّة بطائرات الهليكوبتر، بالإضافة إلى أرضيات لوجستية. ويبلغ تعداد القوّات عشرات الآلاف من الجنود وتمتد على مسافة 1300 كيلومتر تقريبا. وكان المقدّم تواتي محمد، قائد هيئة الأركان الجديد للنّاحية، يشرف على كلّ شيء. محمد تواتي ضابط يحب الدقّة ومجتهد في العمل ويملك الصّفات الإنسانيّة المطلوبة لخلق جو مواتي للمنافسة والحماس حوله. إلّا أنّه بالمقابل يعرف كيف يكون في غاية الشدّة والصّرامة عندما يلاحظ أي تقاعس أو تقصير. ومن هذه النّاحية، فهو عسكريّ بامتياز.

لقاءاتي مع مسؤولي البوليساريو قليلة جدا. من وقت لآخر نتلقّى أوامر لرصد ذخائر نقتطعها من مخصّصاتنا. في العادة، يتمّ التكفّل بمعدّات البوليساريو على المستوى المركزي. نراقب عمليّاتها عن كثب ونقدّر انعكاساتها المحتملة على أراضينا. الموريتانيون حطّوا أسلحتهم بعدما أضعفتهم الهجمات المتعاقبة. والمغاربة أمام سرعة حركة وجرأة الصّحراويين، وبمساعدة الفرنسيين المتخصّصين في الخطوط المحصّنة (فوبان، ماجينو، موريس، شال، وجبال الألب و البيريني) تصوّروا طريقة لصدّ هجمات البوليساريو بتشييد أسوار. كانت القوّات المسلّحة المغربيّة تمر في تلك الفترة بظروف صعبة. وكانت وحدات تدخّلها السّريع، المجهّزة بوسائل خفيفة وسريعة، في حالة إنهاك شديد تحت ضربات الصّحراويين. والأسرى المغربيون يعدّون بالآلاف، بقي عدد كبير منهم محتجزين في الجزائر، بموافقة السّلطات المغربيّة. لأنّ الملك لا يريد التّفاوض على إطلاق سراحهم مع البوليساريو حتّى لا يعترف بشكل غير مباشر بوجودها[62]. كان جدّ حذر، ولا يريد أن يعرّض نفسه لأيّ مخاطر. وأصدرت أوامر لطيرانه بعدم انتهاك مجالنا الجوّي تحت أيّ ظرف. لكسب الوقت من أجل بناء تحصيناته في طمأنينة، تظاهر الحسن الثّاني بالتّقارب مع الجزائر. وتجلّى ذلك في اللّقاء بين رئيسي الدّولتين بفضل المساعي الحميدة الّتي قام بها عاهل المملكة العربيّة السّعودية، بطلب من العاهل المغربي بلا شك.

62. لم يعد هؤلاء المساكين إلى أهاليهم، وكان عددهم أكثر من أربعة آلاف، سوى بعد عشر سنوات. وتمت الصفقة سرًّا بين رئيسى البلدين.

كنّا نحن في النّاحية الثّالثة نعرف، قبل ستّة أشهر، أنّ المغرب لا يستطيع بناء الأسوار بالإعتماد فقط على قوّاته الموجودة في الصّحراء الغربيّة. فهو بالضّرورة ملزم بنقل قوّاته المدرّعة والميكانيكية المقابلة للجزائر في قصر السّوق. وفي غضون ذلك، لمّح الحسن الثّاني للشاذلي بحلّ سياسي. صدّقه الشّاذلي فوافق. لكن الحسن الثّاني كانت لديه خلفيات أخرى. كان للملك كلّ ما يفتقر إليه الشّاذلي : الإلمام التّام بالملف، ونفسّية الرّجال، والقدرة على المكر والخداع وسرعة الإنقلاب في الموقف. لم يقدّر الشّاذلي جيدا ما كان سيكلّف الحسن الثّاني، داخليا، تخليه عن سياسته العدوانية في الصّحراء.

كلّ شيء له لعبته السّحرية، فراح الملك يغدق على نظيره بالإطراء والمدح، فكان يقول : « الشّاذلي يحبّ المغربيين ». كان متفوّقا على العسكري غير المتمرّس سياسيّا الّذي يقابله. كان داهية في التكتيك، فأراد أن يقنع بأن كلّ ما حدث هو مجرد سوء تفاهم، ملقيا بالمسؤوليّة على الموريتانيّين. إنّما الواقع غالبا ما يكون أكثر إلحاحا من الطّموحات أو العداوات بين الأشخاص، فأراد نجل محمّد الخامس أن يعطي الإنطباع بأنّه فهم أخطاءه واحتسب لعواقبها.

في مذكّرة إلى رئيس الجمهوريّة، استرعينا أنا ومحمد تواتي انتباه رئيس الدّولة إلى خلفيات حمّى الصّداقة المفاجئة مع الجزائر الّتي استبدّت بالعاهل المغربي. اقترحنا تدابير ملموسة لمنع المغرب من بناء تحصيناته، وبذلك سيضطرّ للكشف عن لعبته. كما اقترحنا فتح مجال عمل للصّحراويين انطلاقا من القطاع الأوسط، مرورا بمحاميد الغزلان. وبذلك سيتاح للصّحراويين أن تكون لديهم أهداف في عمق التّراب المغربي.

إتخذنا الإجراءات اللّازمة لمواجهة أيّة حالات طارئة. واقترحنا تعزيز القطاع الأوسط بقوّات آلية متمرّسة وجاهزة تماما. جنّدت طائرات هليكوبتر قتالية وأخرى من نوع « ميغ 23 » لتحمي سماءنا، وجاء الرّئيس بن جديد ليعقد اجتماعا في مركز قيادة بشّار، ووافق على الخطّة. فتمّ إقرار وتنصيب التّعزيزات المطلوبة. وهي الخطّة الّتي أطلق عليها الصّحراويون اسم « خطّة الجزائر » والّتي لم يكفّوا عن المطالبة بها. لكن إشارة الإنطلاق لم تأت. كان في محيط الرّئيس آراء معارضة، بدعوى أنّ هذه الخطّة قد تؤدّي إلى حرب واسعة النّطاق وأنّ الوضع الدّولي ليس مواتيا. وبسبب ذلك ضيّعنا نهائيّا فرصة منع القوّات المسلّحة المغربيّة من تشييد تحصيناتها. وابتداءًا من تلك اللّحظة بدأت أتساءل عن مدى انسجام سياستنا الصّحراوية وغايتنا منها.

الحسن الثّاني الدّاهية في التّكتيك الحربي

كثيرا ما أعيب عليّ انتهاكي لواجب التّحفظ، عندما أتطرق لمسألة الصّحراء الغربي.

ولأنّني أقدّر ربّما أفضل من رجال السّياسة نتائج أي تعفّن للوضع، أردت أن أعرف ما هي سياستنا حقّا في هذه القضية. فلماذا لا نغتنم الفرصة التّاريخيّة لهذه اللّحظات الّتي يواجه فيها

المغرب عواقب مغامراته، وازدادت طلبياته إلى حدّ الذّروة، لإقناعه بوضع حدّ لسياسته التوسعيّة، وإبرام اتّفاق يعود بالفائدة على بلدان وشعوب المنطقة الثلاثة ؟[63]

لم يدم لقائي مع أحمد طالب، وزير الشّؤون الخارجيّة، وقتا طويلا. اندهشت لسماعه يقول : « لقد كسبنا تأييد أكثر من ستّين بلدا للقضيّة الصّحراوية. بقي لكم أنتم العسكريّين أن تدعموا أصدقائنا الصّحراويين بالأسلحة والمعدات والذخيرة. » ستّون بلدا ؟ كم سيبقى منها يا ترى عندما ستبدأ القوى العظمى بالتّدخّل جدّيّا في شؤوننا ؟ فهل راعى طالب الإبراهيمي في حساباته تقلّب أصوات الدّول « الصّديقة » ؟ فاللّوائح وجلسات التّصويت غير الملزمة لا تقلق المغرب ! ليس في نيّتي بتاتا أن أطعن في مصداقيّة دبلوماسيّينا. بل ويجب أن نعترف بأنّهم قاموا بعمل جبار للشّرح وإقناع العديد من البلدان برفض الإنضمام إلى الأطروحات المغربيّة.

قال أحدهم : « إنّ الحرب هي استمرار السّياسة بوسائل أخرى ». ما هي سياستنا طويلة المدى في هذا الشأن ؟ كان رجائي أن يشرح لي وزيرنا، حتّى أتمكّن من التّصرف وفقا لذلك. لكن خاب أملي. سكنت ذهني فكرة ولم تفارقني أبدا. بما أنّنا نقول ونكرّر أنّنا لن نبادر بالقتال، وأنّنا في نفس الوقت « سنقطع أجنحة » الصّحراويين، ماذا يمنع المغرب بعدها من تعزيز سيطرته على الأراضي الّتي اجتاحها، ومن نهب ثرواتها، وشراء ذمم بعض زعماء القبائل المحلّيّين ووضع الجميع أمام الأمر الواقع ؟

قد يستغرب القارئ حرص الرّجل العسكري على معرفة الهدف المحدّد الّذي تسعى إليه السّلطة السّياسية. ذلك لأنّ هناك الكثير مما يمكن توقّعه والقيام به على الصّعيد العسكري، وفق ما نهدف إليه في نهاية المطاف. إستراتيجية الرّدع الجامد وضعها هواري بومدين. لخّصها في جملة ألقاها قبيل تعييني في قطاع العمليّات بجنوب تندوف. بعد لحظة تأمل، ضرب على الطّاولة بقلمه وقال : « على أيّ حال، سوف نقيم السّلام تحت ظلال الحراب ». الظّلال ! ماذا تعني الظّلال من النّاحية العسكريّة ؟ تهديد كامن ومنتشر وبعيد، شيء صوري في الظّاهر لكنه ملموس وعنيف يقف في الخلفيّة، ويمكن في أيّ لحظة أن يبدّد بالنّيران الظّلال المنشورة. ما هي العوامل الموضوعيّة الّتي من شأنها أن تحوّلها من حالتها غير الصّورية. لا أحد من بين صنّاع القرار السّياسي يستطيع أو يريد الإجابة على هذا السّؤال. وكان عدم تنفيذ خطّة الجزائر يعكس تماما هذا التردّد. ولقد بلغت مضايقات مسؤولي البوليساريو بشأن هذا الموضوع عليّ إلى حد أن اضطررت لطردهم بطريقة غير دبلوماسية.

سئل فنلندي : « كيف تفعلون لكي تتعايشوا مع جار قويّ مثل الإتّحاد السوفياتي ؟ » أجاب : « لدينا وزير خارجية جيّد ! » رغم هذا الإخفاق لم أيأس. قرّرت أن ألتقي محمد الشريف مساعدية الأمين العام لحزب جبهة التّحرير الوطني، وفي نفس الوقت الرّأس الإيديولوجي للنّظام.

---

63. الجزائري والمغربي والصّحراوي.

إستقبلني مساعدية بحفاوة كبيرة. قال لي : « دع الأمور تأخذ مجراها، إنّ أزمة الصّحراء هذه ستمكّننا من بناء المغرب العربي ! » لا يمكن تصوّر لغة خشب أقوى من هذه. لقد أصبح المغرب العربي مصيدة أو مثل « النزل الإسباني » الّذي يأتي إليه كلّ واحد بعشائه. اعتقدت أن القادة السّياسيّين الجزائريّين، بعد المشاريع الأربعة أو الخمسة الّتي فشلت منذ الغزو الفرنسي والّتي كان جيراننا يستخدمونها لدفن رؤوسنا تحت الماء، استفاقوا من هذه التصوّرات الطوباوية.

هذه القضية هي واحدة من ضمن الفرص الضّائعة. أصبحت المعادلة الآن معقدة. عناوينها هي نفسها بالنسبة لكلا البلدين : التّحديات الإقتصاديّة والإجتماعيّة، القطائع الإستراتيجيّة في الشّرق الأوسط، وانهيار ليبيا والتّهديدات الإرهابية على حدودنا. وقريبا سنرى أن بلدينا، فيما يخصّ هذه المسألة المتعلّقة بالصّحراء الغربيّة، قد وقعا كلاهما ضحيّة الوساوس والضغائن وانعدام الكفاءة وغياب رؤية استراتيجية طويلة الأمد عند قادة البلدين. وكانا بالأخصّ ضحية جنون عظمة ملك المغرب.

الحسن الثّاني، وبعدما وطّد وجوده في الصّحراء الغربيّة وقام بنقل السكان لتشويه نتائج أيّ استفتاء محتمل، راح يقلّد نتنياهو. أصبح يتحدّث عن عمليّة السّلام، مع استمراره عمليًّا في ضمّ الأراضي المحتلة.

في التّسعينيات، عندما كان الجيش الوطني الشّعبي على جميع الجبهات لمقاومة الزّحف الإرهابي، شنّ هجوما على الجزائر يرمي إلى تفكيكها من الدّاخل وذلك بتفريغ كميّات هائلة من المخدرات لتخريب شبابنا، بواسطة شبكات التّهريب. وقاد حملة تضليل منظّمة ودؤوبة ومدروسة، تصوّر قوّاتنا المسلّحة في شكل جيش من الجلاّدين والسّفّاحين الّذين يبيدون سكّان القرى. إشترت المخابرات المغربيّة ذمم صحفيّين وضمنت دعم معارضين جزائريين – ومن بينهم أسماء كبيرة في الحركة الوطنيّة – واستأجرت محامين أوروبيين مرموقين، وهي الّتي تقف وراء الحملات الدعائيّة ضدّ الجزائر الّتي قادتها منظمات غير حكومية، من تريال إلى هيومن رايتس ووتش مرورا بكلّ جمعيّات حقوق الإنسان المشحونة في هجماتها من أجل استصدار أحكام تدين كبار القيادات العسكريّة الجزائريّة المتقاعدين أو الّذين لا يزالون يمارسون نشاطهم.

لم يهاجم الملك الجزائر، عندما كان أصوليو « الفيس » في أوجّ قوتهم، تضامنا معها أو « شفقة » على حالها، وإنّما خوفا من انتقال الحركة الأصوليّة الفائزة إلى بلده. لأنّ حينئذ سيتولّد من تقليد الإسلاميّين ألف داعية وداعية محليّ سيزيحون أوهام « قائد المؤمنين » عن حصر الحركة الإسلاميّة داخل « الحوض الجزائري » الّذي يصفه هو بالمخبر.

سأتطرّق إلى هذا الموضوع باستفاضة في الجزء الثّاني من هذه المذكّرات.

إلتقيت الملك الحسن الثّاني مرّتين. المرّة الأولى كانت في وهران حيث دعاه الرّئيس الشّاذلي. خلال العشاء الّذي أقيم على شرفه، دار الحديث الّذي كان لي معه حول بناء المغرب العربي. وجهة نظر الجيش الجزائري واضحة في هذا الشأن : « نحن كعسكريّين، لا نطمع سوى لشيئ واحد

فقط، هو أن تحلّ المشاكل القائمة – حلًّا سلميا – ثمّ أملنا أن نشترك مع الجيش المغربي في إطار من التعاون عملا لتهيئة الظّروف المناسبة لبناء دفاع مشترك. وسيتحقق الاتحاد المغاربي طالما أنّ اقتصاد البلدين وقوّاتهما المسلّحة تكون ركائزه ومحرّكه ». فردّ عليّ قائلا : « إذا كانت هذه هي الكيفية الّتي ترون بها المغرب العربي، أرسلوا من الغد لواء يرابط في الرّباط ! »

لماذا لواء ؟ لم يقل الحسن الثّاني فرقة ولا فيلق، بل لواء. هذا دليل على أنّ الطّريقة الّتي هيكل بها الجيش الوطني الشّعبي لم تكن خافية عليه.

في نهاية العشاء، طلب منّي الرّئيس بن جديد أن أرافق ضيفه صباح الغد أثناء زيارته لمرسى الكبير وأن أطلعه على منشآتنا. حدّثت الحسن الثّاني عن وجهة نظر الجيش، ولكنّي لم أرد الذّهاب أبعد من ذلك، حتّى لا أحلّ محلّ السّلطة السّياسيّة. ثم كيف لي أن أظهر نفسي جنبا إلى جنب مع الملك في إحدى قواعدنا العسكريّة بينما دبّاباتي موجودة في حالة استنفار ووحداتي تحت الضّغط ؟ كان خطر الإحباط النّفسي عند الرّجال الّذين هم تحت إمرتي حاضرا في ذهني. كان هناك شيء معيب تماما في مبادرة بن جديد. لا أتصوّر نفسي وأنا أكشف للضّبّاط المرافقين للملك عن تفاصيل كبرى منشآتنا البحريّة. تركت الجميع هناك وعدت إلى الجزائر العاصمة. وفي اليوم التّالي، زارني وفد مغربي، يتألفّ من الأمين العام لوزارة الدّفاع، وقائد الدّرك الملكي، ومدير أجهزة الأمن. الملك يدعوني إلى زيارته في الرباط. لكنّي لم ألبي هذه الدعوة أبدا[64].

إستمرت المسرحيّة الدبلوماسيّة الّتي بدأت وتصوّرت خاتمتها من دوني. وهذا لم يمنعني من إبداء رأيي، وإبدائه في هذه المسألة كلما أتيحت لي الفرصة.

عندما تحدّثت، بعد ذلك بسنوات، علنا عن الحاجة إلى إيجاد حل للمشكلة، نطق أحد الضّالعين بالدّبلوماسيّة، كمن أوحي إليه، وتكلم عن « جهل مدمّر[65] ». السّؤال المطروح : أين نحن بعد أربعين سنة ؟ لا يزال الوضع باقيا على ما كان عليه ! بغضّ النّظر عن تحرّكات بلدينا لدى السّفارات والهيئات الدولية، وعمّا حملته من إنجازات وإخفاقات، يمكننا وضع حصيلة أوليو. أموال طائلة أهدرت، مئات من الرّجال سقطوا، وضغائن دفينة زرعت في النّفوس وأسوار، بالمعني الحقيقي والمجازي، إرتفعت على الأرض. تحصينات ترابيّة ورمليّة جنوبا وحرس حدود على المحاور والطرق العابرة للحدود، شمالا.

---

64. التقيت حسن الثّاني مرّة ثانية، وهذه المرّة للحصول على طرد قائد الجماعة الإسلاميّة المسلّحة، العيادة. وبينما كان يرافقني إلى الفيلا الّتي كنّا سنتناول فيها الغداء، وكنّا نتناقش حول ترتيبات تسليم القائد الإرهابي للجزائر، توقّف الملك : « تصوّر أنّنا وجدنا مخزونا من الأسلحة » ! لقد أعطته مخابراته معلومات كاذبة. في الحقيقة، إنّ الجنرال اسماعيل العماري هو من أدلّهم على هذا المخزون من الأسلحة. في السّابق، كانت مخابراتنا الّتي اخترقت شبكة دعم الجماعة الإسلاميّة المسلّحة، قد قيّدت أرقام تلك الأسلحة لتسهيل تتبّعها. وكان واحدا من هذه الأسلحة هو الّذي استخدم فيما بعد في مراكش. وهذا دليل على أنّ هذا الهجوم فبركته المخابرات المغربيّة. ولقد وظّف الحسن الثّاني هذا الهجوم كآلة جهنّمية ضدّ الجزائر.

65. عبد العزيز رحابي. أنظر جريدة (لوسوار دالجيري)، المؤرخ في 12 مارس 2003.

وبمجرّد أن خرج جيشه من عنق الزّجاجة الّذي كان فيه، بدأ حسن الثّاني ينفخ في صدره. في حديث مع مجلة « جون أفريك » صدر بتاريخ 8 نوفمبر 1989، صرّح بما يلي :

« كانت تندوف جزء لا يتجزّأ من المملكة... »لم يطالب المغرب يوما سوى بما هو ملك له. كانت تندوف جزء لا يتجزّأ من الأراضي المغربيّة حتّى بداية الخمسينيّات، لأنّه خلال احتفالات العيد الكبير و العيد الصغير، كان باشا هذه المدينة – رأيته بأمّ عينّي – يأتي لأداء الولاء لوالدي. » في مكان آخر، وردّا على سؤال طرحه الصحفي :

« صاحب الجلالة، بما أنّ تدخل الجزائر هو الّذي تسبّب في تعقيد قضيّة الصّحراء، لماذا لم يغتنم المغرب فرصة اتفاق الحدود عام 1972 لربط مسألة الحدود بقضيّة الصّحراء، من أجل حثّ الجار على الوفاء بالتزاماته ؟ وفي حرب الرمال عام 1963، كان الجيش المغربي على مرمى حجر من تندوف، لماذا أمرت الجنرال ادريس بن عمر بالتّراجع ؟ »

سأبدأ بالسّؤال الثّاني. كنت أعتبر أنّه لا ينبغي لنا أن نخلق نقطة تركيز مَرضية بين البلدين. وفي المقام الثّاني، تندوف في حدّ ذاتها لا تهمّني. فهي مهمّة من النّاحية العاطفيّة، لكنّها لا تشكّل عقدة للمسارات الإستراتيجيّة، ولا منطقة عبور إجباري. ستقول لي أنّها غنيّة بالحديد وهذا صحيح. لكنّ هذا الحديد ملغّم : إن لم يمرّ عبر المغرب، فإنّه لا يمكن أن يمر عبر أيّ مكان آخر. وأخيرا، لا تستحقّ أي مدينة مغربية أو جزائرية حربا. وسأقول لك أكثر من ذلك، وأقولها لأوّل مرّة : لم أوقف الجنرال ادريس وحده، بل أوقفت أيضا الجنرال كتاني. قال لي : « إذا كانت جلالتكم تريدون الصّلاة في وهران يوم الجمعة المقبل، سنكون هناك ».

وعلى سؤال آخر : « **أليست هذه الحرب نعمة من حيث أنّها تمكّن المغرب، الّذي صار يملك جيشا قويّا، على بسط نفوذه على المنطقة ؟** » كان جوابه :

« يمكنني القول دون تفاخر بأنّ الجيش المغربي، في مجال حرب الرّمال (لا أتحدّث عن الحرب في جبال الآردن أو السّهول الأوروبيّة)، إن لم يكن الأفضل، فإنّه على الأقل هو الجيش الوحيد في العالم الّذي يتمتّع بجهوزيّة كاملة ».

حتّى وإن قورن بالجيش الإسرائيلي ؟

« أنا لا أنكر قدراته العسكريّة، لكنه لم يغز ولم يحتل ويؤمّن شساعة وطبيعة الأراضي الّتي نؤمّنها. فليس هناك وجه للمقارنة ».

هذا هو إذن رأي الحسن الثّاني ولا يزال رأي خليفته. فالرّغبة في الهيمنة والقوّة تظلّ هاجس يسكنهما. نسي أن يقول بأنّه إذا كان قد أمر جنرالاته بعدم التوغّل إلى الأمام، كان يعلم أنّ الجزائر حشدت على حدودها قوّات أكثر عددا وعدّة من قوّاته. كما أنّ العدوان الغاشم الّذي شنّ عام 1963 في حاسي بيضاء وتنجوب قد أثار في عدد من البلدان الصّديقة موجة من التّضامن مع الجزائر.

أرسلت مجموعتان مدرّعتان وآليّتان كبيرتان إلى الجزائر، إحداهما من مصر والأخرى من كوبا. وكانتا متواجدتين في منطقة الإنتظار بالقرب من الحدود المغربيّة، وهي مستعدّة للتّدخل. الجنرال الكوبي الّذي قاد هذه القوّات، أصدر مذكّراته مؤخّرا، وكتب فيها : « وصلت الدّبّابّات إلى وهران في ظرف اثني عشر يوما، في 22 أكتوبر، والباخرة الثّانية في 29 من نفس الشّهر... وكان الهدف الإستراتيجي هو الوصول إلى وسط المغرب... ».

بعد اجتماع في بشّار بين المديريّات العسكريّة الجزائريّة والكوبيّة، تقرّر الإبقاء على خطّة بومدين : « سنحتلّ المناطق الحدوديّة المغربيّة. وفي حالة فتح مفاوضات، ستجد الجزائر نفسها في موقف أفضل ». أمّا الجنرال أميجيراس فكان يريد الوصول إلى غاية الدّار البيضاء. ولقد تمّ التّخطيط للعمليّة بأن يكون الهجوم متزامنا على ثلاثة محاور : العريشة – برقنت تلمسان – وجدة وانطلاقا من الجنوب. »

وقال كاسترو : « سنقدّم كلّ المساعدة الّتي تحتاجها الجزائر ».

الأجواء في تندوف

الأجواء السّائدة في تندوف لطيفة ومريحة. أصبح الجنود يتقاضون منحة عمليّات معتبرة، ولهم الحقّ في إجازة دوريّة. وقد تحسّنت ظروفهم المعيشيّة تحسّنا كبيرا. فمنذ أن أقيم كابل محوري يربط بشّار بتندوف، أصبحت الاتصالات مع الأهالي أسهل. كما تم تجهيز قاعات الإجتماعات بشاشات تلفزيون. في السّابق، كانت المبادلات (وهي نادرة) تتمّ عن طريق الرّاديو، ومرهونة بنظام المناوبات. وكانت أخبار « البلاد » والأهل تصل متواترة بفضل العائدين من الإجازة. وكان الجنود يسمّون هذه الأخبار « راديو حمادة ». وبما أنّ مدة الإقامة في هذه المنطقة كانت محدّدة بسنتين، فإنّ الكثيرين فضّلوا تمديد إقامتهم طوعا، بعدما أصبحت الظّروف أفضل بكثير من تلك السّائدة في الثّكنات الشمالية.

لاحظت أنّ الجهود قد أوتيت ثمارها يوم دعاني أحد قادة الألوية إلى وجبة طعام « عنده ». و« عنده » هو مستودع. مستودع كبير مصنوع من مادة « H »، وعوارض حديدية وصفائح مضلعة الشّكل مصفّفة تصفيفا محكما في شكل جدران مزدوجة لعزل الناس عن الحرارة القاتلة الّتي تسود خارجها. أمّا في الدّاخل فلا شيء يفرّقها عن النّوادي الموجودة في ثكنات الشّمال. تسمع هدير مكيّفات الهواء. كان هناك عشرات من الضّبّاط. إستمتعت مع الرّجال الجالسين بلحظات من الجوّ المنعش ودفء الصّداقة. دأب قادة الألوية على تنظيم مثل هذه اللّقاءات الّتي تسودها حيويّة كبيرة بصفة دورية. إنّ هناك أشياء صغيرة هي الّتي تدلّ المرء على انتصاره في قضايا كبرى. في نشوة أطباق الكسكس الدّسمة الّتي تعلوها قطع ضخمة من اللّحم بحجم حذاء « الرانجرس »، وقف فجأة ضابط إسمه بولكرام، وهو ينحدر من منطقة تبسّة، ومعروف مثل الذّئب الأبيض في النّاحيتين الخامسة والسّادسة سابقا من الولاية الأولى خلال حرب التّحرير.

ولما كان معروفا بجرأته الزّائدة في الكلام، فكان الكل يتوجّس منه الأسوأ. طالب بولكرام بلحظة انتباه، فساد صمت غريب لم تخترقه سوى طقطقة الملاعق على الصّحون. ولمّا توقّف الضّجيج تماما، قدّم بولكرام اقتراحا غريبا. « أطلب منكم أيها الإخوة الأعزاء أن تضمّوا صوتكم إلى صوتي للمطالبة بتبادل... » بعد هذه المقدّمة، سكت الرّجل ليستلذّ الإهتمام الّذي أثارته مداخلته. وتابع حديثه : « تبادل مفيد لبلدنا طبعا... ». إزداد فضول الحاضرين فألحّوا عليه للإفصاح عمّا يريد قوله. لكنّه ظلّ يراوغ ويزيد من تشويقهم. وردّد مرّة أخرى : « إنّه تبادل مفيد... » صمت من جديد لبرهة من الزّمن، وتحت إلحاح جميع من كان حواليه، أعلن عن اقتراحه : « أليس من المفيد للجزائر، كما قلت، أن نبادل الشّاذلي بن جديد بشخص آخر من البوليساريو ؟ » وانفجر الجميع بالضحك. قلت في نفسي أنّ المعنويات المرتفعة قد عادت. أمرت الضّابط الجريء بالسّكوت، لكنّه استمر في حديثه وهو يُشهد الحاضرين عل ما يقول : « لماذا أصبحت الكازمات اليوم لا تنهار علينا ؟ ».

ماذا تعني الحرب

عندما يحلّ اللّيل، يجتمع البعض ليبدؤوا حلقة من حلقاتهم الطّويلة في لعبة « البيلوت »، فيما ينزوي آخرون في مجموعات من أربعة أو ستّة أفراد، ليفتحوا مناقشات يستعرضون فيها أحوال العالم. فليس هناك لغة خشب أو رقابة ذاتيّة في تندوف. يعبّر الضّبّاط عن آرائهم بحرّية مطلقة في كافّة المواضيع. يستحضرون معارك حرب التّحرير الكبرى الّتي شارك فيها الكثيرون منهم. أحيانا تكون المناقشات مسيّسة، لكنّها لا تقوم على النّقد المنهجي. ولا يطعن أحد في خيارات النّظام الكبرى. فلقد نضجت خلال سنوات العذاب، ومن كانوا في السّلطة، أو هم حاليّا في السّلطة، كانوا أو لا يزالوا قادتنا أو رفاقنا. لا نتحدّث أبدا عن المغرب كعدوّ. ولو أنّ لا أحد منّا نسي الهجوم السافر الّذي شنّته القوّات المسلّحة المغربيّة، في زمن لم ننته بعد من تضميد جراحنا غداة الإستقلال. كانت انشغالاتنا « تقنيّة » بحتة. وهي تعني الجيش، ما قمنا به وما مازلنا بحاجة إلى القيام به. وكان هناك موضوع يعود دائما في مناقشاتنا : إلتزام الصّحراويّين بقضيّتهم وطريقتهم في ممارسة الحرب. سياسيّا، أو لنقل معنويا، فنحن نؤيّدهم 100٪. فلقد عشنا تقريبا نفس الأوضاع : إحتلال بلدنا من طرف قوّة أجنبيّة تتمتّع بتفوق مادّي ساحق. أرتالهم الآليّة، السّريعة والخاطفة، تهجم صوبا على الهدف، تضربه بسرعة البرق وتنسحب تاركة وراءها العنصر المستهدف في هلع وحيرة. يعرف الصّحراويون الأرض معرفة جيدا (وكما يقال « أهل مكة أدرى بشعابها »...) ويستعملون بذكاء كلّ ثناياها. وهذا من مميّزات الثوّار الحقيقيّين. أعجبنا بعزيمتهم وبالتّحضير الممتاز للغارات الّتي يشنونها. هل منّا من تحدث عن المغرب العربي ؟ أنا لا أتذكر ذلك. الإتحاد مع من ؟ إنّ شعوبنا متقاربة تاريخيّا وجيران جغرافيّا وإخوة في الدّين، لكنّ مصالح الدّول وأنانيّة الحكّام أدّت إلى تقوقع كلّ واحد على هواجسه الصغيرة.

ماذا كان يعني إذن محمد الشريف مساعدية بقوله : « دع الأمور تسير. سنبني المغرب العربي في أقصر مدّة » ؟ أيّ أمور يقصد : التعفّن أم الحرب ؟ فحسب هذا المفهوم، ستكون الجزائر « البروسية » هي من ستفرض هذا المغرب العربي، وترفع راية شمال إفريقيا بعدما تقضي على إقليم موريتانيا والمسيرة التّونسيّة والإمارة الليبيّة، والسّلطنة المغربيّة ؟ لكن أنا فيما يخصّني فلديّ فهم أكثر واقعيّة للأمور.

تصوّرت في خيالي يوما يُجبر فيه المسؤولون السياسيون في بلدينا على إجراء « تربّص » ميداني بين الوحدات المتقدّمة للجيشين، وحبّذا أن يتمّ ذلك في الأسابيع الّتي تصل فيها درجات الحرارة إلى خمسين درجة تحت الظّل.

هل كنت أنا الوحيد الّذي يعرف ماذا تعني الحرب ؟ بغض النّظر عن الموت والدّمار، أتصوّر رد فعل الشّعب المغربي الّذي تجنّد للدّفاع عن بلده المحتل. إنّني أكنّ احتراما كبيرا لأولئك الّذين هزموا الجيش الإسباني، ووقفوا في وجه ليوتي، ودحروا جيوش الجمهوريّة الإسبانيّة بقيادة فرانكو، وحاربوا المارشال كيسلرينغ في جبل كاسين. يمكنني أن أسيق أمثلة كثيرة عن شجاعة الجندي المغربي. وأقول هذا، ليس تعبيرا عن خوف أو عجز الجيش الوطني الشّعبي أمام كلّ هذه الخصال الحربيّة، وإنّما للتّأكيد على اقتناعي بأنّ العدوان على المغرب الشّقيق سيفجر العواطف ويغذّي التطرّف. إنّ الجيش المغربي، وبعدما انهارت معنوياته في الصّحراء الغربيّة لأنّ رهان الحرب هناك لا يعنيها، ولأنّه يعلم جيّدا أنّه استُعمل من طرف الحسن الثّاني، سيحرّكه الشّعور الوطني وسيحارب، ليس دفاعا عن عرش الطّاغية، وإنّما عن الوطن المغتصب. سيكون في نفس الحالة النّفسية الّتي كنّا فيها عندما اعتدي علينا في حاسي بيضاء وتنجوب. ستخلق فجوة قد لن يسدّها شيء. وأين ستنتهي سلسلة المآسي ؟ أريد أن تبقى مشاعر التّضامن والإخاء الّتي هي أثمن كنز مشترك لشعبينا. أنا من جيل يقدّر قيمة تضامن الشّعبين المغربي والتونسي مع الجزائر في سنوات الحرب.

مفهومي للسّياسة بسيط جدا، والخطب الإنشائيّة المعقّدة لا تدخل ذهني. عندما تبدأ العقدة الضيّقة بإطلاق كرة الثلج، أرغب في قطعها. الحسابات الصغيرة والأنانيّات ومصالح الدّولة العليا الكثيرة والمثبطة، والتشنج والديماغوجيّة والجهل، كلّ ذلك جعل قضيّة الصّحراء في الأخير مشكلة مستعصيّة الحل. لقد كلّفنا هذا الجرح النّازف في جسد البلدين كثيرا. وأعطى الفرصة لأولئك الّذين لا يريدون لبلدينا النّجاح والإقلاع للتّدخّل من أجل إغراقنا في رمال صحارينا كلّ عام أكثر فأكثر.

كلّ مرّة تحدّثت فيها عن هذه المسألة، ناديت إلى تحكيم العقل. وأنا واثق من أنّ المغرب والجزائر، والمنطقة بأكملها، ستكون أفضل حالا لو عزف أصحاب العرش العلوي عن سياستهم التوسّعيّة بضمّ أراضي غيرهم.

عمليّة « لامنتين »

لم تكن فرنسا، الّتي تقلقها سياسة هواري بومدين، تريد جزائر قويّة. ولم يكن لبلد أبعد مثل إسرائيل، الّتي لديها رؤية جيوستراتيجية مستقبليّة وشاملة عن العالم العربي، أن يتجاهل الصّراع الّذي يحدث في هذه المنطقة من المغرب العربي. تستطيع عن طريق بعض الدّول الحليفة أن تنفخ في النّار.

للفرنسيين مصالح في موريتانيا. فقرّروا دعم الجيش الموريتاني الّذي لا يملك الوسائل اللازمة لصدّ هجمات البوليساريو. ذلك أنّ منجم زويرات للحديد، الّذي يصدّر من ميناء نواذيبو، يعتبر رهانا اقتصاديّا كبيرا.

ليس سرّا أنّ جيسكار ديستان كان من أشدّ دعاة « الجزائر الفرنسيّة »، فكان يكُنّ عداء « إيديولوجيًّا » دفينا للجزائر ولرئيسها. وكانت فرنسا، بتدريبها القوّات الموريتانيّة وتقديم الدّعم الإستخباراتي لها، تعرّض رعاياها للإنتقام. ففي أوّل ماي و25 أكتوبر 1977، أطلق الفرنسيّون عمليّة « لامنتين » باستخدام طائراتها من طراز « جغوار » المتمركزة في داكار.

أقرّوا بمشاركتهم الرسميّة في عمليّات قصف قوّات البوليساريو. وبالنّسبة للجزائر، فأصبحت الأمور مختلفة. فخلال حرب التّحرير، كان الفرنسيّون مهووسين بالبحث عن الأسماء الّتي تليق بعمليّاتهم الحربية : « الأحجار الكريمة » « الشرر » « المنظار » الخ... لكن مع « لامنتين » (أو خروف البحر بالعربية)، لم أفهم شيئا. فهذا الحيوان الثدي المائي الوديع الّذي يعيش في سواحل المحيط الأطلسي، والّذي لم يطلب شيئا من أحد، « يرعى » غارات الطّيران الفرنسي.

حلّقت طائرات « جغوار » مرّتين بالقرب من مواقع كتيبتنا الاستطلاعيّة الثّانية، لكن من دون تعريض نفسها لنيراننا. كانت طلعاتها السّريعة والخاطفة قريبة جدا من مجالنا الجوي، ربما ما يكفيها فقط من الوقت لتصوير مواقع قوّاتنا.

مرّة واحدة فقط، أرسلوا طائرة من طائراتهم من نوع « السوبر إتندارد » لتنفيذ هذه المهمّة التجسسيّة، وربما أيضا الإستفزازية. بقيت بحذر بعيدا عن متناول صواريخنا المضادّة للطيران. بمجرد ظهور هذا الهدف المتوجّه نحو برج باجي مختار ثمّ تندوف على شاشات رادارنا، أسرعت إلى مركز مراقبة الرادار. أمرت بإقلاع طائرتين من نوع « ميغ 21 ». عندما وصلت « السوبر إتندارد » إلى عرض تندوف، أطلقت آليّات مضادّة لإبطال فعّالية راداراتنا. أصبحت الشّاشات بيضاء. سمعنا طيّارينا يصرخان في الميكروفون : « أين هو الهدف، أدلّونا على الهدف ! » وبعد بضع دقائق، أضاءت الشّاشات من جديد ورأينا بصمة الطّائرة الدّخيلة تتحرّك بعيدا في اتجاه الغرب. تبعناها حتّى لحظة هبوطها في العيون.

تجربة تندوف

قضيت سبع سنوات متتاليّة بين بشّار وتندوف. عشيّة مغادرتي، كان الوضع قد تغيّر تغيّرا جذريّا بمقارنة بما كان عليه عند وصولي. ويمسّ هذا التّحسّن بالأخص الظّروف المعيشيّة للعساكر.

أصبحت المناوبة تقام بصورة دوريّة وتمنح علاوات إقامة معتبرة. بل وقد صار النّقل إلى النّاحية العسكريّة الثّالثة بمثابة ترقية.

شكلّت هضبة تندوف ميدانا هائلا للتّمارين والتّجارب عرف الجيش الوطني الشّعبي كيف يستغلّه أحسن استغلال. وقد تمّ في هذا الصّدد إعداد وثائق تهدف إلى إثراء برامج مدارسنا العسكريّة. ونظّمت ندوة دراسيّة حول موضوع الدّعم اللّوجيستي للقوّات الميدانيّة بمشاركة جميع الضّبّاط المتخصّصين في هذا المجال. وتمكّن الضّبّاط الّذين عملوا لسنوات في هذه المسألة من إلقاء مداخلات قيّمة.

إستطعنا أن ننجز هذا العمل لأنّنا كنّا مسلّحين بنفس روح التّضحية الّتي كانت تحذونا خلال حرب التّحرير. وكان رفاقنا الشّباب، من أبناء الريف والمدن الّذين ألقي بهم في بيئة صعبة للغاية، يقلدّون بشجاعة مواقف القدامى في كلّ شيء، إلّا في تذمّرهم. ولقد أثبت كريم ورضا وسليم، ممّن يقال عنهم أنّهم رضعوا من حليب « غيغوز » في أحيائهم بأعالي المدينة، بعد استخدام وجيز للبردا المشترك، على إقدام وقدرة على التحمّل لا تقلّ عن إقدام وقدرة علي وعبد القادر ومحمد المنحدرين من أعماق الريف.

وكان دور الجامعيّين الّذين يؤدّون واجبهم الوطني كبيرا في رفع المستوى التّقني للإطارات. أرسل بعضهم للتّكوين في الإتحاد السوفياتي للتدرّب على معدّات متطوّرة. وكانت أولى صواريخ « شيلكا » المحمولة على الآليات المدرعة، استعملها وقادها هؤلاء الجنود الشّباب. وينطبق ذلك أيضا على مدافع « فوسديكا » الّتي تعزّزت بها مجموعة آليّاتنا. وكان الشّباب الجامعي هو أيضا من استخدم أجهزة الكمبيوتر والآلات الحاسبة للرّماية. أمّا الضّبّاط المتخرّجين من جيش التّحرير الوطني فيفتقرون لأدنى تكوين نظري، لكن لديهم خبرة في القتال وقدرة على التّحمّل البدني. وبفضل جدّية هؤلاء في العمل وجد جميع المستخدمين مأوى يأويهم. خلقوا جوًّا من الأخوّة داخل الوحدات، من دون أيّ إخلال بالإنضباط. لم يحصل أنّي عاقبت أحدهم قط. بل، أصلا، لم يكن هناك سجن عسكري في تندوف.

مازلت أتذكّر رد فعل النّقيب طائف، قائد فيلق دبّابات « تي 62 »، أرسل على عجل إلى تندوف. في كلّ مرّة ألتقيه، كان يشكو لي من عدم وجود قطع غيار للعتاد. هذه الدبّابّات « تي 62 » هي من الطّراز الجيّد تمّ اقتناؤها حديثا، لكن مشكلة قطع الغيار بقيت مطروحة بحدّة. ذات يوم، سألته غاضبا : « لماذا وافقت إذن على المجيء إلى تندوف ؟ » فكان جوابه : « حضرات العقيد، الوطن مهدّد، والمدفع يدوّي. لهذا السبب أنا هنا. » بدون تعليق !

أثناء حركة من حركات تعديل، وضعت تحت إمرته الفيلق « تي 55 » بقيادة النّقيب بكوش. مهمّة هذه المجموعة المدرّعة حماية المنظومة بأكملها. النّقيب بكوش ضابط من الطّراز النادر. تلقّى تكوينه في إحدى المدارس بالشّرق الأوسط وفي باتنة، ويعرف « التي 55 » في أدّق تفاصيلها.

يفكّكها ويعيد تركيبها كما لو أنّه هو من صنع كلّ قطعة من قطعها. تراه في معظم الوقت مستلقي تحت دبّابة، وبدلته ملطّخة بالشّحم. تقاعد وهو برتبة عميد.

قائدا للنّاحية العسكريّة الخامسة

تشبه حياة الجندي حالة السّجين الّذي لا يستطيع أن يغلق بابه هو بنفسه، بل غيره هم من يفعلون ذلك نيابة عنه. ولا يستطيع الخروج من المكان الّذي يوجد فيه إلاّ بقرار من قائد الحرس. ويعتبر الأمر بالنّقل بمثابة المفتاح الّذي يفتح به الباب، لكن على أي رواق ؟ في دوّامة الحياة العسكريّة، تتوالى الإنتصارات والخيبات. مثل الممرّات المعتمة والمضاءة. لكنّي لم أقبل أبدا بأن تقودني إلى غرفة انتظار.

بعد سبع سنوات ونصف قضيتها في تندوف، تمّ تعييني على رأس النّاحية العسكريّة الخامسة. لم أتوقّع ذلك. هل من المعقول أن يُبعَد الرّجل الّذي استدعي من المدرسة الحربيّة خصّيصا للعمليات، ويعرف الميدان والأفراد والعتاد، لينقل إلى منطقة يكاد لا يحدث فيها شيء ؟ لماذا لم يحصل تبادل في المنصب مع جاري الشّمالي مثلا ؟ لكن، كما أسلفت القول، أنا لا أنتظر أمام باب أحد لأطلب منه شيئا، ولو كان ذلك من حقّي. مستشارو الشّاذلي « العسكريّون » غير موجودين في وزارة الدّفاع الوطني وإنّما في صالونه. حول كأس من الشّاي يرفعون وينزلون المنظومات الدّفاعية والتّخطيطات السياسيّة والسِّيَرْ المهنية. هل بدأ يا ترى نشاط خالد نزار في الجيش يحجب الرّؤية على الآخرين ؟ فليس هناك أفضل طريقة لتقزيم حجم رجل من إرغامه على ارتداء بذلة ضيّقة عليه في الكتفين وقصيرة الكمّين ! هل هو تغيير في السّياسة الخاصّة بالقضيّة الصّحراوية، مؤشّرُه رحيل نزار ؟ ولا حتّى ذلك ! تردّدت في البداية، ثم التحقت بمنصبي الجديد. في قسنطينة، باشرت العمل فور وصولي. البنية التّحتيّة العسكريّة هي تلك الّتي تركها لنا المستعمر. لم يتغير شيء. جبت كلّ إقليم ناحيتي لتفقّد القوّات ومختلف المنشآت. لا توجد وحدات قتالية أو تكاد لا توجد. وهي متمركزة في الغرب. هناك العديد من فيالق الخدمة الوطنية، المكلّفة بعمليّات التّشجير والبناء، منتشرة بين عنّابة وتبسّة، وبين نقاوس ورايس العيون. أعطيت الأولويّة للبناء. أعددت خطّة عمل. وكانت مساعدة المهندس الرّائد تركي لي كبيرة. فمعظم الإنجازات العسكريّة في النّاحية الخامسة تحمل بصماته.

المؤسّسات الجهويّة موزّعة توزيعا لامركزيّا : الهندسة في الحارية، الخدمة الوطنية في الخروب، الإدارة في شلغوم العيد، والعتاد في عين مليلة. جميع المستخدمين، سواء كانوا عسكريّين أو مدنيّين، وضعت تحت تصرّفهم مساكن وظيفيّة. كما شرعت في أشغال معسكرين من نوع اللّواء.

كما أنشأت مصانع، مثل مصنع للأسلحة في خنشلة، وآخر للذّخيرة في سريانة، وثالث للقماش المشمّع في بوشقوف وغيرها في عين البيضاء وشلغوم العيد وتحمامت، الخ... ويتوفّر كلّ مصنع على مائة مسكن للمستخدمين .

تثبت هذه الإنجازات، الّتي تمّت في وقت وجيز، مدى التزام جميع الأفراد العسكريّين والمدنيّين في النّاحية وتفانيهم وجدّيتهم. كما أنّ ترسيم الحدود يعدّ من النّجاحات الّتي تثري رصيد الجيش الوطني الشّعبي.

بعد ترقيّتي إلى رتبة عميد في شهر نوفمبر 1984، اَستدعيت إلى الجزائر العاصمة في أولّ جانفي 1985 لتوليّ مهام نائب قائد الأركان العامّة مكلّف بقسم اللّوجستيك في وزارة الدّفاع الوطني.

كان بن جديد، على الرّغم من قصر نظره ومحدوديّة تصوّره في المجالات الأخرى، وضع الجيش ضمن أولى أولويّات عمله. كلّمني عن ذلك أوّل مرّة أثناء إحدى مناورات لواء المدرّعات الثّامن في سيدي بلعباس. بينما كان على أهبة العودة إلى العاصمة، وبعدما حيّ الضّبّاط الّذين أدّوا له التّحية، أخذنا جانبا، أنا والعميد بن يلس، وأسرّ لنا برغبته في تشكيل قيادة مركزيّة للجيش في أقرب وقت ممكن، وبأنّه يعوّل علينا لنقدّم له مقترحات بهذا الخصوص.

المرّة الثّانية الّتي تطرّق فيها لهذا الموضوع، كان في مكتبه في رئاسة الجمهوريّة. كنت لا أزال في تندوف. في نظري، لم نكن مستعدّين بعد للقيام بهذه النّقلة النوعيّة. يجب أوّلًا إعداد كلّ الوسائل والظّروف المواتية لذلك. لأنّ هيئة الأركان العامّة تعمل على مدار 24 ساعة في اليوم. وكفاءة الضّبّاط الّذين تتشكّل منهم ومدى انسجامهم وتماسكهم أمران أساسيّان لضمان فعاليّتها. ولا جدوى من تكرار تجربة 1963. في رأيي إنّه ينبغي التخلّص من الحلول الظّرفية الّتي تستجيب لحسابات سياسيّة، مثل تعيين مفتّش عام للجيش أمّي، أو قائد أركان يفتقر لأدنى معرفة نظريّة.

كنت ضمن القلائل الّذين حلموا منذ زمن طويل بهيئة أركان عامّة حقيقة. كنّا نفكّر في ذلك منذ بداية السّبعينات، عندما بدأ الضّبّاط المرسلون إلى تندوف يشتكون من احتياجهم لكلّ شيء. وفي الواقع كانت الإمكانيّات متوفرة، لكن هواري بومدين لم يرغب في وجود هيئة مركزيّة تتولّى التّقييم والتّخطيط والتّنسيق والتّنفيذ. فكان مجرّد طرح الفكرة يثير ثائرته.

بعد تولّي مهامي كقائد للنّاحية العسكريّة الخامسة مباشرة، حدّثني الشّاذلي من جديد. هذه المرّة، أوحى لي بأنه يعوّل عليّ لـ« قيادة الجيش ». ولمّا كان الشّاذلي يعرض أفكاره دائما بطريقة إيحائية، وبجمل غير مكتملة، كما لو أنّ عقله منشغل في نفس الوقت بشيء آخر، لم أجب. لكنّني فكّرت في ذلك. بانت لي عواقب البناء المتسرّع وغير المحضّر بكلّ أبعادها. في نظري، يجب الشّروع تدريجيّا في تحسين ما هو موجود أصلا. أي في تزويد المكاتب الرّئيسيّة لهيئة الأركان الموجودة، تحت قيادة عبد الله بلهوشات، بإطارات مؤهّلة.

كانت القيادة مركزيّة وتفوّض جميع الصّلاحيّات التّنفيذيّة للعميد بلهوشات قائد الأركان العامّة. وكان محاطا بإطارات كفؤة، وبعض المكاتب موجودة فلا داعي لإنّشائها، مثل مكتب العمليات والإستطلاع الّذي يشرف عليه العميدان محمد العماري وعبد الحميد جوادي. وباختصار، كانت الظّروف أفضل من ذي قبل.

لماذا لا نحسّن أوّلاً ما هو موجود، قبل أن نهتمّ بما هو أبعد من ذلك، بحيث نبدأ بالمعاينة ثمّ التّهيئة، ويليه الجنين الّذي ندخله الحضانة ويتربّى في بيئة يذوق فيها ألوان الحرمان والإحتياجات المخصبّة، وينمو فيها ويكبر بشكل طبيعي.

لدراسة الفكرة الّتي طرحها الرّئيس في سيدي بلعباس، عقدت جلسة عمل بمبادرة منّي في مكتب العقيد زرهوني قائد المخابرات. كما حضر مديرا البحريّة والطّيران. اقترحت عليهم إنشاء هذه الهيئة القياديّة على أن نشرف نحن بأنفسنا على المكاتب الرّئيسيّة الّتي ستتشكّل منها. أردت بذلك أن أمنحها فعّاليّة أكبر. كنت جدّ حريص على مستوى الأداء. سألني أحدهم : « هل ستكون مستعدّا للتّخلى عن قيادة قوّات البريّة لتتولى مكتب عمليّات ؟ » كان ردّي : « ولما لا ! » اكتشفت أنّ لا أحد في الحقيقة يرغب في ترك قيادته. كلّ واحد ما زال لديه « أشياء لتحقيقها »...

إنّ الغاية من إعادة هيكلة مجموعة عسكريّة أصبح تنظيمها غير ملائم لبيئتها هو الحصول على أفضل توازن ممكن بين الإمكانيّات والطّموحات، وذلك من خلال ضبطها بشكل مختلف.

إعادة هيكلة

بعدما عيّنت قائدا للقوّات البريّة في عام 1987، كان في رصيدي تجربة نظريّة وتطبيقيّة اكتسبتها في المدارس ومن خلال تواجد طويل في الميدان سمح لي بمخاطبة قائد الأركان، عبد الله بلهوشات، ورئيس الجمهوريّة، وبأن يصغيان إليّ. خلاصتي الّتي شدّت الإنتباه هي أنّ الجيش الوطني الشّعبي لم يعد مكتفيا بالتّخطيط الإقليمي القديم للوحدات وبقيادة لامركزية على الصّعيد الجهوي. فهذا التّفكيك وهذا التّفتيت، وخلخلة عموديّة القيادة، كانت في السّابق محبّذة لدواعي خاصّة بالهيمنة السّياسيّة. لأنّ هواري بومدين كان حريصا أشدّ الحرص على إمكانيّة الإتصال مباشرة، وفي أي وقت، بأي قائد ناحية دون المرور بالدّوائر المختصّة عادة بتلقّي أوامر السّلطة السّياسيّة وتعميّمها. فإذا كان هذا الأسلوب في التّعامل له ما يبرّره في زمن لم يكن هناك وزير دفاع ولا قائد أركان، لم يعد صالحا طالما أنّ الجيش الوطني الشّعبي يتطلع لتطبيق نموذج الجيوش الكلاّسيكيّة على تنظيمه.

كان بلهوشات عسكريّا لفترة طويلة في الجيش الفرنسي، وبالتّالي فهو يعرف ماذا يعني الجيش الحديث وتمفصلاته وتكوين أفراده ونوعيّة وسائله وكيفيّة التّحكّم فيها. ولذلك، فإنّه سمح لنا باتخاذ جميع المبادرات اللاّزمة إدراكا منه بالمسألة من كافّة نواحيها.

تركّزت عمليّة إعادة الهيكلة على مركزيّة الأوامر على مستوى قائد الأركان وعلى إنشاء مجموعات كبيرة قادرة على تنفيذ عمليّات ميدانيّة مشتركة بفضل زيادة قدرات المناورة ومرونة السّلسلة القياديّة وأنظمة الإتّصالات المناسبة.

إصطدم مشروعي منذ البداية بالعراقيل والإنتقادات. مرّة أخرى اكتشفت آفة الفئويّة الّتي أساءت كثيرا لسمعة الجيش. وانطلق العزف القديم الّذي امتهنه محترفو الشّائعات. يتقاسم أعضاء الجوق نفس المرصد، مرصد المدفعيّة. وفيما يخصّني، كانت الضّربات دائما ملتوية، ولم تكن يوما مباشرة. « هاي تزفّر[66] » وما إلى ذلك ! مقابل مشروعي كان هناك مشروع لمين زروال. وعندما أصبحت الهجمات أكثر كثافة، اقترحت استقالّتي لرئيس الجمهوريّة.

وجد الشّاذلي نفسه موضوعا أمام الأمر الواقع بالقرار الّذي اتّخذته بالإستقالة في حالة رفض اقتراحي. إنّها ليست مسألة كبرياء، بقدر ما هو رفض لتزكية عمليّة من شأنها أن تؤدّي إلى إعادة هيكلة غير ملائمة للقوّات. فلقد أثبت منظّرو المشروع الثّاني « كفاءتهم » خلال ألعاب الحرب في هضبة تندوف أوائل الثّمانينات. انتهى الأمر بالشّاذلي، بعدما تذكّر ربّما وتحت ضغط عبد الله بلهوشات، باختيار المشروع الأكثر واقعيّة، ألا وهو مشروعي !

من عادة الشّاذلي بن جديد أنّه لا يحسم في مواقفه. يعيد الكّرة بصيغة عامة. يستمع ثمّ يتأمّل للحظات، وبعد ذلك يقول « أدرسوا ». هي جملة لا تعني شيئا واضحا ودقيقا وغير متبوعة بعلامة تعجّب، وإنّما بعدد لا حصر له من النّقاط المتتاليّة. لكن من يدرس ماذا، أين وكيف وفي أيّ مدّة ؟ إنّ العقل المنهجي والدقيق ينبذ طريقة « إغراق السّمكة » هذه الّتي يذوب فيها كلّ شيء ويتلاشى. كم من مرّة أردت أن أصرخ في جوف أذنه : « قرّروا، يا سيّدي الرّئيس ! ». إنّ التردّد هو مصدر التّنازلات ومضيعة الوقت وتفاقم الصّراعات. إنّه يؤدّي إلى صدمات مؤلمة...

ولقد تجسّدت إعادة الهيكلة هذه طبعا باتخاذ جميع الإحتياطات الّتي تقتضيها أهمّية المشكلة. فكان من الواجب مراعاة بعض الرّفاق في السلاح من الّذين تعوزهم الخبرة التقنيّة قدر الإمكان، واضطروا مع الزمن إمّا للمغادرة أو التخلّي عن صلاحيّاتهم. مع أنّ التداخل بين السّياسي والعسكري لم يكن ليسهّل المهمّة دائما.

ستّة أشهر من الإتصالات والشروح كانت ضروريّة لإقناع أغلبيّة الأشخاص المعنيّين. الأكثر تردّدا هم أولئك الّذين يرون في هذا التطوّر نهاية نفوذهم وامتيازاتهم.

إقتناعا منّي بوجوب المضيّ في هذا العمل إلى نهايته، لم يكن لديّ خيار آخر سوى الاستمرار. الخطر الوحيد هو أن أضطرّ للإستقالة في حالة وجود عقبات آتية من أعلى السّلطات. إيماني بتلك المهمّة أنجحني فيها، لكنّه نجاح لم يخلُ من صعوبات. فربحت عداوات ظلّت تطفوا إلى السّطح لفترة طويلة.

وكان التّأثير الفوري والإيجابي لوحدة القيادة توحيد مختلف هيئات الأركان، وتجانس أساليب التّعامل مع المشاكل وفقا لأنماط حديثة وفعالة. وقد يسّرت إنشاء مجموعات كبيرة وساهمت

66. خلال حرب التّحرير، عندما تتهاطل علينا القذائف، كانت القذيفة الّتي تحفحف تسقط علينا، أمّا تلك الّتي تصفّر، فتمر فوق رؤوسنا، ومنها جاءت عبارة : « هاي تزفر ».

في إسقاط « الإقطاعيّات » الجهويّة الّتي تكوّنت منذ عقدين إلى غير رجعة. ألم يكن يقال « باي قسنطينة » و« قنصل وهران » ؟ كما سمحت هذه الوحدة القياديّة للجيش الوطني الشّعبي، بفضل إحياء القيم الّتي حفّزت في الماضي جيش التّحرير الوطني، بأن يضع دائما في باله أنّه ليس فقط الحارس السّاهر على السّلامة الترابيّة، وإنّما أيضا الضّامن لديمومة الدّولة الجمهوريّة المتمسّكة بالحداثة.

يجدر التّنبيه بأنّ إعادة هيكلة القوّات المسلّحة لا تعني إطلاقا الإحترافيّة بالمعنى المتعارف عليه اليوم. لأنّ المكوّن البشري للجيش الوطني الشّعبي سيبقى شعبيّا أكثر من أي وقت مضى. فلا يزال المشروع القاعدي الّذي أطلقه هواري بومدين صالحا، وهو تكوين جيش نواته الأساسيّة متكوّنة من الفلاّحين والعمّال والطّلبة، وهي النواة الّتي تحسّنت، بداية من عام 1971، وتدعّمت بعناصر تتمتّع بمستويات أعلى تخرّجت من مختلف مدارس وجامعات البلد. هذا التجذّر الشّعبي الّذي ما انفك يتعزّز مع توالي دفعات المجنّدين، أعطى بلا شك مزيدا من الإمتداد الشّعبي والتضامن مع الجيش الوطني الشّعبي. ويلزم قانون الخدمة الوطنية كلّ جزائري خرج حديثا من المدرسة بأداء سنتين متتاليّتين بالزّي العسكري، وغالبا في وحدات تهتمّ بإنجاز أشغال ذات منفعة عامة (بناء القرى الفلاحيّة والطّرقات والجسور، وحملات التشجير، وما إلى ذلك).

هذا الواجب الوطني الّذي يلتزم به كلّ شاب جزائري هو عامل تماسك ووحدة. معرفة الآخر وأخوّة السّلاح ومواجهة ظروف الحياة القاسية في الثّكنات معا، ومختلف العراقيل الّتي تتخلّل حياة الجندي، كلّها تشكّل قالبا يمحو جميع الخصوصيّات.

قائدا للأركان العامة

في صباح ذات يوم، وبينما كنت داخل مكتبي في القوّات البريّة، رنّ الهاتف، وكان مدير ديوان الرّئيس. قال لي بلخير : « إنّ الرّئيس في انتظارك ». أخذت محفظتي وذهبت إلى الرّئاسة. وككلّ مرّة تكون لي جلسة عمل مع بن جديد، أتوقّف عند بلخير. اندهشت من ذهابه وإيابه بين مكتبه ومكتب الرّئيس. كان الوقت يمرّ. مرّت ربّما ساعة. لم أفهم ما كان يحاك في الخفاء.

فجأة دخل اللّواء شلوفي إلى المكتب. طلب من العربي بلخير إدخاله فورا عند الرّئيس. وفي غضون ذلك، أسرّ لي بصوت خافت : « هناك قائد ناحية وقائد قوّات يعارضان تعيّينك ويحاولان استدراج عدد معيّن من الضّبّاط معهما ». ففهمت على الفور أسباب كلّ ذلك التوتّر ولماذا تركني بن جديد أنتظر. لا ننسى أنّه قرّر تعييني قائدا للأركان العامّة خلفا لعبد الله بلهوشات.

لم يصدر في حق عبد الله بلهوشات قرار بالإحالة على التّقاعد المسبق. بل كان هو من طلب المغادرة.

لم يكن يتوقّع هذه الإنتفاضة عندما أبلغ كبار قادة الجيش بأنّه يفكّر فيّ أنا لخلافة بلهوشات. والحقيقة إنّ الّذين عارضوا تعييّني لم يمارسوا في حياتهم أيّة قيادة عمليّة ولا حتّى قادوا وحدة في معركة. السّبب واضح كالشّمس. فأنا لا أنتمي إلى العصبة !

قلت للعربي بلخير، بلهجة حادة : « سي العربي، أنا لم أطلب شيئا. فلا أرى لماذا كلّ هذه المسخرة ؟ » وأردفت قائلا : « أخبر الرّئيس بأنّني أقبل بتولّي مكان سي عبد الله بالنيّابة، لكن إلى أن يجد قائدا للأركان، وبعد ذلك سأغادر ! »

بعد مرور بضع لحظات، أدخلت عند رئيس الجمهوريّة. كان اللّواء بلهوشات إلى جانبه. تناول الرّئيس الكلمة : « سي عبد الله طلب الذّهاب إلى التّقاعد. خالد، ستتولّى النيابة في هذه الفترة. فأجبته : « سيدي الرّئيس، سأتولّى النيابة مؤقّتا وعندما تجدون شخصا سأغادر ». حييّتهما وانصرفت.

بعد مرور ساعة، رنّ الهاتف من جديد. إنّه بلهوشات : « سي خالد، أنت قائد الأركان من هذه اللّحظة. والمرسوم هو قيد التّوقيع ». كان بلهوشات بلا شكّ مستاء ممّا حصل، هو الّذي حضر كلّ أشواط الكوميديا، فأقنع الرّئيس بتجاوز كلّ المواقف المعارضة والذّهاب بقراره الأوّل إلى النّهاية.

في يوم 16 نوفمبر 1988، عيّنت قائدا الأركان العامّة. أصبح الآن بإمكاني تنفيذ ما كان يشغل بالي على مدى سنوات عديدة : تجسيد الإصلاحات الّتي يفرضها تطور التقنيّات، وعدد وتأهيل إطاراتنا الشّباب، فضلا عن تقلّبات المشهد الإقليمي.

وكما أشرت إلى ذلك سابقا، فإنّ إحالة عدد من رفاق حرب التّحرير، من الّذين تمّت ترقيتهم إلى رتبة عميد بقرار سياسي وغير المؤهّلين للوظيفة، على التقاعد لم يكن أمرا سهلا. كان لابد من وقت طويل لكي يعترف هؤلاء القادة الّذين يشهرون خدماتهم في جيش التّحرير الوطني أو الّذين يستقوون بعلاقاتهم بأعلى هرم السّلطة، ويقتنعوا بأنّه حان الوقت ليسلّموا المشعل. ولقد تأخر موعد تنصيب هياكل كانت أساسيّة للقيادة بسبب الدّفاع « الأناني » عن المكاسب الّتي يتمتّع بها البعض[67].

لكن في الأخير اضطرّ الكثيرون للتّقاعد، بعدما اشتدّ بهم العياء أو بلغت كفاءتهم المهنيّة حدودها القصوى. وظلّوا لفترة طويلة ناقمين عليّ. إنّهم يعتبرونني الشّخص الّذي أراد وأعدّ باستماتة ونفّذ بعزم المخطّطات التنظيميّة والقياديّة الجديدة. ولم تتوقّف التعليقات اللاّذعة الّتي حاولت من خلال الضّجّة المفتعلة تغيير مجرى الأمور. سأظلّ دائما في نظرهم منفّذ خطّة « إبعاد » مغلّفة بالكلمات المعسولة الّتي ترافق عادة القدامى في آخر ظهور لهم على السّاحة.

اضطرّ هؤلاء الإطارات العسكريّة السّامية المتخرّجين من جيش التّحرير الوطني، والّذين يحسبون أنفسهم أحيانا مسؤولين سياسيّين، لإفساح المجال تدريجيّا لجيل آخر من الضّبّاط المدرّبين على الشّأن العسكري.

67. كان حضور كبار القيادات في الجيش الجزائري في المكتب السّياسي وفي اللّجنة المركزيّة المتأثّرين بالمنظرين الإيديولوجيين أو الأئمّة المستوردين، يتيح لهم إمكانية خوض معركة إيديولوجيّة فعّالة في جميع مجالات الحياة الإجتماعيّة الجزائريّة : المدرسة، قانون الأسرة، والتدخّل لدى الولاّة، عن طريق قادة القطاعات، للحصول على منافع من كلّ الأنواع لهم أو لمن هم في حمايتهم.

حتّى قبل أن أتّخذ قراري بإحالة هؤلاء القدامى على التّقاعد، حدث نوع من التّصفية الطّبيعيّة على الأرض. ومثال امقالة خير شاهد على ذلك. فلمّا رأى محمد الصالح يحياوي، قائد النّاحية العسكريّة الثّالثة، نفسه غير قادر على مواجهة المخطّطات العسكريّة المغربيّة، أفسح المجال لرجل مشهود له على احترافيّته، وهو سليم سعدي. فذهب يحياوي إلى الحزب حيث يستطيع أن يطلق العنان لقريحته الخطابيّة، والدّفاع عن الثّوابت والحرب الإيديولوجية المعلنة على الفرنسيّة والفرنكفونيّين. خاض معركة إنتصر فيها ضدّ مصطفى الأشرف، وزير التّربية الوطنيّة الّذي كانت لديه رؤية طلائعيّة للمدرسة الجزائريّة. في المفهوم العسكري، الطّليعة هي الفرقة الّتي تنير الطّريق وتحارب في الجبهة الأماميّة. وهنا هي القاطرة الثّقافيّة الّتي تدفع بالشّعب نحو المستقبل. لكن محمد الصالح يحياوي، و« المنظّرين الإيديولوجيّين » في الحزب الواحد أوقفوها. ولم تقلع من جديد إلى يومنا هذا.

كلّ تحوّل من التحوّلات الّتي شهدها الجيش الجزائري مرّ بفترة حافلة بالمشاهد الدرامية وأحيانا بحالات تمرّد. إنّ تاريخ الجيش الجزائري هو قبل كلّ شيء تاريخ الرّجال الواعين والعازمين، الّذين رأوا قبل الآخرين وأفضل من الآخرين، نقائص المنظومة العسكريّة فقرّروا تصحيحها. كان كريم بلقاسم، لمّا حاول وضع المخطّطات التنظيميّة الّتي حدّدها مؤتمر الصّومام، اصطدم بالجهويّة وروح « القطاعيّة ». وكان هواري بومدي لمّا أراد تحويل جيش التّحرير الوطني إلى جيش وطني شعبي لتكييّفه مع مهامه الجديدة بعد تحرير الوطن، اضطر إلى استعمال القوّة للحدّ من « الولائيّة ». كما اضطرّ الشّاذلي بن جديد، بدوره وفي ظرف إقليمي غير مساعد، إلى الحسم القاطع في بعض المواقف مما أثار حفيظة عدد من رفاق السّلاح الّذين اختلطت عندهم المهام المؤقّتة والمنتهية بالملاذات مدى الحياة.

حرب التويوتا (1986 - 1987)

في صيف عام 1973، إحتلت ليبيا عسكريًّا قطاع أوزو في الأراضي التشّادية، الّتي تطالب بملكيّتها. أعلن القذّافي ضم قطاع أوزو ثمّ ألحقها إداريًا بمحافظة الكفرة. كما تدخّل القذافي في الحرب الأهليّة التشّادية، آخذا تحت جناحه غوكوني عويدي المعارض لحسين حبري الّذي كان يتمتع في ذلك الوقت بحماية فرنسا والولايات المتّحدة. وتلى ذلك حرب القادة الّتي استمرت لأكثر من عقد من الزّمن. لم يزد التّدخل الأجنبي، في شتّى أشكاله، سوى من حدّة الصراع.

في عام 1976، شنّت القوّات اللّيبيّة عمليات توغّل في وسط التشّاد مع قوّات « فرولينا » الموالية لغوكوني عويدي. أصبحت كلّ العاصمة نجامينا مهدّدة. واندحرت القوّات التّابعة لحبري.

بعد فشل مشروع الوحدة التشّادية اللّيبية الّتي انضمّ إليها عويدي، انسحبت وحدات القذافي من قطاع أوزو وحلّت محلّها قوّات تابعة للإتحاد الإفريقي.

وفي يوم 21 جوان 1983، قامت ميليشيات تابعة لحكومة الائتلاف الوطني الانتقالي، الموالية لعويدي، باستباق قوّات ليبيّة كبيرة، لعبور الحدود التشّادية، متوجّهة إلى نجامينا، عاصمة دولة مزّقتها عشرون سنة من الحرب الأهليّة. و« تلبية لنداء حسين حبري »، تدخّل الفرنسيّون لوضع حدّ لتغلغل القذّافي في إفريقيا.

إنطلقت عمليّة « مانتا » في 10 أوت 1983 بإرسال فرقة متكوّنة من 314 مظليّا إلى نجامينا، تمّ تعزيزها بعد شهرين لتصل إلى 3 آلاف عسكري. ويدعم هذا الفيلق حوالي عشرين طائرة هليكوبتر وثلاثين طائرة من القوّات الجويّة والطّيران البحري الفرنسي. كما دعّمت العمليّة عناصر من المساعدة التنفيذيّة في جمهورية إفريقيا الوسطى حيث أقيمت القاعدة الخلفيّة.

ولقد دفعت الجماهيريّة اللّيبيّة ثمن المغامرة العدوانيّة لزعيمها غاليا.

« حرب التويوتا » هو الإسم الّذي أعطي للمرحلة الأخيرة من النّزاع بين عامي 1986 و1987 في شمال التشّاد على الحدود مع ليبيا. إستخدم التشّاديّون سيّارات تويوتا المسلّحة كوسيلة للنّقل وفي غزوات حربيّة. وفي مارس 1987، قام التشّاديون، بمساعدة جهاز التّدخّل التّابع للمديريّة العامة للإستخبارات الفرنسيّة على أرض والمعلومات الّتي تمدّها كلّ من المخابرات المركزيّة الأمريكيّة (سي آي إي) والموساد، باقتحام واحتلال القاعدة اللّيبيّة في وادي دوم الواقعة في قطاع أوزو، الّتي كانت مع ذلك محميّة بحقول الألغام والدبّابّات والمركبات المدرّعة وآلاف الجنود. وأدّى سقوط القاعدة اللّيبيّة الرّئيسّية في المنطقة إلى وقف مخطّطات « القائد » الحربيّة.

في أوائل عام 1987، كلّفني الرّئيس الشّاذلي بمهمّة لدى العقيد القذافي الّذي كان خائفا من زحف التشّاديّين نحو الشّمال، فطلب مساعدة عسكريّة عاجلة، دون أن يحدّد في أي شكلّ يتصوّرها ويريدها. رسمنا الملامح الّتي يمكن أن تتّخذها، فعرضنا إرسال وحدات جزائرية لاتخاذ مواقعها في شمال ليبيا حتّى تتمكّن القوّات اللّيبيّة الإحتياطيّة من الدّفاع عن حدود بلدها في الجنوب.

وهكذا، جهّزتُ ملفا كاملا يتضمن المعدّات الّتي يمكن نقلها إلى جيراننا، وذهبت إلى طرابلس لإبلاغ العقيد القذافي بمقترحات رئيس الجمهوريّة.

رافقني العقيد العمّاري محمد قائد العمليّات. إستقبلنا العقيد القذّافي في خيمته في العزيزيّة. وفي مدخل حديثنا أعلن قبوله بمقترحات الرّئيس الشّاذلي.

إستقلت الطّائرة عائدا إلى الجزائر العاصمة، تاركا العقيد العمّاري في عين المكان لبحث التّرتيبات العمليّة الخاصّة بتنصيب قوّاتنا في ليبيا. مع العلم أنّنا لن نتحرّك تحت أيّ ظرف من الظّروف ضد التشّاديّين خارج ليبيا. وأفهمنا المعنيّين بذلك.

بعد حوالي عشرة أيام، أتمّ العقيد العمّاري إعداد « الملف ». بقيت هناك نقطة لا يمكن حلّها إلاّ بعد أخذ رأي « القائد الأعلى » فيها. وتتعلّق بالذّخيرة الّتي تزوّد بها الوحدات المراد نقلها.

لم يتأخّر الردّ كثيرا : « يجب أن تأتي الوحدات الجزائريّة دون ذخائر ! ستزوّد في عين المكان بالذخائر التدريبيّة على أن تبرّر بتسليم الأعيرة الفارغة ».

لم نتمالك أنفسنا من شدّة الدّهشة. تُرسل قوّات إلى بلد في حالة حرب من دون ذخيرة ! شككنا فعلا في التّوازن العقلي للذي يجرؤ على تخيلّ مثل هذه الحماقة.

رئيس الجمهوريّة نفسه، عندما أبلغ، اندهش. وهكذا ألقي الطّلب اللّيبي في سلّة المهملات.

كانت هذه المرّة الأولى الّتي أتعامل فيها مع اللّيبيّين. المرّة الثّانية عندما طلب منّي قائد الأركان، اللّواء عبد الله بلهوشات، استقبال وفد عسكري برئاسة عقيد يقود القوّات البرّية. إستقبلته رفقة اللّواء عبد الحميد جوادي رئيس مكتب في هيئة الأركان العامة.

جاءت هذه « السّفارة » العسكريّة لتقترح علينا الإندماج مع ليبيا. « لقد جئنا بورقة بيضاء، لكم أنتم أن تدوّنوا عليها شروطكم. » جاء هذا العرض المقدّم للجزائر بعد عدّة محاولات ليبيّة، كلّها أجهضت، لعقد الوحدة مع جيرانها (مع مصر في عام 1973، مع تونس في عام 1974، مع الجزائر في عام 1975، والتشّاد في عام 1977 ومرّة أخرى مع الجزائر في عام 1987).

في يوم 5 سبتمبر 1987، أثناء إقامة هذا الوفد في الجزائر، شنّ التشّاديّون هجوما مفاجئا على القاعدة الجويّة اللّيبيّة في « معاتن السرة ». قتل مئات من الجنود، واعتقل مئات آخرون، فيما اضطر آخرون للفرار إلى الصّحراء. أعلن التشّاديّون عن تدمير 32 طائرة، معظمها من طراز « أل 39 » التشيكوسلوفاكيّة، وعدد من طائرات « ميغ » ومروحيّات. كما اغتنمت كميات من العتاد : رادارات، وصواريخ مضادّة للطّيران « سام 3 »، ودبّابّات وآليّات مدرّعة، ومركبات نقل ومجموع الأسلحة المتواجدة في القاعدة.

في يوم سفره، قام الوفد بزيارة عبد الله بلهوشات. وردّا على سؤال حول مصير القاعدة، قال رئيس الوفد : « لم تتلقّ أضرارا كبيرة. التّعزيزات موجودة في عين المكان، والقاعدة تسير سيرا عاديّا ». لم يكن بلهوشات ملّحا في كلامه. وبطبيعة الحال، كنّا جميعا نعرف أنّ ذلك ليس صحيحا. فهل كان هذا العقيد يتكلم بنيّة حسنة أم أنّه يريد إخفاء الحقيقة عنّا ؟

في جنان الميثاق، أخذته جانبا وأخبرته عن حقيقة ما حدث في قاعدة معاتن السرة. أخرجت من جيبي قائمة المعدّات الّتي اغتنمها التشّاديّون وسلّمتها إيّاه. قلت له : « كلّ هذه المعدات سوف تباع في المزاد، ونحن مستعدّون لشرائها لكم. نحن في انتظار موافقتكم ! ». لم يأت ردّ لا منه ولا من قبل هيئته القياديّة.

علّمتنا مغامرات القذّافي التشّاديّة كثيرا عن الخسائر الّتي يمكن أن يسبّبها رجل لشعبه ولرؤاه هو شخصيا عندما تكون بين يديه السّلطة المطلقة.

وزيرا للدّفاع

في 25 جوان 1990، عندما عيّنت وزيرا للدّفاع، في عزّ غليان الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ، كان الجيش « الثّابت » الّذي أراده بومدين أن يعمل وفق الإحتلال المكاني للتّراب الوطني بغية التحّكم في الشّعب، قد حوّل إلى جيش وطني حقيقي مهمّته ضمان سيادة البلاد والدّفاع عن حدودها وضمان ديمومة الدّولة الجمهوريّة. فلقد ساهم معظم الإطارات السّامية للمؤسّسة، بإرادتهم وتفانيهم، في استكمال كلّ مراحل الإصلاح من مركزيّة القيادة من خلال إنشاء هيئة أركان عامة، وإصلاح الخدمة العسكريّة، وإنشاء وحدات قتاليّة كبيرة، وتشبيب سلسلة القيادة واحترافيتها، والتّخفيف من أفراد وحدات الدّعم على حساب القوّات العمليّاتيّة، وتسوية المشاكل المتعلّقة بالإدارة من أجل تكفّل أفضل بالمستخدمين العسكريّين.

كوزير للدّفاع، وضعت حدّا بعد دراسة متأنّية لمشاركة الجيش الوطني الشّعبي في أشغال الخدمة الوطنية الكبرى الّتي تتطلّب تنصيب معسكرات هشة وتشتّت الأسلحة تحت الخيم المفتوحة على جميع التيّارات الهوائيّة وجميع الأطماع. كما ألغيت مدارس الإطارات. ولقد صدم الكثير بهذا القرار. أعيد النّظر فيه بعد خروجي واستعيدت هذه المدارس. كان في نظري أنّ المخطّط التّعليمي والتّكويني الموجود في البلد والّذي يبدأ من المدرسة الابتدائيّة وصولا إلى الجامعة، كفيل بتلبية جميع احتياجات الجيش الوطني الشّعبي من حيث الموارد البشريّة. ولم أُبق سوى على مدرسة الطّيران الّتي لديها متطلّبات مختلفة وتفرض على طلبتها التوفّر على مواصفات خاصة.

إعتبرت أنّه من الخطورة على العلاقة بين الجيش والأمّة أن تخلق فئة من العسكريّين يتغذّون منذ نعومة أظافرهم بالفكر الطّبقي الّذي من شأنه أن يقطعهم نهائيّا عن هموم الشّعب ويحوّلهم إلى فرقة من الإنكشاريّين في خدمة ديكتاتور ما من دون أي رادع.

مسؤوليّة بن جديد

في منتصف الثّمانينات، وبينما كانت البلاد تواجه انكماشا حادّا في الموارد الماليّة الّتي تساعد على تهدئة الجبهة الإجتماعية من خلال دعم أسعار المواد الأساسيّة، وإعادة توزيع عائدات النّفط بشتّى الطّرق، قرّر الرّئيس الشّاذلي بن جديد تطبيق نوع من انفتاح النّظام، عملا بنصيحة من حوله من الشّخصيّات الّتي كانت هي واعية بالحاجة إلى التّغيير. وأصبح إسكات الغضب الشّعبي الّذي كشفته أعمال الشّغب المتكرّرة، الشّغل الشّاغل للسّلطة[68]. لكن جاء ذلك بعد فوات الأوان. فاقتصاديّا، البلد منهار. وكان هناك مسيّرون متسلّطون وعديمو الكفاءة، ركبهم جنون البرميل، عكفوا على تحوير آليات التّسيير المركزي المفرط ممّا دمّر أو فكّك الصّرح الإقتصادي الّذي تركه

68. إتّضح أنّ عمليّات التهجير القسري لسكّان الأحياء القصديريّة حول العاصمة في عصر الطّفرة الصّناعيّة أيام عبد السلام بلعيد، قد تركت آثارا.

بومدين. فالشّركات الوطنيّة الكبرى الّتي استخدمت كأداة شعبويّة – ومثال على ذلك سياسة التّشغيل الكامل في السّبعينات – صارت تخضع لحلول آلية جد مكلفة زادت من العراقيل الإداريّة بدلا من تذليلها.

بعد ذلك ارتأت مختلف قطاعات السّلطة، الّتي استنزفت قواها في صراعات معقدة وتناور بالمزايدات الخطيرة، أن تستنجد بالشّارع الّذي كانت تعتقد أنّها تستطيع ترويضها وإدخالها كعنصر مفيد في استراتيجيّاتها. أدّت هذه الأعمال غير الواعية إلى تحريك ديناميكيّات ستكون لها عواقب وخيمة على استقرار البلد.

ومن نتائج إختيار سياسات اقتصادية طوباويّة ومكلّفة، وغياب الحريّات الدّيمقراطيّة، وهيمنة الأجهزة الأمنيّة، واستعراض مظاهر الثّراء الفاحش لطبقة حاكمة كشفت عن نهمها وغطرستها، واستفحال ندرة المواد الإستهلاكيّة، وخاصّة المياه، بالإضافة إلى العراقيل البيروقراطيّة الّتي توّلد الفساد وغياب العدالة الّتي لم تعد قادرة على الدّفاع عن حقوق المواطن، من نتائج كلّ ذلك تصاعد الغليان الإجتماعي، مع اندلاع أعمال شغب عنيفة هزّت المدن الرّئيسيّة في البلاد.

كان من المفترض أن تساهم التّغييرات السّياسيّة المحتشمة الّتي اقترحها مولود حمروش، رئيس الحكومة، في إدخال نوع من اللّيبراليّة في المجال الإقتصادي وتعدّدية مؤطّرة ومسيّرة على مستوى المجالس الشّعبية المحليّة. وبما أنّ الجماهير تحاصر وتخرّب مكاتب المنتخبين المحلّيّين، فالأحرى بها أن تفعل ذلك على حساب من ستنتخبهم تلك الجماهير بنفسها. وللتغلب على ممانعات المتربّعين على قيادة جبهة التّحرير الوطني، الحزب الواحد الحاكم، الّذين ظلّوا بمواقفهم المتحجّرة ولم يحتسبوا لتطوّر ذهنيّات الشّباب الّذين أصبحوا مطلّعين على مصادر إعلامية متنوعة، استنجد بن جديد بالشّارع وأشركه من غير دراسة وحساب في دور الحكم. مع أنّ انشغالات الشّعب لم تكن معقّدة البتّة. بل هي بسيطة وواضحة، وتتلخّص في العيش في بلد قويّ ومزدهر، تحترم فيه حقوق الجميع. ما يدور من تجاذبات داخل سلطة غلقت على نفسها في برجها العاجي، من دون رؤية للمستقبل، فلا تهمّه. ولقد نسي هؤلاء المخطّطون الجهابذة أنّه عندما تفتح علبة « الباندورة »، فكلّ شيء يمكن أن يخرج منها. وفي 5 أكتوبر 1988، إنفجر غضب المراهقين المدّمر والّذي لم يعد بإمكان أيّ نظام أمن احتواءه، فاستهدف بعنفوان رهيب أملاك الدّولة، وبالأخصّ مباني وسيّارات جبهة التّحرير الوطني. ومثل النّار في الهشيم انتشر الحريق ليعّم البلاد كلّها. لم تستطع أجهزة الأمن التّقليديّة مواكبة الأحداث فعجزت عن استتباب الأمن والنّظام. لم يعد نظام الشّاذلي هو المهدّد، بل كيان الأمّة ذاته. انكشفت هشاشة المجتمع الجزائري الّذي يفتقر إلى وسطاء يكفلون استقراره ويجنّبونه طريق العنف، لكن هذه المرّة على نطاق مدّمر.

اضطرّ الجيش للتّدخّل، لكنّه لا يملك الإمكانيات الماديّة الملائمة ولا الصّلاحيّات الّتي تخوّل له الحفاظ على النّظام لمواجهة أعمال شغب لم يسبق لها مثيل. فلم يكن ضحايا أكتوبر 1988

نتيجة قرار مخطّط له ومقصود لقمع الشّباب الثّائر بأمثلة دمويّة، بقدر ما هي نتيجة تسلسل أحداث خرجت عن سيطرة المسؤولين في الميدان.

أكتوبر 1988 هو حصيلة تراكم الأخطاء السّياسيّة والإقتصاديّة في عهد بومدين وعجز من أتى بعده عن تصحيحها على الرغم من الوقت والإمكانيات المتاحة له.

لقد صفّر أكتوبر 88 نهاية « الشّرعيّة التّاريخيّة » الّتي سمحت للأنظمة المتعاقبة منذ 1962، بممارسة الحكم دون أيّ محاسبة عن تسييرها. وكشف عن هشاشة المجتمع الجزائري الّذي يفتقر إلى الوسطاء الّذين يضمنون استقراره ويجنّبونه طريق العنف. وتزعزع بذلك النّظام القائم على أسس بسيطة : رئيس، حزب واحد، أدوات قمع، وشعب مستكين ومستسلم لأمره. أرغم على إدخال إصلاحات تهدف إلى استيعاب غضب الجماهير، وهي إصلاحات أدخلت بدورها لاعبين جدد، كان بعضهم مصمّما على فرض نوع آخر من المجتمع على الجزائريين، بكلّ الطرق، بما في ذلك السيف والكلاشنيكوف.

دفعت الدّيناميكيّات النّاجمة عن أحداث أكتوبر 1988 الجيش إلى دخول حلبة السّياسة غصبا عنه.

ستكون سنوات المحن الّتي عشناها في أواخر الثّمانينيّات وعقد التّسعينات، سنوات الدّموع والدّم والإتهامات والتّجريم والمحاكمات، موضوع الكتاب الثّاني من مذكراتي.

فهرس الأسماء

ا

آيت أحمد حسين 159، 235، 251، 252، 254، 260

آيت مهدي مقران 202، 210

أوجهان محمد السعيد 48

أوسعيد حسين 284

أولحاج محند 178، 247، 249، 252

إدير الرائد 182

إيتشيفري جنرال 77، 124

البريكي عبد القادر 77

العماري محمد 283، 310، 316

الغوثي 252

الفاضل 27، 74، 75، 76، 77، 78، 79، 80، 82، 83، 84، 85، 86، 88، 101، 102، 120، 197

القاهرة علي 49

القذافي معمر 314، 315، 316

ب

بقة عبد النور 133

بلخير العربي 256، 312، 313

بلعزيز علي 259

بلوصيف مصطفى 233

بناصر عبد الوهاب 49

بن بلة أحمد 54، 166، 231، 235، 237، 248، 249، 251، 252، 253، 254، 256، 257، 258، 259، 260، 262

بن جديد الشاذلي 24، 25، 70، 71، 116، 120، 131، 135، 148، 197، 232، 233، 236، 244، 256، 261، 262، 271، 273، 274، 280، 294، 295، 296، 297، 298، 301، 304، 309، 311، 312، 313، 314، 317، 318

بن سالم عبد الرحمن 13، 16، 19، 53، 77، 94، 96، 99، 100، 105، 120، 131، 148، 149، 151، 152، 175، 180، 197، 198، 211، 240، 252

بن شريف أحمد 120، 121، 122، 123، 135، 294

بن عبد المومن العقيد 17، 100، 131، 138، 147، 183

بن عطية عبد الرحمن 260

بن عودة العقيد 260

بن عيسى محمد 121

بن مصابيح 211، 212، 213

بن يحيى محمد الصديق 237

بوبكر الملازم 253

بوحرارة قدور 141، 144، 247، 248

بوخذير علي 244

بوزينة 71، 72

بوشقوف صالح 122، 309

بوضياف محمد 14، 54، 235، 260

بوعنان 64، 65، 69، 258

بولحروف الطيب 57، 180

بولكرام الملازم 288، 304

بومدين هواري 16، 22، 23، 24، 25، 63، 67، 70،

96، 129، 130، 131، 133، 134، 135، 179، 182، 192، 201، 231، 232، 233، 234، 235، 236، 238، 244، 245، 246، 248، 251، 254، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 265، 269، 270، 271، 272، 273، 277، 279، 280، 281، 282، 286، 290، 292، 293، 294، 295، 296، 299، 303، 306، 309، 310، 312، 317، 318، 319

ت

ترخوش أحمد 27، 70، 85، 101، 102، 103، 108، 112، 133، 135، 136، 249

تواتي محمد، اللّواء 297، 298

ج

جان بيار 185، 201، 209

جبار عمور 180

جبايلي 55

جغري شريف 259

جلول الحاج شريف 265

جنوحات أحمد 262

جوادي عبد الحميد 310، 316

ح

حبري فقير 315

حربي محمد 180

حسن 252، 271، 272، 278، 281، 291، 298، 299، 300، 301، 302، 303، 305

حمداش موسى 55، 56، 58، 64

حمروش مولود 318

حيدوش 17، 91، 93، 100، 101، 102، 105، 108، 109، 110، 112، 114، 184، 211، 250

خ

خطيب جلول 259

خطيب حسان، يوسف 7، 179، 247، 249، 254، 259

خوجة أحمد 262

خوجة علي 63، 252

د

دراية أحمد 63، 200، 206، 208

دعاس كومندو 100

دهان عبد الحميد 265

ر

رحال يحيى، اللّواء 43، 45

رحماني ملازم الجيش الفرنسي 53

ز

زبيري الطاهر 25، 61، 71، 94، 123، 178، 197، 231، 232، 245، 246، 247، 248، 249، 254، 256، 257، 261، 262، 263، 269، 277، 282

زراري الرائد عز الدين 16، 61، 131، 182، 238

زرزوري 54

زروال لمين 283، 311

زمولي سبتي 79، 80، 136، 137، 138، 197

س

سعدي سليم 19، 69، 133، 148، 150، 153، 154، 275، 277، 280، 281، 284، 285، 287، 288، 294، 297، 314

سعدي ياسف 147، 179

سهيلي محمد 159، 160

سوفي صالح 16، 96، 131، 277

ش

شابو عبد القادر 53، 70، 131، 148، 149، 254، 259، 261، 263، 269، 279

شابي 119

شعباني 25، 179، 231، 245، 250، 254، 255، 256

شعيب حامد 70، 71

شعيب عابدة 71

شعيب محمد عباس 150، 151
شلوفي مصطفى 136، 313
ع
عباس العقيد 164، 165، 171، 174، 261
عباس فرحات 252
عباس لغرور 51
عبد السلام بلعيد 318
عبد الصمد 56، 58
عبد الغني أحمد 131، 183، 251، 294
عبد اللاوي عبد القادر 70، 77، 112، 123، 133، 135، 138، 139، 141، 143، 197، 261، 262
عبد المنعم رياض
عبد النور 7، 71، 101، 102، 111، 139، 141
عبيد سعيد 131، 238، 262
عثمان العقيد 183، 254
عثمان باباي 207
عثمان جيلالي 114
علاق محمد 131، 287
علاهم عبد المجيد 279
عواشرية محمد 14، 53، 63، 96، 175، 180، 211
عياط لكحل 133، 156، 261، 275، 278
عيسات رشيد 148، 262
عيواز أحمد 121
غ
غزالي سيد أحمد 57، 288
غزيل عباس 135
غيدوشي أحمد 116، 117، 118، 121، 141، 142، 143، 144
غيدوشي علي 77
ف
فارس محمود 62، 64
ق
قارة عبد القادر 71، 72، 111، 126، 127، 133
قايد أحمد 16، 131، 182، 245، 248، 250، 257
قنايزية عبد المالك 55، 56، 57، 58، 158، 280
قنز محمود 258
ك
كافي علي 113، 178، 297
كيرامان عبد الحفيظ 57
ل
لبوخ 55
لطرش عبد الحميد 25
لطرش يوسف 54، 94، 113، 171، 200، 202، 206، 207، 208، 209، 249، 278، 279، 280
م
ماضوي العقيد 64، 262
مالك رضا 122، 192، 234، 243
محمدي السعيد 16، 65، 66، 101، 113، 114، 131، 134، 174، 178، 182، 192
مرباح قاصدي 280، 291، 294، 295
مساعدية 300، 305
مسعودي رابح 56
ملاح عمار 261
منجلي علي 131، 182، 245
ن
نواري 56
هـ
هوفمان سليمان 149، 259
و
وعواع مدني 113
ي
يحياوي محمد الصالح 261، 277، 278، 280، 291، 295، 314
يزيد امحمد 122

الفهرس

تقديم.......... 6

توطئة.......... 27

الباب الأول

الفصل الأول

جروح الذاكرة.......... 33

ضريبة الدم.......... 39

« الفرنسي نذير الشؤم ».......... 40

عام السنغاليين.......... 41

صور محفورة في الذاكرة.......... 43

الفصل الثّاني

المدرسة الصغيرة فوق الرابية.......... 46

« معتدل سر ! ».......... 48

الجيش الفرنسي من خلال أعماله.......... 50

الفصل الثّالث

لاندو في بلاتينا.......... 53

تحت المجهر.......... 55

« نحن لوغالي ».......... 56

البـاب الثّاني

الفصل الرّابع

تونس، 26 شارع الصدّيقية.......... 61

تكوين أكبر عدد ممكن.......... 61

علي حمبلي يطبّق سلم الشجعان.......... 65

الفصل الخامس

مع المجاهدين.......... 69

امتياز مشبوه.......... 73

رجال استثنائيون.......... 76

كومندو توماس.......... 82

الفصل السادس

« النّظام ».......... 91

« النّظام » والخطوط المكهربة.......... 95

الفصل السابع

خيانة المرشدين.......... 99

حمام سيدي طراد.......... 114

أخبار من عين الكرمة.......... 118

أحمد بن شريف وحقائق الخط المكهرب.......... 120

دبابات ورجال.......... 124

الفصل الثّامن

سنوات الستينيات.......... 128

هواري بومدين.......... 130

جاذبية الأقوياء.......... 135

علامات الآخرة.......... 139

المدفعيّ ذو قبرين.......... 143

هجوم على نطاق واسع.......... 148

شهداء الساعة الأخيرة.......... 158

الفصل التّاسع
إضاءات تاريخية

جيش وجبهة التّحرير الوطني..162
الخطط الّتي وضعها الفرنسيون..163
فروع الإدارة المتخصصة (ساس)..166
إنشاء مصلحة للشؤون الجزائرية..167
الشؤون الجزائرية ومكاتب « الساس » عام 1955..168
مهام قائد « الساس »..169
نهاية أسطورة « الغول » العسكري الفرنسي..171
سنة 1956، الاشتراكيون أو إطلاق أيادي العسكر..172
عهد راؤول سالان..174
جيش التّحرير الوطني، النفَس الثّاني..176
مؤتمر الصومام..177
قائمة بمختلف مديريات فدرالية جبهة التّحرير بفرنسا..180
قاعدة في الشرق..181
سنة 1957..184
نظرية « المجال المغلق »..186
شارل ديغول، بحثا عن النصر العسكري..189
عمل هيئة الأركان العامة لجيش التّحرير الوطني..192
الشّعب الجزائري في الشارع..193

الفصل العاشر
معركة سوق أهراس : منعطف في الحرب

شهادة محمّد معارفيّة..196
معركة المواجن الكبرى (27 أفريل - 3 ماي 1958)..201
شهادة سالم جيوليانو..207

آيت مهدي المدعو سي مقران، ضابط سابق في جيش التّحرير الوطني بالولاية الثّالثة من سانت مكسان إلى المواجن.......... 210

شهادة باتريك شارل رينو، في تدخل الطّيران كقوة دعم في معركة المواجـن المعروفقة باسم : « معـركة سـوق أهـراس ».......... 215

الفصل الحادي عشر

قطاعات الجيش الفرنسي في الجزائر

قطاع وهران.......... 220

القوّات المسلّحة بالجزائر.......... 224

فرقة جيش قسنطينة.......... 225

الباب الثّالث

مشواري العسكريّة

مقدّمة.......... 231

الفصل الثّاني عشر

ما بعد الاستقلال

صيف كلّ المخاطر.......... 234

الأطماع المغربيّة.......... 251

عملية التحوّل.......... 253

انقلاب 19 جوان 1965.......... 257

مصير آخر للجزائر.......... 260

14 ديسمبر 1967.......... 261

الفرقة الثانية للمشاة المحمولة جوا.......... 263

ماي 1967، في صحراء سيناء.......... 264

استعدادات للحرب.......... 267

على الجبهة.......... 273

ملجأ الملازم رزقي.......... 281

موت الفريق الأول عبد المنعم رياض.......... 283

اللّواء الجزائري تحت نيران العدوّ..286
رادار السويس أو خبرة الإسرائيليين..289
الزحف نحو القاهرة..290
الاستنزاف بالمدفعية..291
العودة..293
المظليّون..294

الباب الرّابع
مشواري العسكريّة

مقدّمة..301
دورات الحياة الثلاث..306
أمثالة..308
النّاحية الثّالثة في عهد « البودينيات »..310
مهمّة في تندوف..312
« القصدير »..314
تندوف، عرض حال..316
الخط التوجيهي..318
تحسّين الظّروف المعيشية..322
تقسّيم جديد لمجموع القوّات..324
بومدين والجيش الوطني الشّعبي..325
الأقدم في أعلى رتبة..327
الأشياء الّتي زاد بن جديد من تعقيدها..329
قائدا للنّاحية الثّالثة..330
الحسن الثّاني الداهية في التكتيك الحربي..335
الأجواء في تندوف..336
ماذا تعني الحرب..338
عملية « لامنتين »..338

تجربة تندوف......340
قائدا للنّاحية العسكريّة الخامسة......342
إعادة هيكلة......342
قائدا للأركان العامة......344
حرب التويوتا (1986-1987)......346
وزيرا للدّفاع......349
مسؤولية بن جديد......349
فهرس الأسماء......352

جيش التحرير الوطني

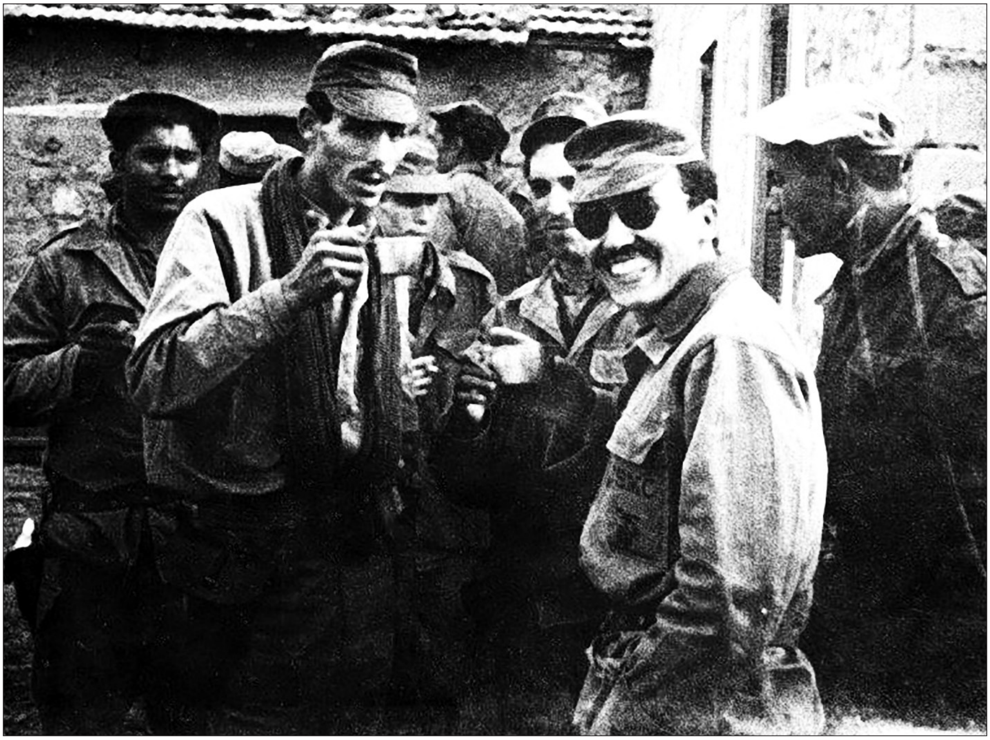

في اجتماع على الحدود الشرقية برعاية قيادة الأركان العامة.

على اليمين، مع المجاهد عبد القادر قارة (جيش التحرير الوطني).

ضباط جزائريون مع القائد الفلسطيني غازي (في الوسط) والملازم المصري سماعين (على اليمين)،
ضابط اتصال في اللّواء الجزائري (على اليمين).

الجنرال مصطفى شاهين، عن يميني، في وجبة غداء نُظِّمت بمناسبة زيارة العقيد أحمد بن أحمد عبد الغني.

العقيد أحمد بن أحمد عبد الغني في زيارة تفقّدية للّواء الجزائري على الجبهة المصرية.

الأول عن يساري، الجنرال القائد العام للفرقة المدرَّعة الثانية.

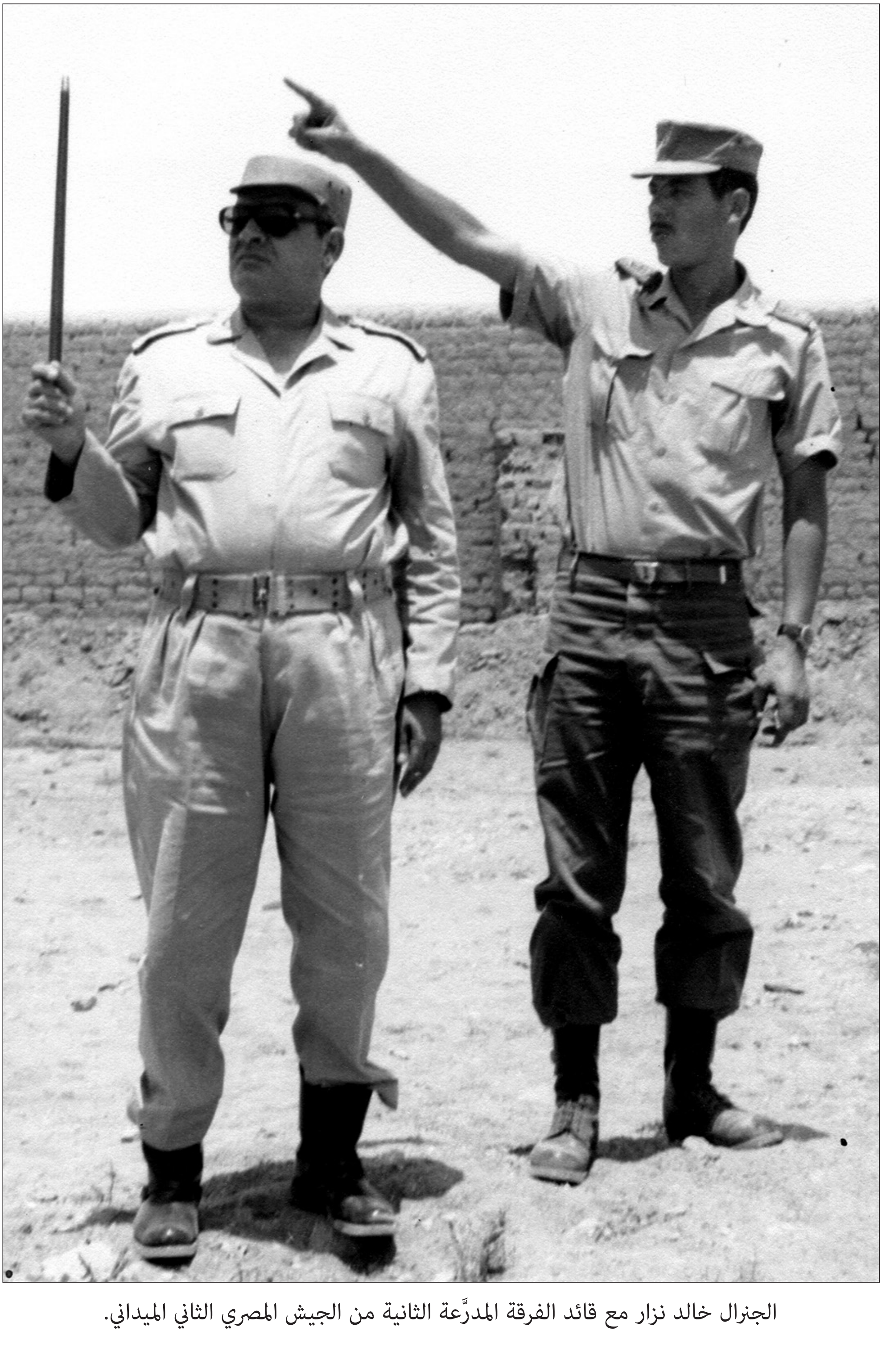

الجنرال خالد نزار مع قائد الفرقة المدرَّعة الثانية من الجيش المصري الثاني الميداني.

من اليمين إلى اليسار : سي أحمد جنوحات، نائب قائد الفيلق 25، خالد نزار بالقشابية، ضابط الولاية الخامسة وقائد المنطقة الحدودية الشمالية، سي عبد الرحمن بن سالم.

من اليمين إلى اليسار : غيدوشي أحمد المدعو "القبايلي"، الرابع على اليسار سبتي زمولي.

خالد نزار، في المقدمة على اليمين، مع كتيبة مدافع 75 ملم دون تراجع بقيادة عبد القادر سناني المدعو "برجيلات".

الجالس في الوسط، بوطرفة الفاضل، قائد الفيلق 11. على اليمين، بوهرارة قدور. الواقف، بوجمعة المروكي.

في الوسط : خالد نزار، برفقة الشاذلي بن جديد قائد المنطقة الأولى، وعبد القادر قارة، وسالم جوليانو، وصالح الورجيني، وعدد من مديري التنفيذ في المنطقة.

خالد نزار (الجالس الثالث من اليمين)، برفقة كتيبة المدافع 57 ملم.

ما تبقى من كاف الهواري الذي تعرض لقصف هائل من القوات الجوية الفرنسية
بعدما فشل الجنود الفرنسيون في خرقه إلى حمام سيدي طراد.

لمتارس، مكان ولادة خالد نزار.

نصب تذكاري لحدادي عبد النور وسراي أحمد ورفقائهم الّذين استشهدوا في ميدان الشرف.

نصب تذكاري لحيدوش ورفقائه الّذين استشهدوا في معركة بين واد سيبوس ومدينة عنابة.

السهم يشير إلى معبر كوموندو حيدوش في واد بوناموسة قرب عنابة.

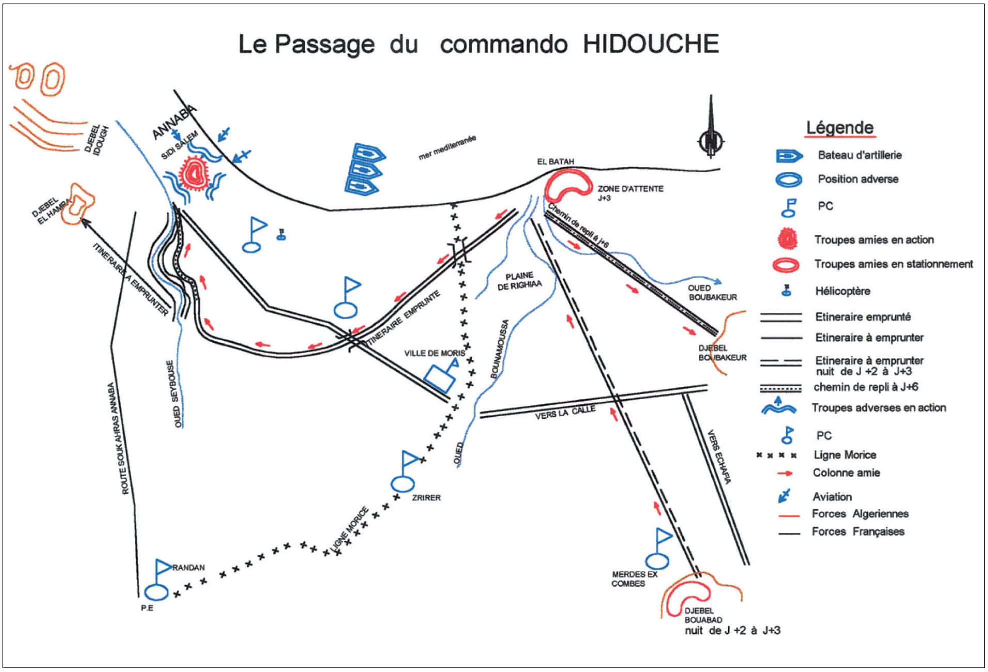

رسم تخطيطي يبين عبور كوموندو حيدوش.

قسم من السلك الشائك الكهربائي، خط شال، الجانب الشرقي (تونس).

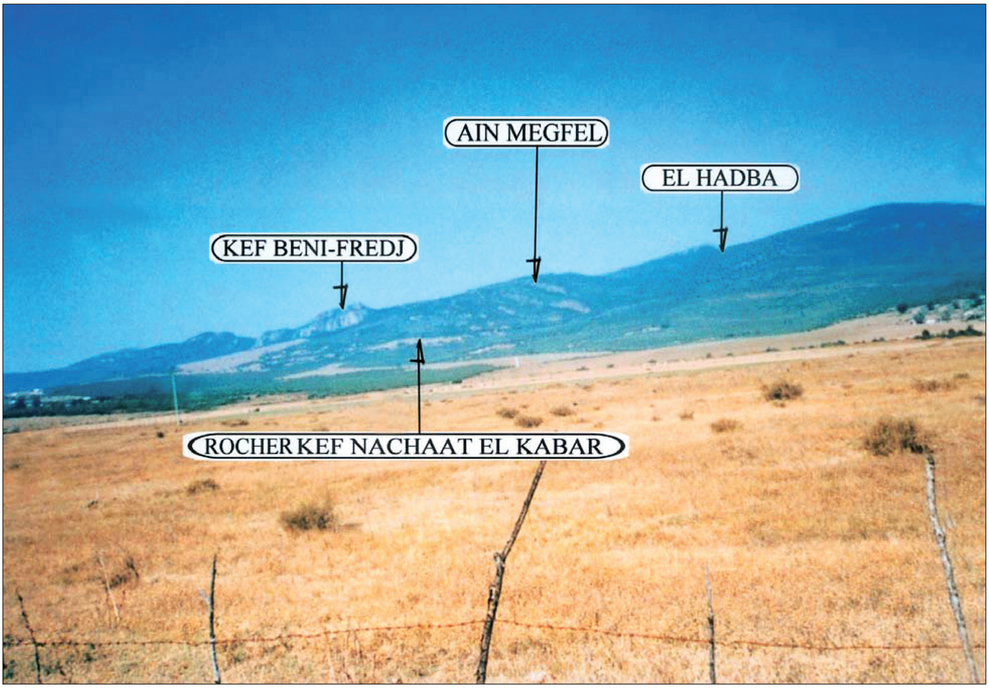

عن بُعد، مرتفعات جبل بوعابد.
الأسهم تبين مواقع الكتائب في معركة بوعابد.

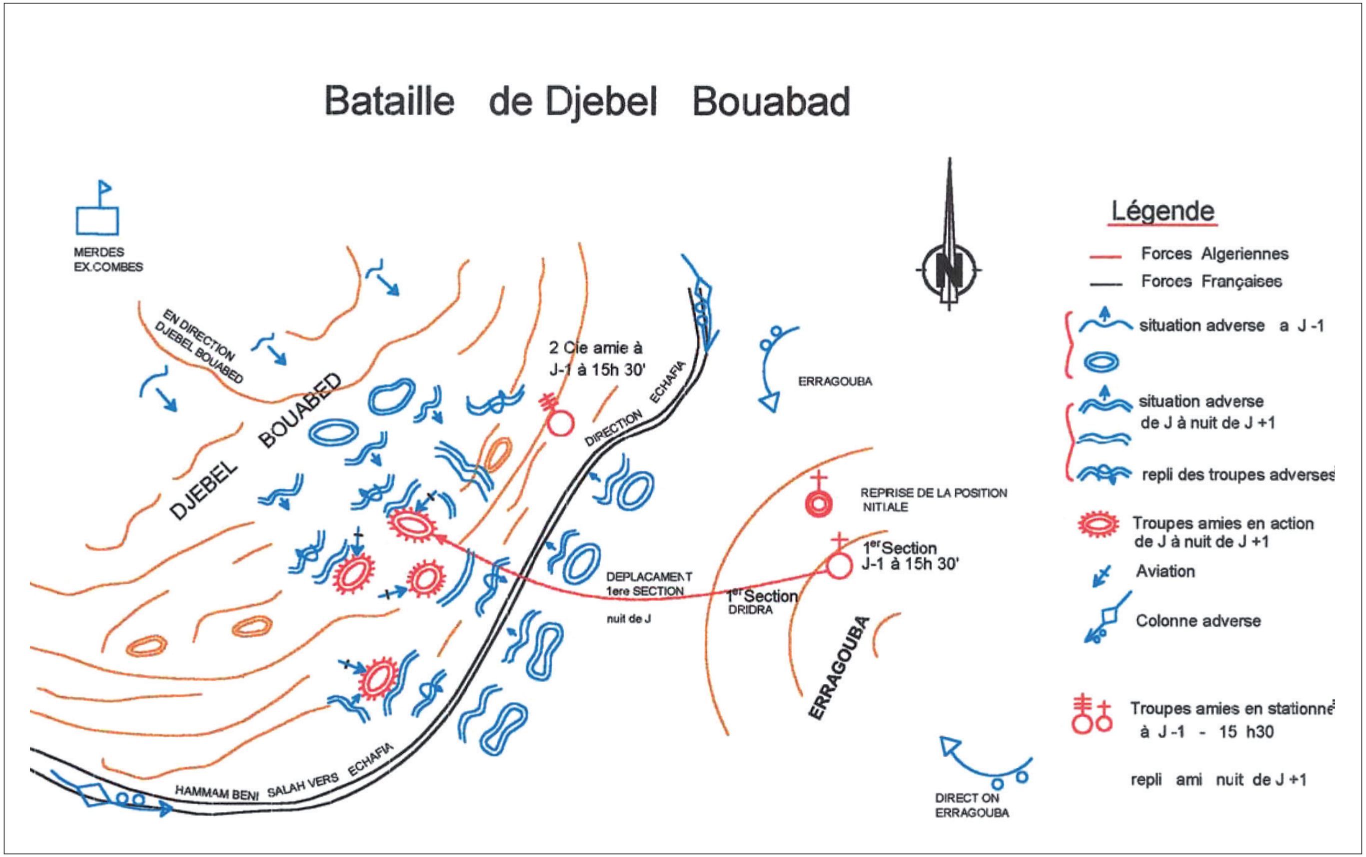

رسم تخطيطي لمعركة جبل بوعابد.

Trancon de la ligne challe entre ain el kerma (ex meunier) et souk ahras

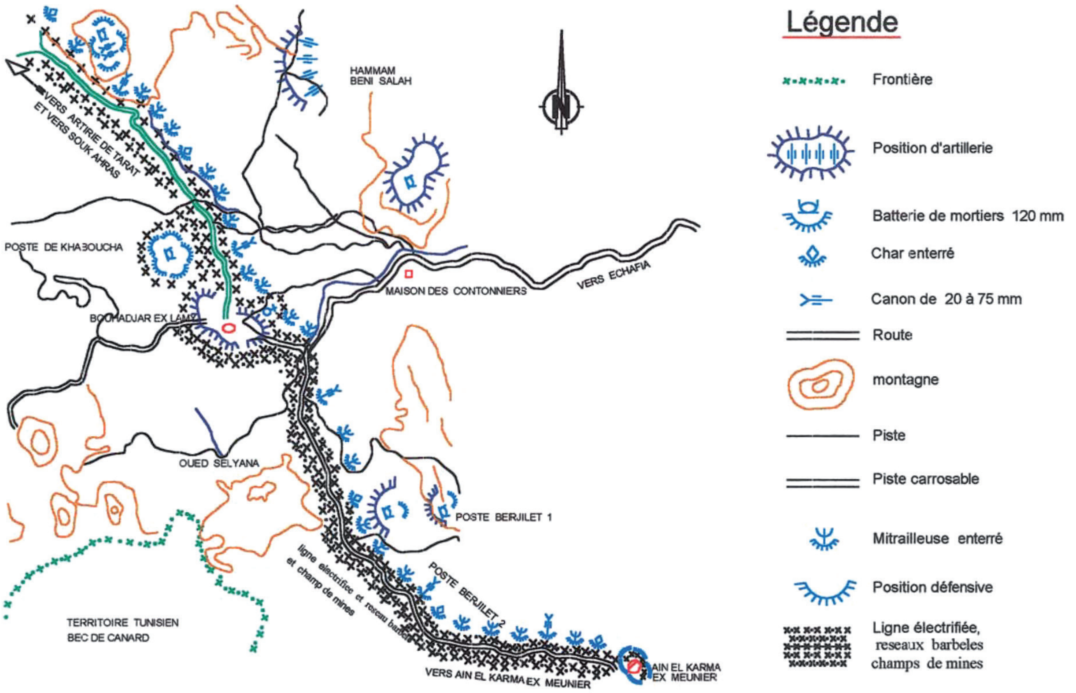

منطقة بشار، فترة استراحة بعد التمرين.

استقبال الشاذلي من طرف سكان سريانة إثر افتتاح مصنع الذخيرة،
وقد تملّك الضحكُ الجميع بعد كلمات الترحيب التي ألقتها خالتي الطاوس.

وزير الدفاع التونسي الذي استُقبِل بعد الحل النهائي لمشكلة رسم الحدود الجزائرية التونسية.

الوفد الليبي وعلى رأسه قائد القوات البرية في سبتمبر 1987.

خالد نزار سنة 1970.

مع القذافي، في الخيمة.